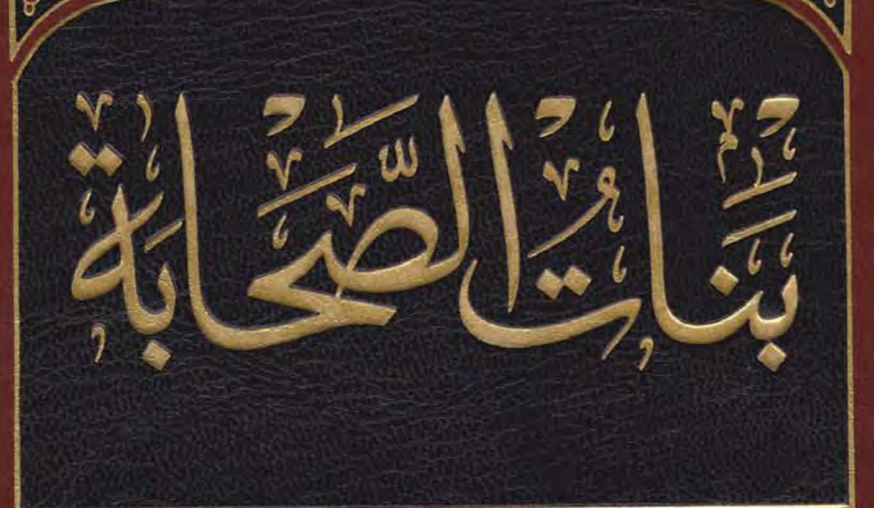






بنات الصحابة



تأليف

أحمد خليل جمعة



اليمامة

للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق - بيروت

بسم الله الرحمن الرحيم

من وحي الذاكرة

بقلم الأستاذ
يوسف علي بديوي

الحمدُ لله وكفى ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبي المصطفى ؛ الذي وفَّى ووَفَى .

أما بعد :

فما زلتُ أذكر ـ ما حييتُ ـ أوَّلَ كتابٍ أطلعني عليه الصديق الحبيب أحمد خليل جمعة ، وكان من تأليفه ، وقد كتبه بخطِّه الجميل ، وعنوانه : «نساء مبشرات بالجنة» ؛ فلاقى الكتابُ مكانته الأثيرة في نفسي ، وتبوَّأ ممنوعَ القلوب ؛ بأسلوبه الأدبي الرائق ، واستقصائه في جَمْع المادة العلمية ، وحُسْن اختيار الموضوع ؛ في زمنٍ حرون ، يعزُّ على كثيرٍ من الناس أن يكتبوا مثله ، وإنْ تعدَّد صانعو الكلمة ، ومُدبِّجو القول ، فليس كلُّ من ادَّعى شيئاً امتلك ناصية بلاغته ، فالظنونُ أوهام ، والأماني بضاعة مزجاة ، ويبقى القولُ الفصلُ لمن آتاه المولى عز وجل حُسْنَ الكلام ، وحكمة البيان ، ودقَّة الانتقاء .

وقد أخجل صديقي الطيب تواضعي؛ عندما ظنَّ بي خيراً ، فأسند إليَّ مراجعة كُتُبه التي يُؤلِّفها ، وإبداء الملاحظات عليها ، ومناقشة أفكارها ، ومنهجها ، وتبويبها ، ثم تصحيح تجارب الطباعة.

وقبلت طلبه بعين الرضا ، ووَجَل المقَصِّر؛ إذ عاينتُ رواءً أدبياً شجيّاً ، وأسلوباً نديّاً ، كالصبح إذا تنفَّس ، أو كنقع الغليل بعد ظمأ شديد في مَهْمَهٍ بعيد.

وتتالت السنون ، واشتدَّ ساعدُ صديقي الطيب. . . أستغفرُ الله ، فقد وُلِد قوياً ، كبيراً ، قائماً على سوقه ، فازداد قوة على قوة ، وكان فَضْلُ الله تعالى عظيماً ، فتتابعت الطبعات ، وكثرت المؤلَّفات ، ومعظمها يجري وَفْقَ سُنَّةٍ مُحدَّدة ، وهي تربية النساء ، وتوجيههن؛ من خلال إطلاعهن على سِيَر السلف الصالح؛ اللواتي كُنَّ القدوة الحسنة في مجالات الخير ، والصلاح ، والعلم ، والإيمان ، ومحبة الله ورسوله. . . فلا غرو إن قلتُ: إنَّ الأستاذ أحمد خليل جمعة مُرَبٍّ فاضل بتعليمه ، مُوفَّق في تسديده ، فجزاه الله سبحانه خيراً فيما يخطّه يراعُه من توجيهٍ رشيد؛ عبر رحلةٍ شاقة ـ ولكنها شائقة ـ ، من خلال مراجعة مئات المصادر والمراجع في كلُ مؤلَّف ، ومن تدقيق الأخبار التي يحصل عليها ، والتمحيص بينها بدقّة المؤرِّخ ، وحصافة المحقق ، فكان صيدُه ثميناً ، وغِلاله وافرة ، وثماره يانعة ، تُؤْتي أُكُلها كلَّ حين ، فتكون بلسماً للجراح ، وتجد مكانها المستراح ، وتدفع الضعيف لتبقى الأحاديث الصِّحاح.

هذا الكتاب

والشيء الملفت للنظر في كتاب «بنات الصحابة» لمؤلِّفه الهمام أحمد خليل جمعة؛ أنَّ مؤلِّفه يدافع ببسالة عن المرأة ، ويقف إلى جانب الحقائق العلمية والتاريخية ، وينقض كثيراً من الأخبار الواردة؛ التي وقع كثيرٌ من الباحثين في شَرَكها ، وعطَّلوا تفكيرهم ، فأرخوا لها الزِّمام؛ لتنأىٰ بهم عن

رؤية الحق الصُّراح ، وتتركهم أسارى بيد بعض المصادر غير الموثوقة ، والتي تجمع بين الغثّ والسمين في آثارها وأخبارها .

وامتشق الأستاذُ أحمد خليل جمعة يراعَ المحامي عن الحقيقة ، وحَشَد حيثياته التاريخية ، وعدَّته المنطقية ، ودلائله العلمية ، وزجَّها في أتون المعركة الأدبية ، وراح يصاول ببراعةٍ مدهشة آراء الباحثين ، ويضعها على سندان الحقيقة ، ويطرقها بمطارق العقل والوقائع الثابتة ، فكانت النتائج مثمرة ، حيث استبعد كثيراً من المرويات ، ونقض مزاعم المفتريات ، فحطَّم الشبهات ، وعقَّب عليها بالقول الفَصْل ، والنقاش الحي ، وبيَّن تخبُّط بعض الدارسين في تقليدهم للآخرين ، ونهلهم من أقوالهم غير الثابتة واللامعقولة ، حيث حرَّفوا النصوص ، وتعمَّدوا المغالطة في دلالاتها ، وأغفلوا الحقائق ، وأثاروا الأفكار المدسوسة ، واعتمدوا على مصادر غير علمية ، فبدتْ تخرُّصاتُهم متهافتةً تحت سطوة البراهين القاطعة ، والبينات الساطعة .

ومَنْ يقرأ ردودَ المؤلِّف على أولئك الدارسين ، يجد أن الأستاذ أحمد خليل جمعة ينافح عن بنات الصحابة ضد المتقوِّلين منافحة العارف ، ومحبَّته لكشف الزيوف ، فاتَّضحتْ مشاعرُه اللاهبة ، وأحاسيسه العميقة المحِبَّة للصحابة الكرام ، فهم الصورة المثلى للمسلم ، والنموذج الصالح للقدوة الحسنة ، وكلُّ تعكير لصفو تلك الصورة ، إنما هو تشويه لتاريخنا الإسلامي والعربي ، فبُوركتْ تلك اليد التي تزيح الضَّباب ليتبدَّىٰ الصفاء ، وتعري الأوهام ليتَّضح الجلاء ، وبُورِك فِكْرٌ ينتقي الصورة المشرقة لتاريخنا ، ويعرضها في هذا الزمن؛ كي يقتدي بها الناس؛ في سلوكهم وحياتهم ، فيعود لنا مجدُنا التليد ، وماضينا المجيد ، وترفرف رايات العزّ ، وبنود المجد خفّاقة من جديد .

وقد جمع الأستاذ أحمد خليل جمعة في كتابه هذا بين أسلوب المؤلِّف الرائق ، وبين منهج المحقق الحصيف ، ففي كل ترجمةٍ يلحظ الدارسُ ثبتاً

بأسماء المراجع المختلفة المشارب ، مع تحديد رقم الجزء والصفحة ، وهي مصادر ومراجع قيِّمة ، أصيلة ، أساس ، تفتح المضمار على رحابته أمام المستزيد ، والراغب في التوسُّع أو التوثيق.

كما يقع الباحثُ على جُمْلة أمور جديرة بالالتفات إليها ، والإشارة بالبنان إلى ملامحها وصُواها ، ومِنْ ذلك:

١ ـ يشير المؤلف ـ زاده الله عملاً بعلمه ـ إلى لفتات بارعات ، يستخرجها من بطون الكتب ، ويصطادها بعد بحثٍ ودأب ، وبعضها يصوغه صياغة خاصَّة ذاتية من بنات أفكاره ، ووحي ذاكرته ، وسماعه من الآخرين ، ومن خلال أسفاره ورحلاته ، فيأتي بالعجب العجاب ، وكأنَّ القلم ينثال في يده كانسياب الماء الرقراق في جدول متدفق ، كقوله: إن عفراء بنت عبيد لها خصيصة لا توجد لغيرها ، هي أنها ولدت أربعة رجال من البكير بن ياليل الليثي ، وثلاثة من الحارث بن رفاعة البخاري ، فانتظم لها سبعة أولاد ، كلهم شهدوا بدراً!

٢ ـ كانت حواشي الكتاب معرضاً متنوعاً لمختلف أنواع المعرفة ، ففيها التفسير الصحيح ، والانتقاء من الأحاديث النبوية ، والأحكام الفقهية ، وتصحيح كثير من الأخبار والآراء؛ إلى جانب التعريف بالأعلام ، والتعليق على خبرٍ هنا وآخر هناك ، علاوةً على الإحالات ، والعزو ، والتدقيق ، وقراءة ما وراء السطور؛ بروح العالم ، وفَهْم المؤرخ ، ومحاكمة الفقيه ، وشَرْح اللغوي ، وكل ذلك يُساق في أسلوبٍ سهلٍ مُيسَّر؛ لتقريب المادة العلمية ، ومساعدة القارىء في الوصول إلى فَتْحِ آفاقٍ وأبعاد للنص الوارد.

٣ ـ استخدم المؤلِّف ـ زاده اللهُ معرفة ـ التعابير الأدبية البليغة ، واستفاد من قراءاته ومحفوظاته الشعرية ، وأتى بها في مكانها المناسب لمضمون الأحداث ، وهذا أمرٌ أراه جديراً بالتسجيل ، ولَفْتِ النظر؛ ذلك أنَّ كثيراً من المترجمين للشخصيات يكتفون بعرض الوقائع ، وسَرْدها سرداً جافّاً ، بحيث يملُّ القارىء ، وتصعب عليه المتابعة ، لكن الأستاذ أحمد خليل جمعة

استطاع ـ بخبرته ، ومنهجه المتفرِّد ـ أن يدفع السأم والملل ، وينتقل بالقارىء من روضةٍ غنَّاء إلى أحسن منها ، فكان التَّنوعُ في العرض ، والإتيان بالشواهد ، والقصص ، والأخبار ، يجعل النفس تتابعُ سيرة الشخصية بيسرٍ وسهولة .

٤ ـ ومن الجدير بالذكر أنَّ المؤلِّف ـ أثابه الله تعالى ـ قام بشرح الكلمات الصعبة الواردة ، وذلك بالرجوع إلى المعاجم وكُتُب غريب القرآن والحديث ، ودوَّن تفسيراتها حسب المقام ، وهذا العمل يُوضِّح النص ، ويفيد القارىء ، ويجعله يُتابع رحلة القراءة بكل يُسْرٍ ، دون صعوبة أو غموض .

٥ ـ كان الأسلوبُ رائقاً ، يضجُّ بالصور ، والتصاوير ، مع قوة العبارة ، وجزالة اللفظ ، في تضافرٍ مع البلاغة ، وإضفاء حسِّ الحركة على النص ، ومن ذلك قوله : تتثاءب فيه الحياة مسترخية خامدة . وقوله : راحت تستنشق من رذاذ الإيمان ، وتستروح من ريحانه . وقوله : سجَّل في أوراق الأيام أبدع سطور المجد والعز والدفاع عن الإسلام .

٦ ـ امتلك المؤلفُ قدرةً فائقةً على إيراد جُملٍ مسجوعة ، ومترادفة ؛ بما يُحلِّي الكتابَ بِحلَّةٍ قشيبة ، فيها الجمالُ والجلال ، والحُسْن البهي ، كقوله : أفاض هذه البركات ، وأتىٰ بهذه الخيرات . وقوله : عُرِف معظمُ الصحابة بسحر البراعة ، وبراعة سحر الخطاب .

وتُعَدُّ مقدمةُ الكتاب شاهداً حيَّاً على صحة ما أذهب إليه ، فهي تأسر النفس ببلاغتها ، وتأنُّقها ، وصورها الخلاَّبة .

٧ ـ خَرَّج المؤلِّفُ ـ زاده الله عِلْماً ـ الأحاديث النبوية من مظانِّها الحديثية ، وهذه محمدةٌ في الكتاب ؛ إذْ يقف المطالِعُ على توثيق الأحاديث ، فيطمئنُّ إلى صحة ما يقرأ ، لا سيما إذا كان الحديثُ موجوداً في الصحيحين أحدهما أو كليهما .

٨ ـ يُورد المؤلِّفُ نقولاً كثيرة عن العلماء والحكماء والمصنِّفين القدامىٰ ؛

تعزيزاً للأفكار الواردة ، وتوضيحاً للمعاني الرائدة؛ بما يهب الكتابَ وضوحاً ، وتألُّقاً نفيساً؛ وهذا يُرسِّخ الفكرة ، ويُعطيها رواءً وتأسيساً ، فهو ينقل عن الأئمة: ابن حجر ، وابن قيِّم الجوزية ، وابن الأثير ، والطبري ، والقرطبي ، وابن سعد ، وابن كثير ، وغيرهم كثير. ولا يكتفي بالمؤلِّفين القدامى ، بل يربط الماضي بالحاضر ، فيذكر أقوالاً للمحدثين.

٩ ـ يمتحُ المؤلِّف من معين التاريخ بما يفيد البحث ، ويأتي بالفائدة المرجوَّة ، فنقل ما قاله الفاسي في شفاء الغرام (١/ ٤١٥) من أنَّ أهلَ مكة يغسلون موتاهم بماء زمزم إذا فرغوا من غَسل الميت وتنظيفه؛ تبرُّكاً به ، وأنَّ أسماء بنت أبي بكر الصِّدِّيق غسلت ابنها عبد الله بن الزبير بماء زمزم.

١٠ ـ لا يعدم المؤلِّفُ وسيلةً للتعليق في الحواشي؛ بما يُغني الكتابَ بفرائد التعليقات ، والتعليقات الفريدة ، والتحقيقات المهمَّة؛ في مختلف فنون العلم؛ كعلم القراءات ، ففي ترجمة (أسماء بنت يزيد) أورد لها حديثاً رواه الإمام أحمد بسنده عن شهر بن حوشب ، عن أسماء ، قالت: سمعتُ رسُولَ اللهِ ﷺ يقرأ: ﴿ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ﴾. وقد نَقَلَ المؤلف في الحاشية أن يعقوب والكسائي وسهلاً قرؤوا في رواية ابن مهران (عَمِل) بكسر الميم وفتح اللام؛ فعلاً ماضياً و(غيرَ) بالنصب ، مفعول به ، أو صفة لمصدر محذوف ، أي: عمل عملاً غير صالح. والجملة خبر إنَّ. قال الأخفش في كتابه (المعاني: ٢/ ٥٧٨): وبه نقرأ.

١١ ـ كانت العناوينُ الجانبية في كل ترجمة تُهيِّئُ القارىءَ للولوج في عالمٍ جديد من سيرة الشخصية المترجَم لها. وهذه العناوين تدلُّ على قدرةٍ خاصَّة في تلخيص الأفكار ، والتعبير عن المعاني. ولنقرأ بعضها: من عرين الأنصار. من دوحة الفضائل والندى. زينب في أحضان الزهراء. في ظلال المكارم. أصلٌ يُطاول الثريا.

١٢ ـ يردُّ المؤلِّفُ كثيراً من الشبهات التي حيكتْ حول هذه الشخصية أو تلك ، وكان ردُّه منطقياً ، يجمعُ بين النقل والعقل ، ويعتمد على المحاكمة

والاستقراء والاستنتاج ، فيظفر ببغيته ، ويُقدِّمها للقارئ بأسلوب سهل ، وكلمات ميسورة ، ومن ذلك أنه ـ أثابه الله تعالى ـ دَفعَ ما وضعه الإخباريون عن سكينة بنت الحسين ، وتلقَّاه الكُتَّابُ وكأنه شيءٌ مُسلَّم به ، غير قابل للطعن أو النقض ، فجعلوا بيتها مألفاً للمغنين ، وقالوا عنها بأنها كانت تؤثر ترفيهَ الناس؛ بما تُقدِّمه إليهم من مُتَع الحياة والغناء ، حتى إنَّ الدكتور زكي مبارك جعلها نزقةً ، طائشة ، تُؤْثِرُ الخِفَّةَ على الوقار ، وتهوى أن يُخَلَّد حُسْنُها في قصائد الشعراء! فيردُّ عليه المؤلِّف ردَّاً مُفْحِماً؛ بِما لا يتركُ مجالاً للشك ، فأزال الوهم ، وصحَّح المفاهيم ، وجلَّى كبد الحقيقة.

الأستاذ أحمد خليل جمعة في المرآة

جَمَعتني مع الأستاذ أحمد خليل جمعة أمسياتٌ عديدة ، تبادلنا فيها أطراف الحديث ، وأجابني عن كثير من الأسئلة ، فكان أن لَخَّصْتُها في خمسة عشر سؤالاً ، مع إجابتها ، وهي تعطي صورة صادقة عن الأستاذ المؤلف؛ بما يجعل القارىء الكريم يُكوِّنُ فكرةً عن حياة أحمد خليل جمعة ، وهي تفيدُ مترجمي الأعلام في مستقبل الأيام ـ أمدَّ اللهُ تعالى في عمر المؤلِّف ، وبارك فيه ، ونَـفَع بمؤلَّفاته وكتاباته ـ. وإليكم الأسئلة مع إجاباتها:

السؤال الأول: يرجى التكرُّم بإعطاء معلوماتٍ عن البطاقة الشخصية؟

* الاسم الكامل: أحمد خليل إبراهيم جمعة.

سنة الولادة: ٢٦/ ٥/ ١٩٥٣ م.

مكانها: دمشق ـ حرستا.

السؤال الثاني: حبذا لو تحدَّث الأستاذ أحمد خليل جمعة عن والده ، وأسرته ، ومكانتها ، وأشهر رجالها ، مع ذِكْر أهمِّ أعمالهم ، والإشارة إلى المبرزين منهم ، وتأثيرهم في حياته.

* الوالد خليل إبراهيم جمعة ، كان ـ رحمه الله ـ أحد رجال حرستا

البارزين المعروفين بين أهل البلد ، وكان من المجاهدين القدماء ، وكان يُجيد أكثر من لُغة ، وعُرف بذكائه وكلماته وحكمه ، وقد سافر إلى أكثر من بلد ، من مثل: روسيا ، بلغاريا ، تركيا ، وعددٍ من البلاد العربية.

وكانت والدته [جدتي] فاطمة الخطيب واحدة من نساء عصرها اللواتي كن يعرفن القراءة والكتابة ، كما كانت كثيرة التلاوة لكتاب الله عز وجل ، كان والدي ـ رحمه الله ـ يحدثني كثيراً عنها وعن معارفها وعلمها ، وذلك لأنني لم أدركها ، إذ توفيت قبل ولادتي بزمن طويل.

وأما الأسرة [آل جمعة] فهي من الأسر المرموقة المعروفة في حرستا ، يمتاز رجالها بجمال الطلعة والطول الفارع ، بالإضافة إلى أن معظمهم من كبار المتعلمين ، حيث فيهم الطبيب المتخصص ، والمهندس ، والطيار ، والبحّار ، والأديب ، والمفكر ، والمدرس الناجح ، وهم معروفون بأسمائهم بين أهل البلد.

وكان لوالدي ـ رحمه الله ـ أثر كبير في حِكَمه وتجاربه المفيدة التي يمليها عليَّ كيما أستفيد منها في حياتي ، كما كان محبوباً بين الناس.

وأما والدتي فيعود لها فضل جسيم علي ، إذ كانت تعطيني بعض النقود وأنا في بداية المرحلة المتوسطة [الإعدادية] وكنت أشتري الكتب؛ حيث كنت نهماً في المطالعة.

السؤال الثالث: ما المكونات الثقافية للأستاذ أحمد خليل جمعة؟

* تخرجت في جامعة دمشق من كلية الآداب تخصص لغة عربية ، ثم سافرت بضع سنين إلى الكويت حيث درستُ هناك سنتين [دراسات إسلامية] (قرآن ، وحديث) ومارست تدريس التربية الإسلامية واللغة العربية في المرحلة المتوسطة والثانوية. واستفدتُ كثيراً من بعض الأساتذة والعلماء الكبار في الكويت ومنهم: د. محمد فوزي فيض الله وهو أحد الأعلام الكبار ، وكان له أثر كبير في تحصيلي العلمي.

أما من العلماء القدماء ، فكلهم قد استفدت من كتبهم ، ولكن الذي أثَّر في ثقافتي هو الإمام الذهبي ـ رحمه الله ـ صاحب كتاب [سير أعلام النبلاء] و[تاريخ الإسلام] وغير ذلك من الكتب النافعة ، فالذهبي له كثير من الآراء العظيمة في رسم الشخصيات التي يترجم لها ، ناهيك بتعابيره الجميلة التي تزيدُ الشخصية حلاوة وطلاوة.

كما أنني تأثرت كثيراً بالنووي وابن كثير وقبلهما الطبري وغيرهم من كبار العلماء الذين أثروا الحضارة بالعلم والمعرفة.

ومن المكونات الثقافية أيضاً أنني كنت أقوم برحلات علمية ضمن محافظات سورية وأستفيد من العلماء الذين ألتقيهم.

وأما الأسفار ، فقد كانت كثيرة ومتنوعة في عدد من العواصم العربية ، غيرها من المدن ، وقد التقيت عدداً من كبار الأدباء والشعراء والعلماء في كثير من الندوات الثقافية ، كما استفدت كثير من مكتبات بعض الأفاضل في سورية والسعودية والكويت والأردن.

كما استفدتُ كثيراً من مكتبة صديقي الوفيّ الأستاذ المحقق: يوسف بن علي بديوي؛ حيث عززتُ ثقافتي الحديثية من مكتبته الخاصَّة العامرة الزاهرة.

السؤال الرابع: يرجى أن تتحدَّث عن أدوار الكتابة ، والمحاولات الأولى ، ومراحل الإبداع الأدبي والعلمي في نشأتها.

* الحديث عن الكتابة وأدوارها ممتع شائق ، حيث إن حبَّ الكتابة قد صاحبني منذ نعومة أظفاري ، فقد بدأت بكتابة المذكرات منذ نهاية المرحلة الابتدائية فالقصص القصيرة وجمع الأشعار الرائقة.

ولما اجتزت المرحلة الثانوية فالجامعية كنت أمارس كتابة القصة القصيرة وأنشر ذلك في عدد من الجرائد والدوريات والمجلات في عدد من البلاد العربية.

وذات مرة قال لي أحد الأدباء: لماذا لا تكتب عن أعلام الصحابة بأسلوبك الشائق الرائق؟!

وبالفعل بدأت الكتابة في مجال تراجم أعلام الصحابة ، وكانت بداية موفقة أقبل عليها جمهور القراء بنهم وشغف ، وهذا من فضل الله ومَنِّه عليَّ.

ومنذ أن بدأت في التعامل مع الصحابة والصحابيات أقلعت عن كتابة القصص والمقالات الأدبية والاجتماعية ، فقد وجدت في عالم الصحابة والسيرة النبوية بغيتي ومبتغاي.

ومن الجدير بالذكر أنَّ بعض كتبي كانت قد أُعدت لتكون حلقات في بعض الإذاعات العربية ، ولكنَّ ظروفاً قاهرة حالت دون ذلك ، فظهرت في كتب مستقلة ، وكُتب لها القبول ، على أنَّ بعضها قد أُذيع وخصوصاً كتاب: نساء من عصر التابعين.

السؤال الخامس: ما أهمية الكتاب في حياتك ، والكتاب الأول الذي قرأتَهُ ، والذي ألَّفته ، مع ذِكْر أهم خمسة كتب أو مؤلِّفين لهم دور رائد في فكرك ، وتأثير في نفسك.

* كان للكتاب أهمية كبيرة في حياتي العلمية ، حيث كنت أقف كثيراً أمام المكتبات وأنظر إلى الكتب وإلى عناوينها ، وكانت الكتب رخيصة الثمن حيث كان ثمن الكتاب ليرتين أو أقلّ.

* وأما أول كتاب قرأته فلا أذكر عنوانه ، ولكن هناك بعض الكتب والروايات التي كنت أقرؤها وأنا صغير ، وأذكر أنني قرأتُ للمنفلوطي وقرأت كذلك بعض السير الشعبية الشهيرة مثل: سيرة عنترة ، والأميرة ذات الهمة ، وحمزة البهلون وغيرها.

* وأول كتاب ألفته هو كتاب: رجال مبشرون بالجنة ، ثم تلوته بكتاب نساء مبشرات بالجنة.

وهناك كتب لها كبير الأثر في نفسي ، ومنها: كتاب: سير أعلام النبلاء

للذهبي ، وكتاب: تهذيب الأسماء واللغات للنووي ، والسيرة النبوية لابن هشام ، وتاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ، والإصابة لابن حجر وغير ذلك كثير كثير لا يحصى ، وكان لهذه الكتب ولمؤلفيها أثر كبير في نفسي حيث تعلمت الميزان الصحيح للشخصية التي أكتب عنها.

السؤال السادس: ما أسباب اهتمامك بتراجم النساء خاصة؟ هل كان ذلك مصادفة ، أم قراراً ذاتياً أم تلبية لطلبٍ معيَّن؟ اذكر الدوافع التي حَدَتْ بك للسير قُدُماً في هذا الاتجاه ، فلماذا التركيز على المرأة؟

* هذا السؤال أتعرَّض له كثيراً في الندوات وفي اللقاءات العديدة: ما سبب اهتمامك بتراجم النساء؟!

والجواب عن هذا السؤال أقول: إن الذين ترجموا للمرأة من القدماء والمحدثين لم يكن همُّهم منصباً على سرد حياتها ، وإنما كان جلّ اهتمامهم ينصب على تراجم الرجال ، خذ مثلاً كتاب: الطبقات الكبرى لابن سعد حيث يقع في ثمانية مجلدات ، وقد أفرد منه جزءاً واحداً للنساء ، وكذلك كتاب الاستيعاب وأسد الغابة والإصابة ، وكذلك كتاب سير أعلام النبلاء وشذرات الذهب ، وتاريخ مدينة دمشق ، بل وتاريخ بغداد ، والعقد الثمين ، كل هذه المصادر أفردت جزءاً يسيراً منها للحديث عن المرأة ، علماً بأن المرأة كان لها دور عظيم في بناء الحضارة والمعارف على اختلاف أنواعها وألوانها.

من هذا المنطلق بدأت الحديث والاهتمام بالمرأة في عالمي العرب ، والإسلام ، بل والقرآن ، فقد صنفت كتاباً عنوانه: «نساء الأنبياء في ضوء القرآن والسنة» وكانت له مساحات واسعات في نفوس القراء في جميع أنحاء الوطن العربي ، بل والعالم ، وقد تلقيتُ كثيراً من الرسائل تطري هذا الكتاب الذي تعرض لحياة نساء الأنبياء في ضوء القرآن والسنة ، وقد انتفع به كثيراً من الخلق ـ والحمد لله ـ.

وألفت كذلك كتاباً كان ذا أهمية عظمى في نفسي ، وفي نفوس القراء ،

وهو كتاب: نساء أهل البيت في ضوء القرآن والحديث ، حيث فصلت فيه الحديث عن نساء النبي وبناته وسراريه وحفيداته ، وقد لاقى هذا الكتاب القبول في أوساط القراء ، ومن فرط شهرة هذا الكتاب صار بعض الناس يقول: نساء أهل البيت لأحمد خليل جمعة ، وعند التعارف مع بعض الأدباء والعلماء كان بعضهم يعرفه بقوله: هذا مؤلف كتاب نساء أهل البيت. وهذا من فضل ربي والحمد لله. ثم ألفت كتباً أخرى من مثل: نساء من عصر النبوة ، ونساء من عصر التابعين ، ونساء من التاريخ ، ونساء في قصور الأمراء ، والمرأة العربية في الأندلس بين الحقيقة والخيال وأمهات الصحابة وغير ذلك من كتب النساء التي اطلع عليها القارىء الكريم ومنها هذا السفر المبارك [بنات الصحابة] التي توجّتُ فيه الحديث عن المرأة في خير القرون ، وسلكت فيه نهجاً فريداً وأسلوباً رقيقاً رائقاً ، وصححت كثيراً من المفاهيم التي ينبغي أن تصحح كيما تكون صور بنات الصحابة واضحة المعالم ، صحيحة الملامح.

ومن أسباب اهتمامي بالتراجم النسائية ما أراه من فائدة في هذا المجال السهل الممتنع ، حيث إن كثيراً من الشخصيات النسوية قد أصبحت قدوة لنساء عصرنا ، وقد شجعني على ذلك ما أتلقاه من مكالمات ورسائل حول هذا الموضوع ، فقد أكرمني الله بإخراج كتاب [نساء من عصر النبوة] حيث كان كتاباً بكراً في مجاله استفادت منه بنات حواء ، ناهيك بالرجال ، وشداة العلم.

السؤال السابع: كيف تلقّى القرّاء كتاباتك؟ وما موقفك من آرائهم التي سمعتها؟

* من إكرام الله وكرمه ومننه أن القراء في جميع أنحاء الوطن العربي قد تلقوا كتبي بالقبول ، وأخذت كتب الثناء تنهال علي من الشرق والغرب ، تطري ما أكتب وتشجع وترحب وخصوصاً بالأسلوب المندى بالأدب. وأما

الناقدون فكانت آراؤهم تحمل النصيحة في بعض الهنات التي يقع فيها الكتّاب.

وأحبُّ أن أقول في هذه المناسبة: إن عدداً من المؤلفين [الذين يسطون على الكتب] قد سطوا على كتبي حرفياً، وهناك أحدهم في قلب الجزيرة العربية قد سطا على ستة كتب من كتبي، ومنها كتاب: رجال مبشرون بالجنة حيث سمى كتابه «صور من سير الصحابة» ونقل كتابي بحذافيره، ويبدو أن هذا الرجل قد أحب كتبي حباً جماً!! فاقتبس كتابيَّ: نساء مبشرات بالجنة، وكتاب: نساء من عصر النبوة وجعلهما تحت عنوان: «صور من سير الصحابيات»، ومن شدة إعجاب هذا الفارس القنّاص بكتبي، فقد سطا على معظم كتابي «فرسان حول الرسول» وأذاع فصولاً منه في واحدة من الإذاعات العربية بعنوان: من شهداء الإسلام.

كما أن بعض فرسان السطو في بلدي قد أغار على كتابي «نساء مبشرات بالجنة» ولشدة إعجابه بالكتاب لم يغير عنوانه، وإنما عبث فيه بعض العبث.

ومن العجيب أن بعض أذكياء فرسان السرقة قد سرق كتابي [المبشرون بالنار] وجعل عنوانه: «أعداء النبي» وهذا المعتدي هذه المرة كان من أرض الكنانة.

كما أنني فوجئت بأحد هؤلاء القوم وزوجته قد غزوا عدداً من كتبي، وهي: نساء مبشرات بالجنة، ونساء من عصر النبوة، ونساء من عصر التابعين، وجعلا ذلك تحت عنوان آخر، ووضعا اسميهما فوق العنوان.

وهذا المجال واسع وكبير، ويدلُّ على محبة الناس لكتبي ـ والحمد لله ـ وإنه ليسرني ذلك لو نَسبَ هؤلاء ما يهيمنون عليه إلى المصادر التي أخذوا منها؛ ونرجو الله أن يلهمهم ذلك، وألا يزدادوا غيّاً في سلوك هذا الطريق الذي سيفضحهم يوماً ما.

أمّا عن آراء القراء لكتاباتي فكانت بحمد الله تحمل في أردانها الثناء العطر، والنفحات العطرية الطيبة، وكان معظمهم يسأل المزيد من هذه

الكتابات ، ويسأل كذلك عن الجديد ، وكان بعض المحبين يحمل إلي آراء الناس وإعجابهم بما أكتب ، وكنت أسأل عن الأخطاء التي أقعُ فيها كيلا أستمر أسيراً فيها مرة أخرى ، إذ كل إنسان خطاء.

السؤال الثامن: ما الكتب التي ترغب بتأليفها ولم تؤلِّفها بعد؟ أو أنت بصدد الإعداد لها ، وستظهر قريباً؟

* هذا السؤال من الأسئلة المهمة في عمل الباحثين ، وهو من الأسرار عند معظمهم ، ولكني بحمد الله أحبُّ أن تنتشر الحكمة والنفع بين الناس على ظهر الأرض ، فهناك كتب أعمل لإصدارها في وقتٍ غير بعيد وهي: رجال أهل البيت ، ورجال من عصر النبوة ، والطب في ضوء القرآن والسنة والأدب ، وهذه الكتب قيد الإعداد بالإضافة إلى كتب أخرى ومنها: الرزق في ضوء الكتاب والسنة ، والحب في القرآن والسنة والأدب ، والرضا وغير ذلك. وهناك بعض المؤلفات ستكون هدية ومفاجأة لمحبيَّ من القراء ، وكلها تحمل الجديد والمفيد بإذن العزيز الحميد.

السؤال التاسع: كُتُبك كلها مفيدة ، ولكن هناك ـ برأيي ـ عدة مؤلفات لها تميُّز خاص ، ككتاب: «نساء من التاريخ» و«بنات الصحابة». حاول أن تتذكر عملية الإبداع في هذين الكتابين ، أو غيرهما ، كما جَرَتْ معك ، فهل عاشت معك تلك العملية الإبداعية قبل التأليف ، أم بزغتْ إشراقاتها وقت التأليف فحسب؟ يرجى الحديث بالتفصيل عن تطور الإبداع الكتابي ، ونضوجه منذ أن كان الكتابُ فكرةً ، حتى تحوَّل إلى مُصنَّف مستقل حيّ.

* بالنسبة لهذا السؤال ، فإن الإجابة عنه لا تُحصر في هذه العجالة ، حيث إنني كنت أكتب هذين الكتابين وأنا أرسم الشخصيات بكل الحب والإعجاب ، اقرأ مثلاً سيرة آمنة بنت وهب التي افتتحت بها كتابي «نساء من التاريخ» فقد وجدتني أعيش معها لحظة ، وكثيراً ما كانت دموعي تمتزج بالكتابة لشدة حبي لهذه الشخصية ولشدة انسجامي مع أحداثها ، حتى إن

الذين قرؤوا الكتاب انتابتهم المشاعر نفسها ، وأحبوا شخصية آمنة بنت وهب أم سيدنا وحبيبنا محمد ﷺ.

ويجد القارىء الكريم صدق المشاعر وهو يمضي في قراءة هذين الكتابين: نساء من التاريخ ، وبنات الصحابة ، كما سيجد الإبداع الذي صاحبني ؛ وأنا منهمكٌ في نظم سيرهن.

أما عن الإبداع ، فقد كان متموجاً ، فأحياناً أجدني أكتب وكأن الإلهام يأخذ بيدي ، ويسطر ، ويرسم الشخصية ، وأحياناً أكون مستلقياً فتنثال علي الأفكار والعبارات فأقوم وأسجل ما يمرّ بخاطري ، وأحياناً أجدني أقلب المصادر ، فأجد بغيتي فيها. وعلى العموم فعملية الإبداع متكاملة قبل التأليف وخلاله ، ولا يستطيع الكاتب أن يفصل كل مرحلة عن أخرى ، حيث إن إلهام الإبداع يأتيه في السحر أو في الليل ، وأحياناً في طريق السفر ، لذلك فإنني غالباً ما أحتفظ بورق وقلم في جيبي ، وعندما يأتيني الإلهام أسطر ما تجود عليَّ به القريحة ، وأحياناً يمتدُّ هذا إلى بضع صفحات ، وقد حدث معي هذا مراراً وتكراراً في كثير من الكتب.

السؤال العاشر: إذا كانت العملية الإبداعية تتطور عندك أثناء الكتابة ، فهل أنت الذي تمارس هذا التغيير ، أم تحسُّ بأن الأمور تجري هكذا بعيداً عن متناول يدك ، ويبقى الانثيالُ والانسيابُ الكتابي يجري على أعنَّته ، وأنت تشهد آثار ذلك التطور الإبداعي؟ أي: هل الكتابة عندك: إلهام أم فِعْل إبداعي؟

* الكتابة عملية إلهام وإبداع ، وكلما قرأتُ أكثر نما وتطور الإلهام والإبداع ، ففي هذا الكتاب بناتِ الصحابة كنت أجدني مرخياً لقلمي العنان عندما أسترسل في رسم شخصية ما ؛ لتظهر صورة بنت الصحابي كما أريد لها من الإشراق والصحة والكمال.

وعملية الإبداع الكتابي تكون مصاحبة للكتاب الذي أصنِّفه ، وكثيراً ما أشعرُ بالانثيال والانسياب الكتابي يجري على أعنته وخصوصاً إذا استطعت

أن أجتاز عقبةً أو أصحح مفهوماً ، أو آتي بتحليل جديد للشخصية التي أتحدث عنها ، أو عن الموضوع الذي أتحدث عنه ، كما في كتابيّ «الحياء والجار» من سلسلة : آداب إسلامية .

وأحياناً تكون الكتابة عملاً إبداعياً؛ كما صنعت في كتابي «علماء الصحابة» الذي سيصدر قريباً بعونه تعالى .

السؤال الحادي عشر: كيف تكتب؟ هل لك عادات معينة؟ غرفة خاصة ، قلم خاص ، ورق خاص ، فنجان قهوة . . . . ثم أيساعدك الليلُ أكثر أم النهار للإبداع في الكتابة؟ . . . . الخ .

* كيف أكتب؟! ليس هناك طريقة محددة للكتابة إلا أنني أضع الخطوط العريضة للموضوع الذي أود كتابته ، وأما عن العادات في الكتابة فليس هناك أيضاً عادات معينة ، ولكنني أكتب في أغلب الأحيان وأنا متوضىء ، ومستقبل القبلة .

وأستخدم في الكتابة القلم الجاف في المسوَّدات ، والقلم السائل عند التبييض ، كما أستخدم الورق الأبيض المصقول عند الكتابة .

وعند ممارسة الكتابة أتناول أحياناً المكسَّرات ، أو أشرب القهوة ، وأحياناً الحليب . . .

وأما الوقت ، فلا يهم إذا كان ليلاً أو نهاراً ، وإنما أكتب حينما أجد الرغبة لذلك ، لكن أكثر أوقات الكتابة تكون في الليل ، أو في الأسحار على وَجْه الخصوص .

السؤال الثاني عشر: ما العلاقة بين اهتمامك بهذا النوع من التأليف ـ تربية المرأة والحديث عن السلف الصالح النموذج كقدوة وأسوة ـ وبين حياتك الواقعية ، وما يجري فيها من وقائع؟ وإذا كانت هناك صلة يحسُّها أحمد جمعة فليتحدث عما يشعر به إزاء الواقع ، ومحاولة إصلاحه بالتأليف في هذا الميدان .

* لا شك بأن الحاضر هو امتداد للماضي ، وإن نساء الماضي هن قدوة لغيرهن ، ومن خلال ممارستي للكتابة عن المرأة وعن تربيتها ؛ ألفيتُ أن في وقتنا الحالي نساء يحببن أن يكن كنساء الرعيل الأول ، ولقد لمست بنفسي كثيراً من الفضليات المعاصرات في بعض البلاد والعواصم التي زرتها من ذوات أعمال البر والإحسان ، وهن كثيرات والحمد لله ، وقد وجدت في دمشق وفي السعودية عدداً منهن ممن لهن أيادٍ بيض في مجال الفضائل والخيرات والمبرات ، ولذلك كنت أشير في بعض حواشي الكتب إلى ذلك ، فالمجتمع ـ والحمد لله ـ فيه كثير من الصالحات ، ومن العالمات ، ومن حافظات كتاب الله ، ومن اللواتي يحببن العلم والعلماء ، ويعملن على نشر كل فضيلة ، ولعل المثل الذي يقول : [لو خليت خربت] هو مصداق لما نقول ، فكل زمان فيه من الصوالح ما يزيِّنه .

السؤال الثالث عشر : بعد الانتهاء من مسوَّدة الكتاب ، أَتُبيِّض الكتابة وَفْق المسوَّدة؟ أم تزيد وتُنقص ، وتغير وتبدل في ضوء ما يستجدّ من أفكار؟ اذكر أمثلة على ذلك .

* بعد كتابة الكتاب غالباً ما أتركه مدة من الزمن عاماً أو بعض عام ، ثم تبدأ عملية التبييض ، وكثيراً ما يخضع التبييض لعمليات تغيير ، حيث أزيد في بعض الفقرات ، وأحياناً أحذف بعض الكلمات أو الجمل ، ليكون العمل أجمل ، وكثيراً ما تأتيني بعض الأفكار الجديدة وأنا أبيِّض ، فأكتب ذلك ، وفي هذا الكتاب أمثلة كثيرة على ذلك ، كما في سيرة أسماء بنت أبي بكر ، وسيرة زينب بنت علي ، وعائشة بنت طلحة ، ورملة بنت الزبير ، وغيرهن .

السؤال الرابع عشر : أنت تكتب الشخصية الواحدة أكثر من مرة ، فكيف تستطيع أن تُكرر عملية الإبداع مرة ومرة ، دون أن تُحسَّ بالملل أو السآمة . ما الإضافات التي تحاول أن تزيدها على الترجمة في المرة الثانية أو الثالثة؟ ولماذا لا تكتب الشخصية الواحدة متكاملة لمرة واحدة وكفى؟ وهل

في هذا تكرار ، أم إعادة صياغة ، أم تجديد إبداعي؟ أم إظهار للمقدرة التأليفية والإبداعية؟

* هذا السؤال قد طُرح عليَّ أكثر من مرة ، بأنني قد أكتب الشخصية الواحدة أكثر من مرة.

والجواب عن هذا السؤال أقول: لستُ مبتدعاً هذا المنهج بل اتبعتُ فيه السلف الصالح من علماء الأمة ومنهم الذهبي ، فهو مثلاً قد ترجم للشخصية نفسها في [سير أعلام النبلاء] وفي [تاريخ الإسلام] و[تذكرة الحفاظ] وغيرها وكل مرة تجد نَفَساً غير النَّفس الآخر.

وبالنسبة لي عندما أكتب عن المبشرات بالجنة مثلاً أجدني أتحدث في هذا المضمار وعما قدمته هذه الشخصية حتى استحقت البشارة بالجنة ، وعندما أكتب عن الشخصية نفسها في بنات الصحابة أكتب بطريقة أخرى وأنفاس أخرى ، وكأنني أتعرض للكتابة عنها للمرة الأولى ، فلا يشعر القارىء بذلك ، بل يقرأ هو الآخر كلاًّ من الترجمتين وكل واحدة تُفْصح عن مجالها ، فمثلاً شخصية أسماء بنت أبي بكر في نساء مبشرات بالجنة تختلف عن شخصيتها في بنات الصحابة ، فقد ذكرتُ دورها في بنات الصحابة ، كابنة لأشهر صحابي على الإطلاق وعن مكانتها بين بنات الصحابة كما ذكرت معلومات يقرؤها القارىء للمرة الأولى في مجال بنات الصحابة ودورهن. وكذلك يجد القارىء هذا الفارق في جميع الشخصيات المتكررة ، وأعتقد أن هذا العمل يحتاج إلى جهد وإبداع أكثر ، وبالطبع يحتاج من المؤلف إلى الرجوع إلى مصادر كثيرة ، ومراجع عديدة؛ لتكون الشخصية موافقة للعنوان الذي يطرقه.

وأما بالنسبة للإجابة عن سؤالك: لماذا لا تكتب الشخصية الواحدة متكاملة لمرة واحدة؟! فالجواب: إن شخصيات عصر الصحابة ذات جوانب متدفقة في مجالات كثيرة ، ولا يستطيع الباحث أن يغطي الشخصية في عدد من الصفحات ، وأن يلمَّ بجميع الجوانب في ورقات معدودات ، أما إذا كان

الحديث مثلاً عن العلم ، أو الفروسية أو أي مجال آخر ، فيمكن للكاتب أن يبدع في هذا المجال ، وهذا ما أجده في كتاباتي المتكررة للشخصية الواحدة.

وأستطيع أن أضرب لك مثلاً عن شخصية عبادة بن الصامت ، فهذا الصحابي يمكن أن تتحدث عنه في باب علماء الصحابة ، ويمكن أن تتحدث عنه في فرسان الصحابة وفي الفاتحين ، وكذلك في المبشرين بالجنة ، وفي الدعاة وفي مجالات كثيرة ، فهو شخصية ذات فضائل كثيرة ، وكذلك تجد من الشخصيات النسوية لها كثير من مجالات الفضائل في العلم والرواية والجهاد والتربية وغير ذلك.

السؤال الخامس عشر: إذا كانت عندك أسئلة أخرى تودُّ الإجابة عنها ، فاذكرها ، وأجبْ عنها.

* لدي ثلاثة أسئلة ، وسأجيب عنها ؛ فأقول:

أ ـ ما حكمتُك المفضَّلة؟

* في الحقيقة ليس هناك حكمة بعينها ، وإنما أجدُ بعضَ الحقائق في الحكمة الشهيرة: «احذروا صولة اللئيم إذا شبع ، والكريم إذا جاع».

ب ـ ما الأشياء التي تكرهها؟

أكره الحسد ، فهو أوّل ذنبٍ عُصِي اللهُ فيه في السماء ، وأول ذنبٍ عُصِي اللهُ فيه في الأرض ، ففي السماء حَسَد إبليسُ آدمَ عليه السلام ، وفي الأرض حَسَد قابيلُ أخاه هابيلَ ، فقتله ، فأصبح من النادمين.

ولقد لقيتُ كثيراً من الحساد في مسيرة حياتي ، وكنت أغض الطرف عنهم ، لأن مرضَ الحسدِ ليس له دواء ، أَلَمْ تسمع قول القائل:

كلُّ العداوةِ قد تُرجىٰ إماتَتُها ... إلا عداوةَ مَنْ عاداك من حسد

ومن العجيب أن بعض الحسَّاد كانَ يتتبع كتبي ، ويدَّعي أن فيها كثيراً من

الأخطاء والعيوب، والأعجبُ من ذلك أنه لا يحسنُ التعبير ، ولا يقيم سطرين.

ج ـ ما الكتاب الذي تحب أن تعود إليه دائماً؟

هناك عدة كتب أحبها وأقرأ فيها دائماً ، ومنها: محاضرات الأدباء للراغب الأصفهاني ، ووفيات الأعيان لابن خلكان ، وعيون الأخبار لابن قتيبة ، وغيرها كثير.

اللهم علمنا ما ينفعنا ، وانفعنا بما علَّمتنا ، وزِدْنا علماً يا أرحم الراحمين. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

دمشق في ٢٧/ رمضان/ ١٤١٩ هـ   يوسف علي بديوي

المقدمة

* الحمد للهِ الذي جعَلَ العقلَ مفتاحَ العُلُوم ، ومُدْرِكَ معاني المنطُوقِ والمَفْهُوم؛ وأَشْهَدُ أَنَّهُ الإلهُ الكريمُ المنَّان ، ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ١ ـ ٤] ، وأسبغَ عليهِ منَ الآلاء ما يعجزُ عنْ شكرِها اللِّسَانِ:

الحمـــدُ للهِ ذي الآلاءِ والنِّعَـــم ومُبْـدعِ السَّمْـعِ وَالأَبْصَـار وَالكَلِـمِ
مَنْ يَحْمَدِ اللهَ يَأتِيهِ المَزيدُ ومَنْ يَكْفُـر فَكَـمْ نِعَـم آلَـتْ إلَـىٰ نِقَـمِ

* أحمدُه ما انْسَكبَ قَطْرٌ ، وتنفَّسَ فَجْرٌ ، وتوقَّدَ قَبَسٌ ، وتَردَّد نَفَس.

* أحمدُهُ حَمْدَ مَنْ بجزَيلِ نِعَمِهِ اعترف ، وأَشكُرُهُ شُكْرَ مَنْ وَرَدَ مَنَاهِلَ فَضْلِهِ واغْتَرف:

الحَمـــدُ للهِ حَمْـــدَ مُعْتَـــرِفٍ بـــأَنَّ نُعْمَـــاهُ لَيـسَ نُحْصِيْهَـــا
وَأَنَّ مَـــا بِـــالْعِبَـــادِ مِـــنْ نِعَـــمٍ فَـــإِنَّ مَـــولَـــىٰ الأَنَـــامِ مُـــولِيْهَـــا
وأنَّ شُكْـــري لبَعْـــضِ أَنْعُمِـــهِ مِـــنْ خَيْـــرِ مَـــا نِعْمَـــة يُـــوالِيْهَـــا

* اللهمَّ أَلْهِمني منْ تحميدكَ وتَسْبيحِك ، والصَّلاةِ على رسولكَ الأمين ونصيحك ، ما يَشْغَلُ لِسَاني ، ويثقِّلُ ميزاني ، ويَبْسُطُ يومَ الفَزَعِ الأكبر منْ أماني.

* اللهمَّ اجعلْ ذِكْركَ وَحُبَّكَ وحبَّ نبيِّكَ ما أقطعُ بهِ آناءَ لَيْلي ونَهَاري ، وأُعَطِّرُ بِهِ آصَالي وأَسْحَاري ، واجْعَلْهُ ربِّ شِعَاري ودثَاري ، ومُنَىٰ رُوحي في إعْلاني وإسْراري.

* والصَّلاةُ والسَّلامُ علىٰ خاتَمِ الرُّسْلِ ، ونَاهِجِ السُّبُل ، وناسخِ جميع المِلَل ، ومُجْلي الظُّلْمَ والظُّلَمِ ، ومُحيي القُلُوب بنورِ الهدىٰ والحِكَم ، مَنْ كَانَتْ بَعثتُهُ مفْتَاحَ بابِ الخيرات ، وعنوانَ خَيرٍ للبَنِينَ والبَنَات ، وكَانتِ السَّبيلَ الموصلَ إلىٰ منْهجِ المبرَّات ، حيثُ: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٤] ، ومن ثم تؤدّي إلى روضَاتِ الجنَّات.

* اللهمَّ وفِّرْ حظِّي منْ شفاعَتِهِ ، وأَحْسِنْ عَوني على طاعتِكَ وطاعتِهِ ، واحْشُرني في عِدادِ زمرتِهِ وجماعَتِهِ ، واجْعَلْهُ لي شَفيعاً ، وتوفَّني على مِلَّتِهِ مُطيعاً ، إنَّكَ علىٰ ذٰلِكَ قَدير ، وبحقيقةِ دعائي عَليمٌ خَبير.

* صلَّىٰ اللهُ عليكَ يَا أَكْرمَ الأنبياء وَسَائِل ، وأَعْظَمهم فَضَائِل ، وأَعمَّهم فَواضِل ، وأَتَمَّهُم فَرائِض ونَوافِل ، فَقَلْبي بحبِّكَ مَعْمورٌ ومَأْهُول ، وعلىٰ الإيمانِ بكَ مَفْطُورٌ ومجبُول ، لا يدرِكُهُ في الصَّلاةِ عليكَ مَلَل ، ولا يَشْغَلُه عَنْ ذِكْرِ اللهِ سَهْوٌ وَلاَ خَطَل. و:

لأديمَنَّ مَديحَ المُصْطَفىٰ   فِعْلَ مَنْ في اللهِ قَوَّىٰ طَمَعَه
فَعَسَىٰ أَنْعَمُ في الدُّنيا بِه   وعَسَىٰ يَحْشُرُني اللهُ مَعَه

* عليهِ من لَطَائِفِ التَّسليم ، ما يربي على عَدَدِ النُّجومِ ، ويُزْري بِالْمِسْكِ الْمختوم ، ويَقْتَضي باتِّصَالِهِ واحْتِفَالِهِ رضْوَانُ الْحَيِّ القيوم.

* أمَّا بَعْدُ:

فَإِنَّ لِبَنَاتِ الصَّحَابةِ سُورُ فَضْلٍ تُتْلَىٰ ، ومحاسِنُ شَمائِلَ تُجْلىٰ ، وجَميلُ فَضَائِلَ تُعَادُ وتُبْدىٰ ، وعظيمُ مَجْدٍ يُكَرَّرُ ويُنْشَا ، فسِيرَهُنَّ أَندىٰ على الأكْبَادِ منْ نَسيمِ الصَّبَا ، وَأَشْهىٰ إلى النُّفوسِ منْ عُهُودِ الصِّبا ، فآياتُ مَجدِهِنَّ ظَاهِرَة ، وأَقْمَارُ سُؤْدِدِهِنَّ بَاهِرة ، تَتَحلَّىٰ الأَفْواهُ بأَخْبارهنَّ ، وتُشَنَّفُ الأَسْماعُ بِسِيرهنَّ ، فَهنَّ غُرَّةُ مَجْدٍ وَعَلاء ، وتَقَدُّمُ فَضْلٍ وَسَنَاء ، وَلَهنَّ شيمَةٌ لَمْ يُعْطِهَا اللهُ غَيرَهُنَّ منَ النِّساء ، إِذْ كَانَ آباؤُهُنَّ أَصحابَ سَيِّدِ الأَنبياء ، فورثْنَ منهم الْمَجدَ الوَضَّاء ، ذي الأَصْلِ الثَّابتِ والفَرعِ المتطاوِلِ في السَّماءِ ، فكُنَّ خَيِّراتٍ منْ خِيَارٍ ، وفُضْلَياتٍ من سَادةٍ نُجَباءَ أَخْيَار.

* وبنَاتُ الصَّحابةِ الطَّاهِرَاتُ الكريماتُ ، لم يَجِدْنَ مَيْداناً تَجْري فيهِ الفَضَائِلُ إلا كُنَّ فيه مُجليات ، ولا مَكْرُمَة فيها مرضاةٌ للهِ ورسولِهِ إلَّا كُنَّ سَابِقَات ، لِعِلْمِهِمْ بِما عِنْدَ اللهِ منَ النِّعم المُدَّخَرَات ، فقد كُنَّ ذَوَات فِطَنٍ وَهمم ، مَا منهنَّ إلَّا مشْرِفةٌ في العِلْمِ ذِرْوَةٌ في الكرم ، ولَهُنَّ مكارمُ لا تَحْتَويْهَا الغَمائِم ، وآدابٌ فوَّاحَةٌ كما تَفَتَّحتْ عنِ الزَّهْرِ الكَمَائِم.

* إنَّ أَحقَّ مَا انْبَسَطَ فِيهِ للحديثِ لِسَان ، وتَشَرَّفَ في مَيَادينِ مَعَانيهِ بَيانٌ وبَنَان ، الحديثُ عَنْ بَنَاتِ صَحابةِ نبيّ الرَّحمة ، الرَّسولِ المبعوثِ مُعَلِّماً للأُمَّة ، ولو صَرَفْتُ في الكتابةِ عَنْهُنَّ الأَنْفَاسَ كَلاماً ، والأَشْجَارَ أَقْلاماً ، لرأَيتَني مقصِّراً لم أبلغ ما أُريد ، بل أَسْأَل المزيدَ وأَسْتَزيد ، فَهُنَّ أَفْضَلُ نساءِ القرون علىٰ الإطلاقِ ، بِشَهادَةِ مَنْ بُعِثَ لِيُتَمِمَ مكارمَ الأَخْلاقِ ، فَقد كُنَّ شَمْسَ الزَّمَانِ وَبَدْره ، وسرَّ الإِحْسَانِ وجَهْرِهِ ، ومُسْتَودَعَ البَيَان ومُسْتَقَرَّه ، ولا أَدْرِي بأَيّ لَفْظٍ أُحَلِّي سِيَرهُنَّ ، وبأَيّ معنىً أَنْظِمُ فَضَائِلهنَّ ، فأَنَالَ بذلكَ حَظَّاً جَسْيماً ، ﴿ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ مَعَهُمۡ فَأَفُوزَ فَوۡزًا عَظِيمٗا ﴾ [النِّساء : ٧٣] ؛ و :

أَتَحْسَبَـه تَخْفَـىٰ مـآثِـرُهُ الحُسْنَـىٰ؟ هَبِ الرَّوْضَ لاَ يثْنِي عَلىٰ الغَيْثِ نَشْرُهُ

و :

يزْدَادُ في مَسْمِعي تردَادُ ذِكْرِهمُ طِيْبـاً وَيَحْسُـنُ فـي عَيْنـي مُكَـرَّرُهُ

* وكتَابُنَا هَذَا «بنَاتُ الصَّحَابةِ» يبرزُ في غَلائِلهِ ، كَالرَّبيع الطَّلْقِ فِي أَوَائِلهِ ، يَخْتَالُ في رِيَاضِهِ ، ويَرْوي المحبِّينَ منْ حِيَاضِهِ ، فَنَزِّهْ ـ عَزيزي القارىء ـ فُؤَادَكَ في زَهْرِهِ الجَنيِّ ، وَرَحيقِهِ الهَنيّ ، فَهُو ـ بإِذْنِ اللهِ ـ روضٌ مِعْطَار ، لا تملُّ صُحْبَتَه في لَيْلٍ أَوْ نَهار ، ففيهِ أَنواعُ الْفَوائِدِ ، وَروائِعُ القَلائِدِ ، حيثُ طُوِّقَ بِالْمَحاسِنِ طَوْقَ الْحمَامَةِ ، وشُحِنَ بِالْمنَافِع كَدرِّ الغَمَامَةِ ، وهو أُمْنِيَةٌ كانَ الْخاطِرُ يتمنَّاهَا ، وحاجةٌ في نَفْسِ يعقوبَ قَضَاها ، فَقَدْ تفتَّحَتْ أَكمامُه عَنْ أَزَاهِر الكلِم ، ونَشَرت طيَّاتُه عَنْ جوَاهِر الْحِكَم ، فَعَبَقُ نَسِيمِ بَلاغةِ بناتِ الصَّحابة يتضوَّعُ منْ مِسْكِهِ وكافُورِه ، بَما

تَقرأُهُ عنهنَّ منْ مَنْظُومِهِ ومنْثُوره ، فهو لمن تَأَمَّلَ درٌّ نثير ، ولمن تنزَّه روضَةٌ وغدير ، ولنسيمِ المعرفةِ فيهِ هُبوب ، ولكلِّ قَلْبٍ منْهُ نَصيب.

* وهذا الكتابُ لا يخلُو منْ فائِدةٍ فَريدة ، ونكْتَةٍ شَريدة ، ودُرَّةٍ مُسْتَخْرجَةٍ منْ قَاع البُحور ، ولؤلؤةٍ تزين بهَا قلائدُ النُّحور ، وفيهِ لطائفُ رقَّتْ وراقَتْ ، وفوائدُ علَتْ وفاقَتْ ، ومعارفُ تحتاجُ إليها بناتُ حوّاء ، كما يحتاجُها الرِّجالُ والنِّساء؛ لأَنَّهُ روضٌ قَدْ أَيْنَعت أَفنانُ رِيَاضِهِ ، ومُلِئَتْ بالآداب الرَّائقَةِ أرجاءُ حِيَاضِه ، فآدابُه فائِقَة ، وصفحاتُهُ بالحسنِ رائقَة ، و:

هذَا الكِتَابُ الذي لَوْ يَشْتَريهِ فتىً بِـوَزْنِـهِ ذَهَبـاً أَقْسَمـتُ لَـمْ يُلَـمِ
لأَنَّـهُ جَـامِـعٌ للخَيْـرِ قَـاطِبَـةً وَفيه ما فِيْهِ مِنْ خَيْرٍ ومِنْ حِكَمِ

* ولسْنَا نُروِّجُ لِكتَابنا بتلكم العباراتِ والكلماتِ ، وهاتيك المعاني التي هي أرقّ من النُّسَيمات ، وإنَّمَا هي نفحاتُ حبٍّ للصَّحابةِ نابعةٌ منَ الْقَلْب ، وهمساتُ صدقٍ أبتغي بها رضاءَ الرَّب؛ فقد كنتُ أجلسُ مع سِيَرِ بناتِ الصَّحابة إذا ما الليلُ عَسْعَس ، فما أشعرُ إلاَّ بالصُّبح قد تنفَّس ، وأنا مستغرقٌ بينَ الأَسْفَار ، أقلِّبُ الصَّفَحاتِ وأنتقي صحائحَ الأَخْبار ، وكنْتُ أشعُرُ بالسَّعَادة كلَّما رسَمْتُ سيرةَ واحدةٍ منْ بناتِ أولئكَ الصَّحابَةِ الأَبْرَار ، وجَليتُ صورتَهَا الصَّحيحة لتكونَ قُدوةً لذواتِ الْخِمارِ ، في عَصْرِنا وفي كلِّ الأَعْصار.

* وسيدركُ القارىءُ الكريمُ ويلمسُ الجهدَ الذي بذلتهُ ، كيما أَنْظِم سِيَرَ هؤلاء البَنَاتِ في أضواء الحقَائِقِ ، وفي أَوَّلها ضوءُ هَدي القُرآن الكَريم؛ الذي كان ربيعَ قلوبهنَّ ، والحديثُ النَّبويّ؛ الذي كان مُنىٰ نفوسِهنَّ ، وضوءُ الحقِ الذي كانَ دُنيا أَمَلِهنَّ.

* فقد جعلتُ هذا الكتابَ في ثلاثةِ أَقْسامٍ؛ قسمٌ تحدَّثْتُ فيه عنْ بَنَاتِ صحابةٍ كُنَّ منَ النَّجيبات العَالِماتِ الغَازياتِ المجاهداتِ ، ومِنْ عِدادِ الصَّحابياتِ اللواتي نِلْنَ شَرَفَ الصُّحْبَةِ ، وممن تركْنَ آثاراً كريمةً في مجالِ نصرةِ الإسْلامِ ، وتأييدِ دعوته ، مما قد يعجزُ عنه فحولٌ منَ الرِّجالِ في عُصورِ

غيرِ عصْرهنَّ ، فكُنَّ بذلك صحابيات منْ أبناءِ الصَّحابةِ ، رضي الله عنهم جميعاً .

* وقسمٌ منْهُنَّ لم يَكُنَّ صَحابيّات ، وإنَّما وُلدْنَ بعدَ وفاةِ النَّبيِّ ﷺ ، ومعظمُ هؤلاءِ قد رَوَيْنَ الحديثَ ، وكُنَّ منْ مَصَادِرِ العِلْم والمعرفةِ والأدَبِ ، حيثُ تركْنَ في الدُّنيا فضائلَ ومَكارمَ تشهدُ بمكانتهنَّ ، فقد نَقَلْنَ كثيراً منَ المعارفِ والعُلُوم إلى الأمَّة الإسلاميَة ، وكُنَّ مشَاعِلَ نُورٍ وهدايةٍ ، وقدوةٍ صالحةٍ للنِّساء .

* وقسمٌ ثالِثٌ لم أجدهُنَّ بينَ بِناتِ الصَّحابةِ ، بل هُنَّ مَزْعُومات ، قد افترىٰ بعضُ المُفْتَرينَ والمغرضينَ فأَلْصقُوهنَ بالصَّحابةِ ، كيما ينالُوا منْ سِيرهنَّ وسِيَرِ آبائهنَّ بذلكَ الافتراءِ وذلكَ الْبغي؛ وقد أشرتُ إلى ذلك إشارةً واضحةً في ترجمةِ اثنتَيْنِ منَ المزعُومَاتِ .

* ولقد حرصتُ الحِرصَ كلَّهُ في القسمَيْن الأَوَّلَيْن أنْ أرسمَ صورهنَّ مع ما يتوافقُ مع مكانتهنَّ وفضلهنَّ ، وأنْ أشيرَ إلى آثارِ كلِّ واحدةٍ منهنَّ في فضائلَ شتَّى . كما أنّني تعرضْتُ إلى كثيرٍ منَ المفاهيم الخاطئة التي عَشَّشَت في الأذهانِ ، ثم باضتْ وفرَّختْ ، وأصبحتْ عند كثيرٍ منَ النَّاسِ حقائقَ لا جدال فيها .

وليقرأ منْ أراد سيرةَ زينبَ بنتِ عليّ ـ رضي الله عنهما ـ حيثُ يجدُ بعضَ الخُطَبِ المنسوبةِ إليها؛ وبعضَ الأَخْبَارِ التي أُلصِقَتْ بسيرتها ، والتي لا تنسجمُ مع جَلالةِ قَدْرِها ومكانتِها بين بناتِ الصَّحابة ، وقد حاولتُ قدْرَ المستطاعِ أن أنفيَ الأَوهَام التي رانَتْ على سيرَتها ، وأنْ أشيرَ إلى الصَّحيحِ في ذلك ، وخصُوصاً عنْ مكانِ وفاتِها .

* وفي رحلةِ تصحيح المفاهيم والأوهامِ التي عَلقَتْ بالأذهانِ عن بعضِ بناتِ الصَّحابةِ ، تحدثْتُ عمَّا شَاعَ منْ أحاديثَ مكذوبةٍ على سكينةَ بنتِ الحُسين بنِ عليّ ، وعنْ منتدياتها الأدبيَّة ، وعن لقائِها مع كِبَارِ شُعراء عَصْرِها ، وإعطاءِ كُلِّ واحدٍ منهم مبالغَ خياليّة ، ثم تعرضْتُ لعَدَدٍ منْ أقوالِ

القُدماء والمعاصرين فيها ، وصحَّحتُ ما وهموا فيه ، وأشرتُ إلى بَعْضِ الأَخْطاءِ التي ارتكبهَا بعضُ المعاصرينَ في سيرةِ سُكينةَ ، وكيفَ قاسَ سيرتَها ببعضِ الشَّهيرات في عَصْرِهِ ومِصْرِهِ ، وأَشرتُ إلى أوهامه وعَثَراتِهِ ، وقد نسيَ أنَهُ يتحدَّثُ عن واحدةٍ منْ أشهرِ بناتِ الصَّحابةِ الأطهارِ الأخيارِ الأبرار. كما أشرنا إلى مكانِ وفاةِ سُكينة ، وأشرنا إلى الأوهامِ التي اعترتْ كثيرين ، وظنّوا أنَّها مدفونةٌ ـ مع عمَّتها زينب بنت علي ـ في بلادهم ، حيثُ شيَّدوا المساجدَ باسْمِها وجدَّدُوها ، وكتبُوا علىٰ جدرانها الآياتِ الكريمةَ ، والأحاديثَ النَّبويَّةَ ، والأشعارَ الرَّائقةَ ، والتَّواريخَ المتكَلَّفَة ، ظنّاً منهم أنَّهم بذلك يحْسِنُون صنعاً؛ وهم وإنْ كانُوا يَصْنعُونَ ذلكَ بحسنِ نيَّة ، إلا أَنَّهُمْ يخالفُونَ حقائقَ التَّاريخِ والواقع ، وهذا غيرُ مقبولٍ في ميزان العِلمِ.

* وأمَّا عائِشةُ بنتُ طلحة ، فقد رسَمْنا صورتَها الحقيقيّة كما ينبغي ، وخَلَّصْنَاها منَ الشَّوائبِ التي عَلِقَتْ وأُلْصِقَتْ بسيرتها؛ ولعلَّ سيرتَها في هذا الكتابِ كانت من أحْفَلِ سِيَرِ بنَاتِ الصَّحابة ، فقد تحدَّثْتُ عَنْ نشأَتِها وسيرتِها العِلْميةِ وتربيتها في بيتِ النُّبوَّة في بيتِ خالتها أمِّ المؤمنين عائشةَ بنتِ سيِّدنا أبي بكْرٍ رضي الله عنهما؛ ثمَّ تعرَّضْتُ إلىٰ دَفْعِ الأَوْهَامِ في سيرتها ، وبيان وتبيّن صورتها بشكلٍ صحيحٍ يتناسبُ معَ جلالَة قدْرها ومكانتِها في عالم بناتِ الصَّحابةِ العالماتِ ، وأَشرتُ إلى خَطَرِ كلماتِ الوضّاعين عنها وعن مثيلاتها منْ بناتِ الصَّحابةِ الكرام ، وكنتُ بذلك أدلُّ علىٰ الدَّاءِ الذي لَحِقَ بسيرهنَّ ، وأشيرُ إلىٰ الدَّواءِ النَّاجعِ الذي يُبْعِدُنا عنْ هاتيكم الأَدْوَاء.

* وقد تعرضتُ فيما تعرَّضْتُ له في هذه الموسوعةِ إلى بعضِ تلكم الشَّخصيّاتِ المزعومةِ المنسوجةِ المُلْصَقَةِ في عالَم بنَاتِ الصَّحابةِ ممن ليس لهنَّ وجودٌ في الأَصْلِ ، وإنَّما هنَّ مُخْتَلَقَاتٌ قد وَضَعَ وصَاغَ شخصياتِهنَ بعَض الوضَّاعين لحاجاتٍ مريضةٍ في نفوسهم؛ وهذا ما يلمسهُ القارىءُ الكريمُ بنفسه وهو يستعرضُ ذلك.

* ولقد حرصتُ أن يخرجَ هذا الكتاب بصورةٍ صحيحةٍ لبناتِ الصَّحابةِ اللواتي كُنَّ القدوةَ لكلِّ النِّساء.

* ولقد عدتُ إلى مئاتِ المصادرِ القديمةِ، ومئاتِ المراجعِ الحديثةِ، ليكونَ عَملي أقربُ إلى الصِّحَّةِ والكَمالِ، وبذلكَ أكونُ قد خدمتُ عَصْرَ الصَّحابَةِ الوضيءِ بهذا الجهدِ المتواضِعِ الذي أرجو فيهِ ومن خلالهِ مرضاةَ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ.

* وكانَ القرآنُ الكريم هو المعين الرئيس والأوَّل الذي كانَ عليهِ اعتمادي، وهو موردي، فهوَ الكتابُ العزيزُ الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فُصِّلَت: ٤٢].

* وبعد كتاب اللهِ وهَدْيِهِ، كانتْ مصادرُ علوم القُرآنِ بأنواعِها بينَ يدي، حيثُ فيها ما يبلُّ الصَّدىٰ ويشفي الجوىٰ، ثم جَعَلْتُ التَّفاسيرَ بأنواعِها قديمها وحديثها نصْبَ عيني، وفي مقدمتها: تفسير الطَّبري والقُرطبي وابن كثير، ومنَ التَّفاسيرِ الحديثةِ: تفسير القاسميّ وغيره.

* وكانت كتبُ الحديثِ النَّبوي وشروحاتها في المرتبةِ الثَّانية التي تلي القُرآنَ الكريم وعلومَه، حيث كان في مقدمتها الصَّحيحان، يليهما كتب السُّننِ الأربعةِ والموطّأ والمسانيد وغيرها من كُتبِ الحديثِ وعلومه. ولقد أفدتُ كثيراً منْ كُتبِ الحديثِ هذه، حيثُ ساعدتْ في توضيح كثيرٍ من ملامح شخصيّاتِ بناتِ الصَّحابةِ اللواتي نقرأُ عنهنَّ في هذا السِّفْر المبارك، إذ يزيدُ ذلك من رصيدهنَّ العِلْميّ والفِقْهيّ، فقد كُنَّ ناقلات لكثيرٍ منَ الأحكامِ والخصوصيَّاتِ التي تفيدُ النِّساء عُموماً في عُصورهن، وما تَلاها منْ عُصُور، بالإضافةِ إلى أنهنَّ أثريْنَ كثيراً مصَادرَ كُتُبِ الأحكامِ التي عليها مدارُ الإسلام.

* ولما كانتْ كُتب الفقهِ رافداً ثَرّاً من روافِدِ العِلْمِ، واجتناءِ المعرفةِ، فَقَدْ كانَ لها في موسوعتِنا هذه نَصيبٌ وَافرٌ، حيثُ أبْحرنا معهَا واقتنصْنَا كثيراً مِنَ الجَواهِرِ والدُّرر التي رصَّعْنَا بها جِيْدَ هذه الموسوعةِ الميمونةِ التي نَأْمَلُ أنْ تفيدَ في إثراءِ المكتبةِ الإسلاميَّةِ النِّسويّةِ، وتفيدُ بناتِنَا ونسَاءِنا في أرجَاءِ المعمُورة.

* وَأَمَّا كتبُ التَّراجمِ والطَّبقاتِ فقد كانت لبّ ولباب موسوعتنا هذه ، كما كانتِ الرَّوض الأُنُف الذي رحْنَا نجمعُ منْ أَزاهِرِهِ ما حَلاَ في أعْيُنِ النَّواظِر ، ومنْ أطَايبِ ثِمَاره ما لذَّ في أفْواهِ العَارِفينَ ، وكُنَّا ونحنُ نطوفُ في روابي تلكم المصادرَ نختارُ ما يتوافقُ مع مَنْهجِ القُرآنِ الكريم ، والسُّنَّةِ النَّبوّية ، فلا نذكرُ الأَخْبَارِ الواهِيَة ، بل ننوِّهُ إلى ما وَهَنَ منها ، وما ضعُفَ ، وما هو موضوعٌ ومَصْنُوع .

* ولعلَّ كُتَب السِّيرةِ النَّبويةِ قد احتلَّتْ جوانحَ هذه الموسُوعةِ ، حيث كانتْ مَورِداً عَذْباً فُراتاً سَقَينا واستَقِينا منها ما زادَ البحثَ جمالاً ورواءً ، فقد كان لبناتِ الصَّحابةِ الطَّاهرات نصيبٌ وافرٌ في كتُب السِّيرةِ وفي أحداثها ، بل لا تكادُ تجدُ فصلاً من فصولِ السِّيرةِ إلا تجدُ فيهِ مواقفَ وضيئةً للمرأةِ ، ولبنَاتِ الصَّحابةِ ، ففي الهِجْرةِ إلى الحبشةِ كان لهنَّ مساحة كُبرىٰ ، وفي الهِجرةِ إلى المدينةِ يلمعُ نجمُ أسماءَ بنتِ أبي بكر ـ رضي الله عنها ـ وفي المغازي كن الآسيات ، وفي بيعةِ الرضوانِ كُنَّ المبايعاتِ ، وفي الأدبِ كُنَّ منَ البليغاتِ ، ومَنْ منَّا لا يعرفُ أسماءَ بنتَ يزيد خطيبة النِّساء؟! وفي كلِّ موقفٍ تبرزُ بناتُ الصَّحابَةِ ليسجلنَ أَضْوأَ الآثار على جبينِ الدَّهْر .

* ولكتبِ التَّأْريخِ مساحةٌ واسعةٌ منْ رياضِ هذه الموسوعةِ ، حيثُ لا غنىٰ لكلِّ باحثٍ عنها ، فهيَ العمودُ الفِقْريُّ في بحثنا ومنهجنا منْ حيثُ رسم ملامح الشَّخصيَّاتِ ، والاستفادة من تواريخ ولادتهنَّ أو وفاتِهنَّ مع ذكْرِ الأزمنَةِ والأمكنةِ ، والتَّنقُّل في البلادِ ، وكانت رديفاً لكتُب الطَّبقاتِ والسِّيرةِ ، بل كانتْ معها توءمينِ متلازمين لا ينفَصلان .

* وأمَّا كتُبُ الأدَبِ بألوانِها وأنواعها فقد كانتْ ريحانَ هذا الكتاب ، وروحَ مادَّته ، فقد انتقينا منْ أخبارِ بناتِ الصَّحابةِ ما وردَ فيها ، وما لم نجدْهُ في غيرِها ، وحاولنا إبرازها في إطارٍ أنيقٍ يتناسبُ مع مكانةِ الشَّخصيّة التي نترجمُ لها .

* كما كان لدواوين الشُّعراء وأخبارِهم دورٌ مهمٌّ في إيضاحِ بعض صُورِ

الشَّخصيَّات ، وهذا ما يلمسُهُ القارئُ في ثنايا الكتاب .

* وكان لكتبُ اللُّغة نصيبٌ وافرٌ في عَمِلنا هذا ، إذا كانتْ تسعفُنا بحلٍّ كثيرٍ منَ المُعْضِلات ، وتساهمُ في إيضاحِ الإشْكَال ، وتمدُّنا بمعلوماتٍ ذات قيمة كبيرةٍ لا نكادُ نجدها في غيرِها .

* أمَّا كُتبُ المعارفِ العامَّة ، والموسوعاتُ المتنوعةُ ، وكتبُ المواضع والبُلْدان ، ناهيكَ ببعضِ كُتُب الطِّبّ ، وبعضِ المجلاَّتِ وغيرِها ، فكانتْ لنَا منَ الرَّوافدِ المهمَّةِ ، فقد أفدنا منها ، وهي كثيرةٌ منثورةٌ في هـذهِ الموسوعةِ .

ومنَ الجديرِ بالذِّكْرِ أنَّنا كُنَّا قد وجَّهْنا ـ في كتابٍ سَابقٍ ـ دعوةً أدبيَّـةً مهمَّـةً إلىٰ معاشرِ الذين (يلْطشُون) ويغزون كُتُبَ غيرِهم ، ويغيِّرونَ العُنوانَ فَقْط ، وها نحنُ اليوم نُكَرِّرُ الدَّعوةَ نَفْسَها لأولئكَ السَّارقينَ المارقينَ الذين (لَطَشُوا) أعمالَ غيرِهم ، وبعضهم قد قدَّمها في حَلقَات إذاعيَّةٍ في بعض عواصم الدُّولِ العربيَّةِ؛ مّرةً أخرى نقولُ لهؤلاءِ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ [الحشر : ١٨]؛ فهل ينتهي هؤلاء عن هذهِ الأعمال؟! فقد قامَ غيرُ واحدٍ في أكثرَ منْ بلدٍ ، (ولطشَ) عدَداً منْ كُتُبي حرفيَّاً ، ولكنَّه نسيَ ووضَع اسْمَهُ في أعلى الكِتاب الشَّيخ فلان ، ولم يكتفِ هذا بهذا ، وإنَّما (لطشَ) كِتاباً آخرَ لي ، وقدَّمَهُ في إذاعةٍ للقُرآنِ الكريم ، بعد أنْ عَبَثَ بَعْضَ العَبَثِ في الكتابِ ظنَّاً منه أنَّ ذلك (شَطارَة)؛ ولا نملكُ إلاَّ أنْ نقولَ : ﴿ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ ﴾ [يوسف : ١٨] .

* والآن ، وأنَّا في خِتامِ هذه المقدَّمة ، أودُّ أنْ أوجِّه همسةَ حُبٍّ وكلمةَ شكْرٍ إلى الأستاذِ الكريم «عبد الرؤوف قدُّور» ، صاحبِ دارِ اليمامَةِ الميمونةِ ، الذي أَوْلىٰ هذا الكتاب اهتمامَهُ ، وحرصَ على إخراجِهِ للنَّاسِ بثوبٍ قشيبٍ ، وهو يبتغي مرضاةَ اللهِ ، ويحرصُ على نشر المعرفةِ المفيدةِ الهادفة ، فجزاهُ اللهُ خَيراً ، وأثابَهُ على ما يقدِّم .

* وللأستاذِ الأديب «يوسُف علي بديوي» تحيّة حُبٍّ ممزوجةٍ بالاحترامِ ،

فلقد قرأَ كتابَنا هذا ، وأشَارَ إلىٰ بعضِ الأشياء المُهمّةِ التي استفدتُ منها في صياغَتِهِ ، ثمَّ تَفَضَّلَ مشكُوراً بكتابةِ كلماتٍ رائعاتٍ تنمُّ عنْ رهافَةِ حِسِّهِ ، وتمكّنِهِ منْ ناصيةِ البلاغَةِ ، وقطوفِ البَيانِ ، وقدرته على التحليل ، وإبراز مواطن الجمال في النصوص ، فله من الله خير الجزاء ، لما يقدمه من خدمة جليلة للثقافة بجميعِ ألوانِها وأشكالِها .

* وإن كنتُ أنْسَىٰ فلا أنسىٰ الأستاذَ الفاضلَ «أحمد علي سعيد» الذي أشرفَ على تنضيدِ وإخراجِ هذا الكتاب في هذه الحلَّةِ الجميلةِ ، فَلَهُ منِّي التَّقديـر والاحترام ، وأشكرُ كذلك كُلَّ مَنْ ساهَمَ في دارِ اليمـامَةِ في نشر هذا الكتاب ، وإخراجه إلى النَّاس ، وجزاهم الله كلَّ خَيْر .

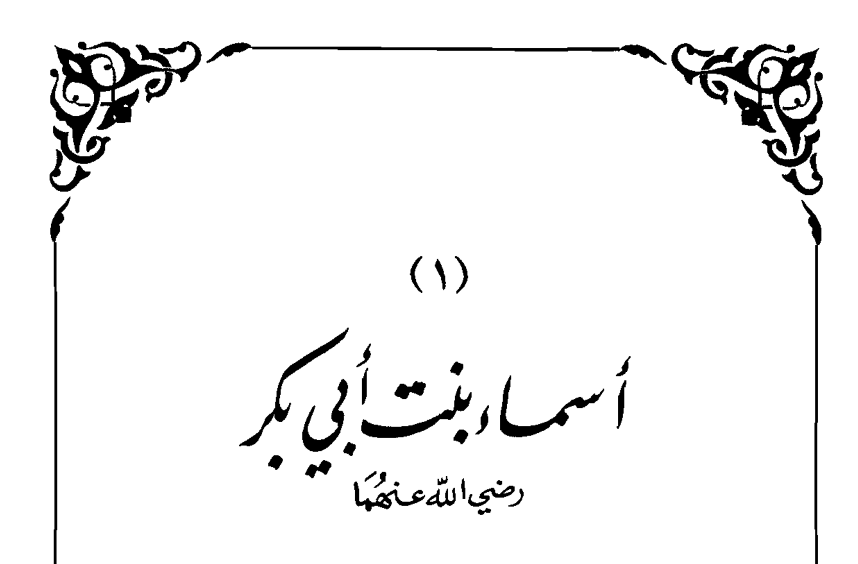
* وأخيـراً؛ أرجو الله ـ عـزَّ وجـلَّ ـ أنْ يجعـلَ أعمالَنـا خالصـةً لوجهـهِ الكريم ، وأنْ يوفِّقَنا لما فيه الخيرُ ، وأنْ يجعلَنا من المقبولينَ ، وأرجو القارىءَ الكريمَ إنْ وجَدَ خطأً أنْ يَسُدَّ الخَللَ ، فالكمالُ للهِ وحْدَهُ ، كما أرجو القارىءَ العزيز أنْ يخصَّني بدعوةٍ منه بظَهْرِ الغيب؛ ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ [البقرة : ٢٨٦] .

دمشق حرستا ـ حي الشيخ موسى   **وكتب**

١٧/ رمضان/ ١٤١٩ هـ   **أحمد خليل جمعة**

الباب الأول

صحابيات آباؤهن صحابة رضي الله عنهم



(١)

أسماء بنت أبي بكر

رضي الله عنهما

* سمَّاها ﷺ ذات النطاقين .

* أمُّ أول مولود من المهاجرين في المدينة المنوَّرة .

* قال لها رسولُ الله ﷺ : «نعم ، صِلي أُمَّكِ» .

* حضَّتْ ابنها عبد الله بن الزبير على صِدْق القتال والتحصن بالكعبة .

* من أقوالها :

«إن الشاة المذبوحة لا تألم للسلخ» .

* كانت أسماء خاتمة المهاجرين والمهاجرات وفاةً .

مـن العقْـدِ البكْريِّ الفريـد :

* إذا ذُكِرَ اسمُ هذهِ المرأةِ ، فإنَّ الذِّهنَ لا ينصرِفُ إلى غيرِها مِنَ النِّساءِ ، إذْ هيَ مشهورةٌ يعرِفُها معظمُ النَّاسِ علىٰ اختلافِ مشاربِهم وَثقافتِهم وأهوائِهم.

* وهي إحدىٰ بناتِ الصَّحابةِ الميموناتِ اللواتي حَظِينَ بشرفِ الصُّحبَةِ النَّبويّةِ ، ولعلَّ رقَمَها في سجلِّ الإيمانِ بينَ بناتِ الصَّحابةِ يكونُ في المقدِّمَةِ ، إذْ لا نعلَمُ أنَّ واحدةً منْ بناتِ الصَّحابةِ قد سبقَتْها إلى هذا الشَّرفِ الوافي ، وإلى التَّمسُّكِ بالعروةِ الوثْقى ، بل تزاحَمْنَ بعدها على هذا الشَّرفِ أفواجاً ، ووَرَدْنَه عذباً فُراتاً لا مِلْحاً أُجَاجاً.

* وهي الأولىٰ في كثيرٍ منَ الفَضَائِلِ ، بل هي ابنةُ أوَّلِ مَنْ أَمَّ في محرابِ رسولِ اللهِ ﷺ في حياتِهِ ، وابنةُ أوَّلِ مَنْ دُعيَ بخليفة ، وابنةُ أوَّلِ مَنْ رَقيَ منبرَ رسولِ اللهِ ﷺ.

* ولما كانتِ الدَّعوةُ الإسلاميَّةُ في مطْلَعِ فجرِها ، وفجرِ مطلعِها ، ولا تزال أنسامُها العَطِراتُ تنسابُ بأنداءِ الشَّذا ، كانتْ هذهِ الفتاةُ منَ اللائي امتلأتْ قلوبُهن منْ عبقاتِ تلكم الأنوارِ السَّاطعاتِ ، وكنَّ مِمَّنْ جَاذَبْنَ الأوائِلَ في مضمارِ الفضَائِلِ.

* ولقد شاءَ اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ أنْ تفتحَ هذِهِ المرأةُ أَحَدَ أبوابِ التَّاريخِ النِّسائي الميمونِ ، وأنْ تُسَجِّلَ في ديوانِ العَظَائِم أجملَ لوحاتِ ومعاني المكارم ، لتبقىٰ سيرتُها قدوةً في كلِّ فضيلةٍ لبناتِ الصَّحابةِ ، وللنِّساءِ في التَّاريخِ الطَّويلِ العريض.

* ترىٰ في أيِّ مَجْمَعٍ عِلْمي تخرَّجَتْ هذه الفتاةُ ، وسجَّلَتْ هذه العظائمَ في ديوانِ المرأةِ العربيَّةِ في مطلَعِ فَجْرِ الإسلام؟!

* لقد صدرتْ عظمتُها وشهرتُها منْ تلكم المدرسةِ البكريّةِ ، التي أثْرَتْ

دنيا الأَعلامِ بأعلياءِ الأعلام منَ الرِّجالِ والنِّساءِ ، وهَبْ أنَّكَ عرفْتَ أنَّ سيِّدَ الأسرةِ البكريّةِ هو أبو بكر الصِّدِّيق ـ عليه سحائبُ الرِّضوان ـ فلا شكَّ أنَّك عرفْتَ أنَّ ابْنتَه هي أسماءُ ، وهي التي نحفلُ في هذه الصَّفَحاتِ بسيرتها المعطارِ. فهل أتاكَ نبأ أسماءَ ابنةِ أبي بكر الصِّدِّيقِ[1] ، وهل صافَحَتْ أخبارُهَا أسماعَكَ ، وأمْتَعَتْ أُذُنَ الدُّنيا؟!

أَسْمَـاءُ وأنْـــداءُ الإِسـلام:

* عندما هبَّتْ أنسامُ الإسلامِ علىٰ الكونِ ، داعبتْ هاتيكمُ الأنسامُ وجدانَ أسماءَ بنت أبي بكر ، بلِ البيتَ البكريَّ ، حيث كانَ أبو بكر الصِّدِّيق ـ رضي الله عنه ـ أوَّلَ الرِّجالِ إسلاماً؛ ومنَ الطَّبيعيِّ أنْ يَعْرِضَ الإسلامَ علىٰ أسرتِهِ ، فكانتِ ابنتهُ أسماءُ أوَّلَ[2] بناتِ الصَّحابَةِ إسْلاماً ، ولمَّا تشبَّ عنِ الطَّوقِ

---

(١) المصادرُ التي تحدَّثَتْ عن أسماءَ بنتِ أبي بكر كثيرةٌ جدَّاً ، لا تكادُ تُحصىٰ وتُحْصَر في هذا المقام ، وأذكرُ منها على سبيلِ المثال: الرياض المستطابة (ص٣٣١) ، ومُسْنَد الإمام أحمد (١٠/ ٢٦٥ ـ ٢٨٣) ، وتفسير القُرطبيّ (انظر الفهارس ٢٣/ ٣٨٨) ، والمعارف (ص١٧٢ و١٧٣ و٢٢١) ، وأنباء نجباء الأبناء (ص٨٥) ، وأُسُد الغابة (٦/ ٩ و١٠) ترجمة رقم (٦٦٩٨) ، والاستيعاب بهامش الإصابة (١٢/ ١٩٥ ـ ١٩٨) وترجمة رقم (٣٢٢٦) ، والإصابة (١٢/ ١١٤ و١١٥) ترجمة رقم (٤٦) ، وطبقات ابن سعد (٨/ ٢٤٩) ، وسير أعلامِ النُّبلاء (٢/ ٢٨٧ ـ ٢٩٦) ، وتاريخ مدينة دمشق (تراجم النِّساء ص٣ ـ ٣٠) ، والدُّرُّ المنثور في طبقاتِ ربّات الخدور (ص ٣٣ و٣٤) ، والرَّوضة الفيحاء في تواريخ النِّساء (ص٢٣١ و٢٣٢) و(ص٢٤٢ و٢٤٣) وتهذيب التّهذيب (١٠/ ٤٥١) ترجمة رقم (٨٨٢٢) ، والنّجوم الزّاهرة (١/ ١٨٩ و١٩٠) ، وتهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٥٩٧ و٥٩٨) ترجمة رقم (١١٥٥) ، ووفيات الأعيان (٣/ ٧١ ـ ٧٥) ، وأعلام النِّساء (١/ ٤٧ ـ ٥٣) ، ونسب قريش (ص٢٧٥) ، وجوامع السّيرة (ص٤٧ و٩١ و٩٢ و٢٧٩ و٣٢٢) ، وثمار القلوب (ص٢٩٤ و٣٠١) ، والدُّرر (ص٣٩ و٨١ و٨٢) وغيرها كثير جداً.

(٢) أمَّا ترتيبُها في سِجلِّ الإيمان فكما قالَ النَّوويُّ ـ رحمه الله ـ: أسلمتْ أسماءُ قديماً بعدَ سبعة عشَر إنساناً. (تهذيب الأسماء واللغات ٢/ ٥٩٧) ترجمة رقم (١١٥٥). =

بَعْدُ ، إذْ كانتْ في منتصفِ العِقْدِ الثَّاني منْ عُمرها تقريباً ، حيث إنَّ مولدَها كان في سَنَةٍ سبعٍ وعشرينَ قَبْل الهجرةِ النَّبويّةِ الشَّريفةِ[1] .

ومنذ أنْ دخلَ الإيمانُ قَلْبَ أسماء ، أخذتْ أنداؤُه ترطِّبُ نفسَها ، وأشرقَ فؤادُهَا بأنوارِ اليقين ، ولاحظتْ بعينِ البصيرة ما كان عليه قومها منْ ضلالٍ وإضْلالٍ في عبادةِ الأوثانِ والأصْنَامِ ، وهاتيكَ التَّماثيلُ التي هُمْ عليها عاكِفُون ، فلا تضرُّ ولا تنْفَعُ ، ولا تملكُ منْ أمرها شيئاً .

* وبعَينِ البصيرة لاحظتْ أسماءُ أنَّ صداقةَ أبيها معَ رسولِ اللهِ ﷺ قد توَّجَتْه الصِّدِّيقيَّةُ ، إذ كانَ أبو بكرٍ ـ رضيَ اللهُ عنه ـ الصِّدِّيقَ الأكْبَر ، وشيخَ الصَّحابةِ وسابقَهم إلى الإيمانِ باللهِ تعالىٰ ، فكانَ البيتُ البكْريُّ درّةً عظمىٰ في عقْدِ الصَّحابة الكِرام ، بل كانَ واسطةَ العقْدِ ، فأكرمْ به منْ عِقْد! وأكرمْ بدرَّتِهِ العظمىٰ الدُّرَّة البكريّة التي قدَّمتْ كثيراً للإسلامِ ، وكان رجالُها ونساؤُها نجوماً زواهرَ في ليالي الإسلام .

* وفي مكةَ أمِّ القُرىٰ ، كانتِ الدَّعْوةُ إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ تفشو في بيوتها ، ثمَّ اتَّسعَتْ دائرةُ الإيمانِ لتشملَ الحجَّاجَ ، ولتصلَ إلىٰ أسماعِ النَّاس ، ممنْ يأتونَ مكةَ منْ كلِّ فجٍّ عميقٍ ليشْهَدُوا منافعَ لهم عنْدَ بيتِ اللهِ الحرام .

* وكانتْ أسماءُ ـ رضي الله عنها ـ ترىٰ ما يقومُ به البيتُ البكريُّ منْ

= وقال ابنُ عبد البرِّ ـ رحمه الله ـ: كان إسلامُها قديماً بمكَّةَ . (الاستيعاب ١٢/ ١٩٦) ترجمة رقم (٣٢٢٦) .
أمَّا أوَّلُ مَنْ أسلمَ منَ النِّساء ، فهي بلا شكّ أمُّنا خديجةُ ـ عليها سحابات الرضوان ـ ثمَّ أسلمَ بعدها أمُّ أيمنَ الحبشية ، وأمُّ الفضْل زوجُ العبَّاسِ بنِ عبد المطلب ، وفاطمةُ بنتُ الخطَّاب أختُ عمر ، رضي الله عنهن جميعاً .

(١) ذكرَ ابنُ عَساكر ـ رحمه الله ـ أنَّ أسماءَ أكبرُ منْ عائشةَ بعشر سنين ، وفي ذِكْرِ إسلام المهاجرين الأوَّلين قال أيضاً: ثمَّ أسلمَ ناسٌ منْ قبائلِ العرب منهم: أسماء بنت أبي بكر وهي صغيرة . (تاريخ مدينة دمشق ، تراجم النِّساء ص١٠) .

فضائلَ في خدْمَةِ دِيْنِ الله ـ عز وجل ـ وفي خدمةِ البيتِ النَّبويِّ ، وخدمةِ رأْسِه سيِّدِنا وحبيبِنا محمّدٍ رسولِ اللهِ ﷺ؛ وعلمتْ علْمَ اليقينِ مكانةَ والدِها منْ قَلْبِ رسولِ اللهِ ﷺ. كذلك عرفَتْ مكانَتَه بينَ الصَّحابةِ الكرامِ ، وخُصوصاً أولئكَ الأعلامُ الكِبارُ الذين أسلمُوا على يديْه ، واهتدوا إلىٰ ما هداهُ اللهُ إليهِ ، فكانُوا منَ الخالدِينَ في دُنيا الخلُود ، ومنَ السُّعَداءِ في الدَّارَيْن إنْ شاءَ الله تعالىٰ.

* وما أُحيلى هذِهِ الأبيات في مَاجِدِ الصَّحابة وشيخِهم وسيِّدهم و:

خُلاَصَةُ أَصْحابِ النَّبيِّ بِلا مِرَا ... وَأوْلاهُمُ مِنْ بَعْدِهِ صَاحِ بالأَمْرِ
صَدِيقٌ صَدُوقٌ في المحبَّةِ كيفَ لا ... ومَا انْفَكَّ عَنْهُ في الحَيَاةِ وفي القَبْرِ
ولمْ يَتَلَعْثَمْ بالإجَابةِ عنْدَما ... دعَاهُ إلىٰ الإسْلامِ خيرُ الورىٰ الطُّهْرِ
قالَ نعَمْ واللهِ إنَّكَ صَادِقٌ ... وإنَّكَ أنْتَ المُصْطَفىٰ مِنْ بني فِهْرِ
وبالنَّفْسِ والأمْوالِ جَاد ولم يَزَلْ ... مُطيعاً لِما يقْضِيْهِ كالْوَالَدِ البَرِّ
وفي الغَارِ ثَاني اثنَيْنِ واللهُ ثالِثٌ ... بنصِّ كلامِ اللهِ في مُحْكَمِ الذِّكْرِ
مَسَاعيهِ في الإسلامِ جَلَّتْ فلم تكُنْ ... تُقَدَّرُ أو تُحْصَىٰ بِعَدٍّ ولا حَصْرِ
وفي مَدْحِهِ كمْ مِنْ حَديثٍ مُصَحَّحٍ ... رَوَاهُ لنا حَبْرٌ يُحَدِّثُ عَنْ حَبْرِ

* وهذه أبياتٌ أُخَرُ منْ قصيدةٍ جميلةٍ في ذِكْرِ أبي بكر وأصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ ومنَ القصيدةِ:

إلهي تَدَارَكْ ضَعْفَ حَالي برحْمَةٍ ... ولطْفٍ خفيٍّ عاجلٍ غيرِ آجِلِ

ومنَ القصيدةِ قولُه يذكرُ الخلفاءَ الرَّاشدينَ ، والعشرةَ المبشَّرينَ بالجنَّةِ:

وبالخُلُفاءِ الرَّاشدينَ وآلِهِ ... وأصحابِهِ الغُرِّ الثِّقاتِ الأمَاثِلِ
خُصوصاً رفيقَ الغَارِ ذي الرَّأْي والحِجىٰ ... أبي بكرٍ الصِّدِّيق صدرِ المحَافِلِ
كذاكَ أميرِ المؤمنينَ وعزِّهم ... أبي حفْصٍ الفَاروقِ مُحيي النَّوافِلِ
وعُثْمَانَ ذي النُّورين مَنْ جُمِعَتْ به ... بجَمْعِ كتابِ اللهِ كلُّ الفَضَائلِ

عليّ أبي السِّبْطَيْن في صَدْرَةِ الوغىٰ	مبيدِ العِدَا ليثِ الحروبِ المداخِلِ
بطَلْحَتِهِم ثمَّ الزُّبَيْرِ وسَعْدِهم	كذاكَ سَعْيدٍ مَنْ سَمَا بِالفَضَائِلِ
بِصِدْقِ ابنِ عوفٍ بذي الهمةِ التي	يَدُكُّ لها في البأسِ صُمَّ الجنادِلِ
وفاتحِ قُطْرِ الشَّامِ سيِّدنا أبي	عُبيدةَ كشَّافِ الحروب العَواضِلِ

* وكانتْ أسماءُ تعيشُ الأحداثَ المكيَّةَ حُلْوَها ومرَّها ، وهي ترى بعينِ البصيرةِ انتشارَ اليقينِ في قلوبِ النَّاسِ الرَّاغبينَ في جَوهرِ الحقيقةِ ، والطَّالبينَ صراطَ العزيز الحميدِ الذي له مُلْكُ السَّمواتِ والأرضِ ، وكانتْ تتألَّمُ أَشَدَّ الألمِ لما ينالُ تلكمُ العصْبَةَ المؤمنةَ التي تتلقَّىٰ فنونَ العذابِ ، وأفانينَ البلاءِ من جَبَابرةِ القوم الظَّالمينَ ، وأعلياءِ المشْركينَ ، وكبارِ المجرمينَ ، وفجَّارِ المشركينَ؛ وفي مقدِّمتهم زُعماء المبشَّرين بالنَّار: «أبو جَهْلٍ ، وأبو لَهبٍ ، وأبيُّ بنُ خَلَفٍ ، وأميّةُ بنُ خَلفٍ ، والعاصُ بنُ وائلَ ، وعقبةُ بنُ أبي معيط ، والوليدُ بنُ المغيرة»[١]؛ ومنَ النِّساء المُجرماتِ: أمُّ جميلِ بنت حرب زوجُ أبي لهب ، وغيرُ هؤلاء كثيرٌ صدُّوا عنْ سَبيلِ اللهِ قولاً وفعْلاً ، وبذلُوا ما وسعَهمُ البذلُ في الصَّدِّ عنِ الإيمان ، كيما تظلَّ الجاهليةُ سائدةً ، ولكنَّ اللهَ أبىٰ إلاَّ أنْ يتمَّ نورَهُ ولو كَرِهَ المشركونَ الكافِرونَ.

* وفي كَنَفِ الأسرةِ البكريّةِ ، ومنْ بحارِ أنوارِها انبثقتْ أُسَرٌ أخرىٰ في دُنيا الأُسَرِ المؤمنةِ التي قدَّمتِ الأرواحَ والمالَ في سبيلِ اللهِ تعالىٰ؛ ومنْ هاتيكم الأُسَر: الأسرةُ اليَاسريّةُ التي ضَرَبتْ أعلىٰ الأمثلةِ في مَيْدانِ الصَّبْرِ ، وكان آلُ ياسرَ من أئمةِ الصَّابرين في عَهْدِ النُّبوةِ الزَّاهِرِ ، وكذلك الأسرةُ البِلاليةُ بزعامةِ بلال بن ربَاح رضي الله عنه.

* ومنَ الأُسَرِ التي كانَ للأسرةِ البكريّة فضْلٌ في ظُهُورها: الأسرةُ العثمانيّةُ

(١) اقرأ سِيَرَ هؤلاءِ الفجرةِ الكفرةِ المجرمين في كتابنا «المبشَّرون بالنار» بجزأيه ، ستجد صَبْرَ رسولِ اللهِ ﷺ وصحبه علىٰ ما نالهم منَ البلاءِ ، وستجد ما قام به رسولُ اللهِ وأصحابه من أعمالٍ في سبيل نشْر دينِ الله في هذه الأرض.

وزعيمها عثمانُ بنُ عفَّانَ ، والأسرةُ الزُّبيريّةُ وزعيمُها الزُّبير بنُ العوَّامِ[1] ، والأسرةُ السَّعديّة وزعيمُها سعدُ بنُ أبي وقَّاص[2] ، والأسرةُ الطَّلحيَّة وزعيمُها طلحةُ بنُ عُبيد اللهِ[3] ، وكذلك أسرةُ عبدِ الرحمنِ بن عوف[4] ، وأسرةُ أبي عُبيدةَ بن الجرَّاح[5] ، وأسرةُ أبي سلمةَ بنِ عبد الأسَد[6] ، وأسرةُ الأرقمِ بنِ أبي الأرقم[7] ، وأسرةُ عثمانَ بنِ مظعونَ ، وأسرةُ عُبيدةَ بنِ الحارث[8] ، وأسرةُ سعيدِ بنِ زيد[9] وغيرُ هؤلاء الأشرافِ الأعلامِ الكبراءِ الفُضَلاءِ رضي الله عنهم وأرضاهم .

* ومنَ الأحداثِ العِظَام التي شاهَدَتْها وشَهِدتْها أسماءُ ـ رضي الله عنها ـ ذلكَ الحدَثُ العظيمُ الذي يشيرُ بأصابعهِ كلِّها إلىٰ شجاعةِ أبيها الصِّدِّيقِ ، يوم أنْ قامَ خطيباً في النَّاسِ في مرحلةِ الاسْتِسرارِ بالدَّعوةِ ، وكانَ رسولُ اللهِ ﷺ جَالِساً ، فكان أبو بكرٍ ـ رضوانُ اللهِ عليه ـ أوَّلَ خطيبٍ دعا إلىٰ اللهِ ، وإلىٰ رسولِ اللهِ ، وعندَ ذلك ثارَ المشركونَ علىٰ أبي بكْرٍ وعلىٰ المسلمين ، فضُربوا في نواحي المسجدِ ضَرْباً شديداً ، وضُرِبَ أبو بكر منْ قِبَلِ عتبةَ بنِ ربيعةَ ضَرْباً مبرّحاً حتَّى غُشيَ عليه ، ولمَّا أفاقَ في آخرِ النَّهار ، كان أوَّل ما سألَ عنه : ماذا فَعَلَ رسولُ اللهِ؟!

ولمَّا علمَ أبو بكر أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ بخيرٍ ، وهو سالمٌ صحيحٌ في دَارِ الأرقمِ ، أتاهُ وبصحبتِهِ أُمّهِ أمّ الخيرِ سلمىٰ بنت صخر ، وهنالك طلبَ منْ رسولِ اللهِ ﷺ أنْ يدعوَ اللهَ لها ، كيما تكونَ في ركْبِ المؤمنينَ ، فدعا لها رسولُ اللهِ ﷺ ، ودعَاهَا إلىٰ اللهِ تعالىٰ فأسلمتْ ، وكانتْ منْ زُمْرةِ السُّعداء رضي الله عنها[2] .

(١ ـ ٩) اقرأ سيرَ هؤلاء الصَّحابة الأخيارِ في موسوعتنا «فُرسانٌ منْ عَصْرِ النُّبوة» تجدْ ما يسرُّك بإذن الله تعالىٰ ، طبع دار اليمامة بدمشق .

(١٠) انظر : أسد الغابة (٦/ ٣٢٦) ترجمة رقم (٧٤٢٨) بتصرف . واقرأ سيرة سلمى بنت صخر في كتابنا : «نساء من عصر النبوة» (١/ ٣١٧ ـ ٣٢٦) فسيرتها خير في خير في خير .

* ولعلَّ أسماءَ ـ رضي الله عنها ـ كانتْ من أعظم النِّساء سروراً بإسلامِ جدَّتها أمِّ الخير ، ودخولها في دِيْنِ الله ، ورأتْ أنَّ الأسرةَ البكريّةَ قد انتظمَ عِقْدُها تقريباً ، وها هي تتوجَّه إلىٰ اللهِ ـ عزَّ وجلَّ ـ بقلبٍ سليمٍ صَافٍ كي يلْهِمَ جدَّها أبا قُحافةَ الإسلامَ ، وكذلك عبدَ الرَّحمن بنَ أبي بكرٍ ، وهو أخوها لأبيها ، وشقيقُ أختِها عائشة .

* ولما أذنَ اللهُ للإسلامِ أنْ يفشوَ بينَ القبائلِ جاءَ فِتْيَةٌ منَ المدينةِ ، وسمعُوا رسولَ اللهِ ﷺ يدعو إلى الإسلام ، وإلى سُبُلِ السَّلام ، فجلسوا معه يسمعونَ ويستمتعُون بحديثه المندَّىٰ بكلماتِ اللهِ وأنفاسِ النُّبوَّة ، وصادَفَ الإيمانُ في قلوبهم مكاناً خَالياً فتمكَّنَ منها ، وأضاءَ جوانبَها ، ورطَّبَ حناياها ، فشهدُوا لَحْظَ إِذْ شهادَةَ الحقّ المُبين ؛ وعرفوا أنَّ الخيرَ ما يدعوهم إليه رسولُ اللهِ ﷺ .

* وعادَ الفتيةُ إلىٰ ديارهم وهم مسرورونَ فرحون ، لأنَّهم آمنوا بربِّهم ، وبما يدعو إليهِ رسولهُ الأمينُ ، وشعروا في أعماقِ نفوسهم بسعادةٍ وقوّةٍ ، بعد أنْ زالَ الجَهْلُ الذي رانَ علىٰ قلوبهم حيناً منَ الدَّهْرِ ، وأصبحوا ينظرونَ إلىٰ ملكوتِ السَّماء بنورِ اللهِ، فهم أوَّلُ قافلةٍ مؤمنةٍ منَ المدينةِ حملوا نورَ الإسلام، وهم أوَّلُ مَنْ أشرقتْ قلوبُهم وانشرحَتْ صدورُهم بديْنِ اللهِ ـ عزَّ وجلَّ ـ .

* وفي المدينةِ راحَ هؤلاء الفتْيَةُ يذيعونَ أخبارَ الإسلامِ بينَ النَّاس ، فتغَلْغَلَ الإيمانُ في قلوبِ أهلِ المدينة ، ولما حانَ موسمُ الحجِّ ، انطلقَ عَدَدٌ منهم فأسلموا وبايعوا رسولَ اللهِ ﷺ ؛ ومنْ ثَمَّ بعثَ معهم رجلاً ألمعيّاً ذكيّاً هو مصعبُ بنُ عُمير كي يعلمَهم ويفقهَهمْ في الدِّيْن .

ولما كان موسمُ الحجِّ عادَ مصعبُ بنُ عُمير إلىٰ مكةَ يصحبُه ثلاثةٌ وسبعونَ رجلاً وامرأتان[1] ، وبايعوا رسولَ اللهِ ﷺ تلكَ البيعةَ التي كانتْ درَّةً ناصعةً

(١) المرأتان هما: أم عمارة نسيبة بنت كعب المازنية النجارية ، وأم منيع أسماء بنت عمرو بن عدي السُّلمية ـ رضي الله عنهما ـ .

في جبينِ التَّاريخ؛ ثمَّ أخذَ الإسلامُ بعد ذلك يفشو وينتشرُ في القبائلِ ، وكانت رسالةُ الإسلامِ تَمُدُّ النَّاس بغذاءٍ روحيٍّ يقضي علىٰ العُقْمِ الرُّوحي الذي كانَ يلعبُ بهم في بيداءِ الحياة ، وكان يسخرُ من عقولهم فيجعلُهم كالأنعام .

* وتمضي الأيامُ ، وتبدأُ أنظارُ المسلمين تتوجَّهُ نحوَ تلكم البلدةِ المباركةِ؛ المدينة التي دخَلَ الإسلامُ قلوبَ أهلِها ، وأحلُّوه بينَ جوانِحهم محلاً كريماً ، إذْ آمنوا بربِّهم إيمانَ الصَّادقينَ المحبّين .

* أمَّا أسماءُ ـ رضي الله عنها ـ فقد كانتْ ترقُبُ بعينِ البصيرة تطوُّرَ الأحداثِ ، وأحوالَ المؤمنينَ والمؤمنات ، وكانتْ إبّانَ ذلك قد خُطِبَتْ إلىٰ فارسِ بني العوَّام؛ الزُّبَيرِ ابنِ عمّة رسولِ اللهِ ﷺ ، ابنِ صفيّة بنت عبد المطلب .

أَسْمَاءُ والزُّبَيرُ :

* كانَ الزُّبيرُ بنُ العوَّامِ ـ رضي الله عنه ـ أَحدَ الفتيةِ القرشيِّينَ الذين أسْلمُوا علىٰ يَدِ أبي بكْرٍ الصِّدِّيق ـ رضوانُ اللهِ عليه ـ ، ومنذُ اللَّحظَاتِ الأُولىٰ لإيمانِ الزُّبير ، راحَ يُقدِّمُ خَدَماتِهِ للإسلامِ ، وكَغَيْرِهِ منَ المؤمنينَ السَّابقين طالَتْه يدُ الأذىٰ ، ونالتْ منه يدُ الظُّلمِ والعُدْوان ، لكنَّهُ صَبرَ حتَّىٰ غَدا حواري رسول اللهِ ﷺ وفارسه .

* وكانَ الزُّبيرُ فتىً شجاعاً ، استغنىٰ بدِيْنه عنْ دُنياه ، وآثرَ الحياةَ الأخرىٰ علىٰ الحياةِ الدُّنيا ، فلا يَمْلِكُ منْ حُطَامِ الدنيا سوىٰ فرسٍ لا يستطيعُ الاستغناءَ عَنْها؛ نَعْم لمْ يكنِ الزُّبيرُ يملكُ غيرَ فرسِهِ عندما أحبَّ أنْ يَصِلَ نسَبَه بنسبِ الأُسْرةِ البكْريَّةِ العريقةِ في تاريخِ المكارمِ .

* ورضيَ بهِ الصِّدِّيقُ ـ رضيَ اللهُ عنه ـ زَوْجاً لابنتهِ أسماءَ العريقةِ حَسَباً ونَسَباً ، الكريمةِ وسْطاً وَجَاهاً ، الوافرةِ عَقْلاً وجَمَالاً .

* سرىٰ نبأُ زَواجِ الزُّبيرِ منْ أَسماءَ في بيوتاتِ مكةَ وأُسَرِها ، وعلموا أنَّ

رسولَ اللهِ ﷺ قد رضيَ هذا الزَّواجَ ، ورضيَ عَنْ هذَيْنِ الزَّوجَيْنِ السَّابقَيْنِ السَّبَّاقَيْنِ إلىٰ كلِّ مكرمةٍ وفَضيلةٍ .

* وبدأَتْ أسماءُ رحْلَةَ الحياةِ الزَّوجيّةِ تغمُرُهَا سَعادَةُ الإيمانِ ، وإنْ كانتْ حياةُ الزُّبيرِ قاسيةً بعضَ القَسْوةِ وتكتنِفُها المشقَّةُ والمصَاعبُ؛ وكانتْ تتقبَّلُ تلكَ الحياةِ بنفسٍ راضيةٍ صابرةٍ ، تحملُ الإخلاصَ والوفاءَ لزوجها الزُّبيرِ ـ رضي الله عنهما ـ .

* ولعلَّ أسماءَ كانتْ تستعذِبُ هذهِ المصاعبَ في سبيلِ الله ـ عزَّ وجلَّ ، ولكي تحظىٰ بمرضاةِ زوجها ، وهي على يقينٍ بأنَّ اللهَ لا يضيعُ أَجْرَ المُحسنين[1] .

* ومنَ الجديرِ بالذّكْر أنَّ أَسماءَ هي أكبرُ ولدِ أبي بكر الصِّديق رضي الله عنهما وأرضاهما .

يا أبتِ هَذا رسُولُ اللهِ:

* لئنْ كانتْ أسماءُ ـ رضي الله عنها ـ منْ أُولىٰ بناتِ الصَّحابةِ إسْلاماً ، لقد شَاءَ اللهُ أنْ تكونَ متفرِّدَةً في يوم الهجرةِ العظيمِ ، وأنْ تُسَجِّل شجاعةً نادرةً في دُنيا النِّساء على مَدارِ التَّاريخِ؛ وتاريخِ النِّساء .

* ولمَّا أذنَ اللهُ بالهجرةِ إلىٰ دارِ الهجرة ، سارعَتْ كثيرٌ منَ الأُسَرِ بمكةَ المكرمةِ لتكونَ في عدادِ المُهاجرين إلىٰ اللهِ ورسولهِ ، وكانَ المؤمنونَ المهاجِرونَ يخرجونَ جماعاتٍ ، فلمَّا راحتْ قريشٌ تَرْصُدُ طريقَ المدينةِ ، أخذَ المسلمونَ يَنْسَلُّون آحَاداً ، ليلحقُوا بِمَنْ سَبَقَهم .

* هذا وقَصَصُ المهاجرينَ تُزيِّن وَجْهَ تاريخنا آنذاك ، وما تزالُ تعطِّرُ الأسْماعَ ، وتمتعُ النُّفوسَ بأحداثِها وحكاياتِها .

* وجاءَ أبو بكرٍ الصِّدِّيق ـ رضوانُ اللهِ عليه ـ يستأذنُ الحبيبَ

(١) انظر: الرياض المستطابة (ص٣٣١).

المصطفىٰ ﷺ في الهجرةِ ، فقالَ : «لا تَعْجلْ لعلَّ اللهَ أنْ يَجْعَلَ لكَ صاحباً» .

* وأَشرقَتْ نفسُ أبي بكرٍ بهذا الخبرِ المباركِ ، إذِ الصَّاحبُ هو ، نعم هو ، وسيصحبُ أَفْضَلَ الخَلْقِ في رحلةِ الحقِّ إلىٰ دارِ الأنْصارِ ، ما أَعْذَبَهُ منْ خَبَرٍ ، وما أحْلاها مِنْ صُحْبَةٍ ! ! .

* وزفَّ أبو بكرٍ ـ رضي الله عنه ـ إلىٰ ابنتَيْه ؛ أسماءَ وعائشةٍ ذلكَ الخبرُ الميمونُ ، وتلكَ الصُّحبةُ ، فشَعَرتَا بالسُّرورِ يَلُفُّهما ، حيثُ اختارَ رسولُ اللهِ ﷺ أبَاهُما أبا بكرٍ ليكونَ رفيقَ الرِّحلةِ الكريمةِ إلى عرينِ الأَنْصارِ .

* ولما جاءَ الإذنُ الإلهيُّ لرسولِ اللهِ ﷺ بالهجرةِ إلىٰ المدينةِ المنوَّرةِ ، خرجَ رسولُ اللهِ ﷺ في وَضَحِ النَّهارِ ، وخَذَلَ اللهُ المشركينَ ، فلم يبصرُوه .

* وانطلقَ الحبيبُ المصطفىٰ ﷺ إلى دارِ صَدِيْقِه وصِدِّيقهِ أبي بكر ؛ فبصُرَتْ بهِ أسماءُ ابنة الصِّدِّيق فقالتْ لأَبيها : يا أبتِ ، هذا رسولُ اللهِ ﷺ مُتَقنعاً(١) في ساعةٍ لم يكنْ يأتينا فيها !

* فقال أبو بكرٍ ـ رضي الله عنه ـ : فداءٌ له أبي وأُمّي ، واللهِ ما جاءَ بهِ في هذهِ السَّاعةِ إلاَّ أَمْرٌ(٢) .

---

(١) «مُتقنِّعاً» : مغطياً رأسَه .

(٢) يبدو أنَّ أبا بكرٍ الصِّدِّيق ـ رضي الله عنه ـ لم يكنْ قطُّ علىٰ علْمٍ بما حَدَثَ من ائتمارِ قريش ومكْرِها بالحبيبِ محمَّدٍ ﷺ .
فقد خرجَ النَّبيُّ ﷺ مِنْ بيتهِ بعد أنْ بَيَّتَ عليَّ بنَ أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ علىٰ فراشهِ ، وكان الوقتُ منتصفَ النَّهار ، وقد هدأتِ الحياةُ وبدتْ خامدةً تحتَ وطأةِ سعيرِ مكةَ ولهيب حَرِّها ، وركنَ النَّاسُ إلىٰ القيلولةِ في فيءِ الظِّلالِ منَ البيوت وغيرِها ، وعندها خَرجَ الرَّسولُ ﷺ مُيمِّماً بيتَ صديقِهِ أبي بكرٍ ـ رضي الله عنه ـ في نَحْرِ الظَّهيرة ، وهو وقتٌ لم يكنْ منَ الأوقاتِ التي تعوَّدَ رسولُ اللهِ ﷺ أنْ يأتيَ فيها آلَ أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ فتلقَّاهُ الصِّدِّيقُ بلهفةِ المتوجّسِ المُشْفقِ متسائلاً ليكشفَ له عن سببِ مجيئةِ المفاجىء في هذا الوقتِ الذي تتثاءبُ فيه الحياةُ مُسْتَرخيةً خامدةً لا يحسُّ لها حَرَاكٌ قائلاً : فداء له أبي وأمّي ، واللهِ ما جاءَ بهِ في هذه السَّاعةِ إلا أَمْرٌ ـ أي خطير ـ .
=

* وخرجَ إليهِ أبو بكرٍ مُهرولاً ، فاستَأْذَن رسولُ اللهِ ﷺ ، فأَذِنَ له ، فَدخَلَ ، فقال ﷺ لأبي بكْر : «أَخْرِجْ مَنْ عندك» ، ـ وكانت أسماءُ وعائشةُ عنده ـ فقالَ أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ : إنَّما هما ابنتاي ، بأبي أنتَ يارسولَ اللهِ .

فقال النَّبيُّ ﷺ : «فإنّي قَدْ أُذِنَ لي في الخروج» فقالَ أبو بكر وهو يبكي من الفرح : الصحبة يا رسول الله ، فقال رسولُ اللهِ ﷺ : «نَعم» .

قالتْ عائشةُ ـ رضي اللهُ عنها ـ : فواللهِ ما شَعْرتُ قطُّ قَبْلَ ذلك اليومِ أَنَّ أَحَداً يبكي منَ الفرحِ حتَّىٰ رأيتُ أبا بكرٍ يبكي يومئذٍ[1] .

ذَاتُ النِّطَاقين :

* لمَّا عزمَ رسولُ اللهِ ﷺ وصاحِبُه الصِّدِّيقُ ـ رضي الله عنه ـ علىٰ الهجرةِ ، كانَ لا بُدَّ لهما منْ تجهيزِ طعَامِ السَّفَرِ ، هنالكَ اشتركتْ أسماءُ وعائشةُ ابنتا الصِّدِّيق في تجهيزِ السُّفرة[2] التي سيأخذُها المُهاجران ، ثمَّ وضَعَتَا الطَّعامَ في جرابٍ[3] ، هنالكَ حظيتْ أسماءُ بلقبٍ سيظلُّ يُصَاحبُها إلىٰ ما شَاءَ اللهُ ، إذْ شَقَّتْ نطاقَها نِصْفَيْن ، وربطتْ فَمَ الجرابِ بنصفهِ ، وانتطقَتْ بالآخرِ ، ولذلكَ دُعِيَتْ ذات النّطاق ؛ أو ذاتْ النِّطاقَيْن .

= ورأىٰ رسولُ اللهِ ﷺ علائمَ اللهفةِ والتَّوجُّسِ والإشفاقِ تلوحُ على وجْهِ الصِّدِّيق ـ رضي الله عنه ـ فبادَره بأسعد بُشْرىٰ في حياتِه فقال له : «إنّي قد أُذِنَ لي بالخروج» .
فقالَ أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ : الصَّحابة بأبي أنتَ يا رسولَ اللهِ .
فقال : «نعم» .
ولم يلبثا في بيتِ أبي بكْرٍ إلا ريثما جُهِّزَا أحثَّ جهاز ، ومن ثمَّ خرجا متوجهَيْنِ إلى غار ثور .

(١) انظر : مسند الإمام أحمد (٦/ ٣٤٦) ، وطبقات ابن سعد (٨/ ٢٥) مع الجمع والتصرف ، وللحديث أصلٌ في صحيح البخاري برقم (٣٩٠٥) .
(٢) «السُّفرْة» : بضمّ السّكون : طعام المسافر .
(٣) «الجراب» : وعاءٌ من الجلْد .

* روتْ أمُّنا عائشةُ ابنةُ الصِّدِّيقِ ـ رضي الله عنهما ـ قصَّةَ ذاتِ النِّطاق فقالتْ: فجهَّزْنَاهُما أحثَّ الجهَازِ ، وصَنَعْنَا لهما سُفْرةً في جرابٍ ، فَقَطَعَتْ أسماءُ بنتُ أبي بكرٍ قطعةً منْ نطاقِها ، فربطتْ بهِ علىٰ فَمِ الجرَابِ ، فبذلك سُمّيَتْ ذاتَ النِّطاق(١) .

* وذكر ابنُ سَعْدٍ ـ رحمه الله ـ في «الطَّبقاتِ» ؛ أنَّ أسماءَ شقَّتْ نطاقَهَا ، فأوكَأَتْ بنصْفٍ منه الجرابَ ، وشدَّتْ فَمَ القربةِ بالآخرِ ، فسمّيَتْ ذاتَ النِّطاقين(٢) .

* وقالَ ابنُ الأثيرِ ـ رحمه الله ـ: وإنَّما قيلَ لها ذات النِّطاقَيْن ، لأنَّها صَنَعَتْ للنَّبيِّ ﷺ ولأبيها سُفْرةً لما هاجَرَا ، فلم تَجِدْ ما تشدُّهَا بهِ ، فَشَقَّتْ

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٣٩٠٥) ، وقد ذكرَ ابنُ إسحاق في السِّيرة ؛ أنَّ قصّةَ النِّطاقِ قد حدثَتْ بعدَ خروجِ النَّبيِّ ﷺ وصاحبِهِ الصِّدِّيق من غار ثور.
أمّا في صَحيحِ البُخاري ، فكما لاحظْنَا أنَّ القصَّةَ كانَتْ في بيتِ الصِّدِّيقِ قبلَ خروجِ النَّبيِّ ﷺ وأبي بكْر ، وأعتقدُ أنَّ مافي صحيحِ البُخاري هو الصَّحيحُ إذْ ينسجمُ مع أحداثِ قصَّةِ الهجرة .

(٢) «ذاتُ النِّطاقين» : بالتَّثنيةِ هي أيضاً روايةُ الكشْميهي ؛ وروايةُ غيرِهِ النِّطاق بالإفراد .
قال ابنُ حجر : النّطاقُ ما يُشَدُّ به الوسَطُ .
وقيل : هو إزارٌ فيه تكَّةٌ .
وقيل : ثوبٌ تلبسُهُ المرأةُ ، ثمَّ تشدُّ وسطَها بحبلٍ ، ثمَّ تُرسلُ الأعلىٰ علىٰ الأسفل .
وقال أبو عُبيد الهَرَويّ : وسُميّتْ ذاتَ النِّطاق لأنَّها كانتْ تجعلُ نطاقاً علىٰ نطاقٍ .
وقيل : كانَ لها نِطاقان تلبسُ أحدهما ، وتحملُ في الآخرِ الزَّاد .
وقالتِ العلماءُ : النِّطاقُ : أنْ تلبسَ المرأةُ ثوبَها ثمَّ تشدُّ وسطها بشيءٍ ، وترفعُ وسط ثوبَها ، وترسلُه علىٰ الأسفلِ ، تفعلُ ذلك عند معاناةِ الأشغالِ ، لئلا تَعْثَرَ في ذيلها .
وقالَ ابنُ حجر : والمحفوظُ في البخاري أنَّها شقَّتْ نطاقَها نصفَيْن فشدَّتْ بأحدهما الزَّادَ ، واقتصرتْ على الآخر ، ثمَّ قيلَ لها ذات النِّطاق ، وذات النِّطاقين بالتّثنية والإفراد بهذَين الاعتبارَيْن .

نطاقَها ، وشدَّتْ بهِا السُّفْرةَ فيه ، فسمَّاها رسولُ اللهِ ﷺ ذاتَ النِّطاقَيْن[1] .

* وتحرَّكَ الرَّكْبُ الميمونُ مَحفُوفاً برعايةِ اللهِ ، تلحظُه العنايةُ الإلهيةُ ، وَتُسَدِّدُه ، وكانتْ هدايةُ اللهِ تَقودُه وترشدُه ، وسارَ ذلك الرَّكبُ حتى بلغَ غارَ ثورٍ :

غَارَ ثَورٍ أعْطاكَ ربُّكَ مَا لَم ... تُعطِ مِنْ رَوعَةِ الجَلالِ القُصُورا
أَنتَ أطْلَعْتَ للمَمَالِكِ دُنْيا ... سَاطعاً نُورُها وَدِيْناً خَطِيْرا
صنْتَهُ مِنْ ذَخَائِرِ اللهِ كُنْزاً ... كَانَ مِنْ قَبْلُ عِنْدَه مَذْخُورا
مخْفرِ الحقِّ لاجئاً يتوقَّىٰ ... قامَ فيهِ الرُّوحُ الأمينُ خفيرا[2]

أَسْمَاءُ وحِيْلَةٌ طَرِيفَةٌ :

* أخْبارُ الهجرةِ النَّبويةِ شَائقةٌ محبَّبَةٌ إلىٰ النُّفوسِ ، وكانَ للبيتِ البكْريّ فيها آثارٌ حِسَانٌ ، وكان للسَّيِّدةِ أسماءُ دوراً طريفاً يدلُّ علىٰ حَصَافَتِها وكياسَتِها ، إذِ استطاعَتْ أنْ تحتالَ بحيلةٍ لطيفةٍ لتَسْكينِ جَدِّها أبي قحافةَ ، حيث كانتْ تَخْشَاهُ إذْ لم يكنْ قَدْ أسلمَ بَعْدُ .

* فقَدْ جاءَ في أخبارِ أسماءَ ـ رضي الله عنها ـ ما رواه ابنُ إسحاقَ في «السِّيرة» ؛ وابنُ سَعْدِ في «الطَّبقاتِ» ، بسندهما إلىٰ أسماءَ بنتِ أبي بكر الصِّدِّيق ـ رضي الله عنهما ـ قالتْ :

* لما خَرجَ رسولُ اللهِ ﷺ ، وخرجَ معه أبو بكر ، احتملَ مالَه كلَّه معه ، خمسةَ آلافِ درهم ، أو ستةَ آلاف درهم ، فانطلقَ بها معه ، فدخلَ علينا جَدّي أبو قُحافةَ وقَدْ ذَهَبَ بصرهُ ، فقال : واللهِ إنِّي لأَراهُ قَدْ فَجعكم بِمَالِهِ مع نفسِهِ!

---

(١) أسد الغابة (٦/ ٩) ترجمة رقم (٦٦٩٨) ، وانظر تهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٥٩٧) ترجمة رقم (١١٥٥) .
(٢) ديوان مجد الإسلام لأحمد محرّم (ص٥٣) .

فقلتُ: كلاَّ يا أَبتِ ، إِنَّهُ ترك لنا خيراً كثيراً.

قالت أسماءُ: فأخذتُ أحجاراً فوضعتُها في كوّةِ البيتِ حيثُ كانَ أبي يَضَعُ فيها مالَه ، ثمَّ وضعتُ عليها ثَوباً ، ثمَّ أخذتُ بيدِهِ فقلتُ: ضَعْ يا أبتِ يَدَكَ علىٰ هذا المال ، فوضَعَ يَدَهُ عليهِ وقال: لا بأْسَ إنْ كانَ تَركَ لكم هذا فَقَدْ أَحْسَن ، وفي هذا بلاغٌ لكم.

قَالَتْ أسماءُ: فلا واللهِ ما تَركَ لنَا شيئاً ، ولكنّي أردتُ أنْ أسكِّنَ الشَّيخَ بذلك[1].

ثَبَاتُ أَسْمَاءَ أَمَامَ فِرْعَونِ الأُمَّةِ:

* كادَ المشركونَ يجنُّ جُنونُهم لمَّا عَلِمُوا أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ وصاحبَه أبا بكرٍ ـ رضي الله عنه ـ قد هَاجَرا ، وغَدا فرعونُ الأُمَّة أبو جهلٍ وأعلامُ المشركينَ يطلبونَه في دُورِ بني هاشم ، ودُور تابعيهِ في أعلىٰ مكةَ وأسْفَلِها ، وأتىٰ نَفَرٌ منْ قريش وفيهمُ الخبيثُ اللعينُ أبو جهل ، وضربوا حِصَاراً حولَ بيتِ أبي بكر ، وتقدّمَ أبو جهل فَطَرقَ البَابَ ، ولم يكنْ في البيتِ سوىٰ أسماءَ وأختِها عائشةَ وأمِّ رُومانَ والدةَ عائشةَ ـ رضي الله عنهنَّ ـ ، ولنتركْ بقيّةَ أحداثِ القصَّةِ ترويْها لنا أسماءُ فتقولُ: فَخَرجْتُ إِليهم ، فقالُوا: أينَ أبوكِ يا بنتَ أبي بكْرٍ؟

فقلتُ: لا أدري ـ واللهِ ـ أينَ أبي!

---

(١) السِّيرة النَّبويّة (١/ ٤٤٨)؛ وسُبُل الهدىٰ والرَّشاد (٣/ ٣٣٨) ، ونهايةُ الأرب (١٦/ ٣٣٢) ، وتاريخُ مدينة دمشق (تراجم النِّساء ص١٤)؛ وأخرجه الحاكم في المستدرك (٣/ ٥ و٦) وقال: صحيح على شرط مسلم ، ولم يخرجاه ، ووافقه الذَّهبي. وأخرجه أحمد ، انظر الفتح الرّباني (٢٠/ ٢٨٢). وقال الهيثمي في المجمع (٦/ ٥٩): رواه أحمد والطبراني ، ورجال أحمد رجال الصحيح ، غير ابن إسحاق وقد صرّح بالسّماع.

فرفعَ أبو جَهْل يَدَه ـ وكانَ فاحِشَاً خَبيثاً ـ فَلَطَم خدّي لطمةً طرحَ منها قرطي[1].

* ولكنَّ القومَ الكافرينَ ما عَلِمُوا أنَّ الأمْر كلَّه لله ، وأنَّ اللهَ حَافِظٌ رسُولَه ، ومُوهِنُ كيدِهم؛ وانطلقَ الملأُ الكافرُ ينقِّبُونَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ ، وعقولُهم تكادُ تطيرُ منْ رؤوسِهم ، بَعْدَ أنْ باؤوا بالإخفَاق ، ولم يأخذُوا خَبَراً من أسماءَ؛ وللهِ درُّ الشَّاعِر أحمد محرّم إذْ صوَّر هذهِ الحادثةَ بريشتِهِ الأنيقةِ الشَّاعرة فقال:

أَقْبلَ القومُ يَسْألُونَ أتَحْتَ التُّـ ـرْبِ أمْ جَاوَزَ الطَّريدُ النُّسُورا
نَفَضُوا الهضْبَ والجبالَ وشقُّوا الأ رضَ طرّاً رِمالَها والصُّخورا
ويحَ «أسماءَ» إذْ يجيءُ أبو جَهْـ ـلٍ على خِدْرِها المصونِ مُغِيْرا
صاحَ أسْماءُ أينَ غابَ أبو بكْـ ـرٍ أجِيبِي فقَدْ سأَلْنَا الخبِيْرا
قَالَتِ العِلْم عنْده ما عَهِدْنا أَجَمِ الأُسْدِ تستشيرُ الخدُورَا
فَرمَاهَا بلطْمةٍ تُعرِضُ الأَجْـ ـيَالُ عن ذِكْرِها صوادفَ صُورا
قَذَفَتْ قُرطَهَا بعَيْداً ورضَّتْ مِنْ وجُوهِ النَّبيِّ وجْهاً نَضِيرا[2]

* وهكذَا صَفَعُ أَبو جَهلٍ أسماءَ ـ رضي الله عنها ـ صفْعَةً ما يزالُ صَدَاها يُشيرُ إلىٰ نذالتهِ وإلىٰ جُبْنِهِ ، إذْ وصَلَ بهِ السَّفَهُ والتَّخَاذُلُ أنْ يؤذيَ امرأةً حَامِلاً لا حَوْلَ لها ولا قوّة ، بل إنَّ زوجَها فارسُ الفُرسانِ وسيّدُ الشُّجعانِ قَدْ سبَقَها إلىٰ دارِ الهجرة ، ولو كانَ حَاضِراً لقطعَ يَدَ أبي جَهْلٍ ، وعلّمهُ كيفَ يترفَّعُ العربُ الأَقْحاحُ عنْ ضَرْبِ النِّساءِ عنْد غِيابِ أَزْوَاجِهنَّ.

* وبذلكَ أثْبَتَتْ أسماءُ قوَّةَ يقينِها باللهِ ، سَخِرتْ منْ فرعونِ الأُمَّة أبي جَهْلِ الذي نَسِي رجولَته أمامَ الرِّجال ، وتخاذلَ بها أمامَ النِّساء ، فكانَ ممَّنَ غَضِبَ اللهُ عليهم ، وجَعَلَ النَّار مأوىً لهم ، وذلكَ بما قدَّمَتْ أيديَهم ،

---

(١) تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء ص٣).
(٢) ديوان مَجْد الإسلام لأحمد محرم (ص ٥٢ و٥٣).

وبما شاقُّوا اللهَ ورسولَه ، وحاربُوا المؤمنينَ والمؤمناتِ .

أمُّ أوَّلِ مَوْلُودٍ مِنَ المُهَاجِرِينَ :

* كانَ الزُّبيرُ بنُ العوَّامِ ـ رضي الله عنه ـ قَدْ سَبَقَ زوجَه أسماءَ بالهجرةِ إلىٰ المدينةِ المنوَّرة ، وعندما هَاجَرَ الصِّدِّيق عَنِ الدَّارِ المكيّة في صحبةِ خيرِ الأَبْرارِ ، أَرْسَلا مَنْ يأتيهما بأهلِهما ، وهاجرتْ أسماءُ معَ أختِها عائشةَ ونساءٍ منْ أهلِها ، وكُنَّ يَبْتَغِينَ وجْهَ اللهِ ـ عزَّ وجلَّ ـ ، نَعمْ خرجتْ أسماءُ وأختُها وبعضُ نسوةِ الأسرةِ البكريّة ، وهنَّ يُرِدْنَ الله ورسوله :

خَرَجْنَ مِنَ الخدورِ مُهاجراتٍ فَلا دَعَةٌ ولا ظِلٌّ ظَليلُ
يُرِدْن اللهَ لا يَبْغِينَ دُنْيَا كَثِيرُ مَتَاعِهَا نَزْرٌ قليلُ
عَقَائلُ في حمىٰ الإسلامِ يسمو بِهنَّ مِنَ العُلىٰ فَرْعٌ طويلُ
نسَاءُ الصِّدْقِ ما فيهنَّ عيبٌ وليسَ لَهنَّ في الدُّنيا مثيلُ

* كانتْ أسماءُ في الأيَّامِ الأخيرةِ منْ حَمْلِها ، وما أَنِ استقرَّتْ في المدينةِ المنوَّرَةِ حتَّىٰ ولدتْ غُلاماً سَوِيّاً ، فكانَ أوَّلَ مولودٍ في الإسلامِ منَ المهاجرينَ في المدينةِ .

* وتروي لنا أسماءُ أحداثَ هذا الخبرِ السَّعيد فيما ذكَرَهُ أبو عمر القرطبيّ بسنَدٍ عن هشام بن عروة عن أسماءَ أنَّها حَمَلتْ بعبدِ اللهِ بنِ الزُّبيرِ بمكةَ قالتْ : فخرجتُ وأنا مُتِمٌّ ، فأتيتُ المدينةَ ، فنزلتُ قُبَاءَ ، فولدتُه بقباءَ ، ثمَّ أَتَيْتُ رسولَ اللهِ ﷺ فوضَعْتُه في حجْرِه ، فَدَعا بتمرةٍ فَمضَغَها ، ثمَّ تفَلَ في فِيْهِ ، فكانَ أوَّلَ شيءٍ دَخَلَ جوفَه ريقُ رسولِ اللهِ ﷺ؛ قالتْ : ثمَّ حنّكَهُ بالتَّمرةِ ، ثمَّ دعَا له ، وبرَّكَ عليه ، وكانَ أوَّلَ مولودٍ في الإسلامِ للمُهاجرينَ في المدينةِ .

قالتْ : ففرحُوا بهِ فَرَحاً شَديداً ، وذلكَ أنَّهُم قيلَ لهم : إنَّ اليهودَ قد سَحرتْكُمْ فلا يُولَد لكم[1] .

---

(١) الاستيعاب بهامش الإصابة (٦/ ١٩١) ترجمة رقم (١٥٣٥) ، وانظر الإصابة (٦/ ٨٤) ترجمة رقم (٤٦٧٣)؛ وانظر صحيح البخاري برقم (٣٩٠٩ و٥٤٦٩) . =

* وسُرَّ المُسلمونَ بالمولودِ عبدِ اللهِ بنِ الزُّبيرِ ، وأمَرَ رسولُ اللهِ ﷺ جَدَّهُ أبا بكرٍ أنْ يؤذِّنَ في أُذنيهِ بالصَّلاةِ ففعلَ ، وسمَّاهُ النَّبيُّ ﷺ عَبدَ اللهِ؛ وكنَّاه بكنيةِ جَدّه أبي بكر الصِّدِّيق ـ رضي الله عنهما وأرضاهما ـ.

* وعلىٰ مائدةِ التَّقوىٰ ولبانِ الإيمانِ ، راحتْ أسماءُ ـ رضي الله عنها ـ تربيّ ابنَها عبدَ اللهِ بنَ الزُّبير ليكونَ وَاحداً منْ أعلامِ المسلمين ، وأحدِ نجباءِ الأبْنَاءِ الذين تركُوا في الدُّنيا دويّاً رائعاً ما يزالُ صداهُ إلىٰ الآن.

* وكانتْ أسماءُ ـ رضيَ اللهُ عنها ـ تعتني بولدهَا عنايةً فائقةً؛ روي عنها أنَّها كانتْ تُرقِّصُه ، وتَصِفُه بالسَّيفِ كثيرِ اللَّمَعَانِ لبياضه ، وأنَّه سَيُحْكِمُ الخطبةَ ، ويفرجُ الكربةَ ، قالتْ أسماءُ ترقّصه:

أبيضُ كالسَّيفِ الحُسَامِ الإبريقْ ... بَيْنَ الحَواريّ وبَيْنَ الصِّدِّيقْ
ظنّي بهِ وَربَّ ظَنّ تحقيقْ ... واللهُ أهلُ الفَضْلِ أهلُ التَّوفيقْ
أنْ يحْكِمَ الخطبَةَ يُعْيي المْسلِيقْ ... ويُفْرجَ الكربةَ في سَاعِ الضِّيقْ
إذا نَبَتْ بالمُقَلِ الحمَاليقْ ... والخيلُ تعدو زيماً برازيقْ[1]

= وذكر أبو جَعْفر الطَّبري قريباً منْ هذا في تاريخِهِ فقال: وكانَ ـ عبدُ اللهِ بنُ الزُّبير ـ أوّلَ مولودٍ وُلِدَ منَ المهاجرينَ في دارِ الهجرة ، فكبَّر أصحابُ رسولِ اللهِ ﷺ حينَ وُلِدَ ، وذلك أنَّ المسلمينَ كانوا قد تحدثوا أنَّ اليهودَ يذكرون أنّهم قد سَحروهم فلا يُولَدُ لهم ، فكان تكبيرُهم ذلك سروراً منهم بتكذيبِ الله اليهودَ فيما قالوا منْ ذلك. (تاريخ الأمم والملوك للطّبري ٢/ ١٠) طبعة دار الكتب العلمية.
وكان عبدُ اللهِ بنُ الزُّبير ـ رضي الله عنهما ـ يقولُ: هاجرتُ وأنَا في بطنِ أمّي. (الإصابة ٦/ ٨٦). وفي روايةِ المصعب الزّبيري أنَّه قال: هاجرتُ أمّي وأنا حَمْلٌ في بطنِها ، فما أصابها من مخمصَةٍ ولا وَصَب إلا قد أصابني. (نسب قريش ص٢٣٧).
وقد حنّكَهُ رسولُ الله ﷺ بريقهِ ويده ، وله يقول العقيلي:
بِرٌّ يُبَيِّنُ ما قَالَ الرَّسولُ له ... مِنَ الصَّلاةِ بِضَاحِي وجهِهِ عَلَمُ
حَمامةٌ منْ حمامِ البيتِ قاطِنةٌ ... لا يتبعُ النَّاسَ إنْ جاروا وإنْ ظلموا

(١) انظر: أنباء نجباء الأبناء (ص٨٥). و«الإبريق»: القاطع كثير اللمعان. «الحواري»: =

* هذا وَقَدْ وَلَدتْ أسماءُ للزُّبيرِ بنِ العوَّام: عبدَ اللهِ، والمنذرَ، وعروةَ، وعاصماً، والمهاجرَ؛ ونسوة وهنَّ: خديجةَ الكبرىٰ، وأمَّ الحسنِ، وعائشةَ[1].

شَذَرَاتٌ مِنْ مَنَاقِبِ أَسْمَاء:

* لأسماءَ بنتِ أبي بكر الصِّدِّيقِ ـ رضي الله عنهما ـ مناقِبُ وفَضَائلُ كثيرةٌ لا يمكنُ أنْ تُحصَرَ في سُطورٍ أو صَفَحات، فكلُّ فضيلةٍ منْ فضائِلها تملأُ النُّفوسَ إعجاباً، ولَقَدْ أَصَابَ أبو نُعيم إذِ افتتحَ ترجمتَها بذكْرِ بعضِ فَضَائِلها فقالَ: الصَّادِقةُ الذَّاكرةُ، الصَّابرةُ الشَّاكرةُ، أسماءُ بنتُ الصِّدِّيقِ الشَّاقَّةُ نطاقَها لمعْصِمِ قِرْبَةٍ وعلاقها[2].

* إنَّنا كُلَّما كَرَّرنا وذكَرنا مناقبَ أسماء ـ رضي الله عنها ـ؛ فإنَّ ذلك يحلو ويطيبُ:

أَعِدْ ذِكْرَ نعْمَانَ لنَا إنَّ ذِكْرَهُ ... هُوَ المِسْكُ مَا كرَّرْتَه يتضوَّعُ

* ولله دَرُّ مَنْ قَال:

وسَيبقىٰ الحَديثُ بَعْدَكَ فانظرْ ... خَيْرَ أحدوثةٍ تكونُ فَكُنْهَا

* ولذلكَ فإنَّنا سنعيشُ صَفَحاتٍ مُضيئاتٍ معَ بعضِ مناقِبِ أَسْماءَ في مَيادِيْنِ الفَضَائِلِ، منْ صدقٍ وَصَبْرٍ وسَخَاءٍ وما شَابَه ذلك، لِنَعْرِفَ مكانَتَها وفَضْلَها بينَ وفي عَالم بنَاتِ الصَّحابة الطَّاهراتِ.

= كل شخص مبالغ بنصرة شخص آخر. «يحكم»: يتقن الكلام. «يعيي»: يعجز. «المسليق»: الذي هو نهاية في الخطابة. «الحماليق»: جمع حملاق وهو باطن أجفان العين. «تعدو»: تركض. «زيماً»: متفرقة. «برازيق»: جماعة الخيل.

(١) عن نسب قريش (ص٢٣٦)، وتهذيب الأسماء واللغات (٢/٥٩٨) مع الجمع والتصرف.

(٢) حلية الأولياء (٢/٥٥).

صِـدْقُـهَـا مَـعَ اللهِ:

* مِـنْ فَضَـائِـلِ أَسْمـاءَ البـديعـةِ، صِـدقُهـا مـعَ اللهِ ـ عـزَّ وجـلَّ ـ ومـعَ رسولِ اللهِ ﷺ؛ حيثُ قَطَعتِ العلائقَ معَ أهلِ الكفْرِ حتَّىٰ ولو كانوا أُولي قُربىٰ ، فَلا تَـتَـصَرَّفُ في أمْرٍ حتَّىٰ تستشيرَ رسولَ اللهِ ﷺ ، وتسألَه عمَّا تعملُ لتحظىٰ بالرِّضْوان.

* فقد كانتْ أمُّ أسماءَ واسمُها قتَيْلَةُ بنتُ عبد العزّىٰ؛ وكانتْ مشركةً ترغبُ في زيارةِ ابنتِها أسماء؛ لكنَّ أسْماءَ تتوقَّفُ حتَّىٰ تسأَلَ رسولَ اللهِ ﷺ عمَّا تفعلُه معَ أمِّها المشركةِ ، لتكونَ صادقةً معَ اللهِ ورسولِهِ.

* وفي أَنْفاسِ الصَّادقاتِ المؤمناتِ ، تَروي لنا أسماءُ قصَّةَ تلكَ الزِّيارة ، فيما وَرَدَ في عَددٍ منَ المصَادِر ، فتقولُ: أَتَتْني أُمِّي راغبةً وهيَ مشركةٌ في عَهْدِ قُريش إذ عاهَدوا رسولَ اللهِ ﷺ ، فسألتُ النَّبيَّ ﷺ: أَأَصِلُها؟ فأَنْزَلَ اللهُ: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ ﴾ [الممتحنة: ٨] ، فقال: «نَعَم صِلِي أُمَّكِ»[١].

* وفي روايةٍ أخرىٰ عنْ عامرِ بنِ عبد الله بن الزُّبير عن أبيه قال: قدمتْ قتيلةُ بنتُ عبد العُزَّىٰ على ابنتها أسماءَ بنتِ أبي بكرٍ بهدايا ضِبَاب ، وسَمْن ، وأَقِط ، فلم تقبلْ هدايَاها ، ولم تدخِلْها منزلَها ، فسألتْ لها عائشةُ النَّبيَّ ﷺ فقال: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ ﴾ [الممتحنة: ٨] فأَدْخَلَتْها منزِلَها ، وقَبِلَتْ مِنْها هَدَايَاهَا[٢].

---

(١) انظر تفسير القرطبي (١٠/ ٢٣٩ و٢٤٠)؛ والحديثُ أخرجه البُخاري في مواضعَ من صحيحه ، في الجزيةِ والموادعةِ برقم (٣١٨٣) وفي الأدبِ تعليقاً برقم (٥٩٧٨ و٥٩٧٩) ، وفي الهبةِ برقم (٢٦١٩ و٢٦٢٠)؛ ومسلم برقم (١٠٠٣) ، وأبو داود برقم (١٦٦٨) ، وأحمد (٦/ ٣٤٤ و٣٤٧ و٣٥٥).
ونقلَ أبو حيّان في تفسيرهِ عن ابن عَطيَّةَ أنَّه قال: وكانتِ المرأةُ فيما رُوي خالتُها ، فسمَّتْها أُمَّاً. (البحر المحيط ١٠/ ١٥٦).

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٦/ ٣٤٤) ، والحاكمُ في المستدرك (٢/ ٤٨٥) وصحّحه =

* وهكذا عَلِمَتْ وتعلَّمتْ أسماءُ أنَّ الإسلامَ دِينُ سَلامٍ ووئامٍ ، وعقيدةٍ وحبٍّ ، وأنَّه ليسَ هناكَ منْ عائقٍ يحولُ دونَ اتجاهِهِ هذا إلاَّ عدوانُ أعدائِهِ عليه وعلىٰ أهلِهِ ، فأمَّا إذا كانوا مُسالمينَ ، فليسَ الإسلامُ براغبٍ في الخصومةِ ، بل يستبقي أسبابَ الوُدِّ في النُّفوسِ بنظافةِ السُّلُوكِ وعَدَالةِ المُعامَلةِ؛ أَلاَ مَا أَجْمَلَ الصِّدق مَعَ اللهِ! وما أجْمَلَ صِدْقَكِ يا ذاتَ النِّطاقِ ومثلُكِ فلتكُنِ النِّساءُ.

صَبْرُهَا وصَلاَحُهَا :

* في رحْلةِ الصَّبرِ والصَّلاحِ تَضْرِبُ أسماءُ ـ رضي الله عنها ـ مُثُلاً عُلْيا في هذَا المجالِ الميمونِ ، فتصبرُ على الفَقْرِ ، وعلىٰ طاعةِ الزَّوجِ.

* يحكي عروةُ بن الزُّبير جَانباً مُهِمَّاً منْ قِصَّة صَبْرِ أُمِّهِ أسماءَ ، فيما رواهُ عَنْها قالَتْ: تزوَّجَنِي الزُّبيرُ ، ومالَهُ شيءٌ غيرَ فرسهِ ، فكنْتُ أسوسُه وأعْلِفُهُ ، وأدقُّ لنَاضِحِهِ[1] النَّوىٰ ، وأَستقي وأعْجِنُ ، وكنتُ أنْقُلُ النَّوىٰ منْ أرضِ الزُّبيرِ التي أقْطَعَهُ رسولُ اللهِ ﷺ علىٰ رأسي وهيَ علىٰ ثُلُثَي فَرسخٍ ، حتَّىٰ أَرْسَلَ إِليَّ أبو بكرٍ بَعْدَ ذلكَ خَادِماً ، فكَفَتْنِي سياسةَ الفَرسِ ، فكأنَّما أَعْتَقَنِي[2].

= ووافقه الذَّهبي ، وذكرهُ الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ١٢٣) ، وأخرجهُ ابنُ جرير في تفسيره (٢٨/ ٤٣) ، والسّيوطي في الدّرِّ المنثورِ (٨/ ١٣١) ، والواحدي في أسباب النّزول (ص٣٤٩) ، وانظر كذلك: تاريخ مدينة دمشق (تراجم النِّساء ص٦) ، وأسد الغابة (٦/ ١٠) وغيرها كثير.

(١) «ناضحه»: الناضح: البعير.

(٢) طبقات ابن سعد (٨/ ٢٥٠ و٢٥١) ، والإصابة (١٢/ ١١٤) ، وسير أعلام النبلاء (٢/ ٢٩٠ ـ ٢٩١) مع الجمع والتّصرّف اليسير. وانظر: زاد المعاد (٥/ ١٨٧) ، وللحديثِ أصلٌ في المسندِ ولفظه عن أسماء: كنتُ أخدمُ الزُّبيرَ خدمةَ البيتِ كلِّه ، وكانَ له فرسٌ ، وكنتُ أَسُوسُه ، وكنتُ أحتشُّ له ، وأقومُ عليه. (مسند أحمد ٦/ ٣٥٢).

* ويبدو أنَّ أسماءَ كانتْ تصبرُ وتتحمَّلُ شِدَّةَ زَوجها الزُّبير ، فقد أَتَتْ أبَاها الصِّدِّيقَ ذاتَ يومٍ ، وشكَتْ إليهِ شِدَّةَ الزُّبيرِ عليهَا ، هنالكَ أَثْنىٰ الصِّدِّيقُ علىٰ الزُّبيرِ ، وشَهِدَ بصَلاحِهِ ، وأَمَرهَا بالصَّبْرِ فقال: يا بُنية؛ اصْبِري ، فإِنَّ المرأةَ إذا كان لها زوجٌ صَالحٌ ثمَّ ماتَ عنْها فَلَمْ تزوَّجْ بَعْده ، جُمِعَ بينَهَما في الجنَّةِ[1] .

سَخَاؤُها وكَرَمُهَا :

* منْ أبْرزِ مناقبِ أسماءَ ـ رضي الله عنها ـ سِمَةُ السَّخَاءِ ، التي كانتْ علامةً بارِزةً في شخصيتها المعطاءِ الكريمةِ؛ ولَعَلَّ جُودَهَا نابعٌ منْ إيمانِها الصَّحيحِ بالله ـ عزَّ وجلَّ ـ ، ومعرفتها مكانةَ الأسْخياءِ والأَجْوادِ في عَالَمِ المكارمِ ، ولا عَجَبَ في سَخَاءِ أسماءَ ، فهيَ سَليلةُ أجْودِ الصَّحابة وأَسْخَاهُم وأعلاهم قَدْرَاً ومنزلةً وعلْماً ، إنَّه سيِّدنا أبو بكر الصِّدِّيق ـ رضْوانُ اللهِ عليه ـ ، ذلكم الرَّجلُ الذي تَغْبِطُه البِحَارُ على جُودِهِ بما يملك ، وبما كانتْ يداهُ تَهْطُلان مِنْ عَطاء .

يَا بَاذِلَ الأَمْوالِ نِلْتَ ببَذْلها ... مَالَمْ ينَلْ في المُسلمينَ مُمَوِّلُ
أَتْبَعْتَ نَفْسَكَ مَا ملكت فمهْجَةٌ ... تَنْهَالُ طيِّعَةً وكَفٌّ تَهْطُلُ

* لقد سَرَتْ نَفَحَاتُ السَّخَاءِ منْ نفسِ أبي بكر إلى نساءِ الأُسْرةِ البكريّة

---

(١) انظر : أعلام النساء (٢/ ٤٨).
ويظهرُ أنَّ الزُّبيرَ ـ رضوان الله عليه ـ كانَ شديداً على نِسَائِه ، فقد روت لنا أسماءُ ـ رضي الله عنها ـ ذلك فقالت: كنتُ رابعةَ أربعِ نِسْوةٍ عند الزُّبير ، فإذا غضبَ على إحْدَانا ضربَها بعودِ المشْجَبِ حتى يكسرَه عليها. (البحر المحيط ٣/ ٦٢٥).
وروىٰ ابنُ وهبٍ عن مالكٍ: أنَّ أسماءَ زوجَ الزُّبير كانتْ تخرجُ حتى عُوتبتْ في ذلك ، وعيْبَ عليها وعلى ضُرَّاتها ، فعَقَدَ شعْرَ واحدةٍ بالأخرى ، ثمَّ ضربَهُما ضرباً شديداً ، وكانت الضُّرةُ أحسنَ اتقاءً ، وكانتْ أسماءُ لا تتَّقي الضَّربَ ، فكانَ الضَّربُ بها أكثر ، فشكَتْ إلىٰ أبيها أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ فقال: يا بنية؛ اصبري فإنَّ الزُّبير رجلٌ صالحٌ، ولعلَّه أنْ يكونَ زوجك في الجنَّةِ (البحر المحيط ٣/ ٦٢٧).

كلِّهنَّ ، فقد كانتْ بناتُ أبي بكر الثَّلاثُ[1] غايةً في الجودِ ، حتَّىٰ لَقَدْ ضُرِبَ المَثَلُ بجودهنَّ ، وقد شَهِدَ عبدُ اللهِ بنُ الزُّبير بجودِ أُمّه وخالَته عائشةَ فقالَ: ما رأيتُ امرأةً قطّ أجْودَ منْ عائشةَ وأسماءَ ، وجُودهُما مختلفٌ ، أمَّا عائشةُ فكانتْ تَجْمَعُ الشَّيءَ إلىٰ الشَّيءِ ، حتَّىٰ إذا اجتمعَ عندها وضَعَتْه في مَواضِعِهِ ، وأمَّا أَسماءُ فكانتْ لا تدَّخِرُ شَيئاً لِغَدٍ[2] .

* ولعلَّ أسماءَ قَد اتَّبَعَتْ في هذا الجودِ وصيةَ رسولِ اللهِ ﷺ حينما أَمَرها بألاَّ تدَّخِرَ شَيئاً ، وألاَّ تمنعَ ما في يديها ، فتنقطعَ مادَّةُ الرِّزقِ عنها فقال: «يا أسماءُ لا تُحصي فيُحصي اللهُ عليكِ»[3] ؛ وبَعْدَ هذهِ النَّصيحة النَّبويّة تقولُ أسماءُ: فما أَحْصَيْتُ شيئاً بعد قَولِ رسولِ اللهِ ﷺ خَرَجَ منْ عِنْدي ولاَ دَخَلَ عليَّ ، وما نَفَدَ عندي منْ رزقٍ إلاَّ أَخْلَفَه اللهُ[4] .

* ولشدَّةِ حرْصِ أسماءَ على البذْلِ والسَّخَاءِ ، كانتْ تُوصي بناتِها وتحثُّهنَّ على الجُودِ والسَّخاء وعلىٰ الصَّدقاتِ فتقولُ: يا بنَاتي ، تَصَدّقْنَ ولا تَنْظُرن الفَضْلِ ، فإنّكُنَّ إنْ انتظرتُنَّ الفَضْل لَنْ تَجِدْنَهُ ، وإنْ تصدقْنَ تَجِدْنَ فَقْده[5] .

* ولهذا طارَ صيتُ أسماءَ بالسَّخاءِ ، وعُرِفَتْ بهذه الخصْلَةِ الكريمةِ ، حتَّىٰ قال عنها محمَّدُ بنُ المنكَدر[6]: كانتِ امرأةً سخيةَ

---

(١) بناتُ أبي بكر الصِّدِّيق هُنّ: أسماءُ ، وعائشةُ ، وأمُّ كُلثوم؛ رضي الله عنهن.
(٢) سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٩٢) ، والحديث رواه البخاري.
(٣) لهذا الحديثِ أصلٌ في الصَّحيح ، انظر البخاري في الهِبَةِ برقم (٢٥٩٠ و٢٥٩١) ، وفي الزكاة برقم (١٤٣٣ و١٤٣٤).
(٤) نساء من عَصْر النّبوة (١/ ٣٥٧)، وانظر تاريخ مدينة دمشق (تراجم النِّساء ص١٩) ، والحديث أخرجه أحمد في مواضع من المسند.
(٥) نساء من عَصْر النّبوة (١/ ٣٥٧) ، وانظر تاريخ مدينة دمشق (تراجم النِّساء ص١٩)، والحديث أخرجه أحمد في مواضع من المسند.
(٦) محمَّدُ بنُ المنكدر التَّيميّ المدنيّ: السَّيِّد الجليل ، كبيرُ الذّكْر ، سَمِعَ أبا هُريرة ، وابنَ عبّاس ، وجابراً ، وأنَساً ، وابنَ المسيِّب وأخرين. كان محمّدُ بنُ المنكدر منْ أزهدِ النَّاسِ وأعبدِهم ، وكان بيتُه مأوىٰ الصَّالحين ومجتمعُ العَابدين. =

النَّفسِ[1] ـ رضي الله عنها ـ.

طَرِيْفَةٌ بَيْنَ أَسْمَاءَ وحَمَاتِهَا صَفيَّةَ:

* صفيَّةُ بنتُ عَبدِ المطلب ـ رضي الله عنها ـ عمَّةُ النَّبيِّ ﷺ ، وأمُّ الزُّبيرِ وحَمَاةُ أَسْمَاء ـ رضي الله عنهم جميعاً ـ ، ويبدو منْ أخبارِ صفيَّةَ ـ رضوان الله عليها ـ أنَّها كانتْ شديدةَ الغَضَبِ إذا ما غَضِبَتْ ، وكانتْ مِنْ شَاعِراتِ الصَّحابةِ المُجيداتِ إنْ لم تكُنْ مِنْ أجْوَدهنَّ شِعْراً وبلاغةً وفَصَاحةً؛ ولعلَّ منْ طَريفِ ما حَدَثَ بينها وبينَ زوجةِ ابنها أسماء ، ما أوردَهُ ابنُ عساكر بسندٍ رفعه إلى عروةَ بنِ الزُّبيرِ فقال:

* جرىٰ بينَ صفيَّةَ بنتِ عبد المطلب ، وبين ابنها الزُّبيرِ بنِ العوَّامِ عِتَابٌ في أَمْرِ زوجتهِ أسماءَ بنتِ أبي بكر ، فَسَمِعَتْ الذي جرىٰ بينهما مِنْ ذلك خديجةُ بنتُ الزُّبيرِ ، وهيَ جارِيةٌ صغيرةٌ ، وكانتْ تكونُ مع جدّتها صفيّةَ.

فقالتْ لأُمِّها: يا أمّتاه ، لأي شيءٍ اشتكيتِ جدّتي حتى اشتكَتْ إلىٰ أبي؟ فلم تزلْ بها أسماءُ حتَّىٰ أخبرتْهَا الخبرَ.

فضجَّتْ أسماءُ منْ شكوىٰ صفيّة لَهَا ، وتعذَّرتْ منْهُ ، فبَلَغَ صفيَّةَ ما كانَ منها ، فَغَضِبَتْ وقالتْ للزُّبير: يكونُ بيني وبينكَ شيءٌ فترفعهُ إلىٰ امرأتِكَ وتُؤْثرها عليَّ؟ فقال ـ وهو لا يَعْلَمُ مَنْ نَقَلَ الحديثَ ـ: لا واللهِ يا أمَّتاهُ ما فعلتُ! فازْدَادتْ غضباً ، وكان غضبُها ما لا يُطاقُ ، فاندفعتْ تقول:

عَالجتُ أَزْمَانَ الدُّهور عليكمُ　　　وأسماءُ لم تشْعُرْ بذلك أيِّمُ

= قيل له: أيُّ الأعمالِ أفْضَل؟
قالَ: إدخالُ السُّرور علىٰ المؤمنين.
وقيل له: أيّ الدّنيا أحبُّ إليك؟
قال: الإفضالُ علىٰ الإخوان. وأخباره كثيرة جداً ، توفي سنة (١٣٠ هـ) رحمه الله.
(شذرات الذهب ٢/ ١٢٨ و١٢٩) بتصرف.

(١) طبقات ابن سعد (٨/ ٢٥٣).

فيكثـرُ إنْ عُـوفيتـمُ وسلمتُـمُ سُروري وإنّـي إنْ مـرضتُـم لأرزمُ
وتُؤثرُ أخرىٰ لَمْ تلِدْكَ علىٰ التي لهـا الحـقُّ يثنـوه فصيـحٌ وأعجـمُ
فَلو كَانَ في الكُفَّارِ زَبْرٌ عَذَرْتُهُ ولكَـنَّ زبْـراً أيُّهـا النَّـاسُ مُسْلِـمُ

وعَلِمَ الزُّبيرُ منْ حيثُ خَرَجَ الخبرُ ، فقالَ لها: يا أمّتاه ، التي خرجَ الحديثُ منها ابنتك خديجة ، قالت: كذاكَ!! لا تدخل عليَّ خديجةُ أَبَداً[1] .

أَسْمَـاءُ بَيْـنَ العِـلْـمِ والـوَرَعِ والفِقْـهِ:

* لئنْ حلَّقتْ أسماءُ بنتُ أبي بكرٍ الصِّدِّيق ـ رضي الله عنها ـ في سمواتِ الفَضَائلِ والمكارمِ والجودِ والتَّضحيةِ ، لقد بَرعتْ في العِلْمِ ، والورَعِ ، والفِقْهِ ، والفَهْمِ ، والمعرفةِ ، وروايةِ الحديثِ النَّبوي الشَّريفِ ، والجهادِ ، وما شَابهَ ذلك.

* ومَّا يُطالِعُنا منْ عِلْمِ أَسْماءَ خوفُها منَ اللهِ عزَّ وجلَّ ـ ومعرفةُ معاني آياتِه الكريمةِ في القُرآنِ الكريمِ ، وتمثُّلُهَا بها في حياتِها وفي عبادتها ، ذكرَ الزُّبيرُ زوجُها ما رَآه من زوجِهِ أسماءَ وهي تقفُ بينَ يَدي اللهِ خاشعةً عابدةً فقال: دخلتُ علىٰ أسماءَ وهيَ تُصَلِّي فسمعتُها وهي تَقْرأُ هذه الآية: ﴿ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴾ [الطُّور: ٢٧] فاستعاذتْ فقمتُ وهيَ تَستعيذُ ، فلمَّا طالَ عليَّ أتيتُ السُّوقَ ثمَّ رجعتُ وهي في بكائِها تستعيذُ[2] .

* ولَقَد امتدتِ الحياةُ بأسماءَ ، فامتدَّ مَعَها العِلْمُ ، واتَّسَعَتْ معارفُها ، ولما ظهرتْ بعضُ المخالفاتِ منْ بعضِ النَّاسِ ، نَعَتْ عليهم سيرتَهم

---

(١) تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء ص١٧ و١٨).
ومن الجديرِ بالذكرِ أنَّ صفيةَ بنتَ عبد المطلب كانتْ ترقِّصُ عبدَّ الله بنَ الزُّبير ، وتحبُّه ، ومِنْ ترقيصها له ما ذكره ابنُ حبيب في «المنمّق»:
إنَّ ابنـي الأصغـرَ حِـبٌّ حَنْكَـلْ أخـافُ أنْ يعصَينـي ويبْخَـلْ
يـا ربّ أمتعنـي بِبِكْـري الأوّل المـاجـدِ الفيّـاضِ والمـؤمّـلْ
(٢) حلية الأولياء (٢/ ٥٥) ، وتاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء ص٢٠) ، والدر المنثور للسيوطي (٧/ ٦٣٥).

ومسيرتَهم في طريقِ الخَطأ ، خصوصاً أولئكَ الذينَ يظهرونَ الوَجْدَ ، ويمزّقون ثيابَهم عند سماعِ القُرآنِ.

* فقد كانَ بعضُ المستَمعينَ ـ كما ذكرَ ابنُ الجوزي ـ يُظْهِرون أشياءَ عجيبةً منْ ذلكَ التَّخبيط الذي يسمّونَه الوَجْدَ ، وتخريقَ الثِّيابِ ، واللَّطمَ علىٰ الرَّأْسِ والوجهِ ، فترىٰ الوَاجِدَ بزعْمِهِ يستغيثُ ، ويخرقُ ثيابَه ، ويقعُ علىٰ النَّاس ، وما جرىٰ مثل هذا لأصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ ، وقد كانُوا أصفىٰ قلوباً ، وأَصْلحَ أَعْمالاً[1].

* حدَّثَ حُصينُ بنُ عبد الرحمن السُّلَميُّ الكوفيُّ الحافظُ المتوفىٰ سَنَةَ (١٣٦ هـ) قالَ: قلتُ لأَسْمَاءَ بنتِ أبي بكر ـ رضي الله عنهما ـ: كيفَ كانَ أصحابُ رسولِ اللهِ ﷺ عنْدَ قراءَةِ القُرآن؟ قالتْ: كانوا كما وصفَهم الله ـ عزَّ وجلَّ ـ تدمعُ عيونهُم ، وتقشعرُّ جُلُودهم[2]؛ فقلتُ لها: إنَّ هاهنا رِجَالاً إذا قُرِىءَ عليهمُ القُرآنَ غُشِيَ عليهم.

فقالتْ: أعوذ باللهِ منَ الشَّيطانِ الرَّجيم[3].

---

(١) انظر كتاب: القصّاص والمذكّرين لابن الجوزي (ص٢٩٩).

(٢) تشيرُ أسماءُ في قولها هذا إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ [المائدة: ٨٣] وإلىٰ قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣].

(٣) انظر: البحر المحيط (١٩٦/٩) ، وتاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء ص٢٠) ، وكتاب القصَّاص والمذكّرين (ص٢٩٩ و٣٠٠). ويعلّقُ ابنُ الجوزي قائلاً ما مفادُه: أمَّا التَّخبُّطُ وتخريقُ الثّياب ، فليسَ منْ قانونِ الشَّرع ، ولذلك أمَرَ بخفْضِ الصَّوتِ وغضّهِ ، وقد قالَ تعالىٰ: ﴿إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ [لقمان: ١٩] ، فالشَّريعَةُ وقارٌ وسَدَادٌ. فإنْ قالَ قائلٌ: إنَّ الذينَ يمزّقونَ ثيابَهم لا يعقلون حينئذ؛ فقد قالَ ابنُ عقيل: إذا علمُوا أنَّ حضورَهم تلك الأماكن يُوجب لهم طرباً يزيلُ عقولَهم أثموا بالحضور ، ووجبَ عليهم تجنُّبها ، هذا إنْ صدقُوا في غلبةِ الطَّرب عليهم ، وإن كذبُوا فقد أفسدوا مع الصُّحبةِ ، فلا يسلمون في الحالَيْن. (كتاب =

* ونعىٰ محمدُ بنُ سِيرينَ ـ رحمه الله ـ علىٰ هؤلاءِ المنحرفينَ طريقَتَهم فقال: بينَنا وبينَ هؤلاءِ الذينَ يُصْرعُون عنْدَ قراءةِ القُرآن، أنْ يُجْعَلَ أحدهم على حائِطٍ بَاسِطاً رجليهِ، ثُمَّ يُقرأُ عليهِ القُرآن كلّه، فإنْ رمىٰ بنفسهِ فهوَ صَادِق[1].

* وكانتْ أسماءُ ـ رضي الله عنها ـ إحدىٰ فقيهات بناتِ الصَّحابة، ولها أحكامٌ وآراءٌ تَصْدرُ عنْ عِلْمٍ ومعرفةٍ، منْ ذلكَ أنَّ ابنها المنذرَ قَدِمَ منَ العراقِ، وأرسلَ إليها بكسوةٍ منْ ثيابٍ رقاقٍ، وذلكَ بعدما كُفَّ بصرُهَا، فلمَسَتْها بيدها، ثمَّ قالتْ: أفّ، رُدّوا عليه كسوتَه؛ فشَقَّ ذلكَ علىٰ المنذر، فخاطبها: يا أمّه، إنَّه لا يَشِفُّ[2].

فقالتْ: إنَّها إنْ لَمْ تَشِفَّ فإنَّها تَصِفُ[3].

فهدأ المنذرُ، ثمَّ اشْتَرىٰ لها ثياباً أخرىٰ تَصْلُح لها فقبِلَتْها، وقالتْ: مثل هذا فاكْسِني.

* ومنَ المعارفِ التي تقترنُ بشخصيّةِ أسماءَ، وتزيدُ منْ رصيدِها في العِلْمِ تعبيرُها الرُّؤىٰ والأَحْلام؛ ففي طبقاتِ ابنِ سَعْدٍ عنِ الواقدي قال: كانَ سعيدُ بنُ المسّيب منْ أعْبَرِ النَّاسِ للرُّؤيا، وكانَ أخَذَ ذلك عنْ أسماءَ بنتِ أبي بكر، وأخذَتْه أسماءُ عنْ أَبِيها[4].

حِفْظُهَا للحَدِيْثِ النَّبويِّ ومَرويَّاتُهَا:

* إذا ما تَنَقَّلْنَا في واحَةِ معارفِ أسماءَ بنتِ أبي بكر ـ رضي الله عنهما ـ، أَلْفَيناهَا منْ أكْثرِ بنَاتِ الصَّحابةِ روايةً وحِفْظاً لأَحاديثِ رسُولِ اللهِ ﷺ، بل هيَ

= القصاص والمذكرين ص ٣٠٠ و٣٠١) بتصرف.
(١) البحر المحيط (٩/ ١٩٦).
(٢) «لا يشفّ»: لا يَظْهرُ ما تحته.
(٣) «تَصِفُ»: أي تظهر معالمَ الجسم لضيقه.
(٤) تهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٥٩٨).

المرأةُ الثَّانيةُ في نِساءِ البيتِ البكْريّ في حفْظِ الحديثِ النَّبوي ، حيثُ سَبَقَتْها أختُها عائشةُ في هذا المجالِ ، فأسماءُ رضي الله عنها منْ أصحابِ العَشَرات[1] في روايةِ الأَحاديث ، وكذلك زوجُها الزُّبير ، فقد رَوَتْ أكثرَ منْ زوجِها ، وزادتْ عليه عشرينَ حَديثاً ، حيثُ رَوَتْ (٥٨ حديثاً) ، بينما روى الزُّبيرُ (٣٨ حديثاً).

* روىٰ عنْ أسماءَ منَ الرِّجالِ: ابناها عبدُ الله ، وعروةُ؛ وحفيدُها: عبدُ الله بنُ عروةَ ، ومولاها: عبدُ اللهِ بنُ كَيْسانَ ، وابنُ عبَّاس ، ومحمدُ بنُ المنكدر ، ووهْبُ بنُ كَيْسان.

* وروىٰ عنْ أسماءَ من النِّساء: فاطمةُ بنتُ المنذرِ بن الزُّبير ، وصفيةُ بنتُ شَيبةَ[2] ، وأمُّ كُلثوم مولاة الحجَبَة ، وغيرُ هؤلاءِ كثير[3].

---

(١) المقصودُ بأصحابِ العشَرات ، أي الصَّحابة الذين لم تتجاوزْ مروياتُهم مئة حديث ، ومنَ النِّساء اللواتي يُعْتبرن منْ أصحابِ العشَرات:
* أسماءُ بنتُ يزيد بن السَّكَن ، روت (٨١ حديثاً).
* ميمونةُ بنت الحارث أمُّ المؤمنين ، روت (٧٦ حديثاً).
* أمُّ حبيبةُ أمُّ المؤمنين ، روت (٦٥ حديثاً).
* أسماء بنت عُميس ، روت (٦٠ حديثاً).
* أسماء بنتُ أبي بكر ، روت (٥٨ حديثاً).
* أمُّ هانىء بنتُ أبي طالب ، روت (٤٦ حديثاً).
* فاطمةُ بنتُ قيس ، روت (٣٤ حديثاً).
* أمُّ الفضلِ بنتُ الحارث ، روت (٣٠ حديثاً).
* أمّ قيس بنتُ مِحْصَن ، روت (٢٤ حديثاً).
* الرُّبَيِّع بنتُ معوِّذ ، روت (٢١ حديثاً).
وللمزيد من أخبارِ هؤلاء النِّسوة الكريمات ، والطَّاهرات الصَّحابيات العالمات ، اقرأ كتابنا «نساءُ أهلِ البيت في ضوء القرآن والحديث»؛ وكتابنا: «نساءٌ من عصر النبوة» تجد ما يسرُّ الفؤاد ، بإذن ربِّ العباد.

(٢) اقرأ سيرة صفية بنت شيبة ـ رضي الله عنهما ـ في هذه الموسوعة المباركة بإذن الله.

(٣) سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٩٢) ، والإصابة (١٢/ ١١٥) ترجمة رقم (٤٦) ، وتهذيب =

* وأحاديثُ ومروياتُ أسماءَ موجودةٌ في الصَّحِيحَيْنِ ، وفي السُّنَنِ ، والمَسَانيد ، وقدِ اتَّفَقَ الشَّيخانِ البخاري ومسلم على (١٤ حديثاً) ، وانفردَ البُخاريُّ بأربعةِ أحاديث ، كذلك انفردَ مسلمٌ بأربعةٍ أيضاً[1] .

* ومن مروياتِ أسماءَ في الصَّحيح ما جاءَ عند مُسلم بسنده عن ابن أبي مُليكة قال: قال عبدُ اللهِ بنُ عمرو قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «حَوْضي مسيرةُ شَهْر ، وزواياه سواء ، ماؤُه أبيضُ من الوَرِقِ ، وريحُه أطيبُ منَ المِسْكِ ، كيزانُه كنجومِ السَّماء ، منْ شَربَ منه لم يَظْمَأْ بَعْدَها أبداً» .

* قال: وقالتْ أسماءُ بنتُ أبي بكْر: قال رَسولُ اللهِ ﷺ: «إنّي علىٰ الحوضِ حتَّىٰ أنظرَ مَنْ يَرِد عليَّ منكم ، وسيوجدُ أُناسٌ دوني ، فأقولُ: يا ربّ ، منّي ومنْ أمتي ، فيقال: ما شعرتَ ما عَمِلُوا بعدك ، واللهِ ما برحُوا بعدكَ يرجعون علىٰ أعقابِهم» .

* فكانَ ابنُ أبي مُليكة يقولُ: اللهم إنَّا نعوذُ بك أنْ نرجعَ على أعقابِنا ، أو نُفْتَنَ عنْ دِينِنا[2] .

* ومنْ مروياتِ أسماءَ أيضاً في الصَّحيح عن الحمىٰ ما أخرجه الشَّيخان عنها ، فقد أخرجَ مُسلمٌ في صحيحه بسندهِ عن أبي بكر بنِ أبي شَيبة ، عن عبدةَ بنِ سُليمان عن هشام عن فاطمةَ عن أسماءَ ـ رضي الله عنها ـ أنَّها كانتْ تُؤتىٰ بالمرأةِ الموعوكةِ ، فتدعُو بالماءِ فتصبُّه في جَيبها ، وتقول: إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «أبردوها بالماءِ» ـ أي: الحمىٰ ـ. وقال: «إنَّها منْ فَيحِ جهنَّمَ»[3] .

= الأسماء واللغات (٢/ ٥٩٧) ترجمة (١١٥٥) مع الجمع والتصرف. وانظر: أسد الغابة (٦/ ١٠) ترجمة رقم (٦٦٩٨) ، وتهذيب التهذيب (١٠/ ٤٥١) ترجمة رقم (٨٨٢٢) ، وتاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء ص٣).

(١) الإصابة (١٢/ ١١٥) ، وأعلام النساء (١/ ٤٨ و٤٩) مع الجمع والتصرف.

(٢) أخرجه مسلم.

(٣) أخرجه مسلم في السَّلام برقم (٢٢١١) ، والبخاري أيضاً في الطِّب برقم (٥٧٢٤). =

* وقَدْ أفَاضَ الأَطبَّاءُ قَديماً وحَديثاً في الحديثِ عنِ الهديِ النَّبويِّ في علاجِ الحُمّىٰ ، ففي حَديثِهِ عنِ الطِّبِّ النَّبويِّ يقولُ ابنُ قيّم الجوزيةِ ما محصّله وملخصه:

* وقد ينتفعُ البدنُ بالحُمىٰ انتفاعَاً عَظِيماً لا يبلغُه الدَّواءُ ، إذْ تكونُ الحمىٰ سَبَباً لإنْضَاجِ موادَّ غليظة لم تكنْ تَصلُ إليها الأدويةُ.

* وقالَ لي بعضُ فُضَلاءِ الأطبّاء : إنَّ كَثيراً منَ الأمراضِ نستبشِرُ فيها بالحمىٰ ، كما يستبشرُ المريضُ بالعافيةِ ، فتكونُ الحمىٰ فيه أنْفَعَ منْ شُربِ الدَّواءِ بكثير ، فإنَّها تنضجُ منَ الأَخلاطِ والموادّ الفاسدةِ ما يضرُّ بالبدنِ ، فإذا أنضجتها صادفَها الدَّواء متهيئة للخروجِ بنضاجِها فأخرجها ، فكانتْ سَبباً للشِّفاء.

* وقالَ الرَّازي : إذا كانتِ القوَّة قويةً ، والحمىٰ حادّة جدّاً ، ينفعُ الماءُ الباردُ شُرباً.

* وقد نهىٰ الرَّسولُ ﷺ أمَّ السَّائب الأنصاريّة عندما كانتْ ترتعدُ من الحُمىٰ فقالت : لا باركَ اللهُ فيها ؛ فقال ﷺ : «لا تسبّي الحُمىٰ ، فإنَّها تُذْهِبُ خطايَا بني آدم كما يذهبُ الكيرُ خبْثَ الحديد»[1].

* فالحمىٰ أشْبَهُ الأَشْيَاء بنارِ الكِيْرِ التي تُصَفِّي جوهرَ الحديدِ. وأمَّا تصفيتُها القَلْبَ منْ وسَخِهِ ودَرَنِهِ ، وإخراجها خَبَائثه فأمْرٌ يعلمه أطبّاء القُلوب ، ويجدونَه كما أخبرهم به نبيُّهم رسولُ الله ﷺ ، فالحُمىٰ تنفعُ البَدنَ

= وقد علَّقَ ابنُ قيِّمِ الجوزيّة تعليقاً نفيساً علىٰ هذا الحديثِ فقالَ ما مفادهُ:
وقد أشْكلَ هذا الحديثُ علىٰ كثيرٍ منْ جَهَلَةِ الأطبّاء ، ورآهُ منافياً لدواءِ الحمّىٰ وعلاجها ، وخطابُ النَّبيِّ ﷺ نوعان : عامٌّ لأَهْلِ الأرض ؛ وخاصٌّ ببعضهم.
وخطابُه في هذا الحديثِ خاصٌّ بأهلِ الحجاز وما والاهم ، إذْ كانَ أكثرُ الحميّات التي تَعْرِضُ لهم من نوعِ الحمّى اليوميّة العَرضية الحادثة عن شِدَّةِ حرارةِ الشَّمس ، وهذه يَنْفعُها الماءُ الباردُ شرباً واغتسالاً. (الطب النَّبوي ص ٨٩ و٩٠).

(١) أخرجه مسلم برقم (٤٥٧٥) ، وابن ماجه برقم (٣٤٦٩).

والقَلْبَ ، وسبُّها عدوانٌ وظُلْمٌ ، وذكرتُ مرّةً وأنا محمومٌ قولَ بعض الشُّعراء :

زَارَتْ مُكَفِّرةُ الذُّنوبِ وودَّعَتْ تبّاً لها مِنْ زَائِرٍ ومُودعِ
قالتْ وقَدْ عَزَمَتْ علىٰ تَرْحَالِها ماذَا تُريدُ فقلتُ ألاَّ تَرجعي

فقلتُ : تبّاً له إذْ سَبَّ ما نهىٰ رسولُ الله ﷺ عن سبِّه ؛ ولو قال :

زارَتْ مُكَفِّرةُ الذُّنوبِ لِصَبِّهَا أهْلاً بها مِنْ زائرٍ ومودّعِ
قالتْ وقَدْ عزَمَتْ على تَرحالها ماذا تُريدُ فقُلْتُ ألاَّ تُقْلِعي

لكانَ أولىٰ بهِ، ولأقلعتْ عنْهُ، فأقلعتْ عنّي سَريعاً[(١)].

* وفي حديثِهِ عنِ الحقائقِ الطِّبيّةِ في الإسلامِ يقولُ الدّكتورُ عبد الرَّزَّاق الكيلاني ما ملخَّصُه : يُعَدُّ العلاجُ بالماءِ ـ سواءً أكانَ حارّاً أمْ بارداً ـ منْ وسائِلِ العلاجِ الطَّبيعيِ ، وتُقامُ له المصحّاتُ في كثيرٍ منْ بلادِ العَالَم ، أمَّا الماءُ الحارّ ، فيفيدُ في كثيرٍ منَ الأمراضِ النَّاجِمةِ عنِ البرْدِ ، أو عن الرِّثيَّةِ (الرُّوماتيزم).

* وأمَّا المعالجةُ بالماءِ البارِدِ ، فتفيدُ في كثيرٍ من الحميّات ، وبخاصةٍ الحمىٰ النَّاشئة منْ ضَربةِ الشَّمْسِ ، أو ضربةِ الحرارة ، كأنْ ترتفعَ حرارةُ البدنِ إلىٰ أكثرَ منْ (٣٩) درجة مئوية ، لذلك يسارعُ الطَّبيبُ إلىٰ المعالجةِ بالماءِ البارِدِ ، فتُبَلُّ به منشَفةٌ يُلفُّ بها جسمُ المريضِ ، وتبدَّلُ كلَّما جفَّتْ. وهذا العِلاجُ بالماءِ قدْ أرساهُ النَّبيُّ ﷺ منذُ أربعة عشَر قَرناً فاستعْملَه لنفسهِ ، ووصفَه لأصحابه[(٢)].

* ومنْ مروياتِ أسماءَ أيضاً ما أخرجه مُسلم بسندٍ عن عبدِ اللهِ مولىٰ أسماءَ منْ حديثٍ جاءَ في آخرِه أنَّها أخرجتْ جبَّةَ رسولِ اللهِ ﷺ فقالتْ : هذه كانتْ عند عائشةَ حتى قُبِضتْ ، فلما قُبِضتْ قبضتُها ، وكانَ النَّبيُّ ﷺ

---

(١) الطب النبوي (ص٩١ ـ ٩٧) لابن قيم الجوزية ، باختصار وتصرّف.
(٢) الحقائق الطبية في الإسلام (ص٣٤٥ و٣٤٦).

يلبسُها ، فنحنُ نَغْسِلُها للمرضىٰ يُسْتَشْفىٰ بها(١) .

* ومنْ مروياتِ أسماءَ المُفيدة والمهمّة في عَالَم فقهِ النِّساءِ ما أخرجَهُ الإمامُ أحمد بسندٍ رفَعَه إلىٰ فاطمةَ بنتِ المنذر عنْ أسماءَ قالتْ: أتتِ امرأةٌ النَّبيَّ ﷺ فقالتْ: يا رسولَ اللهِ ، إنَّ لي ابنةً عريساً ، وإنَّه أصابَتْها حَصْبةٌ فتمرَّقَ شَعْرُها ، أَفَأَصِلُه؟! فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «لَعَنَ اللهُ الواصلةَ والمستوصلة»(٢) .

الرِّحْلَةُ إلىٰ النَّعيم المُقيم :

* ظلَّتْ أعمالُ أسماءَ وآثارُها جليلةَ المِقْدارِ ، تَصِلُ العملَ الطَّيِّبَ بالآخرِ ، فحياتُها فَضْلٌ في فَضْلٍ في فَضْل ، وفي رحلةِ حياتِها معَ الفَضَائِلِ نَجِدُ أسماءَ تتابعُ رحلةَ الجِهاد ، فها هي تَصْحَبُ زوجَها الزُّبير ـ رضي الله عنهما ـ إلىٰ بلاد الشَّام كيما تشهدَ معركةَ اليرموكِ ، وكيما تُكْتَبَ في سجلِّ بناتِ الصَّحابة اللواتي شَهِدْنَ تلكمُ المعركةَ الفَاصِلةَ .

* وامتدتِ الحياةُ بأسماءَ ابنةَ أبي بكر حتَّى بلغتْ منَ الكبرِ عتياً ، وحتَّىٰ اشتعلَ رأسُها شيباً ، إلاَّ أَنَّ قلبهَا ظلَّ يشتعلُ حَمَاساً ولم يُنْكَرْ منْ عقلِها شيءٌ ، ولم يَسقُطْ لها سِنٌّ علىٰ الرَّغمِ مِنْ أنَّها بلغتْ قرابةَ قَرْنٍ منَ الزَّمانِ ، حتى عُدَّتْ منْ عجائزِ الجنَّة(٣) ـ رضي الله عنهنَّ ـ .

---

(١) أخرجه مسلم في اللبّاس والزّينة برقم (٢٠٦٩) ، والحديث أخرجه أحمد (١٠/ ٢٧١) برقم (٢٧٠٨) ، وأخرجه النسائي وابن ماجه. وانظر طبقات ابن سعد (١/ ٤٥٤) وتاريخ الإسلام للذهبي ، (السيرة النبوية ص٥٠٣) .

(٢) المسند (١٠/ ٢٦٦) برقم (٢٦٩٨٤) ، وانظر صحيح البخاري برقم (٥٩٤١ و٥٩٣٥) و«تمرّق» : انتثر وتساقط .

(٣) افتخرَ عروةُ بنُ الزُّبير أمَامَ عبدِ الملك بنِ مروان فقال: أنا ابنُ عجائز الجنَّة. يعني: صفية بنت عبد المطلب عمّة رسولِ الله ﷺ، وهي أمّ الزُّبير، وخديجة بنت خُويلد سيّدةُ نساءِ العَالَمين، وهي عمّة الزُّبير، وعائشة أم المؤمنين بنت أبي بكر **الصَّدِّيق** وهي خالة عبدِ اللهِ، وأسماء ذات النطاقين بنت أبي بكر الصّديق **وهي أمّ عبد الله.** =

* ولأسماءَ في رحلةِ حياتِها الطَّويلةِ موقفٌ عظيمٌ مع ابنها عبدِ اللهِ بنِ الزُّبيرِ عندما خَذَلَهُ النَّاسُ ، وحاصَرَهُ الحَجَّاجُ في المسجدِ الحرامِ ، فَشَكَا ما انْتَابَهُ لأُمِّه أسماء ، فقالتْ له كلماتٍ تدلُّ علىٰ نفْسِها الكبيرةِ التي تغذَّتْ بالكرامةِ فقالتْ : يا بُني عِشْ كريماً ، ومُتْ كريماً ، لا يأخذكَ القومُ أَسيراً .

* وتوجَّسَ عبدُ اللهِ بنُ الزُّبير في نَفْسِه خيفةً منْ أَنْ يُمَثَّلُ بجثَّتِهِ إنْ هو سَقَط شهيداً ، وأفاضَ ما في نفسِهِ لأمِّه هامِساً في أُذنها : أخافُ إنْ قُتلتُ أنْ يمثِّلُوا بي ويصلبُوني .

* فما كانَ منْ أسماءَ إلاَّ أَن قالَتْ قولتَها المشهورة في عَالَمِ الأَمْثَالِ : يا بُنيَّ إنَّ الشَّاةَ لا يضرُّهَا السَّلْخُ بَعْدَ الذَّبحِ[1] ، يا بني امْضِ علىٰ بصيرتكَ واستعنْ باللهِ .

* وكانت كلماتُ أسماءَ النُّورانية بَرْداً وسَلاماً علىٰ قَلْبِ عبدِ اللهِ ، فذهبَ وقَاتَلَ وصَبرَ حتَّى قُتِلَ ـ رضي الله عنه ـ وهو يتمثَّلُ بهذهِ الأبيات :

أسْمـــاءُ إنْ قُتِلْـــتُ لا تَبْكينـــي لَـــمْ يَبْـــقَ إلا حَسَبـــي ودِينـــي
وَصَارِمٌ لانَتْ به يميني[2]

* ويروي ابنُ عبد ربّه أنَّ عبدَ اللهِ لما قُتِل كبَّرَ الحجَّاجُ بنُ يُوسُفَ وأهلُ الشَّامِ معه ، فقال عبدُ الله بنُ عمر ـ رضي الله عنهما ـ : ما هذا؟

= (ثمار القلوب ص ٣٠١) بتصرف يسير ، وانظر (وفيات الأعيان ٣/ ٢٥٥) .

(١) قالَ الثَّعالبي : كان يُقال : لو كانَ أبناءُ أبي بكْرٍ كبَنَاتِهِ ، لعزَّ علىٰ عمرَ نيلُ الخلافةِ ، لأنَّ عائشةَ صاحبةُ يومِ الجمل؛ وأسماء هي التي حضَّتْ ابنهَا عبدَ اللهِ بنَ الزُّبير علىٰ صِدْقِ القتَال والجدِّ في المكافحةِ والتَّحصُّنِ بالكعبةِ . ولمّا قالَ لها عبدُ اللهِ وقد اشتدَّ به الأَمْرُ في محاصرةِ الحجاج إياه : يا أمّ ، إنّي لا أخاف القَتْلَ ولكنْ أخافُ المُثْلَة . فقالتْ : يا بُنيّ إنَّ الشَّاةَ المذبوحةَ لا تألم للسَّلْخ . فسار قولها مثلاً . (ثمار القلوب ص٢٩٤) .

(٢) حياة الصَّحابة (١/ ٥٧٤) نقلاً عن مجمعِ الزّوائد (٧/ ٢٥٦)؛ ومعنىٰ «لانَتْ» : أي صارت ليّنة بحمله والضّرب به .

فقالوا: كبَّر أهلُ الشَّام لِقَتْلِ عبدِ اللهِ بنِ الزُّبير.

فقال: الذين كبّروا لمولدِه خَيرٌ منَ الذين كبَّروا لِقَتْلِه[1].

وصَلَبَ الحجَّاجُ عبدَ اللهِ بنَ الزُّبيرِ، فقالَ ابنُ عمرَ لما رآهُ مَصلُوباً: أمَا واللهِ، إنْ كُنْتَ، ما عَلِمْتُ صَوّاماً قوّاماً، وصُولاً للرّحم، أمَا واللهِ لأُمَّةٌ أنتَ شَرُّها لأُمَّةُ خيرٍ[2].

* وصَبَرتْ أسماءُ لمُصَابِها الأليمِ، ونُميَ إلىٰ الحجَّاج تجلُّد أسماءَ وصبرِها، فأرسلَ إليها، فأبَتْ أنْ تأتيَه، ولما عجزَ الحجَّاجُ عَنْ طَلَبِها، قامَ حتَّىٰ دخلَ عليها فقال: كيفَ رأيتني صَنَعْتُ بعدوِّ اللهِ؟

قالتْ: رأيتُك أفسدتَ عليه دُنياه، وأَفْسَدَ عليكَ آخرتك. بلغني أنَّك تقولُ له: يا بْنَ ذاتِ النِّطاقَين! أنَا واللهِ ذاتُ النِّطاقَيْن؛ أمَّا أحدُهُما فكنْتُ أرفُعُ بهِ طعامَ رسولِ اللهِ ﷺ وطعامَ أبي بكْرٍ منَ الدَّوابِّ، وأمَّا الآخرُ فَنِطاقُ المرأةِ التي لا تَسْتَغني عنه. أَمَا إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ حَدَّثَنا: «أنَّ في ثقيفٍ كذاباً ومبيراً» فأمَّا الكذَّابَ فرأيْنَاه، وأمَّ المبيرُ فلا إخَالُك إلا إيّاه؛ فقامَ عنها ولم يراجعْهَا[3].

* وأُوتيَتْ أسماءُ بابْنِها، فغسَّلَتْهُ بماءِ زمزمَ[4]، ثمَّ حنَّطَتْهُ وكفَّنَتْه ـ وكانَ قَد ذَهَبَ بَصرُها ـ، ولمَّا أُدرِجَ في أكْفَانِهِ، صَلَّتْ عليه، ودَفَنَتْهُ في المعلاَّةِ بِمَكَةَ، وكانَ ذلك عام ٧٣ هـ.

---

(١) العقد الفريد (٤/ ٤١٩) بتصرف يسير، وانظر: وفيات الأعيان (٣/ ٧٤ و٧٥).

(٢) قطعة من حديث طويل أخرجه مسلم في صحيحه برقم (٢٥٤٥).

(٣) قطعة من الحديث السّابق الذي أخرجه مسلم برقم (٢٥٤٥)، وأخرجه أحمد في بضعة مواضع من المسند، وخبرها مع الحجاج يدل على عقل كبير، ودين متين وقلب صبور.

(٤) شفاءُ الغرام للفاسي (١/ ٤١٥)، وذكرَ الفاسي عنِ الفاكهي أنَّ أهلَ مكةَ يغسلون موتاهم بماء زمزمَ إذا فرغُوا من غَسْل الميّت وتنظيفه تبركاً به، وذكرَ أنَّ أسماء بنت أبي بكر الصديق قد غسلتْ ابنها عبد الله بماء زمزم.

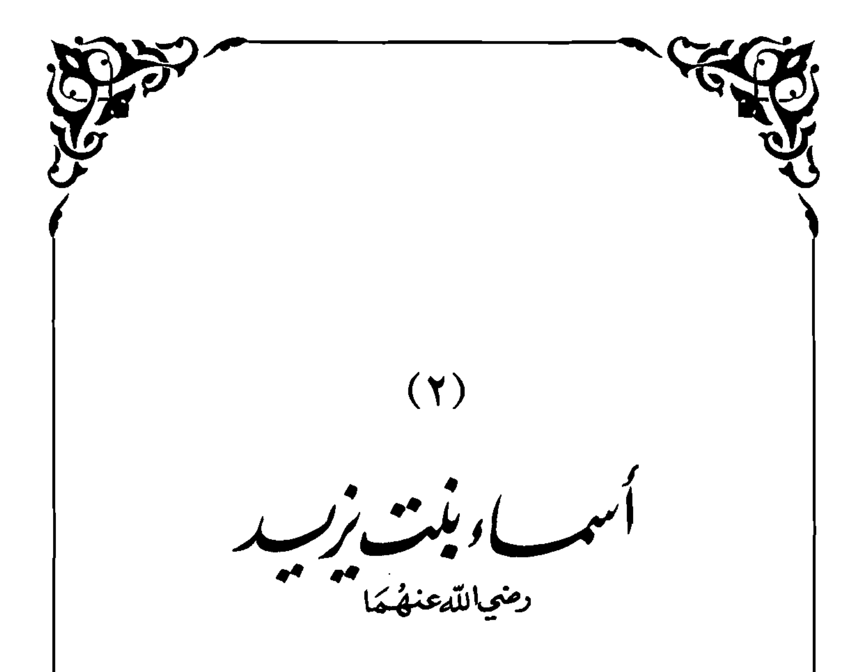
* ولم تَطُلِ الأيامُ بأسماءَ بَعْدَ وفاةِ ابنها عبدِ اللهِ ، فمَا أتتْ عليها جُمُعَةٌ حتَّى ماتَتْ بعدها ، وأَوصَتْ أهلَها وصيةً جامعةً فيما رَوتْهُ فاطمةُ بنتُ المنذر عنها أنَّها قالتْ لأَهلِها: أجمروا ثيابي إذا متُّ ، ثمَّ حنّطُوني ، ولا تذرُّوا علىٰ كَفَنِي حنُوطاً ، ولا تتبعوني بِنَار ، ولا تدفنُوني لَيْلاً[1].

* قالَ الإمامُ الذَّهبيُّ ـ رحمه الله ـ: كانتْ أسماءُ خاتمةَ المُهاجرينَ والمهاجراتِ وفاةً. وكانتْ وفاتُها في سَنَةِ (٧٣ هـ) ، ويبدو أنَّ وفاتَها كانتْ بمكةَ ، ودُفِنَتْ بقربِ ابنها كما يحدِّثُ أهلُ مكة الآنَ عنْ ذَلكَ ، فرضي اللهُ عنها.

* هذه شَذَرَاتٌ منْ حياةِ أسماءَ ، وأَنْداءٌ عَطِراتٌ تَلَمَّسْنَاها منْ رياضِ مسيرتها المعطارِ ، فهل تبقىٰ أسماءُ ذاتُ النِّطاق قدوةً لذواتِ النِّطاق علىٰ مرِّ الدُّهورِ والأَعوام؟!

* * *

(١) تهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٥٩٨).



(٢)

أسماء بنت زيد

رضي الله عنهما

* خطيبة النساء ، ورسول نساء الأنصار إلى النبي ﷺ .

* كانت من أوائل المبايعات لرسول الله ﷺ .

* ذات صلة وثيقة بعائشة أم المؤمنين ، فكانت تعمل مُقيِّنةً لها .

* روتْ واحداً وثمانين حديثاً نبوياً .

فـي عَالَـمِ الصَّحَـابَــةِ:

* جمعتْ هذهِ المرأةُ الصُّحْبَةَ النَّبويَّةَ ، بالإضافةِ إلىٰ أنَّها ابنةُ صحابيٍّ أنصاريٍّ بَطَلٍ كريمٍ.

* وبنْتُ هذا الصَّحابي حظيتْ بالخيرِ منْ جميعِ جوانبهِ ، فهي منْ جُملَةِ الصَّحابيّاتِ ، ومنْ جُملَةِ بنَاتِ الصَّحابة ، وممن روينَ عنِ النَّبي ﷺ الأحاديثَ الشَّريفة.

* وهذه الابنةُ منَ اللاتي بايَعْنَ رسولَ اللهِ ﷺ ، وشهدنَ بعضَ المغازي معه ، ثمَّ شهدْنَ أشْهرَ معاركِ صَدْرِ الإسلامِ ، وتركْنَ أَضوأَ الآثارِ يومَ ذاك.

* ومن بينِ بناتِ الصَّحابةِ الأنْصارِ تبرزُ أسماءُ بنتُ يزيدَ بنِ السَّكن بنِ رافع الأنْصاريَّـة الأَشْهليّة[1] رضي الله عنهما.

---

(١) المصادر التي تحدثت عن أسماء كثيرة منها: تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء ص٣٣ ـ ٣٩) ، وسير أعلام النبلاء (٢/ ٢٩٦ و٢٩٧) ، وطبقات ابن سعد (٨/ ٣١٩ و٣٢٠) ، وحلية الأولياء (٢/ ٧٦ و٧٧) ، والإصابة (١٢/ ١٢٤ و١٢٥) ، ترجمة رقم (٥٨) ، والاستيعاب بهامش الإصابة (١٢/ ٢٠٨ ـ ٢١٠) ، ترجمة رقم (٣٢٣٣). وأسد الغابة (٦/ ١٨ و١٩) ترجمة رقم (٦٧١٠) ، وجوامع السّيرة النبوية (ص٢٧٨) ، والدر المنثور في طبقات ربات الخدور (ص٣٦) ، وأعلام النِّساء (١/ ٦٦ ـ ٦٨) ، وأدبُ الدنيا والدّين (ص٤٢٠ و٤٢٢) ، والرَّوضةُ الفيحاءُ في تواريخ النِّساء للعمري (ص١٤٠) ، وغوامضُ الأسماءِ المبهمة (١/ ٤٦٩ ـ ٤٧١) ، وزادُ المعـاد (٢/ ٤١١) و(٥/ ١٤٧ و١٤٨) ، والسِّيـرة الحلبيـة (١/ ١٤٩) ، ودرر السَّحابةِ للشوكاني (ص٥٤٦) ، ومجمع الزوائد (٩/ ٢٦٠) ، ودليل الفالحين لطرق رياض الصالحين (٤/ ٢٧) ، وتهذيب التّهذيب (١٠/ ٤٥٣) ترجمة رقم (٨٨٢٨) ، والاستبصـار (ص٢١٨ و٢١٩) ، والأوائـل للعسكـري (ص٢٧١) ، والأسمـاء المبهمة في الأنباء المحكمة (ص٢٨) بالإضافة إلى كتب الصحيح والسنن والمسانيد والتواريخ والأدب وغير ذلك كثير.

* وأسْماءُ هذهِ منَ الأَوْسِ من بني عبد الأَشْهل رهْط صِدّيق الأنصارِ سعدِ بنِ مُعاذ الأوسيّ الأنصاري ـ رضي الله عنه ـ ، وكانتْ تكْنىٰ أُمَّ عامر ، ويقال: أمّ سلمة الأنصاريّة الأَشْهليّة[1].

* ولما تحدَّثَ ابنُ سَعْد في طَبَقاتِهِ عن نسوةِ الأَنْصار ذكرَ أسماءَ ، وأنَّها تكنى أمّ عامر فقال: أمُّ عامر الأشهليّة ، واسمها فكيهة ، ويُقال: أسماءُ بنتُ يزيدَ بن السَّكن بن رافع بن امرىء القيس بن زيد بن عبد الأشْهل ، وأمُّها: أمُّ سعد بنتُ خزيم بن مسعود بن قلع بن حريش بن عبد الأشْهل ، أسلمت أمُّ عامر وبايعتْ رسولَ اللهِ ﷺ ، وروتْ عنه أحاديث ، وشهدتْ معه بعضَ المشَاهد[2].

* وذكر أبو عيسىٰ الترّمذي ـ رحمه الله ـ قال: سمعتُ عبدَ بنَ حُميد يقول: أسماءُ بنتُ يزيدَ بنِ السَّكن هي أمُّ سلمة الأنصاريّة[3].

خَطِيبَةُ النِّساءِ ورَسُولُهم:

* أوتيتْ ابنةُ هذا الصَّحابي منْ فَصَاحَةِ الكرمِ وحُسْنِ البيانِ وسحْرِ البلاغةِ ، ما جعلَها تُدعىٰ بخطيبةِ النِّساء ، أو رسولِ نساءِ العرَبِ الأَنْصارِ إلىٰ رسولِ اللهِ ﷺ.

* وقد عُرِفَتْ معظمُ بناتِ الصَّحابةِ بسحرِ البراعةِ وبراعةِ سِحْرِ الخِطابِ ،

---

(١) تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء ص٣٣).
(٢) طبقات ابن سعد (٨/ ٣١٩).
(٣) تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء ص٣٣).
وقد عُرِفَتْ أسماءُ واشتهرت بالكنيتَين ، قال أبو زَرعة: وأمُّ سلمةَ أسماءُ بنتُ يزيدَ بنِ السَّكن ، شَهدتِ الفتحَ ، وقال أبو زرعة أيضاً عمن حدَّث بالشَّام منَ النِّساء: أسماءُ بنتُ يزيد بن السّكن ، يعني أمّ سلمة.
وقال ابنُ سُميع: وأسماءُ بنتُ يزيد بنِ السَّكن الأنصاريّ تكنى أمُّ سلمة ، شهدتِ اليرموكَ وقتلتْ تسعةَ أعْلاجٍ.

حيثُ ورثْنَ البلاغةَ والفصاحة عن آبائِهنَّ الذي تخرَّجُوا في مدرسةِ النُّبوة ، فأكرِمْ بهذه المدرسة! وأَنْعِمْ بهؤلاء المتعلِّمين! .

* وكانتْ أسماءُ بنتُ يزيد ـ رضي الله عنهما ـ ممَّنْ تسلَّمَتْ شهادةً عظمىٰ بالفصاحةِ منْ أربابِ الفصَاحة ، حينما وفدتْ علىٰ النَّبيِّ ﷺ فبايَعَتْه ، وتكلَّمتْ فأحسنَتِ الكلامَ ، وعبَّرتْ فأوضحتِ البيانَ ، وما ظنُّك بوافدٍ أو وافدةٍ تتكلَّمُ بين يدي النَّبيِّ ﷺ؟! فلا بدَّ لها إذاً أنْ تتخيَّرَ الكلامَ ، وتستهذبَ منَ الألفاظِ ما استطاعتْ إلىٰ ذلك سبيلاً ، وتستجزلَ منَ المعَاني ليجعلها أقوم قِيْلاً ، حيث إنَّ المقامَ مقامُ فَضْلٍ وخيرٍ ، ولا بدَّ لها أنْ تكونَ عميدةَ نساءِ قومها ، ولسانَهنَّ الذي يعربُ عن مكنونِ نفوسهنَّ ، فَهُنَّ عنْ رأيها يصْدرن ، إذ ظهرتْ حكمتُها وجودةُ بيانِها وطلاقةُ لسانِها أمامَ النَّبيِّ ﷺ ، وأمامَ أصحابِهِ الكرامِ الذين هم أعلامُ الفصاحةِ وأمراء البَيانِ .

* هذا وقدْ رسمتِ المصادرُ لنا براعةَ أسماءَ بنتِ يزيد ، وحفظتْ لنا خطبتَها البليغةَ ، التي ترشحُ بسحرِ البيَانِ ، والتي تمازجُ الرُّوحَ لطافةً ومنْطقاً ، وتجري معَ النَّفْسِ رقّةً وجَمالاً ، والتي أسَرَتِ القَلْبَ بحسنِ تأثيرِها وبلاغتها .

* والآن تعالوا نَشْهد خطبةَ أسماءَ بنت يزيد أمامَ النَّبيِّ ﷺ ونسمعُ ونستمتعُ بحسنِ تهذيبها .

* روىٰ عنها مسلمُ بنُ عبيد[1] أنَّها أتتِ النَّبيَّ ﷺ وهو بينَ أصحابهِ الكرام رضي الله عنهم جميعاً ، فقالت: بأبي وأمّي أنتَ يا رسولَ الله ، أنا وافدةُ

---

(١) مسلمُ بنُ عُبيد: مشهور بكنيته «أبو نُصَيْرَة» الواسطي ، روى عن أنسِ بنِ مالك وأبي عسيب مولىٰ رسول الله ﷺ ، وأبي رجاء العطاردي وغيرهم ، وروىٰ عنه حشْرجُ بنُ نباتة ، وسويدُ بنُ عبد العزيز ، وأبو الصَّباح الواسطي وغيرهم. وثّقهُ الإمام أحمد ، وقال ابنُ معين: صالح ، وذكره ابن حبَّان في الثّقات. (تهذيب التهذيب ١٠/ ٢٨٦ و٢٨٧) ترجمة رقم (٨٦٩٧).

النِّساءِ إليك ، وإنِّي رسولُ مَنْ ورائي منْ جماعةِ نساءِ المسلمينَ ، كلُّهنَّ يَقُلْنَ بقولي ، وعلىٰ مثْلِ رأيي .

* إنَّ اللهَ ـ عزَّ وجلَّ ـ بعثَكَ إلىٰ الرِّجالِ والنِّساءِ كافَّةً ، فآمنَّا بكَ واتَّبعناك ، وإنَّا مَعْشَرَ النِّساء مقصوراتٌ مخدَّراتٌ ، قواعدُ بيوتٍ ، ومواضعُ شَهواتِ الرِّجال ، وحاملاتُ أولادِهم ، وإنَّ معاشرَ الرِّجالِ فُضِّلوا علينا بالجُمَعِ والجماعاتِ ، وعيادةِ المرضىٰ ، وشهودِ الجنَائز ، والجهادِ في سبيلِ اللهِ ، وإذا خرجُوا إلىٰ الجهادِ حفظْنَا لهم أموالَهم ، وغَزَلْنا أثوابَهم ، وربَّينا أولادهم؛ أفنشاركَهُم في هذا الأجْرِ والخيرِ يا رسولَ الله؟

* فالتفتَ رسولُ اللهِ ﷺ بوجههِ إلى أصحابِهِ ، ثمَّ قال : «هَلْ سمعتُم مقالةَ امرأةٍ أَحْسَن سؤالاً عن دينها منْ هذه»؟!

فقالوا : بلىٰ واللهِ يا رسولَ الله ، ما ظَنَّنا أنَّ امرأةً تهتدي إلىٰ مثْلِ هذا .

فالتفتَ رسولُ الله ﷺ إليها فقال : «انصرفي يا أسماءُ ، وأَعْلمي مَنْ وراءَك منَ النِّساء أنَّ حُسْنَ تَبَعُّلِ[1] إحداكُنَّ لزوجها ، وطلبِها لمرضاتِهِ ، واتباعها لموافقتهِ ، يعدلُ كلَّ ما ذكرتِ للرِّجال» .

* فانصرفتْ أسماءُ وهي تهلِّلُ وتكبِّرُ استبشاراً بما قال لها رسولُ اللهِ ﷺ[2] .

أَوَّلِيَّةٌ مَيْمُونَةٌ لأَسْمَاءَ :

* في مضمارِ السَّبْقِ في حلباتِ الفَضَائلِ كانتْ أسماءُ بنتُ يزيدَ ـ رضي الله عنهما ـ منَ السَّابقاتِ لاجتناءِ ثمارِ الخيرِ ، وقطوفِ ريحانِ المكارمِ؛ وكيفَ

---

(١) «تبعّل» : حسن مصاحبة الزوجة لزوجها وطاعتها له .

(٢) انظر : الاستيعاب (١٢/ ٢٠٩ و٢١٠) وأسد الغابة (٦/ ١٩) مع الجمع والتصرف اليسير . وانظر : الدر المنثور للسيوطي (٢/ ٥١٨) ، والاستبصار (ص٢١٨ و٢١٩) وأعلام النساء (١/ ٦٦ و٦٧) ، والسيرة الحلبية (١/ ١٤٩) . وقال الترمذي : أم سلمة هذه خطيبة النساء . انظر مختصر سنن أبي داود برقم (٣٨٢٦) .

لا تكونُ كذلكَ؟ وقد وَجَدَ الإسلامُ قلبَها سليماً فارغاً فتمكَّنَ منْ شِعابهِ ، واقتعدَ حنَاياهُ ، وعمرَ جوانبَهُ.

* وقد أحرزتْ أسماءُ ـ رضي الله عنها ـ قَصَب السَّبْقِ في مبايعةِ النَّبيِّ ﷺ ، وكانتْ مع أختِها حوّاء[1] أوَّل مَنْ بايع النَّبي ﷺ منْ نساءِ الأنْصارِ.

* ذكر عمرو بنُ قَتادة[2] قال: أوَّلُ مَنْ بايعَ النَّبيَّ ﷺ: أمُّ سَعْدِ بن معاذ كبشةُ بنتُ رافع[3] ، وأمُّ عامر بنتُ يزيد بن السَّكن ، وحواءُ بنتُ يزيد بنِ السَّكن[4].

* وكانتْ أسماءُ ـ رضوان الله عليها ـ تحدّثُ النَّاس بأنَّها وأختها وكبشة بنت رافع أوَّلُ المبايعاتِ منْ نسوةِ الأنْصارِ ، وكانتْ تفخرُ بذلك وحقّ لها هذا الفَخْرُ ، وكانت تقولُ: إنا أوّلُ مَنْ بايعَ رسولَ الله ﷺ[5].

لقد بايعتْ أسماءُ رسولَ اللهِ ﷺ علىٰ ما كانَ يبايعُ النِّساء[6]؛ ولما أنْ

---

(١) حواءُ بنتُ يزيدَ بنِ السَّكن الأنصارية ، أختُ أسماءَ بنِ يزيد ومن بني عبد الأَشْهل ، مَدَنيّةٌ جدَّة عمرو بن معاذ الأشهلي. روتْ عن النبي ﷺ أنَّها سمعتْه يقول: «ردُّوا السَّائِلَ ولو بظلفٍ مُحْرَق» قال ابن عبد البر: كانتْ منَ المبايعات.
(الاستيعاب ١٢/ ٢٦٤ ـ ٢٦٦) و(أسد الغابة ٦/ ٧٣) مع الجمع والتصرف.

(٢) عمرو بنُ قتادةَ اليمامي حجازي روى عن عطاء وطاووس ، وعنه: محمدُ بنُ مسلم ، ويحيىٰ بن سُليم الطَّائفيّان ، روىٰ له النسائي قوله: سألتُ طاووساً. قال يحيىٰ بنُ معين: عمرو بنُ قتادة اليمامي ثقةٌ مأمون. وذكره ابنُ شَاهين في الثِّقات.
(تهذيب التَّهذيب ٦/ ١٩٦) بتصرف يسير.

(٣) اقرأ سيرة كبشةَ بنت رافع في كتابنا «نساء مبشرات بالجنَّة» (٢/ ٢٢٣ ـ ٢٤٢) ففي سيرتها إمتاعٌ للأسماع ، وترطيبٌ للقُلوب بإذن الله.

(٤) انظر: كتاب الأوائل للعسكري (ص٢٧١) ، وانظر: طبقات ابن سعد (٨/ ١٢) ، والدر المنثور (٨/ ١٤٣).

(٥) طبقات ابن سعد (٨/ ١٢)

(٦) لعلَّ سائِلاً يسأل: كيف كانَ رسولُ اللهِ ﷺ يبايعُ النِّساء؟ وللجواب عنْ هذا السُّؤال=

أَعْطَتِ المواثيقَ في بيعتها نَبَذَتْ كلَّ زخارفِ الدُّنيا ، ولم تَعُدْ تلتفتُ إليها ، وإنَّما توجَّهَتْ بقلبِها ونفسِها إلىٰ اللهِ ـ عزَّ وجلَّ ـ وعلمتْ عِلْمَ اليقينِ أنَّ السَّعادةَ تكمنُ في الفوزِ بمرضاةِ اللهِ تعالىٰ ، ولذلك استهلَّ أبو نُعيم الأصبهانيّ ـ رحمه الله ـ ترجمتَها بقولِهِ: أسماءُ بنتُ يزيدَ بنِ السَّكن ، والنَّابذة لما يُورِثُ الغُرور والفِتَن[1] .

* ومنذُ اللحظةِ الأولىٰ لبيعةِ أسماءَ تخلَّتْ عن أعزّ شيءٍ لدىٰ النِّساء ، أَلا وهوَ الذَّهبُ والحليُّ ، وتروي أسماءُ قصَّةَ تَخليها عن حليِّها طلباً لمرضاةِ اللهِ وطاعةً لرسولهِ ﷺ فتقولُ: أتيتُ النَّبيَّ ﷺ لأبايعَه ، فدنوتُ منه ، وعليَّ سِواران منْ ذَهَب ، فبصر بصيصَهما فقال: «ألقي السِّوارين يا أسماءُ ، أمَا تخافينَ أنْ يسوِّرَك اللهُ بأساورَ منْ نارٍ»؟!

* قالت: فألقيتُهما فما أدري مَنْ أخذهما[2] .

= نقرأُ الحديثَ الذي ذكَرهُ عبادةُ بنُ الصَّامت ـ رضي الله عنه ـ حيثُ قال: كنتُ فيمن حَضَر العقبةَ الأولىٰ ، وكُنَّا اثني عشرَ رجُلاً ، فبايَعَنا رسولُ اللهِ ﷺ علىٰ بيعةِ النِّساءِ ، وذلك قبل أنْ يفرضَ الحربُ ، على ألاَّ نشركَ باللهِ شيئاً ، ولا نسرقَ ، ولا نزني ، ولا نقتلُ أولادنا ، ولا نأتي ببهتانٍ نفتريه بين أيدينا وأرجلنا ولا نعصيَه في معروفٍ ، فإنْ وفيتم فلكم الجنَّة. (تفسير ابن كثير ٤/ ٤١٧).
وقال أبو حيَّان: كانت بيعةُ النِّساء في ثاني يوم الفتح على جَبَلِ الصُّفا ، بعدما فرغَ من بيعةِ الرجال ، وكان رسولُ اللهِ ﷺ علىٰ الصَّفا وعمر أسفل منه ، يبايعهنَّ بأمرِهِ ، ويبلغهنَّ عنه. وما مَسَّتْ يدهُ عليه الصَّلاة والسَّلام يد امرأة أجنبية قَط.
وقالت أسماءُ بنتُ السَّكن: كنتُ في النِّسوةِ المبايعاتِ ، فقلت: يا رسول الله ، أبسطْ يدكَ نبايعك ، فقال لي عليه الصَّلاة والسَّلام: «إنِّي لا أصافحُ النِّساء ، لكن آخذُ عليهنَّ ما أخذ اللهُ عليهنَّ».

(١) انظر: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٢/ ٧٦).

(٢) المصدرُ السَّابق عينه (٢/ ٧٦) ، وهكذا رأتْ أسماءُ بنتُ يزيدَ ـ رضي الله عنها ـ بعينِ بصيرتها أنَّ السعادَةَ الحقيقيةَ تكمنُ في الإيمانِ الصَّحيح ، وتسكنُ بينَ الجوانِح ، فالذَّهبُ والحليُّ والأساوِرُ والزِّينةُ لا تجلب السَّعادةَ ، إذ السَّعادةُ ينبوعٌ ينبعُ من القلبِ المؤمنِ الموصولِ بالله تعالىٰ ، وليستِ السَّعادَةُ غيثاً يهطلُ منَ =

أسمـاءُ وَالـتَّـربيـةُ النَّبـويَّــةُ :

* منذُ اللحظاتِ الأولىٰ التي لامَسَتْ نَسَماتُ الإيمانِ قَلْبَ أسماءَ بنتِ يزيد ، راحتْ تستنشقُ منْ رذاذِ الإيمانِ وتستروحُ من ريحانِهِ ما استطاعتْ إلىٰ ذلكَ سبيلاً ، وأخذت تستفيدُ منَ التَّربيةِ النَّبويةِ والتَّوجيهاتِ المحمديّةِ في شؤونِ الحياةِ كيما تحظىٰ برضوانِ اللهِ وتكونُ من السُّعداء في الدَّارَيْن .

* وقد استفادتْ أسماءُ منَ التَّوجيهاتِ النَّبويةِ التي تُشَيّدُ صروحَ الحياةِ بينَ الأزواجِ ، ونقلَتْ إلينا صورةً وضيئةً عن تلكم التّوجيهاتِ الممزوجةِ بالتَّربيةِ البنَّاءَةِ والمتوّجةِ بالدعوةِ إلىٰ الطَّاعَةِ وحفْظِ حقوقِ الزَّوجِ .

* وكانَ الحبيبُ المصطفىٰ ﷺ يُؤَكّدُ دائماً على حقِ الزَّوجِ ، وينصحُ النِّساءَ أنْ يقمنَ بشؤونِ هذا الحقّ وذلك لما للزّوجِ منْ مكانةٍ ساميةٍ في عالمِ الحياةِ الزَّوجيةِ ، وقد ذكرَ القاضي عياض ـ رحمه الله ـ في كتابه «الشّفا» أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال : «لو أمرتُ أحَداً أنْ يسجدَ لأَحدٍ ، لأمرتُ المرأةَ أنْ تسجدَ لزوجِها»[1] .

* وكانت أسماءُ بنتُ يزيدَ زوجاً لأحدِ الصَّحابة الأَنْصار ، ويُدعىٰ : أبو سعيد الأنصاري[2] ، وكانتْ شديدةَ الحرصِ على أنْ تستفيدَ منَ التَّربيةِ

= السَّماء ، أو حلياً تضعُه النِّساء ، وتَتحلىٰ به المرأة . إنَّ طَرْحَ أسماء لسوارَيْها دليلٌ على تمكّن الإيمان من قلبها ، ودليلٌ على صدقها مع الله ومع رسوله فأكرمْ بها من ابنة مؤمنة ! !

(١) الشفا (١/ ٤٢١) .

(٢) قال ابن حجر ـ رحمه الله ـ : أبو سَعيد الأنصاريّ ، زوجُ أسماءَ بنتِ يزيد بن السَّكن ، يُقال : اسمه سعيدُ بنُ عمارة ، ويقال : عمارةُ بن سعيد . وذكر ابنُ منده أنَّ أبا سعيد الأنصاري مرَّ بمروانَ بنِ الحكم يوم الدَّار ، وهو صريعٌ ، فقال : لو أعلمُ يا بنَ الزَّرقاء أنَّه أنتَ لأجهزتُ عليك ، فحقدَها عليه عبدُ الملك بنُ مروان فلما استخلفَ أتىٰ بهِ ، فقال : احفظْ فينا وصية رسولِ الله ﷺ ، قال : وماذا؟ قال : قال : «اقبلُوا منْ محسِنهم ، وتجاوزوا عن مسيئهم» فتركَه . قال : وكان أبو سعيد زوجُ =

النَّبويةِ في جميعِ المجالاتِ ، وخاصَّةً في طاعةِ الزَّوجِ بعد أَنْ سَمِعَتْ وَوَعَتْ ما ذكرهُ رسولُ الله ﷺ عنْ عقابِ مَنْ يكفُرْنَ العشيرَ منَ النِّساء. وعن هذا المجالِ الطَّيِّبِ الكريمِ تُحدّثنا أسماء ـ رضي الله عنها ـ فيما أخبرنا به ابنُ عساكر بسنده عن شهر بن حوشب عنها: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ خرجَ والنّساء في جانبِ المسجدِ ، وأنا فيهنَّ ، فسمعَ ضوضاءهن فقال: «يا معشرَ النِّساء ، أنتنَّ أكثرُ حَطَبِ جهنَّم».

قالت: فناديتُ رسولَ الله ﷺ ، وكنتُ جريئةً علىٰ كلامهِ ، فقلتُ: يا رسولَ اللهِ ، بماذا؟

قال: «إنّكنَّ إذا أعطيتُنَّ لَمْ تَشْكُرنَ ، وإذا ابتُليتُنَّ لمْ تصبرنَ ، وإذا أُمْسِكَ عنكنَّ شكوتنَّ ، وإياكنَّ وكُفر المنعمين».

فقلتُ: يا رسول الله ، وما المنعمون؟

قال: «المرأةُ تكونُ تحتَ الرَّجلِ قد ولَدتْ الولديْن والثَّلاثَة ، فتقولُ: ما رأيتُ منْكَ خَيْراً قطّ»[1].

* وفي روايةٍ أخرىٰ تذكرُ أسماء توجيه النَّبيّ ﷺ لها ولأترابِها في الإحسانِ إلىٰ الزَّوجِ ، فتقول: مرَّ بي النَّبيُّ ﷺ ، وأنا في جوار أترابٍ لي ، فسلَّمَ علينا وقال: «إياكنَّ وكفران المنعمين ، إياكنَّ وكفران المنعمين» وكنتُ منْ أجرئهنَّ علىٰ مسألتِهِ ، فقلتُ: يا رسولَ اللهِ ، وما كفرانُ المنعمين؟!

قال: لعلَّ إحداكنَّ تطولُ أيمتُها بينَ أبويها ، ثمَّ يرزقُها اللهُ زوجاً ، ويرزقُها منه وَلَداً ، فتغضبُ فتكفرُ فتقول: ما رأيتُ منْكَ خيراً قط»[2].

* وبهذا اللونِ النَّبوي التَّربوي للنِّساء ، حرصتْ أسماءُ علىٰ الاستفادةِ

= أسماء بنت يزيد بن السَّكن. (الإصابة ١١/ ١٦٦) ترجمة رقم (٥٣٠).

(١) تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء ص ٣٣).

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (١٠٤٧) ، وأحمد برقم (٢٧٥٧٦) طبعة المكتب الإسلامي ط١ ١٩٩٣ م.

منه ، ونَقْلِهِ إلىٰ بناتِ جِنْسها كيما يستفدنَ منَ الهديِ النَّبوي ، ولا يكُنَّ علىٰ شَفا حُفْرةٍ منَ الخطأ فيكنَّ من أصحابِ النَّار ، ومنَ اللواتي يكفرنَ العشيرَ ، وينْسَيْنَ الصُّحبة الزَّوجيةَ الطويلةَ.

تَعَلُّمُهَا وتَفَقُّهُهَا في الدِّين:

* لما تحدَّثَ ابنُ عبد البرّ عن ابنةِ هذا الصَّحابي الكريمِ وصفَها بقوله: أسماءُ بنتُ يزيدَ بنِ السَّكن الأنصاريّة... مدنية كانتْ منْ ذواتِ العَقْلِ والدِّين.

* والحقيقةُ أنَّ أسماءَ منْ ذواتِ العَقْل والدِّين ، لأنَّ مَنْ يتتبعْ أخبارَها يجدْ مصداقَ ذلك ، فمنذُ أنْ وعَتْ عظمةَ هذا الدِّينِ راحتْ تنشُدُ كلَّ ما يوصلُها إلىٰ الجادَّةِ القويمةِ السَّليمةِ ، حيث كانتْ تطلبُ العِلْمَ منْ منبعهِ ، وترىٰ أنَّ التَّعلُّمَ والتَّفقُّه في أمورِ الدِّين يجعلُ المرأةَ في معزلٍ عن الأخطاءِ ، وفي مأمنٍ مكينٍ منَ الفَضَائل.

* ولقد كانتْ أسماءُ ونساءُ الأنصارِ يتحريْنَ الدِّقَّةَ في أمورِ الدِّينِ ، فلا يحجبُهُنَّ الحياءُ عنِ السُّؤالِ في أمورِ دينهنَّ ، بل كُنَّ يسألْنَ عنْ دقائقِ الأمورِ ، ليصلنَ إلىٰ شاطىءِ الأَمان ، ويكُنَّ منْ أمرِهنَّ علىٰ بصيرة وهدىً ، ولهذه الميزة الميمونة في نساءِ الأَنْصار ، خَلَعَتْ عليهنَّ عائشةُ أمّ المؤمنين منْ فواضِل الثَّناء ، ما خَلَدهُنَّ في عالَم النِّساء ، وفي عالَم التَّاريخ ، وفي آفاقِ نساءِ العَالَم إلىٰ ما شاء الله؛ تقولُ أمُّنا عائشةُ ـ عليها سحابات الرّضوان ـ تثني وتمتدحُ نساءَ الأنصار: نِعْمَ النِّساءُ نساء الأنْصار ، لم يكنْ يمنعهنَّ الحياءُ أنْ يسألْنَ عنِ الدِّينِ ويتفقهنَ فيهِ.

* ولهذا فقد كانتْ أسماءُ بنتُ يزيدَ منَ النساءِ اللاتي يحببن التَّفقُّه في الدِّين ، ويسألْنَ النَّبيَّ ﷺ عن أمورهنَّ الخاصّة ، فقد وَرَدَ في الصَّحيح وغيرهِ أنَّ أسماءَ سألتْ رسولَ اللهِ ﷺ عن غَسْلِ المحيض.

* ذكر أبو القاسم بنُ بشكوال خَبراً في سَنَدٍ رفعه إلىٰ إبراهيم بن المهاجِر

قـال: سمعـتُ صفيّـة بنت شيبـة[1] تحـدِّثُ عنْ عائشـةَ أنَّ أسمـاءَ سـألتْ رسولَ اللهِ ﷺ عن غَسْلِ المحيضِ، فقال: «تأخذ إحداكُنَّ ماءً وسِدْرَتها[2] فَـتَطَّـهَّرُ بها فتحسنُ الطّهور، ثمَّ تصبُّ علىٰ رأسِها فتدلكُه دَلْكاً شديداً حتىٰ يبلغَ شؤونَ رأسِها ثمّ تصبُّ عليها الماء، ثـمَّ تأخـذ فِرصة[3] ممسّكةً فَـتَطَهَّرُ بها».

فقالتْ أسماءُ: فكيفَ أتطهَّرُ بها؟

فقال: «سبحانَ اللهِ! تطهَّري بها».

قالتْ عائشةُ: ـ كأنَّها تخفي ذلك ـ تَتَبْعينَ بها آثارَ الدّم[4].

---

(١) اقرأ سيرة صفية بنت شيبة ـ رضي الله عنهما ـ في هذا الكتاب.

(٢) «سدرتها» السّدرة: شجرة النَّبق، والسّدر في الغسْل الورقُ المطحونُ يساعدُ على تنقية الأعضاء عند الغسل.

(٣) «فرصة» مثال سدرة، قطعة قطن أو خِرقة تستعملها المرأة في مسح دم الحيض (المصباح المنير ص٤٦٨).

(٤) انظر: غوامض الأسماء المُبهمة (١/ ٤٧٠)، والأنباء المحكمة (ص٢٨ و٢٩)، وقد وردَ هذا الخبرُ في أماكنَ متعدّدةٍ من صحيح البخاري، فهو في باب: دَلْك المرأة نفسها إذا تطهَّرتْ منَ الحيض، وكيف تغتسلُ وتأخذُ فِرْصَةً ممسَّكةً فتتبعَ أثرَ الدم، وباب غَسْل المحيض كما جاء في كتاب الاعتصام: باب الأحكام التي تعرف بالدلائل (٩/ ١٣٤).

وأحاديثُ الباب في صحيح مسلم باب: استحباب استعمالِ المغتسلةِ منَ الحيضِ فِرْصَةً من مِسْكٍ في موضع الدم برقم (٣٣٢).

وفي هذا الحديث فوائدُ مهمّةٌ، إذِ المرادُ فيه بيانُ أنَّ السُّنَّةَ في حقِّ المغتسلةِ من الحيضِ أنْ تأخذَ شيئاً مَنْ مِسْكٍ، فتجعلَه في قطْنةٍ أو خِرقةٍ أو نحوِها، وتدخلها في فَرجِها بعد اغتسالها، ويُستحبُّ هذا للنُّفَسَاء أيضاً لأنَّها في معنىٰ الحائِض.

واختلف العُلماء في الحكمةِ في استعمالِ المِسْكِ، والصَّحيح المختارِ الذي قاله الجمهورُ: بأنَّ المقصودَ باستعمالِ المسك تَطييبُ المحلّ، ودفعِ الرَّائحةِ الكريهة، وأنَّ ذلك مستحبٌّ لكلّ مُغْتَسلةٍ منَ الحيضِ أو النِّفاس سواء ذاتَ الزَّوج وغيرها، وتستعملهُ بعد الغسْلِ، فإنْ لم تَجِدْ مِسْكاً فتستعمل أي طِيْب وَجَدَتْ، فإنْ لم تَجِدْ=

أَسْمَاءُ وَالبَيْتُ النَّبَوِيّ:

* أسماءُ ابنةُ يزيدَ ـ رضوان الله عليها ـ إحدىٰ نسوةِ وبناتِ الأنصارِ اللائي كُنَّ يدخُلْنَ بيوتَ النَّبيِّ ﷺ ، كما كانَ الحبيبُ المصطفىٰ ﷺ يدخلُ بيوتَهنَّ ، وربَّما كان يقيلُ ، أو يأكلُ ، أو يُعلِّمُ.

* وأسماءُ هذه ذاتُ صِلَةٍ وثيقةٍ بأمِّنا عائشةَ ، وتُعْرَفُ عند أهلِ السِّيرِ بأسماءَ عائشة[1] ، أو أسماء مُقَيِّنَة[2] عائشةَ ، لأنَّ أسماءَ كانَتْ منَ العارِفَات

= طِيْباً اسْتحبَّ لها استعمالُ طيْنٍ أو نحوه مما يزيلُ الكراهةَ ، فإنْ لم تَجدْ شيئاً منْ هذا فالماءُ كافٍ لها ، لكنْ إنْ تركتْ التَّطيُّبَ مع التمكّنِ منه كُرِهَ لها ، وإن لم تتمكنْ فلا كراهةَ في حقّها.

وقولهُ ﷺ: «سبحانَ اللهِ ، تطهّري بها» ، فسبحانَ اللهِ يُرادُ بها التَّعجّب وكذا: لا إله إلا الله ، ومعنى التعجّب هنا كيف يخفىٰ مثل هذا الظَّاهر الذي لا يحتاجُ الإنسانُ في فَهْمه إلى فِكْر ، وفي هذا جواز التَّسبيح عند التَّعجّب منَ الشَّيء واستعظامِهِ ، وكذلك يجوزُ عند التَّثبُّت على الشيءِ والتَّذكّر به ، وفيه استحبابُ استعمال الكنايات فيما يتعلق بالعورات.

ومعنى قول عائشة: كأنّها تخفي ذلك تتبعينَ بها آثار الدّم؛ معناه قالت لأسماءَ بنتِ يزيد كلاما خفيّاً تسمعهُ المخاطبة ، ولا يسمعه الحاضرون.

وقد جاء في صحيحِ مسلم أنَّ أسماءَ سألته عن غسْلِ الجنابة فقال ﷺ: «تأخذُ ماءً فَتَطهَّر ، فتحسنُ الطّهور ، أو تبلغُ الطّهور ، ثم تصبُّ على رأسِها فتدلكهُ حتى تبلغَ شؤون رأسِها ، ثم تفيضُ عليها الماء» وعندها قالت عائشة: نِعْم النِّساءُ نساء الأنصار! لم يكنْ يمنعهن الحياءُ أنْ يتفقهنَّ في الدِّين. (صحيح مسلم رقم الحديث ٣٣٢).

(١) انظر: أسد الغابة (٦/ ١٣) ترجمة رقم (٦٧٠٤).

(٢) «مُقيّنة»: يقولون: التّقيين: التّزيين ، واقتانتِ الرّوضة: أخذتْ زُخْرفها ، ومنهُ يقال للمرأةِ مقيّنة ، وهي التي تزّين النِّساء. (مجمل اللغة ص٥٨٤) و(المقاييس في اللغة ص٨٧٠).

وقال الزّمخشري: تزيّنتِ المرأةُ وتقيّنت ، ويُقال للماشطة: المزيّنة والقيّنة (أساس البلاغة ص٥٣١).

وقال ابنُ منظور: التَّقيُّن: التّزيّنُ بألوان الزِّينة. وتقيَّنَ الرَّجُلُ واقتانَّ: تزيَّن ، =

بزينةِ النِّساء ، وما يحتجنَ إليهِ في أيّام الزَّفافِ ، ولذا فإنَّها قد زيَّنَتْ أمَّ المؤمنين عائشةَ ـ رضوان الله عليها ـ يومَ زفافِها علىٰ الحبيبِ المصطفىٰ ﷺ ، وهي التي أَجْلَتْها عليه ، فاكتسبتْ بذلكَ شَرفاً وأصبحتْ تُدعىٰ : أسماء عائشة أو أسماء مُقَيِّنة عائشة أمّ المؤمنين .

* هذا وقد حظيتْ أسماءُ عائشةَ بهذا اللقب في شوالَ منَ السَّنةِ الثَّانيةِ منَ الهجرةِ النَّبويةِ إلىٰ المدينةِ المنوّرة ، وبعد أنْ نَصَرَ اللهُ عبادَه المؤمنين أصحابَ النَّبي ﷺ وبقيادةِ النَّبي ﷺ في غَزَاةِ بَدْر[1] ، ووقتها سرىٰ البِشْرُ في المدينةِ المنوّرةِ بنصرِ اللهِ علىٰ المشركينَ ، ففي شَهْرِ شوالَ زُفَّتْ عائشةُ إلىٰ رسولِ اللهِ ﷺ ، وقامتْ أسماءُ بتزيينها ، وتروي لنا أسماءُ تفاصيلَ هذا الحديثِ والحَدَثِ الميمونِ فتقول :

* إنّـي قَـيَّـنْـتُ عـائـشةَ ـ رضي الله عنهـا ـ لرسولِ اللهِ ﷺ؛ ثـم جئـتُـهُ فـدعـوتـهُ لجلْـوتِهـا[2] ، فجـاءَ فجلـسَ إلـىٰ جـانبهـا ، فـأتـيَ

= وقانتِ المرأةُ المرأةَ تُقينها قيناً ، وقيّنتها: زيّنتها. وتَقَيَّنَ النَّبْتُ واقتانّ اقتياناً: حَسُن ، ومنه قيل للمرأةِ: مقيّنة ، أي: أنّها تزيّن؛ قال الجوهري: سمّيت بذلك لأنَّها تزينُ النِّساء: شُبِّهت بالأَمَةِ لأنَّها تصلحُ البيتَ وتزيّنه ، وتقيَّنَتْ هي: تزيَّنَتْ. وفي حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ: كانَ لها دِرْعٌ ما كانتِ امرأةٌ تُقَيَّن بالمدينةِ إلا أرسلتْ تستعيرُه. تُقَيَّنُ: أي تُزَيَّن لزفافِها. والتَّقيين: التَّزيين. وفي الحديث: أنا قيّنْتُ عائشةَ. (لسان العرب ١٣/ ٣٥١).

(١) كانت غزوة بدر في (١٧) رمضان من السنة الثانية من الهجرة ، وكان زفاف عائشة في شوال.

(٢) «جلوتها»: قال الزّمخشري: جُليَتْ فلانةُ علىٰ زَوْجها أحْسَنَ جِلوةً ، فاجْتَلاها وتجلاَّها ، وأعطىٰ العروسَ جِلْوتها وجَلْوتها ، وهي ما يُعطيها عند الزّفاف. ويُقال: ما جِلْوتَكِ. فتقول: وصيف. (أساس البلاغة ص٩٨) وقال ابن فارس: جلوتُ العروسَ جِلْوَةً وجَلاءً ، وهو انكشاف الشيء وبروزه. (المقاييس في اللغة ص٢٢٠) وقال ابن منظور: جلوتَ العروسَ جِلاءَ وجَلْوةً ، واجتليتُها ، بمعنى نظرتُ إليها مجلوّةً. (لسان العرب ١٤/ ١٥٢).
وقال أيضاً: الماشِطةُ تجلو العروسَ ، وجَلا على بعلها جَلْوة وجِلْوة وجُلْوة وجِلاءً=

بِـعُسّ[1] لَبَنٍ فَشَرِبَ ، ثمَّ ناولَها النَّبيُّ ﷺ فَخَفضَتْ رأْسَها واستحيَتْ.

قالت أسماءُ: فانتهرتُها ، وقُلْتُ لها: خُذي منْ يَدِ النَّبيِّ ﷺ.

قالت: فأَخَذَتْ فَشَرِبَتْ شيئاً ، ثمَّ قالَ لها النَّبيُّ ﷺ: «أَعْطي تِرْبَك»[2].

قالتْ أسماءُ: فقلتُ يا رسولَ اللهِ ، بل خُذْهُ فاشربْ منه ، ثمّ ناوِلْنِيْهِ منْ يدك ، فأخذهَ فَشَرِبَ منه ثمَّ نَاوَلَنِيْهِ.

قالتْ: فجلستُ ، ثمَّ وضعتهُ علىٰ ركبتي ، ثمَّ طفقتُ أديرُهُ ، وأتبعهُ بشفتي لأصيبَ منه مَشْرَبَ[3] النَّبيِّ ﷺ ثم قالَ لنسوةٍ عندي: «نَاوليهِنَّ».

فَقُلْنَ: لا نَشتَهيهِ.

فقال النَّبي ﷺ: «لا تجمعنَ جوْعاً وكذِباً»[4].

= واجْتَلاها وجلأَها ، وقد جُليتْ علىٰ زوجِها ، واجتلاها زوجُها: أي نَظَر إليها ، يقال: جلا فلان امرأته وصيفه حين اجتلاها ، إذ أعطاها عند جلوتها ، وفي حديث ابن سيرين: أنه كره أن يجلي امرأته شيئاً ثم لا يفي به (لسان العرب ١٤/ ١٥١).

(١) «عسّ» العسُّ: القَدح الضَخم. والعُسُسُ: الآنيةُ الكبار ، وفي الحديث: أنَّه كان يغتسلُ في عسّ حَزْرَ ثمانية أرطال أو تسعة. (لسان العرب ٦/ ١٤٠).

(٢) «التِّرْب» اللّدةُ والسِّنُّ ، يقال: هذه ترب هذه ، أي لِدَتُها. وقيل: تِرْبُ الرَّجل الذي وُلدَ معه ، وأكثرُ ما يكون ذلك في المؤنَّث ، يُقال: هي تِربُها ، وهما تِربان ، والجمع أتْراب ، وتارَبَتْها: صارت تِرْبها وقوله تعالىٰ: ﴿عُرُبًا أَتْرَابًا﴾ [الواقعة: ٣٧] ، فسَّره ثعلبٌ فقال: الأترابُ هنا الأمثالُ ، وهو حَسَنٌ إذ ليستْ هناك ولادة. (لسان العرب ١/ ٢٣١).
والأتراب: أي المستويات في السِّن ، والمقصودُ في الحديث: صديقات عائشة المساويات لها في السِّن.

(٣) وكان الصحابة والصحابيات يفعلون ذلك حتى يتبركوا بموضع شرب النبي الكريم ﷺ.

(٤) أخرجه أحمد عن شهر بن حوشب عن أسماء برقم (٢٧٥٤٧) ، وانظر: الفتح الرباني (٢١/ ١٦) وانظر: أسد الغابة (٦/ ١٣) وفيه ، فقال ﷺ: «كُلْنَ واشْربن»

مَكَانَتُهَا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ:

* كانَ لأسماءَ ـ رضوان الله عليها ـ مكانةٌ عظمىٰ عنْدَ النَّبيِّ ﷺ ، فقد كانَ الحبيبُ الأعظمُ سيّدنا وحبيبُنا يكرمُ الأَنْصارَ رجالهم ونساءَهم ، وكانَ يزورُ أسماءَ ابنةَ يزيد في بيتها ، ففي حديثٍ أخرجه الإمامُ أحمد عنْ أسماءَ ، أنَّها قالت: كان رسول الله ﷺ في بيتي فَذكر الدَّجَّالَ . . . . »الحديث[1] . ومنْ خلالِ هذا الحديث يتبيَّنُ لنا أنَّ النَّبيَّ ﷺ كانَ يزورُها ، وكانت تتشرّفُ بزيارتِهِ ، وتحفظُ أحاديثَه.

* وكانَ الحبيبُ المصطفىٰ يكرمُ الأَنْصارَ ، ويكرمُ بني عبد الأشهلِ رهْطَ أسماءَ ، فكان في بَعْضِ الأحايين يصلّي في مسجدِهم ، وكانوا يتسابقونَ إلىٰ إكرامِهِ ﷺ بشتّىٰ الوسائل التي تُرضي الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ، وكانتْ أسماءُ ـ رضي الله عنها ـ منَ النِّساءِ الكريماتِ السَّخيَّاتِ ، وكانتْ تهتبلُ الفرصَ كيما تسبق غيرَها منْ نساءِ قومها إلىٰ ميدان الكرم والفضيلة ، وقد حازتْ مرّةً قَصَبَ السَّبْقِ في ضيافةِ رسولِ اللهِ ﷺ حيث أطعمتْه اللحمَ والخبزَ ، وقد طرحَ اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ البركةَ في طعامِها حيثُ أكلَ منه النَّبيُّ ﷺ وأصحابُهُ ، ولنتركْ أسماءَ نفسَها تروي لنا خَبر تلكم المكرُمَة الميمونة فتقولُ :

* رأيتُ رسولَ اللهِ ﷺ؛ صلَّى في مسجدِنا المغربَ ، فجئتُ بِعَرْق[2] ، وأرغفةٍ ، فقلتُ : بأبي وأمّي تَعشَّ؛ فقال لأصحابِه : «كُلُوا باسمِ اللهِ» ، فأكلَ هو وأصحابُه الذين جاؤوا معه ، ومَنْ كانَ حَاضِراً منْ أهْلِ الدَّار ، فوالذي نفسي بيده لرأيتُ بَعْضَ العرْقِ لم يتعرقْهُ ، وعامَّة الخبز؛ وإنَّ القومَ أربعون رجُلاً ، ثمَّ شَرِبَ منْ ماءٍ عندي في شَجْب[3] ، ثمَّ انصرفَ ، فأخذتُ ذلك

= فقلن : يا رسولَ الله ، إنَّا صُوَّم ، فقال : «كُلْنَ واشربنَ ولا تجمعنَ جوعاً وكذباً».
قالت : فأكَلْنا وشَربنا..

(١) انظر : مسند الإمام أحمد برقم (٢٧٥٦٦) واقرأ الحديث بطوله.

(٢) «العرق» : اللحم بعظمه.

(٣) «شجب» : الشّجب : القِربة؛ قال ابنُ منظور : الشَّجْبُ : سِقاءٌ يابسٌ يُجْعلُ فيه =

الشَّجْب ، فدهنْتُه وطويتُهُ ، فكُنَّا نسقي منه المريضَ ، ونشربُ منه في الحين رجاءَ البرَكَةِ(١) .

* وهكذا كانتْ أسماءُ تَحْتَفظُ بآثارِ النَّبيِّ ﷺ رجاءَ البركةِ ، وكذلك كان عَددٌ منَ الصَّحابةِ والصَّحابياتِ يحرصونَ علىٰ الاحتفاظِ بأثرٍ من آثارِ رسولِ اللهِ ﷺ للتبركِ به أو للاستشفاءِ(٢) .

= حَصىً ، ثم يحرَّكُ تُذْعرُ به الإبل ، سِقاءٌ شَاجِب: أي يابِس. وفي حديثِ ابن عبّاس ـ رضي الله عنهما ـ: أنَّه باتَ عند خالتِهِ ميمونة ، قال: فقامَ النَّبيُّ ﷺ إلىٰ شِجْبٍ ، فاصْطبَّ منهُ الماءَ وتوضّأ.
والشَّجْبُ: السّقاء ، وربّما قُطعَ فمُ الشّجب وجُعِل فيه الرَّطب. وفي حديث جابرٍ رضي الله عنه: كان رجلُ من الأنصار يُبَرّدُ لرسول الله ﷺ الماءَ في أشْجابِه.

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٨/ ٣١٩ و٣٢٠) ، وانظر: الإصابة (١٣/ ٢٤٣ و٢٤٤) ترجمة رقم (١٣٦٩) ، والاستيعاب بهامشِ الإصابة (١٣/ ٢٤٩) وفيه: أنَّها أتتِ النَّبيَّ ﷺ بعرقٍ فتعرَّقه وهو في مسجدِ بني عبد الأَشْهل ، ثمَّ قام إلىٰ الصَّلاةِ فصلَّىٰ ولم يتوضأ. وانظر كذلك: أسد الغابة (٦/ ٣٥٨) ترجمة رقم (٧٥٠٥) ، وانظر: تاريخ مدينة دمشق (تراجم النِّساء ص٣٩) حيث أوردَ روايةَ ابن سعد في الطَّبقات. وللمزيد مِن مثلِ هذه الأخبار انظر كتاب «حجّة الله على العالمين» ليوسف النبهاني (٢/ ٢١١) وما بعدها.

(٢) منَ الجديرِ ذكْره هُنا ، ومنَ المفيد ـ بإذن الله ـ أنْ نشيرَ هنا إلىٰ حِرصِ الصَّحابة الكرامِ ـ رضوان الله عليهم ـ علىٰ التَّبرُّك بأثرٍ منْ آثارِ الحبيبِ المصطفىٰ ﷺ كالاحتفاظِ بشيءٍ منْ شَعْرِهِ ، أو لِباسِهِ ، أو موضعِ شربه.
وقد كانَ هناك عددٌ منَ الصَّحابيّات الكريمات ـ رضوان اللهِ عليهن ـ يحرصْنَ علىٰ هذا الأثرِ المبارَكِ ، فقد وَرَدَ في الصَّحيح والسُّنن أنَّ أسماءَ ابنةَ أبي بكر ـ رضي الله عنهما وأرضاهما ـ كانتْ تحرصُ حِرصاً شديداً علىٰ الاحتفاظِ بثوبٍ للنَّبي الكريم ﷺ رجاءَ التَّبرُّك به ، ففي الصَّحيح عنها ، أنَّها أخرجتْ جبَّةً طيالسةً فقالت: هذه جبَّةُ رسولِ اللهِ ﷺ ، وكانَ يلبسُها ، فنحنُ نَغْسِلُها للمرضىٰ يُسْتشفىٰ بها ، (أخرجه مسلم ١٠٦٩) وأحمد (١٠/ ٢٧١) وغيرهما.
وكانتِ الصحابيةُ الأنصاريةُ الكريمةُ أمُّ سُليم بنتُ مِلْحانَ البخاريّة ـ رضي الله عنها وأرضاها ـ تتبرَّكُ بآثارِ النَّبيِّ ﷺ. وقد وَرَدَ في الصَّحيحَين وغيرِهما كثيرٌ منَ الصُّور =

أَسْـمَـاءُ وَوَقْـفَـاتٌ مَـعَ القُـرْآنِ :

* لأسماءَ ابنةِ يزيد الأنصاريّة ـ رضوان الله عليها ـ وقْفَاتٌ نديّاتٌ مع القرآنِ الكريمِ ، وهذه الوقْفَاتُ متنوّعةُ المشاربِ ، حيثُ نراها تروي لنا أحْداثاً وأَحكَاماً وفضائلَ وقراءاتٍ وتفسيراً وما شَابَه ذلك .

* وقد حرِصَتْ أسماءُ علىٰ الاهتمامِ بأحْكَامِ القرآن ، ونَقْلِ ما تعرفُه إلىٰ الأُمَّةِ وإلىٰ النِّساءِ بشكلٍ خاص ، حيثُ نَزَلَ فيها حُكْمٌ منَ الأَحْكَامِ المهمَّة .

* ونحنُ نعرفُ بأنَّ القُرآنَ الكريمَ ربيعُ الأَبْرار ، وأنَّه قد عرضَ شؤونَ النِّساء في جميعِ أحوالهنَّ وأطوارهنَّ ، وعالجَ ما لهنَّ وما عليهنَّ؛ وكانَ لضيفتنا أسماءَ نصيبٌ في ذلك ، وأوّليّة تستحقُّ التَّسجيلَ في سيرتها .

* أخرجَ أبو داود عن أسماءَ بنتِ يزيد بن السَّكن الأنصاريّة قالت: طُلِّقْتُ

= التي تدلُّ على اهتمامِ الصحابةِ الكرامِ بآثارِ الحبيبِ المصطفىٰ ﷺ وذلكَ لدَفْعِ الضُّرّ ، أو رجاءِ الاستشفاءِ ، وكانتْ أمُّ سُليم من السَّابقات أيضاً إلىٰ هذا الرَّوض الأُنُف الأنيق المبارك والذي أقرّها عليهِ الرسولُ الكريم ﷺ ، والذي اقتطفتْ منه زَهْراً جميلاً فوّاحاً بأَعْطَرِ الأنداء وأجمل الألوانِ ، ومنْ ذلك ما أخرجه مُسْلم ، أنَّه ﷺ كان يدخلُ بيتَ أمِّ سليم ، فينامُ على فراشِها ، وليستْ هي في البيتِ ، فجاء ذات يومٍ فَنَام علىٰ فراشِها ، فجاءت أمُّ سليم وقدْ عَرِقَ رسولُ اللهِ ﷺ ، واستنقعَ عرقُه علىٰ قطعةِ أديمٍ علىٰ الفراشِ ، ففتحت عتيدتها ـ صندوق صغير ـ فجعلتْ تنشّفُ ذلك العرقَ فتعصره في قواريرها ، فأفاقَ النَّبيُّ ﷺ فقال: «ما تصنعينَ يا أمَّ سُليم»؟ فقالت: يا رسول اللهِ نرجو بركته لصبياننا ، قال: «أصبتِ» (أخرجه مسلم ١٣/١) ، و(ابن سعد ٤٢٨/٨ و٤٢٩). ومن الجدير بالذكر أنَّ أمَّ سُليم هذه خالة النَّبي ﷺ منَ الرضاع .

وفي كتابه الميمون «الشِّفا بتعريف حقوقِ المصطفىٰ» ذكرَ القاضي عياض التَّبرُّك بآثارِ النَّبيِّ ﷺ وإكبارِه وإعظامِه فقال: ومَنْ إعظامِهِ وإكبارِه ، إعظامُ جميعِ أسبابِه ـ ما يُنْسَبُ إلىٰ النبي ﷺ منْ لباسِهِ وفراشِه ممن لا رُوحَ فيه ـ؛ وإكرامُ مشاهِدِه ـ مواضعه التي حَضَرها أو نزلَ بها ﷺ ـ وأمكنته في مكةَ والمدينةِ ، ومعاهدهُ وما لَمَسه ﷺ أو عُرِف به . (الشفا ٦١٩/٢).

علىٰ عَهْدِ رسولِ الله ﷺ ، ولم يكنْ للمطلَّقةِ عدّةٌ ، فأنزلَ اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ حين طُلِّقت العدَّة للطَّلاق ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ﴾ [البقرة: ٢٢٨] فكانتْ أوّل مَنْ أُنزلَتْ فيها العدّة للمطلَّقات(١) . يعني : ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ﴾(٢) .

* وفي هذهِ الآيةِ حظيتْ أسماءُ بمكْرُمةٍ ربانيةٍ خاصَّة بها ، ثم عامَّةٍ للنّساء ، حيثُ نزلَ القرآنُ العظيمُ يحسمُ قضيّةً مهمّة أَقَضَّتْ مضجعَها حيناً منَ الدَّهر ، فكان ذلك صوناً لكرامتها وحقِّها ، وصوناً للمجتمع منَ الشَّوائبِ والمنغّصات ، وبالتّالي تظلُّ العَلاقاتُ الاجتماعيةُ سليمةً نَقيةً في ضوءِ ما شرعَ اللهُ لمصلحةِ العباد .

---

(١) أخرجه أبو داود في عدة المطلّقة (١/ ٣٥٨) ، وانظر : تفسير ابن كثير (١/ ٣٣٤) ، والدر المنثور (١/ ٦٥٦) ، وأسباب النزول لعبد الفتاح القاضي (ص٣٨) ، وأسباب النزول للسيوطي للآية (٢٢٨) من سورة البقرة ، وغيرها .

(٢) قال ابنُ كثير ـ رحمه الله ـ: اختلفَ السَّلفُ والخلفُ والأئمةُ في المرادِ بالأقراء ما هو؟ على قولَيْن :
أحدهما : أنَّ المرادَ بها الأطهار؛ والثاني : أنَّ المرادَ بالأقراءِ الحيض .
وقال ابنُ جرير : أصلُ القُرء في كلامِ العرب : الوقتُ لمجيءِ الشَّيء المعتاد مجيئه في وقتٍ معلومٍ ، ولإدبارِ الشّيء المعتاد إدباره لوقتٍ معلوم . وقال أبو عمرو بنُ العلاء : العربُ تسمّي الحيضَ قُرءاً ، وتسمّي الطُّهر قرءاً ، وتسمّي الحيضَ مع الطُّهر جميعاً قرءاً . وقال أبو عمر بنُ عبد البر : لا يختلفُ أهل العلْمِ بلسانِ العرب والفقهاء أنَّ القُرءَ يُرادُ به الحيض ، ويرادُ به الطُّهر . (تفسير ابن كثير ١/ ٣٣٥ و٣٣٦) باختصار وتصرف . وانظر : فتح القدير (١/ ٢٣٦) وقال أحمد بنُ فارس ـ رحمه الله ـ: أقْرأتِ المرأةُ ، إذا خَرَجَتْ منْ طُهرٍ إلىٰ حَيْض ، أو منْ حيضٍ إلىٰ طهر .
والقُروء : جمعُ قَرْءٍ ، والقَرْءُ : وقتٌ يكونُ للطُّهْرِ مرّةً ، وللحيض مرّةً ، وجمعُهُ قُروء . ويُقال : القرءُ : هو الطُّهر ، وذلك أنَّ المرأةَ الطَّاهر كأنَّ الدَّمَ اجتمعَ وامْتَسَكَ في بَدنِها ، فهو من قريتُ الماءَ ، وقرىٰ الآكل الطّعامَ في شِدَّتِه . وقوم يذهبون إلىٰ أن القرْءَ هم الحيض . (مجمل اللغة ص٥٩٣) .

ترىٰ هل منْ نفحاتٍ عطرةٍ عن القرآنِ الكريمِ في ذاكرةِ ابنة هذا الصَّحابي كيما تعطرُ الأسْماع ، وتتحلىٰ بها الأفواه؟! لا شكَّ أنَّ ضيفتنا منْ عَالِمات بناتِ الصَّحابة ، وقد روت كثيراً من المعارفِ في علومِ القُرآن؛ وقد نقلَتْ لنا شيئاً منْ فضائِل القُرآن في عددٍ منَ الآيات .

* فقد أخرجَ الإمامُ أحمد بسنده عن شَهْر بنِ حوشب ، عن أسماءَ بنتِ يزيد بن السَّكن قالت: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ في هاتَيْن الآيتين: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ [البقرة: ٢٥٥] و﴿ الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [آل عمران: ١ ـ ٢]: «إنَّ فيهما اسم اللهِ الأعظم»[١] .

قال القرطبيُّ ـ رحمه الله ـ: ﴿اللهُ لا إله إلا هو الحي القيوم. . . ﴾ هذه آيةُ الكرسي؛ سيّدةُ آي القرآن ، وأعظمُ آية؛ نزلَتْ ليلاً ، ودعا النَّبيُّ ﷺ زيداً ـ بن ثابت ـ فكتبَها[٢] .

وقال ابنُ كثير ـ رحمه الله ـ: هذه آيةُ الكرسي ، ولها شَأْنٌ عظيمٌ ، قد صحَّ الحديثُ عنْ رسولِ الله ﷺ بأنَّها أفضلُ آيةٍ في كتابِ الله[٣] .

* ولأسماءَ ـ رضي الله عنها ـ وقفاتٌ لطيفةٌ معَ القُرآن فقد روتْ لنا نزولَ سورةِ المائدةِ ، فيما أخْرجهُ الإمامُ أحمدُ بسندِهِ عن شهرِ بنِ حوشَب عنها قالت: إنّي لآخذةٌ بزمامِ العَضْباءِ ناقَةِ رسولِ اللهِ ﷺ إذْ أُنزِلَتْ عليه المائدةُ كلّها ، فكادَتْ من ثقْلِها تدقُّ بعضدِ النَّاقة[٤] .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد برقم (٢٧٥٩٨)؛ وانظر: تفسير القرطبي (٤/ ٣) ، وتفسير ابن كثير (١/ ٣٨١) ، وتفسير القاسمي (٤/ ٥)؛ وانظر العقد الفريد (٣/ ٢٢٣) ، وكثير من المصادرِ المتنوعة من مثل: الروضة الفيحاء (ص١٤٠) وغيرها.

(٢) انظر: تفسير القرطبي (٢/ ٢٥٥).

(٣) تفسير ابن كثير (١/ ٣٧٧) ، وقد أورد ابن كثير ـ رحمه الله ـ أحاديث كثيرة في فضل هذه الآية العظيمة. انظر إنْ شئتَ (تفسير ابن كثير ١/ ٣٧٧ ـ ٣٨٤) ، وانظر كذلك تفسير القرطبي وغيره لهذه الآية.

(٤) أخرجه الإمامُ أحمد برقم (٢٧٥٦٢)،. وانظر: البداية والنّهاية (٣/ ٢٢) ، وتفسير ابن كثير (٢/ ٥). وغيرها.

* وروت أيضاً أنّها سمعتْ رسولَ الله ﷺ يقرأ: ﴿ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ ﴾ ولا يبالي ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[1] [الزمر: ٥٣]. وهذه القراءة على التّفسيرِ.

* ومن وقفاتِ أسماءَ المشرقةِ مع القُرآنِ هذه الوقْفة النّدية في القراءاتِ، حيثُ أخرجَ الإمام أحمد بسندهِ، عن شهرِ بنِ حوشب، عن أسماء بنتِ يزيد قالت: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقرأ: ﴿ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾[2] [هود: ٤٦].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد برقم (٢٧٥٥٦)، وانظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٧٠) وقد أفاضَ ابن كثير في تفسير هذه الآية وذكر كثيراً منَ الأحاديثِ التي فيها نَفْي القُنوط وثبوت المغفرة، وللمزيد من هذا الموضوع الجميل الشائقِ، اقرأ كتابنا «المغفرة في ضوء القُرآن والسُّنَّة».
وما أجمل أنْ ننشدَ هذهِ الأبيات في سَعةِ رحمة الله عزَّ وجلَّ ومغفرتِه:

حـدِّثْ عـن الجـود وعَـنْ فَيْضِـه	فـالأمـرُ مَبنـيٌّ علـىٰ الجـود
واذكـر لنـا بعـضَ أعـاجيبِـهِ	فلسـتَ تُحصيـه بتعـديـد
هيهـاتَ مـا جـودُ مَليْـكِ الـورىٰ	وخـالِـقِ الخَلْـقِ بمحـدودِ
حـدِّثْ عـنِ البحـرِ ومـا البحـرُ	فـي بعـضِ أيـاديـهِ بمـوجـودِ

ومنَ الذي أفاضَ هذه البرَكات، وأتىٰ بهذهِ الخيراتِ، وامتنَّ بهذهِ النِّعم التي ملأَتْ بينَ الأرض والسَّموات؟ ومن الذي يستخرجُ منْ ظُلماتِ الكفْرِ، ويستنقذُ من غمراتِ الجَهْلِ؟ فيغفرُ الذُّنوبَ، ويسترُ العيوبَ، وينفسُ المكروبَ، ويجيبُ المضطرَ إذا دعاه، ولا يبالي أطاعه أم عَصَاه؟! مَنْ هو إلا أرحمُ الرَّاحمين، وأكرمُ الأكرمين، ربُّ العالمين، إلهُ الأولين والآخرين، لا إله إلا هو الملك الحقُّ المبين.

(٢) أخرجه أحمد برقم (٢٧٥٥٦)، وانظر تفسير ابن كثير (٢/ ٥٥٢)، وتفسير القرطبي (٩/ ٤٦)؛ وقد قرأ يعقوبُ والكسائيُّ وسَهْل في روايةِ ابن مهران (عَمِلَ) بكَسْر الميمِ وفتح اللام فِعلاً ماضياً (غَيْرَ) بالنَّصب مفعولاً به، أوصفةً لمصدرٍ محذوف؛ أي عَمِلَ غَيْرَ صالحٍ، والجملةُ خبر إنَّ.
قال الأخفشُ في «المعاني» (٢/ ٥٧٨): وبهِ نقرأ. انظر: (المهذب ١/ ٣١٨) و(النشر ٢/ ٢٨٩).
وانظر: تفسير القرطبي (٩/ ٤٦) وفيه: قرأ ابن عباس وعروة وعكرمة ويعقوب=

* وفي وقفةٍ أخرى ، ومنْ رياضِ القُرآن المستطابةِ في رحلتنا معَ أسماءَ بنتِ يزيد تنقلُ لنا أنَّها سمعتْ رسولَ اللهِ ﷺ يقرأُ: ﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ﴾ ويحكمْ يا قريش اعبدوا ربَّ هذا البيت الذي أطعمكم منْ جوعٍ وآمنكم منْ خَوف[1] .

* هذا؛ والحديثُ مع أسماءَ والقرآن جميلٌ وشائقٌ ، ولكنْ لا يتّسعُ المقام لكي نوردَ حياتها ووقفاتها معه ، ولكنّا اكتفينا بما يوضحُ صورتَها ، ويزيدُ من تألّقها بين بناتِ الصَّحابة الأخيار.

حُبُّهَا لِلْحَدِيثِ وَرِوَايَتُهَا لَه :

* حياةُ ابنةِ هذا الصَّحابي مفعمةٌ بالبرَكاتِ والخيراتِ ، وهي واحدةٌ منْ بناتِ الصَّحابَةِ اللواتي حُزْنَ الفَضَائِلَ منْ أطرافِها ، فقد كانتْ تدخلُ بيوتَ النَّبيِّ ﷺ ، وترىٰ وتسمعُ ما يقولُه المصطفىٰ ﷺ ، فوعَتْ وحفظتْ وصارتْ تعدُّ منَ الحافِظَاتِ الرَّاويات.

* وقد عزَّزَتْ أسماءُ بنتُ يزيد معارفَها بحبِّها للعِلْمِ ، حيثُ كانتْ تسألُ وتستقصي في الاستزادَةِ منَ المعرفةِ حتى تصلَ إلىٰ الهدفِ المنشود ، فقد كانت جريئةً في السُّؤال ، تودُّ أنْ تعرفَ أمورَ دِينِها ، فتسألُ النَّبيَّ ﷺ وتتعلَّمُ وتحفظُ ، ومن ثمَّ نقلتْ هذه الكنوزَ العلميةَ القيّمةَ إلى شُداةِ العِلْم ، وطلابِ الحديثِ ، ومحبّي المعرفةِ منَ التَّابعين وجلةِ أهلِ العِلْم.

* وقد سجَّل لنا تاريخُ هذه المرأة شهادةَ فَخْرٍ لها في روايةِ الحديث النَّبوي

= والكسائي: إنَّه عَمِلَ غَيْرَ صَالح ، أي منَ الكفْر والتكذيب ، واختاره أبو عُبيد.
أقول: وفي هذا الحرفِ موافقة لخطِّ المصحفِ ، وليس فيه مخالفةٌ كما هو معروفٌ في هذا العِلْمِ.

(١) أخرجه أحمد برقم (٢٧٥٩٤)؛ وذكر أبو عُبيد القاسمُ بنُ سلام بسندٍ عن أسماءَ أنَّها قالت: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقرأ: ويل أمّكم قريش إيلافهم. رحلة الشتاء والصَّيف. (فضائل القرآن ص ٣١٨).

الشَّريف ، فقد كانت منْ أصحابِ العَشَراتِ وشيءٍ ، حيث روتْ واحداً وثمانينَ حديثاً ، وبهذهِ الرّواية تكونُ من أكثرِ نساء بني عبد الأشهل روايةً للحديث النَّبوي ، ومن أكثرِ بناتِ الصَّحابة حفْظاً وروايةً ، وهذا منْ أعظمِ ما تتحلّىٰ به هذه الابنةُ العالمةُ الفقيهةُ المحدّثَةُ الواعيةُ الحافظةُ.

* ومنَ المطربِ في أخبارِ أسماءَ هذه ، أنَّها الأولىٰ في روايةِ الحديثِ النَّبويِ الشَّريف ، من بين اثنتَي عشرةَ صحابية ، من أصحابِ العَشَرات وشيءٍ[1] ، بل هي الأولىٰ في الرِّواية بين الصَّحابيات اللواتي يُسَمَيْنَ «أسماء» وعددهُنَّ يزيدُ عن عشرة ، ومن أشهرهنَّ : أسماءُ ابنةُ سيِّدنا أبي بكر الصِّدِّيق ـ رضوان الله عليهما ـ ، وأسماءُ بنتُ عُميس ـ رضي الله عنها ـ ، وغيرهما.

* وأسماءُ ابنةُ يزيد تُعدُّ أيضاً منَ المُكثراتِ لِروايةِ الحديثِ منَ النِّساء ، فلم يسبقْها في هذا الميدانِ سوىٰ أمّنا عائشةَ بنت الصِّدِّيق ، وأمّنا أُمِّ سلمةَ ؛ ولعلَّ غزارةَ عِلْمِ أسماءَ في هذا المجالِ الرَّحبِ المبارك يعودُ إلىٰ كثرةِ دخولها وخدمتها النَّبيّ ﷺ ، فقد أوردَ أبو نُعيم في «الحِلْية» خَبراً يدلُّ على أنَّ أسماءَ بنتَ يزيد كانت تخدمُ النَّبيَّ ﷺ ، وهذا مما يزيدُ في رصيدِ أسماءَ الحديثيّ بين عالَم الرِّوايات وفي عَالَم المحدثات الحافِظات.

* وفي معرضِ حديثه عنْ أسماءَ قال ابنُ عساكر ـ رحمه الله ـ يشيرُ إلىٰ

---

(١) الصَّحابياتُ من أصحابِ العَشَرات وشيءٍ ، والعشراتِ وغير الشّيء ثنْتَا عشرةَ صحابيةً وهنَّ : أسماءُ بنتُ يزيد بن السّكن روت (٨١ حديثاً)؛ وميمونةُ أمّ المؤمنين روت (٧٦ حديثاً)؛ وأمُّ حبيبة أمُّ المؤمنين روت (٦٥ حديثاً) ، وحفصةُ أمُّ المؤمنين روت (٦٠ حديثاً) ، وأسماءُ بنتُ عُميس روت (٦٠ حديثاً) ، وأسماءُ بنتُ أبي بكر روت (٥٨ حديثاً) ، وأم هانىء بنتُ أبي طالب روت (٤٦ حديثاً) ، وأمُّ عطية الأنصاريّة روت (٤٠ حديثاً) ، وفاطمةُ بنتُ قيس روت (٣٤ حديثاً) ، وأمُّ الفَضْل بنتُ الحارث روت (٣٠ حديثاً) ، وأمُّ قيس بنتُ محصن روت (٢٤ حديثاً) ، والرُّبيِّع بنتُ معوذ روت (٢١ حديثاً).

صحبتها النَّبوية ، وإلىٰ روايتها الحديث: لها صحبةٌ ، روتْ عن النَّبيِّ ﷺ أحاديثَ صالحة[١] .

وقال الإمامُ شمسُ الدِّين الذَّهبي : روتْ عن النَّبيِّ ﷺ جملةَ أحاديث[٢] .

وقال ابنُ حجر : روتْ عنِ النَّبيِّ ﷺ[٣] . وقال : لها ذِكْرٌ في صحيح مُسْلم في الغسْلِ منَ الحيض[٤] .

* حدَّثَ عن أسماءَ جملةٌ منَ التَّابعين ومن مواليها ، فقد حدَّثَ عنها عمرو بن المهاجر[٥] ، وابنُ أختها محمود بنُ عمرو الأنصاري ، وأبو سُفيان مولىٰ ابن أحمد ، وشهر بنُ حوشب ، وعبدُ الرحمن بن عبد الرحمن بن ثابت الأنصاريّ ، ومجاهدُ بنُ جبر المكيّ ، ومولاها مهاجر بن أبي مسلم[٦] ، وإسحاقُ بن راشد وغيرهم[٧] .

---

(١) تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء ص٣٣) .

(٢) سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٩٧) .

(٣) تهذيب التهذيب (١٠/ ٤٥٣) ترجمة (٨٨٢٨) .

(٤) المصدر السابق .

(٥) عمرو بن المهاجر مولىٰ أسماء ، كان صاحبَ حرسِ عمر بن عبد العزيز ، روىٰ حديث : «لا تقتلوا أولادكم سرّاً» وكان عمرو بن المهاجر ثقةً ، له حديثٌ كثيرٌ ، مات (سنة ١٣٩ هـ) ، في خلافةِ أبي جعفر المنصور وهو ابن (٧٤ سنة) (طبقات ابن سعد ٧/ ٤٦٤) .

(٦) مهاجرُ بنُ أبي مسلم ، واسمهُ: دينار الشَّامي الأنصاريّ ، مولىٰ أسماء بنت يزيد . روى عن مولاته ، ومعاويةَ بنِ أبي سفيان ، وتبيع الحميري ، وعنه : ابناه : عمرو ومحمّد؛ ومعاوية بن صالح الحضرميّ ، والوليد بن سليمان بن أبي السَّائب . ذكره ابن سُميع في الطَّبقة الرابعة؛ وذكره ابن حبان في الثقات . (تهذيب التهذيب ٨/ ٣٧٣) ترجمة رقم (٧٢٠٦) .

(٧) انظر : تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء ص٣٣) ، وسير أعلام النبلاء (٢/ ٢٩٧) ، وتهذيب التهذيب (١٠/ ٤٥٣) وأعلام النساء (١/ ٦٧) ، ودليل الفالحين لطرق رياض الصالحين (٤/ ٢٧) وغيرها .

* وأحاديثُ أسماءَ ابنةِ يزيد مرويةٌ في كُتُب السُّنن الأربعة: أبي داود، والنّسائي، والتّرمذي، وابن ماجه؛ كما أنَّ البخاري قد خرَّج لها في الأَدب المُفرد؛ وأمَّا الإمامُ أحمد فقد أخرجَ لها في مسنده أربعةً وخمسينَ حديثاً بالمكررِ، بالإضافةِ إلىٰ كُتُب الحديث الأخرى، ناهيك بكتب الطَّبقات وغيرها.

* ومنَ الجديرِ بالذّكْرِ أنَّ مرويات أسماء تجمعُ كثيراً منْ علومِ القُرآن، وعلومِ الحديث النبوي، والشَّمائل، والأحكامِ المهمَّة للمرأةِ وغيرها، كما تجمعُ جانباً منْ أحداثِ السِّيرةِ النبويةِ العَطرةِ، والمغازي، وكثيراً من أحاديثِ التّرغيبِ والتَّرهيب والفَضَائل وغير ذلك كثير.

أَحَـادِيْـثُ مِـنْ مَـرْوِيَّـاتِهَـا:

* كانَ الحبيبُ الأعظمُ ﷺ يحبُّ الأنصارَ الذين آوَوا ونصرُوا، وكانوا يُؤْثرونَ علىٰ أنفسهم، ولذا فقد خصَّهم بمديحهِ وثنائِه، وفي رحلةِ الثَّناء العَطِر هذه نلتقي أسماءَ تروي لنا أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كانَ إذا أشرفَ على بيوتنا يقول: «ماذا في هذهِ الدُّور منَ الخيرِ! هذه خيرُ دُور الأَنْصار»[1].

* وفي مكرمةٍ تخصُّ كبشةَ بنتَ رافع أمَّ سعد بنِ معاذ ـ رضي الله عنهما ـ تهديْ أسماءُ بنتُ يزيد هذه البشارة التي سمعَتْها منَ النَّبيّ ﷺ، والتي تُفْصح عن مكانةِ سَعْدِ بن معاذ عند اللهِ عز وجل.

* أخرجَ الإمامُ أحمد بسندِه عنْ إسحاقَ بنِ راشد عن أسماءَ قالت: لما توفي سعدُ بنُ معاذ صاحتْ أمُّه، فقال النَّبيُّ ﷺ: «ألا يرقأ دمْعُك ويذهب حزنُك، فإنَّ ابنك أوَّلُ مَنْ ضَحِكَ اللهُ له، واهتزَّ له العرش»[2].

---

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٨/ ٣١٩)؛ وانظر: الإصابة (١٣/ ٢٤٤) ترجمة رقم (١٣٧٠).

(٢) أخرجه أحمد برقم (٢٧٥٦٨)، وابن سعد في الطبقات (٣/ ٤٣٤)، وانظر تاريخ الإسلام للذهبي (السّيرة النّبوية ص٣٢٧).

* وأحاديثُ البيعةِ التي روتها أسماءُ ، وما دار آنذاك كثيرةٌ عندها ، وهي عظيمةُ الفائدةِ ، جليلةُ المعاني ، فيها أحكامٌ رائعةٌ بديعةٌ تَنْفَعُ بناتِ الصَّحابة ونساءَهم ونساءَ المسلمين إلى يوم الدِّين ؛ وإليكَ هذا الحديث الجامع الشَّامل اللطيف المفيد.

* فقد أخرجَ الإمامُ أحمد ـ رحمه الله ـ بسنده عن شهر بنِ حوشب قال : حدَّثَتْني أسماءُ بنتُ يزيد أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ جمعَ نساءَ المسلمين للبيعةِ ، فقالت له أسماءُ : أَلا تَحْسرُ لنا عن يدِكَ يا رسولَ الله؟

فقالَ لها رسولُ اللهِ ﷺ : «إنّي لستُ أصافِحُ النِّساء ولكنْ آخذُ عليهنَّ».

* وفي النِّساء خالةٌ لها عليها قُلْبانِ منْ ذهب ، وخواتيمُ من ذهَب ، فقال لها رسولُ الله ﷺ : «يا هذهِ هل يسرُّكِ أنْ يُحلّيك اللهُ يومَ القيامةِ من جَمْر جهنَّم سِوارَيْن وخواتيم»؟

فقالت : أعوذُ باللهِ يا نبيّ الله.

قالت : قلتُ : يا خالتي اطرحي ما عليكِ ، فطرحَتْه.

فحدَّثَتْني أسماءُ : واللهِ يا بُنيّ لقد طَرَحَتْه ، فما أدري مَنْ لقطه مِنْ مكانِهِ ، ولا التفتَ منَّا أحدٌ إليه.

قالتْ أسماءُ : فقلتُ : يا نبيَّ اللهِ إنَّ إحداهُنَّ تصلفُ عند زوجها إذا لم تملَحَ له ، أو تَحْلَىٰ له.

قال نبيَّ اللهِ ﷺ : «ما علىٰ إحداكُنَّ أنْ تتخذَ قرطين من فضَّةٍ ، وتتخذَ لها جمانتَيْن من فضَّةٍ فتدرجه بين أناملها بشيءٍ منْ زعفران ، فإذا هو كالذَّهب يبرقُ»(١).

* ومن مروياتِ أسماءَ بإرخاصِ الكذبِ في الحربِ ، أو إصلاحِ ذاتِ البين ، تروي لنا ـ فيما أخرجَهُ أحمدُ عن شهرِ بنِ حوشب ـ أنَّها سمعتْ

---

(١) أخرجه أحمد برقم (٢٧٥٥٩) ، وانظر : تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء ص٣٨).

رسولَ اللهِ ﷺ يخطبُ يقول: «يا أيّها الذينَ آمنوا ما يحملُكم علىٰ أنْ تتابعُوا في الكذبِ كما يتتابعُ الفراشُ في النَّار ، كلُّ الكذبِ يُكْتَبُ علىٰ ابنِ آدمَ إلا ثلاث خِصَال: رجلٌ كَذَب علىٰ امرأتِهِ ليرضيَها؛ أو رجلٌ كذَبَ في خديعةِ حَرْبٍ؛ أو رجلٌ كذبَ بينَ امرأَيْن مسلمَيْن ليصلحَ بينهما»[١].

* وفي ذمِّ النَّميمة التي تؤولُ إلىٰ تقاطع المتواصلين ، وتباعدِ المتقاربين ، وتباغضِ المتحابين ، يروي شهر بنُ حوشب عن أسماءَ ابنة يزيد ، عنِ النَّبيِّ ﷺ ، أنَّه قال: «ألا أخبركم بشراركم»؟

قالوا: بلىٰ يا رسول الله.

قال: «مِنْ شراركم المشاؤونَ بالنَّميمةِ ، المفسدون بين الأحبّةِ ، الباغون العيوب»[٢].

* وعن فَضْلِ بناءِ المسَاجدِ ، وفضيلةِ القيامِ بهذا العملِ ، أخرجَ الإمامُ أحمدُ بسندهِ عن محمود بنِ عمر عن أسماءَ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «مَنْ بنىٰ للهِ مسجداً يبني له بيتاً أوسعَ منه في الجنَّةِ»[٣].

* وفي استحبابِ السَّلامِ وإفشائِهِ ذكر أبو داود في سُنَنه عن أسماءَ بنتِ يزيد؛ مرّ علينا النَّبيُّ ﷺ في نسوةٍ فسلَّم علينا[٤].

* ومن مروياتِ أسماءَ المشهورةِ والتي فيها كثيرٌ من أسرارِ دلائلِ النّبوةِ ما جاء عند أحمد وأبي داود من حديثِ أسماء بنت يزيد: «لا تقتلوا أولادَكم سِرّاً ، فوالذي نفسي بيده إنَّه ليدركُ الفارس فَيُدَعْثِرُهُ».

---

(١) أخرجه أحمد برقم (٢٧٥٥٧).
(٢) انظر: أدب الدنيا والدين (ص٤٢٢).
(٣) أخرجه أحمد برقم (٢٧٥٩٩)؛ وانظر أسد الغابة (٦/ ١٩).
(٤) أخرجه أبو داود في الأدب برقم (٥٢٠٤)؛ وأخرجه الترمذي في أبواب الاستئذان والآداب برقم (٢٦٩٨) ، وابن ماجه في الأدب برقم (٣٧٠١) ، والبخاري في الأدب المفرد (١٠٤٧) ، وأحمد (٤/ ٣٥٧ و٣٦٣).

قلتُ: ما يعني؟

قالت: الغيلة: «يأتي الرَّجُل امرأته وهي ترضعُ»[1].

* ولابنِ قيّم الجوزيةِ ـ رحمه الله ـ تعليقٌ نفيسٌ مفيدٌ ومهمٌّ علىٰ حديثِ أسماءَ الذي روته: «لا تقتلوا أولادكم سرّاً...»، يقولُ ابن قيّم الجوزية: إنَّ قوله: «لا تقتلوا أولادكم سرَّاً» نهيٌ أنْ يتسبَّبَ إلىٰ ذلك، فإنَّه شَبَّه الغيلَ بقتْلِ الولد، وليس بقَتْلٍ حقيقة، وإلا كانَ منَ الكبائر، وكان قرينَ الإشْراك باللهِ، ولا ريبَ أنَّ وطْءَ المراضعِ مما تعمُّ به البلوىٰ، ويتعذَّر علىٰ الرَّجُل الصَّبر عن امرأتهِ مدَّةَ الرَّضاع، ولو كان وطؤهنَّ حراماً لكان معلوماً من الدِّين، وكان بيانه منْ أهمّ الأمورِ، ولم تهمِلْه الأمَّة، وخير القرون، ولا يصرّحُ أحدٌ منهم بتحريمهِ، فَعُلِمَ أنَّ حديثَ أسماء على وجْهِ الإرشاد والاحتياطِ للولد، وألَّا يُعرِّضه لفساد اللَّبن بالحملِ الطَّارىءِ عليه، ولهذا كان عادة العربِ أنْ يسترضعوا لأولادهم غير أمهاتِهم، والمنع منه غايته أنْ يكونَ منْ بابِ سدِّ الذَّرائِع التي قد تفضي إلىٰ الإضرارِ بالولد، وقاعدة باب سدّ الذرائع إذا عارضه مصلحةٌ راجحةٌ قُدِّمت عليه[2].

* ومن مرويات أسماءَ في الشَّمائل، بأنَّها وصفتِ القميص ـ وكان أحبَّ الثّياب إلىٰ رسول اللهِ ﷺ ـ قالتْ: كان كُمّ قميصِ رسولِ الله ﷺ إلىٰ الرُّسغ[3].

---

(١) أخرجه أحمد (٦/ ٤٥٣ و٤٥٧ و٤٥٨)، أبو داود برقم (٣٨٨١ و٣٨٨٢)، وابن ماجه برقم (٢١٠١٢)، وابن حبان (١٣٠٤). ومعنى «يدعثره»: أي: يصرعُه ويسقطهُ، وأرادَ بهذا المُرضع إذا جُومعت فحملَتْ، فَسَدَ لبنُها، ويُنْهكِ الوَلدُ إذا اغتذىٰ بذلكَ اللبن، فإذا صَارَ رجُلاً، وركب الخيلَ، فركضَها، ربّما أدركه ضَعْفُ الغَيْلِ، فزالَ وسقطَ عن متونِها، فكانَ ذلك كالقَتْلِ له، غير أنَّه سرٌّ لا يرى ولا يُعْرف. وانظر: أسد الغابة (٦/ ١٨ و١٩).

(٢) انظر: زاد المعاد في هدي خير العباد (٥/ ١٤٧ و١٤٨).

(٣) «الرسغ»: قال ابنُ فارس: الرَّاء والسِّين والغين كلمةٌ واحدةٌ، وهو موصلِ الكفّ =

* وأخرجَ أحمدُ عن شهرِ بنِ حوشب عن أسماءَ قالت: توفيَ رسولُ الله ﷺ ودرعُه مرهونةٌ[1].

* هذا ومرويات أسماءَ كثيرةٌ تروي الغُلَّة، وتشبعُ الغَرثان، وفيما ذكرناه مقْنَع وشفاء[2].

مَعَ الغَازِيَاتِ المُجَاهِدَاتِ:

* عندما تحدَّثَ الإمامُ الذَّهبيُّ عَن أسماءَ ابنةِ يزيد قال: بنت عمَّةِ معاذ بن جبل منَ المبايعاتِ المجاهداتِ، حضرتْ بيعة الرِّضوان وبايعتْ يومئذ[3].

* وقال ابنُ عسَاكر: وأسماءُ منَ اللاتي بايَعْنَ رسولَ اللهِ ﷺ، وشهدتِ اليرموكَ[4].

وقال أبو زُرعة: وأسماءُ بنتُ يزيد بن السَّكن شهدتِ الفتح[5].

* إذاً فأسماءُ ـ رضي الله عنها وأرضاها ـ منَ الصَّحابياتِ الغازياتِ ومن بناتِ الصَّحابةِ الشُّهداء، ومن أخواتِ الذين صدقُوا ما عاهدوا اللهَ عليه،

= في الذِّراع. (المقاييس في اللغة ص٤٠٢). وحكمةُ اقتصارِ القميصِ إلىٰ الرُّسغ، أنَّه متى تجاوزَ اليد منعَ لابِسة الحركةَ، وإذا كان قصيراً تأذّىٰ السَّاعد بالحرِّ والبردِ، فكان جَعْلُه إلىٰ الرسغ أمْراً وسَطاً، وخيرُ الأمورِ أوساطها.

(١) أخرجه أحمد برقم (٢٧٥٥٢)، وفي رواية أخرىٰ: ودرعه مرهونة عند رجل من اليهود بوسق من شعير. انظر المسند برقم (٢٧٥٧٤)، وأخرجه الترمذي برقم (١٧٦٥)، وسنن ابن ماجه برقم (٢٤٣٨).

(٢) وكانت أسماء رضي الله عنها تروي أحاديثها في كل بلد تنزله، فقد ذكر أبو زرعة عمن حدث بالشام من النساء فقال: أسماء بنت يزيد بن السكن ـ يعني: حدثت بالشام ـ.

(٣) انظر: سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٩٦ و٢٩٧) باختصار وتصرف يسير.

(٤) تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء ص٣٣).

(٥) عن المصدر السابق نفسه. وانظر في هذا المجال: الاستيعاب، وأسد الغابة، والإصابة، وطبقات ابن سعد وغيرها وذلك في ترجمة أسماء بنت يزيد.

ومن أسرةٍ أحبَّتِ الجهادَ ووهبتْ نفسَها للهِ ورسوله.

* وكم تسكنُ النُّفْسُ إلىٰ الأسْرةِ السَّكَنيَّةِ الأنْصاريّة التي باعتْ نَفْسَها لله فربحَ بَيْعُها، واشترىٰ اللهُ منها هذا بأنَّ لها الجنَّة، فنال معظمُها وسامَ الشَّهادةِ، واتَّخذهم اللهُ شهداءَ، وأكرمْ بمن يتَّخذِ اللهُ شهيداً!!

* فأبوها يزيدُ بنُ السَّكن بنِ رافع الأَشهليّ الأنصاري أحدُ فرسانِ مدرسةِ النُّبوة، وأحدُ الفُرسان الصَّناديد الذين ثَبتُوا حول الحبيبِ الأعظمِ ﷺ يوم أُحدٍ، وكان معه ابنة عامرُ بنُ يزيد أخو أسماء، وقد حظيا بالشَّهادةِ يوم إذ فَقُتِلا وكانا شَهيدَيْن[1] وسُجِّلا في ديوانِ الشُّهداء يوم أحد.

* وكان عمُّها زيادُ بنُ السَّكن الأشهليّ الأنصاري ممن ذابتْ نفسُه حبّاً في الاستشهادِ في سبيلِ اللهِ تعالىٰ، فلَّما اشتدَّ القتالُ يومَ أُحُد، وحميَ الوطيسُ، واحمرتِ الحدقُ، وكانَ زيادُ بنُ السَّكن منْ أقربِ الفُرسان إلىٰ أميرِ الأنبياءِ سيّدنا وحبيبنا محمّد ﷺ، فباعَ نفسه، وتلاشتِ الدُّنيا أمام عينيه لما رأىٰ الخطر يدنو منَ الحبيبِ الأَعْظَم ﷺ، فارتمىٰ علىٰ الموتِ لا يبالي بأحدٍ، خصوصاً عندما سمعَ صوتَ الحبيب المصطفىٰ ﷺ يقول: «مَنْ رجلٌ يبيع لنا نفسه»؟ وكان رسول الله ﷺ قد أُصيبَ وجهُهُ الشّريف، وثُلِمَتْ رباعيتُهُ، وجُرحت شفتُه، وأصيبت وجنتُه، هنالك وثبَ إليه فتيةٌ منَ الأنصارِ خمسة، منهم زياد بن السّكن، فقاتلَ قتالَ الأبطالِ حتى أُثْبِتَ[2]؛ ثمَّ ثابَ إلىٰ الحبيبِ المصطفىٰ ﷺ ناسٌ من المسلمين، فقاتلوا عنه حتى أزالوا عنه العدوّ، فقال رسولُ الله ﷺ لزيادِ بنِ السَّكن: «ادْنُ منّي» ـ وقد أثبتته الجراحة ـ فوسّده رسولُ الله ﷺ قَدمَه حتى ماتَ عليها[3].

---

(١) انظر: الاستيعاب (١١/ ٧٢) ترجمة رقم (٢٧٧٤). والإصابة (١٠/ ٣٤٩) ترجمة رقم (٩٢٦٨) وأسد الغابة ترجمة رقم (٥٥٥١)، الاستبصار (ص ٢١٨) وغيرها.

(٢) «أثبت»: جرح جراحة لا يتحرك منها.

(٣) انظر: الاستيعاب (٤/ ٣٦) ترجمة رقم (٨٢٨)، والإصابة (٤/ ٢٩) ترجمة رقم (٢٨٤٨) مع الجمع والتصرف وانظر: الاستبصار (ص ٢١٧)، وأسد الغابة ترجمة رقم (١٨٩٩).
=

* ومَا أجملَ أنْ نقرأَ هذهِ الأبيات التي تصوِّر استشهادَ هذا الصحابي الفارس:

أَكانَ زَيادُ بأْسُك إذْ تُصَابُ ... زيادةُ ذلكَ العَجبُ العُجَابُ
تَكَاثَرتِ الجراحُ وأنتَ صُلْبٌ ... يهابُك في الوغىٰ مَنْ لا يَهابُ
هوىٰ البطلُ المغامِرُ واضمحلَّتْ ... قُواهُ وخَارَتِ الهممُ الصِّلابُ
فتىً صَدقَتْ مشاهِدُه فَظَلَّتْ ... تَعاوَرَهُ القواضبُ والحِرابُ
أَيادي اللهِ يجعلُها ثَواباً ... لكلِّ مجاهدٍ نِعْمَ الثَّوابُ
أهابَ مُحمدٌ أَدْنُوه منِّي ... فذَلك صَاحبي المحضُ اللُّبابُ
علىٰ قَدمي ضَعُوا لِلَّيثِ رأْساً ... أحاذِرُ أنْ يعفرهُ التُّرابُ
فَفَاضَتْ نَفْسُه نوراً عليها ... وماجَ الجوُّ وامتدَّ العُبابُ
تلقَّتْهُ الملائكُ بالتَّحايا ... مُنضَّرةً تحبُّ وتُسْتَطابُ
وزُخْرِفَتِ الجِنَانُ وقيل هذا ... مآبُكَ إنَّه نِعْمَ المآبُ[1]

* مازلنا نتابعُ سَيْرَ المعركةِ في أُحُدٍ، وما زلنا نشهدُ جهادَ الأُسْرَةِ السَّكَنيّةِ، وها نحنُ أولاءِ نشهدُ عمارةَ بنَ زياد بنِ السَّكن ابن عمّ أسماء وهو يقاتلُ ويجاهدُ ويجالدُ المشركينَ قربَ رسولِ اللهِ ﷺ حتى اتَّخذه اللهُ شهيداً،

= وفي الصَّحيحِ ما يتوافقُ مع هذهِ الرِّواية، إذْ جاء ذِكْر سبعةٍ منَ الأنصار ضحُّوا بأنفسهم لحمايةِ رسولِ اللهِ ﷺ، وذلك فيما أخرجَ مسلمٌ من حديثِ أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ أُفردَ يومَ أحدٍ في سبعةٍ منَ الأنصار، ورجلَيْن من قريش، فلمّا رهقوهُ ـ قربُوا منه ـ قال: «مَنْ يردُّهم عنَّا وله الجنَّة، أو هو رفيقي في الجنَّة»، فتقدَّمَ رجلٌ منَ الأنصار فقاتلَ حتى قُتل، ثم رهقوه أيضاً فقال: «منْ يردهم عنَّا وله الجنَّة، أو هو رفيقي في الجنَّة» فتقدّم رجلٌ منَ الأنْصار فقاتل حتى قُتل، فلم يزلْ كذلك، حتى قُتِل السَّبعة، فقال رسول الله ﷺ لصاحبَيْه: «ما أنصفنا أصحابنا» أخرجه مسلم برقم (١٧٨٩).

(١) انظر: ديوان مجد الإسلام (ص ١٤١ و١٤٢) بتصرف.

وكُتِبَ منَ الأحياءِ الذين يُرزقونَ عند ربِّهم ، ووُجِدَ في جِسْمِه أربعةَ عشرَ جُرحاً تشهدُ له بالبَسالةِ والإقدام(١) .

* وهكذا راحَ هؤلاء الأنصارُ إلىٰ ربِّهم وقد حظُوا بالشَّهادة ، بعد أن تركُوا وراءَهم نساءً وبناتٍ ملأَ حبُّ اللهِ ورسولِهِ قلوبهنَّ ، لاسيما أنَّ رسولَ الله ﷺ سالمٌ صحيحٌ لم يُصَبْ بسوءٍ في معركةِ أُحُدٍ ، وقد أبانَتْ أسماءُ بنت يزيد عن طيْبِ عنصرها ، وعن يقينِ إيمانها باللهِ ، وعن إيمانِ يقينها ، فقد بلغَها نبأُ اسْتشهادِ أفرادِ أسرتها ، وفي مقدمتهم : أبوها وأخوها عامرٌ ، ثم عمُّها زياد وابنهُ عمارة ، وغيرهم منْ بني عبد الأشْهل ، فخرجتْ تنظرُ إلىٰ سلامةِ رسولِ اللهِ ﷺ ، وهو قادمٌ من أُحُدٍ ، ولما رأته سالماً هتَفَتْ قائلةً : كلُّ مصيبةٍ بعدكَ جَلَل يا رسول الله(٢) .

* ولم تكن كبشةُ بنتُ رافع أمّ سعد بن معاذ بأقلَّ منْ أسماءَ شجاعة ، فقد خرجتْ أمُّ سعد أيضاً نحو أحُدٍ ، فلما رأتِ النَّبيَّ ﷺ قالت : أمَا إذْ رأيتُك سالماً فقد أشوتِ(٣) المصيبةُ ، وكان ابنها عمرو بن معاذ قد استشهد مع اثني عشرَ رجُلاً من بني عَبْدِ الأشهلِ الأخيار(٤) .

---

(١) انظر : الاستبصار (ص ٢١٧) ، وانظر ترجمة عمارة في الاستيعاب والإصابة وأسد الغابة .

(٢) انظر : المغازي للواقدي (١/ ٣١٥) بتصرف . و«جلل» : هينة صغيرة .

(٣) «أشوت» : هانت .

(٤) جاءتْ أمُّ سَعْد بن معاذ تعدو نحو رسولِ الله ﷺ ، وقد وقفَ على فرسهِ ، وسعدُ بنُ معاذ آخذٌ بعنان الفرس ، فقال سعدٌ : يا رسول الله ، أمّي! فقال : «مَرحباً بها» . فدنَتْ حتى تأمَّلتْ رسولَ اللهِ ﷺ وقالتِ : أمَا إذْ رأيتك سالماً فقد أشوتِ المصيبةُ . فعزّاها رسولُ اللهِ ﷺ بعمرو بنِ معاذ ابنها ثم قال : «يا أمَّ سعدِ ، أبشري وبشِّري أهليهم أنَّ قتلاهم قد ترافقُوا في الجنَّة جميعاً ـ وهم اثنا عشر رجلاً ـ وقد شُفِّعوا في أهليهم» . قالت : رضينا برسولِ الله ، ومَنْ يبكي عليهم بَعْدَ هذا؟! ثمَّ قالت : يا رسولَ اللهِ ادعُ لمن خلفوا ، قال : «اللهمَّ أذهبْ حزنَ قلوبهم واجبرْ مصيبتهم ، وأحسنِ الخلفَ على مَنْ خلَّفوا» ثمَّ قال : «يا أبا عمرو ـ كنية سعد ـ إنَّ الجراحَ في =

* وبهذا شاركتِ المرأةُ المسلمةُ الصَّحابيةُ وبناتُ الصَّحابةِ في تلكم الأحداث ، حيث كانتْ جُزءاً لا يتجزأُ منها ، وقد ساهمتْ في كلّ فضيلةٍ ، فها هي في سَاحِ الجهادِ ، وها هي تصبرُ وتحتسبُ عند المصيبةِ احتساباً ، ثمّ ها هي تحضرُ المغازي فتسقي الظّمأىٰ ، وتداوي الجرحىٰ ، وتفعلُ ما يرضي الله ورسوله .

* ولم تتوقفْ أسماءُ رضي الله عنها عند هاتيك الأمورِ ، وإنَّما كانتْ تطعمُ المجاهدينَ بقيادةِ نبيّهم ﷺ ، ففي غزاةِ الخَنْدقِ بعثتْ إلىٰ النَّبيِّ ﷺ بقَعبَةٍ[1] فيها حيس[2] وهو عند أمّ سلمةَ أمّ المؤمنين ـ رضوان الله عليها ـ ، فأكلتْ أمُّ سلمةَ حاجتَها ، ثمَّ خرجَ بالقعبةِ ، فنادىٰ منادي رسولِ الله ﷺ إلىٰ عشائه ، فأكلَ أهلُ الخَنْدقِ حتىٰ نَهِلوا وهي كما هي[3] .

= أهلِ دارك فاشيةٌ وليسَ منهم مجروحٌ إلا يأتي يوم القيامةِ جرحه كأغزرِ ما كان ، اللونُ لونُ الدَّم ، والريحُ ريحُ المِسْكِ ، فَمَنْ كان مجروحاً فليقرّ في داره وليداوِ جُرحَه ، ولا يبلغ معي بيتي ، عزْمةً مني» . فنادىٰ فيهم سعد: عزمةٌ منْ رسولِ الله ألا يتبعَ رسولَ اللهِ ﷺ جريحٌ مِنْ بني عبد الأشهل ، فتخلَّفَ كلُّ مجروحٍ ، فباتوا يوقدونَ النِّيران ويداوون الجِراح ، وإنَّ فيهم لثلاثين جريحاً ، ومضَىٰ سعدٌ مع رسولِ الله ﷺ حتى جاءَ بيتهُ فما نزلَ عن فرسِه إلا حَمْلاً ، واتّكأَ على سعد بنِ معاذ ، وسعد بنِ عبادة حتى دخل بيته ، فلما أذَّن بلالٌ بصلاة المغرب خرج على مثل تلك الحالِ يتوكأ على السَّعْدَيْن ، فصلَّىٰ ثم عادَ إلى بيته (إمتاع الأسماع ١/ ١٦٣ و١٦٤) و(المغازي ١/ ٣١٦) .

(١) «القعبة» : القدح الضحم .

(٢) «الحيس» : التّمر والسّمن . وأصْل الحَيْس : الخَلْط ، قال الزَّمخشري في الحيسِ هذا المثلَ : فلانٌ يشْبِهُ التّيس ، ليسَ يزهرُ الكيس ، ولا يطعمُ الحَيْس . (أساس البلاغة ص١٤٩) .

(٣) انظر : المغازي (٢/ ٤٧٧) . هذا وتكثيرُ الطَّعام إحدىٰ المعجزاتِ التي أيّدَ اللهُ بها النَّبي ﷺ وقد وقعَ هذا في مواضعَ كثيرةٍ ، وحدثَ مع عدد من الصْحابيات منهنَّ : سيدتنا فاطمة الزَّهراء ، وكذلك أمُّ سليم بنت ملْحان ، وأسماءُ بنت يزيد أو غيرهنَّ ، وقصَّة بركة طعَام الصَّحابي جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنهما ـ مُتَعالمةٌ =

* ولله درُّ الشَّاعر إذْ صاغَ هذهِ الضِّيافَة شعراً فقال عن أسماء:

والأشْهليّةُ إذ يجيءُ رسولُها ... يمشي بجفْنَتِها أغرَّ وسيما

اللهُ علَّمها مناقِبَ دِينهِ ... فشَفَى الخبالَ وأحْسَنَ التَّعليما

لولا مَرَاشِدُهُ تُقَوِّمُ خَلْقَه ... لم يعرفُوا الإصلاحَ والتَّقويما[1]

* ولما خرجَ رسولُ اللهِ ﷺ إلىٰ الحديبيةِ كان معه عددٌ منْ بنَاتِ الصَّحابة، وكانت هناك أعدادٌ منَ الصَّحابياتِ من نساءِ المهاجرينَ والأنْصار، وكانت أسماءُ بنتُ يزيد ممن خرجَ إلىٰ الحديبية، ولما كانتِ البيعةُ المباركةُ تَحْت الشَّجرة بايعتْ بيعةَ الرِّضوان يومئذ وكُتِبَتْ في سجلِّ الذين رضي الله عنهم إذْ يبايعون تَحتَ الشَّجرة بنفوسٍ راضيةٍ بالاستشهادِ في سبيلِ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فحظيتْ ومَنْ بايع تحت الشَّجرة ببشارةِ الحبيبِ المصطفىٰ ﷺ في الجنَّة، حيثُ قال: «لا يدخلُ النَّار أحدٌ ممن بايعَ تَحتَ الشّجرة»[2].

* ولما خرجَ الحبيبُ المصطفىٰ ﷺ إلىٰ خيبرَ، ليجاهدَ في اليهودِ الذين يبطنونَ الغَدْرَ والكُرْهَ للإسلامِ، خرجَ معه ﷺ من المدينة عشرونَ امرأة في مقدمتهنَّ أمُّنا أمّ سلمة[3] رضي الله عنها، وكانتْ أسماءُ من عِدادِ هذا العِقْد النَّفيس، ممن خرجْنَ يعتنينَ بالجرحىٰ، ويؤدينَ واجباتِ الجهاد، ولما فتحَ

= في كُتُب السّيرة والحديث. انظر البخاري برقم (٤١٠١ و٤١٠٢)، ومسلم برقم (٢٠٣٩) والمستدرك (٣/ ٣٠ و٣١) وغير ذلك كثير.

(١) انظر: مجد الإسلام (ص٢١٣).

(٢) أخرجه مسلم، وأبو داود والترمذي. وانظر: سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٩٦ و٢٩٧).

(٣) جاء أنَّ أمَّنَا أمَّ سلمة ـ رضوان الله عليها ـ قد شهدت غزاةَ خيبر في صُحبةِ رسولِ الله ﷺ، وقالتْ مع نسوةٍ: ليتَ اللهَ كتبَ علينا الجهاد، كما كُتِبَ علىٰ الرجالِ، فيكونَ لنا من الأَجْرِ مثلما لهم، فنزلت الآيةُ الكريمة: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَۚ﴾ [النساء: ٣٢]. انظر (تفسير ابن كثير ١/ ٥٩٧ و٥٩٨).

اللهُ علىٰ المسلمين حصونَ خيبر ، أخذتْ أسماءُ ومَنْ معها من النِّساء من تلكم المغانم ، فلحقها نصيبٌ من الفيءِ والمال والملابسِ[1] .

* وتوفيَ رسولُ الله ﷺ وهو راضٍ عن ابنةِ يزيد بنِ السَّكن ، وأحبَّتْ أسماءُ أنْ تتابعَ رحلةَ الجهادِ في صفوفِ الفاتحين الذين خرجُوا يجاهدون في مشارقِ الأرضِ ومغاربها؛ ولما كانتْ معركةُ اليرموك الشَّهيرة في الشَّام كانت أسماءُ بنتُ يزيد ونساءُ المسلمين يشارِكْنَ في هذه المعركةِ الضَّارية ، وقد قاتلَ المسلمونَ يومئذٍ قتالاً تعجزُ عنه أسودُ الفلاَ ، ولما احتدمَ القتالُ ، واشتجرتِ الرِّماحُ ، ولمعتْ بوارقُ السُّيوفِ ، اشتركتِ النِّساءُ من وراء فرسانِ المسلمين ، وكُنَّ يشجعنهم ، ولكنَّ شدّةَ المعركةِ وضراوتها جعلتْ بعضَ رجالِ المسلمين يتراجعونَ قَليلاً إلىٰ الخَلْفِ ، فكانتِ النِّساءُ المجاهدات لهؤلاءِ بالمرصاد ، فيضربنهم بالحجارةِ وبالخَشَب كي يعودوا إلىٰ جِلادِ الرُّوم الكافرين .

وها نحنُ أولاءِ نحضرُ المعركةَ يوم إذ ، وها هو ابنُ كثير ـ رحمه الله ـ ينقل لنا صورةً حيّةً عن جهادِ المؤمناتِ ودورهنَّ يومَ اليرموك فيقول : وقد قاتلَ نساءُ المسلمينَ في هذا اليومِ ، وقَتلُوا خَلقاً كثيراً من الرومِ ، وكُنَّ يضربْنَ مَن انهزمَ منَ المسلمينَ ويقُلْنَ : أين تذهبون عنَّا وتدعوننا للعلوجِ ، فإذا زجرنهم لا يملكُ أحدٌ نفسه حتى يرجعَ إلىٰ القتال[2] .

* وما زالتِ المعركةُ مستعرةً ، فما كان منْ أسماءَ إلا أنْ اقتلعتْ عمودَ خيمتها ، وراحتْ تضربُ به رؤوس الرُّوم حتى قتلتْ يومئذ تسعةً من الرُّوم[3] ، ونقلتهم إلى النَّار وبئس القرار .

---

(١) انظر : المغازي (٢/ ٦٨٨) بتصرف؛ وانظر : تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء ص٣٩) .

(٢) انظر : البداية والنهاية (٧/ ١٣) .

(٣) انظر : مجمع الزوائد (٩/ ٢٦٠) ، سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٩٧) ، وتاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء ص٣٤) وغيرها .

وَدَاعاً أَسْماءُ بنتُ يَزِيْدَ:

* في الشَّامِ طابَ المُقامُ لأَسماءَ بنتِ يزيد ، وراحت تؤدّي رسالةَ العِلْم ، حيثُ أخذتْ تُحدِّث بالشَّام ، وتعلِّمُ النِّساء ، وتروي الحديثَ لمن جاء ينشدُ العِلْمَ.

* ولعلَّ استقرارَ أسماءَ في الشَّام يعودُ إلىٰ ما بعد مشاركتها في معركةِ اليرموك ، وقد اختارتْ دمشقَ سكناً لها ، وهناك راحتْ تكملُ مشوار حياتِها الحافلِ بالفضائلِ ، وقد امتدَّ بها العمرُ إلىٰ بُعَيْد منتصفِ القرنِ الهجري الأوَّل ، فهي تُعَدُّ بذلك من بناتِ الصَّحابة المُعَمَّرات.

* وعن سُكناها بدمشقَ يتحدَّثُ الإمامُ الذَّهبي ـ رحمه الله ـ فيقول: سكنتْ دمشقَ ، وقبر أمِّ سلمةَ الذي بمقبرةِ باب الصَّغير هو قبرها إنْ شاءَ الله[1].

* وعن عمرها ووفاتِها يقولُ الذَّهبي: عاشتْ إلىٰ دولةِ يزيد بن معاوية[2].

* وقال ابنُ حجر ـ رحمه الله ـ: شهدتِ اليرموكَ... وعاشت بعد ذلك دَهْراً[3].

* وفي البدايةِ والنِّهايةِ يذكرُ ابنُ كثير أسماءَ بنتَ يزيد وذلك في وفياتِ سنة (٦٩ هـ) وقال: إنَّه ممن توفي في هذه السَّنةِ أسماء بنت يزيد بن السَّكن الأنصارية ، بايعتِ النَّبيَّ ﷺ ، وقتلتْ بعمودِ خيمتها يومَ اليرموكِ تسعةً منَ الرُّوم ليلة عرسها ، وسكنتْ دمشق ، ودُفنَتْ ببابِ الصَّغير.

* وبهذا تكون وفاةُ أسماءَ بنت يزيد في خلافةِ عبد الملك بن مروانَ ، وقبرُها مشهورٌ بباب الصَّغير بدمشق.

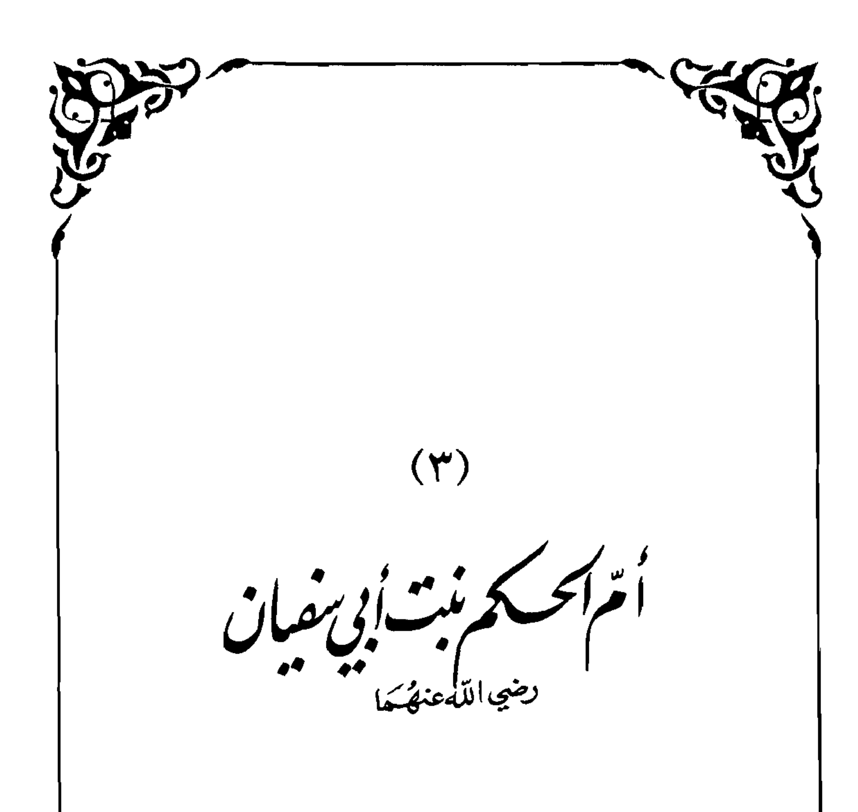
---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٩٧) و(٢/ ٢٢٠).
(٢) مات يزيد بن معاوية في (١٤ ربيع الأول) سنة (٦٤ هـ).
(٣) الإصابة (١٢/ ١٢٥).

* ومع وَداعِ أشْهرِ بناتِ الأَنْصارِ في العلمِ والفِقْهِ ومكارم الفضائل ، أرجو الله أنْ أكونَ قد وفِّقْتُ إلىٰ رسْم بعضِ ملامح صُوَرِها ، لتكونَ قدوةً لنسائنا وبناتِنا ونساءِ الأمَّة.

* رضي الله عن أسماء بنت يزيد ، وجعلها في الجنَّة مع المؤمنين الذين لهم ما يشاؤون فيها ، ولدىٰ اللهِ مزيد.

* * *



(٣)

أم الحكم بنت أبي سفيان

رضي الله عنهما

* أسلمت يوم الفتح ، وبايعتْ رسولَ الله ﷺ.

إسـلامُ الأُسـرةِ السُّفْيَـانيَّـةِ :

* كانتْ أمُّ الحكَمِ بنتُ أبي سُفيانَ بنِ حربٍ الأمويّة القُرشيّة[1] ، منْ بناتِ الصَّحابَةِ الكريماتِ اللواتي غَزَا الإيمانُ قلوبهنَّ يومَ الفَتْحِ الأعظمِ ؛ فَتْحِ مكةَ المكرمةِ بقيادةِ الحبيبِ المصطفىٰ محمّد ﷺ .

* لقد كانتْ غزوةُ فَتْحِ مكةَ غزوةَ سَلامٍ ووئامٍ ، وسِلْمٍ ومُسَالمةٍ ، ووفاءٍ للصَّديق ، وتأديبٍ للعَدوّ ، بلْ وفَتْحٍ للقُلُوب التي غَلَّفَتْها أوهامُ الجاهليّة ، ورانَ عليها ظلامُ الجَهْلِ ، وكانَ ممنْ فُتِحَتْ قلوبُهم يومَ الفَتْح الأسرةُ السُّفْيانيّةُ التي جاءتْ مستسلمةً مُسَلِّمةً علىٰ الحبيبِ الأعْظَمِ ﷺ ، فكانَ أنْ أَسْلَمَ أَبو سُفيان وزوجُهُ هندُ بنتُ عتبةَ وأولادُه وبناتهُ ، ومنهنَّ : أمُّ الحَكَمِ ضيفةُ هذهِ الصَّفَحات ، والتي غَدَتْ بفَضْلِ اللهِ منْ عدادِ الصَّحابيَّاتِ .

* وأمُّ الحَكَمِ هذه أختُ أُمِّنا أُمِّ حبيبةَ أمِّ المؤمنين لأَبَيْها ، كما أنَّها شقيقةُ معاويةَ فهيَ أختهُ لأُمِّهِ وأبيهِ ، فأمُّهما هندُ بنتُ عتبةَ ـ رضي الله عنهم جميعاً ـ .

* قالَ ابنُ عساكر : أدركتْ أمُّ الحكمِ النَّبيَّ ﷺ وكانتْ ممنْ أَسْلَم يومَ الفَتْح ، وبايعتْ رسولَ اللهِ ﷺ ، وحكتْ عَنْ أخيها[2] .

---

(١) تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء ص٤٩٧ ـ ٥٠١)، وطبقات ابن سعد (٨/ ٣٤٠) ، ونسب قريش (ص١٢٥) ، والمغازي (٢/ ٦٣٤) ، والاستيعاب (١٣/ ٢٠٨) ترجمة رقم (٣٥٤١) ، والإصابة (١٣/ ١٩٥ و١٩٦) ترجمة رقم (١٢١٦) ، وجمهرة أنساب العرب (ص٢٦٦) ، وأسد الغابة (٦/ ٣٢٠) ترجمة رقم (٧٤٠٩) ، وتفسير مبهمات القرآن (٢/ ٥٩٨) ، وأعلام النساء (١/ ٢٧٩) ، والأغاني (١٤/ ٢١٩) ، والعقد الفريد (٦/ ١٣٠) وغيرها.

(٢) انظر : تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء ص٤٩٧).

* وبهذا ترتبطُ أمُّ الحكمِ بنتُ أبي سُفيان بسببٍ ونَسبٍ إلىٰ البيتِ النَّبويِّ الطَّاهر ، حيثُ أختُها أمُّ المؤمنينَ ، وحيثُ رسولُ اللهِ ﷺ صهرُهَا ، فأكرمْ بهذهِ القُربىٰ!

* ومِنْ أوَّلِ يومٍ دخلَ الإيمانُ قَلْبَ أُمِّ الحكَم عَرَفَتِ الأَمْنَ والأمانَ في ظلالِ الإسلام ، إذْ عرفَتْ وسَمِعَتْ أنَّ مَنْ دَخَلَ دار أبيها فهو آمِنٌ ، نعمْ هو آمِنٌ كما جاءَ عند ابنِ أبي شيبة ، أنَّ أبا بكرٍ الصِّديقَ ـ عليه سحابات الرضوان ـ قالَ للحبيبِ الأعظمِ رسولِ الله ﷺ: يا رسولَ اللهِ إنَّ أبا سُفيان رجلٌ يحبُّ السَّماعَ والشَّرفَ ، فقالَ الحبيبُ المصطفىٰ ﷺ: «مَنْ دخَلَ دارَ أبي سُفيان فهو آمِنٌ» .

* وأَسلَمَ أبو سُفيانَ بعد أنْ قَادَه الشَّيطانُ مدَّةً ثمَّ تخلَّىٰ عنْه ، كانَ ذلك عندما خرجَ رسولُ اللهِ ﷺ منَ الكعبةِ يوم الفَتْح ، وأبو سُفيان بنُ حرب جَالسٌ في المسجدِ ، فقالَ أبو سُفيان في نفسِهِ: ما أَدري بمَ يَغْلبُنَا محمّدٌ؟ فأتاهُ ﷺ فَضَرَبَ صَدْرَه ، وقال: «باللهِ نغلبُكَ» فقال أبو سُفيان: أشهدُ أنَّك رسولُ اللهِ.

* وروىٰ الحاكمُ وتلميذهُ البيهقيُّ عنِ ابنِ عبَّاس ـ رضي الله عنهما ـ ، وروىٰ كذلك ابنُ سَعْد عن أبي إسحاق السَّبيعيِّ ، قالوا: رأىٰ أبو سُفيان رسولَ اللهِ ﷺ يمشي والنَّاسُ يطؤونَ علىٰ عقبه ، فقال: لو عاودتُ هذا الرَّجُلَ القِتَال؟! وجمعتُ له جَمْعاً ، فجاءَ رسولُ اللهِ ﷺ حتى ضَرَبَ في صَدرِهِ فقال: «إذاً يُخْزيكَ اللهُ» فقال أبو سُفيان: أتوبُ إلىٰ اللهِ ، وأستغفرهُ ، ما أيقنتُ أنَّك نبيٌّ إلا السَّاعةَ ، إنِّي كنتُ لأُحدِّثُ نَفْسِي بذلك.

* وهكذا وقَرَ الإيمانُ في صَدْرِ أبي سُفَيان :

نَطَــقَ الشَّهَـــادَةَ حينَـــذَاك وقَـــدْ غَـــدا فــي المُسْلِميــن

ونَجَــا مِــنْ المَــوتِ الأكِيْــدِ مِــنَ السُّيــوفِ القَــاطِعيــن

وعلمَتْ أمُّ الحكمِ بكُلِّ هذهِ الأحداثِ ، ولكنْ أينَ أمُّها هندُ بنتُ عتبةَ عقيلةُ قريشٍ ، وزوجُ قائِدها؟!

* لقد سارعتْ هِندٌ ، وَعَدَتْ إلىٰ صَنَمٍ لها في بيتها وجَعَلَتْ تضربهُ بالقدُّوم فِلْذةً فِلْذةً وهيَ تقولُ: كُنَّا مِنْكَ في غُرور.

* ومنَ المعروفِ في تاريخ السِّيرةِ النَّبويَّةِ العَطِرَةِ أنَّ فَتْحَ مَكةَ كانَ في شَهْرِ رمضانَ ، وأنَّ النَّاس قَدِ اجتمعُوا بمكةَ لبيعةِ الحبيبِ المصطفىٰ ﷺ علىٰ الإسلامِ ، فجلسَ لهم علىٰ جَبَلِ الصَّفا ، وعمرُ بنُ الخطابِ أسفل منْ مجلسِهِ ، فأخذَ علىٰ النَّاسِ السَّمع والطَّاعةَ لله ولرسولهِ فيما استطاعوا ، فلمَّا فرغَ منْ بيعةِ الرِّجال ، أَقْبَلَ علىٰ النِّساء ، وقد أتينَ يبايعنَ رسولَ اللهِ ﷺ ، وفيهنَّ هندُ بنتُ عتبةَ متنقِّبة متنكِّرة ، ومعها نسوةٌ ولعلَّ ابنتها أمَّ الحَكَم منْ بينهنَّ ، فقال لهنَّ رسولُ اللهِ ﷺ: «بَايعنَني علىٰ أنْ لا تشركْنَ باللهِ شيئاً ولا تسرقْنَ ولا تزنينَ» ، قالت هندُ: وهل تزني الحرَّة؟! قال: «ولا تَقْتُلْنَ أولادكُنَّ».

* وكانتْ بيعتهُ ﷺ للنِّساء بالقَولِ ، وليس بالمصافَحة كالرِّجال ، فالحبيبُ المصطفىٰ ﷺ لم يُصَافِحِ امرأةً قطّ سوى ذواتِ المحارمِ ، أو امرأة أحَلَّها اللهُ له.

* وما أجْملَ أنْ نقرأَ شِعْراً في بيعة النِّساء وفيهنَّ هند أمُّ معاويةَ ووالدةُ أمِّ الحكمِ ـ رضي الله عنهن ـ:

عَنْ فَتْحِ مَكةَ كَانَ	في رَمَضَانَ شَهْرِ الصَّائمين
جَاءَ الرِّجَالُ جَميعُهمْ	قَدْ بايعُوا حتَّىٰ البَنين
ونساءُ مكَّةَ قَدْ أتيْنَ	لِكَي يُبَايعْنَ الأَمِين
فيهِنَّ هِنْدٌ في النِّقابِ	تخَافُ مِنْ فِعْلٍ مُشْين
قالَ الرَّسُولُ فأَنْتِ	هنْدٌ هكَذَا تَتَنَكَّرين
قالتْ نَعَمْ فَلْتَعْفُ عنّي	نِعْمَ عفْوُ القَادِرين
بايَعْنَه أنْ لاَ إلهَ	سِوَاهُ خَيْرُ الخَالِقين
ومُحمّدٌ خَيْرُ الخَليقَةِ	خَاتمٌ لِلمُرسَلين
هيَ بَيْعةٌ تَفْصيلُها	في مُحْكَمِ الذّكْرِ المُبين

بـــالقَـــولِ بـــايعهـــنَّ لـــي ... سُـــوا كَـــالـــرِّجـــالِ مُصَـــافحيـــن
مَـــا صَـــافَـــحَ الهـــادي النِّـ ... ـــاءَ مُبـــايعـــاً هـــذا يقيـــن

* وهكذا غَدَتْ هندُ بنتُ عتبة منْ عِقْدِ المؤمناتِ ، ومنَ المبايعات ، ومنَ اللواتي هَداهُنَّ اللهُ ، وأكرمهنَّ بالإسلام:

* ولله دَرُّ مَنْ قال:

يـا هنْـدُ حَسْبُـك مَغْنَمـاً وكفَـاكِ ... أَنَّ الـذيَ يَهْـدِي النُّفـوسَ هَـدَاكِ
أَقْبَلْـتِ تُـرخِيـنَ القِنَـاعَ حَيِيَّـةً ... تُخفِيْـنَ نَفْسَـكِ والنَّبـيُّ يَـراكِ
أَوَلَسْتِ هنْداً؟ قُلْتِ في خَجَلٍ: بلىٰ ... لا تَخْجَلـي فـاللهُ قـد عَـافَـاكِ
بَـايَعْـتِ أهْـدَىٰ العَـالميـنَ طريقـةً ... ورضيـتِ منْـه مُهَـذّبـاً يـرضَـاكِ
يـا هِنْـدُ إنَّ اللهَ أمضـىٰ حكْمَـهُ ... فكَفَـاكِ سـوءَ عَـذَابـهِ ووقَـاكِ
أوتيـتِ زَادَكِ مـن تُقـىً وهـدايـةٍ ... فتـزوَّدي سُبحـانَ مَـنْ نجَّـاكِ

مِـنْ أَخْبـارِ أُمِّ الحَكَـمِ قَـبْـل الفَتْـحِ:

* كانتْ أمُّ الحَكَمِ ابنةُ أبي سُفيان زَوْجاً لِعياضِ بنِ غَنَم الفِهْري ، قال الطَّبريُّ ـ رحمه الله ـ: وكانتْ عنده أمُّ الحكمِ بنتُ أبي سفيان[1] .

* وعياضٌ هذا صحابيٌّ جليلٌ واسمُه: عياضُ بنُ غَنم بنِ زُهير بن أبي شدَّاد القُرشيّ الفِهْري ، أسلمَ قَبْل الحُديبية ثم شَهِدَها معَ الرَّسولِ ﷺ؛ وكانَ عياضُ صَالحاً فاضِلاً ، وكانَ شَريفاً في قومِهِ ، سَمْحاً كريماً جَوَاداً ، وقد ذكره عُبيد الله بنُ قَيس الرُّقيات فيمن ذَكَره منْ أَشْرافِ قُريش فقال:

عِيَـاضُ ومَـا عِيـاضُ بـن غَنْـم ... كـانَ مِـنْ خَيـر مَـنْ أَجـنَّ النِّسـاءُ

* وكان يُسمّىٰ بـ: زَاد الرَّاكبِ ، لأنَّه كانَ يُطْعِمُ رفْقَتَهَ ما كانَ عنده ، وإذا كانَ مُسَافراً آثرهم بزادِه ، فإنْ نَفَدَ نَحَرَ لهم جَمَلَه. وهكذا الكُرَمَاء.

* قـال ابنُ سعد: أسْـلَم قديمـاً قَـبْل الحُـديبية ، وشهـدَ الحديبيـةَ مع

---

(١) انظر في هذا: الاستيعاب (٩/ ٧٠).

رسولِ اللهِ ﷺ ، وكانَ رجُلاً صَالحاً سَمْحاً.

* وكانَ عياض متزوِّجاً منْ أُمِّ الحكم ، وعندما دخَلَ الإيمانُ قَلْبَه ، وأضحىٰ من فُرسانِ المدرسةِ المحمديّةِ ظلَّتْ زوجُه أمُّ الحكم علىٰ شِرْكها ، ولم تؤمنْ مَعَهُ يومَذاك.

* وظلَّتْ أمُّ الحكمِ عنْدَ زوجها مرعيةَ الجانبِ ، موفورةَ المكانةِ إلىٰ أنْ جاءَ الأَمْرُ الإلهيُّ يقولُ للمؤمنينَ آمِراً وناهِياً ومُعلِّماً وموجِّهاً: ﴿وَلَا تُمۡسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلۡكَوَافِرِ﴾ [الممتحنة: ١٠] ، كان عياضُ ممن عَنَاهُم هذا الحكمُ الإلهيُّ ، إذْ حُكْمُ اللهِ هو حُكْمُ العليمِ الخبيرِ الحكيمِ ، وهو الحكمُ العَادِل المطَّلعُ علىٰ ذواتِ الصُّدور ، وهو حكمُ القوي القدير ، هناك سَارَع عياضٌ إلىٰ الاستجابةِ لحكمِ اللهِ وأمْرِهِ ، فطلَّقَ أمَّ الحكمِ لأنَّها أبتْ يومَها أنْ تُسلمَ ، أو تسيرَ في طريقِ الإيمانِ.

* ويذكر الإمامُ أبو عبد اللهِ البلنْسي أنَّ قولَ اللهِ تعالىٰ: ﴿وَإِن فَاتَكُمۡ شَيۡءٞ مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ إِلَى ٱلۡكُفَّارِ...﴾ [الممتحنة: ١١] ، قد روي أنَّه نزلَ في أُمِّ الحكمِ بنتِ أبي سفيان ، فرَّتْ فتزوَّجها ثَقفيٌّ ، ولم يرتدَّ منْ قريش امرأةٌ غيرها ، وأسلمتْ مع قريش حين أسلمُوا ، واللهُ أعلم(١).

* ورووا عن ابنِ عبّاس ـ رضي الله عنهما ـ أنَّه قالَ: خمسُ نسوةٍ منْ نساءِ المهاجرين رجَعْنَ عنِ الإسلام ولحقْنَ بالمشركينِ: أمُّ الحكم وكانتْ تحتَ عياض بنِ غنم بن شدَّاد الفِهْري ، وفاطمةُ بنتُ أبي أمّية أختُ أمّ سلمةَ وكانت تحتَ عمرَ بنِ الخطابِ ، وعبدةُ بنتُ عبد العزّىٰ بنِ فَضْلَةَ وكانت تحت هِشَام بنِ العاص ، وأمُّ كلثوم بنت جَرْول بن مالك الخزاعيّة(٢) ، وكانت

---

(١) تفسير مبهمات القرآن (٢/ ٥٩٧ و٥٩٨).

(٢) أم كلثوم بنت عمرو بن جرول الخزاعية ، والدة عُبيد الله بن عمر ، وبعد أن طلقها عمر ، تزوجها بعده أبو جهم بن حذافة. (الإصابة ٤/ ٤٩١) طبعة بيروت.

تحتْ عمر أيضاً ، وهند بنت أبي جَهْل وكانت تحت هِشَام بنِ العاص[1] . وزاد الزَّمخشري[2] سادسةً وهي بروعُ بنتُ عقبةَ وكانت تحت شمَّاس بن عثمان ، فأعطاهم رسولُ الله ﷺ مهورَ نسائِهم من الغنيمة[3] .

* ولم يكن عياضُ بنُ غَنَم وحْدَه الذي طلَّق زوجتَه المشركة ، وإنَّما كانَ هناك عددٌ منَ الصَّحابةِ طلَّقُوا نساءهم المشركاتِ .

* فقد جاءَ في المصادرِ المتنوِّعةِ أنَّه كانَ منْ شروطِ صُلْح الحُديبية ، أنَّ مَنْ جاءَ إلىٰ النَّبيِّ ﷺ مُسلماً رُدَّ ، فلمَّا استقرَّ المقَام للنَّبيِّ ﷺ بالمدينةِ حتَّى جاءت نسوةٌ مؤمناتُ من قريش منهنَّ أمُّ كلثوم بنتُ عقبة[4] ـ رضي الله عنها ـ فجاءَ أخَواها عمارةُ والوليدُ حتى قَدِما علىٰ رسولِ اللهِ ﷺ فكلَّماه فيها أنْ يردَّها إليهما فأبىٰ ، وروي أنَّه قال : «كان ذلك في الرِّجال لا في النِّساء» ، فأنزلَ اللهُ سبحانه قوله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ . . . ﴾ [الممتحنة : ١٠] ؛ وهكذا صدَّقَ اللهُ نبيَّه فيما قال ؛ وأنَّ النِّساء لا يدخُلْنَ في العَهْدِ الذي مضىٰ ، وأنهنَّ يُخْتَبرنَ ، فإنْ ظَهَرَ إيمانُهُنَّ لا يُرجعنَ إليهم أبداً .

* وجاءَ بعد إذ قولهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ ﴾ والكوافر : جَمْع كافرة ، والمرادُ بهنّ المُشركات لا الكتابيّات ، وقد نُهِيَ المسلمون عنِ الاستمرارِ معَ زوجاتهم المُشْركاتُ بهذهِ الآية ، كما نُهُوا عَنْ زواجِهنَّ ابتداءً بقولهِ تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ﴾ [البقرة : ٢٢١] ، ولمّا نزلت

---

(١) هشام بن العاصي بن وائل السهمي ، كناه رسول الله ﷺ أبا مطيع ، وكان قديم الإسلام ، وهاجر إلىٰ الحبشة وكان رجلاً شجاعاً ، استشهد بأجنادين . (الإصابة ٣/ ٦٠٤) طبعة بيروت .

(٢) انظر : الكشاف للزمخشري (٤/ ٩٤) .

(٣) تفسير مبهمات القرآن (٢/ ٥٩٨ و٥٩٩) .

(٤) اقرأ بتوسع سيرة أم كلثوم بنت عقبة الأموية في كتابنا «نساء من التاريخ» (ص١٨٧ ـ ٢٠١) ففي سيرتها إشراقات مفيدة لكل بنات جنسها رضي الله عنها .

آيةُ الممتحنة طلَّق المسلمونَ أزواجَهم المشركاتِ ، فقد كان لسيّدنا عمرَ بنِ الخطاب زوجتان بمكةَ فطلَّقهما ، وهما : مُليكة ابنة أبي أمية فتزوَّجها معاويةُ بنُ أبي سفيان ، وطلَّق الأخرىٰ بنتَ جرْول الخزاعيَّة ، فتزوجها أبو جَهْم بن حُذيفة ، وطلَّق عياضُ بنُ غنم الفِهْري أمَّ الحكمِ بنتَ أبي سُفيان يومئذ ، فتزوَّجها عبدُ اللهِ بنُ عثمانَ الثَّقفي ، فولدتْ له عبد الرحمن بنَ أمّ الحكم[1] .

* وبهذا فرّقَ الإسلامُ بينَ المؤمنين والمشركاتِ ، وأضحتْ أمُّ الحكم بلا زوج ، وعندها عَلِمَتْ أمُّ الحكم أوَّل ما علمتْ عظمةَ هذا الدِّين الذي يَجْعَلُ الزَّوج يترك زَوْجَه .

* ويذكرُ ابنُ عبد ربه أنَّ أبا سُفيان قد زوَّج ابنته أمَّ الحكمِ في ثَقيف[2] ، ويُفَصِّلُ المصعبُ الزُّبيري ذلك فيقول : وأمُّ الحكمُ بنتُ أبي سفيان ، تزوَّجها عبدُ اللهِ بنُ عثمانَ بنِ عبد اللهِ بن ربيعةَ الثَّقفي ، فولَدتْ له عبد الرَّحمن بنَ عبدِ الله ، الذي يُقال له : ابنُ أمِّ الحَكم ، وأمُّها هندُ بنتُ عتبةَ بنِ ربيعة بن عبد شمس[3] .

---

(١) انظر : تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء ص٤٩٧ و٤٩٨) وتفسير ابن كثير (٤/ ٤١٥) مع الجمع والتصرف .

(٢) انظر : العقد الفريد (٦/ ١٣٠) .

(٣) انظر : نسب قريش (ص١٢٥) .
وفي تسميةِ النِّساءِ المبايعاتِ يقولُ ابنُ سعد : أم الحكمِ بنتُ أبي سفيان بن حرب بن أميّةَ ، وأمُّها هندُ بنتُ عتبة بن ربيعة ، تزوَّجها عبدُ اللهِ بنُ عثمانَ بنِ عبد اللهِ بن ربيعةَ بن الحارث بن حُبيب بنِ الحارثِ الثّقفيّ ، فولدتْ له عبدَ الرحمن ، فكان يقالُ له : ابنُ أمِّ الحكمِ . وينقلُ ابن عَساكر عن ابن عائذٍ خبرَ طلاق أمِّ الحكم فيقولُ : إنَّ عمرَ بنَ الخطاب طلَّق قُريبةَ بنت أبي أميَّةَ فتزوَّجها معاويةُ بنُ أبي سفيان ، وطلَّقَ عياضُ بن غَنَم الفِهري امرأته أمَّ الحكم بنت أبي سُفيان ، فتزوَّجها عبدُ الله بنِ عثمان الثقفي .
وفي موضعٍ آخر يذكرُ ابنُ سَعْد خَبَرَ أمِّ الحكمِ بنت أبي سفيان فيقول : كانتْ عنْد =

* ولكنْ لمَّا كانَ يومُ الفَتْح الأَعْظم[1] ، فَتَح اللهُ علىٰ قَلْبِ أُمِّ الحكم ، وغَدَتْ منْ رعيلِ المؤمناتِ المبايعاتِ اللواتي دَخَلْنَ في دين الله ـ عزو جل ـ وكُنَّ من بنات الصحابة اللواتي تُعَطِّرُ المجالسُ بذكْرِهنَّ ، وتُؤْنَسُ القلوبُ بِسِيَرهنَّ ، وصرْنَ القدوةَ الصَّالحةَ لمن أتىٰ بعدهُنَّ منَ النِّساء ، وفُزْنَ بشرفِ الصُّحبةِ النَّبويةِ ، ناهيك بها صحبة! وهل بَعْدها منْ مفْخر؟!

أمُّ الحَكَمِ وَمُعَاوِيَةُ وَابنُهَا عَبْدُ الرَّحمٰن :

* كانَ عبدُ الرحمن بنُ أمِّ الحكم قَد وَليَ الكوفَةَ سنة (٥٨ هـ) ولمّا وليها أساءَ بها السِّيرةَ ، فَقَدِمَ قادمٌ منَ الكوفةِ إلىٰ المدينةِ ، فسألَتْهُ امرأةُ عبدِ الرحمن عنه ، فقال لها : تركتُهُ يَسْأَل إلحافاً ، وينفقُ إسرافاً .

* وكانَ عبدُ الرحمنِ بنُ أمِّ الحكمِ هذا مَنْسوباً إلىٰ الحُمْقِ ، فقد ذكَرَ الأصبهانيُّ أنَّ خالَه معاويةُ ـ رضي الله عنه ـ قد ولَّاهُ عِدَّةَ أعمالٍ ، فَذَمَّهُ أهْلُها ، وتظلَّموا منْه ، فَعزَله واطَّرحَه بعد سَنَة واحدة ، وخَلَفَه عليها النُّعمانُ بنُ بشير الأنصاري ـ رضي الله عنهما ـ .

* ولمّا عزلهَ معاويةُ قال له : يا بنيّ ، قد جَهدْتُ أنْ أنْفِقَك[2]

= عياض بنِ غَنَم أمُّ الحكم بنتُ أبي سفيان بن حرب بن أميّة بن عبد شمس ، فلمَّا نَزَلَ القُرآن : ﴿وَلَا تُمۡسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلۡكَوَافِرِ﴾ يعني منَ غيرِ أهل الكتاب ، طلَّق عياضُ بنُ غنم الفِهري أمَّ الحكم بنتَ أبي سفيان يومئذٍ ، فتزوَّجها عبد الله بنُ عثمانَ الثَّقفيَّ ، فولدت له عبد الرحمن بن أم الحكم .

(١) ما أجملَ ما وصفَ به ابنُ قيّم الجوزية فَتْح مكة حيث قال : الفتحُ الأعظمُ الذي أعزَّ اللهُ به دينه ، ورسولهَ ، وجنَده ، وحزبَه الأمين ، واستنقذَ به بلده وبيته الذي جَعَله هدىً للعالمين منْ أيدي الكفَّار والمشركين ، وهو الفتحُ الذي استبشرَ به أهلُ السَّماء ، وضَربت أطناب عزّه علىٰ مناكبِ الجوزاء ، ودخلَ النَّاس به في دِينِ اللهِ أفواجاً ، وأشرقَ به وجْهُ الأرضِ ضياءً وابتهاجاً . (زاد المعاد ٣/ ٣٩٤) .

(٢) «أنفقك» : نفّقه : رَوَّجه وشهره بين الناس .

وأنتَ تزدادُ كَسَاداً[١].

* ويروي الأصبهانيُّ أيضاً أنَّ أمَّ الحكم بنتَ أبي سُفيان قالت لأخيها معاويةَ ـ رضي الله عنهما ـ: يا أخي زوّجْ ابني بعضَ بناتك.

فقال لها معاويةُ: ليس لهنَّ بكُفء.

فقالت له: زوَّجَني أبو سُفيان أباه، وأبو سُفيان خيرٌ منك وأنا خيرٌ منْ بناتِك.

فقال لها معاويةُ بشيءٍ منَ السُّخْريةِ: يا أُخَيَّةُ، إنَّما فَعَلَ ذلك أبو سُفيان لأنَّه كان حينئذٍ يشتهي الزَّبيب[٢]، وقد كَثُرَ الآن الزَّبيبُ عندنا، فلَنْ نزوِّجَ إلا كُفْئاً[٣].

* ويظهرُ أنَّ هذا لم يؤثِّرْ علىٰ العلاقةِ بين الشَّقيقين معاوية وأمّ الحَكم، فقد ظلَّتْ أمُّ الحَكَم علىٰ صِلَةٍ بأخيها، وقد كانتْ عنده في وفاتِه حينما أُغْمِيَ عليه، فقد أخرجَ ابنُ عَساكر بسندِهِ إلىٰ يعقوبَ بن عثمان قال: حدَّثني عبدُ الرحمن بنُ أمِّ الحكم، حدثَّتْني أمّي أمّ الحَكَم أنَّها كانتْ عند معاويةَ

---

(١) انظر الأغاني (١٤/ ٢١٩) بتصرف يسير.

(٢) منَ المشتهرِ في كُتُب السَّيرة أنّ الطَّائف تكثرُ فيها البساتينُ والكرومُ، ولذا فقد كثرُ فيها الزَّبيبُ، ومنَ المعروفِ في السِّيرة النبويةِ أنَّ الحبيبَ الأعظمُ ﷺ قد خرجَ إلىٰ الطَّائِف في عامِ الحزنِ ومعه مولاه زيدُ بنُ حارثة، ولما أعرضَ أهلُ الطَّائِفِ عن دعوتهِ رجَعَا ودخلا بُستاناً لعتبةَ وشيبةَ ابني ربيعةَ، وجلسا تحتَ ظلِّ شجرةٍ منْ عنبٍ، وهنالك دعا رسولُ اللهِ ﷺ دعاءَه المشهور.

(٣) الأغاني (١٤/ ٢١٩) بتصرف يسير.

ومنَ الجدير بالذكر أنَّ بني أميَّة كانْت لا تستخلفُ بني الإماء، وقالوا: لا يصلحُ لهم العربُ. كما كانُوا ينظرون إلىٰ الهُجَناء نظرةً خاصةً. ولهذا فَقَدَ هجَا عبدُ اللهِ بنُ الزُّبير بنِ الأشيم الشَّاعر الهجَّاء المعروف عبدَ الرحمنِ بنَ أمِّ الحكم فقال:

تَبَلَّغْـتَ لمَّـا أَنْ أتيـتَ بـلادَهـم ... وفـي أرضِنَـا أنـتَ الهمـامُ القَلمـسُ

أَلَسْـتَ ببغـلٍ أمُّـه عـربيـةٌ ... أبـوهُ حِمـارٌ أدبـرُ الظَّهـر يُنْخَـسُ

ولهذا فقد كانَ لمعاويةَ رضي الله عنه رأيٌ خاص في عبد الرحمنِ هذا.

حين أُغْمِي عليهِ ، فأفاقَ ، فأراد نْ يريهم تجلُّده وتصبُّره فقال :

وهَلْ منْ خَالدٍ إمَّا هَلَكْنَا   وهَلْ بالموتِ ياللنَّاسِ عارُ[1]

* وهنَاك بعضُ القَصَصِ والأحداثِ التي جَرتْ لأُمِّ الحكمِ وابنها وأخيها معاويةَ أعرضْنَا عنْ ذِكْرِها لطولها ، ولعدَمِ أهميّتها في هذهِ الموسوعة[2] .

* بقي أنْ نعرفَ أنَّ أمَّ الحكم رضي الله عنها ممنْ روىٰ عنها ابنُها عبدُ الرحمن بنُ عبد الله الثَّقفي ، وأنَّها ممَّنْ حدَّثَ بالشَّام منْ بناتِ الصَّحابةِ القُرشيّات ، فقد أوردَ أبو زُرعة في تاريخه عمَّنْ حدَّثَ بالشَّام منَ النِّساء ، فقال : حدَّث بالشَّام منَ النِّساءِ أمُّ الحكم بنتُ أبي سُفيان ـ رضي الله عنهما ـ .

* ومنَ الجديرِ بالذكر أيضاً أنَّ أمَّ الحكم كانت قد اتَّخذتِ الشَّام سَكَناً لها ، قال ابنُ سُميع : أمُّ الحكمِ بنتُ أبي سُفيان تَسْكُن دِمَشْقَ .

ولا نَعرِفُ متىٰ وأينَ كانت وفاةُ الصَّحابيةِ ابنةِ الصَّحابي أمِّ الحكم ، ولكنَّا نعرفُ أنَّها عاشتْ بعد سنةِ (٦٠ هـ) لأنَّها روتْ جانباً من حضورِها وفاة أخيها معاويةَ ، رضي الله عنهما .

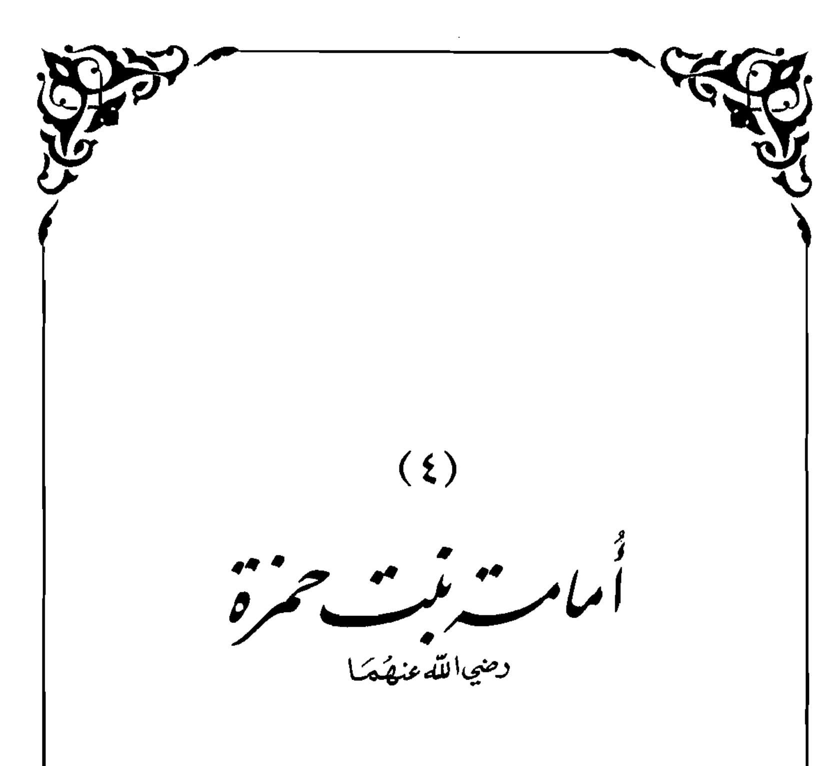
* فرضي اللهُ عنْ أُمِّ الحكم وعنْ أبيها وأُمِّها وأخيها وعنْ بناتِ الصَّحابة أجمعين ، وحَشَرنا في معيّتهم وغَفَر لنا ورحمنَا إنَّه حليمٌ غفور .

* * *

---

(١) انظر : تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء ص٤٩٩) بتصرف يسير .

(٢) من أراد الاستزادة من ذلك فليرجع إلىٰ الأغاني (١٤/ ٢١٥ ـ ٢١٩) ، والمستجاد (ص ٢٤٠ ـ ٢٤٣) .



(٤)

أمامة بنت حمزة

رضي الله عنهما

* أبوها حمزة بن عبد المطلب سيد الشهداء.

* خصَّها ﷺ بهدية من حلّة جميلة.



ابنةُ أَسَدِ الله :

عمُّ الرُّسولِ وخَيْرُ الصَّحْبِ مَنْ شَهِدَتْ ... بفَضْلِهِ مُوجباتُ القُربِ في البَلَدِ
شَهْمٌ شُجاعٌ لـه يومَ الهياجِ يـدٌ ... طالَتْ بلا شُبْهَةٍ منْ فوقِ كلِّ يَدِ
الهَاشِمِيُّ كَريمُ النِّسبتَيْنِ لـهُ ... في ساحةِ المجدِ روضٌ بالكمالِ نَدِي

* ذلكم هُو أَسَدُ الله وَأَسدُ رسولهِ حمزةُ بنُ عَبْدِ المطلب عمُّ النَّبيِّ ﷺ ، يعرفُه الخَاصُّ والعام ، وشُهرتهُ في عَالَمِ المشَاهيرِ معروفةٌ كالشَّمْسِ في رَائعةِ النَّهارِ ، آمنَ والإسلامُ لا يزالُ يتفتَّحُ زَهْرُ أكْمامِهِ عَنْ شَذَا عَبيرِهِ ، وأنْداءِ رحيقِهِ ، فكُتِبَ مع ثُلَّةِ السَّابقينَ إلىٰ دوحةِ الحقِّ وأهلِ الإيمان ، وسجَّلَ في أوراقِ الأيَّامِ أبدعَ سطورِ المجْدِ والعزِّ والدِّفاعِ عنِ الإسلامِ .

* أمَّا ابنتهُ التي نعيشُ في رِحابِ أخبارِها فهيَ أُمَامةُ بنتُ حمزةَ بنِ عبدِ المطلبِ القُرشيّة الهاشميّة[1] ؛ تلكَ البنتُ التي لا يكادُ أَحَدٌ يعرفُ عنْها شيئاً مذْكُوراً في دُنيا بناتِ الصَّحابةِ الطَّاهراتِ ؛ ولذلك رأينا أَنْ نَخُصَّها بترجمةٍ خاصَّةٍ ، ونَنْظمَها في عِقْدِ بناتِ الصَّحابة الخيِّراتِ ، لتكونَ صُورتُها

---

(١) أُسدُ الغابة (٦/ ٢١) ترجمة رقم (٦٧١٥) ، وأيضاً (٦/ ٢١٩) ترجمة رقم (٧١٧٢)، وطبقات ابن سعد (٨/ ٤٨) ، والمحبر (ص٦٤ و١٠٧) ، والإصابة (١٢/ ١٢٥ و١٢٦) ترجمة رقم (٦٤) ، وأيضاً (١٣/ ٧٩ و٨٠) ترجمة رقم (٨٣٣) ، وأيضاً (١٣/ ٢٦٦) ترجمة رقم (١٤٤٣) ، والاستيعاب (١٣/ ٢٦٦) ترجمة رقم (٣٥٩٦) ، وغوامض الأسماء المبهمة (ص٧٠٩) خبر رقم (٢٥٠) ، والدُّرّ المنثور في طبقات ربات الخدور (ص٦٥) ، وأعلام النِّساء (١/ ٧٦) ، وتفسير مبهمات القرآن للبلنسي (٢/ ٣٥٧ و٣٥٨ و٣٦٠ و٣٦١ و٣٦٢) ، والرّوضة الفيحاء (ص٢٣٦) ، وتقريب التهذيب (٢/ ٦٢٩) ترجمة رقم (١٢٢٨) ، وتهذيب التهذيب (١٠/ ٦١٥) ، وسبل الهدى والرشاد (٥/ ٢٩٦ و٢٩٧) ، وأنساب الأشراف (١/ ٤٣٠ و٤٤٧) ، وتفسير القرطبي (٤/ ٨٨) ، وديوان حسان (ص ٢١٨ و٢١٩) ، والمعارف (ص١٢٥) ؛ وفيه أن اسمها : أم أبيها .

واضحةَ المَعَالِم في جَبينِ تاريخ النِّساء ، في مَطْلَعِ شمْسِ الرِّسالةِ المحمّديّة ، وفي صَدْرِ الإسلام .

* ومنَ الطَّريف ، بل العجيبِ في سيرةِ أُمامة بنتِ حمزةَ أَنَّه اختُلِفَ في اسمِها علىٰ سبعةِ أقوالٍ ليس فيها ما يُجْزَمُ به[1] ، وأكثرهمُ اتَّفَقَ علىٰ أنَّها تُدعىٰ أُمامة . علىٰ أنَّ معظمَ المصادرِ لم تُسَمِّها ؛ وإنّما تقولُ ابنة حمزةَ بالإبهامِ دونَ تصريحٍ باسْمِها .

* وكلُّ تلكمُ الأَقْوال والأسْماء لا تُضِيرُ إذَا ما عَلِمنْا أنَّ ابنةَ حمزةَ هي ابنةُ عمِّ رسولِ اللهِ ﷺ ، وهي إحدىٰ بناتِ الصَّحابة اللاتي عَرفْنَ أَنْسامَ الإيمانِ منْ أبَويْن صَحَابِيّيْن .

* فأبوهَا ـ كما علمنا ـ أسدُ الرَّحمن ، وأخو النَّبيِّ ﷺ منَ الرَّضاعة[2] ، حمزة بن عبد المطلب ـ رضي الله عنه ـ .

* وأمُّها إحدىٰ الأخواتِ المؤمناتِ اللائي شَهِدَ لهنَّ رسول الله ﷺ بالإيمانِ ، ووسَمهنَّ بعلامةِ أهلِ النَّجاة وأهلِ الفلاح فقال: «الأَخَواتُ مؤمناتٌ»[3] . وهذه الشَّهادة الزَّاهرةُ الزَّهْراءُ منْ رسولِ الله ﷺ تزيدُ منْ رصيد

---

(١) قالوا: إنَّ اسمهَا: أُمامة؛ عُمارة؛ سَلمىٰ؛ فاطمة؛ أَمَةَ اللهِ؛ عائشة؛ وبعضهُم دَعاها بكنية: أمّ الفضل ، أو أمّ أبيها.
وقال الحافظُ ابنُ حجر: أُمامةُ هو المشْهورُ ، وترجمَ به في الإصابةِ ، وعزاهُ لأبي جعفرَ بنِ حبيب ، وابنِ الكلبي ، والخطيبِ البغداديّ في المُبهمات ، وسمّاها الواقديُّ عمارة ، وابنُ السَّكن فاطمة. انظر: (شرح المواهب اللدنية للزرقاني ٢/ ٢٥٩).

(٢) أرضعتْهُما ثُويبةُ مولاة أبي لهبٍ ، كما جاءَ في الصَّحيح ، وكما قالَ رسولُ اللهِ ﷺ عنْ أمامةَ: «إنَّها ابنةُ أخي من الرَّضاعةِ».

(٣) انظر: الاستيعاب (١٢/ ٣١١) ترجمة رقم (٥٦٣)؛ والأخواتُ المؤمناتُ هنَّ:
* مَيمونةُ بنتُ الحارثِ ـ أمُّ المؤمنين ـ زوجُ رسولِ اللهِ ﷺ.
* وأمُّ الفضلِ بنتُ الحارث زوجُ العبَّاسِ عمِّ النَّبيِّ ﷺ.
* وأسماءُ بنتُ عُميس زوجُ جعفرِ الطَّيّار ابنُ عمِّ النَّبيِّ ﷺ. =

والـدةِ أُمـامـةَ ، وهـي سَلْمـىٰ بنـتُ عُميـس الخثعميّـة امـرأةُ حمـزةَ بـنِ عبدِ المطلب ، وإحدىٰ النِّساءِ اللواتي عَمرَ الإيمانُ قلوبهنَّ منذُ أنْ تضوَّع مسكُ نَـدَاهُ علىٰ الدُّنيا .

* فتحَتْ أمامةُ عينيها علىٰ أبوينِ أَصْلُهما ثابتٌ في منابتِ الإسلامِ ، وفرعُهما متطاولٌ في سَماء الإيمانِ ، ولا نعلمُ بالتَّحديدِ متىٰ كانَ مولدُ أمامةَ ، ولكنَّها كانتْ صغيرةً عندما استُشْهِدَ أبوها حمزة في غزوةِ أحُدٍ في السَّنَةِ الثَّالثةِ منَ الهجرةِ .

ابْـنَــةُ الشَّــهيْــد :

* كانَ لحمزةَ بنِ عبد المطلب ـ رضي الله عنه ـ مكانةٌ عظيمةٌ عند رسولِ الله ﷺ ، وكانَ حمزةُ يرىٰ بعينِ بَصيرتهِ أنَّ النَّبيَّ ﷺ يحبُّ زيدَ بنَ حارثةَ مولاهُ حبّاً شَديداً ، فكانَ ﷺ يُؤْثرهُ بألوانِ المكارمِ والإكْرامِ ، ويُضْفي علىٰ نفسهِ الصَّافيةِ مزيداً منَ إنعامِ الإنعامِ .

* وكانَ زيدُ بن حارثةَ ـ رضي الله عنه ـ قد تَفَانىٰ في خدمةِ الحبيبِ المصطفىٰ ﷺ ، وآثره علىٰ أهلهِ وعشيرتهِ أجمعين ، لذلك كانتْ هنالكَ مؤاخاةٌ بينَ حمزةَ وزيدٍ[1] ، ولكنَّها مؤاخاةٌ خاصَّةٌ تجمعُ مَعَالِمَ الإخاءِ ومآثِره .

* ولعلَّ مؤاخاةَ حمزةَ وزيدٍ كانتْ مفتاحَ خيرٍ لكلَيْهما ، فقد بلغتْ هذه المؤاخاةُ مَبْلغاً كريماً ، حتَّىٰ إنَّ حمزةَ قَدْ أوصىٰ لزيدٍ في غَزَاةِ أُحُدٍ إنْ حظيَ

= * وسَلمىٰ بنتُ عُميس زوجُ حمزةَ عمّ النَّبيِّ ﷺ. فرضي اللهُ عنهنَّ ، وأكرمْ بهنَّ وبأزواجهنَّ !!

(١) لما كانتِ المؤاخاةُ بينَ المهاجرينَ والأنْصار ، كانَ زيدُ بنُ حارثةَ ، وأُسيدُ بنُ الحضير أخوَان ، فزيدٌ مُهَاجِريّ ، وأُسيدُ أنصاريّ ، ذكر هذا ابنُ سيّد النَّاس في «عيونِ الأثر» .

بوسامِ الشَّهادة ، وكأنَّ حمزةَ قد أشارَ إلىٰ أنَّ وصيتهَ تشْمَلُ ابنتَه أمامةَ التي لمْ تَشبَّ عنِ الطَّوق بَعْدُ .

* ولمَّا كانتْ غزاةُ أحُدٍ ، وَدَّعَ حمزةُ زَوْجَه سَلْمىٰ وابنتَه أمامةَ ، وخرجَ إلىٰ مَيدانِ الجهادِ ، لينطلقَ إلىٰ جنَّةٍ عرضُها السَّموات والأرض ، وراحَ يقاتِلُ بِسَيْفَينِ بينَ يدي رسولِ الله ﷺ وهو يترنَّمُ ويقولُ : أنا أَسَدُ اللهِ ، أنا أَسدُ اللهِ ؛ وحقَّ له أنْ يفخرَ بهذا اللقبِ ، ولكنَّ يَـدَ الحِقْدِ والغَدْرِ نَسَجَتْ طريقةً خَبيثةً لاغتيالِ أسَدِ الإلهِ ، فلقيَ اللهَ ليكونَ سيِّدَ الشُّهداء ، نَـعَمْ سيِّدُ الشُّهداء :

ففَـازَ وأضحـىٰ سَيِّـد الشُّهـداءِ فـي ... مَـلائِكـةِ الـرَّحمـنِ يَسْعـىٰ ويفْتَـدي

* وكانَ المُصاب أليماً علىٰ زوجِهِ وابنتِهِ أمامةَ والمسلمين و . . . .

أُصِيْـبَ المُسْلِمـونَ بـهِ جميْعـاً ... هنَـاك وقَـدْ أُصِيْـبَ بِـه الـرَّسـولُ

وأضْحَتْ أمامةُ ابنةَ سَيِّد الشُّهداءِ في رِعايةِ أمِّها سَلمىٰ ، التي أَضْفَتْ عليها الودَّ والعَطْفَ والحنَانَ .

* وظلَّتْ سلمىٰ أَيِّماً إلىٰ أنِ انقضَتْ عدَّتُها ، فَخَلَفَ عليها بَعْدِ اسْتشهادِ حمزةَ شدَّادُ بنُ الهَادِ الليثي[1] ، فولدتْ له عبد الله وعبد الرحمن . وكانَ عبدُ اللهِ بنُ شدَّاد يقول : كانتْ بنتُ حمزةَ أُختي منْ أمِّي ، وكانتْ أمّنا سلمىٰ بنتَ عُميس[2] .

أُمَـامَـةُ تَسْـأَلُ عَـنْ قَـبْـرِ أَبِيْـهَـا :

* في شِمالِي المدينةِ المنورةِ ، يقعُ جَبَلُ أُحُدٍ ، وعند سَفْحِهِ الدَّاكن تُوجدُ قُبورُ شُهداءِ غَزْوَةِ أحُدٍ ، ومنهم حمزةُ عمُّ النَّبيِّ ﷺ .

---

(١) شدَّادُ بنُ الهاد الليثيّ حَليفُ بني هاشم ، كانَ شدادُ سِلْفاً لرسولِ اللهِ ﷺ؛ ولأبي بكر ، لأنَّه كانتْ عنده سلمىٰ بنتَ عُميس أختُ أسماء بنت عُميس ، وهي أختُ ميمونة لأمِّها ، شهدَ الخندقَ وسكنَ المدينة ، ثمَّ تحوَّلَ منها إلىٰ الكوفةِ ، وله روايةٌ عن النَّبيِّ ﷺ ، وعن ابنِ مسعود ، وروىٰ عنه ابنه عبدُ اللهِ بنُ شدَّاد . (الاستيعاب ٥/ ٥٤ ـ ٥٦) ، و(الإصابة ٥/ ٥٦) مع الجمع والتصرف .

(٢) الإصابة (١٢/ ٣١١) .

* وفي الحديثِ النَّبويِّ «هَذَا جَبَلٌ يحبُّنا ونحبُّه» نَعْم في ذيلِ هذا الجبلِ المباركِ تُوجد مَضَاجِعُ شهداءِ الحقِّ الذين أُكْرِمُوا بالشَّهادة ، والذين صَدَقُوا ما عَاهَدُوا اللهَ عليه :

وَلُـذْ بِسَـاداتِ ذاكَ السَّفْـحِ كلِّهـم   أَصْحَابِ خَيرِ الورىٰ المختارِ ذي السَّدَدِ
أَعْنـي بهـم شُهـداءَ الحـقِّ قَـاطِبَـةً   المُهْرِقينَ الدِّما في نُصْرةِ الأحَدِ
فاسْتَجْلِ أنوارَهُم بالعينِ مُقْتَبساً   كي تستضيءَ بها في ظُلمةِ البَلَدِ

* ويوجدُ في ذلكَ السَّفْح أيضاً قَبْرُ حَمزةَ :

حَبيـبُ رسُـولِ اللهِ نـاصـرُ دِيْنِـه   أجَـلُّ شهيدٍ فَضْلُـه أَخْجَـلَ المُـزْنَـا

* نعم يوجدُ مثوىٰ حمزةَ قاصِمُ الشِّرك ، وفَاصِمُ عُرَاه :

أَسَـــدُ اللهِ حمـــزةُ ذي الأيـــادي   عــمُّ خَيـرِ الــورىٰ رحـىٰ الهيجَـاءِ
أَيَّـــدَ المصطفـــىٰ وأَوْلاهُ نَصْـــراً   وافْتَـــداهُ بنفسِـــه فـــي الـــوغَـــاءِ

* في ذلكَ السَّفْحِ الدَّاكن يظلُّ حمزةُ شعاراً لكلِّ الشُّهداء ، ويظلُّ أسدُ اللهِ عنوانَ كمالِ الفُرُوسيّةِ وشدَّة لبأسِ إذا حميَ الوطيس :

عمُّ الرَّسُولِ شديدُ البأْسِ حمزةُ مَنْ   يُدعىٰ لسطوتِهِ في الحربِ بالأَسَدِ
فَعَـنْ نـدىٰ كفِّـهِ حَـدِّثْ ولا حَـرَج   وعَـنْ مـدىٰ صِيْتِـه نبـىءْ ولا تجِـدِ
فدونَ أوصافِه عَدُّ الرِّمالِ فكُنْ   بعــروةَ الفضْــلِ منــه آخــذاً بيَــدِ

* وبينَ هذه النَّسائم العَطِراتِ نَشَأَتْ أُمَامةُ ، وهي تعي أنَّ أباهَا سيِّدُ الشُّهداء ، وفارسُ الأبطالِ ، وعندما قَدِمَ رسولُ اللهِ ﷺ منْ عمرةِ القَضَاء ، أخَذَ معه أمامةَ ابنةَ حمزة ، فلما قدمتْ أمامةُ المدينةَ ، طَفِقَتْ تسألُ عنْ قَبْرِ أبيها ، وفي أيّ مكانٍ هو ، عند ذلك بَلغَ شَاعرُ الرَّسولِ ﷺ حسَّانَ بنَ ثابت ما تبحثُ عنه أمامةُ ، فأَنْشَد يذكرُ بعضَ مناقبِ سيِّد الشُّهداء حمزة ، ويقولُ مُخاطِباً أمامة ومبيّناً فَضَائِل أبيها :

تُسَـائِـلُ عَـن قَـرْمٍ هجـانٍ سَمَيْـدَعٍ   لدىٰ النَّاسِ مِغْوارِ الصَّبَاحِ جَسُور
أخـي ثقَـةٍ يَهْتـزُّ للعـرفِ والنَّـدىٰ   بَعيـدِ المـدىٰ فـي النَّـائِبـاتِ صبـور

فقُلْـتُ لَهـا إنَّ الشَّهَـادَةَ راحَـةٌ ورضْـوانُ ربٍّ يـا أَمـامُ غَفُـورِ[1]
فـإنَّ أبـاك الخيـرَ حمـزةَ فـاعْلَمي وزيـرُ رسـولِ اللهِ خَيْـرُ وزيـرِ
دَعَاهُ إلهُ الخَلْقِ ذو العرشِ دعْوةً إلـىٰ جنَّـةٍ يـرضـىٰ بهـا وسُـرورِ
فـذلـكَ مـا كُنَّـا نُـرجِّي ونَـرْتَجي لحمـزةُ يـومَ الحشـرِ خيـرَ مصيـرِ
فـواللهِ لا أَنْسـاكَ مـا هبَّـتِ الصَّبَـا ولأبْكيَـنْ فـي مَحْضَـري ومَسيـري
علىٰ أَسَدِ اللهِ الذي كان مَدْرهاً يَـذُودُ عـنِ الإسـلام كـلَّ كفُـور[2]
أَقُـولُ وقَـدْ أعْلـىٰ النَّعـيُّ بهلكـةٍ جـزىٰ اللهُ خيـراً مـنْ أخٍ ونصيـر[3]

* ولعلَّ بعضَ النَّاسِ قَدْ أرشَدَ أمامةَ إلىٰ سَفْح جَبَلِ أُحُدٍ ، حيثُ يرقدُ هناك حمزةُ شهيداً ، فلَقَدْ كانتْ تَعْلَمُ أيَّ مَجْدٍ مؤثّلٍ بَلَغَهُ ، ويكفيهِ منَ الفَضْلِ يكفيهِ ، أنَّه رضيعُ رسولِ اللهِ ﷺ:

يـا سيِّـدَ الشُّهَـداءِ بَعْـدَ مُحمَّـدٍ ورضيعَ ذي المَجْدِ المرفَع أَحْمدِ
يا بنَ الأعزَّةِ مِنْ خلاصَةِ هاشِمٍ سُـرُجُ المعَـالـي والكـرامِ المُجَّـدِ
يـا أيُّهـا البطـلُ الشُّجـاعُ المُحتمي ديـنُ الإلـهِ ببـأسـه المتـأسِّـدِ
يا نبعةَ الشَّرفِ الأصيلِ المُعْتَلي يـا ذِرْوَةَ الحَسَـبِ الأثيـل الأتْلَـدِ
يـا حَمْـزةَ الخَيْـرِ المـؤمَّـل نَفْعُـهُ يَـومَ الهيـاجِ وعنـدَ فَقْـدِ المُنْجِـدِ

هـديَّـةٌ نبـويَّــةٌ لابنــةِ حَمْـزَةَ:

* كـانَ لأمـامـةَ بنـتِ حمـزةَ ـ رضـي الله عنهمـا ـ منـزلـةٌ رفيعـةٌ عنـدَ رسولِ اللهِ ﷺ ، فكانَ يخصُّها بالهديَّةِ ، وقد وَرَدَ أنَّه قَدْ خصَّها مَعَ أخرياتٍ بهديةٍ منْ حلّةٍ جميلةٍ .

---

(١) «أمام»: ترخيم أمامة.
(٢) «مَدْرهاً»: مَدرةُ القوم: الذي يُدافع عنهم في الحرب. قال عَبيدُ بنُ الأبرص:
وإنَّهـا مـلاعـبُ الـرِّمَـاحِ مـدرةُ الكتيبـةِ الـرَّدَاحِ
(٣) انظر: ديوان حسان بن ثابت (ص٢١٩)؛ وانظر الإصابة (١٢/١٢٦) ترجمة رقم (٦٤).
ومن الجدير بالذكر أن ابن الكلبي سمّاها «أمامة» ، بينما سماها الواقدي «عمارة».

* جاءَ في الصَّحيح وغيرِهِ عنْ عليٍّ بنِ أبي طالبٍ ـ رضي الله عنه ـ قال: أُهْديَ لرسولِ اللهِ ﷺ حُلَّة سِيَراء[1] فقال لي: «اجْعَلْهَا خُمُراً[2] بينَ الفَواطِمِ، خِماراً لفاطمةَ بنتِ أسَد، وخماراً لفاطمةَ بنتِ محمّد عليه السَّلام، وخماراً لفاطمةَ بنتِ حمزة بن عبد المطلب»[3].

* وفي روايةٍ أخرىٰ عن جعدةَ بنِ هُبيرةَ عنْ عليٍّ قال:

* أهْديَ إلىٰ رسولِ اللهِ ﷺ حلَّةَ مُسيَّرة بحريرٍ فقال: «اجعلها خُمُراً بينَ الفَواطِم». فشققتُ منها أربعةَ أخمرةٍ:

خماراً لفاطمةَ بنتِ محمّد ﷺ، وخماراً لفاطمةَ بنتِ أَسد، وخماراً لفاطمةَ بنتِ حمزةَ.

ولم يذْكُرِ الرَّابعةَ[4].

* ولَعَلَّ في هديةِ الرَّسولِ ﷺ لابنةِ حمزةَ تكريماً لعمِّه سيِّدِ الشُّهداء، وفتىٰ الفتيانِ، أَسَدِ اللهِ، وأَسدِ رسولِهِ، وأَنْضَرِ أغْصَانِ دوحةِ عبدِ المطلب بن هاشم.

* ولعلَّ في ذلكَ أيضاً تكريماً لبناتِ الشُّهداء منَ الصَّحابةِ، أولئكَ البنات اللواتي نَبَتْنَ في مَدَارِجِ التَّربيةِ الإسلامية، فكانتِ التَّربيةُ النَّبويةُ الحانيةُ ترعىٰ هؤلاء البناتِ الطَّاهرات ـ رضوان الله عليهن ـ.

---

(١) «السِّيَرَاء»: بكسر السّين وفتح الياء: بُرْد فيه خطوط صفراء، قال النابغة:
صفْـراء كـالسِّيَـراءِ أكمـلَ خلقَهـا ... كـالغصـنِ فـي غلـوائـهِ المتـأوِّد
(٢) «خمراً»: جَمْعُ خمار، ما تُغطي به المرأةُ رأسَها، وتُجمَعُ علىٰ: أخمرة، وخُمُر.
(٣) انظر: تفسير مبهمات القرآن للبلنسي (٢/ ٣٦١ و٣٦٢).
(٤) انظر: أسد الغابة (٦/ ٢١٩) ترجمة رقم (٧١٧٢)؛ وقال ابن حجر ـ رحمه الله ـ: لعلَّ الرَّابعةَ هي فاطمةُ امرأةُ عقيل، وهي فاطمةُ بنتُ شيبةَ بنِ ربيعةَ (الإصابة ١٣/ ٨٠)، ترجمة رقم (٨٣٣). ومنَ المفيد هنا أنْ نشير إلىٰ أنَّ الفيروز أبادي صاحبَ القاموسِ قد ذكرَ بأنَّ الفواطمَ من الصَّحابياتِ عشْرون صحابيّة، إلا أنَّ ابن حجَرٍ قَدْ عدَّ منها (٢٨ فاطمة)، وابنَ الأثيرِ قد ذَكرَ (٢٢ فاطمة)، بينما ذكر ابنُ عبد البر (١٣ فاطمة) فقط.

يَـا عَــمُّ يَـا عَــمُّ:

* كلمةٌ بريئةٌ: يا عمُّ يا عمُّ، أَطْلَقَتْها أمامةُ في يومٍ منْ أيامِ الرَّسولِ ﷺ، فكانتْ لها عِزّاً وَحمىً، ومنْ ثمَّ عَاشَتْ في بيتِ تتضوَّعُ أَنْفاسُ الإيمانِ في جَوانبه، وأنسامُ الإخلاصِ حولَه، ذلكمُ البيتُ هو بيتُ خالتها أسماءَ بنت عُميس زوجِ جعفرَ بن أبي طالب ـ رضي الله عنهم جميعاً ـ.

* فقد جاءَ في الصَّحيح وغيرِهِ عن عليٍّ بنِ أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ أنَّهم اختصمُوا في ابنـةِ حمـزةَ، فقضـىٰ رسـولُ الله ﷺ لخالتِهـا فقـال: «إنَّ الخَالةَ أُمٌّ».

قلتُ: يا رسولَ اللهِ، أَلاَ تزوَّجْها؟

فقال: «إنَّها لا تحلُّ لي، إنَّها ابنةُ أخي منَ الرَّضاعةِ».

وقال لعليّ: «أنْتَ منِّي وأنا منكَ».

وقال لزيدٍ: «أنتَ أخونا ومَوْلاَنا».

وقال لجعفر: «أشبهتَ خَلْقي وخُلُقي»[1].

* أمَّا قصَّةُ أمامةَ بنت حمزةَ وكفالتها من قِبَلِ خالتها، فنحنُ مرسلو القول فيها، وباسطو أحداثها بإذنِ الله، كيما تَنْجَلي تلكمُ الأجواءُ الضَّبابيةُ عنِ القصَّةِ، وكيما تتوضحَ صورةُ أمامة بشَكْلٍ أفضلَ بينَ بناتِ الصَّحابة الطَّاهراتِ.

* ففي عُمْرةِ القضاء، كانَ رسولُ اللهِ ﷺ قد أعدَّ للرَّحيلِ منْ مكةَ، وفاءً بوعدِه لأَهْلِها ـ كم هو مشهورٌ في السِّيرة ـ؛ وخرجَ رسولُ الله ﷺ، وخرجَ معه أصحابُه الذين رافقوهُ في أداءِ هذه العُمرة، وفيهم السَّادةُ الأعلامُ الأعلياءُ: عليُّ بنُ أبي طالب، ومعه زوجُه سيّدتنا فاطمةُ الزَّهراء سيِّدة نساءِ العَالَمين، وابنة رسولِ ربِّ العالمين، وابنة سيِّدة نساءِ العالمين؛ وفيهم

---

(١) انظر: غوامض الأسماء المبهمة (ص ٧٠٩) خبر رقم (٢٥٠).

زيدُ بنُ حارثةَ حِبُّ الحبيبِ الأعظمِ ﷺ ورأسُ الأسرة الزَّيديةِ الحبيبةِ المُحَبَّةِ إلىٰ قلبِ الحبيبِ المصطفىٰ ﷺ وقلوبِ المؤمنين ، وفيهم جعفرُ بنُ أبي طالب ـ رضي الله عنهم جميعاً ـ.

* فلمّا خرجَ النَّبيُّ ﷺ تَبِعَتْه أمامةُ ، وكانت جاريةً صغيرةً ، وهي تُنادي: يا عمّ ، يا عمّ ، وكانتْ هذه الكلمةُ كأنفاسِ الرّبىٰ فوقَ زَهْرِ الكمائِم ، فسمعَها عليُّ بنُ أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ ، فتَنَاولَها وأخَذَ بيدِها وقالَ لسيِّدتنا فاطمةَ الزَّهراء ـ عليها سحاباتُ الرضوان ـ: دونَك ابنةَ عمِّك ، فحملَتْها فاطمةُ معَها ، فلما رجعُوا إلىٰ المدينةِ المنوَّرةِ ودنوا منها ، وأوشكتِ الرِّحالُ أنْ تلقيَ عصا تسْيارِها وتستقرَّ ، اختصمَ عليٌّ وزيدٌ وجعفرُ ـ رضي الله عنهم ـ في أيِّهم هو أولىٰ بأمامةَ ابنةِ حمزةَ ، فيكونُ وليُّها وراعيها وكافِلُها ، وتكونُ عنده في أهلِه وولده ، فكلَّمَ زيدٌ فيها رسولَ اللهِ ﷺ ، وهو وصيُّ حمزةَ ووديْدُهُ في الأخوَّةِ الإيمانيّةِ الخاصَّةِ التي تبرعَمَتْ وأزهَرَتْ في حياةِ حمزَةَ ـ رضي الله عنه ـ؛ فتقدَّمَ عليٌّ فقال: أنا أخذتُها وأخرجتُها منْ بينِ أظهرِ المشركين ، وهي ابنةُ عمي حمزةَ ، وعندي بنتُ رسولِ اللهِ ﷺ فاطمة الزَّهراء ، وهي أحقُّ النَّاسِ بها. وقال جعفر: هي ابنةُ عمّي أيضاً ، وخالتُها تحتي ، يعني زوجه أسماءَ بنتَ عميس. وقال زيدُ: ابنةُ أخي ـ يعني لِما كانَ بينه وبينَ حمزةَ منْ أخوّةِ الودِّ والمحبَّةِ ووصيّة حمزةَ له لما حَضَرا القتالَ يومَ أُحُد ـ ، هنالك قضىٰ بها النَّبيُّ ﷺ لخالِتها وقالَ: «الخالةُ بمنزلةِ الأُمِّ» ، فَلَمْ تزلْ أمامةُ عنْدَ جَعفرٍ حتى نالَ الشَّهادة في سريةِ مُؤْتَةَ ، وكانَ قَدْ أوصىٰ بها إلىٰ أخيهِ عليّ ، فمكَثَتْ عنده حتى كبرتْ ، فعرضَها علىٰ النَّبيِّ ﷺ كيمَا يتزوجَها ، فقال ﷺ: «إنَّها ابنةُ أخي منَ الرَّضاعة» ـ أي لا تحلُّ لي لأنَّ حمزةَ أخو رسولِ اللهِ ﷺ منَ الرَّضَاع أرضَعَتْهُما ثُويبة مولاة أبي لهب ـ.

* ثُـمَّ إنَّ الحبيـبَ المصطفـىٰ ﷺ زوَّجَهـا مِـنْ سَلمـةَ ابـنِ أمِّ سلمـةَ أمِّ

المؤمنين ، وقال حين زوّج أمامةَ من سلمةَ : «هل جُزيتَ سَلَمة»[1]؟ ، وذلك أنَّ سلمةَ هو الذي زوّج أمَّهُ أمَّ سلمةَ منْ رسولِ اللهِ ﷺ ، وكانَ أكبرَ منْ أخيهِ عمرَ بنِ أبي سلمة[2] .

أُمَامَـةُ والقَضَـاءُ النَّبَـويُّ العَـادِلُ :

* أجدُني هنا ـ عزيزي القارىء ـ مرخياً عنانَ القَلَمِ قليلاً في قصَّةِ أُمامة والقضاءِ النَّبويِّ فيها لخالِتها ، وذلك لِما فيها منَ اللطائفِ النَّبويِّة ، والفوائدِ المحمّدية ، علىٰ الرَّغمِ من أنَّ قصَّة أُمامةَ مع عليٍّ وجعفرَ وزيدٍ تبدو شائكةً عسرةً ، إذْ إنَّ كلَّ واحدٍ منهم أدلىٰ دَلْوه ، وأتىٰ بالحجّةِ التي تخوّلهُ بأنْ يكفلَ ابنةَ حمزةَ ـ رضي الله عنهما ـ .

* فعليٌّ وجعفرُ ـ رضوان الله عليهما ـ تربطهُما بالحبيبِ الأعظمِ ﷺ صِلَةُ القُربىٰ ، وهما بالنِّسبة لابنةِ حمزة أبناء عمومة .

* أمَّا زيدٌ ـ رضوان الله عليه ـ فهو مولىٰ النَّبيِّ ﷺ ، وتربطهُ بهِ علاقةُ تربيةٍ ومحبّةٍ ، حيثُ تبناه النَّبيُّ ﷺ لما آثَرهُ زيدٌ علىٰ أهلِهِ ، ثمَّ أَبْطَلَ الإسلامُ ذلك التَّبنِّي فيما أبْطلَ .

---

(١) ذكرَ البلاذريُّ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ لِسَلَمةَ حينَ زوَّجهَ ابنةَ حمزة بنِ عبد المطلب وهي أمامةُ : «هَلْ جُزيْتَ سَلمة»؟!
فيقال : إنَّه أصابه خَبَلٌ مِنْ فالجٍ قَبْلَ أنْ يضمَّها إليه ، وتزوَّجها أخوه ، ولمْ تلدْ له . (أنساب الأشراف ١/ ٤٣٠) .

(٢) عن طبقاتِ ابن سعدِ (٨/ ١٦٠) ، ودلائل النُّبوة (٤/ ٣٤٠) مع الجَمْع والتَّصرُّف ونَقَلَ ابنُ حجرٍ عن ابنِ إسحاقَ قال : حدَّثَني مَنْ لا أتَّهمُ عن عبدِ اللهِ بنِ شدَّاد قال : كان الذي زوَّجَ أمَّ سَلَمةَ منَ النَّبيِّ ﷺ سَلمةُ بنُ أبي سلمة ابنها ، فزوَّجَه النَّبيُّ ﷺ أمامةَ بنتَ حمزة ، وهما صبيّان صغيران ، فلم يجتمعا حتّى ماتا ، فقالَ النَّبيُّ ﷺ : «هل جَزَيت سلمة»؟ عن (الإصابة ٤/ ٢٣١) ترجمة رقم (٣٣٧٦) هذا وقد عاشَ سلمةُ إلىٰ خلافةِ عبد الملكِ بن مروانَ ، وأمَّا ما وقع في رواية ابنِ إسحاق أنَّهما لم يجتمعا حتَّى ماتا ، فالمرادُ أنَّها ماتتْ قبل أنْ يدخلَ بها ، وماتَ هو بعد ذلك .

* ولكنَّ هذهِ القضيَّةَ كانتْ محلَّ اهتمامِ النَّبيِّ ﷺ في ضوءِ الهدي الرَّباني العظيمِ ، إذْ إنَّ زيدَ بنَ حارثةَ مهما نالَ منْ شرفِ الأخوّة وحقِّها لحمزةَ ، فهو دون عليّ وجعفر في استحقاقِ ابنةِ حمزة؛ وقد يرىٰ بعضُ بني هاشم في تربيتِها في بيتهِ ما يخلُّ بمنزلتهم في قريش ، أو ربما ترىٰ البنتُ الهاشميّةُ في ذلكَ غَضَاضةً عليها ، ولكنَّ التَّفاضلَ منْ بني هاشم ، وكلاهما ابنُ عمٍّ لها ، بل إنَّ كليهما منْ أسبقِ السُّبَّقِ ، ومن كرامِ الأوَّلين المهاجرين إلىٰ اللهِ ورسولِه؛ ومنزلتُهما مشهورةٌ معروفةٌ في الإسلامِ ، وذروةُ الأسرةِ العَلويّة ورأسُها وسنامها هو زوجُ فاطمةَ الزَّهراء ـ رضي الله عنها ـ؛ وذروةُ الأسرةِ الجعفريةِ وسنامها هو زوجُ أسماء خالة ابنة حمزة؛ إذاً بقيَ حُكْمُ وقضاءُ مَنْ تنزَّلَ عليه القرآنُ العظيمُ منْ فوقِ سَبْعةِ أرقعةٍ ، فقضىٰ بابنة حمزة لجعفر[1] ، لأنَّ خالتها عنده ، والخالةُ بمنزلةِ الأمِّ[2] .

* ونظرة بسيطة نرىٰ كمال هذا القَضَاءِ النَّبويِّ الوضيء ، فقد يبدو باديَ الرَّأي ، وللوهلةِ الأولىٰ أنَّ سيِّدنا علياً ـ رضي الله عنه ـ قد كان أولىٰ وأحقَّ بابنةِ حمزةَ ، فهو ابنُ عمٍّ لها ، وزوجهُ الزَّهراء ابنةُ ابنِ عمّها ، ومَنْ كالزَّهراء؟!

* ولكنْ كيفَ يكونُ ذلك وتعيشُ أمامةُ عندَ عليّ؟ إنَّ ابنة العمِّ مهما بلَغَتْ منَ الكرمِ ، ومهما بلَغَتْ منَ التَّسامحِ والرِّعايةِ فلَنْ تكونَ كالخالةِ ، وربَّما

---

(١) نقلَ الإمامُ الصَّالحيُّ ـ رحمه الله ـ عن محمّد بنِ عمر الواقديّ قال: لما قضىٰ رسولُ اللهِ ﷺ بأمامةَ لجعفرَ ، قامَ جعفرُ فحَجَلَ حولَ رسولِ اللهِ ﷺ فقالَ رسولُ الله ﷺ: «ما هذا يا جعفرُ»؟!
قال: يا رسولَ اللهِ ، كانَ النَّجاشيُّ إذا أرضىٰ أحَداً قامَ فحَجَلَ. (سُبُل الهدىٰ والرشاد ٥/ ٢٩٧).
وللهِ درُّ القَائِلِ مخاطباً جعفرَ بنَ أبي طالبٍ ـ رضي الله عنه ـ:
ولك العذْرُ إنْ رقَصْتَ فَهذي ... نَشْوةُ الحبِّ تأخذُ المُخْلِصينا
(٢) انظر: تفسير القرطبي (٤/ ٨٨).

ترىٰ في وجودِ ابنةِ عمّها معها ـ وهي مَنْ تحلُّ لزوجها ـ مُنافِساً لها ، وعند إذْ لا تعجبْ إذا كانَ صاحبُ القَضَاءِ رسولُ اللهِ ﷺ قَدْ قَضَىٰ بهذا القَضَاء الحكيم الوضَّاءِ ، فقضىٰ بها لجعفرَ ، إذ عنده خالتُها[١] أسماءُ بنتُ عُميس ، وهيَ مِنَ اللاتي نَبَتْنَ في منابتِ الإسلامِ ، وهي مَنْ هِي دِيْناً ، وخُلُقاً ، وتضحيةً في سبيلِ الله ورسولهِ[٢] .

* وهكذا وبهذا الحكمِ النَّبوي العَادلِ ، طيَّبَ رسولُ الله ﷺ خاطرَ عليٍّ وزيدٍ وجعفرَ ، حيثُ قضىٰ بجلالِ الحقِّ ، ومرضاةِ اللهِ ، وبما فيه مصلحة للنُّفوسِ البشريّة ، ليكونَ ذلك القضاءُ صورةً وضيئةً جميلةً في جبينِ التَّاريخ ، وليكونَ الإسلامُ هو الدِّينُ الذي ارتضاهُ اللهُ للعباد .

* بقي أنْ نعلمَ أنَّه قَد رُويَ الحديثُ[٣] عن ابنةِ حمزة ، فيما رواه عنها أخوها لأمِّها عبد الله بن شدادَ قالت : ماتَ مولىً لي وتركَ ابنْتَه ، فقسمَ رسولُ الله ﷺ مالَه بيني وبينَ ابنته ، فجعل لي النِّصف[٤] .

* وتسكتُ المصادرُ فلا تحدّثُنا عن بقيةِ حياةِ ابنةِ حمزةَ ولا عن وفاتِها ، ولعلَّ وفاتها كانتْ في المدينةِ المنوّرة ، فرضيَ اللهُ عن أمامةَ وأَرْضاها .

* * *

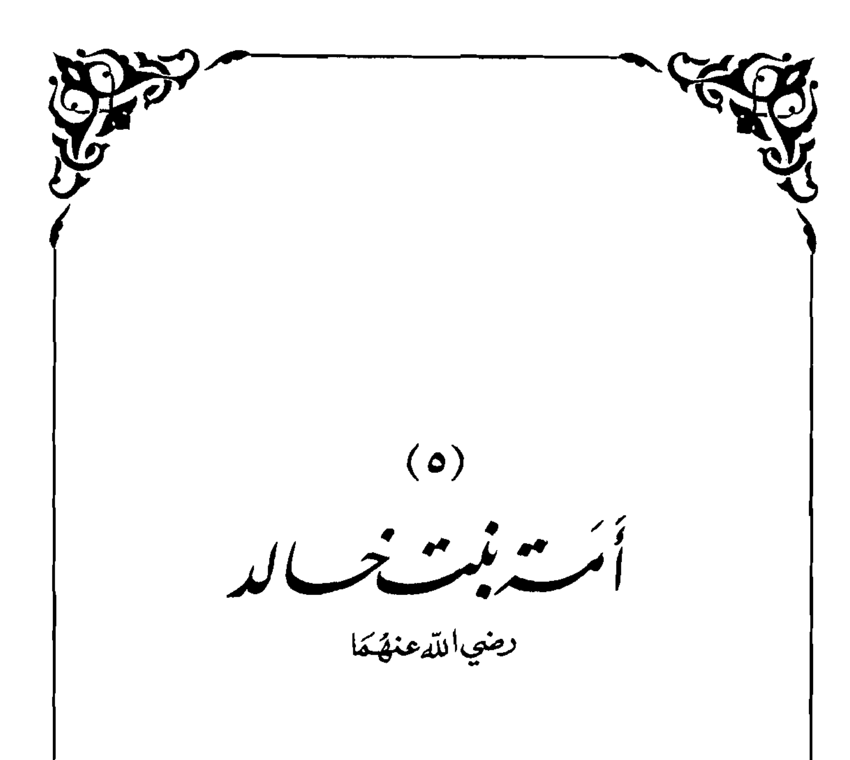
---

(١) قال ابن المنذر : وثبتَ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قضىٰ في ابنةِ حمزةَ للخالةِ منْ غيرِ تخيير . (تفسير القرطبي ٣/ ١٦٤) .
وروىٰ أبو داود عن عليّ ـ بعد أنْ ذكرَ قصَّة ابنة حمزة ـ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال : «وأمّا الجاريةُ فأقضي بها لجعفرَ تكونُ مع خالتِها ، وإنَّما الخالةُ أمٌّ» (عن تفسير القرطبي ٣/ ١٦٥) .

(٢) للمزيد منْ أخبار أسماء بنت عُميس ، وللمزيدِ من الإشراقات الباسمةِ عن حياتها ، اقرأ سيرتها في كتابنا «نساء من عصر النُّبوة» (٢/ ١٨٣ ـ ١٩٥) فسيرتُها روضُ رياحين لمن أراد التَّنزه .

(٣) الدر المنثور في طبقات ربات الخدور (ص٦٥) ، وأعلام النساء (١/ ٧٦) .

(٤) انظر : أسد الغابة (٦/ ٢١٩) ، والاستيعاب (١٣/ ٢٦٦) ، والإصابة (١٣/ ٢٦٦) .



(٥)

أَمَة بنت خالد

رضي الله عنهما

* أمُّها وأبوها صحابيان.

* دعا لها ﷺ بقوله: «أَبْلي وأَخْلفي».

* من رواة الحديث النبوي الشريف.

ابـنَـةُ صَحَـابيَّـيْــن :

* ابنةُ الصَّحابي اليوم منْ صميمِ قُريش وعُليَا ذِرْوتِها. فأبواها منْ عليةِ قريش ، معروفَان بأسمائِهما وأنْسَابِهما وبيوتهما؛ وهُما منَ السَّابقين إلىٰ الانضمامِ إلىٰ العِقْدِ النَّفيس ، الذي ينْظِمُ الثُّـلَّـةَ الأولىٰ منَ الصَّحابةِ الكرامِ ، من الذين سَارعُوا إلىٰ استنشاقِ عبيرِ الإسلام ، وهو يتفتَّـحُ نديّاً منْ أمِّ القرى مكةَ قَبْلَ أنْ ينشرَ شَذَاهُ في الدُّنيا بأسْرِها.

* وكانَ هذان الأَبوان منْ أوائِلِ مَنِ استجابَ لدعوةِ رسولِ اللهِ ﷺ ، فاهتديَـا بهديـهِ ، وكانَا منَ اللَّبِنَاتِ الأُوَلِ في بناء صَرْحِ هذا الدِّينِ القَيِّمِ ، دين الإسلامِ الحنيف الذي ارتضاهُ اللهُ لعباده.

* وأمَّا السَّابقُون الأوَّلون إلىٰ دوحةِ الإيمانِ فكانُوا في الذِّروةِ منَ المكانةِ والحَسَب والنَّسبِ ، وأَوَّلهم: صِدِّيقةُ المؤمنات وسيِّدةُ الطَّاهراتِ أمُّنا خديجةُ بنتُ خُويلد سيِّدةُ نساءِ العالَمين وأسبقُ الخَلْقِ إسْلاماً وإيماناً برسالةِ النَّبيِّ ﷺ ، ثمَّ الصِّدِّيقُ والصِّدِّيقُ الأكبرُ أبو بكرٍ الحسيبُ الأصيلُ أعلمُ قريشٍ بقريشٍ ، صاحبُ المجدِ المؤثَّلِ في الثَّراءِ والنَّجدةِ ، وكَرَمِ الخَصَائِلِ ، ومَعْقدِ الفضائِلِ ، يلي ذلكم عثمانُ والزُّبيرُ وعبدُ الرحمن بن عوف وسعدُ بن أبي وقاص وطلحةُ بنُ عبيد الله ، وهؤلاء هم عليةُ القومِ في الأَحْسَاب والأنْسَابِ والأموالِ والمكارمِ وكلِّ خصائلِ الخيرِ وخَصَائِلِ العَقْلِ.

* ثمَّ تدفَّقَ شُبَّانُ قريشٍ وشَابَّاتُها إلىٰ مَنْبعِ الهدايةِ ، ليشهدوا شهادةَ الحقِّ؛ وكانَ منْ بين هؤلاء الأَبْرار: خالدُ بنُ سعيد بنِ العاص بنِ أميّة بن عبـد شمس بن عبد مناف بن قصـيّ ، ومعـه امرأتـهُ أُمينـةُ ـ أو أميمـة ـ بنتُ

خَلَف بنِ أسعَدَ بنِ عامر الخزاعيّة[1]. وهذان الزَّوجانِ الكريمانِ الحسيبانِ الأصيلان هما والدا ضَيفة هذه الصَّفحات الوضيئاتِ بأخبارِ بناتِ الصَّحابة الطَّاهراتِ العَالِمات ، وقدوة القدواتِ ، وستكونُ جولتُنَا ممتعةً شائقةً مباركةً مع حياةِ هذه الابنةِ الكريمة المؤمنةِ الصَّحابية ـ إن شاء الله ـ.

* وكانَ هذان الزَّوجانِ في ذِرْوَةِ الشَّبابِ ، وكذلكَ غيرُهم ممن اجتذبَتْهم عظمةُ الإسلامِ ، وهذا ممَّا أغاظَ قُريشاً ، وجعَلَها تشعرُ بالخطرِ علىٰ حياتِها الجاهليةِ ، إذْ هَجر هؤلاءِ الشَّباب آلهةَ آبائِهم وأسلافِهم؛ تلكَ الآلهةُ المزعومةُ:

تِلْكَ أرْبَابُهم أتَملِك أَنْ تَنْـ ... ـفَعَ مثقالَ ذرَّةٍ أو تَضِيرا
مَا لَدَىٰ «اللاَّت» أو «مَنَاةَ» أو «العُزَّ ... ى» غنَاءً لِمَنْ يَقيسُ الأُمُورا

* ولم يكتفِ هؤلاء المؤمنون بنَبْذِ عبادةِ الآلهةِ ، بل سفَّهُوا أحلامَ مَنْ يعبدُها ، هنالكَ طارَتْ عقولُ قريشٍ شعَاعاً من رؤوسِها ، ودارتْ أفْئدتُهم في حنَايا أَضْلُعِهم مضطربةً لما دَهَاها ، وركبهُم الهمُّ والكمدُ والغمُّ ، منْ إيمانِ هؤلاءِ ، ومعظمهم فلذاتُ الأكباد ، فما الأمْرُ إذاً؟!

* عند ذلك بدأتْ فدائحُ البلاءِ ، وألوانُ الأذيّاتِ تنصبُّ علىٰ المؤمنينَ ، وأخذتْ أشكالُ الأذىٰ تَتَوالىٰ عليهم ، هنالك رأىٰ المؤمنونَ إشارةً بل تَصْريحاً منْ رسولِ اللهِ ﷺ بالهجرةِ إلىٰ المدينةِ ، وهنالك يجدونَ الأمْنَ والأمانَ والسَّلام ، ومن ثمَّ ربما تكونُ هذه الهجرةُ لوناً منْ ألوانِ تبليغِ الرِّسالة النَّبويّة في هاتيكَ الأرض الكريمةِ التي أرشدَهُم إليها رسولُ اللهِ ﷺ بقوله: «لو خرجتمْ إلىٰ أرضِ الحبشةِ ، فإنَّ لها مَلِكاً لا يُظْلَمُ عنده أحدٌ ، وهي أرضُ صِدْقٍ ، حتى يجعلَ اللهُ لكمْ فَرَجاً مما أنتمْ فيه».

* وخرجَ خالدٌ وزوجُه[2] أمينةُ إلىٰ الحبشةِ وهما متمسّكانِ بعرا الصَّبْرِ ،

---

(١) انظر: عيون الأثر (١/ ١٨٥ و١٨٦).

(٢) كانَ ممنْ خرجَ بزوجهِ وَهُنَّ (١٨ امرأة): =

وكـان فـي مقدمـةِ المهـاجرين: عثمـانُ بـنُ عفَّـان ومعـه امرأتُـه رقيـةُ بنـتُ رسولِ اللهِ ﷺ.

* وذكرَ ابنُ إسحاقَ ـ رحمه الله ـ سجلاً مُسْهباً فَصَّلَ فيهِ أسماءَ وأنسابَ المهاجرينَ إلىٰ الحبشةِ، فكانُوا ثلاثةً وثمانينَ رجُلاً، وثماني عشرةَ امرأةً، إحدىٰ عشرة قُرشيّات وسَبْعاً غرباء[1]؛ وأكثرُ هؤلاءِ قرشيُّون منْ أشرافِ بطونها وطلائع بيوتها، هذا عدا أبنائِهم الذين خَرَجُوا بهم معهم صِغَاراً، أو وُلدوا هنالك في الحبشةِ.

= * عثمانُ بن عفانَ معه امرأته رُقيّةُ بنتُ رسولِ اللهِ ﷺ.
* خالدُ بنُ سعيد معه امرأتهُ أُمَينةُ بنتُ خلف.
* عمرو بنُ سعيد بنِ العاص معه امرأتُه فاطمةُ بنتُ صفوانَ بنِ أميّة.
* عبيدُ اللهِ بنُ جحش معه امرأته أمُّ حبيبةَ بنتُ أبي سُفيان.
* قَيْسُ بنُ عبدِ اللهِ معهُ امرأتُه بركةُ بنتُ يسار مولاة أبي سفيان بن حرب.
* أبو حذيفةُ بنُ عتبةَ بنِ ربيعةَ معه امرأتهُ سهلةُ بنتُ سُهيل بن عمرو.
* جَهْمُ بن قَيس معه امرأتهُ أمُّ حرملةَ بنتُ عبد بنِ الأسود.
* المطّلبُ بنُ أزهرَ بنِ عوف معه امرأتهُ رمْلةُ بنتُ أبي عوف.
* الحارثُ بن خالد بنِ صخر معه امرأتهُ ريطةُ بنتُ الحارث.
* أبو سلمةُ بنُ عبد الأسدِ معه امرأته أمُّ سلمة هندُ بنتُ أميّة بن المغيرة.
* حاطبُ بنُ الحرث بن معمر معه امرأته فاطمةُ بنتُ المجلل بنِ عبد الله العامريّة.
* حطّابُ بنُ الحارثِ معه امرأتهُ فكيهةُ بنتُ يسار.
* سفيانُ بنُ مَعْمَر معه امرأتهُ حَسَنة.
* عامرُ بيُ ربيعة معه امرأته ليلىٰ بنتُ أبي حثمة.
* أبو سبرةَ بنُ أبي رهم معه امرأته أمُّ كلثوم بنتُ سُهيل بن عمرو.
* السّكرانُ بنُ عمرو معه امرأتهُ سودةُ بنتُ زمعة.
* مالكُ بن ربيعة بن قَيس معه امرأتهُ عمرةُ بنتُ أسعد العامريّة.

انظر: (عيون الأثر ١/٢٠٩ ـ ٢١٢) و(نهاية الأرب ١٦/٢٤١ ـ ٢٤٧) مع الجمع والتصرف.

(١) انظر: نهاية الأرب (١٦/٢٤١)، وعيون الأثر (١/٢٠٩).

* وفي الحبَشَةِ أقامَ المسلمونَ عند النَّجاشي بخيرِ دَارٍ ، مع خَيرِ جارٍ ، وخيرِ منزلٍ.

* وفي الحبشةِ وعلىٰ أرضها وُلدَتْ أمَةُ بنتُ خَالِدِ بنِ سعيد بن العاص القرشيّة الأمويّة المكيّة الحبشيّة المولد[1] . وهي معدودةٌ منْ صغارِ الصَّحابة.

* وهكذا شاءَ اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ أن تكونَ ولادةُ أمة بنت خالد هنالك مع ثُلَّةٍ منْ بناتِ[2] وأبناءِ الصَّحابة الكرام ـ رضي الله عنهم جميعاً ـ ؛ كما أنَّ أخَاهَا سعيدَ بنَ خالد قد وُلد في الحبشةِ أيضاً[3] .

* ولِدتْ أمةُ ابنةُ سعيدٍ علىٰ الفِطْرةِ ، وراحَ أبواها يغذِّيانها بلبِّ الإيمانِ ، ويغْذُوانها بما حَفَلَتْ سفرتُهما منْ أطايبِ قَصَصِ المسلمين ، وهجرتهم إلىٰ

---

(١) سير أعلام النبلاء (٣/ ٤٧٠ ـ ٤٧١) ، وغوامض الأسماء المبهمة الواقعة في متون الأحاديث المسندة لابن بشكوال (ص٥٩٨ ـ ٩٩٩) خبر رقم (٢٠٥) ، وصحيح البخاري (٨/ ٩٧) ، ومسند الحميدي (٢/ ١٦١) برقم (٣٣٦) ، وأسد الغابة (٦/ ٢٤) و(٦/ ٣٢٥) ، والاستيعاب (١٢/ ٢١٥) ترجمة رقم (٣٢٣٩) ، (١٣/ ٢١٥) ترجمة رقم (٣٥٤٧) ، والإصابة (١٢/ ١٣١ و١٣٢) ترجمة رقم (٨٢) و(١٣/ ٢٠٢) ترجمة رقم (١٢٤٣) ، وجوامع السيرة النبوية (ص٥٧ و٢١٧ و٢٨٧ و٣٠٧) ، والدر المنثور في طبقات ربات الخدور (ص٦٧) ، وأعلام النساء (١/ ٨٠) وتهذيب التهذيب (١٠/ ٤٥٤) ترجمة رقم (٨٨٣١) ، وتقريب التهذيب (٢/ ٨٥٥) ترجمة رقم (٨٨٣١) ، والدرر في اختصار المغازي والسير (ص٢٠٦) ، والمسند (١٠/ ٢٩٩ و٣٠٠) ، والرياض المستطابة (ص٣٣٥ و٣٣٦) وغيرها.

(٢) ومن بنات الصَّحابة اللائي وُلدنَ في الحبشةِ أيضاً:
زينبُ بنت أبي سلمة ، وعائشةُ وزينبُ وفاطمةُ بناتُ الحارث بن خالد بن صخر. (عيون الأثر ١/ ٢١٠ و٢١١) ، (نهاية الأرب ١٦/ ٢٤٢ و٢٤٤).

(٣) وممن وُلِد في الحبشة أيضاً منْ أبناءِ الصَّحابة:
عبدُ الله ومحمدُ وعونُ أبناء جعفر بن أبي طالب ، وأمُّهم أسماءُ بنتُ عُميس.
وعبد الله بن المطلب بن أزهر ، وأمُّه رملةُ بنتُ أبي عوف.
وموسىٰ بنُ الحارث بن خالد ، وأمه ريطةُ بنتُ الحارث التيمية.
ومحمدُ والحارث ابنا حاطب بن الحارث الجمحي. (عيون الأثر ١/ ٢٠١ و٢١١).

الحبشةِ ، كما حدَّثاهَا عنِ الحبيبِ الأعظمِ والنَّبي المفخَّم محمّد ﷺ.

* وهناكَ في أرضِ الحبشَةِ درجتْ أمَةُ ابنةُ سعيدٍ لتجدَ مَنْ حَوْلَها مِنْ أترابِها قد عَرفْنَ مكانةَ النَّبيِّ ﷺ وقَدْره ، وعرفْنَ مكانةَ هذا الدِّين القَويم ، الذي أرسلَه اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ بهِ ليخرجَ النَّاسَ منَ الظُّلماتِ إلىٰ النُّورِ.

أمَـةُ وَحُلُـمُ الـطُّفُـولـةِ:

* في ظلالِ النَّجاشي وعَدْلهِ وحلمهِ ، عاشَ المسلمون المهاجرون إلىٰ الحبشةِ عيشةً طيِّبةً ، فقد حمدُوا جوارَ النَّجاشي [1] ، وعبدوا اللهَ لا يخافونَ علىٰ ذلكَ أحَداً.

* وكانتْ أمةُ تنظرُ بعينَيْها الصَّغيرتَيْن إلىٰ أبويها اللذَيْنِ هاجرَا إلىٰ هذهِ الأرضِ فِراراً منَ الجاهليةِ ، وقد تركَا وراءهُما كلَّ وشائجِ القُربىٰ ، وعَمِلا علىٰ مرضاةِ اللهِ ورسوله ، ليفوزا بنعيمٍ مقيمٍ عند مليكٍ مُقْتَدر.

* وكانَ خالدٌ وزوجُه أمينةُ يرويان لابنتهما أمَةَ نبأَ إسلامهما ، وكانتْ أمةُ تُصغي إلىٰ حديثِ والدَيْها العَذْبِ الذي يداعِبُ أوتارَ قلبها الصَّغير ، الذي باتَ يخفقُ بمحبَّةِ اللهِ ورسولهِ ، ومحبة الإسلام.

* وذاتَ عشية دخلَ خالدُ بنُ سعيد منزلَه ، فألفىٰ صغيرتَه أَمَة تنتظره ، كيما يروي لها قصَّة إسلامِهِ.

* وفي دفءِ الحنانِ وهَمْسِ الحبِّ الأبويّ ، راحَ خالدُ بنُ سعيدٍ ـ رضي

---

(١) وفي ذلك يقولُ عبدُ اللهِ بن الحارث بنِ سَهْم ، حينما أَمِنَ هو والمسلمون بأرضِ الحبشَة ، وحَمدُوا جوارَ النّجاشي أبياتاً منها:

يَــا راكبــاً بلِّغَــنْ عنِّــي مُغَلْغَلَــةً	مَـنْ كـانَ يـرجُـو بـلاغَ اللهِ والـدِّيـنِ
كـلُّ امـرىءٍ مِـنْ عبـادِ اللهِ مُضطهـدٌ	ببطـــنِ مكـــةَ مَقهُـــورٍ ومفتـــونِ
أنَّــا وَجْــدنــا بــلادَ اللهِ واسعــةً	تنجـي مـنَ الـذُّلِّ والمخـزاةِ والهـونِ

(السيرة النبوية ١/ ٣٣٠ و٣٣١).

الله عنه ـ يحكي لطفلتِهِ أمَة؛ قصَّة حُلُمٍ رآهُ ، وعندها سارعَ إلىٰ الإيمانِ باللهِ ورسولهِ عُقَيب ذلك.

* قال خالدٌ: يا بُنيّةُ ، لمَّا كُنْتُ في مكةَ بينَ أهْلي وإخوتي وعشيرتي ، كانتْ أنسامُ الإسلامِ تهبُّ علىٰ أسماعِنا ، وتملأُ الأجواءَ بعِطْرِ أريجها وطِيْبِها ، وترطِّبُ القلوبَ بِلِيْنِها ، وكنتُ أسْمَعُ وأرىٰ ذلكَ؛ وكنتُ لا أعطي بالاً لما يَحْدُثُ.

* وفي ليلةٍ منَ الليالي ، ذَهَبْتُ إلىٰ النّوم ، ولما استغرقتُ في نومي ، رأيتُ ـ يا بُنية ـ كأنَّهُ وُقِفَ بي علىٰ حافَّةِ نَارٍ عظيمةٍ ، وكان أبي سعيد بنُ العاص يدفعُني نحوَهَا ، وهو يريدُ أنْ يرميَني في تلكَ النَّار المشتعلةِ. وخفتُ يا بُنيّتي خوفاً عظيماً ، ورحتُ أصرخُ وأصْرخُ بصوتٍ عالٍ وأصيحُ من شدَّةِ الخوفِ ، وإذا بمحمدٍ رسولِ اللهِ ﷺ يأتي فيمسكُني من ثوبي ، ثمَّ يبعدني عنِ النَّار ، وعن تلكَ الحفرةِ الرَّهيبةِ.

* كانت أمةُ ابنةُ سعيد تسمعُ هذا الحديثَ العذبَ بشوقٍ عظيمٍ ، ثمَّ طَلَبْت منْ والدها أنْ يكملَ لها بقيَّة الحكاية الحلوة ، فأجابَها والدُها: بكلِّ الحبِّ يا أمَة ، اسمعي بقية القصَّة:

* لما استيقَظْتُ في الصَّباح ، ظلَّ الحلُم ماثلاً أمامي ، ولم أعرفْ تفسيره ، فقلتُ: أذهبُ إلىٰ أبي بكر الصِّدِّيق ـ رضي الله عنه وأرضاه ـ فهو أعْبَرُ النَّاسِ للرُّؤيا ، ويعرفُ تفسيرَ الأحلامِ ، ثمَّ إنِّي لبستُ ثيابي وتوجَّهْتُ نحو بيته ، وطرقتُ بابَه ، فخرجَ ، فسلَّمْتُ عليه ، وحدَّثْتُه بما رأيتهُ في نومي ، فقال لي ـ رضي الله عنه ـ باسماً مُستبشراً: يا خالدُ ، لقد أرادَ اللهُ بك الخيرَ والنَّجاةَ منَ النَّارِ ، وهذا رسولُ اللهِ ﷺ قريبٌ ، فاذهبْ واتَّبعْهُ؛ وإنَّك ستتبعهُ في الإسلامِ الذي يبعدُك عنِ النَّار ، وعن الوقوعِ فيها ، وإنَّ أباكَ سعيدٌ واقعٌ فيها ، فانْجُ يا خالدُ باتِّباعِ الإسلام.

* قالتْ أمَةُ: وهل ذهبتَ إلىٰ النَّبيِّ ﷺ؟! قال خالدُ: نعم يا بُنيتي ، عند ذلك أسرعتُ إلىٰ رسولِ الله ﷺ ، وشهدتُ عنده أنْ لا إلهَ إلا اللهُ ، وأنَّ

محمداً رسولُ اللهِ ، وصرتُ منَ المؤمنين ، وأَسْلَمتْ كذلك أمُّك ، وفتحَ اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ علينا بالإسلامِ ، فصِرْنَا نرىٰ النُّورَ والهدىٰ منْ خلالِ هذا الدِّين ، وبذلك تحقَّقَ حُلمي ، ونجّاني اللهُ برسولِ اللهِ محمّد ﷺ[1] .

* وبأسلوبٍ بريءٍ لطيفٍ قالت أمَةُ لأَبيها: لماذا لم يسلمْ أبوك ، ولم يؤمِنْ برسولِ الله ﷺ؟! . فقال خالدُ وقد اغرورقتْ عيناهُ بدموعِ الخشيةِ منَ اللهِ ـ عزَّ وجلَّ ـ: يا بنية ، إنَّ جدَّك سعيدَ بنَ العاص كانَ منْ أكابرِ رجال قُريش[2] ، وكانَ مسموعَ الكلمةِ فيهم ، له قَدْرٌ ومنزلةٌ عندهم وكان يُعْرَفُ باسم «أبو أُحيحة» ، وكانَ ذا عَقْلٍ وفكْر ، لكنَّ الشَّيطانَ مَلَكَ عليه طريقة ، فَغَضِبَ لإسْلامي غَضَباً شديداً ، وضربني وشَتَمني ، وطلبَ منِّي أنْ أتركَ محمّداً ﷺ ، وأتركَ دينَه الجديد الذي يخالفُ دينَ الآباءِ والأجدادِ ، ويسخرُ منَ الأصنامِ كبيرِها وصغيرِها ، منَ اللاتِ والعزَّىٰ ، ومناةَ الثالثة الأخرىٰ ، وهُبَل ، وغيرها؛ ولكنِّي رفضتُ ذلك يا بنيتي رفْضاً شديداً ، وثَبَتّ علىٰ دِينِ اللهِ ـ عزَّ وجلَّ ـ ، وعلىٰ اتِّباعِ رسولِ الله ﷺ .

فقالت أمَةُ: وهلْ تركَكَ أبوكَ تعبدُ اللهَ؟

قال خالدٌ: يا بُـنيّة ، لقد حذَّرَ أبي ـ إخْوتي ـ أعمامَك الثَّلاثةَ وهم: أَبانُ ، وعمرو ، والحكمُ[3] أنْ يكلِّمُوني ، أو يجالسُوني ، وقال لهم: واللهِ إنْ رأيتُ أحَداً منكم يكلِّمُ خالداً لصَنَعْتُ فيه كذا وكذا ، وحرَمْتُه الطَّعَام .

* ثم إنَّ أبي مَنَع عنِّي الطَّعام ، وحَرمني منَ الجلوسِ في البيتِ ، وقال لي: اذهبْ يا لئيمُ حيثُ شئتَ ، فواللهِ لا أطعمُكَ الطَّعام؛ ولكنِّي قلتُ له:

---

(١) عن طبقات ابن سعد (٤/ ٩٤) بتصرف ، دون الخروج عن لبّ القصة الحقيقية لإسلام خالد بن سعيد.
(٢) انظر هذا القول في الإصابة (١/ ١٥) ترجمة (٢).
(٣) منَ الجديرِ بالذّكر أنَّ هؤلاء الثّلاثة ، قد أسلموا فيما بَعْد ، وكانوا منْ أعلامِ الأعلام ومنْ فُرسان المدرسة المحمدية ، وقد أسلم عمرو بنُ سعيد وهاجرَ إلىٰ الحبشةِ مع أخيه خالد ، فرضي الله عنهم جميعاً.

يا أبي إنْ مَنَعْتَنِي القوتَ ، فإنَّ اللهَ ـ عزَّ وجلَّ ـ يرزقُني ما أعيشُ به مع زَوْجَتي المؤمنة[1] .

* كانتَ أمةُ بنتُ خالد تسمعُ ذلك ، وعيناها الصَّغيرتانِ تجوسَان المكانَ ، واقتربتْ منْ أبيها ، وهَمَسَتْ في أذُنِه قائلة : متى كانَ إسلامُك يا أبي ؟ !

* وضمَّ خالدٌ ابنته إلىٰ صَدْرِهِ وقال : كنتُ مع الأوائِلِ الذين نعمُوا بالإيمان ، وأسلمَ معي عمُّك عمرو بن سعيد ، وها هو معنا في الحبشَة ينعمُ بجوارِ النَّجاشي ، ولكنَّ عمَّك أبانَ بنَ سعيد قد تأخر إسلامُه إلىٰ الآن[2] ، وقال لي ولأخي عمرو يُعاتِبُنَا علىٰ إسلامِنا عِتاباً شَديداً :

أَلا لَيْتَ مَيْتاً بالظُّرَيْبَةِ[3] شَاهِدٌ ... لما يَفْتري في الدِّيْن عمروٌ وخَالدُ
أَطَاعَا بِنَا أَمْرَ النِّساءِ فأَصْبَحا ... يُعينَانِ مِنْ أعدائِنا مَنْ نُكَايِدُ

* وعندها أجابَه عمُّك عمرو بأدبِ الإسلامِ ، وبالأخلاقِ النَّبويّة التي تعلَّمَها منْ رسولِ اللهِ ﷺ ، ثمَّ نَصَحه فقال له :

أَخي مَا أَخي لا شَاتِمٌ أنا عِرضُه ... ولا هوَ عَنْ سوءِ المقَالةِ مُقْصِرُ
يقولُ إذا شكَّتْ عَلَيهِ أُمُورُه ... أَلا ليتَ مَيْتاً بالظُّريبةِ يِنْشُرُ
فَدَعْ عنْكَ مَيْتاً قَدْ مَضَى لسبيلهِ ... وأَقْبِلْ علىٰ الحيِّ الذي هو أَقْفَرُ[4]

---

(١) عن السيرة الحلبية (١/ ٤٥٤) بشيء من التصرف .

(٢) منَ الجدير بالذِّكرِ أنَّ أبانَ بن سعيد بنِ العاص الأمويّ القرشيّ قَدْ أسْلَمَ قُبيلَ فتح مكةَ ، وهاجرَ وهو الذي أجارَ عثمانَ بنَ عفّان ـ رضي الله عنه ـ حينَ بعثَهُ رسولُ اللهِ ﷺ إلىٰ قريشٍ في عام الحديبيّة ، وحَمَلَهُ علىٰ فرسِهِ ، حتى دخلَ مكةَ وقال :
أَقْبِلْ وأَدْبِرْ ولا تَخَفْ أحَداً ... بنو سَعَيدٍ أعِزَّةُ الحَرمِ
ثمَّ أسلمَ واستُشْهدَ بأجنادين ـ رضي الله عنه وأرضاه ـ . (نَسب قريش ص١٧٥) .
ومنَ الجدير بالذِّكر أنَّه كان لأَبانَ أخَوان وهما : العاص وعُبيدة ، وقد قُتِلا يومَ بَدْرٍ مشركين ، ونجا أبانُ فأسلمَ أيّام خيبر قُبيل الفتح .

(٣) «الظُّريبة» : ناحية من الطَّائف .

(٤) انظر : نَسب قريش (ص١٧٥ و١٧٦) ، والإصابة (١/ ١٥و١٦) ترجمة رقم (٢) مع =

* ثمَّ إنَّ أمَةَ سألتْ أباهَا عن مصيرِ جدِّها أبي أُحيحة فقالت: يا أبي ما أخبارُ جدّي ، وهل هَدَاهُ اللهُ إلىٰ الإسلامِ ، أم ظلَّ علىٰ كُفْره؟!

فقالَ خالد وعلاماتُ الحبِّ الأبويّ تنبعثُ من وجهِهِ: يا بنية ، إنَّ جدَّك ظلَّ علىٰ كُفْرِه وكِبْرِه ، وقَدْ قال لعمِّك عمرو لمَّا أسْلَم:

أَلا لَيْتَ شِعْري عَنْكَ يا عمروُ سَائِلاً ... إذا شَبَّ واشتدَّتْ يَدَاهُ وسُلِّحا[1]

أَتَتْرُكُ أَمْـر القـومِ فيـهِ بـلابـلٌ[2] ... تكشّف غيظاً كانَ في الصَّدر موجحا[3]

* وعلىٰ الرَّغمِ منْ أنَّ جدَّك كان مِنْ أعلياءِ قُريش ، ومنَ المعدودين فيهم ، إلاَّ أنَّه لمْ يُسْلمْ ، وظلَّتْ أطيافُ الجاهليةِ تلعبُ به ذَاتَ اليمينِ وذاتَ الشِّمالِ ، وكانَ إذا لبسَ عمامتَه لم يعتمَّ قرشيٌّ احتراماً له ، وفي هذا قالَ أحدُ الشُّعراءِ له:

أَبــو أُحيحــةَ مَــنْ يعتــمَّ عِمَّتَــه ... يُضْـرَبْ وإنْ كـانَ ذَا مـالٍ وذَا عَـدَدِ

* وكان جدُّك أبو أحيحةَ يظُنُّ أنَّ النَّاسَ ستحترمُ مكانتَه ، ويستطيعُ أنْ يصدَّ عنْ سبيلِ اللهِ؛ ولكنَّ الذين لامَسَتْ أنوارُ اليقينِ قلوبهَم أعرضُوا عنه ، وعن عمامِته التي قال فيها أحدُ الشُّعراء أيضاً:

وكَــانَ أبــو أُحَيحَــة قَــدْ عَلِمْتُــم ... بِمَكَــةَ غَيــرَ مُهْتَضَــمٍ ذَميــمِ

إِذَا شَــدَّ العِصَــابــةَ ذاتَ يــومٍ ... وقـامَ إلـىٰ المجـالـسِ والخُصُـومِ

لَقد حَرُمَتْ علىٰ مَنْ كانَ يمشي ... بمكــةَ غيــرَ مُحتَقَــرٍ لئيــمِ

* وماتَ جدُّكِ كافراً ، وكانَ الحِلْمُ الذي رأَيتُهُ في المنَامِ حقّاً ، فقد نجوتُ أنَا بالإسلامِ ، وباتِّباعِ النَّبيِّ الأمِّي محمَّدٍ ﷺ.

قالت أمَةُ: الحمدُ لله يا أبي علىٰ نعمةِ الإيمان.

= الجمع والتَّصرُّف. وانظر: السِّيرة النَّبويَّة (٤/ ٩) طبعة دار المنار بالأردن.

(١) «سُلِّح»: إذا أُلْبِس السِّلاحَ.

(٢) «بلابل»: تخاليط واضطراب.

(٣) «موجحاً»: مستوراً ، يقال: بيني وبينه وجاح: أي: ستر.

أَمَـةُ فـي المَـدينـةِ وَدَعَـوةٌ نَبـويّـةٌ مُبَـارَكَـةٌ :

* أقامَ المهاجرونَ المكيُّون في أرضِ الحبشةِ بِضْعَ عشرةَ سَنَةً ، عاشَتْ أمةُ منها هناك بِضْعَ سنين ، وحانتْ عودةُ المهاجرينَ إلىٰ المدينةِ حينما بعثَ رسولُ اللهِ ﷺ عمرو بن أميّة الضَّمريّ إلىٰ النَّجاشي ، فحملَهم في سفينتَيْنْ وعند وَداعِهم حمَّلَ النَّجاشي المهاجرين السَّلام إلىٰ رسولِ اللهِ ﷺ ، وسمعَتْه أمةُ وهو يُوصيهم بنَقْلِ السَّلام ، ووعىٰ عَقْلُها الصَّغيرُ وذاكرتُها اللطيفةُ كلماتِ النجَّاشي النَّدية .

* وصادفَ المهاجرون رسولَ اللهِ ﷺ في خَيْبَرَ ، وقد فرغَ منْ فتحِها سنةَ سَبع منَ الهجرة ، فأَسْهَمَ لهم منَ الغنائِم ، وعَادُوا أجمعينَ إلىٰ المدينةِ المنوَّرةِ تحتَ لواءِ القائِدِ الرَّؤوفِ الرحيمِ محمّد ﷺ .

* وفي المدينةِ المنوَّرةِ راحتْ بناتُ الصَّحابةِ اللاتي وُلِدْنَ في الحبشةِ يحظَيْنَ برعايةِ وعنايةِ رسولِ اللهِ ﷺ ، وكانت أمَةُ بنتُ خالدٍ ممن تأَلَّقْنَ بينَ بناتِ الصَّحابةِ ، وحُزْنَ شَرفاً عظيماً عند رسولِ اللهِ ﷺ ، وفُزْنَ بصحبَتهِ الشَّريفةِ ، فكانتْ أمَةُ منْ بناتِ الصَّحابةِ الصَّحابياتِ ، فأكرمْ بها منْ مَنزِلة! .

* ومنَ الجديرِ بالذِّكْرِ أنَّ أمةَ عُرفَتْ بكنيةٍ لها وهي «أمِّ خالد» ، حيثُ اشتهرتْ بهذهِ الكُنية حينما أَلْبَسَها رسولُ اللهِ ﷺ ثوباً جديداً ، فقد كانَ النَّبيُّ الكريمُ يُولي بناتِ الصَّحابةِ وأولادَهم الصِّغارَ كلَّ عنايةٍ وكلَّ عطْفٍ ، وذلك تَقْديراً لأحدِ أبويهما أو لكليهما ، فقد كانتْ أمَةُ ممن قدَّرها رسولُ اللهِ ﷺ وقدَّرَ أبويها ، وعرفَ لهم سابقَتهما وهجرتهُما إلىٰ اللهِ ورسولهِ ، فكانتْ ابنتهُما أمَةُ ممن حظيتْ بهديّةٍ نبويّةٍ ، ودعوةٍ محمديّة مباركةٍ ، صاحَبَتْها إلىٰ آخرِ نَفَسٍ منْ حياتِها .

* فقد أخرجَ البخاريُّ بسندِه عن أمِّ خالد بنتِ خالدِ قالت : أُتي رسولُ اللهِ ﷺ بثيابٍ فيها خميصةٌ سوداءُ ، فقال : «مَنْ ترونَ نكْسُو هذه الخميصةَ»؟ فأسْكتَ القومُ ، فقال : «ائتوني بأمِّ خَالد» .

* فأُتيَ بي إلىٰ النَّبيِّ ﷺ ، فَأَلْبَسَنِيها بيدهِ وقال : «أَبلي وأَخْلفي»[1] مرتَيْن ـ ولهذا طال عمرها كما سنعرفُ فيما بعد إن شاء الله ـ .

* وفي روايةٍ أخرىٰ للبخاري أيضاً أنَّه قال : «أَبلي وأَخْلقي ، ثمَّ أبلي وأخلقي ، ثمَّ أبلي وأخلقي» .

* والعربُ تطلقُ ذلك وتريدُ الدُّعاءَ بطولِ البقاءِ للمخاطبِ بذلك ، أي أنَّها تطولُ حياتُها حتَّىٰ يبلىٰ الثَّوب ويخْلَق .

* وفي روايةٍ أخرىٰ قالت أمُّ خالد : فألْبَسنيها بيدهِ وقال : «أبلي وأخلقي» يقولها مرتَيْن أو ثلاثاً ؛ وجَعَلَ ينظرُ إلىٰ عَلَمٍ في الخميصةِ أصفرَ ، أو أحمرَ ، فقال : «هذا سَنَا ياأمَّ خالد ، هذا سنا يا أمَّ خالد» ، ويشيرُ بأصبعهِ إلىٰ العَلَم[2] .

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب (١٠/ ٣٥٦) ، باب : مَنْ تركَ صبيّةَ غيرهِ حتى تلعبَ به أو قبّلَها أو مازحها ، وأخرجَه في اللّباس (١٠/ ٢٥٦) ، باب الخميصة السَّوداء ، وفي الجهاد (٦/ ١٦٨) ، باب من تكلَّم بالفارسيةِ أو الرَّطانة ، وأخرجه أحمد (٦/ ٣٦٤ و٣٦٥) ، وأبو داود برقم (٤٠٢٤) ، وابن سعد في الطبقات (٨/ ٢٣٤) .
وهذا منْ هَدْيهِ ﷺ في اللِّباسِ ؛ فقد أخرجَ أبو داود بسَندٍ صحيح عنْ أبي نضرة قال : كانَ أصحابُ رسولِ اللهِ ﷺ إذا لبسَ أحدهُم ثَوباً جَديداً قال : تُبْلي ويُخلِفُ اللهُ . أخرجه أبو داود برقم (٤٠٢٠) .
وأخرجَ ابنُ ماجه في اللِّباسِ أنَّه ﷺ رأىٰ علىٰ عمرَ ثوباً فقال : «أجديدٌ هذا أم غَسيل»؟
فقال : بل غسيلٌ .
فقال : «البسْ جَديداً ، وعشْ حميداً ، ومُتْ شهيداً» أخرجه ابنُ ماجه برقم (٣٥٥٨) وأحمد (٢/ ٨٩) .

(٢) أخرجه البخاري في مواضع ، في اللباس برقم (٥٨٢٣ و٥٨٤٥) ، وفي الجهاد والسير برقم (٣٠٧١) ، في الأدب برقم (٥٩٩٣) ، وفي المناقب برقم (٣٨٧٤) .
و«السنا» : بلسان الحبَش : الحسن . وأعتقدُ أنَّ أمَةَ ـ أمَّ خالد ـ قَدْ ظلَّت عندها هذه الخميصة إلىٰ أنْ لقيتْ ربَّها ـ عزَّ وجلَّ ـ ، قال ابنُ إسحاق : فحدَّثَتْني امرأةٌ منْ أهلي أنَّها رأتِ الخميصةَ عند أمِّ خالد . (طبقات ابن سعد ٨/ ٢٤٣) ، (سير أعلام النُّبلاء =

* وفي روايةِ أحمد في مسنده: «سَنَاه سَنَاه يا أمَّ خالد»[1].

* ويبدو أنَّ أمةَ بنتَ خالد ـ رضي الله عنها ـ قد فَهِمَتْ معنىٰ كلمة: «هذا سَنَا» لأنَّها تَرَبَّتْ في الحبشَة، وتعلَّمَتْ لسانَهم، ولأنَّها وُلدَتْ بأرضهم، ونشأتْ تعرفُ لغتَهم هي وأترابها.

* ولعلَّ أمةَ قد تذكَّرت في هاتيكَ اللحظاتِ، ما أودعه النَّجاشي في أعماقِ المهاجرين، منْ تبليغهم السَّلام إلىٰ رسولِ الله ﷺ، فسلَّمت هي الأخرىٰ عليه.

* ذكر ابنُ حَجرٍ وغيرهُ أنَّ أمةَ ابنةَ خالد قالتْ: سمعتُ النَّجاشي يقولُ لأصحابِ السَّفينتين: أقرِئوا رسولَ اللهِ ﷺ عنِّي السَّلام.

قالتْ أمةُ: فكنتُ فيمن أَقْرأه السَّلامَ منَ النَّجاشي[2].

مـنْ صَاحِبَـاتِ رِوَايـةِ الحَدِيـثِ:

* ممَّا يجعلُ أمةَ بنت خالدٍ منْ ذواتِ المكارمِ، وذواتِ الشَّأْنِ في عقْدِ الصَّحابة الكريم، أنَّها تُنْظَم معَ أَبيها وأُمِّها وأعمامِها الثَّلاثة في عدادِ الصَّحابةِ الكرام ـ رضي الله عنهم جميعاً ـ.

* وأمةُ ـ رضي الله عنها ـ واحدةٌ منْ بناتِ الصَّحابةِ الرَّاوياتِ للحديث النَّبويِّ، فقد كانتْ منَ البَناتِ الصَّحابيات اللواتي وَعَيْنَ الحديثَ الشَّريفَ، ورويْنَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ ورُوي عنهنَّ.

* روتْ عنِ النَّبيِّ ﷺ سبعةَ أحاديث، فهيَ مِنْ أصحابِ السَّبعة[3].

= ٤/٤٧١) وكان ﷺ يلطف بها، ويداعبها برطانة الحبشة. (الرياض المستطابة ص٣٣٦).

(١) المسند (١٠/٢٩٩) برقم (٢٧١٢٥).

(٢) الإصابة (١٢/١٣١) ترجمة رقم (٨٢)، وانظر: طبقات ابن سعد (٨/٢٣٤)، وسير أعلام النبلاء (٤/٤٧١).

(٣) أصحابُ السَّبعةِ: مَنْ روىٰ عنِ النَّبيِّ ﷺ سبعةَ أحاديث، وهم كُثُر منَ الرِّجالِ، أمَّا مِنَ النِّساء فخمسُ نِسْوةٍ، وهنَّ: =

* روىٰ لها البخاريُّ حديثَين ، وروىٰ لها اثنان منْ أصحابِ السُّنَن وهما : أبو داود؛ والنَّسائي ، كما ذكر ذلك صاحب الرياض المستطابة[1] .

* وروىٰ عنها: سعيدُ بنُ عمرو بن سعيد بنِ العاص ـ وهو ابنُ عمِّها عمرو ـ ، وكذلك روىٰ عنها: موسىٰ وإبراهيمُ ابنا عقبةَ ، وكريبُ بن سليم الكنديّ وغيرهم[2] .

* ومنْ مروياتِها ما أخرجه البُخاريُّ بسنده عنْ راويتها موسىٰ بنِ عقبة قال: سمعتُ أمَّ خالدَ بنتَ خالد ، ـ قال: ولم أسمعْ أحداً سَمِعَ منَ النبي ﷺ غيرها ـ قالت: سمعتُ النَّبيَّ ﷺ يتعوَّذُ منْ عذابِ القَبْر[3] .

* وفي روايةٍ قالت: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يستعيذُ منْ عذابِ القبر[4] .

= * جُويريّةُ أمُّ المؤمنين.
* أمُّ حَرَام بنتُ مِلْحانَ.
* أمَةُ بنتُ خالدِ بن سعيد.
* زينبُ بنتُ أمِّ سلمة أمِّ المؤمنين.
* سلمة مولاة رسول اللهِ ﷺ.

(1) الرياض المستطابة (ص٣٣٦).
(2) انظر: تهذيب التهذيب (١٠/ ٤٥٤) ترجمة رقم (٨٨٣١) ، وأسد الغابة (٦/ ٢٤) ترجمة رقم (٦٧٢٤) ، والاستيعاب (١٢/ ٢١٥). بينما ذكر الذهبي ـ رحمه الله ـ أنها روت حديثين؛ أحدهما رواه البخاري ، والثاني رواه الطيالسي. (سير أعلام النبلاء ٤/ ٤٧١).
(3) أخرجه البخاري برقم (٦٣٦٤ و١٣٧٦) ، وأحمد في المسند (١٠/ ٢٩٩ و٣٠٠) برقم (٢٧١٢٤ و٢٧١٢٦) ، والحميدي(٢/ ١٦١) برقم (٣٣٦) ، وانظر: أسد الغابة (٦/ ٢٤) ترجمة رقم (٦٧٢٤) ، والاستيعاب (١٢/ ٢١٥) ترجمة رقم (٣٢٣٩).
(4) انظر: غوامض الأسماء المبهمة (ص ٥٩٩).

مـــنْ مَـكَـارِمهـــا وذِكْريـاتِهَـا :

* لمَّا شَبَّتْ أمةُ بنتُ خالد ـ رضي الله عنهما ـ عنِ الطَّوقِ ، وأصبحتْ في عِدادِ النِّساء ، تزوَّجَها فارسُ الإسلامِ ورأسُ الأُسرة الزُّبيريةِ وذِروتُها ، الزُّبيرُ بنُ العوَّامِ حواريَّ رسولِ اللهِ ﷺ وابنُ عمَّته صفيةَ ، فولَدَتْ للزبير : عمراً وخالداً[1] ، وبخالدٍ ابنها هذا ، كانتْ تُكنىٰ ، وكانَ ابناها من خيارِ أبناءِ الصَّحـابـة ، ومـن خيـارِ التَّـابعيـن ، ومـن خيـارِ بنـاتِ الصَّحـابـة وأزواجِ الصَّحابة[2] .

* ولعلَّ منْ أبرزِ مكارمِ أَمَة ابنة خالد ـ رضي الله عنهما ـ أنَّها قد أتحفتِ السِّيرةَ النَّبويّةَ بأخبارٍ حِسَانٍ ، كما غَذَّتْ كُتُبَ الطَّبقاتِ بعددٍ منَ الفصولِ المهمّة عن آلِها وذويها وأقْربائها ، ولعلَّ ذاكرتها ظلَّتْ تحتفظُ بكثيرٍ منَ الأخبارِ التي حدَّثَها بها أبوها في أرضِ الحبشةِ ، فروتْه لنا ، ليكونَ منَ الأَنْوارِ السَّاطعاتِ في سيرتها وسيرةِ أبيها خالدِ بنِ سعيدٍ ـ رضي الله عنه ـ بل وفي السِّيرةِ النَّبويةِ .

---

(١) كانَ لسيِّدنا الزُّبير بن العوَّام ـ رضوان الله عليه ـ عدةُ أولادٍ نُجباء ، وكان قد سمَّاهم بأسماءِ أصحابه منْ أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ ، ومنْ فرسانِ عَصْر النُّبوَّة ، ومنَ الذينَ تخرجوا في المدرسةِ المحمدية ، وكانَ يقول كما روىٰ عنه ابنه عروةُ بنُ الزُّبير : إنِّي أسمي بنيَّ بأسماءِ الشُّهداء لعلَّهم أنْ يُسْتشهدوا؛ فسمَّىٰ عبدَ اللهِ : بعبدِ اللهِ بنِ جَحْش؛ والمنذرَ : بالمنذرِ بنِ عمرو؛ وعروةَ : بعروةَ بنِ مسعود؛ وحمزةَ : بحمزةَ بنِ عبدِ المطلب؛ وجعفراً : بجعفرَ بنِ أبي طالب؛ ومُصْعباً : بمُصْعَبَ بنِ عُمير؛ وعُبيدةَ : بعُبيدة بنِ الحارث؛ وخالداً : بخالدِ بنِ سعيد ، وعَمْراً : بعمرو بن سعيد بن العاص ـ رضي الله عنهم جميعاً وحَشَرنا في معيّتهم ـ عن (طبقاتِ ابن سعد ٣/ ١٠١) بتصرف .

(٢) زوجاتُ الزُّبير بن العوام ـ رضي الله عنه وعنهنَّ ـ :
أسماءُ بنتُ أبي بكر ـ وهي أوَّلهنَّ ـ ؛ وعاتكةُ بنتُ زيدٍ أختُ سعيد بن زيد أحد العشرة المبشرين بالجنة ، وأمةُ بنتُ خالد بن سعيد أمُّ خالد هذه ، وأمُّ مُصْعَب الكلبية .

* ومنَ الأخبارِ التي تحدَّثَتْ أمةُ بنتُ خالد بها عنْ أبيها أنَّها قالتْ: كانَ خالدُ بنُ سعيد ذاتَ ليلةٍ نائماً قَبْلَ مبعثِ رسولِ الله ﷺ فقال: رأيتُ كأنَّه غَشِيَتْ مكةَ ظلمةٌ حتَّى لا يبصرُ امرؤٌ كفَّه ، فبينما هو كذلكَ ، إذْ خَرَجَ نورٌ منْ زمزمَ ، ثمَّ عَلا في السَّماءِ ، فأضاءَ في البيتِ ، ثمَّ أصابَ مكةَ كلَّها ، ثمَّ تحوَّلَ إلىٰ يثربَ ، فأصابَها حتى إنِّي لأَنْظُرُ إلىٰ البُسْرِ في النَّخْلِ ، فاستيقظتُ فقصصتُها علىٰ أخي عمرو بنِ سعيد. وكان جزْلَ الرَّأيِ ـ فقال: يا أخي إنَّ هذا الأمْرَ يكونُ في بني عبد المطلب ، ألا ترىٰ أنَّه خرجَ مِنْ حَفْرِ أبيهم؟ . ثمَّ إنَّه ذكرَ ذلك لرسولِ اللهِ ﷺ بَعْدَ مَبْعَثِهِ ، فقال: «يا خالدُ ، أنا واللهِ ذلك النُّور ، وأنا رسولُ اللهِ»؛ وقَصَّ عليهِ ما بعثَه الله به ، فأَسْلَم خالد[1] ـ رضي الله عنه ـ.

* وتذكر أمَةُ فضيلةً رائعةً ، وأوَّليَّةً جميلةً مباركةً لأبيها خالد بن سعيد فتقولُ: أبي أوَّلُ مَنْ كَتَب: بسم اللهِ الرحمنِ الرحيم.

هذا وذكرياتُ أمَة بنت خالد ذكرياتٌ هامِسةٌ لطيفةٌ ، تعطي إضاءاتٍ واضحةً للسيرةِ النبويةِ ، وللصَّحْبِ الكرام ، فمن ذكرياتِ هجرتها إلىٰ الحبشةِ ، تروي لنا هذه الخاطرةَ اللطيفةَ عنْ أبيها فتقول:

* كان أبي خامِساً في الإسلام ، وهاجرَ إلىٰ أرضِ الحبشةِ ، وأقامَ بها بضْعَ عشرةَ سنةً ، وولدْتُ أنا بها[2].

* ومنْ ذكرياتِ قاموسِ الهجرةِ الحبشيّةِ عند أمَةَ بنتِ خالد ، هذه الفريدةَ الحلوةَ التي تحكيها عن عمِّها عمرو بنِ سعيد ، وعن صُحْبَتِه ومشَاهِده ومغازِيه واستشهادِه ، فتقولُ: قَدِمَ علينا عمّي عمرو بنُ سعيد أرضَ الحبشة بعد مَقْدمِ أبي بسنتَيْن ، فلم يزلْ هناك حتَّى حُمِلَ في السَّفينتَيْن مع أصحابِ

---

(١) انظر السيرة الحلبية (١/ ٤٥٤).

(٢) انظر: تاريخ الإسلام للذهبي (عهد الخلفاء الراشدين ص٩١) ، وسير أعلام النبلاء (١/ ٤٠٦).

رسولِ الله ﷺ ، فشهدَ عمرو مع النَّبيِّ ﷺ الفَتْح ، وحُنَينَ ، والطَّائفَ ، وتبوكَ ، فلمَّا خرجَ المسلمونَ إلىٰ الشَّام كان فيمنْ خرجَ ، فقُتِلَ يومَ أجنادين شهيداً[1] .

مَعَ سِلْكِ المُعَمَّرَاتِ مِنْ بَنَاتِ الصَّحَابةِ :

* لعلَّ أمةَ بنتَ خالد إحدىٰ بناتِ الصَّحابة اللواتي عُمّرنَ دهْراً طويلاً ، وأمةُ عاشتْ دهْراً وكانتْ منَ المُعمَّرات ، وذلك ببركةِ دعاء رسولِ الله ﷺ لها يومَ أَلْبَسَها الخميصةَ بُعيدَ مَقْدمِها منَ الحبشَةِ ، ويومها قال لها : «أَبلي وأخْلقي» ، والمقصودُ أنْ يطولَ عمرها حتى يبلىٰ الثُّوبُ ويَخْلَقُ .

* ولقدِ استجابَ اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ دعوةَ نبيّه محمدٍ ﷺ لابنةِ هذا الصَّحابي أمّ خالد ، فكانتْ منَ المعمَّراتِ السَّعيداتِ ، ولذلك قال البخاريُّ ـ رحمه الله ـ تعليقاً علىٰ ما ورَدَ في هذا الحديثِ الشَّريفِ : لم تَعِشِ امرأةٌ مثلما عاشتْ هذه[2] .

* وقال ابنُ حجر ـ رحمه الله ـ : عاشتْ أمُّ خالد هذه دهْراً طويلاً حتى أدركها موسىٰ بنُ عقبة .

* وقال الذَّهبيُّ ـ رحمه الله ـ : عُمِّرَتْ إلىٰ قريب عام تِسْعين[3] . وقال الذَّهبي أيضاً عنها : وأظنُّها آخر الصَّحابيات وفاةً ، بقيت إلىٰ أيام سَهْل بنِ سعد ـ رضي الله عنه ـ[4] .

* وإذا علمنا أنَّ سهلَ بنَ سعدٍ السَّاعدي الأنصاريّ هو آخر مَنْ ماتَ منْ أصحابِ النَّبي ﷺ ، وعاشَ مئةَ سنة ، وماتَ في سنةِ (٩١ هـ) ، فإنَّ أمةَ ابنةَ خالد قد عاشتْ إلىٰ أيّامه ، أي : إلىٰ سنة(٩١ هـ) .

---

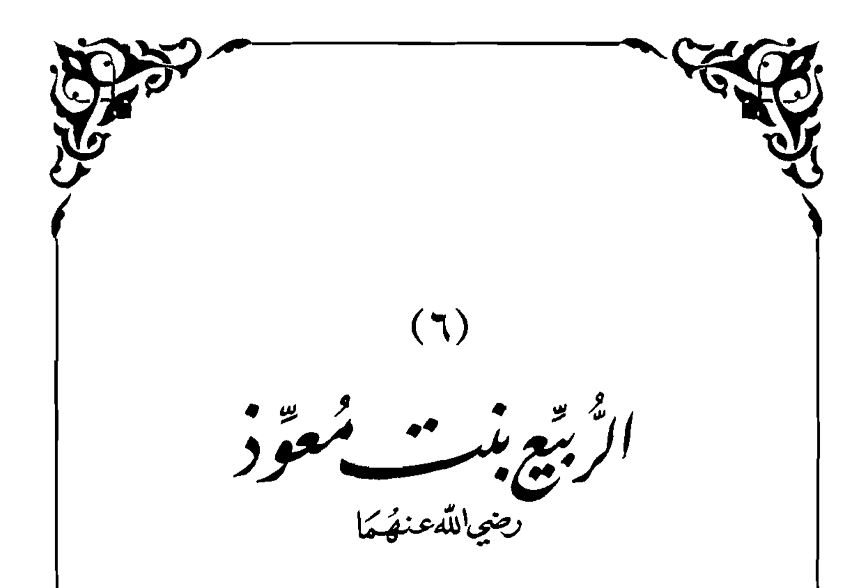
(١) انظر : طبقات ابن سعد (٤/ ١٠١) .
(٢) انظر ذلك في تهذيب التهذيب (١٢/ ٤٥٤) .
(٣) سير أعلام النبلاء (١/ ٢٦٠) ، وقال صاحب الرياض المستطابة : عمّرت كثيراً . (الرياض المستطابة ٣٣٦) .
(٤) سير أعلام النبلاء (٤/ ٤٧١) .

* والظَّاهر أن وفاتهَا كانت في العِقْد الأخيرِ منَ القرنِ الهجري الأوَّلِ خيرِ القرون.

* أمّا عنْ مكانِ وفاتِها، فَلم تُشرِ المصَادِرُ إلىٰ ذلكَ، وأغلبُ الظَّنِّ أنَّ وفاتَها كانتْ في المدينة المنورةِ، واللهُ أعلم.

* رضيَ اللهُ عنْ أمةَ بنتِ خالد، وجعلَها في جنَّات عَدْنِ، تنعمُ في ثيابٍ خُضْرٍ منْ سُندسٍ وإستبرق، معَ الذين أَنْعَمَ عليهم، ورضيَ عنهم؛ ورضيَ اللهُ عن أبويْها، وعن الصَّحابة أجمعين، وحشرنا في معيّتهم، إنَّه سميع عليم، مجيب كريم.

* * *



(٦)

الرُّبَيِّع بنت مُعَوِّذ

رضي الله عنهما

* ملأ ﷺ كفَّها حلياً أو ذهباً ، وقال : «تحلّي بهذا» .
* خصَّها رسولُ الله ﷺ بزيارةٍ ميمونة عند زواجها بعد غزوة بدر .
* لها مواقف وضيئة في مواطن الجهاد وميادين القتال .
* شجاعة ، عالمة ، راوية للحديث النبوي .



مِـــنْ عَـريـنِ الأَنْصَـــار :

* في بيئةٍ عمر الإيمانُ جوانبَها ، وحلَّ الصِّدْقُ والإيثارُ بساحَتِها ، وتَخَلَّلَ الإسلامُ مسالِكَها ، وأضاءَ نُورُ الحقِّ بيوتها ، كانتْ نشْأَةُ هذهِ الفتاةِ الكريمةِ ابنةِ أَحَدِ الذين : ﴿ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [الحشر : ٩] .

* وفي ظِلالِ ذلكَ الشَّذَا القُدسي ، وفي جَنَباته ، نَهَدتِ الابنةُ في مهادِهَا ، فتَخَلَّلَ الإيمانُ مشَاعِرَهَا ، وملأَ قَلْبَها وعَقْلَها ، وعرفَتْ حلاوةَ الإخلاصِ لله تعالىٰ ممّا كانتْ ترىٰ مِنْ أَبيها وأعمامِها وذويها ، أولئكَ الذينَ ﴿ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ﴾ [الأحزاب : ٢٣] ، حيثُ كانَ أَهْلُها منْ حُماة الحقِّ ونَاصِريه ، ومِنَ :

الخَائِضينَ منَ الخطُوبِ غمَارَها	المُصطَلينَ مِنَ الحرُوب لظَاهَا
الباذلينَ لدىٰ الفداءِ نفوسَهم	يبغونَ عند إلَهِهِم مَحْيَاهَا
مَا آثَروا في الأرضِ إلا دِينَه	دِيْناً ولا عَبَدُوا سِواه إلَهَا
قومٌ همُ اتَّخذُوا الشَّهادةَ بغيةً	لا يبتغُون لدىٰ الجهادِ سِوَاهَا

* ولعمرُ اللهِ ، ما أكرمَ هؤلاء! وما أندىٰ سيرتَهم! ترىٰ ابنةُ مَنْ تكونُ هذهِ المرأةُ التي نَحْفَل بسيرتها بينَ بناتِ الصَّحابةِ الأخيارِ؟!

* أظنُّك ـ عزيزي القارىء ـ في ظَمأٍ شَديدٍ كيما تتبرَّدَ بسيرةِ هذهِ الابنةِ الكريمة ، وأولئكَ الأخْيار .

* فأَبُوها مِنْ كبارِ البدريِّين ، قَتَلَ أبا جَهْل[1] ، وهو مُعوِّذُ بنُ الحارثِ الأنصاريّ ، أَحَدُ سبعةِ إخوةٍ أُمّهم عفراءُ بنتُ عُبيد الأنصاريّة النَّجارية ،

---

(١) انظر : صحيح البخاري (٧/ ٢٢٩ و٢٣٩) ؛ ومسلم برقم (١٨٠٠) .

وثالثُ ثلاثةٍ أبوهم الحارثُ بنُ رفاعةَ النَّجاريّ وهم: عوفٌ، معاذٌ، ومُعوِّذٌ؛ وهؤلاءِ الثَّلاثةُ الأخيارُ عُرفوا بأمِّهم فيُقال لهم: أَبْناءُ عَفْراءَ»[1].

* أتدرونَ مَنِ الأربعة الباقِيْن الذين يكملُون هذا العِقْدَ الفريدَ في عالَمِ الصَّحابةِ الأَنْصارِ الأخيارِ؟

* إنَّ الأربعةَ الآخرين هم: إياسٌ، عاقلٌ، خالدٌ، عامرٌ، وأبوهم هو البُكيرُ بنُ عَبْد ياليل الليثيّ، وقد شَهِدَ هؤلاء السَّبعةُ الإخوةُ الأَبطالُ بَدْراً مَعَ رسولِ اللهِ ﷺ، وكانَ عمَّ ضَيفتِنا عوفٌ أَحدَ ستةِ نَفَرٍ منَ الأنصارِ كانوا أوّلَ مَنْ أَسْلمَ بمكةَ؛ وهو عَقبيٌّ، شَهِدَ العقبتَيْن: عقبة الاثني عشَر، وعقبة السَّبعين، وهي أعظمُ بيعاتِ الأنصار للنَّبيِّ ﷺ.

* وكانت جَدَّةُ ضيفتنا عفراءَ بنتَ عُبيد منَ النِّسوةِ اللواتي شَرُفْنَ بفريدةٍ في دُنيا النِّساء، حيثُ إنَّ بَنِيْهَا السَّبعة كانوا جنوداً للهِ ورسولِه في المعركةِ الأولىٰ التي خاضَها المسلمون في جهادِ القتالِ في بَدْرٍ، وعُدَّتْ عَفْراءُ في زمرةِ المبايعات، فهي منْ فرائدِ النِّساء اللائي حُزْنَ منَ المكرماتِ والمفاخر ما لم

---

(١) منَ المفيد هنا أنْ نذكرَ بعض المنسوبينَ ـ من المشاهير وغيرهم ـ إلىٰ غير آبائهم، فمنَ المنسوبين إلىٰ أُمهاتهم:
* بلالُ ابنُ حمامةُ، واسم أبيه ربَاح، وهو أوّل مؤذِّنٍ صَدَح بقوله: اللهُ أكبر.
* عمرو؛ أو عبد الله ابن أمِّ مكتوم الأعمىٰ، واسم أبيه قَيْس، وقصّته مشهورةٌ في القرآنِ العظيم.
* بشيرُ ابنُ الخصَاصيَّة، واسمُ أبيه مَعْبد.
* خفافُ ابنُ نُدبة، واسم أبيه عُمير.
* سعدُ ابنُ جنبة، واسم أبيه مالك.
* مالكُ ابنُ نُميلة، واسم أبيه ثابت.
* معاذُ ومعوِّذُ وعوفُ أبناء عفراء، واسم أبيهم الحارث.
* يَعلىٰ ابنُ سبابة، واسم أبيه مرّة.
* يَعْلىٰ ابنُ مُنْية، واسم أبيه أميّة.
وهؤلاء كلهم من الصحابة الكرام، رضي الله عنهم وأرضاهم.

يكنْ لغيرهنَّ في تاريخ الإسلام ، بل وتاريخ الدُّنيا في القديمِ والحاضرِ ، فما أكرمَها من امرأة!!

* والآن ، قُل لي بربِّك: ألا تستحقُّ هذهِ المرأةُ عَفْراءُ بنتُ عبيد[1] وحفيدتها الخلودَ في دُنيا الخلودِ ، وفي دُنيا فرائدِ النِّساء المُسلمات في تاريخِنا الزَّاهرِ الأزْهر؟!

* أمّا حفيدتُها ضيفةُ هذه الأويقاتِ فهي الرُّبَيِّعُ بنتُ معوِّذٍ[2] ابن عفراءَ

---

(١) قال ابنُ الجَوزي وابنُ حَجَر ـ رحمها الله ـ: وعفراءُ بنتُ عُبيد هذه لها خصِّيصةٌ لا توجدُ لغيرها ، وهي أنَّها تزوَّجتْ بعد الحارثِ البكير بن عبد ياليل الليثيّ ، فولدتْ له أربعةً: إياساً ، وعاقلاً ، وخالداً ، وعامراً ، وكلُّهم شَهِدُوا بَدْراً ، وكذلك إخواتُهم لأمِّهم بنو الحارث ، فانْتَظم مِنْ هذا أنَّها امرأةٌ صحابية لها سبعةُ أولادٍ شهدوا كلُّهم بدراً مع النَّبيِّ ﷺ. (المدهش ص٦٢ و٦٣)، و(الإصابة ١٣/ ٤٨).

ولعلَّه منَ المفيدِ هنا أنْ نشيرَ ـ ونحنُ في هذا المجالِ ـ إلىٰ امرأةٍ صحابية أخرىٰ كانَ لها أربعةُ إخوةٍ ، وعمّان شهدُوا بدراً.

فأخوان وعمّ مع رسولِ اللهِ ﷺ.

وأخوان وعمّ معَ المشركين.

والمرأة هي: هندُ بنتُ عتبةَ بنِ ربيعة ـ رضي الله عنها ـ.

فالأخوانِ المسلمانِ هما: أبو حذيفةُ بنُ عتبة ، ومصعبُ بنُ عُمير [مصعبُ أخوها منَ الرَّضاعة والعمُّ المسلمُ هو: مَعْمرُ بنُ الحارث.

والأخوانِ المشركان هما: الوليد بنُ عتبة وأبو عزيز بنُ عُمير.

والعمُّ المشركُ هو: شيبةُ بنُ ربيعةَ.

كما أنَّ أباها عتبةَ بنَ ربيعة شهدَ بدراً معَ المشركين ، وقُتِلَ يومذاك في الجولةِ الأولىٰ بيَدِ أحد فَرسان المدرسةِ المحمّدية. وللمزيدِ منْ هذه الفرائد راجعْ كتابَنا «فرسان من عصر النبوة»؛ وكتابنا: «المبشرون بالنار».

(٢) الإصابة (١٢/ ٢٥١ و٢٥٢) ترجمة رقم (٤١٣) ، والاستيعاب بهامش الإصابة (١٢/ ٣١٤ ـ ٣١٦) ترجمة رقم (٣٣٣٦)؛ وأسد الغابة (٦/ ١٠٧ و١٠٨) ترجمة رقم (٦٩١٠) ، وتهذيب التهذيب (١٠/ ٤٧٢) ترجمة رقم (٨٨٨٢) ، وزاد المعاد(٥/ ١٩٢ و١٩٤ و١٩٧ و٦١٢ و٦٧٨) ، وتهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٦٠٩=

الأنصاريّة النّجارية ، منْ بين عديّ بنِ النَّجَّار ، إحدىٰ بناتِ الصَّحابةِ اللواتي رَسَمْنَ أَجْمَلَ آثارِ الفَضْلِ في دنيا المرأةِ الأنصاريّةِ في مَطْلع شَمْسِ الرِّسالة ، وإحدىٰ المعدوداتِ من صغار الصَّحابة.

* والرُّبَيِّع[1] هذه ، إذا ما ذُكِرَتْ ، ذُكِرَتْ أسرتُها معهَا ، وذُكرَ آباؤها الأماجيدُ ، ومَنْ كآبائِها؟

أولئكَ آبائي فَجِئْني بمثلِهم إذا جَمَعتْنا يا جريرُ المجَامِعُ

الحَفَاوةُ النَّبويَّةُ بالرُّبَيِّعِ:

* حظيتِ الرُّبيِّعُ بنتُ معوِّذٍ ـ رضي الله عنهما ـ بمكانةٍ لائقةٍ عند النَّبيِّ ﷺ ، فأخبار الرُّبيع تشيرُ إلىٰ حفَاوةِ النَّبيِّ ﷺ بها ، ولعلَّ مَرَدَّ ذلك إلىٰ ما قَدَّمَتْهُ أسرتُها[2] منْ جلَائِلِ الفَضَائِلِ في خدمةِ دِيْنِ اللهِ.

= و٦١٠) ترجمة رقم (١١٧٨) ، وسير أعلام النبلاء (٣/ ١٩٨ ـ ٢٠٠) ، وأعلام النساء (١/ ٤٤٢ و٤٤٣) ، والاستبصار (ص ٦٦ و٦٧) ، وتفسير القرطبي (٣/ ١٤٤) و(٦/ ٨٩) ، والمحبر (ص٤٣٠) ، وطبقات ابن سعد (٨/ ٤٤٧ و٤٤٨) ، وصفة الصفوة (٢/ ٧١) ، وأنساب الأشراف (١/ ٢٩٨) ، والمسند (١٠/ ٢٨٨ ـ ٢٩١) ، والرياض المستطابة(٣٣٥).

(١) «الرُّبيِّع»: تصغيرُ الرَّبيع ، والتَّصغير يكونُ للتحبُّبِ علىٰ الأغلب.
والرُّبيع: اسمٌ لصحابيتَين منَ الأنصار لا ثالثَ لهنَّ وهما: الرُّبيِّع بنتُ معوِّذ ، والرُّبيِّع بنتُ النَّضر.

(٢) منَ الجَدير بالذّكر أنَّه كان للرُّبيِّع بنتِ معوِّذ أختٌ شقيقةٌ تسمّى: عُميرة بنتُ معوِّذ ، تزوَّجها أبو حَسَن بنُ عبد عمرو المازنيّ ، فولدتْ لها عمارة ، وعمراً ، وسرية ، أسلمتْ عُميرة ، وبايعتْ رسولَ اللهِ ﷺ. (طبقاتُ ابنُ سعد ٨/ ٤٤٨) ، و(الإصابة: ١٣/ ٦٠).
وللرُّبيع أختٌ أخرىٰ تدعىٰ: فُريَعْةُ بنتُ مُعوِّذ ، كانتْ مجابةَ الدَّعوةِ ، روتْ عن النَّبيِّ ﷺ في الرُّخصة في الغناء ، وحديثُها من أهل البصرة. (الاستبصار ص٦٧).
بقي أنْ تعلمَ عزيزي القارىء أنّ أمَّ الرُّبيِّع بنتَ معوِّذ هي: أمُّ يزيد بنتُ قَيْس بن زعوراء.

* فقد كانَ أبوهَا مُعوِّذاً ، وكذلك عمُّها معاذاً وعوفاً أبناء الحارث وعفراءَ منْ أوَّلِ الأنْصارِ إسلاماً بمكةَ ، إذْ كانُوا في النَّفَرِ الثَّمانيةِ الذين لَقوا رسولَ الله ﷺ وبايعوه البيعةَ الأولىٰ ، ثمَّ كانَ عمُّها معاذاً ممنْ شَهِدَ العقبةَ الكبرىٰ ، فهو عقبيٌّ ، بدريٌّ ، أُحديٌّ ، خَندقيٌّ ، شَهِدَ المشاهدَ جميعَها معَ الحبيبِ الأعظمِ سيِّدنا محمّدٍ ﷺ[1] .

* وكانَ معوِّذُ بنُ عفراءَ وأَخَواه منْ كرماءِ الصَّحابة ، وكانوا يخصُّونَ رسولَ اللهِ ﷺ بالهديةِ؛ فقد وَرَدَ أنَّ معاذاً ، أو معوِّذاً قدْ أهديا النَّبيَّ ﷺ رُطَباً ، أَرْسَلاهُ مع الرُّبيِّع ، فأعطاهَا حليةً ، واحتفىٰ بها وزَادَ في إكرامِها .

* روتِ الرُّبيعُ قصَّةَ ذلك فيما ذكرتْه المصادرُ الوثيقةُ عنها قالتْ : بعثَني معوِّذُ بنُ عفراءَ بصاعٍ منْ رُطَبٍ عليه أَجْر منْ قِثَّاءَ زُغب إلىٰ رسول اللهِ ﷺ ، وكانَ النَّبيُّ ﷺ يحبُّ القثَّاءَ[2] ، وكانتْ حِلْيةٌ قَدْ قَدِمَتْ منَ البحرَيْن ، فملأَ يَدَهُ منها فأَعْطَانيها . وفي روايةٍ : فأعطاني مِلءَ كفِّي حلياً أو ذهَباً ، فقال : «تَحلَّي بهذا»[3] ، أو قالَ : «تحلَّي بهذا ، واكْتَسِي بهذا» .

* ومنْ حفاوةِ النَّبيِّ الكريم ﷺ بالرُّبيِّع ابنةِ معوِّذٍ ، أَنَّه قَد خَصَّهَا بزيارةٍ

---

(١) «الأجر» : المقصودُ هنا بالأَجْر : صغارُ القثَّاء التي عليها الوبرُ النَّاعم الذي هو الزَّغبُ .

(٢) جاء في «السُّنن» منْ حديثِ عبدِ اللهِ بنِ جعفر ـ رضي الله عنهما ـ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كانَ يأكلُ القثَّاء بالرُّطب . أخرجه أبو داود في الأطعمةِ برقم (٣٨٣٥) ، والتّرمذي في الأطعمة برقم (١٨٤٥) ، وابن ماجه في الأطعمة برقم (٣٣٢٥)؛ وأخرجه البخاري في الأطعمة (٩/ ٤٩٥) ، ومسلم في الأشربة برقم (٢٠٤٣) ، ولفظهُ عن عبدِ اللهِ بنِ جعفر قال : رأيتُ رسولَ اللهِ ﷺ يأكلُ القثَّاء بالرُّطب .

(٣) انظر : مجمع الزَّوائد للهيثمي (٩/ ١٣) ، والاستبصار لابن قدامة (ص٦٦) ، والشفا للقاضي عياض (١/ ٢٣٤) ، والمسند (١٠/ ٢٨٩) برقم (٢٧٠٨٨) و(٢٧٠٩١)؛ وانظر الاستيعاب (١٢/ ٣١٥) ترجمة رقم (٣٣٣٦) ، ورواية الاستيعاب : أنَّها أَتَتِ النَّبيَّ ﷺ بقناعٍ ـ صاع ـ من رُطَب ، وآخر من عنب ، فناولها النَّبيُّ ﷺ حلياً أو ذهباً وقال : «تحلّي بهذا» .

ميمونةٍ عند زواجِها[1] بَعْد غزاةِ بَدْرٍ ، وهذه الزِّيارةُ ، جَعَلتِ الرُّبيِّعَ تُحلِّقُ في آفاقِ الفَضْلِ ، وتفخرُ بهذِهِ الزِّيارةِ الكريمةِ بينَ بناتِ الصَّحابةِ ، وحقَّ لها الفَخْرُ بذلك؛ وقَدْ خلَّدتِ الرُّبيِّعُ قصَّة هذهِ الزِّيارة في كُتُبِ الحديثِ ، في الصَّحيح منها؛ وفي السُّنَن ، في حديثها عند البخاريِّ ، وعند التِّرمذي ، من طريق خالد بنِ ذكوان قال: قالتِ الرُّبيِّعُ بنتُ معوِّذٍ بنِ عفراءَ: جاءنَا رسولُ اللهِ ﷺ ، فدخلَ عَليَّ غَداةَ بُنِيَ بي ، فجلسَ علىٰ فِراشي ، وجُويريّات لنا يضْرِبْنَ بالدُّفوفِ ، ويندبْنَ مَنْ قُتِلَ منْ آبائي يومَ بَدْرٍ ، إلىٰ أنْ قالتْ إحداهُنَّ: وفينَا نبيٌّ يَعْلَمُ ما في غَدِ ، فقالَ لها رسولُ اللهِ ﷺ: «دعي هذا وقُولي التي كنتِ تقولينَ قَبْلها»؛ وفي رواية: «لا تقولي هَذا وقُولي ما كنتِ تقولين»[2].

* وقد سجَّلَ الذَّهبيُّ ـ رحمه الله ـ هذه المنقبةَ الفريدةَ للرُّبيعِّ في أعلامِ نُبلائه فقال: وقد زَارَهَا النَّبيُّ ﷺ صبيحةَ عُرسِها صِلَةً لرحِمها[3].

* ولعلَّ تكريمَ رسولِ اللهِ ﷺ للرُّبيِّع ابنةِ معوِّذ ، هو تكريمٌ لأسرتها ، فإذا كَرَّمَ النَّبيُّ ﷺ الرَّبيِّع وأكرمها ، فإنَّه يكرّم في شَخْصِها الوفاءَ في أروعِ صُوَرِهِ وأرفعِ نماذجِه ، ويكرمُ كذلكَ ذِرْوَةِ الفَضَائلِ الإيمانيةِ في أسرتها ـ ذكورهم وإناثهم ـ ، الأسرةِ التي وهَبتْ نَفْسَها وجميعَ ما تملِكُ منْ قُوَّةٍ ومالٍ لإعلاءِ كلمةِ اللهِ ، والدِّفاعِ عن رسولِ اللهِ ﷺ أنْ يمسَّه أَحَدٌ منْ أعدائه وأعداءِ الإسلام

---

(١) قال ابن حجر ـ رحمه الله ـ: تزوجَّها إياسُ بنُ البُكَير الليثيّ فولَدَتْ له محمّداً.

(٢) أخرجه البخاري في النكاح برقم (٥١٤٧) ، وفي المغازي برقم (٤٠٠١) ، وأحمد برقم(١٠/ ٢٩١) برقم (٢٧٠٩٥) ، والترمذي برقم (١٠٩٠) ، وقال: حسن صحيح ، وابن سعد (٨/ ٣٢٨) ، وانظر: تهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٦٠٩) ترجمة رقم (١١٧٨) ، والإصابة (١٢/ ٢٥١) ترجمة رقم (٤١٣) ، والاستيعاب (١٢/ ٣١٥) ترجمة رقم (٣٣٣٦) ، وأسد الغابة (رقم ٦/ ١٠٨) ترجمة رقم (٦٩١٠).

(٣) انظر: سير أعلام النبلاء (٣/ ١٩٨).

بسوءٍ منَ القولِ أو الفَعْل ، أو حتَّى الهمسِ والإشارةِ. وفي الصَّفحات التَّاليات نعرفُ مصداقَ ذلك.

الـرُّبَـيِّـعُ فـي كتَائِـبِ أَهْـلِ الجِهَـادِ:

* لابنةِ معوذٍ ـ رضي الله عنهما ـ مواقفُ وضيئةٌ في مواطنِ الجهادِ وميادينِ القتال ، ولقد شَهدتْ بعضَ غزواتِ الرَّسولِ ﷺ ، وحَظيَتْ بشرفِ صُحبته ، كما حظيتْ بأجْرِ المجاهداتِ اللواتي كان لَهُنَّ دورٌ مشرِّفٌ في المغازي النَّبويّة.

* ولكنْ ما الدَّورُ الذي كانتْ تقومُ به الرُّبيِّعُ في المعركةِ؛ والسُّيوفُ مشتجرةٌ والرِّماحُ متشابكةٌ؟! وصيحاتُ الفرسانِ تختلطُ بغبار المعركة وسنابك الخيلِ؟!

* تقولُ الرُّبيِّعُ فيما أخرجه البخاريُّ عن خالد بنِ ذكوان عنها قالت: كُنَّا نَغْزُو معَ رسولِ ﷺ نسقي القومَ ونخدمُهم ، ونردُّ القتلىٰ والجرحىٰ إلىٰ المدينةِ[1].

* وتمضي الرُّبيِّعُ ابنةُ معوِّذ ـ رضي الله عنهما ـ في رحلةِ الجهادِ والفداءِ ، وتقومُ بدورِها معَ نساءِ المسلمين ، ولمّا كانتْ غزوةُ الحُديبيةِ أو عمرةُ الحديبيةِ ، خرجَ إليها النَّبيُّ ﷺ في ألفٍ وأربعمئةٍ منْ أصحابةِ ، يومَ الإثنين مستهلَّ ذي القعدةِ منَ السَّنَةِ السَّادسةِ ، وكان قد رأىٰ أنَّه قَدْ دخَلَ المسجدَ الحرامَ ، بأصحابهِ آمنينَ محلِّقينَ رؤوسَهم ومقصِّرينَ ، وأنَّهم دخلُوا البيتَ وطافوا به ، وأخذَ هو مفتاحَه ، ووقفَ عند المشاعر مع الواقفين.

* وكانتِ الرُّبيِّعُ ـ رضي الله عنها ـ منَ النِّساءِ[2] اللاتي خَرَجْنَ في هذه

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٢٨٨٢ و٢٨٨٣ و٥٦٧٩) ، وانظر: التاج الجامع للأصول (٤/ ٣٤٤) وتهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٦٠٩ و٦١٠) ، وصفة الصفوة (٢/ ٧١).

(٢) وما أجملَ أنْ نقرأَ هذه الأبيات في صفةِ المؤمناتِ في بيعةِ الرّضوانِ ، ومنَ النِّسوة اللائي خَرجْنَّ: أمُّ سلمةَ أمُّ المؤمنين ، وأمُّ عمارة ، وأمُّ مَنيع ، وأمَّ عامر =

الغزوةِ المباركةِ المشهورةِ في كُتُبِ السِّيرة ، بل وفي القرآنِ العظيم في سورة الفَتْح ، وكانتْ بيعةُ الرِّضوانِ الميمونةِ منْ بركاتِ هذه الغزوةِ الميمونةِ ، إذِ احْتَبَسَتْ قريشٌ عثمانَ بنَ عفَّان ـ رضي الله عنه ـ عندها ، ولمْ تطْلِقْ له حريةَ الرُّجوعِ إلىٰ رسولِ اللهِ ﷺ ، لِيُبَلِّغَه جوابَ رسالتِه التي أرسَلَها معه لقريش ، حيث يخبرهم بأنَّه أتىٰ وأصحابَه لأداءِ العُمرة ليس غير.

* هنالك دَعَا رسُولُ اللهِ ﷺ أَصْحابَه الكرامَ إلىٰ البيعةِ ، فبايعوه بيعةَ الرضوان تحت الشَّجرةِ ، وبايعتِ الرُّبيِّعُ معَ المبايعينَ المؤمنينَ الصَّادقينَ الذينَ رضيَ اللهُ عنهم ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح : ١٨].

* وتَسامَعَتْ قريشٌ بعزيمةِ رسولِ اللهِ ﷺ على مناجزتِهم ، وسمعُوا أَنْباءَ بيعةِ الرِّضوان علىٰ ذلك ، فداخَلَها الرُّعبُ ، وأرَّقَها الخوفُ ، ودارتْ بها أرضُها تحتَ أقدامِها فَرَقاً وفزَعاً؛ فأطلقتْ إذ ذاك عثمان ـ رضي الله عنه ـ وعادَ إلىٰ الحبيبِ المصطفىٰ ﷺ ، ليكونَ منْ أصحابِ بيعةِ الرِّضوان ، حيثُ بايعَ عنه رسولُ الله ﷺ عندما ضربَ بإحدىٰ يديهِ علىٰ الأخرىٰ وقال: «هذه عنْ عثمانَ».

* في بيعةِ الرِّضوانِ المباركةِ يقولُ ربُّنا ـ عزَّ وجلَّ ـ تنويهاً بمقامِ سيّدنا وحبيبنا محمّدٍ ﷺ؛ مكانتهِ منَ اللهِ المليكِ المقتدر ، وكذلك يقولُ اللهُ تشريفاً لأصحابِهِ الذين بايعوه تلكَ البيعةَ طَلباً لرضوانِ الله ومرضاتهِ ورضوانهِ ، ولمرضاةِ الحبيبِ الأعظمِ محمّد ﷺ ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح : ١٠].

= الأشهليّة ، والرُّبيِّع بنتُ معوِّذ ، وغيرهن كثيرات:

والمؤمناتُ الصَّالحاتُ كأنَّما ... فيهنَّ سَارةُ والرَّضيَّةُ مريمُ
مِنْ كلِّ أمِّ بَرَّةٍ لم يُلْهِهَا ... بَعْلٌ ولمْ يغلبْ نوازعَها ابنمُ

ومعنى «ابنم»: ابن.

* ومنْ أنفاسِ بيعةِ الرضوان ، دعونا نقرأُ هذه الأبيات الكاشِفات :

هيَ بيعَةُ الرِّضوانِ لم تَتْرِكْ لهمْ ... لَيــلاً يُنَــامُ ولا صَبَــاحــاً يُنْعَــمُ

سُهْــدٌ يَشُــقُّ علــىٰ العيــونِ مُبَــرِّحٌ ... وأسىً يَعَضُّ علىٰ القلوبِ مُسمَّمُ

فكـأنَّمـا فــي كــلِّ عيــنٍ مِبْــرَدٌ ... وكـأنَّمـا فـي كـلِّ قلـبٍ أرقَـمُ[1]

المُسْلِمــونَ يُبــايعُــون نبيَّهــمْ ... يَسْتَمسِكُــونَ بعُــروةٍ مــا تُفْصَــمُ

اللهُ مــولاهــمْ ونَصْــرُ رسُــولِــهِ ... حَــقٌّ عليهــمْ فــي الكتــابِ مُحَتَّــمُ

نَهضُوا خِفَافاً لو رأيْتَ جموعَهم ... لَعَلِمْــتَ أيَّ النَّــاسِ إيْمــانــاً هُــمُ

مــا منهــمُ إلاَّ علــىٰ يَــدِهِ يــدٌ ... للهِ ينظُــرُ نُــورَهــا المتــوسِّــمُ

لُثِمَــتْ بــأيمــنِ القلــوبِ وإنَّهــا ... لَتُـرىٰ علـىٰ مـرِّ الـزَّمـانِ فتُلْثَـمُ[2]

* وستكونُ الرُّبيِّعُ ـ بإذنِ اللهِ ـ ممن حظُوا ببشارةِ رسولِ اللهِ ﷺ ، عندما قالَ عنْ المبايعينَ بيعةَ الرضوانِ فيما رُوي عن جابرِ بن عبد اللهِ ـ رضي الله عنهما ـ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنَّه قال: «لا يدخلُ النَّار أَحَدٌ ممن بايعَ تحتَ الشَّجرةِ»[3].

* كما أنَّ الرُّبيِّعَ كانت منَ الخيِّرين الأَخْيار ، ممن اختصَّهم الحبيبُ الأعظمُ ﷺ بِسِمَةِ الفَضْل والإفْضالِ والخيريّة عندما قال مُخاطباً أصحابَه يومَ البيعةِ الميمونةِ: «أنتمُ اليومَ خيرُ أَهْلِ الأرض»[4].

* ولذلكَ وصفَهَا ابنُ الأثير ـ رحمه الله ـ وذكرَ جهادها وبيعتَها في الحديبيةِ فقال: كانتْ ربّما غَزَتْ معَ رسولِ اللهِ ﷺ ، فتُداوي الجرحىٰ ، وتردُّ القَتْلىٰ إلىٰ المدينةِ ، وكانتْ منَ المبايعاتِ تحتَ الشَّجرةِ بيعةَ الرِّضوان[5].

---

(١) «الأرقم»: أخبث الحيات ، وأطلبها للناس؛ أو ما فيه سواد وبياض ، أو ذكَرُ الحيات.

(٢) ديوان مجد الإسلام (ص٢٨١) بتصرف.

(٣) الحديث أخرجه مسلم برقم (٢٤٩٦)؛ وابن سعد في الطبقات (٢/ ١٠٠ و١٠١).

(٤) أخرجه البخاري في المغازي ، باب غزوة الحديبية.

(٥) أسد الغابة (٦/ ١٠٧) ترجمة رقم (٦٩١٠) ، وانظر الرياض المستطابة (ص٣٣٥).

* وقال ابنُ عبد البرِّ ـ رحمه الله ـ شَاهِداً بفضلِها وجهادِها وبيعتها بيعةَ الرِّضوان: وكانتْ رُبَّما غَزَتْ مع رسولِ اللهِ ﷺ ، قالَ أحمدُ بنُ زهير: سمعتُ أبي يقولُ: الرُّبيِّعُ بنتُ معوِّذ بنِ عفراءَ منَ المبايعاتِ تحتَ الشَّجرةِ[1] .

* وقالَ موسىٰ بنُ هارونَ الحمّال[2]: الرُّبيِّعُ بنتُ معوِّذ بنِ عفراءَ ، قد صَحِبَتِ النَّبيَّ ﷺ ، ولها قَدْرٌ عظيمٌ[3] .

ابنَـــةُ الفِـدَائيّ الشَّـهيـــد:

* إنَّ الرُّبيِّعَ بنتَ معوِّذٍ ـ رضي الله عنها ـ ذاتُ رحلَةٍ مجيدةٍ في رحلةِ الجهادِ بمعيّةِ رسولِ اللهِ ﷺ ، فهيَ مجاهدةٌ منْ طرازٍ فريد في عالم بناتِ الصَّحابةِ الأَنْصار ، ولا غرابةَ في ذلك ، فهي فرعٌ كريمٌ ، وغُصْنٌ أزْهَرٌ زاهرٌ منْ دوحةٍ زاهيةٍ دانيةِ الفَضْلِ ، زاكيةِ المكارمِ ، أصلُها ثابتٌ في منابتِ الحقِّ والإيمان ، وفرعُها متطاولٌ في سَماءِ الإيمانِ والتَّسليمِ .

* فالرُّبيِّعُ ـ رضوانُ اللهِ عليها ـ تُعَدُّ منْ بنَاتِ الصَّحابةِ الشُّهداءِ الذين اشترىٰ اللهُ منهم أنفسَهم ، فهذا أبوها معوِّذُ بنُ عفراء ، وعمُّها معاذُ يشهدان غزاةَ بَدْر ، ويسمعان عدوَّ اللهِ ، وفرعونَ الأمة أبا جهل بن هشام يسبُّ الحبيبَ الأعظمَ محمّداً ﷺ ، فيُعاهِدانِ اللهَ ـ عزَّ وجلَّ ـ علىٰ قَتْلِهِ ، وتخليصِ النَّاسِ من شرِّه وسوءِ طويّتـهِ ، أو يمـوتـان دونَـه بـالشهـادة ومـا أدراك ما الشَّهادة!! تحتَ لواءِ رسولِ اللهِ ﷺ وبينَ يدَيْه!! .

* أمّا فدائيةُ ابني عفراء معوِّذٍ ومُعاذٍ في حمايةِ رسول الله ﷺ ، وقَتْل أبي جهل ، فَيرويها لنا عبدُ الرحمنَ بنُ عوفٍ ـ رضي الله عنه ـ في حديثه الشَّائقِ اللطيفِ فيقول: إنِّي لفي الصَّفِّ يومَ بَدْرٍ ، التَفَتُّ فإذا عَنْ يميني ،

---

(١) الاستيعاب (١٢/ ٣١٤) ترجمة رقم (٣٣٣٦) ، وانظر الاستبصار (ص٦٦).
(٢) هو أبو عمر الكوفيّ المعروفُ بالبُنّي ، كان يبيع التَّمر في المدينة ، ووثّقه ابن حبّان ، وروى عنه جماعة ، توفي بالفيوم (٢٢٤ هـ).
(٣) الاستيعاب (١٢/ ٣١٥) ترجمة رقم (٣٣٣٦) ، وانظر الاستبصار (ص٦٦).

وعَنْ يَساري فتيَانِ حَديثَا السِّنِّ ، فكأنِّي لَم آمَنْ مكانَهُما ، إذ قال لي أحدُهم سِرَّاً عنْ صاحبهِ: يا عمّ أَرِني أبَا جَهْل؛ فقلتُ: يا بن أخي ما تصنعُ به؟

قال: عاهدتُ اللهَ تعالىٰ إنْ رأيتهُ أَنْ أقتلَه أو أموتَ دونَه. وقال لي الآخرُ سِرَّاً منْ صاحبهِ مثلَه.

قالَ عبدُ الرحمنُ بنُ عوف: فما سرَّني أنِّي بَيْنَ رجُلَين مكانهما ، فأشرتُ لهما إليه ، فَشَدَّا عليهِ مثْل الصَّقْريْن حتىٰ ضَرَباه ، وهما ابنا عفراء[1].

* وفي الصَّحيحَيْن منْ حديثِ سُليمان التَّيميِّ عن أَنسِ بنِ مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ ينظرُ ما صنَع أبو جهل»؟!

قالَ ابنُ مسعود: أنا يا رسولَ اللهِ ، فانطلقَ فوجَدَه قد ضَرَبَه ابنا عفراء حتى بَـرَدَ[2].

* ولله درُّ القائل:

هَـذا أبو الـحكَمِ انْجَـانبْ عِمَايتُـه	لما قَضَىٰ السَّيفُ وهو الخَصْمُ والحَكَمُ[3]
مـاذَا لقيـتَ أبـا جَهْـل وكيـفَ تَـرىٰ	آيَاتِ ربِّـك في القَـومِ الـذيـن عَمُـوا
الشِّـركُ يعْـوِلُ والإسـلامُ مبتسـمٌ	سُبحـانَ ربِّـي لـه الآلاءُ والنِّعـمُ

---

(١) أخرجه البخاري في مواضع من صحيحه ، في فرض الخمس برقم (٣١٤١) ، وفي المغازي برقم (٣٩٦٤) وبرقم (٣٩٨٨) ، وأخرجه كذلك مسلم في الجهاد برقم (١٧٥٢) ، وأخرجه أبو يعلىٰ في مسنده برقم (٨٦٦) ، وانظر السير الكبير (٢/ ٥٩٩) ، وسير أعلام النبلاء (١/ ٢٥٠).

(٢) رواه البخاري ومسلم.

(٣) «أبو الحكم»: كنية أبي جهل ـ لعنه الله ـ قال حسَّان بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ يهجوهُ من قصيدة:

سَمَّـاهُ مَعْشَـرهُ أبـا حكـمٍ	واللهُ سمَّـاه أبـا جَهْـلِ
أبقَـتْ ريـاستَـه لمعشـرهِ	غَضـبَ الإلـهِ وذلَّـةَ الأصـلِ
وكـأنَّـه ممّـا يجيـشُ بـهِ	يُبـدي الفجـورَ وسـورةَ الجهـلِ

(ديوان حسان ص١٠٦).

* وسُرَّ رسولُ اللهِ ﷺ بقَتْلِ أبي جَهْل فرعون هذه الأمّة الذي صَرَعَه ابنا عفراء ، وأجهزَ عليه ابنُ مسعود ـ رضي الله عنه ـ ولذلك كانَ لابنيَ عفراءَ منَ الرَّصيدِ النَّبويّ شيئاً ميموناً ، حيثُ دعَا لهما رسولُ اللهِ ﷺ بالرّحمةِ فقال: «رحمَ اللهُ ابني عَفْراءَ ، اشتركا في قَتْلِ فِرعونِ هذه الأمّة»[1].

* وفي روايةٍ أخرىٰ: «رحمَ اللهُ ابنَي عفْراءَ ، اشتركا في قَتْلِ فرعون هذه الأمّة ، ورأسِ أئمةِ الكُفْر»؛ فقيل: يا رسولَ اللهِ ، مَنْ قَتَلَهُ معهما؟ قال: «الملائكة ، وذَفَّفهُ ابنُ مسعود»[2].

* وأشارَ ابنُ قُدامة المقدسيّ إلىٰ استشهادِ وَالدِ الرُّبيِّع في غزوة بَدْرٍ ، بَعْدَ أن صَرَعَ أبا جَهْل: إنَّ معوِّذاً شَهِدَ بَدْراً مع أخويه ، وقتَل أبا جَهْل ثمَّ قاتلَ حتَّى قُتِل ـ رضي الله عنه ـ[3].

* إنَّ أبناءَ عَفْراءَ خَلَّفوا حَسَراتٍ في أعماقِ المُشركينَ يومَ بَدْرٍ ، يومَ التقىٰ الجمعَانِ ، إذْ كانُوا مُسْعِرِي الحرب ، وقاتلي أعداءَ اللهِ ، وقد أشارتْ هندُ بنتُ عتبةَ ـ رضي الله عنها وكانت يومذاك ما تزال على شركها ـ ، إلىٰ الغصَّةِ التي تركها بنو عفراءَ في قَلْبِها فقالت:

لَنَ يَزَالَ المُصَابُ قَلْبي كئيباً مسْعِرَ الحربِ مِنْ بني عَفْراءِ

* لقد كان مَصْرعُ ابنَ الحنظليةِ أبي جهل علىٰ يَدِ ابني عَفْراء ، وعبدِ اللهِ بنِ مسعود ـ رضي الله عنهم ـ عبرةً لأعلامِ الشِّركِ ، وفجرةَ المشركين ، وأنصارَ اللاَّتِ والعزّىٰ ، وهُبَلَ ، ومناةَ الثَّالثة الأخرىٰ ، ولقيَ أبو جهل جزاءَ تمرُّده وكِبْره ، فقُتِل بيد أَحْبَابِ اللهِ ، وفرسانِ المدرسةِ المحمّديّة. . . وما أحسنَ قولُ الشَّاعر ، حيثُ أنْشَد مُخَاطباً أبا جَهْل في

(١) أنساب الأشراف ١٠/ ٢٩٩) ، وانظر الرياض المستطابة (٣٣٥).
(٢) انظر: عيون الأثر (١/ ٣١٥) ، والسيرة الحلبية (٢/ ٤٢٣ و٤٢٤) ، و«ذفّفه»: أجهز عليه.
(٣) انظر: الاستبصار (ص٦٦).

مَصْرعهِ ، ويشيرُ إلىٰ بطولةِ وفدائيةِ ابني عَفْراء :

شَهدتَ الوغىٰ تَبْغي علىٰ الضَّعفِ راحَةً لِنَفْسِكَ منْ حِقْدٍ مُذيبٍ ومنْ غِلِّ
رَمَاكَ مُعَاذٌ قَبْلَهُ ومُعوِّذٌ وجَاءَكَ مَشْبُوباً حَميَّتُهُ تَغْلِي
سَقَىٰ السَّيفَ عَفْواً منْ دمٍ لكَ طيِّعٌ فَمِنْ مُرتَقىً صَعْبٍ إلىٰ مرتقىً سَهْلِ
دَعِ الهزْلَ يا بْنَ الحنظليّةِ إنَّه هُو الجدُّ كلُّ الجدِّ لو كُنْتَ ذَا عَقْلِ
هيَ اللاتُ والعزُّىٰ أضلَّتْكَ هذِهِ وزَادَتْكَ هذي منْ ضَلالٍ ومنْ خَبْلِ

مِنْ مَكَارِمِهَا وشَجَاعَتِهَا :

* ترىٰ ، ما بقيَ لَدىٰ سيرةِ الرُّبيِّع بنتِ مُعوِّذٍ منْ نفحاتٍ نندّي بها قلوبَنا وأرواحَنا ، ونعطِّرُ المجالسَ بأُنْسِ أَخْبار مكارِمها وشجاعتِها وجهادِها في الميدانِ واللِّسانِ؟!

* إنَّ في قصَّةِ الرُّبيِّعِ ـ رضي الله عنها ـ مع أمِّ أبي جهلٍ دليلاً رائعاً يشيرُ إلىٰ شجاعَتِها في ميدانِ الكلامِ والتَّحدّي ، فالرُّبيِّعُ لا تخشىٰ في اللهِ لومةَ لائمٍ .

* ومنَ طريفِ حديثِ الرُّبيِّع ـ رضي الله عنها ـ ما رواهُ ابنُ سَعْد في «الطَّبقات» ، في ترجمة أسماءَ بنتِ مخربة أُمِّ أبي جهل عنِ الرُّبيِّع بنتِ مُعوِّذٍ ـ رضي الله عنها ـ قالتْ : دَخَلْتُ في نسْوةٍ من الأنْصارِ علىٰ أسماءَ بنتِ مخرّبةَ أمِّ أبي جَهْل ، في زمنِ عمرَ بنِ الخطَّاب ، وكانَ ابنُها عبدَ اللهِ بنَ أبي ربيعة ـ أخو أبي جهل لأمِّه ـ يبعثُ لها بعِطْرٍ منَ اليمنِ ، وكانتْ تبيعهُ ، فكُنَّا نشتري منها ، فلَّما جَعَلَتْ لي في قُواريري ، ووَزَنَتْ لي كما وَزَنَتْ لصَواحِبي ، قالتْ : اكتبُنَ لي عليكن حقّي ؛ فقلتُ : نَعم ؛ اكتبْ لها على الرُّبيِّع بِنتِ مُعوِّذ .

فقالتْ أسماءُ : حَلْقَىٰ[1] ، وإنَّكِ لابنةِ قاتلِ سيِّده؟

قلتُ : لا ، ولكنّي ابنةُ قاتلِ عبْده .

---

(١) «حَلْقَىٰ» دُعاءٌ عليها بأنْ تُصابَ بوجعٍ في حَلْقِها . ويُقالُ للمرأةِ إذا كانتْ مؤذيةً مشؤومةً : عَقْرىٰ وحَلْقىٰ .

قالت: واللهِ، لا أبيعُك شَيئاً أبَداً.

فقلتُ: وأنَا واللهِ لا أَشْتَري منْكِ شيئاً أبداً، فواللهِ ما هو بطيْبٍ، ولا عَرْفٍ. واللهِ يا بُنيَّ ما شممتُ قطُّ أطيبَ منه، ولكنّي غَضِبْتُ[1].

فـي عِقْـدِ بنَـاتِ الصَّحـابَـةِ العَالِمــاتِ:

* لَئِنْ سَطَعَ نَجمُ الرُّبيِّعِ في مَيدانِ الجهاد، لقد لَمَعَ اسمُها في مَيْدانِ العِلْم، وحلباتِ المعرفةِ.

* ولقد كانَ للرُّبيِّع آثارٌ وضيئةٌ في إيضاحِ بعضِ السُّنَنِ التي تلقَّاهَا عنها علماءُ التَّابعينَ، فلقد كانَ للصُّحْبَةِ النَّبويّةِ أَثرٌ مباركٌ في حَياتِها العلميةِ، ولقد كانتْ وصَّافةً مجيدةً لشَمائلِ النَّبيِّ ﷺ.

* قال أبو عُبيدة بنُ محمَّد بنِ عمّار بن ياسر للرُّبيِّع بنتِ معوِّذٍ ـ رضي الله عنها: صِفِي لي رسولَ اللهِ ﷺ، قالت: يا بُنَيَّ لو رأيتهَ لقُلْتَ الشَّمسُ طالعةٌ[2].

* ولقد تسابقَ أصحابُ رسولِ اللهِ ﷺ في وصْفِ حُسْنِه ﷺ، ومنهم

---

(١) طبقات ابن سعد (٨/ ٣٠٠ و٣٠١)، وانظر القصة بمعان متقاربة في: المغازي للواقدي (١/ ٨٩)، والاستيعاب (١٢/ ٣١٤ و٣١٥)، والاستبصار (ص٦٦ و٦٧)، وأنساب الأشراف (١/ ٢٩٨ و٢٩٩)، وسير أعلام النبلاء (٣/ ١٩٩)، وأسد الغابة (٦/ ١٠٧) ترجمة رقم (٦٩١٠)؛ وفي أسد الغابة قال ابن الأثير ـ رحمه الله ـ: إنّ أسماءَ بنتَ مخرّبة قالتْ للرُّبيِّع بنتِ معوِّذ: حرامٌ عليَّ أنْ أبيعَك مِنْ عطْري شيئاً. فقالتْ لها الرُّبيِّعُ: وحرامٌ عليَّ أنْ أشتريَ منكِ شيئاً، فما رأيتُ لعطرٍ نَتَناً غيرَ عطْرِك، ثمَّ قُمْتُ، وإنَّما قلتُ ذلكَ لأغيظها. (أُسد الغابة ٦/ ١٠٧).

(٢) سبل الهدى والرشاد (٢/ ١٠)، ودلائل النبوة للبيهقي (١/ ٢٠٠)، وأسد الغابة (٦/ ١٠٨)، ودلائل النبوة للأصفهاني (٢/ ٧٧٥)، والاستيعاب (١٢/ ٣١٦)، وغيرها كثير.
قالَ الطِّيبي ـ رحمه الله ـ: قولَها: لقلتَ الشمسُ طالعةٌ: أيَ لرأيتَ شَمْساً طالعةً، جرَّدَتْ منْ نفسهِ الشَّريفة شَمْساً، وهي نحو قولك: لئن لقيته لتلقَيْنَ أَسَداً، وإذا نظرتَ إليه لم تَرَ إلاَّ أَسَداً.

أبو هُريرة ـ رضي الله عنه ـ الذي بَـرَعَ في هذا المجالِ ، ووصفَ النَّبيَّ ﷺ وَصْفاً جَميلاً فقال: ما رأيتُ شيئاً قطّ أحسنَ من رسولِ اللهِ ﷺ كأنَّ الشَّمسَ تجري[1].

* وللهِ درّ ابنُ الفارضِ حيث قال:

وَعَلَـىٰ تَفَنُّـنِ وَاصفِيـهِ بحسْنِـه يفنىٰ الزَّمانُ وفيهِ ما لَمْ يُوصَفُ

* ومنَ الآثارِ الحِسَانِ في حَيَاةِ الرُّبيعِ ـ رضي الله عنها ـ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قد تَوضَّأَ عندها ، وفازتْ إذ ذاك بنفحاتٍ مباركاتٍ ، حيثُ رأتْ يومَها كيفيّة وضوئِهِ الشَّريف ، وقد عَرفَ أصحابُ النَّبيِّ ﷺ هذه المنقبةَ النَّفيسةَ للرُّبيِّع ابنةِ معوّذ ـ رضي الله عنهما ـ ، فجاؤوا يسألونَها عنْ ذلك إذْ كانوا حريصينَ أشدَّ الحِرصِ علىٰ اتّباعِ السُّنَن والآثارِ النَّبويّةِ.

* ذكر ابنُ عبد البرِّ أنَّه رُوي عنِ الرُّبيِّع ، أنَّ النَّبيَّ ﷺ توضَّأَ عنْدها ، وأنَّها سَكَبَتْ عليهِ الماء لوضوئه ، وأنَّ ابنَ عبَّاس ـ رضي الله عنهما ـ أتَاها فَسَأَلها عن وضوءِ رسولِ اللهِ ﷺ[2].

* وتكونُ الصورةُ أَضْوأَ وأوضحَ إذا استمعنا إلىٰ الرُّبيِّع وهي تروي صفةَ وضوءِ رسولِ اللهِ ﷺ فيما أخرجَهُ أبو داود عنها بسندٍ رفَعَهُ إلَىٰ محمّد بن عقيل عن الرُّبيِّع بنتِ معوِّذ بن عفراءَ قالت: كان رسولُ اللهِ ﷺ يأتينا ، فحدثَتْنَا أنَّه قالَ: «اسكبي لي وضُوءاً» فذكرتُ وضوءَ رسولِ اللهِ ﷺ ، قالتْ فيه: فَغَسَلَ كفَّيْهِ ثَلاثاً ، وَوَضَّأَ وجْهَهُ ثَلاثاً ، وَمَضْمَضَ ، واستنشقَ مَرَّةً ، ووضَّأَ يديهِ

---

(١) مسند أحمد (٢/ ٣٥٠ و٣٨٠)؛ وقالَ الطِّيبي ـ رحمه الله ـ: شَبَّه جريانَ الشَّمسِ في فَلِكها بجريانِ الحُسْن في وجْهه ﷺ ، ومنه قولُ الشَّاعر:

يـزيْـدُكَ وجهُـهُ حُسْنـاً إذا مـا زِدْتَـه نَظَـرا

ولله در من قال:

لِـمَ لا يضـيءُ بـكَ الـوجُـودُ وليلُـهُ فيـهِ صَبَـاحٌ مـنْ جمـالِـكَ مُسْفِـرُ
فبشمـسِ حُسْنِـكَ كـلَّ يـومٍ مشْـرِقٌ وببـدرِ وجْهِـك كـلُّ ليـلٍ مُقْمِـرُ

(٢) انظر في هذا الموضوع النفيس تفسير القرطبي (٦/ ٨٩).

ثَلاثاً ثَلاثاً ، ومَسَحَ برأسهِ مرتَيْن يبدأُ مؤخَّرِ رأسه ثمَّ بمقدمهِ ، وبأذنيه كلتيهما ظهورهما وبطونهما ، ووضَّأَ رجلَيْهِ ثلاثاً ثلاثاً[1] .

الرُّبَيِّعُ بَيْنَ الصُّحْبَةِ والرِّوايَةِ :

* منَ الطَّبيعي أنْ تكونَ الرُّبيِّعُ ـ رضي الله عنها ـ إحدىٰ بناتِ الصَّحابة اللاتي رَوينَ حديثَ رسولِ اللهِ ﷺ ، وحفظْنَه ، ونقَلْنَه للأُمَّة تَعْليماً وتَفْهيماً ؛ لصحْبَتِها النبي ﷺ .

* قال الذَّهبيُّ: لها صحبةٌ ورِوايةٌ. وقال أيضاً: وحديثُها في الكُتُبِ السِّتَّةِ. وقال العامريُّ في «الرياض المستطابة»: خرّجَ لها الجماعةُ.

* روىٰ عن الرُّبيِّعِ أهلُ المدينةِ ، وروىٰ عنها منَ الرِّجال: سليمانُ بنُ يَسار ، وأبو سلمةَ بنُ عبد الرحمن ، وهما من كِبارِ عُلماء التَّابعين السَّبْعة ؛ وكذلك روىٰ عنها نافعٌ مولىٰ ابنِ عمر ، وعبادةُ بنُ الوليد بنِ عبادة بن

---

(١) أخرجه أبو داودَ في الطَّهارةِ ، في باب صِفَةِ وضُوء النَّبيِّ ﷺ برقم (١٢٦) ، والتّرمذي في الطَّهارة برقم (٣٣) وقال: حديثٌ حَسَن ، وابنُ ماجه برقم (٤١٨) ، وأحمد (١٠/ ٢٨٨) برقم (٢٧٠٨٣). وأمّا معرفة فِعْلِ الوضوءِ ، فالأصلُ فيه ما ورَدَ منْ صفتهِ في قولهِ تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ﴾ [المائدة: ٦].
وما وَرَدَ منْ ذلك أيضاً في صفةِ وضُوءِ النَّبيِّ ﷺ في الآثارِ الثَّابتة.
هذا وقَدِ اتَّفقَ العُلماءُ علىٰ الواجبِ منْ طهارةِ الأعضاءِ المغسولةِ ، هو مرّة مَرّة إذا أسبغَ ، وأنَّ الاثنين والثَّلاث منـدوبٌ إليهما ، لما صحَّ أنَّـه ﷺ: توضأَ مرّةً مـرَّةً ، وتوضأَ مرَّتين مرَّتين ، وتوضأَ ثلاثاً ثلاثاً.
ويحسُنُ بنا أنْ نشيرَ إلىٰ الحالاتِ الثَّلاثِ في وضوءِ النَّبيِّ ﷺ.
* فالوضوءُ مرَّةً مرَّةً ، قد وَردَ من حديثِ عبدِ اللهِ بنِ عبَّاس ـ رضي الله عنهما ـ وقد أخرجه البُخاري برقم (١٥٧) وغيره.
* وأمّا الوضوءُ مرتَيْن مرتَيْن ، فقد وَرَدَ منْ حديثِ عبدِ اللهِ بنِ زيد ـ رضي الله عنه ـ وقد أخرجه البخاريُّ أيضاً برقم (١٥٨).
* وأمّا الوضوءُ ثلاثاً ثلاثاً ، فقد أخرجَه البخاريُّ برقم (١٥٩) ، من حديث عثمانَ موقوفاً. وأخرجه مسلم باختصار «أنَّ النَّبيَّ ﷺ توضأَ ثَلاثاً ثلاثاً».

الصَّامت ، وخالدُ بنُ ذكوان ، وعبدُ اللهِ بن محمّد بن عَقيل ، وأبو عُبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر . ومنَ النِّساء ، روتْ عنها ابنتها عائِشةَ بنتَ أنسِ بنِ مالك[1] .

* وبلغَ عددُ مروياتها (٢١ حديثاً)[2] موزَّعةً في كُتُبِ الصَّحيحِ والسَّنَنِ ، فقد روىٰ لها البخاري ومسلم ، واتَّفقا علىٰ حديثٍ ، وروىٰ لها الجماعة .

* فمن مروياتِ الرُّبيِّع ما جاء في الصَّحيحَيْن ، عن خالدِ بنِ ذكوانَ عنِ الرُّبيِّع بنتِ معوِّذ قالتْ : أرسلَ رسولُ اللهِ ﷺ غداةَ عاشوراء إلىٰ قُرىِ الأنصارِ التي حَوْلَ المدينةِ : «مَنْ كانَ أصبحَ صَائِماً فليُتمَّ صومَه ، ومَنْ كانَ أصبحَ مُفْطِراً فليتمَّ بقيةَ يومِهِ» . فكُنَّا بَعْدَ ذلك نصومُه ونصوِّمُ صبيانَنا الصِّغار منهم إنْ شاءَ الله ، ونذهبُ إلىٰ المسجدِ ، فنجعلُ لهم اللعبةَ من العِهْنِ ، فإذا بكىٰ أحدهم علىٰ الطَّعام أعطيناها إياه عنْد الإفطار»[3] .

* ومنْ مروياتها في أبوابِ الجهاد ، ما أخرجهُ الإمامُ أحمد بسنده عن خالدِ بنِ ذكوان[4] عن الرُّبيِّعِ بنتِ معوِّذ بنِ عفراءَ قالت : كُنَّا نغزو معَ

---

(١) انظر : الإصابة لابن حجر (١٢/ ٢٥١) ، والاستيعاب بهامش الإصابة (١٢/ ٣١٦)، وأعلام النساء (٤٤٣٨) .

(٢) جوامع السيرة النبوية (ص٢٨٢) .

(٣) أخرجه الشيخان واللفظ لمسلم ، انظر صحيح مسلم (٣/ ١٥٢)؛ والبخاري برقم (١٩٦٠) ، وأحمد (١٠/ ٢٩٠) برقم (٢٧٠٩٣) . و«العهن» : الصوف .

(٤) خالدُ بنُ ذكوان ، أبو الحُسين المدني ، حديثُهُ في البصريين ، روىٰ عن الربيع بنتِ معوذِ بن عفراء ولها صحبة ، وأمِّ الدرداء الصّغرى ، وأيوب بن بشير بن كعب .
وعنه : حمّاد بن سلمة ، وبشْر بن المفضل ، وعبد الواحد بن زياد ، وأبو معشر البراء ، ومحبوب بن الحسن ، ومحمد بن دينار الطائي .
وثَّقهُ ابنُ معين ، وقال أبو حاتم : صالحُ الحديثِ ، قليل الحديث محلُّه الصِّدق ، وقال النَّسائي : ليس به بأس ، وذكره ابن حبّان في الثقات (تهذيب التَّهذيب ١٠/ ٥٠٨) رقم (١٦٨٩) بتصرف .

رسولِ اللهِ ﷺ ، فنسقي القومَ ، ونخدمُهم ، ونردُّ الجرحىٰ والقَتْلىٰ إلىٰ المدينة[1] .

* وممّا رواهُ لها أصحابُ السُّنَن ما جاءَ عند النَّسائي عن الرُّبيِّع بنتِ معوِّذ أنَّ ثابتَ بنَ قَيس بنِ شمّاس ضَرَبَ امرأته فكَسَرَ يَدها ، وهي جميلةُ بنتُ عبدِ اللهِ بنِ أُبيّ ، فأتىٰ أخوها يشْتكيه إلىٰ رسولِ اللهِ ﷺ ، فأرسلَ إليه ، فقالَ : «خذ الذي لها عليكَ وخلِّ سبيلَها» .

قال : نعم .

فأمرهَا رسولُ اللهِ ﷺ أنْ تتربّص حيضةً واحدةً ، وتلحقَ بأهلِها[2] .

* ويبدو أنَّ الرُّبيِّعَ نفسَها قد اختلعَتْ منْ زوجِها سنةَ (٣٥ هـ) ، عند حصارِ عُثْمانَ ـ رضي الله عنه ـ ، وتروي الرُّبيِّعُ ذلك فتقول: قُلْتُ لزوجي : أختلعُ منك بجميعِ ما أمْلِكُ .

قال : نعم؛ فدفعتُ إليه كلَّ شيءٍ غير درعي ، فخاصمني إلىٰ عثمانَ ، فقال : له شَرْطُه ، فدفعته إليه[3] .

* وحدَّثَ عبادةُ بنُ الوليدِ بنِ عبادةَ بنِ الصَّامت عن الرُّبَيِّع بنت معوِّذٍ قال : قلتُ لها؛ حدثيني حديثك .

قالت : اختلعتُ منْ زوجي ، ثم جئتُ عثمانَ ، فسَأَلْتُ ماذا عليَّ منَ العدّة؟

قال : لا عدةَ عليك إلاَّ أنْ يكونَ حديثُ عَهْدٍ بكِ ، فتمكثينَ حتى تحيضي حيضةً .

---

(١) المسند (١٠/ ٢٨٩) رقم (٢٧٠٨٥) .

(٢) أخرجه النسائي في الطلاق (٦/ ١٨٦) ، وأبو داود برقم (٢٢٢٥ و٢٢٢٨) والترمذي رقم (١١٨٥) وانظر : تفسير القرطبي (٣/ ١٤٤) .

(٣) طبقات ابن سعد (٨/ ٤٤٧) ، والإصابة (١٢/ ٢٥٢) .

قالت: وإنّما تَبِعَ في ذلك قضاءَ رسولِ اللهِ ﷺ[1].

* وكانَ عبدُ اللهِ بنُ عمر ـ رضي الله عنهما ـ يسألُها عن قضاءِ عثمانَ ـ رضي الله عنه ـ حينما اخْتَلَعَتْ من زوجها[2]. ويقولُ ابنُ عمر عن عثمانَ: فعثمانُ خيرُنا وأعلمُنا[3].

مِـنَ الـمُـعَـمَّـرَاتِ:

* عاشتِ الرُّبيِّعُ بنتُ معوِّذٍ ـ رضي الله عنهما ـ في ظلالِ الخلافةِ الرَّاشدةِ، وشطراً من خلافةِ بني أميّة، وكان لها مكانةٌ رفيعةٌ عندَ الخلفاءِ لما يعلمونَ مِنْ قَدْرها عند رسولِ اللهِ ﷺ وكانتْ حياتُها حافلةً بالعطاءِ والفَضَائِل رضي الله عنها، لأنَّها عُمرت كثيراً.

* ويبدو أنَّ الرُّبيِّعَ منْ بناتِ الصَّحابةِ المُعَمَّرات اللواتي امتدتْ بهنَّ الحياةُ رَدْحاً منَ الزَّمن.

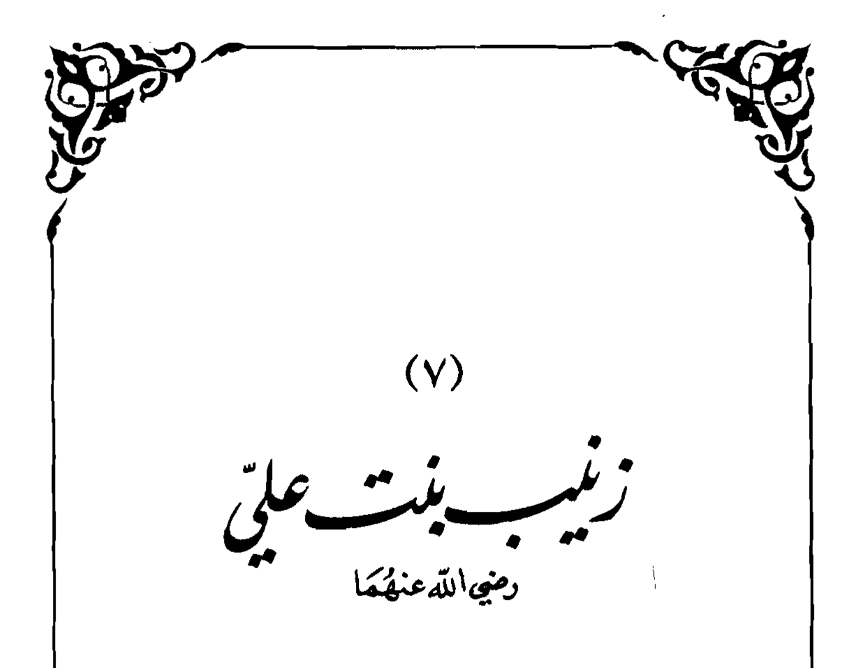
* ولكنَّنا لا نعلمُ بالتَّحديدِ متىٰ كانت وفاةُ الرُّبيِّع، إلاَّ أنَّ العلاَّمةَ الذَّهبي يقولُ: توفيتْ في خلافةِ عبدِ الملكِ بن مروانَ سنة بضعٍ وسبعينَ منَ الهجرة[4].

* رضي الله عنِ الرُّبيِّع، وجَعَلَها في مستقرِّ رحمتِهِ، ولعلَّ بناتِنا يقتدينَ بسيرتها، فَيَكُنَّ منْ ذواتِ الفَضْلِ، وينفعنَ أولادَهنَّ ومجتمعهنَّ، ويتابعنَ مسيرةَ بناتِ الصَّحابةِ في العلم والمعرفة؛ ويكنَّ من أعلام النساء في وقت يحتاجُ إلىٰ هؤلاء الأعلامِ.

* * *

---

(١) أخرجه النسائي (٦/ ١٨٦ و١٨٧)، وابن ماجه في الطلاق برقم (٢٠٥٨).
(٢) الاستيعاب (١٢/ ٣١٦).
(٣) انظر: المحلىٰ لابن حزم (١٠/ ٣٧)، وتفسير ابن كثير (١/ ٢٧٦).
(٤) سير أعلام النبلاء (٣/ ١٩٨ و١٩٩). وقالت بعضُ المصادر: إنَّها توفيتْ سنةَ (٤٥ هـ) في خلافةِ معاوية بن أبي سفيان ـ رضي الله عنهما ـ.
وذكرَ الزِّركليُّ في الأعلامِ (٣/ ٣٩) بأنَّها عاشتْ إلىٰ أيّامِ معاويةَ ـ رضي الله عنه ـ.



(٧)

زينب بنت عليّ

رضي الله عنهما

* ابنةُ فاطمة الزهراء رضي الله عنها .

* رضعت أفاويق البلاغة ، وتغذَّت على رحيق الفصاحة .

* شهدت مصرع أخيها الحسين بن علي بين الأسنة والرماح .

* شجاعة ، رابطة الجأش ، ولها مكانة مرموقة .

مِـنْ دَوْحَـةِ الفَضَـائِـلِ والنَّـدىٰ:

* ترىٰ ابنةُ مَنْ تكونُ هذهِ المرأةُ التي ملأتْ دُنْيا الشُّهرة ، وشَغَلَتْ صَفَحاتِ المَصَادِرِ بأخْبَارِها؟!

* إنَّها تَحدَّرتْ منْ أَصلٍ زكىٰ أَصْلاً وفَرْعاً ، بلْ هي:

مِـنْ مَعْشَـرٍ حبُّهـم دِيْـنٌ وبُغْضُهُـمُ   كُفْـرٌ وقُـربُهُـمُ مَنجـىٰ ومُعْتَصَـمُ
إنْ عُدَّ أهْلُ التُّقىٰ كانُوا أَئِمَّتَهم   أو قيلَ مَنْ خَيرُ أهْلِ الأرضِ قيلَ هُمُ

* وهيَ منْ دوحةٍ مُورقةٍ فَيْنَانَةٍ ، قَدْ وَصَلَ أَهْلُهَا النَّهارَ بلَيْلِهِ في طَاعةٍ ، وصَلاتُهم موصولةٌ بصيامٍ ، كُحِلَتْ مُقَلُهُم بتقوىٰ اللهِ ، فهمْ كَما خاطَبَهم أيمنُ بنُ خريم الأَسَديّ مُشيراً إلىٰ صِفَاتِهم وتعبّدهم:

نَهَـارُكُـمُ مُكَـابَـدَةٌ وَصَـوْمٌ   وليلُكُـمْ صَـلاةٌ واقْتِـرَاءُ[1]

* والآن ، دعونا نَقْتَربْ بهدوءٍ وجلالٍ ، كيما نتعرَّفَ هُويَّةَ ابنة الصَّحابي هذه ، التي نُنَدي القُلُوبَ بالحديثِ عنها ، ونجلو النُّفوسَ في قراءةِ أَخْبَارِها ، ونمتعُ الأسماعَ بمكارِمِ فضائِلها ، وفَضَائِلِ مَكَارِمها:

فَهـيَ بَـدْرٌ بـلا خُسـوفٍ وشَمْـسٌ   دونَ كَسْـفٍ والبَضْعَـةُ الـزَّهْـراءُ

* إذاً ، فابنةُ صحابي هذه الصَّفَحات منْ بنَاتِ البيتِ النَّبويِّ الطَّاهِرَاتِ ، ذلك البيتُ المتفرِّدُ في الدُّنيا بجميعِ المحَامِدِ والمكارِمِ؛ وآلُ ذلك البيتِ جاءَ مدحُهم مُبيَّناً في الكتابِ المبين؛ نَعَمْ ـ أحبّائي الكرام ـ ومَنْ يوفّي كَمالَ مَنْ اغترفُوا منَ المعينِ النَّبويِّ حقَّهم ، أو شيئاً مِنْ ذَلك؟!

لا يُضَـاهِـي آلَ النَّبـيِّ وَصيـفٌ   لا يُـوَفّـي كَمَـالَهُـم أُدبَـاءُ
شَـرُفَـتْ منهـم النُّفـوسُ وسَـاروا   حيثمـا أَشْـرَفُـوا منهـم شُـرفَـاءُ

---

(١) الأغاني (٢٠/ ٣٢٤).
«اقتراء»: قراءة.

* فَمَنْ هذهِ إذاً التي يَطيبُ الحديثُ عنها في هذه الصَّفحاتِ المباركات؛ إنَّها التي امتَدَحَها أحدُهم بقوله:

وَزيْنَبُ وَرْدَةُ الزَّهراءِ بنتُ علي　　أختُ الحُسَين لها بَينَ الورىٰ شَانُ

قالتْ لنا بلسانِ الشُّكْرِ واصفةً　　نَسْلُ الرَّسولِ الذي حيَّاهُ قُرآنُ

* اللهُ أكبرُ، إنَّنا نعيشُ إذاً في ظلالِ سِبْطة رسولِ اللهِ ﷺ، وابنة ابنتهِ فاطمة الزَّهراء سيِّدة نِساء العَالمين، وإحدىٰ نِساء أهلِ البيتِ الذي أذهبَ اللهُ عنه الرِّجس وطهَّرهُ تَطهيراً، نعيشُ معَ زينبَ بنتِ عليّ بنِ أبي طَالب الهاشميّة القرشيّة المَدَنيّة[1]، أشهرِ بناتِ الصَّحابة اللاتي بَرزْنَ في تَواريخ النِّساءِ بكلِّ فَضيلة ومكرمة.

زَيْنَبُ وَكَرَمُ الأعْرَاقِ:

* إذا قُلنا إنَّ زينبَ ابنةَ عليٍّ ـ رضي الله عنهما ـ مِنْ أَعْلىٰ بناتِ الصَّحابة أصْلاً وحَسَباً ونَسَباً، فلنْ نبالغَ في ذلك، إذْ إنَّ عراقَتَها في بناتِ الصَّحابةِ

---

(١) عُدْتُ إلىٰ عشَراتِ بل مئاتِ المصادرِ عندما كتَبْتُ عنْ زينبَ بنتِ عليّ ـ رضي الله عنها ـ، وألفيْتُني غارقاً بينَ صفحاتها، لكنّي بعونٍ منَ اللهِ وفَضْلٍ، حَاولتُ رسْمَ المعالمَ الصَّحيحة لزينبَ قَدْر ما أستطيعُ، وذلك كيما تكونَ صورتُها وضيئةً سليمةً مِنْ كلّ ما نُسبَ إليها، ومنَ المصادر التي رجعتُ إليها علىٰ سَبيلِ المثال: أسد الغابة (٦/ ١٣٢)، والإصابة (١٢/ ٢٩١) والدّر المنثور (ص٢٣٣ ـ ٢٣٥) وكتاب البُلدان لابن الفقيه (ص٢٢٤)، وبلاغات النّساء (ص٣٦ ـ ٣٨)، والخُطط التوفيقية الجديدة (٥/ ٢٢ ـ ٣٠)، وطبقات ابن سعد (٨/ ٤٦٥)، ونسب قريش (ص٤١)، وأعلام النّساء (٢/ ٩١ ـ ٩٩)، ونهاية الأرَب (٢٠/ ٤٣٦ و٤٥٩ و٤٦٥ و٤٦٦)، وتاريخ مدينة دمشق (تراجم النِّساء ص١١٩ ـ ١٢٤)، وتاريخ الطّبري (٣/ ١٦٢ و٣٣١ و٣٣٧)، وإسعاف الرّاغبين هامش نور الأبصار (ص٢١٧ ـ ٢٢٨)، ونور الأبصار (ص٢٠١ ـ ٢٠٤)، والعقد الفريد (٦/ ١٣٦)، وجمهرة أنساب العرب (١/ ١٣٧) وغيرها كثير جداً مما لا يُحصى ولا يُحصر في هذا المقام.

واضحةٌ وضوحَ البَدْرِ في ليلةِ تَمامِه ، بل إنَّ المكارمَ تحيطُ بها إحاطةَ السِّوار بالمعْصَمِ .

* فَلَقَد وُلدَتْ زينبُ[1] ـ رضي الله عنها ـ ووُلِدَ معها نصيبُها من شَرفِ المحامدِ ، وفَتَحَتْ عينَيها علىٰ الشَّرفِ الوافي الذي ترعرعَتْ بينَ أزَاهِرِه ، وتربَّتْ علىٰ أندائِهِ .

* فهَذا جدُّها ، ومَنْ كجدِّها سيِّدنا محمّد رسولِ اللهِ ﷺ؟!

وأَفْضَلُ خَلْقِ اللهِ علىٰ الإطْلاقِ نَبيُّنا فَمِلْ عنِ الشِّقاقِ

* فهو الرَّسولُ الخَاتَم ، والنَّبيُّ المفَخَّمُ ، سيِّدُ العَربِ والعَجَم ، رأسُ البيتِ النَّبويِّ ، ورأسُ كلِّ فَضْلٍ وفَضيلةٍ وشَرَفٍ ، و . . . .

فانْسُبْ إلىٰ ذاتِهِ ما شِئْتَ مِنْ شَرَفٍ وانْسُبْ إلىٰ ذاتِهِ ما شِئْتَ مِنْ عِظَمِ
فإنَّ فَضْلَ رسولِ اللهِ ليسَ لَهُ حدٌّ فيعرِبُ عَنْه نَاطِقٌ بفَمِ

* نعم إنَّ جدَّها :

نبيٌّ كَريمٌ رؤُوفٌ رحيمْ بنصِّ الكِتَابِ وحكْمِ العُقُولْ
إمامُ الهدىٰ المجتبىٰ المصطفىٰ بأزكىٰ شهيدٍ وأهدىٰ دَليلْ
بهِ أظهرَ اللهُ دِيْنَ الهدىٰ وعلَّمَ كيفَ سواءَ السَّبيلْ

* وأبوهَا فَارسُ الفِتْيان ، وفتىٰ الفُرسان ، منزلتهُ في عَالم الشُّجعان ، لا تخفىٰ علىٰ كلِّ ذي لُبّ وَجَنَان ، أمنَ برسولِ الرحمن ، ولمّا يبلغْ مَبْلغَ الشُّبَّان؛ وهو فوقَ هذا وذاك ابنُ عمِّ رسولِ اللهِ ﷺ وصهرُهُ وحبيبُه ، وأبو سِبْطَيه أبو الحسنَيْن ، بل فارسُه وسيفُه :

وإنَّ عَليّاً كانَ سيفَ رسُولِهِ وصاحِبَه السَّامي لمْجدٍ مُشَيَّدِ
وصهُر النَّبيِّ المجتبىٰ وابنُ عمِّه أبو الحَسَنَيْن المحتوي كلَّ سُؤْددِ

---

(١) كانَ مولدُ زينبَ ـ رضي الله عنها ـ في المدينةِ المنوَّرةِ سنةَ خمسٍ منَ الهجرةِ النَّبوية ، وهي أكبرُ بناتِ عليّ من زَوْجهِ فاطمة الزَّهْراء ـ رضي الله عنهم جميعاً ـ كما أنَّ زينبَ أوَّلُ مولودةٍ منَ الإناثِ من ذريَّة الزَّهراء .

وأقــربُهــم للحـقِّ فيهـا وكلُّهــم أُولُو الحقِّ لكنْ كَانَ أقربَ مُهتدي

* وهو الخليفةُ الرَّاشدي الرَّابع ، ذو الفَضْل بالإجماع ، بلا مدافعةٍ ولا ممانعةٍ ، صاحبُ القَدْرِ الرَّفيع أميرُ المؤمنين ـ رضي الله عنه وأرضاه ـ ولله دَرُّ النَّاظم حيثُ أنشد في الخلفاء الرَّاشدين ثمَّ ذَكَرَ عليّاً فقال :

والـرَّابـعُ ابـنُ عـمِّ خَيْـرِ الـرُّسْـلِ أعْني الإمامَ الحقَّ ذا القَدْرِ العَلي
مَـنْ كـانَ للـرَّسُـولِ فـي مكـانِ هـارونَ مـنْ مـوسـىٰ بـلا نُكْـرانِ

* وعمَّها : جعفرُ بنُ أبي طالبَ ذو الجنَاحين ، الكريمُ الجوادُ السَّخيُّ المعطاءُ ، أشبهُ الرِّجال بأعلىٰ النَّاس قَدْراً وخيرِهم أجمعين ، النَّبيّ ﷺ الذي قالَ له : «أَشْبَهْتَ خَلْقِي وخُلُقي» ، وجعفرُ هذا ، ذلك الصَّحابي البليغُ الخطيبُ ، الذي تكلَّمَ بالبيانِ الإلهيّ أمامَ النَّجاشي في الحبشَة :

راعَـــهُ جَعْفَـــرُ بقَـــوْلٍ مُبَيـــنٍ فَــرَأىٰ الحــقَّ واضحــاً واليَقيْنَــا

* واهتدىٰ قَلْبُ النَّجاشي ، وآثَرَ دِينَ الحقِّ ودِينَ الصِّدْقِ ، فهذا خاتمَ الأنبياءِ والمُرسلينَ ، وهؤلاء أَتْباعُه ، إذاً فليقُلِ النَّجاشي أمامَ جَعْفَر :

ربِّ إنِّـي آمنْـتُ فـاغْفِـرْ ذُنـوبـي واهْـدِنـي فـي عبَـادِك المـؤْمنينَـا

* وأمَّا عمُّ أبيها حمزةُ بنُ عبد المطلب فهو ليثُ الله ، وليثُ رسولِهِ ، وسيِّد الشُّهداء ، وأخو رسولِ الله ﷺ من الرَّضاعة :

فَفَـازَ وأضْحـى سيِّـدَ الشُّهـداءِ فـي مـلائكـةِ الـرَّحمٰـنِ يسعـىٰ ويغْتَـدي
وزادَ إلــىٰ فَضْــلِ العُمــومَــةِ أنَّــه أخوهُ رضاعاً هكذا المجدُ فاشْهَدي

* وأمَّا عمُّ أبيها الآخر فالعبَّاسُ ؛ وهل يخفىٰ فَضْل العبَّاسِ علىٰ أحدٍ؟ فهو عمُّ النَّبيِّ ﷺ ، وصنو أبيه :

فَقَدْ بلغَ العبَّاسُ في المجْدِ رتبةً تقـولُ لبـدرِ التَّـمِّ قَصَّـرتَ فـابْعُـدِ
وقـالَ رسُـولُ اللهِ فِيْـهِ علـىٰ مـا عَلَيـهِ وأيضـاً مثلُـه فـي التَّـزيُّـدِ
أَلا إنَّ عــمَّ المَـرْءِ صنو أبيـهِ كـيْ يــزيــدَهُــم فــي بــرّه المُتــأيِّــدِ

* وأمَّا أخواها الشَّقيقَان ، فهُما الحبيبانِ الأثيرانِ لحبيبنا محمّد ﷺ ،

وهما الحسنُ والحُسينُ ـ رضي الله عنهما ـ.

* فالحسنُ بنُ عليّ ، الإمامُ السَّيِّد ريحانَةُ الرَّسولِ ﷺ ، وسبطهُ ، وسيِّد شَباب أهْلِ الجنَّةِ ، وشبيهُ جَدِّه الرَّسول ﷺ.

* والحُسينُ ، الإمامُ الشَّريفُ الكاملُ ، سِبطُ رسولِ اللهِ ﷺ ، وريحانتهُ منَ الدُّنيا ومحبوبهُ؛ والحسنُ والحسينُ هما :

وَلِيْـــدَانِ أمُّهمـــا بَـــرَّةٌ حَصَـــانٌ مُطَهَّـــرةٌ للحَصَـــان

* نعم فأَخَوَا زينب الحسن والحُسين :

هُمَا قُرَّتَا عَيْنِ الرَّسُولِ وسَيِّدا شَبابِ الورىٰ في جَنَّةٍ وتَخَلُّدِ
وقَالَ هُما ريْحَانَتَايَ أُحِبُّ مَنْ أحَبَّهُما فاصْدُقْهُمَا الحُبَّ تَسْعَدِ
هما اقتسما شبه الرسول تعادلاً وماذا عسىٰ يُحصيه فيه تعدُّدي

* وأمَّا زوجُها فهو الجوادُ بنُ الجوادِ ، عبدُ اللهِ بنَ جعفرَ ، الصَّحابي ابنُ الصَّحابي ابنِ الصَّحابية ، وهو السَّيِّدُ العَالِم ، أبو جَعْفَر القُرشي الهاشمي ، له صحبةٌ وروايةٌ ، وهو أحدُ الأجواد المعدودين في دُنيا الجُودِ ، وعالم البَذْلِ والسَّخاء والعَطَاء ، وهو حاتَمُ الأجْوَادِ ، وخَاتَم الكُرَمَاء :

فَتىً تَهْربُ الأَمْوالُ مِنْ جُودِ كفِّهِ كما يَهْربُ الشَّيْطانُ منْ ليلةِ القَدْرِ

* ذلك نَسَبُ زينبَ منْ جهةِ الرِّجال ، أما طِيْبُ عنْصرها من جهةِ النِّساء ، فلم يكنْ أقَلَّ منَ الرِّجالِ ، حيثُ جَمَعتِ الشَّرفَ منْ أطرافِه.

* فجدَّتُها لأمِّها : إحدىٰ كَوامِلِ النِّساء في دُنيا الكمال ، وأوّل مَن نَطَقَ بالشَّاهدين ، وهيَ الطَّاهرةُ في الجاهليةِ والإسلامِ ، صدِّيقةُ المؤمناتِ ، ووزيرةُ الصِّدق لإمامِ الصَّادقين ، أمُّنا وسيِّدتنا ، وواسطة العِقْد الفَريد في نساء أهلِ البيت ، خديجةُ بنتُ خُويلد ـ عليها سحائب الرِّضوان ـ.

* وجدّتُها منْ جهةِ أبيها ، منَ السَّابقاتِ في مواكبِ الفضيلة ، والأوّليّات في رياضِ المكارمِ ، فهي أوّلُ هاشميّةٍ تزوجَّتْ هاشِميّاً ، وأوّلُ هاشميّةٍ وَلَدَتْ هاشميّاً ، وَوَلَدتْ خليفةً ، وأوّلُ هاشميةٍ حظيتْ بكفالةِ النَّبيِّ ﷺ إذْ

كانتْ له منْ بَعْدِ أمّه أمّاً ، وهي معَ هذا وذاكَ مِنَ المهاجِراتِ الأُوَل ، ومنْ عَالماتِ الهاشميّات ، رَوتْ عنِ النَّبيِّ ﷺ (٤٦ حديثاً) ، إنَّها فاطمةُ بنتُ أَسد الهاشميّة القُرشيّة ـ رضي الله عنها وأرضاها ـ.

* وأَمَّا أمُّ زينبَ ، فهل يستطيعُ القَلمُ أنْ يرسمَ ما يجولُ في النُّفوسِ ، ويرسمُ علىٰ الأوراقِ ما تخفيهِ الجَوانِحُ منْ تعظيمٍ وإكبارٍ لها؟! ، لا واللهِ ، ولكنَّ محبَّتي لأهلِ البيتِ رجالاً ونساءً أكبر من كلِّ الكلِمات ، أكبرُ من كلِّ الهَمَسات . . . وإنَّ حبَّهم لا يُترَجَمُ علىٰ الأوراقِ ، إلاَّ أنَّ أريْجَهُ وعِطْره يبقىٰ أثراً ، لعلَّ هذا الأثرَ يَصِلُ إلىٰ قلوبِ النَّاسِ ، فيشعروا بشَذاه ، ويحلِّقوا معَ أنْسَامِه إلىٰ أعلىٰ الآفاقِ.

* إنَّ أمَّ زينب سيِّدتنا فاطمة الزَّهراء ، أفْضَلُ النَّاس بعد أبيها ﷺ ، وسيِّدة نساءِ أهْلِ الجنَّة ، وابنة سيِّدةٍ منْ سيِّدات نساءِ العَالمين ، بل ابنة رسول ربِّ العالمين وخاتم الأنبياء والمرسلين ، أشهرُ بناتِ الدُّنيا علىٰ الإطلاق ، وأطهرُ الطَّاهرات ، وأمُّ الذُّريةِ الطَّاهرةِ ، ومن تَرشَحُ عنها الفَضَائِل ، ونَسْتَلْهِمُ من سيرتها المحاسنَ والمكارمَ ، إذ سيرتُها عِطْرُ المجَالسِ ، وأنْسُ المُجالِسِ ، وروحٌ وريحانٌ لكلِّ إنسان ، ـ رضي الله عنها وأرضاها ـ.

* وخالاتها: زينبُ بنتُ رسولِ الله ﷺ ، أولىٰ بناتِ النَّبيِّ ﷺ ، وأكبرُهن ، ثمَّ رُقيّةُ وأمُّ كُلثوم زوجا عثمانَ بنِ عفَّان ـ رضي الله عنه ـ.

* وهؤلاء البنات[1] الطَّاهرات كُنَّ مع أمِّهنَّ الطَّاهرةِ خديجة أوّلَ منِ استجابَ للإسلامِ ، فَهُنَّ أوّلُ نساءِ الدُّنيا إسْلاماً وإيماناً برسالةِ النَّبيِّ ﷺ.

* وعمّتها: السيِّدة الفاضِلة ، الصَّحابيةُ الكريمةُ أمُّ هانىء بنتُ عمِّ

---

(١) اقرأ سير بنَات النَّبي الطَّاهرات في موسوعتِنا الشّهيرة «نساءُ أهل البيتِ» (ص٤٥٥ ـ ٦٢٤) طبعة دار اليمامة الثَّالثة عام ١٩٩٨ م ففي سيرهنَّ طهرٌ للقلوب ، وأنسٌ للأرواح ، وزادٌ للنّفوس ، وقدوةٌ للصَّالحات ، ونبراسٌ لكلّ النّساء ، ولكلّ مَنْ تودُّ أنْ تكونَ سعيدةً في الدَّارَيْن ، وأرجو الله أنْ يجعلَ هذا الكتاب في ميزانِ حَسَناتي وحَسَنات كلُّ مَنْ يخصّني بدعوة منه بظهر الغيب.

النَّبيِّ ﷺ الهاشميّة المكيّة ، إحدىٰ ذَوَاتِ الشَّأْن في دُنيا المُسلمات منْ نساءِ الصَّحابة ، ومن ذواتِ القَرابةِ ، وهي إحدىٰ العَالِمات منْ بناتِ عمِّ المصطفىٰ ﷺ، حيثُ روَتْ (٤٦ حديثاً) ، وأحاديثُها منثورةٌ في كتب الصَّحيح والسُّنَنِ .

* وحماتُها: منْ أوائِل النِّساء اللائي تحلَّقْنَ حَوْلَ مائدةِ الحقِّ ، ونَطَقْنَ بالشَّهادَتَين ، وآمنَّ معَ السَّابقين والسَّابقاتِ ، وهي مهاجرةُ الهجْرتَين ، ومصليةُ القبلتَيْن ، زوجُ السَّيِّد الشَّهيد ، عَلَم المجاهدين جعفر بن أبي طالب ، إنَّها أسماءُ بنتُ عُميس الخثعميّة إحدىٰ الأخَواتِ المؤمناتِ اللواتي حظيْنَ بهذه الشَّهادة ذات الرَّحيق المختومِ ، منَ النَّبي المعصومِ ﷺ ، عندما قالَ عنها وعنْ أخواتِها: «إنَّ الأخواتِ لمؤمنات»[1] ، وهي مع هذا وذاكَ أكرمُ النَّاس أَصْهاراً ، فَمِنْ أصهارِها: رسولُ اللهِ ﷺ ، والحمزةُ والعبَّاسُ ـ رضي الله عنهما ـ وحَسْبُك بهؤلاءِ فَضْلاً ورفعةً .

* وأختُها الشَّقيقَةُ: أمُّ كُلثوم بنتُ عليّ ، إحدىٰ فرائدِ الدَّهر كَرَماً وعَقْلاً ، وهي زوجُ عُمَر بن الخطاب ، ولها منقبةٌ فريدةٌ في عَالَم الفرائدِ ، إذا إنَّ جَدَّهَا وأبَاها وزوجَها قَدْ شَهِدوا بَدْراً ، فما أعظمَ هذه المنقبة لأمِّ كلثوم أخت زينب[2] .

---

(١) أخرجه ابنُ سَعْدٍ في الطَّبقات (٨/ ٢٧٨).

(٢) كانَ لزينبَ بنتِ عليّ ـ رضي الله عنهما ـ أخواتٌ أخريات ، فقد أحصىٰ أبو جعفر الطَّبري بناتَ عليّ وهنَّ سبْعَ عشرةَ امرأةً ، كما أحصىٰ أولاده فقال:
جميعُ وَلَدِ عليّ ـ رضي الله عنه ـ لصُلْبِهِ أربعةَ عشَر ذكَراً ، وسَبْعَ عشرةَ امرأةً. وكان له بناتٌ منْ أمّهاتٍ شتّىٰ ، لم يُسَمَّ لنا أسماءُ أمّهاتهنَّ؛ منهن:
أمُّ هاني ـ ميمونةُ ـ زينب الصُّغرى ـ رملةُ الصُّغرى ـ أمُّ كُلثوم الصّغرىٰ ـ فاطمة ـ أُمامةُ ـ خديجة ـ أمُّ الكرامِ ـ أم سلمةَ ـ أمُّ جعفر ـ جمانةُ ـ ونفيسةُ بنات علي ، أمَّهاتُهنَّ أمّهات أولادِ شتّىٰ.
أمّا زوجهُ فاطمةُ الزَّهراء ـ رضي الله عنها ـ فقد ولدتْ له منَ الإناثِ: زينب الكبرىٰ ، وأمّ كلثوم الكبرىٰ.
وأمّا زوجه أمُّ سعيد بن عروة الثّقفيّة فولدتْ له: أمّ الحسن ، ورملة الكبرىٰ ، ومجموع هؤلاء سبع عشرة امرأة. =

* ولقد اشْتَهَرتْ نساءٌ كثيراتٌ ممنْ يكْمِلْنَ هَذا العِقْدَ ، ومنهنَّ زَوْجاتُ أخَويها الحسَن والحُسين وبناتُهنَّ ، ومنْ أَشْهرهنَّ سُكينة وفَاطمة ـ رضي الله عنهن جميعاً ـ.

* وهكذا عرفْنا كَرَمَ أعْراقِ زينبَ بنتِ عليّ ـ رضي الله عنهما ـ وأنَّ أهلَها أسيادُ الأسْيادِ ، وسَادات السَّادات ، فلله درُّ أهل هذا البيت :

حُـبُّ آلِ النَّبـيِّ خَـالَـطَ عَظْمـي ... وجَـرىٰ فـي مفَـاصِلـي فـاعْـذُرونـي
أَنَـــا واللهِ مُغْـــرَمٌ بِهَـــواهـــم ... عَلّلـونـي بِـذِكْـرهـم عَلّلُـونـي

* بل مَنْ يعدِلُ هذا البيت؟

فَـلا تَعْـدِلْ بـأهْـلِ البيـتِ خَلْقـاً ... فـأَهْـلُ البَيْـتِ هُـم أهْـلُ السِّيـادة

* وبالجملة :

فَكُلُّهـــم فـــي مُحْكَـــمِ القُـــرآنِ ... أَثْنـىٰ عليهـم خَـالِـقُ الأكْـوانِ
وذِكْـــرُهـــم فـــي سُنَّـــةِ المُخْتَـــارِ ... قَـدْ سَارَ سَيْـرُ الشَّـمْس فـي الأَقْطَـارِ

زَينَـبُ فـي أحْضَـانِ الـزَّهْـرَاءِ :

* في تلكمُ البيئةِ الطَّاهِرةِ المطهَّرةِ ، نَشَأَتْ زينبُ ابنةُ عليّ ـ رضي الله عنهما ـ وهي تملأُ وجْدَانها منْ نفحاتِ البيتِ الطاهر المضمّخِ بالأريجِ النَّبويِّ ، والفوَّاحِ بأزاهرِ التَّقوىٰ منْ أمِّها الزَّهْراءِ سيِّدة النِّساءِ التي رأتْ فيها مَجْمَعَ كلِّ فضيلة.

* وكانتْ سيِّدتُنا فاطمةُ الزَّهراءِ تتدفَّقُ بكلِّ ألوانِ العَطْفِ والرحمةِ علىٰ ابنتها زينب ، لتكونَ علىٰ نَهْجِها ونَـهْج جدّتها خديجةَ بنتِ خُويلد الصِّدِّيقةُ المتفرِّدةُ بينَ نساءِ الأنبياء بأنَّها زوجةُ خاتَمِهم ، وسيِّدةُ نساءِ العَالمينَ ، وأوَّل أمَّهات المؤمنين ، وأَوْلاهُنَّ بقلْبِ النَّبيِّ ﷺ.

= انظر : (تاريخ الطّبري ٢/ ١٦٢) طبعة دار الكتب العلمية.
و(الكامل في التاريخ ٣/ ٣٩٨).
و(البصائر والذخائر ١/ ٢١٤).

* وكانتْ فاطمةُ الزَّهراءُ كثيراً ما تضفِي علىٰ جلْسَتِها معَ ابنتها زينبَ جَمالَ الحديثِ عنْ سيِّدة الطَّاهراتِ خديجة ، وكانت زينبُ تَسْتمعُ وتَسْتَمتعُ بسيرةِ جدَّتها التي تزدانُ بها المجالسُ ، ولعلَّها ذكرتْ كلماتها الشَّهيرة يوم نزلَ الرُّوحُ الأمينُ جبريلُ علىٰ النَّبيِّ ﷺ وقالتْ له : «إنَّك لتصدقُ الحديثَ ، وتَصِلُ الرَّحمَ ، وتحملُ الكَلَّ ، وتكسبُ المعدومَ ، وتُقري الضَّيف ، وتعينُ علىٰ نوائبِ الحقِّ ، وتؤدِّي الأمانةَ»[1] .

* وكانت زينبُ ابنة الزَّهراءِ تَصْغِي إلىٰ أحاديثِ أمِّها العِذَابِ ، وهي تحكي لها عنِ العَذَاب الذِي لَقِيَتْهُ الأسرةُ المحمّديّة منَ العُصْبةِ القرشيّة المشركةِ ، وكيف كانتْ تَصُدُّ عن سبيلِ الله بكلِّ سبيل ، ولكنَّ اللهَ متمُّ نورهِ ولو كَرِهَ المشركون .

* ولعلَّ الزَّهْراءَ قد مَرَّتْ بأنسامِ أحاديثها علىٰ قصَّةِ الهجرة ، وربما ذكرتْ لها فدائيةَ والدِها عليّ بن أبي طالب ، ونومَه في فراشِ النَّبيِّ ﷺ في تلكَ الليلةِ الشَّهيرةِ في عالم الليالي ، التي غيَّرتْ وَجْه التَّاريخ ، بل بدأ التَّاريخُ حياتَه من يومِ الهجرة .

* ويبدو لي أنَّ الزَّهراءَ ـ رضي الله عنها ـ كانتْ تغرِسُ في نَفْسِ صغيرتها ألوانَ التَّربيةِ الفاضلةِ ، وألوانَ المعرفةِ وإن كانت ما تزال غُصْناً رطيباً متفتِّحَ الزَّهر ، لم تظهرْ ثمارُه بَعْد ، إلاَّ أنَّ زينبَ كانت تستنشقُ تلكَ الهمَسَات اللطيفة التي تَسْتَروحها منَ أمِّها الرَّؤوم .

زينبُ وَفراقُ الزَّهْرَاء :

* لمَّا كانتِ السَّنَةُ الحادية عشرة منَ الهِجْرةِ ، لزمَ المرضُ فاطمةَ الزَّهراء ـ رضي الله عنها ـ ، فإذا بزينبَ تقف وعلاماتُ الحزنِ ترتسمُ على وجهها

---

(١) قطعة من حديث طويل في الصحيح ، إذ أخرجه البخاري برقم (٣) ورقم (٣٣٩٢ و٤٩٥٣ و٤٩٥٧ و٦٩٨٢) .

الصَّغيرِ البريءِ ، وهي ترىٰ أمَّها تُغَالبُ المرضَ الذي لزمَها قُبيلَ أشْهرٍ ، وذلك بُعَيد وفاةِ رسُولِ اللهِ ﷺ .

* كانتْ زينبُ كلَّما نظرتْ إلىٰ وجْهِ أمِّها الزَّهراء ، تمرُّ في ذاكرتها الصَّغيرةِ تلكم الأويقاتِ الحُلوةِ التي كانتْ تَروي لها فيها كثيراً منْ أخبارِ الأُسرةِ المُحمديّة والآثارِ النَّبويّةِ ، ولم تكنْ تتصوَّرُ أنَّها سَتَفْقدُ هذه الأمَّ العطوفَ التي تَجِدُ في قَلْبِها مَيْداناً رحيباً لكلِّ معاني الودِّ والحبِّ والعطفِ والحنانِ؛ يا الله ، ما أعظمَ هذا القَلْب!

* ولكنَّ قَلْبَ الزَّهراءِ الكبيرَ الرحيمَ توقَّفَ عنِ النَّبْضِ بُعَيدَ ستةِ شهور من وفاةِ أبيها المُصطفىٰ ﷺ ، توقَّف القَلْبُ العظيمُ ، فتوقَّفَتِ الآمالُ أمامَ الفتاةِ الصَّغيرةِ زينب ، وتراءتْ أمامَها الآلامُ بفَقْدِ ذلك القلبِ الكبير ، فقد رحلتْ أمُّها إلىٰ ربِّها راضيةً مرضيةً ، وغدا البيتُ موحشاً بَعْدَ رحيلِها .

* وابتدأتْ حياةٌ جديدةٌ معَ زينبَ بعد وفاةِ الزَّهراءِ ، وغدا قلبُ أبيها عليٍّ ـ رضي الله عنه ـ مكاناً آخرَ تَصُول فيهِ زينبُ وتجولُ ، لتجدَ فيه الظِّلالَ التي تتفيأُ تَحْتَها ، ألا ما أعظمَ هاتيكم القُلوب التي نبتُ بينَ جوانِحها أعلياءُ النَّاسِ رجالاً ونساءً .

* وغدتْ زينبُ وأختُها أمُّ كلثوم ، وأخواها الحَسَنُ والحُسين منْ أشهرِ مَشَاهيرِ أعلياءِ الدُّنيا ، وسترسمُ زينبُ أجملَ لوحاتِ العَطَاءِ في دُنيا بَنَاتِ الصَّحابةِ ، وستغدو كلماتُها آثاراً بيِّناتٍ في دُنيا البلاغةِ والبَيان ، ناهيك بمواقِفِها النَّاصعةِ في مواقفَ حرجةٍ والتي تشيرُ بأصابع الإعجابِ إلىٰ هذه البنتِ التي صَنَعَتِ الرِّجال ، وتركتْ أنداءُ كلماتِها أعْطَرَ الآثارِ في قلوبِ المحبِّين لآلِ البيتِ الذي أذْهَبَ اللهُ عنه الرِّجْسَ وطهَّرهُ تَطهيراً .

* ترىٰ ما الآثار التي تركَتْها هذه الفتاةُ الصَّغيرةُ الكبيرةُ في دُنيا بَنَاتِ الصَّحابةِ؟! بل ما الأعمالُ التي خَطَّتْها في جبين الدَّهر لترويَ الأجيالُ قصَّتها ، وتروي القلوب الظَّامئة بِفُراتِ أحاديثها؟!

* هذا ما ستجلوه لنا السُّطورُ التَّاليات ، فإلىٰ رقائِقِ الصَّفحات التي تختالُ

بسيرةِ سيّدة البنَات ، زينب ابنة الزَّهراء وابنة عليّ ، فنِعْمَ هذا العِقْدُ النَّفيس ، ونعْمَت تلكمُ الفتاة! .

شَذَرَاتٌ مِنْ عِلْمِها وحِكْمَتِها :

* لا شكَّ أنَّ سيِّدَنا عَليّاً ـ رضي الله عنه ـ منْ أعلياءِ عُلماء الصَّحابةِ ، ومن كبارِ عُلماءِ أهْلِ البيتِ النَّبوي الطَّاهر ، وآثارُه العلميّة تشهدُ بفضْله ، وإنَّ علمَه ومعارفَه تملأُ بطونَ المصَادِرِ وأسماعَ التَّاريخ؛ ولا شكَّ بأنَّ سيدتَنا فاطمة الزَّهراءِ ـ رضي الله عنها ـ ذات فَضْل عميمٍ في مجالِ العِلْمِ ورواية الحديث النَّبوي أيضاً ، فلا غرابةَ أنْ تَنْشَأَ ابنتُها زينب وهي تحملُ أنوارَ العِلْمِ إلىٰ محبِّي العِلْمِ في دنيا المعرفةِ.

* ولعلَّ أعظمَ مَصْدَرٍ استقتْ منه زينبُ علْمَها أمّها فاطمة الزَّهراء ، فقد حدَّثتْ زينبُ عنها ، كما حدَّثَتْ عن حماتِها أسماء بنت عُميس ، وحدَّثتْ كذلك عنْ مولىٰ للنَّبيِّ ﷺ يُدعىٰ طهمان أو ذكوان[1] .

* وروىٰ عن زينبَ حفيدُ أخيها الحسن ، ويُدعىٰ محمّد بن عمرو بن الحَسن بنِ عليّ بن أبي طالب المدني[2] ، وهو منَ الثِّقات ، وكذلك عطاء بن السَّائب الثَّقفي الكوفيّ المتوفىٰ سنة (١٣٦ هـ) وهو صَدُوقٌ أيضاً[3] .

* وروتْ عن زينبَ كذلك ابنةُ أخيها فاطمةُ بنتُ الحسين بن عليّ الهاشميّة المدنية[4] ، زوجُ الحسنِ بن الحسن بن عليّ ، إحدىٰ النِّساء الثِّقات المعمَّرات من نساءِ أهلِ البيتِ النَّبوي الطَّاهر ، والمتوفاة حوالي سنة (١١٧ هـ) .

---

(١) انظر : تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء ص١٢٠) .
(٢) انظر : تقريب التهذيب (٢/ ٥٤٣) ترجمة رقم (٦٤٣٤)
(٣) انظر : تقريب التهذيب (١/ ٤٠١) ترجمة رقم (٤٧٢٨) .
(٤) انظر : تقريب التهذيب (٢/ ٨٧٢) ترجمة رقم (٨٩٤٨) .

* ومن مرمرويات زينبَ ابنةِ علي ، ما أخرجه ابن عَسَاكر بسندهِ عن عطاء بنِ السَّائب قال: دَلَّني أبو جعفر علىٰ امرأةٍ يُقال لها زينب بنت علي ـ أو منْ بنات علي ـ قالت: حدَّثني مولىٰ للنَّبيِّ ﷺ يقال له: طهمان ـ أو ذكوان ـ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «إِنَّ الصَّدقة لا تَحِلُّ لمحمّدٍ ولا لآلِ محمّد، وإنَّ مولىٰ القومِ منهم»[1].

* ولعلَّ ما يؤيّدُ هذا الحديث النَّبويَّ الشَّريف ما قاله ابنُ قُدامة في «المغني» عنْ تحريمِ الصَّدقَةِ علىٰ بني هاشم[2]، فقال: لا نعلمُ خلافاً في أنَّ بني هاشِمٍ لا تَحِلُّ لهم الصَّدقةُ المفروضةُ، وقد قالَ النَّبيُّ ﷺ: «إنَّ الصَّدقة لا تنبغي لآلِ محمّد، إنَّما هيَ أوساخُ النَّاسِ، وإنَّها لا تحلُّ لمحمدٍ ولا لآلِ محمّد»[3].

* ولزينبَ ابنة علي ـ رضي الله عنهما ـ كلامٌ يجري مجرىٰ الحكمةِ، فقد رَضَعَتْ أفاويقَ البلاغةِ منْ أصولها، وتغذَّتْ علىٰ رحيقِ الفَصَاحةِ مِنْذ أنْ بدأَتْ تَعِي معنى الحياة، ولا عجبَ في هذا، فأبوها أميرٌ منْ أمراءِ البيَان في عَصْر الصَّحابةِ، وأخواها الحَسنُ والحسينُ منْ أفصَح النَّاس، وناهيكَ بأنَّها اقتبستْ كثيراً منْ فصحاءِ أهلِ البيتِ الذين أُثرتْ عنهم كلماتٌ في غايةِ الرَّوعة لما تحمله في أردانِها منْ أدبٍ وحكْمةٍ.

---

(١) انظر: تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء ص١٢٠).

(٢) وممَّن لا تحلُّ لهم الصَّدقَةُ: آل عليّ، وآل عقيل، وآل جعفر، وآل العبّاس؛ انظر سُنَن التّرمذي برقم (٣٢٠٣ و٣٨٦٨).

(٣) قطعةٌ منْ حديثٍ طويل أخرجه مسلمُ في صحيحه، في الزَّكاة برقم (١٠٧٢)؛ والصَّدقةُ كذلك لا تجوزُ علىٰ موالي بني هاشم، إذْ حرَّمَها الحبيبُ المصطفىٰ ﷺ عليهم، ودليلُ ذلك ما جاءَ عنْ أبي رافعٍ مولىٰ رسولِ اللهِ ﷺ أنَّ النَّبيَّ ﷺ بعثَ رجُلاً من بني مخزوم علىٰ الصَّدقةِ فقالَ: اصحبني كيما تصيبَ منها، قالَ: لا؛ حتّى آتي رسولَ اللهِ ﷺ فأسألَه، وانطلقَ فسأله فقال: «إنَّ الصَّدقَةَ لا تحلُّ لنا وإنَّ مواليَ القومِ مِنْ أنفسِهم». أخرجه أحمد، وأبو داود، والتّرمذي، وقال: حَسَنٌ صحيح.

* ومن كلامِ زينبَ بنتِ علي ـ رضي الله عنها ـ الذي تنبعثُ منه أنسامُ الحكمة ، وتفيضُ منْ جوانبه عبقاتُ أنوارِ النَّصيحةِ قولُها : مَنْ أرادَ أنْ يكونَ الخلقُ شفعاءَهُ إلىٰ اللهِ فليحْمِده ، أَلَمْ تَسْمَعَ قولهَم : سَمِعَ اللهُ لمن حَمِده؟! فَخَفِ اللهَ لقدرتِه عليك ، واستحِ منه لقربك منه[1] .

* ولزينبَ كلماتٌ أخرىٰ في مجالِ الحكمة ، والأدبِ ، ولكنَّا آثرنا أنْ نَقتصرَ علىٰ ما تَثَبَّتْنا منْ صحَّتِهِ في المصادرِ الموثوقة ، وسنعرفُ مصداقَ ذلك في فَصلٍ قادمٍ بإذن الله .

وقـفـاتٌ مـعَ حَيـاةِ زَينـــبَ :

* في رحَابِ البيتِ الطَّاهرِ الزَّاكي ، كانتِ النَّشأَةُ الزَّينبيّةُ ، حيثُ أحاطَها أبوها عليٌّ بالرِّعايةِ والعنايةِ والحنانِ ، ولمْ يُنْسِهَا في يومٍ منَ الأيامِ حنانَ والدتها الزَّهراءِ التي رحَلَتْ عنِ الدُّنيا ، وزينبُ ما تزالُ طريَّةَ العُودِ ، لم تَشِبَّ عنِ الطَّوقِ بَعْدُ .

* وكانتْ زينبُ تكبرُ وينمو معها ذكاؤُها الذي يبدو واضحاً علىٰ محيّاها ، فقد استقتْ كثيراً منْ صفاتِ أمِّها الزَّهراء ، ومن صفاتِ أبيها عليّ ـ رضوانُ اللهِ عليهم جميعاً ـ ، فغدتْ دُرَّةً منْ دُررِ البيتِ الهاشميّ ، وغَدَتْ إحدىٰ بناتِ الصَّحابةِ اللواتي عَطَّرنَ ديوانَ العَظَائِم بأنداءِ المكارمِ ، فكانت أميرةً منْ أميراتِ البَيانِ ، وكانتْ مِنْ ذواتِ الجرأَةِ والإقدام ، ولا تكادُ تَجدُ فضيلةً مِنَ الفضائل ، إلا تدلي دلوها في ذلك ، وتكون من السَّابقات ، وهذا ليسَ بغريبٍ علىٰ سليلةِ بيتِ المكارمِ ، وابنةِ الزَّهراء ، وحفيدةِ المصطفىٰ ﷺ ، وحفيدةِ الطَّاهرةِ خديجةَ بنت خُويلد ـ رضي الله عنها ـ .

زواجُـهـــا وأولادهـــا :

* عندما بلغتْ زينبُ ـ رضوانُ اللهِ عليها ـ مَبْلَغَ النِّساء ، إذا بأعلياءِ قريش

---

(١) أعلام النساء (٢/ ٩٩).

يتقدّمون لخطبتِها ، وذلكَ ليحظوا بالنَّسَبِ والحَسَبِ؛ ولكنَّ أباها قد اختَارَ لها ابنَ أخيهِ عبدَ اللهِ بنَ جعفر ، وكانَ عبدُ اللهِ جَوَاداً كريماً ميمونَ النَّقيبةِ ، حَظِيَ بدعوةٍ مباركةٍ منَ النَّبيِّ ﷺ حينما قالَ له: «اللهمَّ بَارِكْ لهُ في تجارتِهِ». وهو آخِرُ مَنْ رأىٰ رسولَ اللهِ ﷺ مِنْ بني هاشم؛ ومناقبُ عبدِ اللهِ بنِ جعفرَ كثيرةٌ لا تُحْصىٰ ، وأَنْبَاءُ جُودِهِ تندّي الأرواحَ والقُلوبَ ، كما تعطِّرُ الأسماعَ ، وتزيِّن الأوْراقَ ، وكيف لا؟ وأبوهُ جعفر أحدُ الأجوادِ المعدودين ، وأحدُ الأسخياءِ المجوّدين؟!

* وتزوَّجَ عبدُ اللهِ بنُ جعفر زينبَ بنتَ علي ، وعاشتْ في كنفِهِ مرعيةَ الجانبِ ، موفورةَ المكانةِ ، فقد كانَ عبدُ اللهِ يعرفُ قَدْرَ درَّةِ البيتِ الهاشميّ في عَصْرِها زينبَ ابنةِ عليّ ، فقد كانتْ صافيةَ السَّريرةِ ، نقيةَ الرُّوح ، موصولةَ القَلْبِ باللهِ ، كبيرةَ الشَّأْن ، سادتْ أقرانَها بالشَّمائلِ الكريمةِ ، كما أنَّ زوجَها عبدَ اللهِ أحدُ الأعلامِ الكبارِ ، إذ يُعَدُّ منْ صغَارِ الصَّحابة ، وممن نَهَلَ منَ الأنداءِ المحمديّة ، حيثُ عاشَ في كَنَفِ الحبيبِ المصطفىٰ ﷺ بعد استشهادِ أبيهِ في سَريةِ مؤتةَ ، وناهيك بها منْ حياةٍ كريمةٍ مباركةٍ في ظلالِ الأَفْياءِ النَّبويةِ ، والبيتِ النَّبوي.

* وقد باركَ اللهُ هذا الزَّواج بينَ الأسرةِ الجعفريةِ ، والأسرةِ العَليّة ، فولدتْ زينبُ لعبدِ اللهِ بضعة ذكور هم: عليّ ، عون الأكبر ، عبّاس ، ومحمّد؛ كما أنَّها أنجبت له ابنةً واحدة تُدعىٰ أمّ كلثوم بنت عبد الله بن جعفر[1].

* وعاشَ هؤلاءِ الأولادُ في كَنَفِ هذَيْن الأبويْن الكريمَيْن ، ونهلُوا ما شاءَ اللهُ منهما ، فغدوا منْ رواةِ الحديثِ النَّبويّ الشَّريف ، حيثُ رووا عنْ أبيهم عبدِ اللهِ بنِ جعفرَ ، ونقلوا ما سمعُوا منه إلىٰ طُلاَّبِ العلمِ والرِّواية ، الذين يَفِدون علىٰ المدينةِ المنوَّرةِ لسماعِ الحديثِ النَّبوي ، وغيرِهِ من علومِ القُرآن.

---

(١) انظر: طبقات ابن سعد (٨/ ٤٦٥) ، وأسد الغابة (٦/ ١٣٣) ، وتاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء ص١٢١) ، والدر المنثور (ص٢٣٣) ، وغيرها كثير.

زَيْنَبُ فـي رِحَـابِ خِلاَفَـةِ أَبِيْهَـا:

* كانَ شَطْرُ حياةِ زينبَ الأوّل في المدينةِ المنوَّرةِ، حيثُ كانتْ تحظىٰ بمكانةٍ سَامقةٍ باسِقةٍ بينَ بناتِ الصَّحابةِ، وكان لزوجها عبد اللهِ بنِ جعفرَ مكانةٌ عظمىٰ عندَ الخلفاءِ الرَّاشدين أبي بكرٍ وعمرَ وعثمانَ ـ رضي الله عنهم ـ، وكانَ لآلِ عليّ موقفٌ طيب عند حصارِ عثمان ـ رضي الله عنه ـ.

* ففي أواخرِ سَنَةِ خمسٍ وثلاثينَ منَ الهجرةِ، حاصرَ جماعةٌ منَ المصريّين عثمانَ ـ رضي الله عنه ـ نحو شَهريْنِ وعشرين يوماً، ثمَّ اقتحمَ عليه أراذلٌ من أوباشِ القبائلِ فقتلوه، وكانَ عليٌّ قَدْ أرسلَ ابنَه الحسنَ إلىٰ عثمانَ، وقال له: إنْ شئتَ أتيتُك للنَّصر، ولكنَّ عثمانَ قُتِل، فكانَ شهيداً سيّداً كما جاءَ ذلك في الصَّحيحِ والسُّنَن[1].

* ورثاهُ شاعرُ الرَّسولِ حسَّان بن ثابت ببضعِ قصائدَ، ومن روائعِ مراثيهِ فيه قوله يخاطبُ قَتَلَته بأبياتٍ منها:

قَتَلْتُـم وَلِـيَّ اللهِ فـي جَـوْفِ دَارِهِ وجئْتُـم بـأمْـرٍ جَـائِـرٍ غَيـرِ مُهْتَـدِ

فلا ظَفِرتْ أَيْمانُ قومٍ تَظَاهَرتْ على قَتْلِ عثمانَ الرَّشيدِ المُسدَّدِ[2]

* وحزنتْ زينبُ بنتُ عليّ على ذي النُّورين، فهو سِلْفُ أبيها وصهرُها زوج خالتَيْها رقيّةَ وأمّ كلثوم ابنتي رسولِ الله ﷺ، وهو أحدُ العشَرةِ المبشّرين بالجنّةِ، وأحدُ الذين رضي الله عنهم ورضُوا عنه.

* وبايعَ المسلمونَ أباهَا عليَّ بنَ أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ، ولكنَّه

---

(١) منْ ذلكَ ما أخرجه البُخاريُّ في فضَائلِ الصَّحابة برقم (٣٦٩٩)، وأبو داود في السُّنَّـةِ برقم (٤٦٥١)، والتّرمذي في المناقب برقم (٣٦٩٧)، وأحمد في المسند (٣/ ١١٢) عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: صَعِدَ النَّبيُّ ﷺ أُحُداً، ومعه أبو بكر، وعمر، وعثمان، فرجفَ فقال: «اُسْكُنْ أحُد ـ أظنُّه ضربَه برجله ـ فليسَ عليك إلا نبيٌّ، وصدِّيقٌ، وشهيدان».

(٢) انظر في هذا: سير أعلام النُّبلاء (٣/ ٤٦٠).

غادرَ المدينةَ ، وتوجَّهَ إلى الكوفةِ في أرضِ العِراقِ ، واصطحبَ معه أسرتَه وأقرباءَه ، ومنهم ابنتهُ زينب وبصحبتها زوجها الجواد ابن الجواد عبد الله بن جعفر ، الذي حلَّقَ في ميدانِ الفروسيّة يومَ صفِّين حيث كانَ أميراً علىٰ قريشٍ وأَسَد وكنانة يومذاكَ.

زَيْـنَـبُ ومقْـتـلُ أبيهَـا وَوَصِيَّـتُـهُ:

* ظلَّ عليُّ بنُ أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ قرابةَ نصْف عقْدٍ منَ الزَّمَنِ في العراق ، ولكنْ لم تستقمْ له الأمورُ تماماً ، إذْ خالفَه أهلُها ، وخذلوه وتخلُّوا عنه ، معَ عِلْمِهم بمناقبهِ التي لا تُعَدُّ ، ومن أكبرِها: تزويجُ البتولِ الزَّهراء ، وحملُه اللواءَ في أكثرِ الغَزَواتِ ، وأنَّه شَهِدَ المشَاهِدَ كلَّها معَ رسولِ اللهِ ﷺ ، وحُمِدَتْ مواقفهُ ، بل فُضِّلَ علىٰ خالدِ بنِ الوليد ـ رضي الله عنه ـ في الشَّجاعة ، لأنَّ شجاعة خالدٍ فارساً ، وشجاعة عليّ فارساً ورَاجلاً وفضائلُه يَعزُّ حصرُها:

وكُـلُّ مَنَـاقِـبِ الخَيْـراتِ فيْـهِ ... وحُـبُّ رسُـولِ ربِّ العَـالمينـا

* ومع هذا وذاك طالَتْه يدُ الغَدْرِ ، فَقُتِلَ شَهِيداً صبيحةَ يومِ الجمُعة في السَّابع عشرَ منْ رمضانَ سنة أربعينَ من الهجرة ، وصلىٰ عليه ابنهُ الحسنُ ، ودُفِنَ في الكوفةِ بقَصْرِ الإمارة ، وغُيِّبَ قبرُهُ.

وتروي المصادرُ أنَّه لما حَضَرَتْه الوفاةُ أوصىٰ أولادَه وصيّةً جامعةً ، ومنْ أزاهرِ تلكمُ الوصيّة الرَّائعة الجميلة نقتطفُ بعضَ رياحينِها كي نشمَّ عبيرَها ، ونستضيءَ بما جاءَ فيها من روائع ، إذْ هي منْ أجملِ الوصَايا في عالَم الوَصَايا ، ومنْ هذهِ الوصيّة قولهُ:

* بسمِ اللهِ الرحمنِ الرحيم ، هذا ما أوصىٰ به عليُّ بنُ أبي طالب ، أوصىٰ أنَّه يشهدُ أَنْ لا إله إلاَّ اللهُ وحدَه لا شريكَ له ، وأنَّ محمّداً عبدُهُ ورسولُه ،

أرسلَه بالهدىٰ ودِيْنِ الحقِّ ليظهرَه علىٰ الدِّينِ كُلِّهِ ولو كَرِهَ المشركون[1].

* ثمّ يوصي ابنَه الحسنَ وسائرَ أولادِه بالتَّقوىٰ وصِلَةِ الرَّحمِ والتَّواصلِ ، والمكارمِ ، فيقولُ ما ملخصه: ثمَّ أوصيك يا حسنُ وجميع ولَدي وأهلي بتقوىٰ اللهِ ربِّكم ، ولا تموتنَّ إلا وأنتم مسلمون. . . .انظروا إلىٰ ذوي أرحامِكم فَصِلُوهم يهوِّن اللهُ عليكم الحسابَ. . . . . اللهَ اللهَ في الأيتامِ. . . . واللهَ اللهَ في جيرانكم. . . اللهَ اللهَ في القُرآنِ ، اللهَ اللهَ في الصَّلاةِ. . . واللهَ اللهَ في أصحابِ نبيِّكم فإنَّ رسولَ اللهِ ﷺ أوصىٰ بهم. . . . وقولُوا للنَّاس حُسْناً كما أمرَكم اللهُ ، ولا تتركُوا الأمْرَ بالمعروفِ والنَّهيِ عنِ المنكر. . . . وعليكم بالتَّواصُلِ والتَّباذُلِ ، وإياكم والتَّدابر والتَّقاطع والتَّفرُّق. . . . حفظَكم اللهُ من أهلِ بيت ، وحفظَ فيكم نبيّكم ، أستودعُكم اللهَ ، وأقرأُ عليكم السَّلام ورحمة الله[2].

* ثمَّ إنَّه أخذَ يكثرُ منْ قَولِ: لا إله إلا الله حتَّى قُبِضَ ، وغسَّله ابناهُ الحَسنُ والحُسين ، وصهرهُ عبدُ اللهِ بنُ جَعْفَر ، ثمَّ دُفِنَ بالكوفة ـ رضي الله عنه وأرضاه ـ.

* وأُصِيْبَتْ زينبُ بأبيها ، كما أُصيبَ المسلمونَ به جميعاً ، وكانَ استشهادهُ أليماً علىٰ الدُّنيا بأسْرِها ، إذِ انْفَرطَ بمقتلهِ عِقْدُ الخلافةِ الرَّاشدةِ ، وعلىٰ الرّغمِ من أنَّ الحسنَ بنَ علي قد بُويعَ بالخلافةِ ، لكنَّه تنازَل عنْهَا لمعاويةَ بنِ أبي سفيان ـ رضي الله عنهما ـ ، وفي ذلكَ تصديقٌ للخبرِ النَّبويِّ الذي يشيرُ إلىٰ أنَّ خلافةَ النُّبوة ثلاثون سَنة[3]؛ وكذلك ظهرتْ دلائلُ صِدْقِ

---

(١) انظر: تاريخ الطبري (٥/١٤٧ و١٤٨) ، والبداية والنهاية (٧/٣٢٨ و٣٢٩) مع الجمع والاختصار.

(٢) انظر: تاريخ الطبري (٥/١٤٧ و١٤٨) ، والبداية والنهاية (٧/٣٢٨ و٣٢٩) مع الجمع والاختصار.

(٣) رُويَ عن سفينةَ هذا الخبر قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: «خلافةُ النُّبوَّةِ ثلاثونَ سنة ، ثمَّ يُؤتي اللهُ الملْكَ ، أو مُلكَه مَنْ يشاء»؛ أخرجه أبو داود في السُّنَّة برقم (٤٦٤٦) =

الحديث النبوي في الحَسنِ حيثُ قال ﷺ عنه: «إنَّ ابني هذا سيِّدٌ، ولعلَّ اللهَ أنْ يصلحَ به بينَ فئتَين عظيمتَيْن منَ المسلمين»[1].

* وصبرتْ زينبُ صَبراً جميلاً، وإنْ حَفَرَتْ حادثةُ مَقْتَلِ أبيها أخاديدَ في أعماقِها، وتركتْ آثاراً صعبةً بينَ أضالعِهَا وحنَايَاهَا.

* ويبدو أنَّ زينبَ قد عادتْ مع أخويْهَا وأهلِها وزوجها إلىٰ المدينةِ المنوّرةِ، لتتابعَ منْ هناكَ رحلةَ الحياةِ، وتشهدَ أحداثاً منْ أبرزها وفاة أخيها الحسن في سنةِ (٤٩ هـ)، وعمرُه إذْ ذاكَ سبعٌ وأربعونَ عاماً، وحزنتْ زينبُ علىٰ وفاةِ أخيها سيِّد شبابِ أهلِ الجنَّةِ، وسبْطِ رسولِ اللهِ ﷺ وريحانتهِ، وأحدِ الذُّرية الطَّاهِرةِ.

* ودُفِنَ الحسنُ في المدينة المنوّرة في بقيعِ الغَرقَدِ، دُفِنَ إلى جَنْبِ أمُّهِ فاطمةَ الزَّهراء ـ رضي الله عنهما ـ[2].

* ولكنَّ زينبَ مرَّتْ بها فاجعةٌ كُبرىٰ، ظهرتُ فيها بالمضاءِ والعزيمةِ، والصَّبر، وقوةِ الشَّخصيَّة، والثَّبات في المواقفِ الصَّعبة، واستقبلتْ تلكَ الفاجعةَ بنفسٍ تشيرُ إلى تفرُّدِها بالمكارمِ بينَ بناتِ الصَّحابة الطَّاهرات.

= واللفظُ له، وأخرجهُ أحمد في المسند (٥/ ٢٢٠)، والترمذي في الفتن برقم (٢٢٢٦) وهو حديث حسن.
وإذا عددْنَا منْ ولايةِ أبي بكر الصِّدِّيق ـ رضي الله عنه ـ، إلىٰ تَسْليم الحسن ـ رضي الله عنه، كانتِ الخلافةُ ثلاثينَ سنة لا تزيدُ ولا تَنْقصُ يوماً، قُلنا:

خُـذْ مـا تَـراهُ وَدَعْ شيئـاً سَمِعْـتَ بـهِ   في طلْعَةِ البدرِ ما يغْنيكَ عنْ زُحَلِ

ونقولُ أيضاً:

وهبنــي قلــتُ هــذا الصُّبــحُ لَيْــلٌ   أيعمــىٰ العــالمــونَ عــنِ الضِّيــاء

(١) أخرجه البخاري في الصُّلح برقم (٢٧٠٤)، وفي مناقبِ الحَسن والحسين ـ رضي الله عنهما ـ برقم (٣٧٤٦) وأخرجه كذلك في مواضعَ أخرىٰ؛ في الأنبياء، وفي العتق، وانظر البداية والنهاية (٨/ ١٧ ـ ١٩).
(٢) انظر: نهاية الأرب (٢٠/ ٣٢٢) بتصرف.

زَيـنَـبُ ومَقْتَـلُ أخِيهـا الحُسيـــن :

* هاهي الأيّامُ تسيرُ في قوافلِ الزَّمنِ ، فيطوي الزَّمنُ السِّنينَ ، ولكنَّه لمْ يستطعْ أنْ يطويَ الأحداثَ منْ ذاكرتِهِ هُوَ ، ومنْ ذاكرة النَّاسِ ، وخصُوصاً منْ ذاكرة زينبَ بنتِ عليّ ـ رضي الله عنهما ـ.

* وفي رحلةِ المواقف الخطيرةِ ، ظهرَ معدنُ زينبَ الأصيل ، وكانت كما وصفَها ابنُ الأثير بقوله : كانتْ زينبُ امرأةً عاقلةً لبيبةً[1] .

* وظهرتْ زينبُ بهذهِ الصِّفاتِ كلِّها في ذلك الموقف الحرجِ في يومِ كربلاء ، يوم أنْ قُتِلَ أخوها الحُسينُ ، وعددٌ كبيرٌ منْ أهلِها في سنةِ إحدىٰ وستينَ منَ الهجرة في العراق .

* ففي تلك الأيّام كانَ مع الحسينِ عددٌ منْ نساءِ البيتِ الهاشميّ ، وهُن : زينبُ أختهُ الشَّقيقة ، وأختهُ الأخرىٰ فاطمةُ بنتُ علي[2] ، وكذلك ابنتاه : فاطمة[3] وسُكينة ، وزوجهُ الرَّباب[4] بنت امرىء القَيس الكلبيّة ، وهي أمّ ابنته سُكينة ، وكان معه كذلك أمّ محمّد بنت الحسَن بن علي ، وإماء لهم كُنَّ في صحبتهن[5] .

* ويظهرُ أنَّ زينبَ كانت بقربِ أخيها الحسين ليلةَ قُتِلَ ، وكان أصحابُ الحُسين يتكلّمون بكلامٍ يشبهُ بعضُهُ بَعْضاً في وجْهٍ واحدٍ ، وقالُوا للحُسين : واللهِ لا نفارِقُك ، ولكنَّ أنفسَنا لك الفداءُ ، ونَقيكَ بنحورِنا وجباهِنا وأيدينا وأبداننا ، فإذا نحنُ قُتِلْنَا ، وفَّيْنَا وقضَيْنا ما علينا[6] .

---

(١) انظر : أسد الغابة (٦/ ١٣٣) ترجمة رقم (٦٩٦١) .
(٢) هي التي تدعى فاطمة الصغرى وأمها أم ولد . (طبقات ابن سعد ٨/ ٤٦٥) .
(٣) اقرأ سيرهن في كتابنا «نساء من عصر التّابعين» .
(٤) اقرأ سيرهن في كتابنا «نساء من عصر التّابعين» .
(٥) انظر : سير أعلام النبلاء (٣/ ٣٠٣) بتصرف يسير جداً .
(٦) نهاية الأرب (٢٠/ ٤٣٥) .

* ويبدو أنَّ زين العابدين واسمهُ عليُّ بنُ الحُسين كان علىٰ مقربةٍ منْ عمّتِهِ زينبَ في كربلاءَ في تلكَ العشيّةِ ، ـ وكان مريضاً تُشرِفُ عليه ـ ، ويروي لنا ما دارَ بينَ الأخَويْن : الحُسين وأخته زينب فيقول :

* إنِّي لجالسُ تلك العشيّة التي قُتِلَ أبي في صبيحتِها ، وعمّتي زينب تمرضُني ، إذِ اعتزلَ أبي في خباءٍ له ، وعنده حُويُّ مولىٰ أبي ذَرّ ، وهو يعالجُ سيفَه ويصلحُه ، وأبي يقولُ :

يَـا دَهْـرُ أُفٍّ لـكَ مِـنْ خَلَيْـلِ ... كَـمْ لـكَ بـالإشْـرَاقِ والأَصيـلِ
مِـنْ صـاحـبٍ أو طـالـبٍ قَتيـلِ ... والـدَّهْـرُ لا يقْنَـعُ بـالقَليـلِ
وإنَّمـا الأَمْـرُ إلـىٰ الجَليـلِ ... وكـلُّ حـيٍّ سـالـكُ السَّبيـلِ

فأعادَ ذلك مرتَيْن أو ثلاثاً ، فلمَّا سمعتْهُ زينبُ لم تملكْ لنفسِها أنْ وَثَبَتْ تَجُرُّ ثَوبَها وإنَّها لحاسرةٌ ، حتَّى انتهَتْ إليهِ فقالتْ : واثُكْلاهُ ، ليتَ الموتَ أعْدمَني الحياةَ اليومَ! ماتَتْ فاطمةُ أمِّي ، وعليٌّ أبي ، وحَسَنٌ أخي! يا خليفةَ الماضي وثمالَ الباقي!

فنَظَرَ إليها أبي وقال لهَا : يا أُخيَّة زينب ، لا يُذْهبَنَّ حِلْمَكِ الشَّيطانُ .

قالتْ زينبُ وعبراتُ الأسىٰ تترقرقُ في مآقيها : بأبي وأمِّي أنتَ ، نفسي فداؤك يا أخي .

* فـردَّدَ غُـصَّتـه ، وتـرقـرقتْ عينـاهُ ، ثـمَّ قـال متمثّـلاً : لـو تُـرِكَ الـقَطا ليلاً لَنَام[1] .

---

(١) هذا عَجْزُ بيتٍ شَهيرٍ لحذامِ ابنةِ الرَّيان ، ويُضْربُ للرَّجلِ يُستَثَارُ للظُّلم فيَظْلِم . ولهذا المثَلِ بضْعُ قَصَصٍ أشهرها أنَّ الرَّيانَ بنَ جسرِ بن تميم ـ والدُ حَذامِ ـ وقومَه ، بلغهم أعداؤهم ليلاً ، فلمّا كانوا قريباً منهم أثَاروا القَطَا ، فمرَّتْ بأصحابِ الرَّيان ، فخرجَتْ حَذَامِ إلىٰ قومِها فقالت :

أَلا يـا قـومَنَـا ارتَحِلُـوا وسيْـرُوا ... فلـو تُـرِكَ القَطَـا ليـلاً لنـامَـا

والمعنىٰ أنَّ القَطَا لو تُرِكَ ما طارَ في هذهِ السَّاعةِ منَ الليلِ ، فَقَدْ أتاكُم القومُ .
فقالَ لُجيم بنُ صَعْب؛ وقيل : ديْسَمُ بنُ طارق بصوتٍ عالٍ : =

* فقالت زينبُ والجزعُ بادٍ علىٰ وجهها: يا ويلَتا ، أَفتَغْصِبُ نَفْسَك اغتصاباً؟ فذلك أَقْرحُ[1] لقلبي ، وأشدُّ علىٰ نفسي ، ثمَّ خرَّتْ مغشياً عليها.

فقامَ إليها والدي الحُسين ، وصَبَّ عليها الماءَ فأفاقَتْ ، وأوْصَاهَا قائلاً: يا أُخيّة ، اتّقي اللهَ ، وتعزّي بعزاءِ اللهِ ، واعلمي أنَّ أهلَ الأرضِ يموتُون ، وأنَّ أهلَ السَّماءِ لا يبقُون ، وأنَّ كلَّ شيءٍ هالكٌ إلا وجهه الذي خَلَقَ الأرضَ بقدرتِهِ ، ويبعثُ الخلقَ فيعودون ، وهو فَرْدٌ وحْدَه ، وأبي خيرٌ منّي ، وأمّي خير منّي ، وأخي خيرٌ منّي ، ولي ولهم ولكلِّ مسلمٍ أسوةٌ برسولِ اللهِ ﷺ!.

* وعزَّاها بهذا ونحوه ، ثم إنَّه قالَ موجِّهاً وناصحاً ومُشْفِقاً: يا أُخيَّة ، وإنّي أقسمُ عليكِ فأبرّي قَسمي.

قالت: وما هو يا أخي؟

قال: أقسمُ عليك ألا تشقّي عليَّ جَيباً ، ولا تخمشي عليَّ وجْهاً ، ولا تَدْعي عليَّ بالويلِ والثُّبور إذا أنا هَلَكْتُ[2].

= فلولا المزعجاتُ منَ الليالي ... لما تَرَكَ القَطا طِيْبَ المنامِ
إذا قالتْ حَذامِ فصدّقوها ... فإنَّ القَولَ ما قالتْ حذَامِ
(مَجْمعُ الأمثال؛ وجَمْهرة الأمثال) مع الجمع والتّصرُّف.
والبيتُ الثَّاني من شواهدِ النُّحاة ، فهو من شَواهدِ «شذور الذَّهب» و«أوضح المسالك» و«ابن عقيل» ، و«الأشموني» ، وانظر الخصَائص لابن جِنّي (١/ ٥٦٩)، وموطن الشَّاهد في البيت قوله: حَذَامِ ووجه الاستشهاد: مجيءُ حَذامِ في الموضعَيْن مبنيّاً علىٰ الكَسْرِ ، في محلِّ رفعٍ ، والبناءُ علىٰ الكسْر مذهبُ الحجازيين ، وخالفهم بنو تميم في ذلك.

(١) «أقرح»: أجرحُ. والقرحُ: كلُّ ما جرحَ الجلْدَ مِن عضِّ سلاحٍ وغيره. (أساس البلاغة) وقَرْحٌ: جراح ، قال تعالىٰ: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ﴾ [آل عمران: ١٤٠] أي: جراح.

(٢) انظر: نهاية الأرب (٢٠/ ٤٣٦ و٤٣٧) بتصرف يسير جداً؛ وانظر البداية والنهاية (٨/ ١٧٧ و١٧٨) ، والكامل لابن الأثير (٤/ ٥٩) ، والدر المنثور (ص٢٣٤).

* وقامَ الحسينُ وأهلهُ وأصحابهُ تلكَ الليلةَ وهم يصلُّون ، ويستغفرون ، ويدعونَ ، ويتضرّعونَ.

* وفي اليومِ التَّالي ، كانتِ الفاجعةُ الكبرىٰ ، فقُتِلَ الحُسينُ ـ رضوان الله عليه ـ ، وكُتِبَ في عِدادِ الشُّهداء ، بعد أنْ وُجِدَ في جَسَدِهِ ثلاثٌ وثلاثونَ طَعْنَةً ، وأربعٌ وثلاثونَ ضربةً غير الرمية[1].

* وشهدتْ زينبُ مَصْرَعَ أخيها الحُسين بينَ الأسنَّةِ والرِّماح ، كما شهدتْ مَصْرعَ سبعةَ عشَر رجلاً كلُّهم منْ أولادِ فاطمةَ الزَّهراء[2] ـ رضي الله عنها ـ.

شَجَاعَتُهَا ورَبَاطَةُ جَأْشِهَا :

* بعْدَ مصرعِ الحُسين ـ رضوان الله عليه ـ ، وبُعَيد تلكمُ الموقعة المُفْجعة ، أذَّنَ مؤذِّنُ عمرَ بنِ سعد بالرَّحيلِ إلىٰ الكوفةِ ، ثمَّ إنَّه حملَ معه بنات الحُسين وأخواته ، ومَنْ كان معه منَ الصِّبيان ، وكان بينهم عليُّ بنُ الحسين يعاني المرضَ ، ويكابدُ الآلامَ.

* واجتازَ الرَّكبُ علىٰ الحُسينِ وأصحابهِ صرعىٰ فوقَ أرضِ كربلاء ، فصاحَ إذ ذاك النِّساء صيحةً عظيمةً ، ولَطَمْنَ خدودهنَّ ، وصاحتْ زينبُ أخته باكيةً : يا محمّداه! صلىٰ عليك ملائكةُ السَّماء ، هذا حُسين بالعَراءِ ، مُرمَّلٌ بالدِّماءِ ، مقطَّعُ الأعْضاءِ يا محمّداه ، وبناتُك سَبَايا ، وذريتُك مقتَّلَة ، تَسْفِي عليها الصّبا[3]! فأبكَتْ كلَّ عدوٍّ وصديق.

* وتحكي المصادر : أنَّ آل الحُسين وأخواتِه أُدْخِلُوا علىٰ عُبيد اللهِ بنِ زياد ، فلبستْ زينبُ أرذلَ ثيابهَا وتنكَّرتْ ، وَحَفَّ بها إماؤُها ، فلَمَّا دخلَتْ

---

(١) نهاية الأرب (٢٠/ ٤٦٠).

(٢) البداية والنهاية (٨/ ١٩٤).

(٣) نهاية الأرب (٢٠/ ٤٦٤ و٤٦٥)؛ وفي النّفس أشياءُ منْ هذا الكلامِ ، إذ هو واضحُ الصَّنعةِ للسَّجع الذي فيه ولضعف سَبْكه ومعانيه. والله أعلم بحقيقةِ الصَّواب.

جَلَستْ ، فقال عُبيد اللهِ: مَنْ هذهِ الجالسة؟! فلمْ تكلِّمْه حتى قالَ ذلك ثلاثاً ، وهي كلُّ ذلك لا تكلِّمهُ.

فقالَ بعضُ إمائِها: هذه زينبُ بنتُ فاطمةَ.

فقال لها ابنُ زياد: الحمدُ للهِ الذي فَضَحَكم وقتَّلَكم وأكْذَبَ أحدوثَتكم.

فقالتْ: الحمدُ للهِ الذي أكْرَمَنا بمحمّدٍ ﷺ ، وطهَّرَنا تطهيراً ، لا كما تقولُ ، إنّما يفتضحُ الفَاسِقُ ، ويكذبُ الفَاجِرُ.

قال: فكيف رأيتِ صُنْعَ اللهِ بأَهْلِ بيتِكِ؟

قالت: كُتِبَ عليهم القَتْلُ فَبرَزُوا إلىٰ مضاجِعِهم ، وسيجمعُ اللهُ بينَك وبينهم ، فَتَحاجُّونَ إليه ، وتَخَاصَمُون عنْده.

* فغضبَ ابنُ زياد واستشاطَ ، ثمَّ قال لها: قد شفىٰ اللهُ نَفْسي منْ طَاغِيتِك ، والعُصَاةِ المرَدَةِ منْ أهلِ بيتكِ.

* فبكتْ ثمّ قالت: لعمري ، لقد قَتَلْتَ كَهْلي ، وأبرزتَ أهلي ، وقطعتَ فَرَعي ، واجْتَثَثْتَ أصْلي ، فإِنْ يشفِك هذا فقد اشْتَفَيتَ. فقال لها عُبَيدُ الله بنُ زياد: هذه شجاعةٌ ، فلعمري لقد كان أبوك شُجاعاً!.

قالتْ: ما للمرأةِ والشَّجاعةِ؟ إنَّ لي عنِ الشَّجاعة لشُغلاً[1].

---

(١) نهايةُ الأَرَب (٢٠/ ٢٦٥ و٢٦٦) ، وانظر الكامل لابن الأثير (٤/ ٨١ و٨٢) ، والبداية والنّهاية (٨/ ١٩٣) ، وتاريخ الطّبري (٣/ ٣٣٦ و٣٣٧) ، وغيرها.
إنَّ المتأملَ في هذا الحوارِ يَجدْ أنَّه أقربُ إلى الصَّنْعَةِ والوضْع منَ الحقيقةِ والحقائقِ ، فلا يمكنُ لامرأةٍ بليغةٍ مثل زينب ـ رضي الله عنها ـ أنْ تخاطبَ ابنَ زياد ، ولا غيره ، ولا أنْ تخاطبَ أحداً ، فهيَ تَعي مكانَتَها في البيتِ النَّبوي ، وتعرفُ مقدارَ نفسِها ، كما تعلمُ مكانةَ أبيها وأهلِها في النَّاس.
ثمَّ هلْ يجرؤ أحدٌ أنْ يقولَ عن الحُسَين وصحبه ـ رضوان الله علهم ـ أنَّهم طُغَاةٌ عُصَاةٌ مَرَدَة؟! أشعرُ ـ أحبّائي ـ كأنَّ الأمرَ يحتاجُ إلىٰ نظرةٍ أوسعَ وأعمقَ. والله وحدهُ يعلمُ الصَّواب.

* ويقولُ الرُّواة وأهلُ الأخبار أيضاً: إنَّ عُبيدَ اللهِ قد نظرَ إلىٰ عليٍّ بنِ الحُسين ، فقال له: ما اسمُك؟

قال: أنا عليُّ بن الحُسين؟!

قال: أَوَلَمْ يقتُلِ اللهُ عليَّ بنَ الحُسين؟!

فَسَكَتَ ، فقال له ابنُ زياد: مالكَ لا تتكلَّم؟

قال: قد كانَ لي أخٌ يقُال له عليٌّ ، فَقَتَلَه النَّاس.

قال: إنَّ اللهَ قَتَلَه.

فسَكَتَ عليٌّ ، فقالَ: مالكَ لا تتكلَّم؟

قال: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾ [الزُّمر: ٤٢]؛ ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١٤٢].

قال: أنتَ واللهِ منهم. ثمّ قال ابنُ زيادٍ لرجلٍ: اقْتُلْه.

فقال عليٌّ: مَنْ توكَّل بهؤلاء النِّسوة؟!

وتعلَّقتْ به عمّتهُ زينبَ ، فقالتْ: يا بنَ زياد حَسْبُك مِنَّا ، أمَا رُويتَ من دمائِنا؟! وهل أبقيتَ منّا أحداً ، واعتنقتْ ابنَ أخيها عليّاً ، وقالتْ: أسألُك باللهِ ، إنْ كنتَ مؤمناً إنْ قَتَلْتَه لما قَتَلْتَنِي معه.

وقال عليٌّ: يا بن زياد إنْ كانَ بينك وبينهنَّ قرابةٌ فابعثْ معهنَّ رجُلاً تقياً يصحبهنَّ بصحبةِ الإسلام.

ثمَّ نظرَ ابنُ زياد إلىٰ القومِ فقال: يا عجباً للرّحم ، واللهِ إنّي أظنُّها ـ أي زينب ـ ودَّتْ لو أني قتلْتُه أنّي قَتَلْتُها معهُ ، دعوا الغُلامِ؛ انطلقْ معَ نسائِك[1].

---

(١) نهايةُ الأرب (٢٠/ ٤٦٥ و٤٦٦) بتصرُّفٍ يسير؛ وانظرِ التَّعليق السَّابقَ ، ثمَّ تأملِ الحوارَ بينَ عُبيد الله بنِ زياد ، وعليٍّ بنِ الحُسين ، وزينبَ بنتِ عليّ ، تَجِدْهُ غيرَ متناسق ومصنوع! واللهُ أعلم بحقيقةِ الحال والصَّواب.

زينبُ أَمَامَ يـزيْد فـي دِمشْـقَ:

* بعدَ الحوارِ الذي سمعناهُ بينَ زينبَ وعُبيدِ اللهِ بنِ زياد ، تمضي الرِّوايات في طريقها ، لتنقلنا إلىٰ دمشقَ معَ زينبَ ، ومَنْ معَها منْ آلها وأقربائِها وجميعُهم يَقِفُون أمامَ يزيدَ بن معاويةَ في صورةٍ بائسةٍ؛ وإذا بفاطمةَ بنتِ الحُسين تقولُ ليزيد متعجِّبةً: أبناتُ رسولِ اللهِ سَبَايا يا يزيدُ؟!

فقال: يا بنة أخي ، أنا لهذا كنتُ أكْرهُ.

* وتمضي الرِّواية تشقُّ طريقاً خاصّاً بها ، لتتابعَ رحلةَ الحوارِ الضَّعيفِ الرَّكيكِ فتقول: فقامَ رجلٌ منْ أهلِ الشَّامِ فقالَ ليزيدَ: هَبْ لي هذِهِ ـ يعني فاطمةَ بنتَ عليّ ـ فأخذتْ بثيابِ أختِها زينب ـ وكانتْ أكبرَ منها ـ.

فقالت زينبُ: كَذَبتَ ولو مُتَّ ، ما ذلك لكَ ، ولا لَه[1] ، ـ أي: ليزيد ـ.

وتقولُ الرِّوايةُ: إنَّ يزيدَ بنَ معاويةَ لمّا سَمِعَ ما قالَتْه زينبَ في حَقِّه ، انتفضَ كالعصفور بلَّلهُ القَطْرُ ، وغَضِبَ غَضَباً شديداً ما عليهِ منْ مزيد ، وقال لزينبَ وسَوْرَة الغَضَبِ تتدفَّقُ منْ كلماتِه: كذبتِ واللهِ إنَّ ذلكَ لي ، ولو شئتُ أنْ أفعلهُ لفعلتهُ.

فقالت زينبُ ليزيدَ وهو في تِلْكَ السَّورة؛ وحمأةِ الغَضَبِ ما تزالُ تتأججُ في صَدْرِه: كلاَّ واللهِ ما جَعَلَ اللهُ ذلك لكَ ، إلا أنْ تخرجَ منْ ملَّتنا ، وتَدِيْنَ بغيرِ ديننا[2].

ويقولُ الرَّاوي: فغضبَ يزيدُ واستطارَ ، ثمَّ قال لزينبَ والشَّررُ يتطايرُ منْ

---

(١) لاحظ التعريض وإقحام الكلام إقحاماً!!

(٢) لاحظْ أيضاً هذه الجملةَ المقحمةَ التي لا تتناسبُ مع المقامِ ، فضْلاً عن مناسبةِ المقام ، إذا صحَّ المقام!!

عيينيه: إيايَ تستقبلينَ بهذا؟ إنَّما خرجَ منَ الدِّين أَبوك وأخوك[1].

قالتْ زينبُ: بدِين اللهِ، ودِيْنِ أبي وأخي اهْتَديتَ أنتَ وأبوك وجدُّك[2].

قالَ يزيدُ: كذبتِ يا عدوَّةَ اللهِ.

قالت زينبُ: أنتَ أميرٌ تشتمُ ظَالماً وتَـقْهَـرُ بسلطانِك.

* قالَ الرَّاوي وقد غيَّرَ موجةَ بَحْرِ يزيد الهائج إلىٰ أنسامِ عطراتٍ تتدفَّقُ بالحنَان: فاستحيا يزيدُ وسَكَتَ، ثمَّ إنَّ زينبَ وأخواتها أُخْرِجْنَ منْ مجلس يزيد، وأُدخِلْنَ دورَه، فلم تبق امرأةٌ من آلِ يزيد إلا أَتَتْهُنَّ، وَأَقَمْنَ المأتمَ، وسأَلنَهُنَّ عمّا أُخِذَ منهنَّ، فأَضْعَفْنَـهُ لَهُنَّ، وكانت سُكينة تقول: ما رأيتُ كافِراً بالله خيراً منْ يزيدَ بنِ معاوية[3].

إكْـرَامُ يَـزِيْــدَ لِـزَيْنَـبَ وأَهْـلِ الـبَـيْــتِ:

* قال أصحابُ التَّواريخ، ومنهم ابنُ الأثير في «كامِلِهِ» ما مفاده: لمّا أرادَ يزيدُ بنُ معاويةَ أنْ يُسَيِّرَ زينبَ وآلَ الحُسين إلىٰ المدينةِ المنوَّرةِ، أمَرَ الصَّحابي ابنَ الصَّحابية النُّعمان بن بشير الأنصاري ـ رضي الله عنهم ـ أنْ

---

(١) لاحظْ: «أبوك، وأخوك» وكلاهما منْ أهلِ الجنَّة، فَهل يجرؤ يزيدُ أو غيره أنْ يقولَ هذا؟ إنَّ هذا لشيء عجاب!. فالأَمْرُ يحتاجُ إلىٰ نظرةٍ أكثرَ دقّةً وعمقاً، ويلاحظُ القارىءُ الحصيفُ إقحامَ كلمة «أبوكِ» والمقصود به سيِّدنا عليّ بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ، وليس له في هذا المقام ـ إنْ صحَّ ـ ناقةٌ ولا جَمَل، ولكنَّ الرَّاويَ أراد ذلك! فاللهُ المُستعان!.

(٢) انظر إلى هذا التَّعريض بالصَّحابة: معاويةَ وأبيه ـ رضي الله عنهما ـ وزادَ الراوي الطِّين بلَّة، فزادَ لفظةَ جدك لتكملُ الرِّواية، ولكي يكملَ الافتراءُ علىٰ لسانِ زينب ـ رضي الله عنها ـ.

(٣) انظر: نهاية الأرب (٢٠/ ٤٦٩ و٤٧٠) بتصرف يسير، وانظر التّعليقات السَّابقة، وهناك أقوالٌ وردتْ في المصَدر السَّابق لا تُعقل ولا يقبلها العقْلُ. انظر نهاية الأرب (٢٠/ ٤٧٠ ـ ٤٧٥). ثم إنَّ هذا الكلام المنسوب لسكينة كلامٌ خطيرٌ، وخرْطُ القَتَادِ دونه، فلا يجوزُ تكفير يزيد؛ فالله المستعان.

يجهزهُم بما يُصلِحهم ، ومنْ ثمَّ يبعثَ معهم رجُلاً أميناً شَهْماً من أهلِ الشَّام في ثلّةٍ منَ الأُمَناءِ ، ومعه خَيْل تسيرُ بهم إلىٰ المدينةِ المنوَّرةِ؛ ثمَّ إنَّه دَعَا عليّاً بنَ الحُسين كيما يودّعَه ، وكانَ ممَّا قالَ له : يا عليُّ كاتبْنِي بأيةِ حاجةٍ تكونُ لكَ ، ثُمَّ إنَّ يزيداً أوصىٰ بهم ذلك الرَّجلَ الشَّامِيَّ ، وأنْ يحسنَ صحبتَهم ، ويستوصي بهم.

وخرجَ بهم الشَّاميُّ ، فكانَ يسايرهم لَيْلاً ، فيكونون أمامَه بحيثُ لا يفوتون طَرْفَه ، وإذا نَزَلَ تنحَّىٰ عنهم هو وأصحابُه ، فكانوا حولهم كهيئةِ الحرسِ ، وكان يسائِلُهم عن حوائجِهم ، ويلطفُ بهم حتَّى دخلُوا المدينةَ المنوَّرة.

وفي المدينةِ أحبَّ نسوةُ أهْلِ الحُسنِ أنْ يكافئْنَ الرَّجلَّ الشَّاميَّ لِحُسْنِ صحبتهِ ، فقالتْ فاطمةُ بنتُ عليّ لأختِها زينبَ : يا أخيّة ، لقدْ أحْسَنَ هذا الرَّجل الشَّامي إلينا في صحبتِنا ، فهلْ لكِ أنْ نَصِله بشيءٍ؟

فقالتْ زينبُ : واللهِ يا أخيّة ، وما معنا ما نَصِلَه به إلا حُليّنا؛ قالتْ : فنعطيه حليّنا . فأخْرجَتَا سوارَيْن ودُمْلُجَيْن لهما ، فبَعَثَتَا بهِ إليه ، واعتذرتَا ، فَردَّ الجميعَ ، وقال : لو كانَ الذي صنعتهُ للدنيا لكانَ في هذا ما يُرضيني ، ولكنْ ـ واللهِ ـ ما فعلتهُ إلا لله ـ عزَّ وجلَّ ـ ولقرابتكم منْ رسولِ اللهِ ﷺ[1].

زينبَ في المَدينَةِ المنوَّرةِ :

* مكثتْ زينبُ في المدينةِ المنورةِ ، بعد أنْ خلَّفَتْ في كربلاءَ شقيقَها ، وفلذةَ كبدها ، حيثُ قُتِلَ وَلَداها : عونٌ ومحمدٌ مع خالِهما الحُسين علىٰ أرضِ العراق؛ وطار نبأُ مقْتلِهما إلىٰ أبيهما عبدِ اللهِ بنِ جعفرَ ـ رضي الله عنهما ـ الذي كان في المدينةِ ، فاسْتَسْلَم لقضاءِ العزيزِ الحميدِ الذي له مُلكُ السَّمواتِ

---

(١) انظر : الكامل (٤/ ٨٨) ، وتاريخ الطبري (٣/ ٣٣٩ و٣٤٠) ، والبداية والنهاية (٨/ ١٩٤ و١٩٥) ، وسير أعلام النبلاء (٣/ ٣٠٩ و٣١٠) ، وتاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء ص١٢٢ و١٢٣) ، وأعلام النساء (٢/ ٩٤ ـ ٩٨) وغيرها.

والأرضِ ، وكان له يوم ذاك موقفٌ أوْرَدَه ابنُ الأثيرِ فقال :

* لما بَلَغَ عبدُ اللهِ بنُ جعفرَ قَتْلَ ابنيه معَ الحُسين ـ رضي الله عنه ـ ، دخلَ عليه بعضُ مواليهِ يعزّيه ، والنَّاسُ يعزُّونَه ، فقالَ مولاه : هذا ما لقيناهُ منَ الحُسين ! ! فَحذَفَه ابنُ جعفرَ بنعْلِهِ ، وقال : يابن اللخْنَاءَ ، أَللحسينِ تقولُ هذا؟ واللهِ لو شهدتُه لأحببتُ ألاَّ أفارقه حتّى أُقْتَلَ معه ، واللهِ إنَّه لمما يُسَخّي بنفسي عنهما ، ويهوّن عليَّ المُصَاب بهما ، أنَّهما أُصيبا مع أخي وابنِ عمي ، مواسِيَيْن له ، صابرَيْن معه . ثمَّ قال : إنْ لم تكنْ آسَتِ الحُسين يديّ ، فقد آسَاهُ وَلَديّ[1] .

* ولعلَّ هذهِ الكلماتِ الوضيئاتِ الصَّادقاتِ قد صافَحَتْ أسماعَ زينبَ بنتَ عليٍّ ، فعلِمَتْ صِدْقَ زوجِها ، وحبّه لأَخيها ، وإيثاره له ، فازدادتْ مكانتهُ عندها ، وكانتْ كما وصفَتْها أختُها فاطمةُ بنتُ علي بقولها : كانتْ أختي زينبُ أكبرَ منّي وأَعْقَلَ .

خُطَبٌ وكَلِماتٌ مَنْسُوبَةٌ إلىٰ زينبَ :

* لا شكَّ في أنَّ قُريشاً أفصحُ النَّاسِ ، وأنَّ بني هاشمٍ أعْلاهم بياناً رِجَالاً ونساءً ، فهم عنْ البلاغةِ يصدرون ، وبأنفاسِ النُّبوة ينطقون ، ولهم كلماتٌ وضيئاتٌ مُقْتَبَسةٌ ومستقاةٌ منْ نورِ الذّكْرِ الحكيمِ ، ومنْ أنفاسِ النَّبيِّ ﷺ .

* لكنّنا فُوجئنا بكلماتِ وخُطَبٍ نُسِبَتْ إلىٰ زينبَ ، أو قيلتْ عنها ، ومنها كلماتٌ قيلتْ أمامَ يزيدَ بنِ معاويةَ ؛ ولو تأمَّلَ البليغُ هذهِ الكلمات لعلمَ أنَّها قيلتْ في غَفْلةٍ عنْ أعينِ أهْلِ صناعةِ الكلام ، وفي عَصْرٍ متأخِّرٍ عنْ عَصْرِ زينبَ ، إذْ فيها منَ الأسجاعِ والصَّنْعةِ والتّكلُّفِ ما يشهدُ عليها بالوضْعِ والصَّنعةِ والتَّأليفِ ، كما تُوجدُ فيها بعضُ الجملِ التي خَرْطُ القَتَادِ دونَها ، والتي لا يُعْقَلُ أنْ تَتَلَفَّظَ بها امرأةٌ منْ عامَّةِ النَّاسِ ، فكيفَ بابنةِ أمير المؤمنين عليّ بنِ أبي طالب ، صاحبِ النَّبيِّ ﷺ وابنِ عمّه ، وفارسِ السِّنان والبَيان؟ !

---

(١) الكامل في التاريخ (٤/ ٨٩).

* وسنصحبُ القارىءَ الكريمَ ، لنسمعَ بَعْضاً منَ الكلماتِ التي قيلَ إنَّ زينبَ قالَتْها أمامَ يزيدَ بنِ معاوية.

* ذكرَ ابنُ طيفورَ أَنَّ زينبَ ونسوةَ آلِ محمّد[1] ﷺ ، مثلُوا بينَ يدي يزيد ، وصارَ يَعْبثُ برأسِ الحُسين[2] ، وجعلَ ينكثُ ثناياهَ بقضيبٍ ، ويتمثّلُ بأبياتٍ لعبد اللهِ بن الزِّبعرىٰ منها:

لَيْتَ أَشْيَاخِي بِبَدْرٍ شَهِدُوا جَزَعَ الخَزْرَجِ مِنْ وقعِ الأَسَلِ

* هناكَ قالتْ زينبٌ كلماتٍ منها: أظنَنتَ يا يزيدُ أنَّه حينَ أُخِذَ علينا بأطرافِ الأرضِ ، وأكنافِ السَّماء ، فأصْبَحنا نُسَاقُ كما يُساقُ الأسَارىٰ ، أنَّ بنَا هَواناً علىٰ اللهِ ، وبكَ عليه كرامة؟! وأنَّ هذا لِعِظَمِ خَطَرك ، فَشَمَخْتَ بأنفكَ ، ونظرتَ في عطفَيْكَ جذلانَ فَرِحاً ، حينَ رأيتَ الدُّنيا مستوثقةً لكَ ، والأمورَ متسقةً عليك! وقد أمهلتَ ونفستَ ، وهو قولُ اللهِ تباركَ وتعالىٰ: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ [آل عمران: ١٧٨].

* وتتابعُ زينبُ ـ فيما زعموا ـ هذا الكلامَ فتقولُ ليزيدَ: أَمِنَ العَدْلِ يا بنَ الطُّلقَاء تخدِيرُك[3] نساؤُك وإماؤُك ، وسوْقُكَ بناتِ رسولِ اللهِ ﷺ قد هُتكَتْ سُتورهُنَّ؟! وأَصْحَلْتَ[4] صَوتَهنَّ مكتئباتٍ تُحدىٰ بهنَّ الأَبَاعِر ، ويحدو بهنَّ الأَعَادي منْ بلدٍ إلىٰ بلدٍ ، لا يُرَاقَبْنَ ولا يُؤَوَيْنَ ، يتشوفهنَّ القريبُ والبعيدُ ، ليس معهنَّ وليٌّ منْ رجالِهنَّ؟!

* ثمّ إنَّ زينبَ أخذتْ تدعو اللهَ ـ عزَّ وجلَّ ـ ، وتتضرَّعُ إليهِ أنْ ينتقمَ ممن

---

(١) هكذا وردت بهذا اللفظ في بلاغات النساء (ص٣٦) طبعة الكويت.

(٢) هذا غيرُ صحيح ومخالفٌ لحقائقِ التّاريخِ والزَّمن ، فيزيدُ لمْ يفعلِ ذلك ، ولستُ هنا أدافعُ عن يزيدَ ، ولكنَّ التَّاريخ الصَّحيح ينفي ذلك ، وينفي نَقْل رأس الحسين من الكوفة إلىٰ دمشق!! فكيف نُقِل والحرُّ شديدٌ والمسافةُ شاسعة؟!

(٣) «تخديرك»: من الخدر ، وضْعُهنَّ في السَّتْر.

(٤) «أصحلت»: من صَحْلِ الصَّوت: أي بُحَّ.

ظلمَها ، وظلمَ أهلَها وعشيرتَها ، ثمَّ تتابعُ ـ فيما زعموا ـ رحلةَ تقريعِ يزيدَ بنِ معاوية ، فتقولُ مخاطبةً له ، بعد أنْ حدَّثتْه عنِ الموقفِ العظيمِ بين يدي اللهِ يومَ القيامة :

* إنِّي واللهِ يا عدوَّ اللهِ ، وابنَ عدوِّه[١] ، أستصغرُ قَدْرَكَ ، وأستعظمُ تَقْريعَكَ! غيرَ أنَّ العيونَ عَبْرىٰ ، والصُّدورَ حرّىٰ ، وما يجزي ذلكَ أو يغني عنّا ، وقد قُتِلَ الحُسَين وحزبُ الشّيطان يقرِّبُنا إلى حزبِ السُّفهاءِ ليعطوهم أموالَ اللهِ علىٰ انتهاكِ محارمِ الله ، فهذهِ الأيدي تنطفُ[٢] من دمائنا ، وهذه الأفواهُ تتحلَّبُ منْ لحومنا ، وتلكَ الجثثُ الزَّواكي يعتامُها عَسْلانُ[٣] الفَلواتِ ، فلئنِ اتَّخذْتَنا مَغْنَمَاً لتُتَّخَذَنَّ مغرماً حين لا تجدُ إلا ما قدمتْ يَدَاكَ ، تستصرخُ يا بن مرجانةَ ويستصرخُ بك ، وتتَعاوىٰ وأتباعُك عندَ الميزان ، وقد وجدت أَفْضَلَ زاد زَوَّدَك معاويةُ قَتْل ذريّة محمّدٍ ﷺ ، فواللهِ ما اتقيتُ غيرَ اللهِ ، ولا شكْواي إلا إلىٰ اللهِ ، فَكِدْ كيدَك ، واسْعَ سَعْيَك ، وناصبْ جهْدَكَ ، فواللهِ لا يَرْحَضُ[٤] عَنْك عارُ ما أتيتَ إلينا أبداً ، والحمدُ للهِ الذي خَتَمَ بالسَّعادةِ والمغفرةِ لسَاداتِ شبّان الجِنانِ ، فأوجبَ لهم الجنَّة ، أسألُ اللهَ أنْ يرفعَ لهم الدَّرجات وأنْ يوجبَ لهم المزيدَ منْ فضلهِ ، فإنَّه وليٌّ قَدير[٥] .

---

(١) هذا الكلام خطيرٌ ورهيبٌ ، خرطُ القَتَادِ دونَه ، ولا يمكنُ لزينبَ أو أحدٍ ممَّنْ يؤمنُ باللهِ ، ويحبُّ صحابةَ رسولِ اللهِ ﷺ أنْ يقولَ مثلَ هذا الكلام ، فهلْ سيِّدنا معاويةُ ـ رضي اللهُ عنه ـ وهو الصَّحابيُّ الجليلُ ، وخَالُ المؤمنين ، عدوُّ اللهِ في رأيِّ زينبَ ـ بل في رأي مَنْ نَسَبَ إليها هذه الكلمات الخطرة ـ؛ اللهُ المستعان ، وهو وحده العليمُ بحقيقة الصَّواب .

(٢) «تنطف» : تسيلُ .

(٣) «عَسْلان» : جمع عسَّال : وهو الذِّئب .

(٤) «يرحض» : يغسل .

(٥) انظر : بلاغات النِّساء (ص٣٦ ـ ٣٨)، وعنه نقل صاحب أعلام النِّساء (٢/ ٩٥ ـ ٩٧). ويلاحِظُ القارىءُ الكريمُ أثرَ الصَّنْعَةِ في هذهِ الكلماتِ المنسوبةِ =

* ولنَا في هذا الموقفِ تعليقٌ مفيدٌ علىٰ ما مضىٰ منْ كلامٍ حولَ خُلفَاء بني أميّة ، وحولَ يزيدَ بنِ معاويةَ ، فقد قالَ ابنُ تيمية ـ رحمه الله ـ في الكلامِ علىٰ خُلفَاء بني أميّة بعد معاويةَ ـ رضي الله عنه ـ : وهؤلاء الخلفاءُ لم يكنْ فيهم مَنْ هو كافرٌ ، بلْ كلُّهم كانُوا مسلمين ، ولكنْ لهم حَسَناتٌ وسيئاتٌ ، كما كانَ لأكثرِ المسلمين ، وفيهم مَنْ هو خيرٌ وأحسنُ سيرةً منْ غيرهِ ، كما كان سُليمان بنُ عبد الملك الذي ولَّىٰ عمرَ بنَ عبدَ العزيزِ الخلافةَ منْ بني أميّة ، وفيهم مَنْ كانَ أعظمَ تأثيراً وسُلطاناً ، وأقهرَ لأعدائِهِ منْ غيره ، كما كان عبدُ الملك بنُ مروان .

* وأمّا عمرُ بنُ عبدِ العزيز ، فهو أفْضَلُ منْ هؤلاءِ كلِّهم عند المسلمين .

* وأمّا غيرهُ منَ الخُلفاء ، فلم يبلغُوا في العِلْمِ والدِّين والعَدْلِ مبلغه ، ولكنْ كانُوا مسلمين باطِناً وظَاهِراً ، ولم يكونُوا معروفينَ بكفْرٍ ولا نِفَاقٍ ، وكان لهم حسناتٌ ، كما كانَ لهم سيئاتٌ ، وكثيرٌ منهم أو أكثرهم له حَسَناتٌ يرحمُه اللهُ بها وتترجَّحُ علىٰ سيئاته ، ومقاديرُ ذلكَ علىٰ التَّحقيقِ لا يعلمُه إلا الله ـ عزَّ وجلَّ ـ .

= لزينبَ ، والكلماتِ المنتقاةِ التي لا تأتي علىٰ اللسانِ في مثلِ ذلك الموقفِ بين يدي يزيد ، أو غير يزيد ، ثم تبشّره بالنَّار ، وتدعوهُ بعدوِّ اللهِ وابنِ عدوّه ، وتدعوه بالسَّفيه ، وهذا ـ إن صحَّ لزينبَ أو غيرها ـ لا يتناسبُ مع أدبِ البلاغةِ وبلاغةِ الأدب ، وَجمالِ الخِطاب ، ناهيك بما فيهِ منْ خروجٍ عن إجماعِ المسلمينَ في عَدَالة أصحابِ رسول اللهِ ﷺ كلّهم .

ثم إنَّ واضعَ هذه الخطبة يختم تلكم الكلماتِ بالتَّحميد ، وهذا ما يشبهُ الخطبَ والمقالات التي وُضعَتْ للوعظِ والإرشادِ ، وما شابه ذلك .

كلمةٌ أخيرة نقولُها : إنَّ أنفاسَ البلاغةِ النَّبويةِ لا تنطبق علىٰ مثلِ هذه الكلماتِ أو ما يشبهُها ، وإنَّ بناتِ الصَّحابة وابنةُ عليّ لا يمكنُ أنْ تنحدرَ إلىٰ هذا الدَّركِ منْ إسفافِ الكلام ، فتشتمُ هذا ، وتكفِّرُ ذاكَ ، وتسْخَرُ منْ أولئك . إنَّ التَّربيةَ النَّبويةَ التي نشأَتْ عليها زينبُ لا تجعلهُا تنطقُ بحرفٍ واحدٍ في غير طريقِ الخير ؛ فاللهَ نرجوهُ أن يلهمنَا الصَّوابُ ويدلنا علىٰ الخير .

* وقالَ عن يزيدَ بن معاويةَ بخاصَّةٍ: ويزيدُ هذا وَلِيَ المُلْكَ ، وهو أوَّلُ مَنْ غَزَا القُسطنطينيّة في خلافةِ أبيهِ معاويةَ ، وقد روىٰ البخاريُّ في صحيحهِ عن ابنِ عمرَ قالَ:

* قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «أوّلُ جَيْشٍ يغزو القسطنطينيةَ مغفورٌ له»..... ومَنْ قالَ إنَّ يزيدَ كان كافراً ، وإنَّه قَتَلَ الحُسين تشفّياً ، وأخذَ بثأرِ أقاربه منَ الكفَّار فهو كاذبٌ مُفْتَرٍ.

* ومَنْ قالَ: إنَّه تَمَثَّل لمّا أُتي برأسِ الحُسين:

لمّا بَدَتْ تَلكَ الحمُولُ وأَشْرفَتْ تلكَ الرُّؤوسُ علىٰ ربىٰ جَيْرونِ
نَعَقَ الغُرابُ فقلتُ نُحْ أوْلا تَنُحْ فَلَقَدْ قَضَيْتُ منَ النَّبيِّ ديوني

أو «مِنَ الحُسين دُيوني» ، فَقَد كَذَبَ.

قال: والدِّيوان الذي يُعزىٰ إليهِ ، عامَّتهُ كَذِبٌ ، وأعداءُ الإسلام كاليهودِ وغيرُهم ، يكتبونه للقَدْحِ في الإسلامِ ويذكرونَ فيه ما هو كَذِبٌ ظَاهرٌ كقولِهم إنَّه أَنْشَد:

ليتَ أشْيَاخِي بِبَدْرٍ شَهِدُوا جزَعَ الخزرَجِ منْ وَقْعِ الأَسلِ
قد قَتَلْنَا الكَبْشَ منْ أقرانِهم وعَدَلْنَاهُ بِبَدْرٍ فاعْتَدَل

* .... وأنَّه تَمثَّل بهذا ليالي الحرّة ، فهذا كَذِبٌ ، وهذا الشِّعرُ لعبدِ اللهِ بنِ الزِّبعرىٰ ، أَنْشَده عامَ أُحُدٍ ، لما قَتَلَ المشركون حمزَةَ وكان عبدُ اللهِ كافراً ، ثمَّ أَسْلمَ بعد ذلك وحَسُنَ إسلامُه[1].

خطبةٌ أُخرىٰ مَزْعُومَةٌ ومَنْسُوبَةٌ لِزَيْنَب:

* منْ بدائعِ الصَّنائعِ الأدبيّةِ في الخُطَبِ والخطابةِ ، تلكم الخطبة القَعْسَاء التي نُسِبَتْ إلىٰ زينبَ ابنةِ عليّ ـ رضي الله عنهما ـ ، والتي تُخاطبُ فيها أَهْلَ

(١) هذا الكلام منقول عن كتاب «الإمام الزهري» لمحمد شراب (ص٣٤٩ ـ ٣٥١) من سلسلة أعلام المسلمين ، دار القلم ـ دمشق ط١ ١٩٩٣ م.

الكوفة ، وتعيبُ عليهم فعْلَتَهم التي فعلُوها ، ثمَّ تعدِّدُ شَنَائِعَهم ، والخطبة ـ كما يُلاحظُ القارىء ـ مصنوعةٌ موضوعةٌ مصوغةٌ صياغةً خاصةً في عَصْرٍ متأخرٍ عن عصْرِ زينبَ بعشراتِ السِّنين بل بقرون ، فهي تعتمدُ علىٰ الصَّنْعةِ التي توشّيها منْ أطرافِها جميعِها ، ناهيكَ بالاقتباسِ الواضحِ منْ آياتِ القُرآنِ الكريم ، والاعتمادِ علىٰ علمِ البديع في إنشائِها ، هذا العِلْمُ الذي نَمَا وترعرعَ بُعَيْد القرنِ الثَّاني الهجري.

* ولنستمعْ إلىٰ الخطبةِ المزعومةِ يرويها ابنُ الفقيه في كتابهِ «البُلدان» ، عن جرير بن سُيير قال: قدمتُ الكوفةَ وقد انصرفَ عليُّ بنُ الحُسين منْ كربلاءَ ، فرأيتُ نِسَاءَ أهلِ الكوفة يلتَدِمْنَ مهتّكاتِ الجيوبِ ، فسمعتُ عليَّ بنَ الحُسين يقول: ألا إنَّ هؤلاءِ قتلونا ، ورأيتُ زينبَ بنتَ عليّ ـ رضي الله عنها ـ وقد أومأتْ إلى النَّاس أنْ انصتوا ، فارتدت الأنفاسُ ، وسكَنَتِ الأَجْراسُ ، ثمَّ قَالَتْ:

* الحمدُ للهِ ، والصَّلاةُ علىٰ نبيِّه ، أمَّا بَعْدُ يا أهلَ الكوفَةِ ، يا أهلَ الختلِ والخَذَلِ ، فلا رقَأَتِ العبرةُ ، ولا هدأتِ الرَّنَّـةُ. إنَّما مَثَلكُمُ ﴿ كَٱلَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَـٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ ﴾ [النحل: ٩٢]؛ ألا وهَلْ فيكم إلاَّ الصَّلَفُ والصَّدَفُ والشَّنَفُ ، ألا سَاء ما قدَّمَتْ لكم أنفسُكم أنْ سَخِطَ اللهُ عليكم وفي العذابِ أنتم خالدون[1]؛ أتبكونَ؟ أي واللهِ ، فابكوا كَثيراً واضحكوا قَليلاً ، فلقد فُزْتُم بعارِهَا وشَنَارِها ، ولنْ ترحضُوهَا بغَسْلٍ بعدها أبداً ، وأنَّىٰ تُرحَمون بعد قَتْلِ سَليلِ خَاتَم الرِّسالةِ ، وسيِّد شَبَابِ أهلِ الجنَّة ، وملاذِ خيرتكم ، ومفزع نَازِلَتِكم؟! ألا سَاءَ ما تزرون[2] ، تَعْساً ونكْسَاً ، فلقد خَابَ السَّعيُ ، وتَبتِ الأيدي ، وخسرتِ الصَّفقةُ ، وبؤتم بغضبٍ منَ اللهِ ، وضُرِبَتْ عليكمُ الذِّلَّـةُ والمَسْكَنَةُ.

---

(١) اقتباس من سُورة المائدة: ﴿ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَـٰلِدُونَ ﴾ [المائدة: ٨٠].

(٢) اقتباس من سورة الأنعام: ﴿ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ [الأنعام: ٣١].

* ويلكم أتدرونَ أيَّ كَبِدٍ لمحمّد ﷺ فريْتُم؟ وأيَّ دَمٍ سفكتم؟ وأيّ حُرمةٍ له أَضعْتُم؟! ﴿ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴾ [مريم: ٨٩ ـ ٩٠]. ولقد أتيتم بها خَرقاءَ شَوْهَاءَ طلاعَ الأرضِ والسَّماء ، فعجبْتُم أنْ قَطَرتِ السَّماءُ دَماً ، فلعذابُ الآخرةِ أخزىٰ ولا تُنْظَرُون[1] ، فلا يستخفَنّكُمُ المهْلُ ، فإنَّه لا يخافُ فوت الثَّار ، كلا ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴾ [الفجر: ١٤]. قال: فرأيتُ النَّاسَ حيارىٰ ولْهىٰ ، قد ردُّوا أيديهم في أفواهِهم[2].

أَشْعَارٌ وَمَدَائِحُ وَمُبَالَغَاتٌ فِي زَيْنَبَ:

*منَ العجيبِ في دُنيا بَناتِ الصَّحابة ، أَنْ نَجِدَ كَثيراً مِنَ النَّاسِ قَد أَلَّفَ المطوّلاتِ والمقطعاتِ والمخمَّساتِ ، ومعظمَ ألوانِ الشِّعر ، بديعهِ وبَيانِهِ في امتداحِ زينبَ بنتِ عليّ ـ رضي الله عنها ـ والتَّبرُّك[3] بها ، ـ كما سنرىٰ في الفَصْلِ القادم ـ ، حتّى إنَّ أحدَ المحبّين منَ المتصوِّفةِ وهو عبدُ الرحمن

---

(١) اقتباس من سورة فصِّلت: ﴿ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴾ [فصلت: ١٦].

(٢) انظر: كتاب البُلدان لابن الفقيه (ص٢٢٤) ، والدُّرُّ المنثور (ص٢٣٣) وغيرهما ، وذلك بألفاظ ومعانٍ قريبة ، وزادتْ صاحبةُ «الدّرّ المنثور» في الطَّنبور نغماً إذ أكملتِ الرّوايةَ ـ المزعومةِ ـ فقالت: قال: ورأيتُ شيخاً قَدْ دَنَا منها ـ أي من زينب ـ وهو يبكي حتى أَخْضَلتْ لحيتهُ ، ثمَّ قال: بأبي أنتم وأمّي ، كهولُكم خيرُ الكهول ، وشبابُكم خيرُ الشَّباب ، ونسلُكم لا يبورُ ولا يخزىٰ أبداً. (الدر المنثور ص٢٣٣ و٢٣٤). ومنَ الملاحظِ أنَّ هذا الكلام مرصوفٌ مصفوفٌ في ذمِّ الكوفةِ ليس غير ، وهو يتناقضُ مع ما قالته زينبُ أمامَ يزيد ـ عفواً ما نُسِبَ إلىٰ زينب في مقالتها أمام يزيد بن معاوية ـ.
هذا والقارىءُ الحصيفُ لا تَخْفىٰ عليه أمثالُ هذه التَّناقضات ، كما يُدْرِكُ بحسّه الأدبيّ ، وإحسَاسِه المُرهفِ للأَدَبِ ، أنَّ هذا الكلام لا يَصْدرُ عن امرأةٍ مثل زينب بنتِ علي ـ رضي الله عنها ـ.

(٣) ومن العجيب أن كثيراً من المتصوفة في مصر قد امتدحوها وبالغوا في ذلك وظنوا أنها مدفونة بمصر كالأجهوري مثلاً ، لكن التاريخ ينفي ذلك كما سنرىٰ إن شاء الله.

الأَجْهوري المقري ، قد مَدحَها بقصيدةٍ همزيةٍ تقاربُ المعلَّقةَ في طُولها ، إذ اقتربتْ أبياتُها منَ الثَّمانين ، وبالغَ في بَعْضِ الأبياتِ إلىٰ حدِّ الغُلوِّ ، ولكنِّي اقتطفتُ منَ القصيدةِ ما يخدمُ ترجمتَنا ، ومنْ أبياتِ قصيدةِ الأجهوري قوله :

آلُ طــهَ لكــمْ علينــا الــوَلاَءُ ... لا سِــوَاكُــم بِمَــا لَكــمْ آلاَءُ

مَـدْحُكـم فـي الكِتَـابِ جَـاءَ مُبيناً ... أَنْبَــأَتْ عنــه مِلَّــةٌ سَمْحَــاءُ

حبُّكـمٌ واجـبٌ علـىٰ كـلِّ شَخْـصٍ ... حــدَّثَتْنَــا بضمْنِــه الأَنْبَــاءُ

إنّــي لَسْــتُ أستطيـعُ امتـداحـاً ... لعُــلاكــمْ وأنتــمُ البُلغــاءُ

كيفَ مَدْحي يَفِي بعلياءِ مَنْ قَدْ ... عجـزتُ عَـن بلـوغـهِ الفُصَحـاءُ

شَـرُفَـتْ مِصْـرُنـا بكـم آل طـهَ ... فهنيئــاً لنَــا وحَــقَّ الهنَــاءُ

منكــم بَضْعَــةُ الإمــامِ علــيّ ... سَيـفِ دِيْـنٍ لِمَـنْ بـهِ الاهتـداءُ

زَيْنَــبٌ فضْلُهــا علينــا عَميــمٌ ... وحِمَــاهــا مــنَ السَّقــام شفــاءُ

كَعْبـةُ القــاصــديــنَ كَنْـزُ أَمَـانٍ ... وهــيَ فينــا اليتيمــةُ العَصْمــاءُ

فهـي بَـدْرٌ بـلا خسـوفٍ وشمـسٌ ... دونَ كَسْـفٍ والبَضْعـةُ الـزَّهْـراءُ

وهـي ذُخْـري وملجَئِـي وأمـانـي ... وَرَجَـائِـي وَنِعْـمَ ذاك الـرَّجـاءُ!!!

قَدْ أَنَخْتُ الخُطوبَ عند حماها ... فَعَسَــىٰ تَنْجلــي بهــا الضَّــرَّاءُ!!

مِـنْ كـرامـاتِهـا الشُّمـوسُ أضـاءَتْ ... أيـنَ منْهـا السُّهـا وأيـنَ السَّمـاءُ

لا يُضَـاهـي آلَ النَّبـي وصيـفٌ ... لا يــوفِّــي كَمــالَهــم أُدَبــاءُ

شَـرُفَـتْ منهـم النُّفـوسُ وسَـاروا ... حيثمـا أشـرفُـوا منهـم شُـرفـاءُ

وعليهــم جَــلالــةٌ وفَخــارٌ ... وَوَقَــارٌ وهيبــةٌ وضِيــاءُ

* ويقول في آخرها :

أو عُبيـدُ الـرّحمـن أَنْشَـأَ مَـدْحـاً ... آلُ طــهَ لكــم علينَــا الــوَلاءُ(١)

وقال آخرُ منْ قصيدةٍ يدعو النَّاس فيها إلىٰ أنْ يلوذُوا بسرّ زينبَ وكراماتِها فيقول :

---

(١) نور الأبصار (ص٢٠٤) ، ومن الملاحظ أن كثيراً من المبالغات والمخالفات قد مرت في القصيدة ، وهي لا تخفىٰ علىٰ القارىء الكريم .

بسرِّ زينبَ بنتِ الطِّيب شافِعنَا ... خيرُ البريةِ منْ عُرْبٍ ومنْ عجمِ
قد عَمَّنَا الخيرُ واستَعْلَتْ منازِلُنا ... ومالَنَا ما نرجِّيهِ منَ الأربِ
فكَمْ لها منْ كراماتٍ بلا عَدَدٍ ... فَلُذْ بها تُعْطَ مهما شئتَ منْ قربِ[1]

* ونجدُ في كثيرٍ منَ الكتبِ كَثيراً منَ الأخْلاطِ ، والكراماتِ ، والشَّطَحَاتِ ، ممّا لا تَقْبَلُهُ عقولُ الصِّبيانِ ، بل إنَّ تلكم الشَّطحاتِ تجاوزتْ مِقْدار اللامعقول ، وتجاوزتِ الجوزاءَ في التَّخيُّل والخَيال؛ ومصداقُ ذلك ما أورَدَهُ مُؤْمن الشَّبْلنجي قال: حُكِيَ أنَّ بَعْضَ الوعَّاظِ أَطْنَبَ في مَدْحِ آلِ البيتِ الشَّريف وذكرَ فَضَائِلَهُم ، حتّى كادتِ الشَّمْسُ أن تغربَ ، فالتفتَ إلىٰ الشَّمسِ ، وقال مُخَاطباً لها:

لا تَغْرُبي يا شَمْسُ حتَّى ينقَضِي ... مَدْحِي لآلِ محمَّدٍ ولنَسْلِهِ
واثنِي عنانَكِ إنْ أرَدْتِ ثناءَهم ... أَنَسِيْتِ إذْ كانَ الوقوفُ لأجْلِهِ
إنْ كانَ للمولىٰ وقوفُكِ فليكنْ ... هذا الوقوفُ لفرعِهِ ولنَجْلِهِ

* فطلعتِ الشَّمْسُ ، وحَصَلَ في ذلكَ المجلسِ أُنْسٌ كثيرٌ ، وسرورٌ عظيم[2].

* وممّا يُستجادُ في امتداحِ أهْلِ بيتِ النُّبوَّة ، ما قالَه أبو الحسَن بنُ جُبير منْ قصيدةٍ طويلةٍ ، نقتطفُ منها ما يتناسبُ معَ هذا المقَام:

هُمُ أهْلُ بيتٍ أُذْهِبَ الرِّجسُ عَنْهُمُ ... وأطْلَعَهم أُفْقُ الهدىٰ أَنْجُماً زُهْرا
مُوَالاتُهمْ فَرضٌ علىٰ كُلِّ مُسْلمٍ ... وحبُّهمُ أَسْنىٰ الذَّخائِر للأُخْرىٰ
ومَا أنَا للصَّحْبِ الكِرَامِ بمبْغِضٍ ... فإنِّي أرىٰ البَغْضَاءَ في حقِّهم كُفْرا
همُ جاهَدُوا في اللهِ حقَّ جهَادِهِ ... وهم نَصروا دِيْنَ الهدىٰ بالظُّبا نَصْرَا
عَليهمْ سَلامُ اللهِ مَا دَامَ ذِكْرُهم ... لَدَىٰ الملأ الأعْلىٰ وأكرِمْ به ذِكْرا

---

(١) الخطط التوفيقية (٦/ ١٨٢).
(٢) نور الأبصار (ص١٢٨)؛ والحقيقة لا ندري أي شَمْس طلَعَتْ!؟!؟!!

وَفَـاتُـهَـا وَمَـكَـانُـهَـــا :

* فيما مضىٰ عِشْنَا أحداثَ هذهِ الابنةِ الشَّهيرةِ في عالمِ بناتِ الصَّحابة ، ورأينا الأحداثَ التي عَصَفَتْ بها ، والأمورَ التي مرَّتْ بحياتِها؛ فقد استُشْهِدَ أخوها سنة (٦١ هـ) ، واستُشْهِدَ معه ابناها عونٌ ومحمدٌ ، كما فَقَدتْ في كربلاءَ عَدَداً منْ ذويها وآلها ، وَمِنَ الطَّبيعي أنْ تَعودَ بَعْدَ هذه الأحداث الجِسَامِ إلىٰ مَسْقَطِ رأسِها؛ إلىٰ المدينةِ المنوَّرةِ حيثُ أهلها ، وحيثُ زوجها عبد الله بن جعفر .

* وتابعتْ زينبُ حياتَها بعد استشهادِ ذويها أكثر منْ سنةٍ ، حيث لبَّتْ نداءَ ربِّها في المدينةِ المنوَّرةِ ، وذلك سنةِ (٦٢ هـ)[(١)] ، ولعلَّها قَدْ دُفِنَتْ إلىٰ جوارِ نساء أهْلِ البيتِ في البقيع قُربَ المسجدِ النَّبويِّ الشَّريفِ ، ولعلَّه قد جُهِلَ ـ فيما بعد ـ محلُّ قبرِها بالبقيعِ ، إلاَّ أنَّ الدَّلائلَ الصَّحيحةَ لتشيرُ بأنَّها مدفونةٌ هنالك . ـ كما سنرىٰ بعون الله ـ .

* وقد تضاربتِ الآراءُ في مكانِ وفاتِها ، وكثُرتِ الأقوالُ في ذلكَ ، فهناك مصادرُ تزعمُ أنَّها دُفِنَتْ في الشَّام في مدينةِ دمشقَ؛ ولكنَّ العلاَّمةَ ابنُ عسَاكر لم يُعيِّنْ في تاريخِهِ مكانَ موتها ، ولو كان بدمشقَ لذكرَ ذلك .

* وتزعمُ مصادرُ أخرىٰ أنَّها تُوفيتْ في مصرَ ، وأنَّها المدفونةُ بقناطرِ السِّباعِ منْ مصرَ المحروسةِ[(٢)] . !! .

---

(١) تروي بعض المصادر أنها توفيت سنة (٦٥ هـ)؛ انظر أعلام النِّساء (٢/ ٩٩) .

(٢) أعـلام النِّسـاء (٢/ ٩٩) ، وانظـر : الحقيقـة والمجاز (ص٢١٥) ، وقـال الشَّيخُ عبد الغني النابلسي في كتابهِ هذا نقلاً عن طَبَقات الشَّعراني عندما تحدَّثَ عن مقامِ الحُسين بمصرَ ، ودَفْنِ رأسِه هناك : وفي طبقاتِ الشَّعراني أنَّ أخته زينبَ حَمَلَتْ رأسه إلىٰ مصرَ ، ودفنتْه في المشهدِ المشهور بها؛ ومشىٰ النَّاسُ أمامَها حُفَاةً من مدينةِ غزَّةَ إلىٰ مصرَ تعظيماً لها ـ رضي الله عنها ـ . (الحقيقة والمجاز ص٢٤٥) .
ولاحظ ـ عزيزي القارىء ـ أنَّ الناس مشوا حفاةً من مدينة غزَّة إلى القاهرة . . . ولكَ =

* وكلٌّ من المصادرِ يدلي دَلْوَه في هذا المضْمَار ، ليكسبَ زينبَ في أرضِهِ[1] ، ويدّعي أنَّها المدفونةُ عنده ، و:

وكُلٌّ يدَّعِي وَصْلاً بلَيْلىٰ ولَيلىٰ لا تَقِرُّ لَهُمْ بذَاكا

* هذا وفي خُطَطِ علي مبارك وغيرِهِ منَ المصادرِ والمراجع ، أقوالٌ متضاربةٌ تشيرُ إلىٰ وجودِ زينبَ[2] في مِصْرَ ، ومنَ العجيبِ أنَّه يُوجدُ بالقاهرةِ مسجدٌ باسمِ مسجدِ زينبَ ، أو الجامع الزَّينبي بقناطر السّباع ، وقالَ علي مبارك: هو مسجد شهيرٌ جامعٌ ، وحَرَمٌ آمِنٌ وَاسِعٌ ، ولمْ أَقِفْ علىٰ أوَّلِ مَنْ أنشأَهُ ، وإنَّما في «نُزْهَةِ النَّاظرينَ»: أنَّ الأميرَ علي باشا الوزير المتولّي سَنَةَ (٩٥٦ هـ) أجرىٰ مدّةَ ولايتهِ عدّةَ عمائِرَ ، منْ ضمنِها أنّه عمَّرَ مقَامَ السَّيِّدة زينب ـ رضي الله عنها ـ بقناطر السِّبَاعِ عمارةً جيّدةً عظيمةً .

* وذكرَ علي مُبارك أيضاً أنَّ الأميرَ عبدَ الرحمن كتخدا في سنةِ (١١٧٣ هـ) جدّدَ رحابَ السَّيِّدة زينبَ ـ رضي الله عنها ـ ووسَّعَه[3] .

* ويذكرُ علي مبارك أيضاً أنَّ عبَّاسَ باشَا في جلوسِهِ علىٰ تَخْتِ مصرَ ، كان مشْغُوفاً بعمائرَ مشَاهِدِ أهلِ البيتِ ، فعزمَ علىٰ عمارةِ المسجدِ الزَّينبيّ وتوسعتهِ ، فاخترمَتْه المنيةُ قبْلَ بلوغِ آماله[4] .

* ويروي علي مبارك في خَطَطِهِ مراحلَ تجديدِ وعمارة المشهدِ الزَّينبي فيقولُ ما مفادهُ: وفي سَنَةِ (١٢٧٥ هـ) في حُكْمِ المرحومِ سعيد باشَا أُجريتْ به العمارةُ علىٰ الرسْم الذي كانَ قد عزمَ عليه المرحومُ عبّاس باشا ، فَتَمَّ بناؤه

= أنْ تتصورَ مدىٰ الاستخفافِ بالعقول ، ناهيلك بأنَّ الخبرَ باطلٌ أصلاً ، وزينب لم تذهبْ إلىٰ القاهرة .

(١) المهم في هذا كله أن تقتدي النِّساء بفضائل زينب ـ رضي الله عنها ـ ، لا أنْ نختلفَ أين دُفنت في الشَّام أو مصر ، وهي لم تُدفنْ لا هنا ولا هناك .

(٢) لعلَّ زينب الموجودة بمصر هي زينب بنت يحيىٰ المتوج بن الحسن الأنور .

(٣) الخطط التوفيقية (٥/ ٢٢ و٢٣) .

(٤) المصدر السابق .

عليه ، وكان على يد المرحومِ إبراهيم أدهم باشَا ، وقد أَرَّخَ أحدُ الشُّعراء بحسابِ الجُمَّل تأْريخ تجديدِ المشَهْدِ الزَّينبي علىٰ يَدِ محمد سعيد باشَا وإبراهيم أدهم ، ونُقِشَ ذلك علىٰ لوحِ رخامٍ ورسْمُه :

فـي ظِـلّ أيّـام السَّعيـدِ محمّـدٍ ... ربِّ الفَخَـارِ مَليـكِ مصـرَ الأفْخَـمِ
مِنْ فائضِ الأَوْقَافِ أتْحَفَ زينباً ... عَـونَ الـورىٰ آلَ النَّبـيِّ الأكْـرمِ
قَـدْ شَـادَ إبـراهيـمُ أدهم خـدمـةً ... هـذا البِنَـا للطُّهْـرِ فَـرضُ المُسْلـمِ
مَنْ يأْتِ يَنْوي للوضوءِ مؤرِّخاً ... يَسْعَـدْ فـإنَّ وضـوءَه مـنْ زمـزمِ[1]

(سَنَةَ ١٢٤٦ هـ)

* ويتابعُ علي مبارك وصْفَ المسجدِ الزَّينبي إلىٰ أنْ يَصِلَ إلىٰ ضريحِ زينبَ فيقولُ ما محصّله وملخّصه : وأمّا ضريحُ كريمةِ الدَّارَيْنِ السَّيدة زينب ـ رضي الله عنها ـ فَعَلَيْهِ منَ المهابةِ والجلالِ والوقارِ ما لا يُوصفُ كثرةً ، ويُقْفَلُ عليه بَابَانِ مصفَّحانِ بالنُّحاس ، مكْتُوبٌ علىٰ أحدهما هذا البيت :

إِنْ رُتَ فـي شِـدَّةٍ آلَ النَّبـيِّ تَجِـدْ ... بِنْتَ الرِّضا زينباً أخْتَ الحُسَين حمى

* والآخر مكتوبٌ فيه هذه الأبيات :

نُـورُ بنْـتِ النَّبـيِّ زينـبَ يَعْلُـو ... مَسْجِـداً فيـه قبـرُهـا والمـزَارُ
قَـدْ بَنَـاهُ الـوزيـرُ صَـدْرُ المعَـالـي ... يُـوسُـفٌ وهـو للعُـلا مُخْتَـارُ
مـنْ مَليْـكِ المُلـوكِ سُلْطـانِ كـلّ ... فـي بنـي عُثْمـانَ إليـهِ يُشَـارُ
صَـاحـبِ النَّصـرِ والفتـوحِ سَليـم ... نَصَـرَ اللهُ جيشَـه حيـنَ سَـاروا
وكـذا خسـرو محمّـد بـاشـا ... مَـنْ بـه عـزّ مصـرَ والأَقْطَـارُ
دامَ إجـلالاً كلَّمـا قُلْـتُ أَرِّخْ ... مَسجِـدٌ مشْـرِقٌ بـهِ أسْـرارُ

١٠٧ ٦٤٠ ٧ ٤٦٢

سَنَة (١٢١٦ هـ)

* وهناكَ عنْدَ الضَّريح إزارٌ منْ خَشَب به قصيدةٌ أيضاً ، تشيرُ إلىٰ التَّبرُّك

---

(١) الخطط التوفيقية (٥/ ٢٤) بتصرف. ومجموع جُمَّل السطر الأخير هو سنة (١٢٤٦ هـ).

بالضَّريحِ والطَّواف به ، وما إلىٰ هنالك من عقائدَ سَادتْ عَصْر ذاك ، وأوّل القصيدةَ[1] :

ضَريحُ بني الزَّهْراءِ يعلُو به القَدْرُ ... ويُمْحَىٰ عنِ الزُّوَّارِ في بابِه الوِزْرُ

ضريحٌ بهِ قَدْ شُرِّفَتْ مصرُ وارتَقَتْ ... مَقَـامٌ علـىٰ الأعْـداءِ شُـدَّ بـهِ الأزْرُ

عليهمْ رضا الرَّحمنِ في كلِّ طرفَةٍ ... يـدومُ دَوامـاً لا يغيِّـرهُ الـدَّهْـرُ[2]

* وقد كُتِبَ علىٰ بابِ القبّة بيتان بماءِ الذَّهَب وهما :

وزَينـبُ وَرْدَةُ الـزَّهْـراءِ بنـت علـي ... أختُ الحُسين لها بين الورىٰ شَانُ

قـالـتْ لنـا بِلسَـانِ الشُّكْـرِ واصفـةً ... نَسْـلُ الـرَّسـولِ الـذي حيَّـاه قـرآنُ

* ثم على البرزخِ الشَّريفِ مقصورةٌ منَ النُّحاس الأصْفَرِ منقوشٌ بأعلاها بالتَّفريغ : يا سيّدة زينب يا بنتَ فاطمةَ الزَّهراء بنت رسول الله ﷺ مَدَد سنة ١٢١٠ هـ[3] .

* وعلىٰ المشهدِ قبّةٌ جليلةٌ مزخرفةٌ ، وفيها بِروَازَان منَ الخشَبِ في أحدهما سورة الفَتْح ، وفي الآخر سورة الحَشْر ، وبها شبّاكان منَ النُّحاسِ على أحدهما : ﴿ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴾ [هود : ٧٣] ؛ وعلى الثَّاني : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ [الأحزاب : ٣٣] .

* وشبّاكان آخرانِ مكتوبٌ عليهما :

يـا آلَ بيـتِ رسُـولِ اللهِ حبُّكـمُ ... فـرضٌ مِـنَ اللهِ فـي القُـرآن أَنْـزَلَـه

---

(١) الخطط التوفيقية (٥/ ٢٥ و٢٦) باختصار وتصرف ، ولاحظ أن مجموع جُمَّل الشطر الأخير : ١٠٧+٦٤٠+٧+٤٦٢= ١٢١٦ .

(٢) الخطط التوفيقية (٥/ ٢٦) ؛ ويلاحظُ القارىءُ الكريم ما في الأبيات منْ خروجٍ عن شرعِ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ، وعن الهدي النَّبويّ ، بالإضافةِ إلىٰ المبالغاتِ والخوارقِ ، ولكنْ أحببتُ أنْ أنقلَ ما جاءَ عن السَّيدةِ زينب ، كيما آخذَ بيدِ القارىء إلىٰ الطَّريقِ القويمِ ، بإذن اللهِ .

(٣) المصدر السابق نفسه ؛ وانظر التعليق السابق .

يكفيكـمُ فـي عظيـم الفَخْـرِ أنكـمُ   مَنْ لَمْ يُصَلِّ عليكم لا صَلاةَ له[1]

* وقربَ مقصورةِ الجامعِ يُوجد لوح رخامٍ منقوش فيه:

يـازائـريهـا قفـوا بـالبـابِ وابتَهِلـوا   بنتُ الرَّسولِ لهذا القُطْرِ مِصْبَاحُ

* وبأسفلِ لوحِ الرخام مكتوب: هذا مقامُ الهاشميّة النَّبويّة زينبُ بنتُ فاطمة الزَّهراءِ المصطفويّة بضْعَةُ سيِّدِ الأنام خيرُ البشريّة، تاريخُ انتقالها سنة خمس ومئة منَ الهجرةِ النَّبوية عليهم تسليمات رحمانيّة. سنة ثلاث وسبعين وألف.

* وخارجُ المقصورة شبّاكان منْ نحاسٍ عليهما هذان البيتان:

كيـفَ أخْشَـى يـا آلَ أحمـدَ ضَيْمَـاً   بَعْـد حُبّي لكـمْ وحُسْـنِ اعتِقَـادِي

يـا بِحَـارَ العَطَـا أَأَخْشَـىٰ وأنْتُـم   سُفُـــنٌ للنَّجـــاةِ يـــومَ المعَـــادِ

* ويتابعُ علي مبارك، فيروي أنَّ المشهدَ الزَّينبيَّ جُدِّدَ وزُخْرِفَ في عام (١٣٠٤ هـ)، ويُعْملُ للسَّيِّدة ـ رضي الله عنها ـ حَضْرتان في الأُسْبوع، ليلةَ الأحد، وليلةَ الأربعاء، ومولدٌ كلَّ سنةٍ نحو عشْرينَ يوماً[2].

* وينقل علي مبارك عنِ الشَّيخ محمد الصَّبَّان في رسالتِهِ في أهلِ البيتِ قوله: قالَ الشَّعْراني في «مِنَنِه»[3]: أخبرني سيِّدي علي الخوَّاص، أنَّ السَّيِّدة زينب المدفونةَ بقناطرِ السِّباع ابنةُ الإمامِ عليّ ـ رضي الله عنه ـ، وأنَّها في هذا المكان بلا شَكّ، وكانَ يخلعُ نَعْلَهُ في عَتَبَةِ الدَّرْبِ، ويمشي حَافياً حتى يجاوز مَسْجِدها، ويتوسَّلُ إلىٰ اللهِ تعالىٰ بها في أنْ يغفرَ له[4].

---

(١) المصدر السابق نفسه؛ وانظر التعليق السابق.

(٢) الخطط التوفيقية (٥/ ٢٧ و٢٨) باختصار؛ ولاحظ عزيزي القارىء، الحضرة والمولد، ولا توجد زينب هناك. !!

(٣) «منه»: أي كتابه: لطائف المنن، وهو مطبوع.

(٤) إسعاف الراغبين بهامش نور الأبصار (ص٢١٨)؛ والخطط التَّوفيقية (٥/ ٢٩)؛ وسواءٌ أخَلعَ هذا نَعْلَه أمْ عقْله، فإنَّ في هذا مخالفةً لما تواترَ في الصَّحيح عمَّن هو أعلمُ وأكبرُ وأعلىٰ منه.

* ومنَ المهازلِ التي تَعْبَثُ بعقولِ كثيرينَ منَ النَّاس ، قَصَصُ الكَشْفِ التي يدَّعيها بعضُ النَّاس ، وذلك عندما يعجزون عن إبرازِ الحقائقِ في شَكْلِها الصَّحيح؛ ومن أمثلةِ ذلك ما جاء عند الشَّعراني في كتابهِ «الأنوار القُدسية» حيثُ قال: قد صحَّحَ أهلُ الكَشْف[١] أنَّ السَّيِّدة زينب بنت الإمام علي هي المدفونةُ بقناطرِ السِّباعِ بلا شَكّ ، وأختها السِّيدة رقيّة[٢] في المشهدِ القريبِ من دَارِ الخليفة قربَ جَامعِ ابنِ طُولون ومعها جماعةٌ منْ أهلِ البيتِ ، والسَّيِّدة سُكينة[٣] بنتُ الحُسين في الزَّاوية التي عند الدَّرب قربَ دارِ الخليفةِ أيضاً. والسَّيِّدةُ نفيسة[٤] في المشهدِ القريب من مجراةِ القلعةِ عند بابِ القَرافةِ الصُّغرىٰ. والسَّيِّدة عائشة بنت جعفر الصَّادق في المسجد الذي له المنارة القصيرة علىٰ يسارِ الخارج منَ الرّميلة.

* والسَّيِّد محمّد الأَنْور عمّ السَّيِّدة نفيسة في الزَّاويةِ القريبةِ من جامعِ ابن طِولون؛ وأخاه السَّيِّد حسنَ والد السَّيِّدة نفيسة في القبّةِ القريبةِ منْ جامع عمرو؛ وأنَّ رأْسَ زين العابدين ، ورأس زيد الأبلج في القُبطة التي بينَ التَّلِّ قربَ مجرىٰ القلعةِ. ورأس السّيد إبراهيم بن زيد الأبْلج في المسجدِ الخارجِ من المطرية مما يلي الخانقاه ، وأنَّ رأْسَ السيد الحُسين ـ رضي الله عنه ـ في المَشْهَدِ المعروفِ قربَ خان الخليلي بلا شَكٍّ ، جيءَ بهِ منْ بلادِ العجم ، ومشىٰ أمامه طلائع بنُ رزيك هو وعَسْكَرُهُ حُفاةً منْ ناحيةِ الشَّرقية إلىٰ مِصْر[٥].

---

(١) «أهل الكَشف»: اللهُ أعلم من هم أهل الكشف هنا!!

(٢) منَ المعروف عند أهل التَّراجم والسَّير أنَّ زينبَ لم يكنْ لها أُخْتٌ تُدعىٰ رقيّة ، فمِنْ أينَ جاءَ هذا الكشْفُ المكشُوف؟!!

(٣) اقرأ سيرةَ سُكينة في هذا الكتاب ، وقد أثبتنا بالدَّليل القَاطع ، أنَّها توفيتْ في المدينة المنورة أيضاً ، وأنَّها دُفنتْ بالبقيع ، وأنَّ ما قيلَ في ذهابِها إلىٰ مصرَ مع عمتها زينب ، إنْ هو إلا أضغاثُ أحلامِ أهلِ الكشف والرَّشف واللطش!.

(٤) اقرأ سيرةَ نفيسة في موسوعتنا الشَّهيرةَ «نساء من التَّاريخ» (ص٦٠٧ ـ ٦٣٧).

(٥) الخطط التوفيقية (٥/ ٢٩) نقلاً عن الأنوار القدسية للشَّعراني؛ ومنَ العجيبِ أنَّ أهْلَ=

* بعد هذا كلِّه ، تُرىٰ هَلْ زينب دُفِنَتْ في مصرَ؟ وهل ذَهَبَتْ زينبُ إلىٰ مصرَ في يومٍ منَ الأيّام؟! وهل كلُّ ما قرأناه في الصَّفحاتِ الماضياتِ ضَرْبٌ منَ الأوهامِ والتَّخيُّلات ، وكلام أهلِ الكَشْف؟!

* ما الحقيقة إذاً ، وكيفَ يتوصَّلُ طالبُ المعرفةِ إلىٰ الخَبَرِ اليقينِ في مثْلِ هذه الأخبار؟!

* الحقيقةُ كما يثبتُها التَّاريخ بأنَّ زينبَ بنتَ عليٍّ ـ رضي الله عنهما ـ لم تذهبْ إلىٰ مصر في حياتِها ، فَضْلاً عَنْ أنَّ مثواها الأخير في المدينةِ المنورةِ ، وكلُّ ما قرأَناه ، وما نراهُ الآنَ من مساجدَ ومزاراتٍ غيرُ حقيقي؛ ولعلَّ كثرةَ المحبِّينَ لأَهْلِ البيتِ النَّبويّ الطَّاهر جَعَلَهم يتخيّلونَ ذلك ، ويصدّقون ما يعتادهم من توهمٍ وخيالاتٍ ، فجعلوا المساجدَ والمزاراتِ بأسماءَ وهميّةٍ ، وسمّوها بتلكم الأسماء الشَّريفةِ لأعلياءِ الصَّحابة ، ولرجالِ ونساءِ أهلِ البيتِ ، فأضحتْ بَعْدَ حينٍ منَ الدَّهْر منَ الحقائقِ ومنَ المُسَلَّماتِ مع تقادم الأزْمَانِ.

* ولعلَّ صاحب «الخُطَط التَّوفيقيّة» علي مبارك كانَ منْ أكثرِ الباحثينَ إصابةً واستيعاباً لهذا الأَمْر ، ولم تَنْطَلِ عليهِ أقوالُ أهلِ الكَشْفِ مهما كشفُوا ورشَفُوا منْ أفواهِ الأوهامِ ، ومنْ ثغورِ الخيالاتِ والتَّخيّلاتِ ، وإنَّما كانَ أقربَ إلىٰ الحقيقةِ فيما قال عن زينبَ ـ رضي الله عنها ـ ، وذلك بعد أنْ ساقَ

= الكشفِ هؤلاء قد جذبُوا كلَّ أفرادِ أهل البيتِ إلىٰ المكانِ الذي يريدونه ، ووضعوهم في الأماكنِ التي اخترعوها هُمْ وحدهم.
ولعلَّ كثرةَ المساجدِ والمزاراتِ قد جَعَلَتِ الحابلَ يختلطُ بالنابلِ ، وتبدو الصُّور ضبابيةً غير واضحة ، فقد قالَ أحدُ الرَّحالة الأوربيين: لو جُمِعَتْ مساجدُ القاهرةِ في مكانٍ واحد ، لكوَّنَتْ مدينةً في حَجْم مدينةِ أورليان.
انظر: «القاهرة» في سلسلة كتابِ اليوم ، العدد (٣٠٨) أيار ١٩٩٠ م ، للمستشرق الفرنسي: جاستون فييت ، وترجمة الدكتور: مصطفىٰ العبادي.

كثيراً منَ الأخبارِ التي قرأَها في المصادرِ التي لَعِبَتْ بها الأهواءُ ، وزُخْرِفَتْ بها السُّطور.

* هذا وقد نفىٰ علي مبارك كلّ ما قِيْلَ عنْ وجودِ السَّيدة زينبَ في مِصْرَ ، أو حتَّى عن زيارتها مصرَ في حياتِها ، فقال: لَمْ أرَ في كُتُبِ التَّواريخِ أنَّ السَّيدةَ زينب بنتَ علي ـ رضي الله عنهما ـ جاءتْ إلىٰ مِصْرَ في الحياةِ أو بَعْدَ المماتِ[1].

* ويتابعُ علي مبارك رحلةَ الحقيقةِ هذه ، ويؤكِّد بالحُجج المقنعةِ بأنَّ السَّيِّدة زينب لم تأتِ مصْر ، وينقلُ عنْ قدماءَ من القرنِ السَّادس فيقول: وقد ذكَر الثِّقةُ القدوةُ أبو الحسين محمد بن جُبير الأندلسي الغَرناطي في رحلتهِ التي عَملها في أواخرِ القرنِ السَّادسِ من الهجرةِ النَّبوية: أنَّ ما حَصَّله العيان بمصرَ المحروسةِ منْ مشاهدِ الشَّريفات العلويّات ـ رضي الله عنهن ـ ، وتلقيناه منَ التَّواريخ الثَّابتة عليها مع تواترِ الأخبار بصحةِ ذلك هو: مَشْهَدُ السَّيدة أمّ كلثوم بنتَ القاسم بن محمّد بن جعفر ، ومشهد السَّيدة زينب بنت يحيىٰ بن زيد بن الحسن بن علي ، ومشهد أمّ كلثوم بنتَ محمد بن جعفر الصادق ، ومشهد السّيدة أم عبد الله بن محمد ـ رضي الله عنهم ـ.

* قال: وهي أكثرُ منْ ذلك ، ولم يذكرْ مَشْهدَ السَّيدة زينب بنت علي أختَ الحُسين ـ رضي الله عنهم ـ[2].

* ويضيفُ علي مبارك دليلاً آخرَ منْ عند «السَّخاوي» علىٰ أنَّ السَّيدة

---

(1) الخطط التوفيقية (٥/٢٨).

(2) انظر الخطط التوفيقية (٥/٢٨ و٢٩)؛ وذكرتْ زينب فواز قالت: وعلىٰ اختلافِ الرّوايات أنَّ للسيِّدة زينب ـ رضي الله عنها ـ مقامَيْن: أحدهما بدمشقَ؛ وهو مقصودٌ منْ كلِّ الجهاتِ خصوصاً من أهل الشِّيعة.
والثَّاني: بمصرَ ، وهو أشهرُ منَ الأوَّلِ ، ولها أوقافٌ ، وإيرادٌ زائدٌ منْ ديوانِ عمومِ الأوقافِ المصريةِ ، ولها مسجدٌ في مصرَ لم يوجدْ مثلُهُ ، وقد ذكر أوصافَه علي مُبارك في خططه المسمّاة بالخطط التَّوفيقيّة. (الدّرّ المنثور ص٢٣٥).

زينب أو أحداً منْ إخواتها لم يَزُرْ مِصْرَ ، فَضْلاً عن أن يَمُتْ فيها فقال : وفي كتابِ «المزارات» للسَّخاوي : أنَّ المنقولَ عنِ السَّلف أنَّه لم يمتْ أحدٌ منْ أولادِ الإمام علي لصُلْبه بمصرَ ، وإنَّما يُذكَرُ ذلك في كُتُب الصّوفية وسِيَرِ الصَّالحين[1] .

* والآن يمكننا أنْ نقولَ ونحنُ مطمئنون : لو كانتْ زينبُ قد غادرتِ المدينةَ إلىٰ مصرَ عَصْر ذاك ، لطبَّلَ المؤرخون بذلك وزمَّروا ، لا سيما أنَّ الأحداثَ التي عَصَفَتْ بها وبأخيها الحُسين ظلتْ حيناً منَ الدَّهْر حديثَ النَّاس في الأمصارِ علىٰ تباعدِ المسَافاتِ بينهم ؛ ولكنَّ شيئاً مِنْ هذا لم يحدثْ ، ولم تغادرْ زينبُ المدينة المنوَّرة .

* إنَّ الذي ترتاحُ إليه النُّفوس هو الذي يتوافقُ مع تاريخِ زينب ، حيثُ توفيتْ في المدينةِ المنورة ، وهناك دُفنتْ في البقيع قُربَ نساءِ آلِ هاشم ، وقربَ والدتها وعمّاتها ومعظم أمّهات المؤمنين .

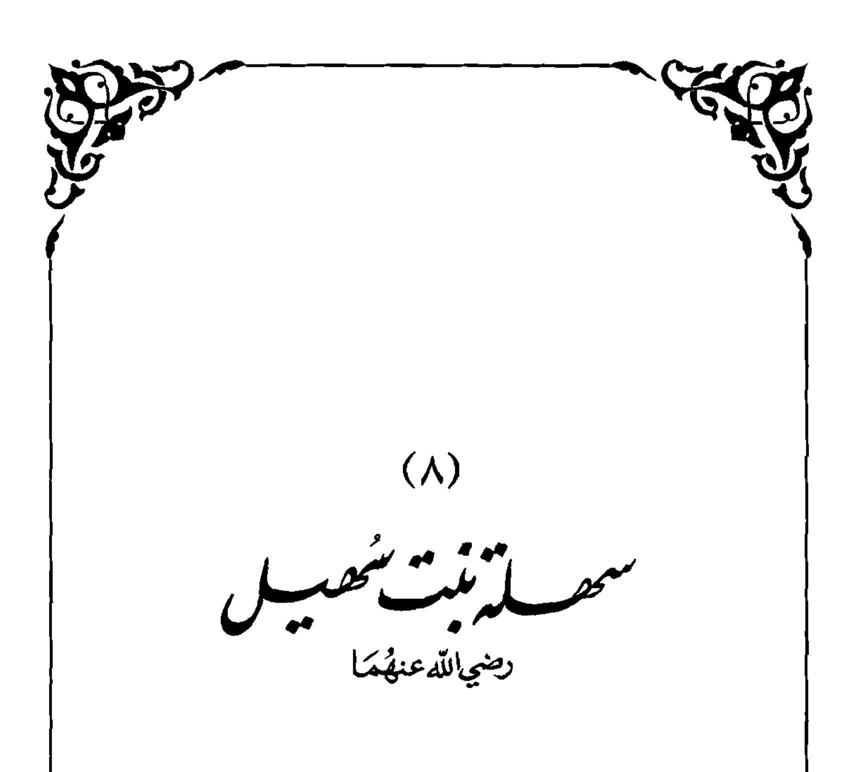
* وبعد ، أرجو اللهَ ـ عزَّ وجلَّ ـ أنْ أكونَ قد وفِّقتُ في الحديثِ عن زينبَ بنتِ علي ـ رضي الله عنهما ـ ، وأرجو أنْ تكونَ صورتها واضحة في الأذهان ، كما رسمْتُها في هذه الصَّفحات .

* اللهم إنَّك تعلمُ أنِّي ما أردتُ بهذا إلاَّ مرضاتك ، وما أردتُ إلا وضْع النِّقاط علىٰ الحروفِ لتُقْرأَ بشكلٍ صحيح سليم ، وذلك حبّاً في بناتِ الصَّحابة ، بل والصَّحابة الأبرارِ الذين رضيتَ عنهم ، اللهم فارضَ عنَّا واحشُرنا معهم ، إنَّك سميعٌ عليمٌ .

* * *

---

(١) المصدر السابق .



(٨)

سهلة بنت سهيل

رضي الله عنهما

* مؤمنة ، مهاجرة ، صابرة ، محتسبة .

* خصَّها ﷺ برخصةٍ نبوية .

* لها رواية للحديث الشريف .

مـنْ رَعيْـلِ السَّـابِقَـات:

* إذا ذُكِرَ السَّابقونَ والسَّابقاتُ إلىٰ دوحةِ الإسلامِ، يَلْمعُ اسمَ ابنةِ هذا الصَّحابي في الصَّفحةِ الأُولىٰ لأسماءِ السَّابقاتِ المُجلياتِ.

* وإذا ذُكِرَ السَّابقونَ الأوَّلُون إلىٰ الإسلامِ، تأتي هذه الصَّحابيةُ ابنةُ الصَّحابي في عدادِ الذين نَعِمُوا بروحِ وريحانِ الإيمانِ، وممّن آمنوا بربِّهم وزادهُم هدىً وتثبيتاً، إذْ رَبَطَ علىٰ قُلُوبهم وأكرمَهم بالدِّين الحنيفِ.

* كانتْ من عِليةِ بناتِ قُريش، ومنْ ذِروةِ أَحْسَابِهم وأنْسابِهم، وكانتْ لما أسلمتْ في ذِروة الشَّباب، حيثُ أصبحتْ مع زوجها في سِلْكِ دُرَرِ المؤمنين السَّابقين الذين سَابَقُوا وسَارَعوا إلىٰ التَّوحيد قَبْل دخولِ الحبيب الأعظم دارَ الأرقمِ بنِ أبي الأرقمِ المخزوميّ.

* نَعمْ كانتْ وزوجُها منَ السَّابقين الأوَّلينَ، وكانَا منْ صميمِ أبناءِ بيوتِ قريش وبطونِها، وعليةِ شبابِها، وهُما معروفَانِ بأسمائِهما وأنسابِهما، وبيوتهما، وقبائِلهما، ولم يكونا منَ الضُّعفاء أو الأرقَّاءِ والفقراءِ وحَواشي بيوتاتِ مكَّةَ وأتباعها، كما شُهِرَ ذلك علىٰ أَلْسِنَةِ وأقلامِ بعضِ السَّطحيّين من بعضِ الباحثين، حيثُ إنَّ واقع السَّابقينَ الأوَّلين يدحضُ اعتقاداتِهم وأقلامَهم، وإنَّ نظرةً واحدةً في أسماءِ السَّابقين الأوَّلين رِجَالاً ونساءً تكشفُ الحقيقةَ، وتُجلي الواقعَ.

* فنحنُ نَعْلم عِلْمَ اليقينِ أنَّ أوَّل مَنْ استجابَ لنفحاتِ الحقِّ، وشَذَا الإيمانِ أمُّنا خديجةُ بنتُ خُويلد ـ رضوان الله عليها ـ زوجُ النَّبيِّ ﷺ النَّجيبةُ، الأريبةُ، الكريمةُ، الطَّاهرةُ، الحسيبةُ النَّسيبةُ، سيِّدةُ قومها، وسيدةُ نساءِ العَالَمين إسلاماً وصدّيقةُ المؤمناتِ الأولىٰ، وواسطة العِقْدِ الفريدِ النفيس في نساءِ البيتِ النَّبوي الطَّاهر المطهَّر.

* كما نجدُ ثانيةَ المُسْلماتِ امرأةً في الذِّروةِ العُلْيا من كَرمِ الأعراقِ ، وهي الحرّةُ الجليلةُ أمُّ الفَضْلِ لبابةُ بنتُ الحارث الهلاليّة زوجُ العبَّاسِ عمِّ النبي ﷺ ، فقد أسلمتْ بعد أمِّنا خديجة ـ رضي الله عنهما ـ.

* وفي سجلّ الأوَّلين نجدُ العتيقَ الصِّديقَ أبا بكرٍ ـ رضي الله عنه ـ وهو العَليمُ العَيْلَمُ ، أعلمُ قريش بقريشٍ ، وأحسابِها ومفاخرِ بُطونها ، المؤثل ثراءً ، المؤمَّل نجدةً ، الكريم قولاً ، القوّام بالأثقالِ فِعْلاً.

* ثمّ نجد عبدَ الرَّحمن بنَ عوف وعثمانَ بنَ عفَّان وسعدَ بن أبي وقاص وغيرَهم من النُّجوم الزَّواهِر في سَمَاءِ الأَعْلام ، وهُمْ هُمْ في الذِّروةِ العُليا منَ الحسَبِ والشَّرف والغِنَىٰ والمكانةِ.

* ومنْ أولئك الأعلامِ الكرامِ نلتقي ضيفةَ هذه الصَّفحاتِ المباركاتِ سَهْلةَ بنتَ سُهيلِ بن عمرو القُرشية العامريّة[1] التي سجَّلت في ديوانِ العَظائِم أجْمَلَ اللوحاتِ التي تجعلُها في ديوانِ الخالداتِ منْ بنَاتِ الصَّحابةِ الكريماتِ. كما نلتقي زوجَها أبا حُذيفةَ بنَ عتبةَ بن ربيعةَ وهو السَّيدُ الكبيرُ الشَّهيد القرشيّ العَبْشَميّ البدريّ أحدُ السَّابقين الشَّباب ، أسلمَ قَبْلِ دخولِ الحبيبِ الأعْظمِ دارَ الأرقمِ بنِ أبي الأرقم رضي الله عنه: فهل أتاكَ نبأُ سَهلة؟ وهل أتَتْكَ أخبارُها العَطِرة الحسَان؟!

---

(١) طبقاتُ ابن سعد (٨/ ٢٧٠) ، وتهذيبُ الأسماءِ واللغات (٢/ ٦١٣) ترجمة رقم (١١٨٧) ، وأسدُ الغابة (٦/ ١٥٤ و١٥٥) ترجمة رقم (٧٠١٩) ، والسّيرة النبوية (١/ ٣٢٢) ، والرّوضة الفيحاء في تواريخ النساء (ص٢٥٢ و٢٥٣) ، وأعلام النساء (٢/ ٢٦٥ و٢٦٦). والإصابة (١٢/ ٣١٩ و٣٢٠) ترجمة رقم (٥٩٢) ، والاستيعاب (١٣/ ٥٠ و٥١) ترجمة رقم (٣٣٨٩) ، وغوامض الأسماء المبهمة (٢/ ٦٤٧ ـ ٦٤٩) خبر رقم (٢٢٥) وجوامعُ السيرة النبوية (ص٥٦ و٦٥ و٢٩٧ و٣٢٢) ، وزاد المعـــــاد (٣/ ٢٣) و(٥/ ٥٥٤ و٥٥٥ و٥٦٠ و٥٧٢ و٥٧٨ و٥٨٠ و٥٨٢ و٥٨٤ و٥٨٦ و٥٨٧ و٥٨٨ و٥٩٣) ، ونسبُ قريش (ص ٤٢٠) وغيرها كثير.

المُـؤْمِنَـةُ المُهَـاجِــرَةُ:

* أسْلَمَتْ سَهْلَةُ بمكَّةَ قديماً في الوقتِ الذي كانَ أبوهَا مَا يزالُ مُشْرِكاً ، وكذلك أَسْلَم زوجُها أبو حذيفة في الوقتِ الذي كان أبوه مُشْركاً وظلَّ علىٰ شِرْكهِ حتى قُتِل بِبَدْر .

* وأمَّا رسولُ اللهِ ﷺ فقَدِ اتَّخذَ منْ دارِ الأرقمِ المخزوميّ في أَصْلِ جَبَل الصَّفا دارَ دعوتِهِ ، ومَعَهد تلقّي رسالتِهِ الإلهيّة ، جعلها مَجْمع السَّابقين إلىٰ الإيمانِ منْ أصحابِهِ ، وهكذا كانتِ الدَّارُ الأرقميّةُ مجْمعَ ومنْبَعَ المكارم .

* وأقبلَ علىٰ الحبيبِ المصطفىٰ ﷺ أهْلُ الصِّدقِ منْ شَبَابِ وشَابَّاتِ قُريش ، وغير قُريش مؤمنين بدعوتِهِ ، مصدِّقينَ برسالتِهِ ، مهتدينَ بهدْيِهِ ، أعزَّةٌ في قومِهم ، كرماءُ علىٰ أنفسِهم ، وكثروا وتكاثَروا ، وهم مستخفونَ مع معلِّمِهم رسولِ اللهِ ﷺ .

* وشعرتْ قُريش بهم ، وأحسَّتْ بخطَرِهمْ عليها وعلىٰ حياتِها الجاهليّة ، ومادتِ الأرضُ تَحتَ أقدامِها ، والتفتَ رجالُ كلِّ بيتٍ في قريش إلىٰ أنفسِهم وأُسَرهم ، إلىٰ أبنائِهم وإخواتِهم ، فإذا بهم يرونَ أنَّ محمّداً ﷺ قد اجتذبَ منهم زهراتِ شبابِهم ، ومصدرَ قوَّتهم وعدَّةَ مستقبلِهم ، والتفتَ سهيلُ بنُ عمرو فإذا بِهِ يجدُ ابنتهُ سهلةَ وابنَه أبا جَنْد وصهْره أبا حُذيفةَ بنَ عتبةَ وأترابَهم عنْدَ محمّد ﷺ وهم مسلمونَ مؤمنونَ قد اعتنقُوا عقيدتَه ، وهجروا آلهةَ آبائِهم وأسلافِهم الأقدمين ، بل سفَّهُوا مع ذلك أحلامَهم وعقولَهم؛ وتعجَّبَ سُهيلٌ ومَنْ في طبقَتِهِ منْ أعلياءِ المشركين كيفَ أصبحتْ أفلاذُ أكبادِهم جنداً لدعوةِ محمدٍ ﷺ ، وكتائب رسالته ، ودخلُوا معه بشَظَفِ العيشِ ، بعد التَّرفِ والمتْعَةِ في بيوتهم بينَ أهليهم ، وفارقُوا المَالَ والولَدَ ، وأحْياناً الإخوةَ والآباء ، والأمّهات والزَّوجات ، وتبدَّلُوا بهم محمّداً ﷺ وأصحابَه ، فهو أبوهم ، وأصحابهُ إخوتُهم ، يسمعونَ له ، ويقولُون بقولِهِ ، يحبّونَه أكثرَ مما يحبُّون أنْفُسَهم ، ويبذلُون ما يقدرون عليه في سَبيل مرضاتِهِ ، لأنَّهم رأوا

النُّورَ ، وعرفوا النَّورَ ، ولمسوا النَّورَ ، فكيف يلتفتونَ إلىٰ غيره؟!

* وعندما رأىٰ سهيلُ بنُ عمرو ذلك ورجالاتُ قريش رأوا أبناءهم قد أضحوا مؤمنينَ ، طارتْ عقولُهم شعاعاً من أدمغتهم ، ودارت أفئدتهم في حنَايا أضْلُعِهم ، وتنفَّسُوا الصُّعَداء غمّاً وكمداً وهمّاً ، فركبُوا رأْسَ الشَّيْطانِ فُجوراً وعتوّاً ، بل رَكبَ الشَّيطانُ رؤوسَهم ، وزيَّنَ لهم أنْ يفتكوا بكلِّ مَنْ يقدرونَ عليهِ مِنْ فلذات أكبادِهم الذين تابعُوا محمّداً ﷺ ، ولتذْهَب رحمةُ الأبّوةِ ، وشفقةُ البُنوَّةِ راغمةً تحتَ أقدامِ آلهتِهم المزعومةِ لعلَّها ترضىٰ عنهم .

* وبدأتْ فدائحُ البلاءِ تتوالىٰ علىٰ سهلةَ بنتِ سُهيلٍ ، وعلىٰ زوجها أبي حُذيفةَ ، وعلىٰ المؤمنينَ ، وكانوا صابرينَ مُحتسبين ، لم يأذنِ اللهُ لهم بردِّ الاعتداءِ لأنَّهم أصحابُ هدايةٍ ورسالةٍ ، ولن يستطيعُوا أنْ يبلِّغوا رسالاتِ ربِّهم إذا ردُّوا وقاتَلُوا والدِّينُ ما يزالُ غضّاً نديّاً ، وإذاً فليصبِروا وليصابِروا ، وليعفوا وليصفَحوا ، وليغمضُوا الأَعْيُنَ علىٰ قذىٰ قسوةِ الآباءِ والأمّهات والإخوةِ حتى يقضيَ اللهُ أمْراً كان مفعولاً ، ويأتي بالفرج .

* وشعرَ الحبيبُ الأعظمُ ﷺ بما ينالُ أصحابه من شديدِ الأذىٰ ، وقواصمِ البَلاء؛ هنالك لمعتْ بارقةُ الفرجِ مِنْ أُفُقِ الغيبِ ، حيثُ أشارَ ﷺ علىٰ أصحابِهِ بالهجرةِ إلىٰ أرضِ الحبشةِ ، فكانت أوَّلَ هجرةٍ في الإسلام .

* قال ابنُ حَزْمٍ ـ رحمه الله ـ: فلما كَثُرَ المسلمونَ ، واشتدَّ العذابُ والبلاءُ عليهم ، أَذِنَ اللهُ تعالىٰ لهم في الهجرةِ إلىٰ الحبشَةِ[1] .

* فكان أوَّل مَنْ خرجَ منَ المُسلمين فارّاً بدينهِ إلىٰ أرضِ الحبشةِ: عثمان بن عفَّان مع زوجتهِ رقيةَ بنتِ رسولِ اللهِ ﷺ ، وأبو حذيفة بن عتبةَ بن ربيعة بنِ عبد شمس مُرَاغِماً لأبيهِ ، هَارِباً ومعه امرأتهُ سهلةُ بنتُ سهيل بن عمرو بن عبد شمس ، مسلمةً مراغمةً لأبيها ، فارّةً بديْنِها إلىٰ اللهِ تعالىٰ ،

---

(١) انظر: جوامع السيرة النبوية (ص٥٥ و٥٦). وزاد المعاد (٣/ ٢٣).

فولدتْ له بأرضِ الحبشةِ محمّدَ بن أبي حُذيفة[1].

* ويذكرُ ابنُ إسحاقَ سجلاً مُسْهَباً مفصَّلاً بأسماءِ وأنسابِ جميعِ المهاجرين إلىٰ الحبشةِ في مرَّتَيْها الأولىٰ والثَّانية ، وكانوا سوىٰ أبنائهم الذين خرجوا بهم معهم صِغاراً أو وُلدوا بها ثلاثة وثمانينَ رجُلاً ، أكثرهم قرشيّون منْ طلائِع بيوتها وأشرافِ بطونها[2].

* وهكذا كانتْ سهلةُ منَ المهاجراتِ الأول إلىٰ الحبشةِ ، ولذلك قالوا عنها: هاجرتْ إلىٰ أرضِ الحبشة الهجرتَيْن جميعاً مع زوجها أبي حذيفة بن عتبةَ ، وولدتْ له هناك محمّد بن أبي حذيفة[3].

سَهْلَةُ وَالْعَوْدَةُ إلىٰ مَكَّةَ:

* لمَّا نزلَ المؤمنون أرضَ الحبشةِ ، جاوَرُوا فيها خيرَ جارٍ؛ النَّجاشي ، حيثُ أمَّنَهُم علىٰ دِيْنِهم ، وعبدوا اللهَ ـ عزَّ وجلَّ ـ ولا يُؤْذَون ، ولا يسمعونَ شَيئاً يكرهونه.

* ومكثتْ سهلةُ برهةً منَ الزَّمنِ في الحبشَة ، وهي مطمئنةٌ علىٰ دِيْنها ، وقد سَعِدتْ بابنها محمّدٍ الذي خفَّفَ عنها صعوبةَ الغربةِ ، إلاَّ أنَّ حنَايا أضالِعها كانت تخفقُ بالحنين إلىٰ البيتِ العتيقِ، وإلىٰ الصَّفا، وإلى الحجونِ، وإلىٰ مكةَ التي نشأتْ علىٰ أرضها ، واهتدتْ علىٰ يدِ رسولِ اللهِ ﷺ ، فكانتْ تودُّ لو تعودُ إلىٰ هاتيكَ الدِّيارِ لتبلَّ أشواقَها وتكحِّلَ عينَيْها برؤيتها ، وكانت تتسقَّطُ كلَّ خبرٍ عن مكةَ وعنْ أهلِها ، بل وعنْ رسولِ اللهِ ﷺ الذي أخرجَها

---

(١) المصدران السابقان.
(٢) انظر: السيرة النبوية (١/ ٣٤٤ وما بعدها) ، وانظر في الهجرة إلىٰ الحبشة: جوامع السيرة النبوية (ص٥٥ ـ ٦٣) ، وأنساب الأشراف (١/ ٨٩ وما بعدها) ، وتلقيح فهوم الأثر (ص٢٠٩) ، وتاريخ الخميس (١/ ٢٨٨) ، وإمتاع الإسماع (ص ٢٠) ، والبداية والنهاية (٣/ ٧٠) وغيرها كثير جداً.
(٣) طبقات ابن سعد (٨/ ٢٧٠) ، وأسد الغابة (٦/ ١٥٤) ترجمة رقم (٧٠١٩).

وزوجَها والمؤمنينَ منَ الظُّلماتِ إلى النُّور، ومن عَمىٰ البصيرةِ إلىٰ نورِ الحقيقةِ.

وتمضي الأيَّامُ وأشواقُ سهلةَ تزدادُ إلىٰ مكةَ، ثمَّ اتَّصل بمن كانَ معها منَ المهاجرينَ في أرض الحبشةِ أنَّ قريشاً قد أسلمتْ، وكان هذا الخبرُ كَذِباً، وتحرَّكَتْ أشواقُ المهاجرين نحو مكةَ والبيتِ العتيقِ؛ فانصرفَ منهم قومٌ وقدمُوا مكةَ ومنهم: عثمانُ بنُ عفَّان، وزوجته رقيةُ بنتُ رسول اللهِ ﷺ، وأبو حذيفة بن عتبةَ بنِ ربيعة، وامرأتهُ سهلةُ بنتُ سُهيل، وأبو سلمة معه امرأتهُ أمُّ سلمة وغيرهم[1].

* وعندما وصلُوا مكَّةَ، وجدوا أنَّ ما سَمِعُوه باطِلاً وكاذِباً، ووجدوا البلاءَ والأَذَىٰ علىٰ المسلمين الذين بمكَّة قد تضاعف[2]، فلم يدخلْ منهم أحَدٌ مكَّةَ إلا بجوارٍ، أو مستخفياً، وظلَّتْ سهلةُ والنِّساء[3] ورجالهم

(١) انظر أسماء هؤلاءِ في جوامع السِّيرة النَّبوية (ص٦٥ و٦٦).
(٢) انظر جوامعَ السِّيرةِ النَّبوية (ص٦٦) بتصرف يسير.
(٣) منَ الواضحِ أنَّ المرأةَ المسلمةَ منْ مثل: سَهْلة، وأمِّ سلمة، وسيدةِ المهاجرات إلىٰ الحبشةِ رقيةُ بنت رسولِ اللهِ ﷺ، وغيرهنَّ قد أخَذْنَ دورهنَّ في الهجرةِ إلىٰ جانبِ رجالهنَّ منْ أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ. فمعظم الذين هاجروا إلىٰ الحبشةِ مع أزواجهم، ومعظم الذين أسلموا أسلموا مع أزواجهم.
ويكفي أنْ يذكر تاريخُ الإسلامِ باعتزازٍ أنَّ أوَّلَ خَلْقِ اللهِ في الإسلام إسلاماً امرأةٌ، وأنَّ أوَّلَ شهيدٍ في الإسلام امرأة؛ ولم تكنِ المرأةُ المسلمةُ بعيدةً عنِ السَّاحة، وإنَّما تلقَّتْ نَصيبَها من الإيذاءِ في سبيلِ اللهِ فصبرتْ، واستعذبتِ الآلامَ في سبيلِ اللهِ، حتَّىٰ الجواري والإماء اللواتي تذوقْنَ حلاوةَ الإيمانِ صَبرنَ وعُذّبْنَ، فالنّهديةُ تلقتِ العذابَ حتى عميتْ، وسميةُ بنتُ خُبَّاط تلقتِ العذابَ حتى حظيتْ بوسام الشَّهادة، وكانتِ الأولىٰ بين قائمة الشّهداء.
ولئن ذكرنا نسوةَ الأرضِ جميعهنَّ، فلا بدَّ أنْ تكونَ أمُّنا خديجةُ ـ عليها سحائب الرضوان ـ في الذروةِ، وفي الصَّدر، فهي التي احتضنتِ الدعوةَ الإسلاميةَ، وكذلك الداعيةَ رسولَ اللهِ ﷺ منذُ البداية، ووضعتْ كلَّ ما تملكُ في سبيل نجاحها، وصبرتْ علىٰ المقاطعةِ والفقر ـ وهي سليلةُ الغنىٰ والثَّراء ـ حتى تنجحَ الدعوة، وكان لها مع هذا وذلك موقفٌ بل مواقف لمواساةِ رسولِ الله ﷺ وتشجيعهِ=

يصبرونَ علىٰ الأذىٰ إلى أن هاجَروا إلىٰ المدينة تاركينَ الآباء والأمّهات[1].

مِـنْ مَكَّـةَ إلـىٰ المَـدينـةِ:

* ها نحنُ أولاءِ رأينا آنفاً طَرفاً منْ صَبْرِ سَهْلةَ والمؤمنينَ ، وهجرتِهم إلى الحبشةِ ثمَّ عودتهم ، ثمَّ معاودة قُريش تعذيب مَنْ استطاعتْ منهم ، ولم تُفكِّرْ في رَحِمٍ أو قَرَابَةٍ.

* ولكنْ لكلِّ بدايةٍ نهايةٌ، ولكلّ ظُلْمٍ كَسْرةٌ وذِلَّةٌ ، فلا بدَّ لليل أن ينجلي ، ولا بدَّ للقيد أنْ ينكسرَ ، ولا بدَّ منْ فرجٍ بعد هذا الكرب :

عَسَىٰ الكَرْبُ الَّـذي أَمْسَيْـتُ فِيْـهِ   يكُـــونُ وَرَاءَهُ فـــرجٌ قـــريـــبُ

* وها هي بوادرُ الفرجِ تَشْرئبُّ بأَزَاهِرها ، وها هي طلائعُ النُّورِ قد بَدَتْ من جهةِ المدينةِ بعد أنْ فَشَا الإسلامُ في دُورِها علىٰ يَدِ التّلميذِ النَّجيبِ الأريبِ مصعب بنِ عُمير ـ عليه سحائب الرضوان ـ ، وقد آلمَ المشركينَ وأقضَّ مضاجِعَهم ذلك الانتشارُ السَّريعُ للإسلامِ ، لذلك أوغلُوا في إيذاءِ المسلمين ، وضيَّقُوا عليهم السُّبُل والمسَالِك والحياةَ.

* وكانَ أصحابُ الحبيبِ المربيّ المُصطفىٰ ﷺ يشتكونَ إليهِ ما يجدونَه منَ المشركينَ ، ومنْ أكابِرِ مُجرميهم ، فكان يصبّرهم ويثبّتُهم ، ويعدهم فَرَجاً ومَخْرجاً منْ هذا الكَربِ العظيمِ.

* وكانَ الحبيبُ الأعظمُ ﷺ قد رأىٰ فيما يرىٰ النَّائِمُ أنَّه هاجرَ منْ مكَّةَ؛ ففي صحيح البُخاري عنِ النَّبيِّ ﷺ: «أُرِيْتُ دار هجرتكم ذاتَ نَخْلٍ بين لابتَيْن» وهُما الحرَّتان[2].

= وتثبيتهِ؛ ولهذا بقيت ذكراها عطرة كريمةً في نفس الحبيب المصطفىٰ ﷺ وبشّرها بالجنّة فرضي الله عنها وحشرنا في معيتها.

(١) من الجدير بالذكر أن أم سهلة هي: فاطمة بنت عبد العزىٰ بن أبي قيس ، ولم يُذكر إسلامها.

(٢) انظر: صحيح البخاري ، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلىٰ المدينة. و«اللابة» =

* وخرجَ الحبيبُ الأعظمُ ﷺ مُستبشِراً مَسْروراً إلىٰ أصحابِهِ وأحبابِهِ وقـال : « قـد أُريتُ دار هجرتكم وهي يثربُ ، فَمَنْ أرادَ أنْ يخرجَ فليخرجَ إليها» . وقال : «إنَّ اللهَ ـ عزَّ وجلَّ ـ قد جَعَلَ لكم إخواناً وَدَاراً تأمنونَ بها» .

* وقد صادفَ هذا الإذنُ الإلهيُّ بالهجرةِ إلىٰ المدينةِ المنوَّرةِ هوىً في نُفُوس الصَّحابةِ ، فخرجوا إليها أَرْسالاً وفُرادىٰ ، وخرجتْ سهلةُ بصحبةِ زوجها أبي حُذيفة بنِ عتبةَ وابنهما محمّدٍ إلى المدينةِ مهاجرين في سبيلِ اللهِ ـ عزَّ وجلَّ ـ وتركُوا وراءَهم دورَهم تخفقُ بينَ جنَباتِها الرِّياحُ ، وتعبثُ بأبوابِها العناكبُ والحشرات .

* خرجتْ سهلةُ تاركةً غيظَ أبيها يغلِّفُه ويكادُ يخنقهُ ، وكذلك تركَ أبو حذيفةَ أباه عتبةَ يكادُ يتميَّزُ غيظاً من هذه الهجرةِ ، ومن إفلاتِ ابنه وزوجه منه ، فقد كانَ عتبةُ من مسانِدِ الشِّرْكِ ، ودعائم الوثنيةِ ، بل وواحدٍ منْ أكابرِ المجرمينَ الذي رفعُوا لواءَ المعارضةِ للدَّعوةِ المحمديةِ ولنورِ الإسلام ، ومنَ العجيبِ في أمْرِ عتبةَ هذا ، أنَّه لم يحسبْ حِسَاباً ـ علىٰ الرّغم من تعقُّلِهِ ـ لهجرةِ ابنه أبي حُذيفة مع امرأتِهِ سهلةَ بنتِ سُهيل ، ولكنَّ اللهَ غالبٌ علىٰ أمرِه ولو كَرِه المشركونَ .

* ومنَ العجيبِ أيضاً أنَّ المهاجرينَ كانُوا منْ عِليةِ القومِ ، ومن شَبابهم وشوابِّهم[1] ، فتركوا كلَّ شيءٍ وراءَ ظهورهم ، وتذكرُ المصادرُ المتنوِّعة

= و«الحرة» : أرض ذات حجارة سود نخرة ، والمدينة بين حرتين .

(١) تحتفظُ كُتبُ السِّيرة وتحفظُ أسماءَ شوابّ كثيراتٍ تركنَ بيوتهنَّ وهاجرنَ مع ذويهنَّ إلىٰ المدينةِ المنوَّرة ، ويمكنني أنْ أسردَ بعضَ أسمائهنَّ منْ مثل : أمِّ سلمة ، وليلىٰ بنتِ أبي حَثْمة زوجِ عامر بن ربيعة ، وزينب بنت جحش ، وحمنة بنت جحش ، وأم حبيب بنت جحش ، وجذامة بنت جندل ، وأم قيس بنت محصن ، وأمِّ حبيب بنت ثمامة ، وآمنة بنت رقيش ، وسخبرة بنت تميم . ناهيك عن نساءِ الأكابرِ ونساء البيت النَّبوي الطَّاهر ، ومنهنَّ أمنا عائشة بنت أبي بكر ، وبنات =

وكُتُبُ السِّيرةِ أنَّ معظمَ دورِ المهاجرينَ قد غُلِّقتْ ولم يبقَ فيها أحدٌ سوىٰ الرِّياحُ تصفرُ بين جنباتِها ، ومرَّ عتبةُ بن ربيعة ، والعبَّاسُ بنُ عَبْدِ المطَّلب ، وأبو جَهْل بنُ هشام ، وهم مُصعِدونَ إلىٰ أعلىٰ مكّةَ ، فنظرَ عتبةُ بنُ ربيعةَ ، فرأىٰ دورَ المهاجرين قفْراً ، ليس فيها حركةٌ ولا ساكنٌ ممّن كان يألفُهم ، فلَّما رآهَا كذلك تنفَّس الصُّعَداء ، ثم تمثَّل بقول أبي دؤاد الإياديّ من قصيدةٍ له :

وكُلُّ دَارٍ وإنْ طَالَتْ سَلامَتُها   يَوْماً سَتُدرِكُها النَّكْبَاءُ والحُوبُ
وكلُّ امرىءٍ بلقَاءِ المَوتِ مُرتَهَنٌ   كأنَّه غَرضٌ للمَوْتِ مَنْصُوبُ

* ثمَّ قالَ عتبةُ مخاطباً أبا جهل : أصبحتْ هذه الدُّور خلاءً من أهْلِها ، تخفقُ دورها يَباباً ـ قَفْراً ـ .

* فقال أبو جهل بكبرياءِ وتعنُّتٍ : وما تبكي منْ فُلّ بنِ فُل .

* ثمَّ إنَّ أبا جَهْل قالَ للعبَّاس متهكِّماً ومتحدِّياً : هذا منْ عَمَلِ ابنِ أخيك ، فَرَّقَ جماعتنا ، وشتَّتَ شَمْلَنا ، وقَطَع بيننا[1] . فلمْ يردَّ عليه العبَّاسُ بشيءٍ .

سَهْلَةُ وأَسْرُ أَبيهَا يَوْمَ بَدْر :

* استقرَّ المؤمنونَ في المدينةِ المنوَّرةِ ، وراحوا يعملونَ مع إخوانِهم الأَنْصار في سبيلِ إعلاءِ كَلمةِ اللهِ ـ عزَّ وجلَّ ـ ، وتطلُّ السَّنَةُ الثَّانيةُ منَ الهجرةِ ، وتمضي الأيَّامُ حتى يكونَ شهرُ رمضانَ وتكونَ غزاةُ بَدْرٍ ، حيث يخرجُ عتبةُ بنُ ربيعة وأخيه شَيْبَةُ ، وأبو جهل ، وأميّةُ بنُ خَلَف ، وسُهيلُ بن عمرو والد سَهْلة وآخرون في صناديدَ من قريش يقتربُ عددهم منْ ألفِ مقاتل ، خرجُوا من مكةَ ليحاربوا المسلمينَ ، ويطفئوا ـ بزعمهم ـ نور الله ،

= الحبيب الأعظم ﷺ ، وأسماء بنت الصديق ، وغيرهن كثيرات ممن لا يتسع المقام لذكرهن فرضي الله عنهن وأرضاهن .

(١) انظر : البداية والنهاية (٣/ ١٦٨ و١٦٩) بشيء من التصرف ، وانظر : الروض الأنف للسهيلي (٢/ ٢١٦) ، وغيرها من مصادر .

ومَا عَلِمُوا أنَّ اللهَ متمُّ نورِهِ رغمَ أنُوفهم ومعاطِسِهم؛ وعَلِمَ الحبيبُ الأعظمُ ﷺ ، فأَقْبَلَ إلىٰ أصحابهِ فقال لهم: «هذه مكةُ قد أَلْقَتْ إليكم أفلاذَ كَبِدِها».

* وانتهتْ معركةُ بَدْرٍ بنَصْرٍ مؤزَّرٍ للمسلمينَ ، وأمَّا المشركونَ فراحَ فريقٌ في الإسارِ ومثلُه فريقٌ في القَتْلىٰ ، وولَّى الباقونَ الأَدْبَار لا يلوونَ علىٰ شيءٍ ، وعاد المسلمونَ إلىٰ المدينةِ فرحينَ بالنَّصرِ.

* وكانَ سُهيلُ بنُ عمرو والدُ سهلةَ قد وقعَ في الأَسْر بيدِ المسلمينَ ، وكان الذي أَسَرهُ مَالِكُ بنُ الدُّخْشُم الأنصاريّ الأوسيّ ، فقرَنَه بِالحِبَالِ وقَادَهُ معَ الأسرىٰ.

* وبينما كانَ المسلمونَ الفَائِزونَ عائدينَ إلىٰ المدينةِ المنوَّرة ، وهم راجعونَ من بَدْرٍ ، وشارفوا المدينةَ قال سُهيلٌ لمالكِ بنِ الدُّخْشم: يا هذا خَلِّ سبيلي للغائِط.

* ففعلَ مالكٌ ، وقام معه ، فقال سُهيل: إنِّي أَحْتَشِمُ ، فابتعدْ عنِّي قَليلاً.

* واستأخرَ مالكٌ عنه ، فما كانَ منْ سُهيل إلاَّ أَنْ مضىٰ علىٰ وجهِه ، وهربَ بعد أنِ انتزعَ يَدَه مِنَ القِرانِ ومضىٰ ، ولما أبطأَ سُهيل علىٰ مالكِ بنِ الدَّخشم أقبلَ فَصَاحَ في النَّاسِ ، فخرجوا في طَلَبِهِ ، وخرجَ الحبيبُ المصطفىٰ ﷺ في طلبِ سُهيل بنَفْسهِ وقال: «مَنْ وجَدَه فليقْتُلْه».

* وأخذَ فرسانُ المدرسةِ المحمدية يبحثونَ عن سُهَيل بنِ عمرو ، وهم على ظهورِ الإبلِ والجِياد ، وانطلقَ الحبيبُ الأعظمُ ﷺ في أَثَرِهِ ، فوجَدَه قد أخفىٰ نَفْسَه بينَ شَجَراتٍ ، فتقدَّمَ إليهِ ، وإذا سُهيل لا يتحرَّكُ منْ مكانِهِ ، وظلَّ ثَابِتاً وهو مأخوذٌ ، فقبضَ النَّبيُّ ﷺ عليهِ ، ثمَّ عادَ بهِ ، وأمرَ بهِ فرُبِطَتْ يداهُ إلىٰ عُنقِهِ ، ثمَّ قَرَنَه إلىٰ راحلتِهِ ، وانطلقَ نحو المدينة.

* وفي هذهِ الأثناءِ راحَ مالكُ بنُ الدُّخْشم يترنَّمُ بأبياتٍ يفخرُ فيها بأنَّه أَسَر سُهيلاً الفتىٰ القرشي وأخذَ يقول:

أَسَرْتُ سُهَيْلاً فَلا أَبتَغِي | أَسِيراً بِهِ مِنْ جَمِيعِ الأُمَمْ
وَخِنْدَفُ تَعْلَمُ أَنَّ الفَتَىٰ | سُهَيلاً فَتَاهَا إِذا تُصْطَلَمْ
ضَرَبْتُ بذي الشَّفْرِ حتَّىٰ انثَنىٰ | وَأَكْرَهْتُ نَفْسي علىٰ ذي العَلَمْ

* ولما قدمَ المسلمونَ بالأسارىٰ ، عَلِمَتْ سَهْلَةُ بأَسْرِ أبيها ، ولكنَّها لم تحركْ سَاكِناً لأنَّه ما يزالُ على شِرْكه ، لم يُسْلِمْ بعد ، بل خَرجَ محارباً لرسولِ اللهِ ﷺ بمالِهِ ونفْسِهِ ، وكذلك عَلِمَتْ بمقْتَلِ عتبة[1] والدِ زوجها وثُلَّةٍ منْ كفَّارِ قريش ومنهم فرعونُ الأمَّة أبو جهل بنُ هشام[1] وآخرون منَ المستهزئينَ ، ومنْ مسَانِدِ الشِّرك بمكةَ ، فلم تتأثَّر ولم تَشْفَع لأبيها عند الحبيبِ المُصْطَفىٰ ﷺ ، بل تركتِ الأَمْر لرسولِ اللهِ ﷺ ، وعَلِمَتْ أَنَّ هناكَ فداءً للأَسْرَىٰ ، ولا بدَّ منْ أن يفتدي نَفْسَه .

* وفي تلك الأثناء كانتْ أمُّنا سودةُ بنتُ زَمعة أمُّ المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ عند آل عَفْراء في مناحَتِهم علىٰ عوفٍ ومعوِّذٍ ابني عفراء ـ وهما من شُهداء بدر ـ وذلك قبل أنْ يُضْرَبَ الحجابُ ، فلمَّا أُخبرت بقدومِ الأَسارىٰ رجعت إلىٰ بيتها ، ورسولُ اللهِ ﷺ فيه ، فإذا أبو يزيد سُهيل بن عمرو[2] مجموعةٌ يداهُ إلىٰ عُنُقِهِ بِحَبْلٍ فما ملكتْ نَفْسَها حينَ رأَته كذلك أنْ قالت : أي أبا يزيد أعطيتمُ بأيديكم ، ألامُتّم كِراماً؟ قالتْ سودةُ : فواللهِ ما أَنْبَهني إلا قولُ

---

(١) في غَزَاةِ بدرٍ لقيَ عتبةُ بنُ ربيعةَ مَصْرَعَه علىٰ يدِ عُبيدةَ بن الحارثِ بنِ عبد المطلب القُرشي ، كما قُتِلَ فرعونُ الأمَّة أبو جَهْل بنُ هشام علىٰ أيدي شَباب المُسلمين ، وفي هذهِ المناسبةِ الجليلةِ أنشدَ كعبُ بنُ مالك الأنصاري بمقْتَل أكابرِ مجرمي قريش ـ وفي مقدمتهم : أبو جهل وعتبةَ ـ قصيدةً منها هذه الأبيات :
عَجبْتُ لأمْرِ اللهِ واللهُ قادرٌ | علىٰ ما أرادَ ليسَ لله قاهِرُ
قضىٰ يومَ بَدرٍ أَنْ نلاقي مَعْشراً | بغَوا وسبيلُ البغي بالنَّاس جائرُ
فكبَّ أبو جَهْلٍ صريعاً لوجهِهِ | وعُتْبةُ قَدْ غادرتهُ وهو عاثرُ
(٢) من الجدير بالذكر أنَّ سهيل بنَ عمرو بن عبد شمس بن عبد ودّ العامري هو ابن والد السيدة سودة ، وهو زَمعة بن قيس بن عبد شمس بن عبد ودّ ، لذلك خاطبَتْه وكلَّمتْه .

رسولِ اللهِ ﷺ مِنَ البيتِ: «يا سَوْدَةُ أَعَلَىٰ اللهِ ورسولِهِ تحرّضينَ»؟! فقالتْ: والذي بعثَكَ بالحقِّ ما ملكتُ نَفْسي أن رأيتُ أبا يزيد مجموعةً يداه إلىٰ عُنُقِهِ أنْ قُلْتُ ما قُلْتُ؛ فَقَبِلَ النَّبيُّ ﷺ اعتذارهَا، وعلمَ أنَّ ما قصدَتْهُ منْ كلامِها سُهيلاً كانَ مَقْصداً شَريفاً ليسَ فيه تحريضٌ، ولا ما شابهَ ذلك، ولذلك وعَدَها خَيْراً في شَأْنِ الأسْرىٰ، وقالَ لأصحابِهِ: «استوصُوا بالأسرىٰ خَيراً» وكان أحدهُم يؤثِرُ أسيرَهُ بطعامِهِ وشرابِهِ امتثالاً لأَمْرِ الحبيبِ المصطفىٰ ﷺ، ولله درُّ القائل:

لو قَال تيْهاً قِفْ عَلىٰ جَمْر الغَضَا لـوقفـت مُمتَثِـلاً وَلَـمْ أَتَـوقَّـفِ

* ومنَ الجديرِ ذكْرُهُ أنَّ سُهيلاً والدَ سَهْلَة كان منْ أشرافِ قُريش، وسُهيل هو الأعْلم الخطيبُ، وكانَ ذا شَأْنٍ في قريش، ولما أُسِرَ يوم بَدْرٍ، قَدِمَ في فِدائِهِ مِكْرزُ بنُ حَفْص بن الأخيف المُعَيصيُّ، فقاطَعَهم علىٰ فِدائِه مكرز بن حَفْص، ثمَّ قال: اجعلوا رِجْلي في القَيْد مكان رجليهِ حتى يبعثَ إليكم بالفداءِ؛ ففعلوا ذلك به، وفي ذلك يقولُ مِكْرزُ بنُ حَفْص:

فَـدَيْـتُ بـأَذوادٍ كـرامٍ سِبَـا فَتـىً يَنَـالُ الصَّمِيـمَ غُـرْمُهـا لاَ المُـوَالِيـا
وقُلْتُ سُهَيْلٌ خَيْرُنَا فَاذْهَبُوا بِه لأَبْنـائِنـا حتَّـى يُـديـروا الأمـانيـا

فبعثَ سُهيل بالفِداءِ. وفي سُهيل يقولُ حسَّان بنُ ثابت الأنصاريّ رضي الله عنه قصيدةً منها قوله:

ألا لَيْتَ شِعْري هَلْ تُصيبَنَّ نُصْرَتي سُهيلَ بنَ عمروٍ بَدْؤُها وعقابُها

وسُهيلاً عنى عبيد الله بن قيس الرَّقيات حينما فَخَر بأشرافِ قريش، فَذَكَره فقال:

منهُمُ ذو النَّدىٰ سُهَيْلُ بنُ عَمْرو عِصْمَـةُ الجَـارِحيـنَ حُـبَّ الـوَفَـاءُ
حَـاطَ أخْـوالـه خُـزاعـةَ لمَّـا كَثَـرَتهُـمْ بمكَّـةَ الأَحْيَـاءُ

هذا وقد كانَ عمرُ بنُ الخطاب قالَ لرسولِ الله ﷺ يوم أُسِرَ سُهيل: انزعْ

ثنيته حتى يدلَعَ لِسَانه(١) ، فلا يقومُ عليك خطيباً أبداً. وكان سُهيل أعْلَمَ مشقوقَ الشَّفَةِ. ولكنَّ الحبيبَ الأعظمَ ﷺ لم يستجبْ لرأي عمرَ ، فهو كما وصَفَهَ اللهِ ﴿رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨] ، وكان عليماً بالرجال وأحوالِهم ، وهناكَ كُشِفَتْ حُجُبُ الغيبِ أمامَ الحبيبِ الأعْظَمِ ﷺ وقالَ عن سُهيلٍ: «لعلَّه يقومَ مقَاماً محموداً» ، فأسلمَ سُهيلٌ في عَامِ الفَتْحِ ، وقامَ بعد ذلك بمكةَ خَطيباً حين توفيَ رسولُ اللهِ ﷺ وهاجَ أهلُ مكّةَ ، وكادُوا يرتدُّونَ ، فقال فيهم سُهيلٌ بمثلِ خطبةِ أبي بكر الصِّدِّيق بالمدينةِ ، كأنَّه كانَ سَمِعَها ، فسَكَنَ النَّاس ، وقبِلُوا منه ، وبذلكَ تحقَّقَتْ نبوءةُ الحبيبِ الأعظمِ ﷺ في سُهيلِ بنِ عمرو الذي أثبتَ أنَّه من خيارِ المسلمينَ بتلك الخطبةِ الجميلةِ(٢)

---

(١) «يدلع لسانه»: أي حتى يخرج لسانه.

(٢) يحْسُنُ بنا لإتمامِ الفائدةِ أنْ نسوقَ خطبةَ سهيلِ بن عمرو ـ رضي الله عنه ـ التي كأنها خطبةُ أبو بكر الصِّدِّيق ـ عليه سحائب الرضوان.

روى ابنُ عسَاكر عن أبي عمر بن عدي بن الحمراء الخزاعيّ قال: نظرتُ إلى سهيلِ بن عمرو يومَ جاءَ نَعْيُ رسولِ اللهِ ﷺ ، إلىٰ مكةَ ، وقد تقلَّد السَّيْف؛ ثم قام خطيباً بخطبةِ أبي بكر التي خُطِبَتْ بالمدينةِ ، كأنَّه كانَ يسمعُها! فقال: أيّها الناس ، مَنْ كانَ يعبدُ محمّداً فإنَّ محمداً قد ماتَ ومن كان يعبدُ اللهَ فإنَّ اللهَ حيٌّ لا يموتُ ، وقد نعىٰ اللهُ نبيَّكم إليكم ، وهو بينَ ظهْرِكم ، ونعاكمْ إلىٰ أنفسكم فهو الموتُ حتّى لا يبقىٰ أحدٌ ، أَلَمْ تعلموا أنَّ الله قال: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠] ، وقال: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾ [آل عمران: ٨٥] ، ثمَّ تلا: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨] فاتّقوا اللهَ واعتصموا بدينكم ، وتوكّلوا علىٰ ربّكم ، فإنّ دِيْنَ اللهِ قائمٌ ، وكلمةُ اللهِ تامةٌ ، وإنَّ اللهَ ناصرٌ مَنْ نَصَره ، ومعزُ دينهِ ، وقد جَمَعكم اللهُ على خيركم.

فلمَّا سَمِعَ عمرُ بنُ الخطَّابِ ـ رضي الله عنه ـ كلامَ سُهيل بمكةَ ، قال: أشهدُ أنَّ محمّداً رسولُ اللهِ ﷺ ، وأنَّ ما جاء به حقٌّ! هذا هو المقامُ الذي عنىَ رسولُ اللهِ ﷺ ، حينَ قال: «لعلَّه يقومُ مقَاماً محموداً لا تكرهُه». (مختصر تاريخ دمشق (١٠/ ٢٣٦).

وقال سعيدُ بنُ مسلم: لم يكنْ أحدٌ من كُبراء قريش الذينَ أسْلموا يومَ الفَتْحِ أكثرَ صلاةً وصَوماً وصدقةً واشتغالاً بما ينفعهُ في آخرتهِ منْ سُهيل بن عمرو، حتى شحبَ لونه وتغيّر، وكان كثيرَ البكاء رقيقاً عند قراءةِ القرآن، وكان يختلفُ إلىٰ معاذ بنِ =

بمكةَ المكرمةِ.

وما أجملَ أنْ نَقْرَأَ هذهِ الأبياتِ اللَّطيفاتِ عن موقفِ سُهيل يومَ وفَاةِ الحبيب الأعظمِ ﷺ وخطبتهِ في أهْلِ مكَّةَ :

عَنْ أَهْلِ مكَّةَ لاَتَسَلْ — قَدْ أَسَلَمُوا مُتكاسِلين
فِي فَتْحِ مكَّةَ أعْلَنُوا الإسـ — ـلامَ لكِنْ كَارِهين
مِنْ بَعْدِ موتِ المُصْطفىٰ — همُّوا بكُفْرٍ مُعْلنين
عَتَّابُ كانَ أميرَ مكَّة مِنْ — لدىٰ الهَادِي الأمين[1]
فلَقَدْ تَوارَىٰ خشيةً — مِنْ بطْشِهم كالْمُعْتَدين
لكِنْ سُهَيلٌ قام يخطبُ — كي يردَّ المُخْطِئين
بالحمدِ قَدْ بدأ الحديثَ — وبالثَّناءِ الكامِلين
مِنْ قولِهِ الموتُ حقٌّ — لَنْ نكونَ مُخَلَّدين
المصطفىٰ قد ماتَ حيثُ — أجَابَ ربَّ العَالَمين
وبموتِهِ لا لن يكونَ — الدِّينُ في المُستضعفين
بل إنَّه سيكونُ — أقوىٰ فلتكونُوا فاهمين
مَنْ رَابَنَا فلسوفَ — نَقْتُله كَقتلِ المُشْركين[2]
النَّاسُ عادُوا للصَّوابِ — لأنَّه قولٌ مُبين
هذا مَقَامٌ قالَ عنْه — المُصْطفىٰ في السَّابقين
عَتَّابُ عادَ إلىٰ الظُّهور — وكانَ بينَ المختفين

سَهْلَةُ وَإِسْلاَمُ أَبِيْهَا :

* ظلَّ سهيلٌ والدُ سهلةَ علىٰ شِرْكه قرابة عَقْدَيْنِ منَ الزَّمنِ ، حيثُ كان

= جبل يقرئهُ القرآن. (تهذيب الأسماء واللغات ١/ ٢٢٩) ترجمة رقم (٢٤٠).

(١) «عَتاب»: عتَّابُ بنُ أسيد أميرُ مكةَ أسلمَ يومَ الفتح ، واستعملهُ الرسولُ ﷺ علىٰ مكةَ لما سار إلىٰ حُنين ، واستمرّ والياً إلىٰ آخر خلافة عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ وكان أولَ أمير في الإسلام.

(٢) «من رابنا فلسوف نقتله»: كناية عمن ارتد عن الإسلام فسوف نقتله.

إسلامهُ يومَ الفَتْح ، ولكنَّ سُهيلاً التقىٰ الحبيبَ الأعظمَ ﷺ قَبْلَ الفَتْح في صُلْح الحديبية ، حينما بعثتْ قريشُ سُهيلاً ليعقدَ الصُّلح مع سيِّدِ الصُّلَحاء والصَّالحين وأميرِ الأنبياءِ محمّدٍ ﷺ ، وقد تَفَاءلَ الحبيبُ الأعظمُ ﷺ بقدومِ سُهْيل الذي تمَّتْ علىٰ يدِهِ المفاوضةُ وقال لأصحابه: «لقد سهل لكم منْ أمرِكم» ، ولما انتهىٰ سهيلٌ إلىٰ رسولِ اللهِ ﷺ تكلَّم فأطال الكلام ، وتراجعا ثم جرىٰ بينهما الصُّلحُ المشهورُ بشروطٍ معروفةٍ في كُتُب السِّيرة.

* وما أجملَ أنْ نقرأَ نَظْماً قدومَ سُهيلٍ منْ عندِ المشركين ، وعقده شروط الصُّلح مع الحبيبِ الأعظمِ ﷺ:

هَـــذا سُهَيـــلٌ جـــاءَ مِـــنْ	عنـــدِ الـــرِّجَـــال المُشْـــركيـــن
قـــالُـــوا لـــه اِذْهَـــبْ لِتَلْـ	ـــقَ مُحمـــداً والآخـــريـــن
صَـــالِحْـــهُ لَكـــنْ فَليَعُـــودوا	لَـــنْ يكـــونـــوا زائِـــريـــن
مـــنْ بعـــدِ عـــامٍ فلْيجيـ	ـؤوا زَائِـــريـــنَ ومُحْـــرميـــن
فـــأتـــىٰ سُهيـــلٌ للنَّبـــي	وكـــانَ ذا فِكـــر فطيـــن
المُصطَفـــىٰ قَـــدْ قَـــالَ حيْـــنَ	رآهُ ذَا فـــي المُصْلِحيـــن
جلـــس ابـــن عمـــرو مـــع	رســـول الله خَتْـــمِ المـــرسليـــن
فَتَحـــادَثَـــا وتَنَـــاقَشَـــا	وتَفَـــاهَمـــا مُتَصـــالحيـــن
الـصُّلـــحُ تـــمَّ عـلـــىٰ شـــروطٍ	أُعْلِنَـــتْ للسَّـــامعيـــن

* وفي عامِ الفتحِ أسلمَ سُهيلٌ مع مَنْ فتحَ اللهُ علىٰ قَلْبِهِ ، وكان ممن حَسُنَ إسلامُهُ ، وغدا منْ خيارِ المسلمين ، ولقد شَهِدَ له أبو بكر الصِّدِّيق ـ رضي الله عنه ـ بِحُسْنِ الهدايةِ والإسلامِ فقال: لقد نظرتُ إلىٰ سُهيلِ بنِ عمرو في حجّةِ الوداعِ قائماً عنْد المنحرِ يقرّبُ إلىٰ رسولِ اللهِ ﷺ هَدْيَه ، ورسولُ اللهِ ﷺ ينحرُها بيدِهِ ، ودعَا الحلاَّق فَحَلَقَ رأْسَه ، ونظرَ سهيل يلقطُ من شعرِه ، وأراهُ يضعه علىٰ عَينيه ، وأذكرُ إباءَه أنْ يقرَّ يومَ الحُديبية بأنْ يكتبَ: بسمِ اللهِ الرحمنِ الرحيم ، ويأبىٰ أنْ يكتبَ محمّداً رسول الله ﷺ ، فحمدتُ اللهَ الذي

هداهُ إلىٰ الإسلام!! وصلواتُ اللهِ وبركاته علىٰ نبيّ الرَّحمةِ الذي هدانا به وأنقذنا بهِ منَ الهلْكَةِ[1].

رُخْصةٌ نبويَّةٌ لِسَهْلَةَ:

* سهلةُ بنتُ سُهيل ـ رضي الله عنهما ـ منْ بنَاتِ الصَّحابَةِ أُولاتِ الشَّأْنِ، وممن كُنَّ أوتِيت مكانة كبرىٰ عند رسولِ اللهِ ﷺ، وقد عَرفَ رسولُ اللهِ ﷺ إخلاصَها وتفانيها في سبيلِ اللهِ، وسبيلِ إعزازِ دِيْنِهِ، فقد تخلَّتْ عن أبوَيْها وهاجرتِ الهجرتَيْن، لا تبتغي بذلك سوىٰ مرضاةِ اللهِ تعالىٰ، ولذا فإنَّه قد رخَّصَ لها رخصةً خاصَّةً بشَأْنِ مولىٰ زوجها أبي حُذيفة سَالِم رضي الله عنهم جميعاً.

* فقد كان سالمُ مولىٰ أبي حذيفة يُدعى سالمُ بنُ مَعْقل، وكان أصلُه منْ أهلِ فارس منْ مدينةِ اصْطخر، وهو منْ فُضَلاءِ الصَّحابة والمهاجرينَ، أعتقَته مولاته بُثَينة، فتولاَّهُ أبو حذيفة وتبنَّاه، فيقالُ له قُرشيٌّ وفارسيٌّ.

* وقد ثَبتَ في الصَّحيح أنَّه هاجرَ من مكةَ إلىٰ المدينةِ قبل قدومِ رسولِ اللهِ ﷺ، فكن يؤُمُّ المهاجرينَ بالمدينةِ، لأنَّه كان أكثرهم قُرآناً، والأحاديثُ الصَّحيحةُ في فَضْله وفضائِله كثيرةٌ.

* وكانَ أبو حذيفة بن عتبةَ ـ رضي الله عنه ـ قد زوَّجَهُ ابنةَ أخيه فاطمةَ بنت الوليد بنِ عتبةَ، وهي منَ المهاجراتِ، وكانتْ منْ أفْضَلِ أيامىٰ قريش.

* وكانَ سالمٌ قَدْ نَشَأ في حجْرِ أبي حذيفة وزوجهِ سَهْلةَ نشأةَ الابنِ، وكان مَنْ تبنَّى رجُلاً في الجاهليةِ، دعَاهُ النَّاسُ ابنه، وورثَ ميراثه، وكان الحبيبُ المصطفىٰ ﷺ قد تبنَّى زيدَ بنَ حارثة، حتىٰ أنزلَ اللهُ عزَّ وجلَّ في ذلكَ: ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ

---

(١) انظر: مختصر تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر (١٠/ ٢٣٥)، واقرأ أخبار سهيل بن عمرو في كتابنا «رجال من عصر النبوة» الذي سيصدر قريباً إن شاء الله تعالىٰ.

﴿وَمَوَٰلِيكُمۡۚ﴾ [الأحزاب: ٥] ، فردُّوا إلىٰ آبائِهم ، فمن لم يُعْلَم له أبٌ كانَ مولىً وأخاً في الدِّين.

* وهنا أصبحَ سالمٌ أخَاً في الدِّين ، مولىٰ لأبي حذيفة بن عتبة ، ولكنَّ سالماً ظلَّ يدخلُ بيتَ أبي حُذيفة ، وظلَّ بحُكْمِ صِغرِه يدخلُ علىٰ سهلةَ زوجِ مولاه ، ولما أنْ بلغَ مبلغَ الرِّجال ، وجَدَ أبو حذيفة وزوجُه سهلةُ في نَفْسَيْهما كراهيةَ دخولِ سالم عليهما، وقد شَقَّ عليهما أنْ يمنعاه الدُّخول منزلهما لسابقِ الأُلْفَة، وحسنِ المعاملةِ؛ وشقَّ ذلك علىٰ سهلة أيضاً ، هنالك حظيتْ برخصةٍ نبويّةٍ خاصّة من بينِ بنَات الصَّحابة ، وغَدَتْ متفرّدةً بها من دون النِّساء.

* وقد ثبتَ في الصَّحيحِ عن أُمِّنا عائشةَ بنتِ الصِّديق ـ رضوان الله عليهما ـ أنَّ سهلةَ بنتَ سُهيل بن عمرو امرأةَ أبي حذيفة ، جاءتْ إلىٰ النَّبيِّ ﷺ فقالتْ: يا رسولَ اللهِ إنَّ سَالماً قد بلغَ ما يبلغُ الرِّجالُ وعقَلَ ما عَقلُوا ، وإنَّه يدخلُ علينا ، وإنِّي أظنُّ أنَّ في نَفْسِ أبي حُذيفةَ منْ ذلكَ شيئاً فقال: «أرضعيهِ تحرمي عليه ويذهبُ الذي في نَفْس أبي حذيفة» فرجَعَتْ فقالت: إنِّي قَدْ أرضعتهُ ، فذهبَ الذي في نَفْسِ أبي حُذيفة[1].

* وفي رواية أنَّ سهلةَ جاءتِ النَّبيَّ ﷺ فقالت: يا رسولَ اللهِ ، إنا كُنّا نرىٰ سَالماً وَلَداً ، وكان يأْوي معي ومعَ أبي حذيفة في بيتٍ واحد ، ويراني فُضُلاً ، وقد أنزلَ اللهُ تعالىٰ فيهم ما قد عَلِمْتَ ، فكيفَ ترىٰ فيه؟ فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «أَرضعيه» ، فأرْضَعَتْه خَمْسَ رضَعَاتٍ ، فكان بمنزلةِ ولدها منَ الرِّضاعة[2].

---

(١) أخرجه مُسْلم في الرضاع برقم (١٤٥٣) وقوله: «أرضعيه»: قال القاضي: لعلَّها حَلَبَتْه ثمَّ شَربَه منْ غيرِ أنْ يمسَّ ثَدْيَها ، ولا التقتْ بشرتاهُما. والحديث كذلك أخرجه ابنُ ماجه (١٩٤٣) وانظر: تهذيب الأسماء واللغات (١/ ٢٠٢) ، وسير أعلام النبلاء (١/ ١٦٧) ، وطبقات ابن سعد (٣/ ٨٧).

(٢) أخرجَه أبو داود في النّكاح برقم (٢٠٦١)؛ وذكر ابنُ حجرَ ـ رحمه الله ـ أنَّ سَهْلَةَ كانت تحلبُ في إناءٍ قَدْر رضعةٍ فيشربُه سالمٌ في كلِّ يومٍ ، حتى مضتْ خمسةُ أيام ،=

* وبهذا ارتفعَ عن سهلةَ الحرجُ ، إذ خصَّها رسولُ الله ﷺ بذلك ، ويؤيدُ ما نقولُ ما وَرَدَ عن أُمِّنا أمِّ سلمة ـ رضي الله عنها ـ فيما أخرجَه مسلمٌ بسندهِ عن زينبَ بنتِ أبي سلمة أنَّ أمَّها أمَّ سلمةَ زوجَ النبي ﷺ كانتْ تقولُ: أبىٰ سائِرُ أزواجِ النَّبيِّ ﷺ أنْ يُدْخِلْنَ عليهنَّ أحَداً بتلك الرَّضاعة ، وقُلْنَ لعائشةَ: واللهِ! ما نرىٰ هذا إلا رخصةً أرخَصَها رسولُ اللهِ ﷺ لسالم خاصةً ، فما هو بداخلٍ علينا أحدٌ بهذه الرّضاعة ولا رَائِينا[1].

* ولسهلةَ ـ رضي الله عنها ـ رخصةٌ أخرىٰ من لدنِ رسولِ اللهِ ﷺ ، حيثُ روتْ عائشةُ رضي الله عنها أنَّ سهلةَ بنتَ سُهيل استحيضَتْ ، فأتتِ النَّبيَّ ﷺ ، فأمرها أنْ تغتسلَ عند كلِّ صَلاةٍ ، فلما جَهدها ذلك أمرَها أَنْ تجمعَ بينَ الظُّهرِ والعَصْرِ ، والمغربِ والعشاءِ بغسلٍ ، وتغتسلُ للصُّبحِ[2].

سَهْلَـةُ واسْـتِشْهـادُ زَوْجِهَـا:

* توفيَ الحبيبُ الأعظمُ ﷺ وهو راضٍ عن هذَين الزَّوجَيْن المجاهدَيْن المهاجرَيْن المبايعَيْن ، فقد كانَ أبو حذيفةُ أحدَ فرسانِ المدرسةِ المحمديّة ، فهو بَدْريّ أُحُديّ خَنْدقيٌّ شَهِدَ المشاهدَ جميعَها معَ الحبيبِ المصطفىٰ ﷺ ، وبَعْدَ وفاةِ رسولِ اللهِ ﷺ ظلَّ يتابعُ بطولاتهِ في ميادينِ وساحِ الجهاد.

* ولـمّا كان يومُ اليمامةِ ، خرجَ مجاهداً وبصحبتهِ مولاهُ سالمٌ ، مع فارسِ الشُّجعان وسيفِ اللهِ خالدِ بنِ الوليد رضي الله عنه ، وفي اليمامةِ حظيَ أبو حُذيفة ومولاهُ سالمٌ بالشَّهادة حيثُ اتَّخذهما الله مِنَ الشُّهداء ، فكانوا عنْدَه أحياءً يرزقون.

= فكان يدخلُ عليها وهي حاسرٌ ، رخصةً من رسولِ اللهِ ﷺ لسهلةَ. (الإصابة ١٢/ ٣٢٠) ترجمة رقم (٥٩٢).

(١) أخرجه مسلم برقم (١٤٥٤).

(٢) انظر: غوامض الأسماء المبهمة (٢/ ٦٤٨) ، وانظر: الإصابة (١٢/ ٣٢٠) ، وأسد الغابة (٦/ ١٥٥) ، والحديث في سنن أبي داود ، كتاب الطهارة ، وانظر: تهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٦١٣) وغيرها من مصادر.

* ونُمي خبرُ استشهادِ أبي حُذيفة إلىٰ زوجه سهلةَ بنتِ سهيل ، فاحتسبتْ ذلك عند اللهِ ـ عزَّ وجلَّ ـ وصبرتْ صَبْراً جميلاً ؛ فالشَّهادَةُ في سبيلِ اللهِ كانتْ مُنىٰ نَفْسِ أبي حذيفة وها قد نالَها بفَضْلِ اللهِ.

* ولما قُتِلَ أبو حذيفة شهيداً يومَ اليمامة ، تزوَّجها عبدُ الرحمن بنُ عوف فولدتْ له سَالماً ، ولما مات تزوَّجها عبد اللهِ بن الأسودِ فولدتْ له سُليطاً ، ولما مات تزوّجها شماخ بن سَعد فولدت له بُكَيراً[1].

* وعاشتْ سهلةُ علىٰ ما يبدو دَهْراً ، ولعلَّها إحدىٰ المعمَّراتِ من بناتِ الصَّحابة الطَّاهرات رضي الله عنهنَّ.

* ولسهلةَ رضي الله عنها جانبٌ وضيءٌ في روايةِ الحديث النَّبوي الشَّريفِ ، فهيَ واحدةٌ منْ أصحاب الاثنَيْن[2] ، فقد روتْ عنِ النَّبيِّ ﷺ وروىٰ عنها القاسمُ بنُ محمد[3].

---

(١) انظر: الروضة الفيحاء (ص٢٥٢ و٢٥٣) ، والاستيعاب (١٣/ ٥٠ و٥١) ترجمة رقم (٣٣٨٩).

(٢) «أصحابُ الاثنين»: مَنْ روىٰ حديثَين ، ومنَ النِّساء ممن روىٰ حديثين منَ الصَّحابيات: سهلةُ بنتُ سهيل ، وأمُّ عمارة ، وأمُّ عبد اللهِ بنت أوس ، وأمّ الحكم ، وعائشة بنتُ قُدامة ، وأمُّ ورقَةَ ، والسَّوداء ، وجذامةُ بنتُ وهب ، وميمونةُ مولاة النبي ﷺ ، وأمُّ بشير بنت البراء بن معرور ، وأمُّ زياد ، وأمُّ عبد الرحمن بن طارق ، وميمونةُ بنتُ سعد ، وماريةُ مولاته ﷺ ، وأميمة.

(٣) القاسمُ بنُ محمّد بن أبي بكر الصِّدِّيق ، روىٰ عن أبيهِ ، وعمّته عائشة أمِّ المؤمنين ، والعبَادلةِ ، وأبي هريرة ، ومعاويةَ ، وفاطمةَ بنتِ قيس وغيرهم ، وروىٰ عنه: ابنهُ عبد الرَّحمن ، والشّعبي ، وسالمُ بن عبد اللهِ بن عمر وآخرون.
كانَ من أفضلِ أهلِ زمانه ، ومنْ أعلم النَّاس بالسُّنة وبحديث عائِشةَ رضي الله عنها ، وكان منْ فقهاء الأمّة ، ومن خيار التَّابعين. قال ابنُ سعد: كان ثقةً ، رفيعاً ، عالماً ، إماماً ، فقيها ، ورعاً. وقال ابنُ حبّان: كان من سَادات التَّابعين منْ أفضلِ أهلِ زمانه عِلماً وأدباً وفقهاً.
وكان القاسمُ بنُ محمدٍ أحدَ الفقهاءِ السَّبعة فقهاءِ المدينة ، قال أحمدُ بنُ عبد الله: كان القاسمُ منْ خيارِ التَّابعين وفقهائهم ثقةً نَزِهاً رجلاً صالحاً ، ولما توفي قال: =

* كما أنَّ سهلةَ ممن رُويت عنها الفُتْيا من بناتِ الصَّحابةِ ، ومنَ الصَّحابياتِ العَالِمات[1] .

* وظلَّتْ سهلةُ بنتُ سُهيل ـ رضي الله عنهما ـ تتابعُ رحلةَ العَطاء والعِلْمِ والرِّواية إلىٰ آخر حياتها .

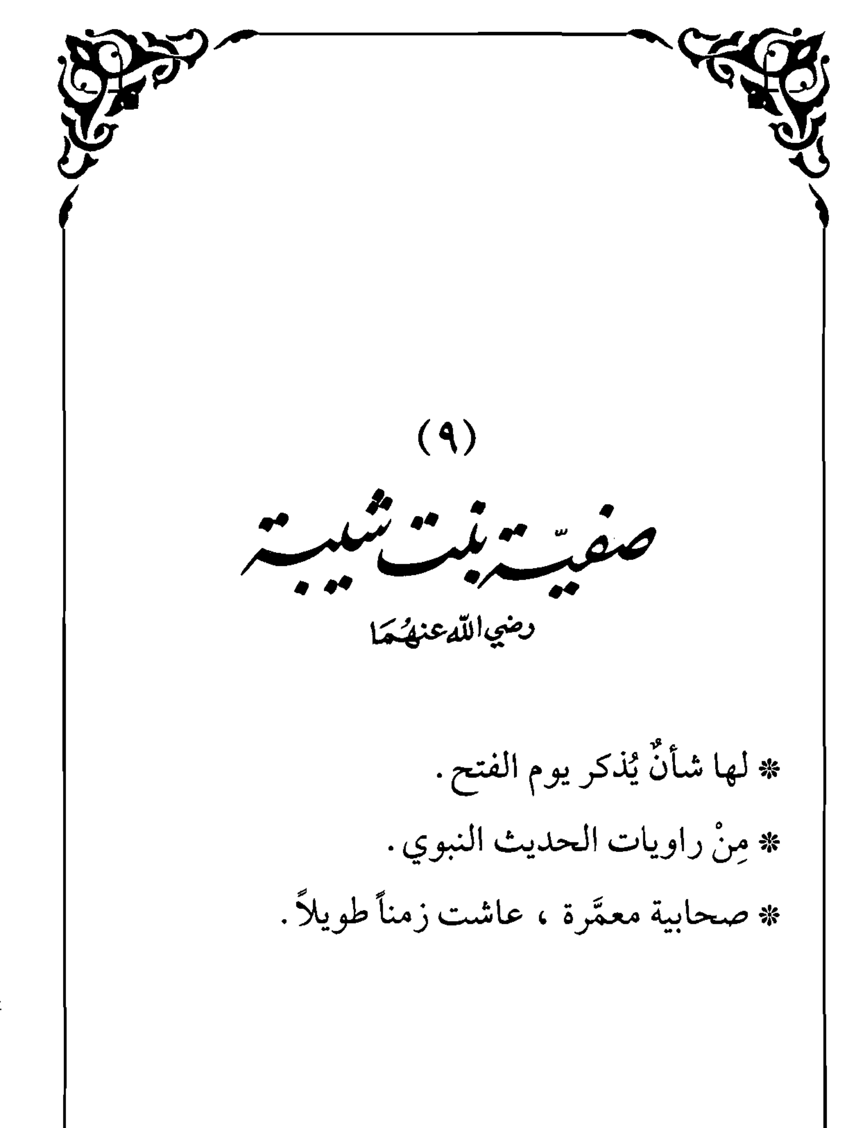
* هذا ، ولم تذكُرِ المصادِرُ التي بين أيدينا متىٰ وأينَ كانت وفاةُ سهلة ، إلا أنَّ أغلبَ الظَّن أن وفاتها حدثت في المدينةِ المنوَّرةِ ـ واللهُ أعلم ـ ، ولا نعرفُ بالتّحديد متى كانت وفاتُها ، ولم يُشِرْ أحدٌ إلىٰ ذلك ، إلا أنّنا نتوقّع أنَّها عاشتِ الخلافةَ الراشدة ومرحلةً منْ خلافةِ بني أميّة ؛ لأنَّ القاسمَ بنَ محمّد قد روىٰ عنها ، وقد توفي هذا بعد المئةِ بعد عمر بن عبد العزيز . والله أعلم .

* رضي الله عن سهلةَ بنتِ سُهيل ، وعن أبيها وإخوتها وزوجِها ، وعنِ الصَّحابة والصَّحابيات أجمعين ، وحَشَرَنا في معيّتِهم ، وعفَا عنّا ، وتجاوزَ عن خطايانا ، إنَّه سميعٌ عليمٌ ، غفورٌ رحيمٌ .

* * *

= أنتَ ربِّي وحَسْبي وسيّدي . مات سنة (١١٢ هـ) (تهذيب التهذيب ترجمة رقم ٥٦٧٧) ، و(تهذيب الأسماء واللغات ٢/٣٦٦ و٣٦٧) ترجمة رقم (٤٩٩) مع الجمع والتصرف .

(١) أصحابُ الفُتْيا منَ الصَّحابة عددُهم (١٦٢ صحابياً) منهم (١٤٢ صحابياً) ومنهم (٢٠ صحابية) والمكثرونَ منهم سبعة ، وثلاثة عَشرَ متوسّطون ، والباقون مقلُّون جداً . وأما الصَّحابيات أصحابُ الفُتيا فهنَّ : عائشةُ أمُّ المؤمنين ، أمُّ سلمة أمُّ المؤمنين ، أمُّ حبيبة أم المؤمنين ، حفصة أم المؤمنين ، فاطمةُ الزَّهراء بنتُ رسول اللهِ ﷺ ، فاطمةُ بنتُ قيس ، أسماءُ بنتُ أبي بكر ، أمُّ شريك ، سهلةُ بنتُ سهيل ، أمُّ الدرداء الكبرىٰ ، أمُّ أيمن ، عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل ، زينبُ بنت أم سلمة أم المؤمنين ، وأمُّ يوسف ، وغيرهن .



(٩)

صفيّة بنت شيبة

رضي الله عنهما

* لها شأنٌ يُذكر يوم الفتح .

* مِنْ راويات الحديث النبوي .

* صحابية معمَّرة ، عاشت زمناً طويلاً .

فـي ظِـلالِ المَكـارِم:

* تحتَ ظلالِ دوحةِ المكارم ، نلْتَقي صفيَّةَ بنتَ شيبةَ بنِ عثمانَ بنِ أبي طلحةَ ، الفقيهةَ العالمةَ ، أمَّ منصور ، القرشيّة ، العبدرية ، المكيّة ، الحجبية[1] ، إحدىٰ بناتِ الصَّحابةِ الكريمات ، اللواتي كان لهنَّ نصيبٌ في تاريخِ المرأةِ في عَصْرِ الرِّسالةِ المحمديّة ، وعَصْر التَّابعين.

* وصفيةُ هي الابنةُ الوحيدةُ لشيبةَ بنِ عثمانَ ، ولها بضعةُ إخوة وهم: عبدُ اللهِ الأكبر ، وجُبير ، وعبدُ الرحمن الأكبر ، وعبدُ اللهِ الأصغر ، وكانتْ صفيةُ تُعْرَفُ بأمِّ حُجَير[2].

* ولا ندري متىٰ كان مولدُ صفيةَ ابنة شيبةَ هذه ، إلا أنَّ الدلائلَ تشيرُ إلىٰ أنَّ مولدَها كانَ في مطلع شمسِ الرسالةِ ، لأنَّها رأتِ النَّبيَّ ﷺ عامَ الفَتْح ، ووصفَتْه كيفَ كانَ يطوفُ حَولَ الكعبةِ ، وهو علىٰ بعيرهِ ، كما سنعرفُ فيما بعد ـ بإذن الله ـ قال الذهبي ـ رحمه الله ـ: وصفية بنتُ شيبة ولدتْ في حياةِ النبي ﷺ[3].

* ولم تحدثْنا المصادرُ كذلك عنْ إسلامِ صفيةَ هذه ، ولا عن شيءٍ منْ حياتِها قبلَ عامِ الفَتْح ، إلاَّ أنَّ معظمَ المصادرِ أكَّدَتْ بأنَّ لها صحبةً ، كما

---

(١) سير أعلام النبلاء (٤/ ٥٠٧ ـ ٥٠٩) ، وطبقات ابن سعد (٨/ ٤٦٩) ، وشفاء الغرام (٢/ ١٨٩) ، ونسب قريش (ص٢٥٣) ، والإصابة (٥/ ٩٦) في ترجمة أبيها برقم (٣٩٤٠) ، والإصابة أيضاً (١٣/ ١٨) ترجمة رقم (٦٥٠) ، وأسد الغابة (٦/ ١٧٢) ترجمة رقم (١٧٢) ، والمغازي (٢/ ٨٣٥) ، والاستيعاب (١٣/ ٦٦) ترجمة رقم (٣٤٠٧) ، وأعلام النساء (٢/ ٣٣٨ و٣٣٩) ، وتهذيب التهذيب (١٠/ ٤٨٤ و٤٨٥) ترجمة رقم (٨٩١٩) ، وغوامض الأسماء المبهمة (ص٦٨٣) خبر رقم (٢٤٠) ، والرياض المستطابة (ص٣٣٦).

(٢) طبقات ابن سعد (٨/ ٤٦٩) ، ونسب قريش (ص٢٥٣).

(٣) سير أعلام النبلاء (٤/ ١٣).

لأَبيها صُحبة ، ولأمِّها صُحبة أيضاً ؛ وأمّها ـ كما ذكرَ المُصعب الزُّبيري ـ هي أمُّ عثمان برّةُ بنتُ سُفيان بن سعيد. وقال أهلُ التَّراجم: هي أمُّ بني شيبة الأكابر ، وكانتْ منَ المُبايعات.

* أمّا إسلامُ شيبةَ والد صفيةَ ، فإنَّ لذلك قصَّةً شائقةً تستحقُّ التَّسجيلَ ، لما فيها منَ المعجزاتِ الباهراتِ ، ودلائلِ النُّبوَّةِ ، إذْ إنَّ أباها منْ مسلمةِ الفَتْح كما جاءتْ أنباءُ المصادرِ بذلك[1].

صفيَّـة وإسـلامُ أبـيهَـا:

* لا شكَّ أنَّ صفيةَ بنتَ شيبةَ كانت تعلمُ علْمَ اليقينِ موقفَ أبيها منَ الإسلامِ ، ومنْ نَبِيِّ الإسلامِ ، وها هو رسولُ اللهِ ﷺ يفتحُ مكةَ المكرمة ، وكان يوم الفتحِ يوماً عظيماً ، غَيَّرَ اللهُ فيه قُلوباً قاسيةً ، فجعلَها مغلَّفةً بالهدايةِ والنُّور ، كلُّ هذا ببركةِ الحبيبِ الأعظمِ محمّد ﷺ الذي أرسلَهُ اللهُ رحمةً للعالمين ، فكان البرَّ الوفيَّ الكريمَ:

وَمَا حَمَلَتْ مِنْ ناقةٍ فوقَ رحْلِها ... أَبَـرَّ وأوفـىٰ ذِمَّـةً مـنْ محمّـدِ

* لقد كانَ يوم الفتحِ فتحاً حقيقياً ، إذْ فَتَح اللهُ فيهِ قلوباً غُلفاً لما رأتِ الموكبَ المحمديَّ وهو يدخلُ البيتَ الحرامَ ، ومِنْ حولِهِ جنود اللهِ تحيطُ بهم منْ نورِ الإسلام الهيبة ؛ ورحمَ اللهُ أبا محمدٍ الشُّقْراطيسيّ حينما قال منْ قصيدةٍ طويلةٍ جميلةٍ يصفُ فيها الفَتْحَ الأعظمَ ، والحبيبَ الأعظمَ ﷺ:

ويَـومُ مكـةَ إذْ أشْـرَفْـتَ فـي أُمَـمٍ ... تَضيقُ عنها فجاجُ الوعثِ والسَّهْلِ

وأنـتَ صلَّـىٰ عليـكَ اللهُ تَقْـدمُهـم ... في بهوِ إشراقِ نورٍ منك مُكْتَمِلِ

يسْمُـو أمـامَ جُنـودِ اللهِ مُـرتَـديـاً ... ثـوبَ الـوقَـارِ لأَمْـر اللهِ مُمْتَثِـلِ

والأرضُ ترجُفُ منْ زهوٍ ومنْ فَرَقٍ ... والجـوُّ يـزهـرُ إشـراقـاً مـنَ الجَـذلِ

* ومنها:

أضربْتَ بالصَّفحِ صَفْحاً عنْ طوائِلِهم ... طولاً أَطالَ مقيلُ النَّومِ في المُقَلِ

(١) انظر مثلاً: سير أعلام النبلاء (٤/ ٥٠٨).

عَاذوا بِظِلِّ كريمِ العَفْو ذي لطَفٍ مبـارَكِ الـوجْـهِ بـالتَّـوفيـق مشْتَمِـلِ
وأصبحَ الدِّيْنُ قد حُـفَّتْ جوانبُـهُ بعزَّةِ النَّـصْرِ واسْتَـولىٰ علىٰ المـلَلِ

* ويبدو أنَّ صفيةَ قد رأتْ رسولَ اللهِ ﷺ في يومِ الفتحِ ، وهو يطوفُ بالبيتِ العتيقِ علىٰ راحلتهِ ، ويومها شهدتْ إسلامَ أبيها شيبةَ ، فقد أسْلَم شيبةُ يوم الفتح ، وكان أبوه ممنْ قُتِل بأُحُد كافراً(١) .

* وفي يومِ الفتح دعَا النَّبي ﷺ شيبةَ بن عثمان العبدري ، فأعطاهُ مفتاحَ الكعبةِ فقال : «دونك هذا ، فأنتَ أمينُ اللهِ علىٰ بيته»(٢) .

* ولكنَّ شيبةَ لم يتمكَّنِ الإسلامُ منْ نَفْسهِ ، إذْ لم يكن قلبُه خالياً تماماً منَ الوسَاوس كيما يتمكَّنَ الإسلامُ منه ، وإنَّما كانتْ في أغوارهِ بعضُ الهنَّاتِ التي استولَتْ عليه ، وملكتْ عليه طريق الإيمانِ الصَّحيح ، إلىٰ أنْ طهَّرَ اللهُ قلبَه في يومِ حُنين ، إذْ أرادَ أنْ يغتالَ النَّبيَّ ﷺ ، فَقَذَفَ اللهُ في قلبه الرُّعبَ ، ووضعَ رسولُ اللهِ ﷺ يَدَهُ الشَّريفةَ علىٰ صَدْرِ شيبةَ ، فَثَبَتَ الإيمانُ في قلبهِ ، وزالتْ أَدْرَانُ الأوهامِ منْ نفسه ، وتلاشتْ كلُّ أوضارِ الغِش ، وأضحىٰ منَ الأَصْفياء ، وقاتلَ يومَها بين يدي النَّبيّ ﷺ قِتالَ الشُّجعان ، فكان من الفائزين ، وكانَ منْ خِيارِ المُسلمين .

* روتِ المصادرُ المتعدّدة المتنوّعةِ قصَّةَ إسلامِ والدِ صفيةَ ، وكيفَ خرجَ منَ الظُّلماتِ إلىٰ النُّورِ ، ومنَ الضَّلالاتِ إلىٰ أضواءِ الهدىٰ ، ودِينِ الحقِّ ، فقالت :

* كانَ شيبةُ بنُ عثمانَ العبدري حاجبَ الكعبةِ المعظمةِ رجُلاً صَالحاً ، وكان يحدِّثُ عنْ إسلامِهِ ، وعمّا أرادَ اللهُ بهِ منَ الخيرِ والفَضْلِ والهدايةِ ، ويقولُ : ما رأيتُ أعْجبَ ممّا كنّا فيه منْ لزومِ ما مضىٰ عليه آباؤُنا وأجدادُنا منَ

---

(١) الإصابة (٥/٩٦) ترجمة رقم (٣٩٤٠) .
(٢) المصدر السابق .

الضَّلالاتِ ، ومن الانحرافِ عنْ طريقِ الخيرات .

* ثم كانَ شيبةُ يقولُ: لما كان عام الفتحِ ، دخلَ رسولُ الله ﷺ مكةَ عُنوةً ، وغَزا حُنَيناً ، قلتُ : أسيرُ مَعَ قريشٍ إلىٰ هوازنَ ، فعسىٰ إنِ اخْتَلَطُوا أنْ أُصيبَ منْ محمّدٍ ﷺ غرّةً ، وتذكرتُ أبي وكيفَ قَتَلَه حمزةُ بنُ عبد المطلب يومَ أحُدٍ ، وتذكَّرتُ كذلك عمّي وكيف جَنْدَله عليُّ بنُ أبي طالب وجعله كأمْسِ الدَّابِر ، فقلتُ في نفسي: اليومَ أدركُ ثأْري منْ محمّد ، وأكونُ أنا الذي قمتُ بثأرِ قريش كلِّها؛ وأقولُ: لو لم يبقَ منَ العربِ والعجمِ أحدٌ إلاَّ اتَّبعَ محمّداً ما تبعتهُ أبداً ، أأتْركُ ما أنا عليه وآبائي؟!

* ثمّ إنِّي كنتُ مرصِداً لِمَا خرجتُ لِه ، لا يزدادُ الأَمْر في نفسي إلا قوّة ، وإلا عَزْماً ومضاءً ، فلمّا اختلطَ النَّاسُ ، اقتحم[1] رسولُ اللهِ ﷺ عنْ بغلتهِ ، وأصْلِتُ السَّيفَ ، ودنوتُ منه أريدُ ما أريدُ منه ، ورفعتُ سيفي حتى كدتُ أُسَوِّره[2] ، إذا رُفعَ إلي فيما بيني وبينَه شواظٌ[3] من نارٍ كأنَّه برقٌ ، فخفتُ أنْ يتَمحّشَني[4] ، فوضعتُ يدي علىٰ بصري خَوفاً عليه ، ومشيتُ القَهْقَرىٰ[5] ، وعلمتُ أنَّه ممنوعٌ ، محفوظٌ منَ اللهِ.

* والتفتَ إليَّ رسولُ الله ﷺ وقال: «يا شيبُ[6] أُدنُ منِّي»؛ فدنوتُ منه ، فوضعَ يَدَهُ علىٰ صَدْري ، فمسحَ صَدري ، ثمَّ قالَ: «اللهمَّ أَذْهِبْ عنه الشَّيطان» فرفعتُ إليه رأسي ، وهو أحبُّ إليَّ منْ سَمْعي وبَصَري وقَلْبي ، وأذهبَ اللهُ ما كانَ بي ، ثمَّ قال: «يا شيبةَ قَاتِلِ الكُفَّار».

* فتقدَّمتُ أمَامَهُ أضربُ بسيفي ، الله يعلمُ أنِّي أقيه بنفسي كلَّ شيء ، ولو

---

(١) «اقتحم»: ألقىٰ نفسه عنها.
(٢) «أسوّره»: بفتح السين وسكون الواو ، وفتح الراء. وسورة الخمر وغيره: حِدَّتُها.
(٣) «شواظ»: اللهب الذي لا دخان فيه.
(٤) «يتمحشني»: يحرقُني.
(٥) «القهقرىٰ»: المشي إلىٰ خلف من غير أن يعيد وجهه إلىٰ جهة مشيه.
(٦) «شيب»: منادى مرخم ، ويجوز فيه ضم الباء وفتحها.

لقيتُ تلك السَّاعة أبي ، لو كان حيّاً لَوقعتُ به السَّيف ، فجعلتُ ألزمُه فيمن لزمَه حتى انهزمتْ هوازنُ ، ثمَّ رجعَ ﷺ إلىٰ معسكِره ، فدخلَ خباءَه ، فدخلتُ عليه ، ما دخلَ عليه غيري حبّاً لرؤيةِ وجههِ الشَّريف ، وسُروراً به ، فقال: «الحمدُ للهِ الذي أرادَ بكَ خَيراً ممّا أردتَ» ثمَّ حدَّثَنِي بما هممتُ به ، وبكلِّ ما ضمرتُ في نفسي ممّا لمْ أذكرْهُ لأحَدٍ قطّ ، فقلتُ: أشهدُ أنَّ لا إله إلا الله ، وأنَّكَ رسولُ اللهِ ، ثمّ قلتُ: استغفرْ لي يا رسولَ اللهِ ، قال: «غَفَر اللهُ لكَ»[1].

صَفِيَّــةُ ويــومُ الفَـتْــحِ:

* لا شكَّ في أنَّ صفيةَ بنتَ شيبةَ ـ رضي الله عنها ـ كانتْ تعلمُ كيفَ أنَّ أباهَا قَدْ أَضْحىٰ منَ الأَصفياءِ في يوم حُنين ، إلاَّ أَنَّه كانَ لها شأْنٌ يُذْكَر في يومِ الفَتْح ، حيث تطلُّ علينا بروايةٍ وضيئةٍ عنْ طوافِ رسولِ الله ﷺ بالبيتِ ، فَمنْ

(١) سُبل الهدىٰ والرَّشاد (٥/ ٤٧٣ و٤٧٤) ، ومختصر تاريخ دمشق (١١/ ١٠ و١١) مع الجمع والتّصرُّف.
وذكرَ ابنُ عسَاكر في تاريخه عن شيبةَ روايةً أخرىٰ في هذا الموضوع فقال: خرجتُ معَ النَّبيِّ ﷺ يومَ حُنين ، واللهِ ما خرجتُ إسْلاماً ، ولكنّي خرجتُ إبقاءَ أنْ تظهرَ هوازنُ علىٰ قريش ، فواللهِ إنِّي لواقفٌ مع النَّبيِّ ﷺ إذ قُلْتُ: يا نبيَّ اللهِ! إنِّي لأرىٰ خيلاً بُلْقاً! قال: «يا شيبة إنَّه لا يراها إلا كافرٌ»! فَضربَ بيدِهِ صدري ، فقال: «اللهمَّ اهْدِ شيبةَ» ، وفعلَ ذلك ثلاثاً؛ فما رفعَ رسولُ اللهِ ﷺ يَده عنْ صدري الثَّالثة حتى ما أجدُ منْ خلقِ اللهِ أحبَّ إليَّ منه.
وفي روايةٍ أخرىٰ قال شَيبةُ بنُ عثمانَ: استدبرتُ رسولَ اللهِ ﷺ يومَ حُنين ، وأنا أريدُ قَتْله بطلحةَ بنِ عثمان ، وعثمانَ بنِ طلحة ، فأطْلَعَ اللهُ رسولَهُ علىٰ ما في نفسي ، فالتَفَتَ إليَّ وضربَ في صَدْري وقال: «أعيذُك باللهِ يا شيبة»؛ فأُرْعِدَتْ فَرائِصي ، فنظرتُ إليه وهو أحبُّ إليَّ منْ سمعي وبصري فقلتُ: أشهدُ أنَّكَ رسولُ اللهِ ، وأنَّ اللهَ أطلعكَ علىٰ ما في نفسي. (نهايةُ الأرب ١٧/ ٣٢٩).
وفي روايةٍ أنَّ شيبةَ قال يوم حُنين: اليومَ أدركُ ثأْري منْ محمد ـ وكان أبوه قُتِلَ يوم أحد ـ ، اليومَ أقتل محمّداً ، فبادرتُ لأقتلَه ، فأقبلَ شيءٌ حتّى غشي فؤادي فلم أطقْ ذلك ، فعلمتُ أنَّه ممنوعٌ منِّي. (نهاية الأرب ١٧/ ٣٢٩).

حديثها ، ما أخرجه ابنُ إسحاق بسندهِ عنْ محمّد بنِ جعفر بنِ الزُّبير ، عن عُبيد اللهِ بنِ عبد اللهِ بن أبي ثور ، عن صفيةَ بنتِ شيبةَ ـ رضي الله عنهما ـ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ لمّا نزلَ مكةَ ، واطمأنَّ النَّاسُ خرجَ حتَّى جاءَ البيتَ ، فطافَ به سَبْعاً علىٰ راحلتهِ ، يستلمُ الرّكنَ بمحجنٍ[1] في يَدِه ، فلمّا قَضَىٰ طوافَه ، دعا عثمانَ بنَ طلحةَ ، فأخذَ منه مفتاحَ الكعبةِ ، فَفُتِحَتْ له فدخَلَها ، فوجدَ فيها حمامةً منْ عيدانٍ ، فكَسَرها بيدهِ ثمَّ طرحَها ، ثمَّ وقَفَ علىٰ بابِ الكعبة ، وقد اسْتَكَفَّ[2] له النَّاسُ في المسجد[3].

* وفي يومِ الفتح الأعظمِ وسَّعَ رسولُ الله ﷺ في الأَمْن؛ وفي العَفْو ، وسَرَتْ همساتُ كلماتِه تصافحُ آذانَ أهْلِ مكةَ جميعاً تبشّرُهم بالأَمْنِ والأمانِ والعفوِ والصَّفح الجميلِ حيثُ قال: «مَنْ دَخَلَ دارَ أبي سُفيان فهو آمنٌ ، ومَنْ أَغْلَقَ بابَه فهو آمنٌ ، ومَنْ دخَلَ المسجد فهو آمِنٌ»[4].

* وذكرَ محمَّدُ بنُ إسحاقَ ـ رحمه الله ـ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قَدْ قامَ يومَ الفَتْح

---

(١) «المحجن»: عودٌ معوّجُ الطَّرَفِ يمسكهُ الرَّاكبُ للبعيرِ في يده.

(٢) «قد استكفَّ له النَّاس»: أي استجمعَ ، منَ الكافّة وهي الجماعةُ ، وقد يجوزُ أن يكونَ استكفَّ هنا بمعنىٰ نظروا إليه ، وحدَّقوا أبصارهم فيه ، كالذي ينظرُ في الشَّمْس ، من قولهم: استكففت الشَّيء ، إذا وضعت كفَّكَ علىٰ حاجِبك ، ونظرتَ إليه ، وقد يجوزُ أنْ يكونَ استكفَّ هنا بمعنىٰ استدارَ؛ ومنه قول النَّابغة: استكفَّ قليلاً تربه انهدما.

(٣) أخرجه ابنُ هشام في السّيرة (٢/ ٤١١ و٤١٢) ، وحسَّنه الحافظُ ابن حجر في الفتح (٨/ ١٥) ، وأخرجه أبو داود برقم (١٧٧٨) ، وانظر: دلائل النُّبوّة (٥/ ٧٤) ، وشفاءُ الغرام (٢/ ١٨٩) ، وابن ماجه برقم (٢٩٤٧)؛ وذكرَ الواقديُّ قال: حدّثني عليُّ بنُ محمّد بن عُبيد اللهِ ، عن منصور الحجبيّ ، عن أمّه صفيةَ بنت شيبة ، عن برةَ بنت أبي تجراة قالت: أنا أنظر إلىٰ رسولِ اللهِ ﷺ حينَ خرجَ من البيتِ ، فوقفَ علىٰ الباب ، وأخذَ بعضادتَي الباب ، فأشرفَ علىٰ النَّاس ، وبيدهِ المفتاح ، ثمَّ جعلَه في كُمِّهِ. (المغازي ٢/ ٨٣٥).

(٤) السيرة النبوية (٢/ ٤٠٣)؛ والرّوايةُ في البخاري مختصرة؛ باب: أيْنَ ركزَ النَّبيُّ ﷺ الرَّاية يومَ الفتح.

علىٰ بابِ الكعبةِ ، فقال كلاماً ، ومنه: «لا إله إلاَّ اللهُ وحدَه لا شريك له ، صَدَقَ وعده ، ونَصَرَ عَبْده ، وهزَمَ الأحزابَ وحْدهُ ، ألا كلُّ مأثرةٍ ، أو دَمٍ ، أو مال يُدَّعىٰ ، فهو تحت قدميَّ هاتَيْن ، إلا سَدانة البيتِ ، وسقاية الحاج».

ثمَّ إنَّه قال: «يا معشرَ قريش ، ما ترونَ أنِّي فاعلٌ فيكم»؟

قالوا: أخٌ كريمٌ ، وابنُ أخٍ كريم!

قال: «اذهبوا فأنتمُ الطُّلقَاء»[1].

* وبعدَ هذا العفوِ[2] الجميلِ دعَا النَّبيُّ ﷺ عثمانَ بنَ طلحةَ العبدري حاجبَ الكعبةِ ، فأخَذَ منْهُ المفتاحَ ففُتِحتْ له الكعبة ، فدخلها ، وكبَّر في جوانِبها ، وصلّىٰ فيها ركعتَيْن ، وأمَر بالصُّورِ الموجودةِ داخلَها فأُزِيلتْ ، وبالأصنام فأُخرِجَتْ ، ثمَّ صَعِدَ بلالٌ الكعبةَ فأذَّن فوقَها قائلاً: الله أكبر؛ وعلمَ المشركونَ أنَّ اللهَ أكبرُ منْ كلِّ كبيرٍ ، وأنَّ الفلاح هو حَبْلُ النَّجاة لمنِ استجابَ إلىٰ داعي الصَّلاة فأقامها ، ولاحظَّ لمن تركَ الصَّلاة.

* ولما خرجَ رسولُ اللهِ ﷺ منَ الكعبةِ قال: «أينَ عثمانُ بنُ طلحة»؟

---

(١) رواه ابن سعد في الطبقات (٢/ ١٤١ و١٤٢) ، وسنده منقطع ، وانظر: كنز العمال (١٠/ ٣٨٩) ، والحديث ضعيف.

(٢) أَلاَ مَا أجْملَ العفْوَ عند المقدرةِ! وما أعظم النَّفوسَ التي تسمو علىٰ الأحقادِ وعلىٰ الانتقام! بل تسمو على أنْ تقابلَ السَّيئةَ بالسَّيئةِ، ولكن تعفو وتصفحُ؛ والعفوُ عمَّن؟! العفوُ عن قومٍ طالما عذّبُوه ﷺ ، وعذَّبوا أصحابَه ، وهمُّوا بقتلهِ مِراراً ، وأخرجُوه وأتباعَه منْ دِيَارِهم ، ومِنْ بين أهْليْهم وأموالِهم ، ومَدَارجِ صِبَاهم ، ولم ينفكُّوا عنْ محاربتهِ والكيدِ له بَعْدَ الهجرةِ ، وفي كلِّ ميدانٍ يجدونَ فيه الطَّعنَ والنِّزال ، كانوا يُنزلونَ كيدهم ، ويكيدونَ ما شاء لهم الكيدُ أنْ يكيدوا ، ولكنَّ نبيَّ الرَّحمةِ الرَّؤوف الرَّحيم ، أعطاهُم درساً في الإحسانِ ، وأعطىٰ الدُّنيا ، وأهلَ الدُّنيا بأسرِها دروساً في الإحسانِ والصَّفح ، بل ضَرَبَ مثلاً شروداً في البرِّ والرَّحمةِ والعَدْلِ والوفاءِ ، وسموّ النَّفس لم تعرفْهُ العُظماءُ من قَبْلُ ومن بَعْدُ ، ولن تعرفَه الدُّنيا في تاريخِها الطَّويل العريضِ ، وصدقَ اللهُ إذ يقولُ: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

فدُعيَ له فقال: «هذا مفتاحُك يا عثمان، اليوم يوم برٍّ ووفاء»؛ وقال: «خذُوها يا بني شيبةَ خالدةً تالدةً لا ينزعها منكم إلا ظالم»[1].

* ولا يزالُ مفتاح الكعبةِ فيهم إلىٰ أيَّامنا هذه، وإلىٰ ما يشاء الله؛ ويقال للحَجَبَةِ: «الشّيبيُّون» نسبةً إلى شيبةَ بنِ عثمان بن أبي طلحة والد ضيفتنا صفية بنت شيبة وهو ابن عمِّ عثمان بن طلحة، حيث انتقلت منْ عثمانَ بنِ طلحةَ إلىٰ ابنِ عمِّه شيبةَ، وما زالتْ في نَسْلِهِ إلى اليوم، وفي هذه الحادثة نزلَ قولُ اللهِ ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾ [النساء: ٥٨][2].

صَفيَّـةُ مِـنْ رَاوِيَــاتِ الحَـديـث:

صفيةُ ابنةُ شيبةَ ـ رضي الله عنهما ـ واحدةٌ منْ بناتِ الصَّحابةِ اللاتي أدْركْنَ زمانَ النُّبوَّةِ، ونَعِمْنَ بنعيمها، وفُزْنَ بخيريّةِ تلكمُ النَّفحاتِ الخالداتِ في تاريخِ الدَّهْر، ومنْ تلكمُ النَّفحاتِ المُبَاركاتِ: فوزُها بالعِلْم؛ فقدْ روتْ عنِ النَّبيِّ ﷺ في سُنَنِ أبي داود، والنَّسائي، وهذا مِنْ أقوىٰ المراسيل؛ وروتْ عن ثلاثٍ منْ أعلامِ نساءِ الدُّنيا، ومن نساءِ أهل البيتِ، فقد روتْ عنْ أمِّنا عائشةَ ابنةِ أبي بكر الصِّدِّيق، وأمِّ حبيبة، وأمِّ سَلمةَ أُمَّهاتِ المؤمنين وغيرِهن ـ رضي الله عنهن وأرضاهن ـ كما روتْ عن أمِّ وَلَدٍ لشيبةَ بن عثمانَ، وأمِّ عثمانَ بنِ أبي سُفيان بن حرب، وأسماءَ بنتِ أبي بكر الصِّدِّيق، وحبيبةَ بنتِ أبي تجْراة.

* وحدَّثَ عنها: ابنُها منصورُ بنُ عبدِ الرَّحمن الحَجَبيّ، وسبْطُها

---

(١) فتح الباري (٨/ ١٥).

(٢) آيةُ الأمانةِ والعَدْلِ منْ أمَّهاتِ آياتِ الأَحْكام التي تضمَّنَتْ جميعَ الدِّينِ والشَّرعِ؛ والأظْهرُ أنَّ الآيةَ خطابٌ عامٌّ لجميع النَّاسِ، فهي تتناولُ الوُلاة فيما إليهم مِنَ الأماناتِ في قسمةِ الأموالِ، وردَّ الظُّلاماتِ والعَدْلِ في الأقضية وهي تدلُّ علىٰ أساسَيْن من أُسُسِ الحكم في الإسلام:
١ ـ أداء الأمَاناتِ إلىٰ أهلها. ٢ ـ الحكم بالعَدْل بينَ النَّاس.

محمّدُ بنُ عمران الحَجَبيّ ، وابنُ أخيها عبدُ الحميدِ بنُ جُبير بنِ شيبةَ وابنُ أخيها الآخر مسافعُ بنُ عبدِ اللهِ بنِ شيبةَ ، وابنُ أخيها الآخر مصعبُ بنُ شيبةَ بنِ جُبير بن شيبة؛ والحسنُ بن مسلم ، وإبراهيمُ بنُ مهاجر ، ويعقوبُ بن عطاء بن أبي رَبَاح ، وقتادة ، وعمر بن عبد الرحمن بن محيصن السّهمي المقرىء ، وآخرون ، وروىٰ عنها النَّاس فأكثروا[1] .

* ولصفيةَ بنتِ شيبةَ ـ رضي الله عنهما ـ في الصَّحيحَيْنِ خمسةُ أحاديثَ[2] ، فهي من أصحابِ الخمسة[3] ، وصرح البخاري بسماعها من النبي ﷺ .

* ومن مروياتها ما جاءَ في البُخاري ـ تعليقاً ـ قال أبانُ بنُ صالح ، عنِ الحسنِ بن مسلم ، عن صفيةَ بنتِ شيبة : سَمعتُ النَّبيَّ ﷺ قال : حرَّمَ اللهُ مكةَ ، فلمْ تحلَّ لأَحَدٍ قبلي ، ولا لأحدٍ بعدي ، أحلَّتْ لي ساعة من نهار ، لا يُختَلىٰ خلاها ، ولا يُعْضد شجرها ، ولا يُنَفَّرُ صيدها ، ولا تُلتقَطُ لقطتُها إلا لمعرِّف»[4] .

---

(١) طبقات ابن سعد (٨/ ٤٧٠) ، وسير أعلام النبلاء (٣/٥٠٨) ، وتاريخ الإسلام للذهبي (حوادث سنة ٨١ ـ ١٠٠ ص٩٠ و٩١) ، وتهذيب التهذيب (١٠/ ٤٨٤) ترجمة رقم (٨٩١٩) .

(٢) تهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٦١٤) ترجمة رقم (١١٩١) ، والرياض المستطابة (ص٣٣٦) .

(٣) ومنَ الصَّحابيات من أصحابِ الخمسة ـ أي ممّنْ روينَ خمسةَ أحاديث ـ :
* سودة أمّ المؤمنين .
* أمّ الدَّرداء .
* أمّ أيمن بركة بنت ثعلبة ـ رضي الله عنهنَّ وأرضاهُنَّ وحشَرنا في معيّتِهنَّ ـ ومن مشاهير الصحابة الذين رووا خمسة أحاديث :
* خالد بن الوليد .
* معقل بن سنان الأشجعي .
* عثمان بن طلحة . ـ رضي الله عنهم جميعاً ـ .

(٤) فتح الباري (٣/ ٢٥٣) من حديث برقم (١٣٤٩) .

* ومما أخرجَه لها البخاريُّ بسندٍ عن سفيانَ عن منصور بن صفيّة[1] عن أمِّه صفيةَ بنتِ شيبةَ قالت: أَوْلَمَ النَّبيُّ ﷺ علىٰ بعضِ نسائِهِ بِمُدَّيْنِ مِنْ شعير[2].

* ومن مروياتِها ما جاء في المسند عن الحسنِ بنِ مسلم بن يناق ، عن صفيةَ بنتِ شيبة عن عائشةَ ـ أمَّ المؤمنين ـ قالتْ: جاءَتْها امرأةٌ فقالت: ابنةٌ لي سَقَط شعرها ، أفنجعلُ علىٰ رأسِها شيئاً نجمِّلُها به؟

قالت: سمعتُ امرأةً تسألُ رسولَ الله ﷺ عن مثلِ ما سألتِ عنه ، فقال: «لعنَ اللهُ الواصلةَ والمستوصلة»[3].

* وفي المسندِ أيضاً ، أخرجَ الإمامُ أحمد عن منصور الحجبيّ قال: حدثتني أمِّي صفية بنت شيبة عن عائشةَ أنَّها قالت: كانَ رسولُ اللهِ ﷺ يتكىءُ في حجري وأنا حائضٌ فيقرأُ القُرآن[4].

* ونقل ابنُ كثير في تَفْسيرهِ عنِ البخاري بسندٍ عن الحسنِ بنِ مُسلم عَنْ صفيةَ بنتِ شيبةَ ـ رضي الله عنهما ـ أنَّ عائشةَ ـ رضي الله عنها ـ قالتْ: لما نزلتْ هذهِ الآية: ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ [النور: ٣١] ، أخَذْنَ أُزُرَهُنَّ فَشَقَقْنَها منْ قِبَلِ الحَواشي ، فاختمرنَ بها[5].

* وحدَّثَ عبدُ اللهِ بنُ عثمان بنِ خُثيم ، عن صفيةَ بنتِ شيبةَ قالت: بينا نحنُ عنْدَ عائشةَ ، قالتْ: فذكَرْنَا نساءَ قُريش وفَضْلَهنَّ ، فقالتْ عائشةُ ـ رضي

---

(١) منصورُ بنُ صفيَّة بنتِ شيبةَ ، واسمُ أبيه: عبد الرَّحمن بن طلحة بن الحارث بن طلحة بن أبي طلحة القرشيّ العبدريّ الحَجَبي ، قُتِل جَدُّه الأعلىٰ الحارث يومَ أُحُدٍ كافراً ، وكذا أبوه طلحةُ بنُ أبي طلحة ، ولجدِّهِ الأدنىٰ طلحة بن الحارث رؤية.
(فتح الباري ٩/ ١٤٨) المكتبة السلفية مصر ط٤ ـ ١٤٠٨ هـ.

(٢) أخرجه البخاري برقم (٥١٧٢).

(٣) المسند (١٠/ ٥٩ و٦٠) برقم (٢٥٩٦٧).

(٤) المسند (١٠/ ١١٦) برقم (٢٦٢٨١).

(٥) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٥٤) طبعة دار ابن كثير.

اللهُ عنها ـ: إنَّ نساءَ قُريش لفُضْلَىٰ ـ وفي روايةٍ: إنَّ لنساءِ قريش لَفَضْلاً ـ ، وإنِّي ـ واللهِ ـ ما رأيتُ أفضلَ منْ نساءِ الأَنْصارِ أَشَدَّ تصديقاً بكتابِ اللهِ ، ولا إيماناً بالتَّنزيلِ ، لقد أُنْزِلَتْ سورةُ النُّورِ ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ ، انقلبَ إليهنَّ رجالُهنَّ يتلونَ عليهنَّ ما أنزلَ اللهُ إليهم فيها ، ويتلو الرَّجلُ علىٰ امرأتِهِ وابنتهِ وأختهِ ، وعلى كلِّ ذي قرابتِهِ ، فما منهنَّ امرأةٌ إلا قامَتْ إلىٰ مِرطها المُرحلِ فاعتجرتْ بهِ ، تصديقاً وإيماناً بما أَنْزلَ اللهُ منْ كتابهِ ، فأصبحنَ وراءَ رسولِ اللهِ ﷺ الصُّبحِ مُعْتجرات ، كأنَّ علىٰ رؤوسهنَّ الغِربان[1] .

* ومن مروياتِها في الصَّحيح والسُّنَنِ ، ما جاءَ عنها عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ ، أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ خرجَ ذاتَ غداةٍ ، وعليه مِرطٌ مُرَحَّلٌ منْ شَعْرٍ أسود[2] .

* ومن مروياتها عن أمِّ سلمةَ ما أخرجه أبو داود من حديثِ الحَسن بن مسلم عن صفيةَ بنتِ شيبة عن أمِّ سلمة زوجِ النَّبي ﷺ أنُه قال: «المتوفىٰ عنها زوجها لا تلبسُ المعصفرَ منَ الثِّياب ، ولا الممشَقة ، ولا الحلي ، ولا تكتحل ، ولا تختضب»[3] .

مَعَ الخَالداتِ العالماتِ:

* قَضَتْ صفيةُ بنتُ شيبة ـ رضي الله عنها ـ ردحاً كبيراً من الزَّمنِ بين العِلْمِ والرِّواية ، ويظهرُ أنَّها منَ الصَّحابيات المعمَّرات اللواتي عشْنَ زمناً طويلاً .

---

(١) المصدر السابق: وقال ابن كثير: رواه أبو داود من غير وجه عن صفية بنت شيبة به.
(٢) أخرجه مسلم في اللباس (٣٦) ، وفضائل الصحابة (٦١) ، وأبو داود في اللباس (٥) ، والترمذي في الأدب (٤٩) ، وأحمد (٦/ ١٦٢).
و«المرط»: كساء من صوف أو خزّ.
(٣) أخرجه أبو داود في الطلاق برقم (٢٣٠٤) ، والنسائي في الطلاق (٦/ ٢٠٣ و٢٠٤) وإسناده صحيح.

* ويبدو أنَّ صفيةَ ـ رضوان الله عليها ـ قَدْ عاشَتِ الخلافةَ الرَّاشدةَ ، ثمَّ عاشتْ إلىٰ منتصفِ الخلافةِ الأمويةِ ، ولكنَّ أحداً منَ المصنِّفينَ لم يُشِرْ إلىٰ وفاةِ صفيةَ بنتِ شيبةَ إشارةً دقيقةً ، بل إنَّ المصادرَ التي أَدرجَتْ سيرتها لم تحدثنا بشكلٍ واضحٍ عن زمنِ موتها؛ بَيْدَ أننا نجدُ الإمامَ الذَّهبيَّ يقول: أحسبُ أنَّها عاشتْ إلى دولةِ الوليدِ بنِ عبد الملك[1] . وجاء عمر رضا كحّالة ليقول في أعلام النِّساء: توفيتْ في حدود التّسعين للهجرة[2] .

* ومهما يكن منْ أمر ، فإنّ صفيةَ بنتَ شيبة إحدىٰ بناتِ الصَّحابة ذواتِ الشَّأْن في تاريخِ بناتِ الصَّحابة ـ رضوان الله عليهم جميعاً ـ ، وإحدىٰ البنات اللواتي تَشَرَّفْنَ بالصُّحبةِ النَّبويةِ الزّاكية ، وكُنَّ في ديوانِ الخالدات .

* والآن ، أرجو أنْ أكونَ قد وُفِّقتُ في رسمِ صورة إحدىٰ بنات الصَّحابة ، وأعتقد أنَّه لم يترجم لها أحدٌ ترجمة مفصلةً من قبل .

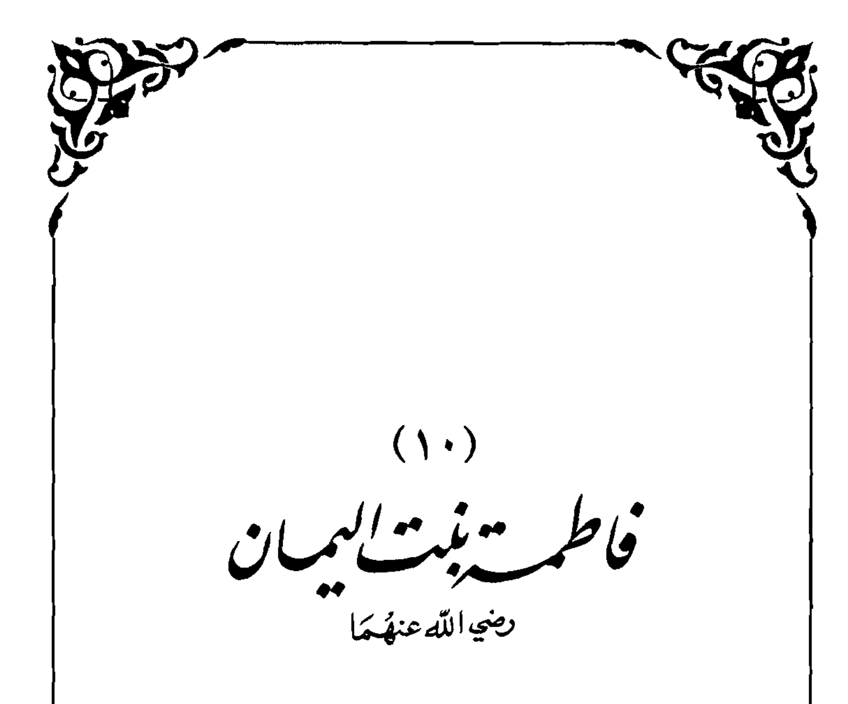
* اللهم وفّقنا للصَّواب ، وباركْ لنا في أعمالِنا ، وفي أوقاتنا ، وفي أعمارِنا ، واجعل ثوابَ ما نكتبُ في صحائفِ المؤمنين ومحبي الصَّحابة ، واجعل ذلك في ميزاني ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الشعراء: ٨٨ ـ ٨٩]. والحمد لله ربِّ العالمين .

* * *

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (٣/ ٥٠٩).

(٢) أعلام النساء (٢/ ٣٣٨).



(١٠)

فاطمة بنت اليمان

رضي الله عنهما

* لها صحبة ، ورواية عن النبي ﷺ .

* أبوها : اليمان بن جابر الصحابي الشهيد .

* عمرتْ دنياها بعبادة الله عز وجل .

غُصـنٌ رَطيْـبٌ:

* منْ دوحةٍ مورقةٍ فَيْنَانَةٍ ، ذاتِ ظلالٍ وارفةٍ ، وأغصانٍ رطيبةٍ ، يظهرُ هذا الغُصْن الرَّطيبُ.

* وهذهِ الدَّوحةُ اليمانيةُ قد تَفرَّعَتْ عن كرامٍ وكرائمَ كانُوا منْ نُجباءِ المدرسةِ المحمديّةِ التي أظلَّتِ الدُّنيا بمحاسنِ أفعالِها ، وعطَّرتِ الوجودَ بفضائِل أعمالِها.

* وابنةُ هذا الصَّحابي الكريم أحدُ أغصانِ تلكم الدَّوحة اليمانيّة ، إنَّها فاطمةُ بنتُ اليمان بنِ جابر العبسيّة[1] ، الصَّحابيةُ ابنة الصَّحابي والصَّحابية ، وأختُ الصَّحابي والصَّحابيّات.

* والآن دعونا نَقْرَأ بطاقاتِ الدَّوحةِ اليمانيةِ الميمونة ، وعلىٰ رأسها اليمانُ العبسيّ وَالدُ فاطمةَ ضيفة هذه الصَّفحات.

* فاليمانُ اسمهُ حُسَيْل ـ بالتَّصغير ـ بنُ جابر بنِ ربيعةَ المعروفِ باليَمان العبسيّ؛ وسببُ تسميتهِ بذلك ما رواه كُتَّاب السِّير والتَّراجمِ والطَّبقاتِ قالوا: كان حُسَيل قد أصابَ دَماً في قومهِ العبسيّين ، فخرجَ منْ بينهم خَائِفاً يترقَّبُ ، ويمَّمَ وجهه نحوَ المدينة ، وهنالك حالفَ بني عبد الأَشْهَلِ منَ الأنصار ، وعندها سمَّاهُ قومُه اليمَانَ ، لأنَّه حالفَ الأَنْصارَ اليمانية[2] ، لأنَّ أصلهم منَ اليمنِ؛ وقد استُشْهِدَ في حياةِ النَّبيِّ ﷺ.

---

(١) طبقاتُ ابن سعد (٨/ ٤٣٥) ، والاستيعاب (١٣/ ١٣٢ و١٣٣) ترجمة رقم (٣٤٦٥) ، والإصابة (١٣/ ٨٨) ترجمة رقم (٨٥٦) ، وأسد الغابة (٦/ ٢٣٣) ترجمة رقم (٧١٩٠) ، وتهذيب التهذيب (١٠/ ٤٩٨) ترجمة رقم (٨٩٥٤) ، وأعلام النساء (٤/ ١٥١) ، وغوامضُ الأَسْماءِ المبهمة (٢/ ٨٤٥ و٨٤٦) خبر رقم (٣٠٧) ، وحياة الصحابة (٢/ ٥٧٩).

(٢) انظر: سير أعلام النبلاء (٢/ ٣٦٢) ، والاستيعاب (٢/ ٣١٩) وغيرهما من مصادر.

* وفي المدينةِ تزوَّج اليمانُ امرأةً منَ الأنصار هي الرَّبابُ بنتُ كعبٍ الأشهليّة ، فولَدَتْ له: حذيفةَ ، وسعداً ، وصفوانَ ، ومُدلجاً ، وليلىٰ ، وقد أسلمتِ الرَّبابُ وبايعتْ رسولَ اللهِ ﷺ[1] .

* وذكرَ كُتَّاب التَّراجم أنَّه كانَ لفاطمةَ أُختان هما: أمّ سلمة بنت اليمان ، وكانت منَ المؤمناتِ المسلماتِ العَوابد ، وأخرىٰ تُدعىٰ خولةُ بنتُ اليمان[2] ، وقد حظيتْ بالصُّحبة النَّبويةِ.

* وأمَّا أخوها حذيفةُ بنُ اليمان ، فهو منْ مشَاهير الصَّحابةِ ، ومن نُجبائهم ، وهو صاحبُ سِرِّ النَّبيِّ الذي لا يعلمهُ أحدٌ غيره ، وقد شَهِد أُحُداً فما بَعْدَها منَ المشَاهد ، وكان له موقفٌ مشهودٌ يوم غزوةِ الأحزابِ ، إذْ بعثهُ النَّبيُّ ﷺ ليلةَ الأحزابِ ليتعرَّفَ أخبارَ المشركينَ ، فأسرعَ ودخلَ بينَ المشركين ، وكانُوا خائفينَ ، إذْ أرسلَ اللهُ ريحاً شديدةً ليلةَ ذاك ، وهي منْ جنودِ الله كيما تزلزلُ أعداءَه.

* وكان أبو سُفيان بنُ حرب حَذِراً ، فقال: يا معشرَ قريش ، لينظر امرؤٌ مَنْ جليسه؟ وكان حذيفةُ أكثرُ ذكاءً منه فأخذَ بيدِ جليسهِ الذي كان بجانبِهِ وسأله عنِ اسمهِ ، وبادَرَهُ قَبْل أنْ يسألَهُ.

* ثمَّ إنَّ أبا سُفيان قال: يا مَعْشَر قُريش ، إنّكم واللهِ ما أصبحتم بدارِ

---

(١) انظر: أسد الغابة (٦/ ١٠٦) ترجمة رقم (٦٩٠٧) ، والإصابة (١٢/ ٢٤٩).

(٢) خولةُ بنتُ اليمان العبسيّة ، أختُ حذيفة بن اليمان ـ رضي الله عنهم جميعاً ـ وخولةُ إحدىٰ بناتِ الصَّحابة اللواتي حظينَ بالرِّواية وشَرَفِ الصُّحبَّة ، روىٰ عنها أبو سلمةَ بنُ عبد الرحمن أنَّها قالت: سمعتُ النَّبيَّ ﷺ يقولُ: «لا خيرَ في جماعةِ النِّساء إلاَّ عنْدَ ميّت ، فإنَّهنَّ إذا اجتمعنَ قلن وقُلنَ». وروىٰ رِبْعِي بنُ حِرَاش ، عن امرأتهِ ، عن أخت حذيفةَ قالت: قامَ فينا رسولُ اللهِ ﷺ ، فحمدَ الله وأثنىٰ عليه ثمَّ قال: «يا معاشرَ النِّساء ، أما لَكُنَّ في الفضّة ما تحلَّينَ به؟ أمَا إنَّه ليس منكنَّ امرأةٌ تحلىٰ ذهباً تظهرهُ إلا عُذِّبَتْ به». انظر: (الاستيعاب ١٢/ ٣٠٨) ، و(أسد الغابة ٦/ ٩٩) مع الجمع والتصرف.

مُقام ، لقد هَلَكَ الكُراع والخفّ ـ الخيلُ والإبلُ ـ ، ولقينا منْ شدَّةِ الرّيح ما تَرون. . . فارتحِلُوا فإنّي مرتحلٌ. . . ثم قامَ وارتحلَ ، ورجعَ حذيفةُ إلىٰ رسولِ اللهِ ﷺ وهو قائمٌ يصلِّي ، فلَّما رآه طرحَ عليهِ طرفَ الغطَاءِ ، ولما سَلَّم أخبره حذيفةُ الخبرَ.

* وقد صَاغَ أحدُ الفُضلاء هذهِ الحادثةَ شِعْراً فقالَ علىٰ لسَانِ حذيفةَ بنِ اليمان ـ رضي الله عنهما ـ:

يَــــرْوي حُــــذَيفَــــةُ عَــــنْ مُهمَّتِــــهِ لِكُــــلِّ المُسْلميْــــن
فــــي غَــــزْوَةِ الأَحْــــزَاب كُنَّــــا فــــي الحقَيْقَــــةِ خَــــائِفيْــــن
فَقُــــريــــشُ فــــي حُلفَــــائِهــــا جــــاؤُوا إلَيْنَــــا هَــــاجميْــــن
جــــاؤُوا وكَــــانُــــوا عَــــازمِيــــنَ لِسَحْــــقِ كُــــلِّ المُسْلميــــن
وَبَنُــــو قُــــريْظَــــةَ أَسْــــرَعُــــوا لِلْعَهْــــدِ كَــــانُــــوا نَــــاقِضيــــن
المُصْطَفــــىٰ يَخْتَــــارُنــــي فَــــذَهَبْــــتُ نَحــــوَ المُشْــــركيــــن
فــــدخَلْــــتُ بيــــنَ القَــــومِ كَــــانُــــوا كُلُّهــــم مُتَخَــــوِّفِيــــن
والــــرِّيــــحُ تَفْعَــــلُ فِعْلَهَــــا مِــــنْ جنْــــد ربِّ العَــــالَميــــن
والــــرُّعــــبُ يَمْلــــؤُهُــــم فقــــالَ زعيمُهــــم للسَّــــامِعيــــن[1]
الكُــــلُّ منْكــــمْ يَعْــــرِفَــــنَّ زَميْلَــــهُ فــــي الجَــــالِسيــــن[2]
أَمْسَكــــتُ فَــــوْراً فــــي جَليْســــي بــــالسُّــــؤَال لأَسْتَبيــــن
فَسَــــأَلْتُــــهُ مَــــنْ أَنْــــتَ أَخْبَــــرَنــــي بِصِــــدقِ الصَّــــادقيْــــن
وَإِذَا أَبُــــو سُفيــــانَ نَــــادَىٰ فــــي قُــــريــــشٍ أَجْمعيــــن
هيَّــــا نَعُــــدْ لِــــديَــــارِنَــــا لَسْنَــــا هُنَــــا بِــــالآمِنيــــن
وَالــــرِّيــــحُ قَــــدْ صَنَعَــــتْ بنَــــا ويَهُــــودُ خَــــانُــــوا غَــــادِريــــن
فَــــرَجَعْــــتُ أَخْبَــــرتُ النَّبــــيَّ بِــــذلِــــكَ الخَبَــــرَ اليَقيــــن

* ولفاطمة أخٌ آخرُ ذُكِرَ في عداد الصَّحابةِ وهو صَفْوانُ بن اليمان ، فقد

---

(١) «زعيمهم» : المقصود هنا أبو سفيان قائد الأحزاب.

(٢) «الكل منكم يعرفن زميله» : يعني : احذروا من وجود جواسيس لمحمد.

ذكر القُرطبيُّ في «الاستيعاب» أنَّه شَهِدَ غزاةَ أحدٍ مع أبيه وأخيه حذيفةَ.

* وفي جوِّ الأسرةِ اليمانيّةِ كانتْ نشأةُ فاطمةَ[1] ، حيثُ نَعِمت في ظلِّ الإسلامِ مُذْ سَمِعتْ به ، ومنذ أنْ تفشَّىٰ في المدينةِ بينَ الأنْصارِ ، فغَدَتْ منَ المُبَايعات وحظيتْ بِشَرفِ الصُّحبةِ النَّبويّة ، وعدتْ إحدىٰ الفَواطم[2] الصَّحابيات.

فاطِمَـةُ واسْـتِشهَـادُ أَبِيْهَــا :

* كانَ الحبيبُ المصطفىٰ ﷺ يربِّي أصحابه تربيةً عاليةً ، سُدَاها الإيمانُ ولحمتُها الاستسلامُ للعزيزِ الحميدِ ، ففي موقفٍ كريمٍ تسمو فيه فاطمةُ عالياً عندما جاءها نبأُ استشهاد أبيها يوم غزاة أحد ، وتظهر فيه مستسلمةً عابدةً صادقةً.

---

(١) «فاطمة» يقال: فَطَمَ الصَّبيَّ: فَصَلَه منَ الرَّضاع ، والأنثىٰ: فَطيم وفَطيمة ، وجَمْعُ فطيم علىٰ فُطُم. وفاطمةُ منْ أسماءِ النِّساء ، وتسمّىٰ المرأةُ فاطمةَ وفِطاماً وفطيمة ، وفي الحديثِ أنَّ النَّبيَّ ﷺ أعطىٰ عليّاً حُلَة سِيراء وقال: «شَقِّقْها خُمراً بين الفَواطم»؟ قال القُتيبي: إحداهنَّ سيدةُ النِّساءِ فاطمةُ بنتُ سيّدنا رسولِ اللهِ ﷺ زوجُ عليّ رضي الله عنه ، والثَّانية فاطمة بنت أسد بن هاشم أمَّ علي بن أبي طالب ، وكانت أسلمت ، وهي أول هاشمية ولدت لهاشمي ، و فاطمةُ بنتُ حمزة بن عبد المطلب سيِّد الشُّهداء رضي الله عنه.
قال ابنُ برّي: والفواطمُ اللاتي وَلَدْنَ النَّبيَّ ﷺ: قرشيةٌ ، وقَيسيّتان ، ويمانيتان ، وأزديّة ، وخُزاعيّة.
وقيلَ للحسنِ والحُسينِ: ابنَا الفَواطم ، فاطمةُ الزَّهراء أمُّهما ، وفاطمةُ بنتُ أسد جدَّتُهما ، وفاطمةُ بنتُ عبد اللهِ بن عمرو بن عمران بن مخزوم جدَّة النَّبيِّ ﷺ لأبيه. (لسان العرب ١٢/ ٤٥٤ و٤٥٥) باختصار وتصرف.

(٢) الفواطمُ منَ الصَّحابيات يزدْنَ علىٰ عشرينَ فاطمة منْ أشهرهنَّ: فاطمةُ الزَّهراء بنت سيدنا وحبيبنا رسول الله ﷺ ، وفاطمةُ بنت أسد أمّ علي بن أبي طالب ، وفاطمةُ بنتُ الخطَّاب أخت عمر رضي الله عنهما ، وفاطمة بنتُ اليمان ضيفة حلقتنا ، وللمزيد من أخبار هؤلاء الفواطم اقرأ سيرهن في كتاب أسد الغابة (٦/ ٢١٧ـ٢٣٣) وغير ذلك من كتب تراجم الصحابة.

* فعندما خرجَ رسولُ اللهِ ﷺ إلىٰ أُحُدٍ خرجَ معه حذيفةُ وصفوانُ ابنا اليَمان وأخوا فاطمة ، بينما ظلَّ أبوها في الحصونِ مع النِّساء والصِّبيان لأنَّه كان شَيخاً كبيراً قد وهَنَ العظمُ منه ، واشتعل رأسهُ شَيباً. وكانَ اليمانُ قد توقَّدتْ في نفسِه محبَّةُ الجِهاد لأنَّه لم يحضرْ غَزاة بَدْر ، حيثُ مَنَعه المشركونَ ومنعوا ابنه حذيفةَ كذلك من شهودِها[1] ، فلما كانتْ غزاةُ أُحُدٍ أبقاهُ النَّبيُّ ﷺ مع ثابتِ بنِ وقْشٍ لأنَّهما كانَا شَيخَيْن كبيرَيْن ، وأمرهما أنْ يظلاَّ في الحُصونِ معَ النِّساء والأطْفَالِ.

* ولكنَّ مشيئةَ اللهِ كانت قد اتَّخذتْ هذَين الشَّيخَيْن شهداءَ ، حيثُ إنَّ الشُّهداء مختارونَ ، يختارهم اللهُ منْ بينِ المجاهدين ، ويتّخذهم لنفسه ، وهؤلاء الشُّهداء الذي اختصَّهم اللهُ ورزقَهم الشَّهادة هم مكرمونَ عنده ، ومنهم اليمانُ ورفيقهُ ثابتُ بنُ وقش ، فكيف حظِيَ هذان الرَّجُلانِ بالشَّهادة ، وكيفَ قُتِلَ اليمان والد فاطمة؟

* إن الحديثَ عن هذيْن الشَّيخَيْن الكبيرَيْن: اليمانِ وثابتٍ؛ حديثٌ ذو شجون ، ولا ريبَ فالحديثُ عنهما يعطي صورةً مُشَرِّفةً مُشرقةً عن رسوخ الإيمانِ في قُلوبِ الصَّحابَةِ والصَّحابياتِ شُيوخاً وشَبَاباً ، كما يشيرُ إلىٰ أنَّ الدنيا لم يتخِذُوها دارَ سَكَنٍ، وإنَّما هي سفينةٌ يعبرونَ عليها إلىٰ النَّعيم المقيم.

* لقد ظلَّ هذان الشَّيخان الكبيران مع النِّساءِ والأَطْفال ، حينما خرجَ الرسولُ ﷺ وأصحابهُ إلى قتال المشركين في أحد، وبعد أن خرج رسول الله ﷺ

---

(١) جاءَ في الصَّحيح عن عدمِ حضور حذيفةَ بنِ اليمان وأبيهِ غزوةَ بَدْر ، حيثُ روىٰ حذيفةُ سببَ ذلك فقال: ما منعني أنْ أشهدَ بَدْراً إلا أنّني خرجتُ أنا وأبي حُسَيل ، فأخَذَنَا كفَّارُ قريش ، فقالوا: إنّكم تريدونَ محمّداً.
فقلنا: ما نريدُ إلاَّ المدينة.
فأخذوا علينَا عَهْدَ اللهِ وميثاقهِ لننصرفنَّ إلىٰ المدينةِ ولا نقاتلُ معه ، فأتينا النَّبي ﷺ فأخبرناهُ الخبرَ ، فقال: «نفي لهم بعهدهم ، ونستعين بالله عليهم». أخرجه مسلم برقم (١٧٧٨).

وأصحابه ، شَعَرَ كِلا الرَّجلين بالإحْبَاطِ من بقائهما مع الذَّراري ، فقالَ أحدهما للآخر : لا أبالك ما ننتظرُ؟! فواللهِ ما بقيَ لواحد منّا في عُمره إلا ظِمء حمار[1] ، إنّما نحنُ موتىٰ ، إنْ لم يكنِ اليوم فَغداً ، أفلا نأخذُ أسيافنا ، ثمَّ نلحقُ برسولِ اللهِ ﷺ ، فلعلَّ اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ أنْ يرزقنا الشَّهادة . . . فأجابَه الآخر : نِعْمَ ما أشرتَ به يابنَ الكرام .

* وانطلقا فأخذا أسيافَهما ، ثمَّ خرجَا حتَّىٰ جاءَا أُحُداً ، ودخلاَ في النَّاس ، والمعركةُ حاميةُ الوطيسِ ، ولم يعلمْ بهما أحدٌ منَ المُسلمين ، فأمَّا ثابتُ بنُ وقشٍ الأنصاريّ الأشهليّ فَقَتَله المشركونَ ولقيَ اللهَ شهيداً راضياً قد نَالَ ما كان يرنُو إليه .

* وأمّا اليمانُ والدُ فاطمةَ ، فاختلفتْ عليه أسيافُ المُسلمين ، فقتلوه وهم لا يعرفونَه ، وتنبَّه حذيفةُ حينما رأىٰ أباه تنوشهُ أسيافُ المسلمين ، فناداهم قائِلاً : أبي ، أبي ، بَيْدَ أنَّ أسيافَهم كانتْ قد أثَّرتْ فيه ، وماتَ ، واتَّخذَه اللهُ شهيداً ، فقالُوا لحذيفةَ : واللهِ ما عرفناهُ ، وكانُوا بِقَسَمِهم صادقين ، فقال حذيفةُ : صدقتم . ثمَّ أخذَ يتمثَّلُ بقول نبيّ اللهِ يوسُف عليه السَّلام : ﴿ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [يوسف : ٩٢] .

* وأراد الحبيبُ المصطفىٰ ﷺ أنْ يعطيَ حذيفةَ ديةَ أبيهِ ، لأنَّ المسلمين قتلُوه خطأً ، فتَصدَّقَ حذيفةُ بديتهِ علىٰ المسلمين ، فزاده ذلك عند رسولِ اللهِ ﷺ خَيراً وقُرباً ومكانةً[2] .

وكانتْ فاطمةُ ذاتَ موقفٍ وضيءٍ مشرقٍ أيضاً ، فقد تلقَّتْ نبأَ مَقْتَلِ أبيها بنفسٍ مؤمنةٍ ، واحتسَبَتْه عنْد اللهِ ، فما دامَ رسولُ اللهِ ﷺ سَالماً فكلُّ المَصَائِبِ بعده هيّنـةٌ .

---

(١) «ظمء الحمار» : أيْ مقدارُ ما يظمأ الحمار ، لأنَّ الحمارَ أقلُّ الحيوانات صبراً علىٰ العطش . والظمءُ : مقدارُ ما يكون ما بين الشربتين .

(٢) انظر : السيرة النبوية : (٢/ ٨٧ و٨٨) ، والإصابة (٢/ ١٧) مع الجمع والتصرف .

وتعالوا الآن نَقرأ ما صاغه أحدُ الفُضلاء في قصّة مَقْتَلِ ثابتِ بن وقشٍ وحُسَيل ـ اليمان ـ في هذه الغَزاة حيثُ يقول:

هَـا ابْـنُ وقْـشٍ والحُسَيْـلُ ... أتـاهُمـا خَيْـرُ المَقَـال
شَيْخـانِ كـانَـا مِـنْ كِبَـارِ ... السِّـنِّ لَيْسَـا لِلنِّـزَال
تـركُـوهُمـا فـي يَثْرِبٍ بَيْـنَ ... النِّسـاء كَـذَا العِيَـال
شَعَـرا بِـآلامٍ لكـونِهمـا ... قُعُـوداً عَـنْ قِتَـال
قَـالا لِبَعْـضٍ إنّنـا شَيْخـان ... فـي عُمْـرِ الـزَّوَال
هيَّـا لنلْحَـقَ بـالـرَّسُـولِ ... وَبِـالـرِّجـال إلـىٰ النِّضـالِ
فلعلَّنـا نلقـىٰ الشَّهـادةَ ... إنَّهـا أغْلـىٰ مَنَـال
لَحِقَـا بِجَيْـشِ المُسْلميـنَ ... وقَـاتَـلاَ بَيْـنَ الـرِّجـال
نَـالاَ بحـقٍّ مـا أرَادَا ... فـي رِضَـاءٍ واحتْمـالِ
ذهـبَ ابـنُ وقْـشٍ بـالشَّهـادة ... مـنْ سيـوفِ ذوي الضَّـلال
أمَّـا الحُسَيْـل فمـنْ سيـوفِ ... المُسلميـنَ بـلا جِـدَال
قَتَلُـوه إذْ لـم يعـرفُـوه ... فَنِعْـمَ خَصْـمُ الاقْتِتَـال
هَـمَّ الـرَّسُـولُ يَـدِيْ الحُسَيـلَ ... فَـذَاك شَـرْعُ الاعْتِـدَالِ
لكِـنْ حُـذَيْفَـةُ قَـدْ أبَـاهَـا ... بـل تَصَـدَّق بـامِتثَـال
قـد زادَ هَـذا قُـرْبَـه ... للمُصْطَفـىٰ وَإلـىٰ الكَمَـال

فَاطِمَــةُ وَرِوَايَــةُ الحَـدِيْــثِ:

* عندما ذكرَ ابنُ حجر ـ رحمه الله ـ فاطمةُ بنتَ اليمانِ قال عنها: فاطمةُ بنتُ اليمان العبسيّة، لها صحبةٌ، روتْ عنِ النَّبيِّ ﷺ، وعنها: ابنُ أخيها أبو عُبيدة بن حُذيفة بنِ اليمَان[1]، وروىٰ رِبعيٌّ بن

(١) أبو عُبيدةَ بنُ حذيفةَ بنِ اليمان العبسيّ الكوفي، روىٰ عن أبيهِ، وعمّته فاطمةَ، وعدي بنِ حاتم، وأبي موسىٰ الأشعري. وعنه: محمدُ بنُ سِيرين، ويوسفُ بنُ ميمون، وخالدُ بنُ أبي أمية الكوفي وغيرهم. قال أبو حاتم: لا يُسمّىٰ، وذكره ابن=

حِرَاش[1] عن امرأتهِ عنها.

* وذكرها ابنُ عبد البرِّ فقال: روتْ عن النَّبي ﷺ، ولها أحاديثُ[2].

* وممّا روتْهُ فاطمةُ بنتُ اليمان ذلكم الحديثُ الذي يحكي قصَّةَ زيارتها في نسوةٍ رسولَ اللهِ ﷺ في مَرضهِ الذي توفَاهُ اللهُ فيه.

* فقد جاءَ في المصَادِرِ الحديثيّة بسندٍ إلىٰ ابنِ أخيها أبي عُبيدة بنِ حذيفةَ بن اليمان عن عمّته قالت: عُدْتُ رسولَ اللهِ ﷺ في نسوةٍ، وإذا سِقَاءٌ مُعَلَّقٌ وماؤُه يقطرُ عليهِ منْ شِدَّةِ ما يَجدُ منْ حرِّ الحُمَّىٰ، فَقُلْتُ: يا رسولَ اللهِ لو دعوتَ اللهَ عزَّ وجلَّ أنْ يكشفَ عنك، ـ وفي روايةٍ: ألا تدعو اللهَ أنْ يكشفَ عنك ـ فقال ﷺ: «إنّ أشدَّ النَّاسِ بلاءً الأنبياء، ثمَّ الذين يلونَهم، ثمَّ الذين يلونَهم»[3].

= حبّان في الثِّقات. (تهذيب التهذيب ١٠/ ١٨٢) ترجمة رقم (٨٥١١).

(١) رِبْعي بنُ حِراش بنِ جَحش العبسيّ، أبو مريم الكوفيّ، قَدِمَ الشَّام، وسمعَ خطبةَ عمر بن الخطاب بالجابيةِ، وروىٰ عن: عمرَ، وعلي، وابنِ مسعود، وأبي موسىٰ، وعمرانَ بنِ حُصين، وحذيفة بنِ اليمان، وطارق المحاربي، وأبي اليُسْر كعب بن عمر السُّلمي، وأبي مسعود، وغيرهم.
وعنه عبدُ الملك بن عمير، وأبو مالك الأشجعي، والشَّعبي، ونعيمُ بنُ أبي هند، ومنصورُ بنُ المعتمر، وهلالُ مولاه، وحصينُ بنُ عبد الرحمن وغيرهم.
قال ابنُ المديني: بنو حِرَاش ثلاثة: رِبعي، وربيع، ومسعودُ، ولم يُرْوَ عن مسعود شيءٌ سوىٰ كلامه بعدَ الموتِ. وقالَ العجلي: تابعيٌّ، ثِقَةٌ منْ خيارِ النَّاس لم يكذْب كذبة قطّ. وقال أبو نُعيم: ماتَ في خلافةِ عمرَ بنِ عبد العزيز. وقال أبو عُبيد: ماتَ سنةَ مئة. وقال ابنُ سَعْد: كان ثقةً، وله أحاديث صالحة. وذكره ابن حبّان في الثّقات وقال: كانَ منْ عبَّادِ أَهْلِ الكوفة. وكان قد آلىٰ ألاَّ يضحَكَ حتّى يعلمَ أفي الجنَّة هو أو في النَّار. (تهذيب التهذيب ٣/ ٦٢ و٦٣) و(طبقات ابن سعد ٦/ ١٢٧) مع الجمع والتصرف.

(٢) الاستيعاب (١٣/ ١٣٢) ترجمة رقم (٣٤٦٥).

(٣) انظر: طبقات ابن سعد (٨/ ٣٢٥ و٣٢٦)، والحديث أخرجه الإمام في المسند (٦/ ٣٦٩). وانظر، أسد الغابة (٦/ ٢٣٣) ترجمة رقم (٧١٩٠)، والاستيعاب =

* وأخرجَ ابنُ سَعْدٍ وابنُ عبد البرِّ عن أخْتِ حذيفةَ قالت: خَطَبَنا رسولُ اللهِ ﷺ فقال: «يا معشرَ النِّساء أليسَ لَكُنَّ في الفِضَّةِ ما تحلَّينَ؟ أَمَا إنَّه لَيسَ منكنَّ امرأةٌ تحلَّىٰ ذَهَباً تظهرهُ إلاَّ عُذْبتْ به» فكانتِ النِّساءُ بَعْدَ ذلك يتخذنَ لكمِّهنَّ زِرَّاً يخفينَ ما يبدو منَ الذَّهبِ والخواتِم[1]. وهذا إنَّ صحَّ فهو منسوخٌ، أو علىٰ أنَّ تركه أَفْضَلُ منْ لُبْسِهِ[2].

* تلكم هي فاطمةُ بنتُ اليمان إحدىٰ بناتِ الصَّحابة، وواحدةٌ ممن روينَ الحديثَ النَّبوي الشَّريف، وواحدةٌ منْ بناتِ الشُّهداء وأخواتِ الأَبْطالِ، وواحدةٌ ممن عمرتْ دُنياها بعبادةِ اللهِ ـ عزَّ وجلَّ ـ وعَملتْ لآخرتها بما يُرضي الله ورسوله.

* فرضيَ اللهُ عن فاطمةَ ابنةِ اليمان، وأسكنَها أعالي الجِنَان، ومع المتكئين علىٰ فُرشٍ بطائنها منْ إستبرقٍ وجنىٰ الجنتين دَان، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟!

* * *

= (١٣/ ١٣٢)، والإصابة (١٣/ ٨٨)، وغوامض الأسماء المبهمة (ص ٨٤٥) خبر رقم (٣٠٧)، والحديث أخرجه الطبراني من حديث فاطمة مرفوعاً: «أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الصَّالحون، فالأمثل». وانظر أيضاً: حياة الصحابة للكاندهلوي (٢/ ٥٧٩). ومجمع الزوائد (٢/ ٢٩٢).

(١) طبقات ابن سعد (٨/ ٣٢٦)، والاستيعاب (٣/ ١٣٣).

(٢) أسد الغابة (٦/ ٢٣٣).

الباب الثاني

بنات آباؤهن صحابة ﷺ

(١) حُميدة بنت النُّعمان

(٢) رملة بنت الزّبير

(٣) رملة بنت معاوية

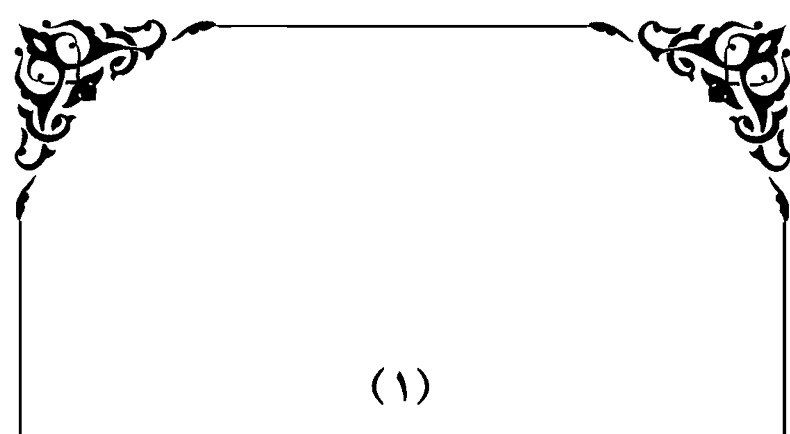
(٤) سكينة بنت الحسين

(٥) عائشة بنت سعد

(٦) عائشة بنت طلحة

(٧) عائشة بنت عثمان

(٨) لُبابة بنت عبد الله بن عبّاس

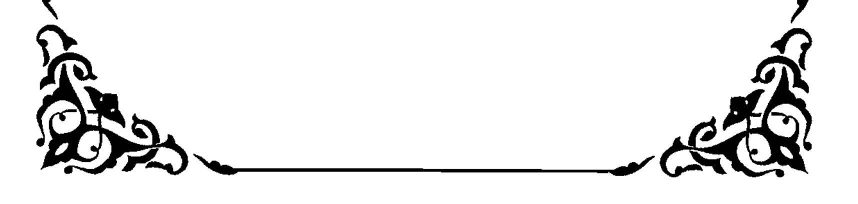


(١)

حُمَيدة بنت النُّعمان

* كانت من جميلات نساء العرب ، وأعلمهن بفنون الأدب .

* عزيزة النفس ، شاعرة .



أَصْـلٌ يُطَـاوِلُ الثَّـرَيَّـا :

* مجْدُ هَذهِ المرأةِ يطاولُ عَنَانَ السَّماء ليَصِلَ إلىٰ الثُّريا ، إذْ أبوها وجدُّها وجدَّتُها منْ أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ ومنْ أجْوادِ الأنْصارِ ، ـ رضي الله عنهم جميعاً ـ .

* فجدُّها صحابيٌّ جليلُ القَدْرِ منْ فرسانِ مدرسةِ النُّبوة ، وممن سَطَعَ نجمهُ في بيعةِ العقبةِ ، فهو أحدُ السَّبعين الذين بايعوا الحبيبَ الأعظمَ ﷺ تلكَ البيعةَ المباركةَ التي زيَّنَتْ جِيْدَ التَّاريخ ، وكَسَتْ تاريخَه أجْمَلَ الحُلَل ، لا شَكَّ أنَّكم عرفتموه ، إنَّه بشيرُ بنُ سَعْد بنِ ثعلبةَ الأنصاري الخزرجي[1] الصَّحابي الفاضل الصَّالح ، وأحدُ الذين كانُوا يكتبونَ في الجاهليةِ يوم كانتِ الكتابةُ قليلةً في العَربِ عَصْر ذاك .

* وجدتُّها صحابيّة جليلةُ القَدْر أيضاً ، عَمرَ الإيمانُ قَلْبَها ووجدانَها ، كانتْ وزوجُها بشيرُ بنُ سعدٍ ممن أَسْهمُوا في بناءِ صَرْحِ الإسلام ، وكان لهما موقفٌ مشهورٌ مشهودٌ في غزاةِ الخَنْدق ، هذه الصَّحابية المعطاء هي عمرةُ بنتُ رواحةَ الأنصارية أختُ عبدِ اللهِ بنِ رواحةَ ـ رضي الله عنها وعنه ـ ، وقد تألَّقتْ عمرةُ هذه بموقفٍ كريمٍ يومَ الخندقِ ، حيثُ أكلَ رسولُ اللهِ ﷺ وأهلُ الخندقِ جميعُهم منْ طَعَامِها الذي أرسلَتْه لزوجِها وأخيها عبدِ الله .

* أمَّا أبوهَا فهوَ أوَّلُ مولودٍ يُولدُ للأنْصَارِ في المدينةِ المنوَّرةِ بُعيدَ الهجرةِ[2] ، ولمّا ولدته عمرةُ بنتُ رواحة ، حَمَلَتْه إلىٰ رسولِ اللهِ ﷺ ، فَدعا

---

(١) اقرأ سيرة بشير بن سعد في موسوعتنا الشهيرة «فرسان حول الرسول ﷺ» (١/ ٨٥ ـ ٩٨) ، فسيرته تعطر الأسماع والأفواه بشذاها العبق اللطيف .

(٢) قال الذهبي ـ رحمه الله ـ: وولد النعمان سنة اثنين ، وسمع من النبي ﷺ ، وعد من الصحابة الصبيان باتفاق . (سير أعلام النبلاء ٣/ ٤١١) .

بتمرةٍ فَمَضَغَها ، ثمَّ أَلْقَاها في فيه فحنّكَهُ بها ، فقالتْ : يارسولَ اللهِ ، ادعُ اللهَ أنْ يكثرَ ماله وولَده ، فقال : «أَما تَرضَيْنَ أنْ يعيشَ كما عاشَ خالَه حَميداً ، وقُتِلَ شَهيداً ودخَلَ الجنَّة»[1]؟!

* إذاً فأبوها هو النُّعمانُ بنُ بشير بنِ سَعْد الأميرُ العَالِمُ ، والصَّحابي ابنُ الصَّحابي ، والصَّحابية ، ـ رضي الله عنهم جميعاً ـ.

* كانَ النُّعمانُ ـ رضي الله عنه ـ كريماً جَواداً شَاعِراً خَطيباً ، مَدَحَه أَعْشىٰ همدان فقال :

ولَمْ أَرَ للحَاجَاتِ عنْدَ الْتَماسِها ... مُجيباً كنُعْمانِ النَّدي ابنِ بشيرِ
متى أَكْفُرِ النُّعمانَ لمْ أكُ شَاكراً ... ولا خَيرَ فيمَنْ لم يكُنْ بشكورِ

* والنُّعمانُ هو القائل فيما زعم أَهْلُ الأخبارِ ورواةُ الأشْعارِ :

وإنِّي لأُعْطي المَالَ مَنْ لَيس سَائِلاً ... وأُدْرِكُ للمولىٰ المُعَانِدِ بالظُّلْمِ
وإنِّي مَتىٰ ما يَلْقنّي صَارِماً لَهُ ... فَما بَيْنَنا عَنْدَ الشَّدائِدِ منْ صرْمِ
فلا تَعْدُدِ المولىٰ شريكَكَ في الغنىٰ ... ولكنَّما المولىٰ شريكُك في العُدمِ
إذا مَدَّ ذو القُربىٰ إليكَ برحمةٍ ... وغشَّك واستغنىٰ فليسَ بذي رحْمِ[2]

* وأمَّا ابنتهُ فهيَ حُمَيْدةُ بنتُ النُّعمانَ بنِ بَشيرِ الأنصاريّة الخزرجيّة[3] وإحدىٰ بناتِ الصَّحابة اللواتي اشتهرنَ في القَرنِ الهِجريِّ

---

(١) انظر : الاستيعاب (١٣/ ٩٨) ترجمة رقم (٣٤٤٠) بهامش الإصابة.
(٢) الاستيعاب (١٠/ ٣٠٤ و٣٠٥) ترجمة رقم (٢٦١٤).
(٣) انظر : الأغاني (٩/ ٢٦١ و٢٦٣ و٢٦٨ و٢٦٩) و(١٦/ ٦٠) ، وبلاغات النِّساء (ص١٣٥ ـ ١٣٩) طبعة الكويت ١٩٩٣ م ، والدُّرُّ المنثور (ص١٧١ ـ ١٧٤) ، وأعلام النساء (١/ ٢٩٨ ـ ٣٠٢) ، وفيات الأعيان (٣/ ٩٥) ، حماسة أبي تمام (٢/ ٤٢٤) وشاعراتُ العرب (ص٧٧ ـ ٨٠) ، وسمطُ اللآلي (١/ ١٧٩ و١٨٠) ، ومعجمُ الأديبات الشَّواعر (ص١٩٧ ـ ٢٠٢) ، وتاريخُ مدينة دمشق (تراجم النِّساء ص٢٦٠) ، وغيرها كثير.

الأوَّل ، وحفظَ لها التَّاريخُ النَّسويُّ بعضاً منْ أخبارِها وأشعارِها وطرائِفها في هجاءِ أزْوَاجِها ـ كما زعم الرُّواة ـ .

حُـمَـيْـدَةُ وَعِـزَّةُ النَّـفْـسِ :

* في أخبارِ حُمَيدةَ بنتِ النُّعمانِ التي وَصَلَتْنا كثيرٌ منَ الطَّرائفِ والمواقفِ المَرِحَةِ ـ وإنْ كُنَّا نشكُّ في مُعْظَمِها ـ ، إلاَّ أنَّها من الأخبارِ والأقاصيص المسلّية التي تقطرُ خفَّةُ الظِّلِ منْ أردَانِها وحواشيها ، ونسيَ رواتُها أنَّ حُميدةَ منْ بناتِ الصَّحابةِ الطَّاهراتِ .

* ففي مَطْلَع ترجمةِ حُميدة قالتِ السَّيدةُ زينبُ بنتُ يُوسف فواز العامليّة ـ ولم تُشِرْ إلىٰ أنَّ حُمَيدةَ ابنةُ صحابي جَليل ـ : كانت منْ جميلاتِ نِسَاءِ العَرب ، وأعْلَمهنَّ بفنونِ الأَدَبِ ، وكانتْ في القرنِ الأوَّلِ للهجرةِ ، رُبِّيَتْ في حِجْرِ أبيها معَ أُختَيْها هندٍ وعَمرة ، فَنَشَأَتْ هي على عزِّ النَّفسِ ، وصارتْ لا تَرىٰ لها منْ قرينٍ يُوافقها . ومنْ عزَّةِ نفسها كانت كلَّما تزوَّجَتْ برجلٍ ، ورأتْ فيه عَيْباً تهجوهُ بالشِّعْرِ حتى خافتْ منْ لِسَانِها العَربُ[1] .

* أمّا عمرُ رِضَا كحّالة ، فقال في مَفتَتَح ترجمتهِ لحُميدةَ ، ولمْ يَشِرْ أيضاً إلىٰ أنَّها ابنةُ صحابي جَليلَ القَدْرِ : شاعرةٌ من شَواعِرِ العربِ ، كانت ذاتَ لِسانٍ وعارضةٍ ، وكانتْ تهجو أزواجَها[2] .

* ومن قَبْل قالَ الأصبهانيُّ أيضاً دونَ إشارةٍ إلىٰ أنَّها ابنةُ صحابي : وبنْتُ النُّعمان بنِ بشير ، واسمُها حُميدةُ ، كانت شاعرةً ذاتَ لسانٍ وعارضةٍ وشَرٍّ فكانتْ تهجو أزواجَها[3] .

* وقصّةُ هجاءِ حُميدةً لأَزْواجِها ، ورَدَتْ عندَ ابنِ طيفورَ في «بلاغاتِ

---

(١) الدر المنثور (ص١٧١) ، وكذلك نقل عنها صاحب معجم الأديبات الشواعر (ص ١٩٧ و١٩٨) .
(٢) أعلام النساء (١/ ٢٩٨) .
(٣) الأغاني (١٦/ ٦٠) .

النِّساء» ، وعند الأصبهانيّ في «الأغاني» وعند زينب فواز في «الدّر المنثور» وغيرها ، فقد جاءَ أنَّ الحارثَ بن خالد بن العاص المخزوميّ كان تزوَّج حُميدةَ بنتَ النُّعمان بنِ بشير بدمشقَ لما قَدِمَ علىٰ عبدِ الملك بنِ مروانَ ، إذ خَطَبها منْ أبيها ، وأبوها النُّعمان يومئذٍ والٍ علىٰ حِمْصَ ، فزوَّجه بها ، ولم تمكثْ معه غَيرَ قليل حتَّىٰ أساءَ معاملتَها ، فقالتْ فيه :

فَقَــدْتُ الشَّيــوخَ وأشْيَــاعَهُــم ... وذلــكَ مِــنْ بعــضِ أَقْــواليــه
تــرىٰ زوجــةَ الشَّيــخِ مغمــومــةً ... وتُمســـي لصُحْبَتِــه قَــاليــه
فــلا بَــارَكَ اللهُ فــي عَــرْدِهِ ... ولا فــي غُضــون اسْتــهِ البــاليــه
كهــولُ دِمشـــقَ وفتيــانُهــا ... أَحــبُّ إلينــا مــنَ الجَــاليــه
نكحــتُ المــديني إذ جــاءني ... فيــا لــكِ مــن نكحــةٍ غَــاويــه
صَنَــانٌ لَهــمْ كصُنَــانِ التّيــو ... سِ أعْيــا علــىٰ المِسْـكِ والغَــاليـه

* فقالَ الحارثُ يجيبُها :

أَسَنَــا ضَــوءِ نَــارِ ضَمْــرة بــالقَفْــ ... ــرةِ أَبْصَــرْتَ أمْ ضــوءَ بــرقِ
قَاطِنَاتُ الحجُونِ أَشْهىٰ إلىٰ قلـ ... ـبي مــنْ سَــاكِنَــاتِ دُورِ دمشْــقِ
يَتَضــوعْــنَ لــو تَضَمَّخْــنَ بــالمســ ... ــكِ صُنَــانــاً كــأَنَّــه ريــحُ مَــرقِ[(١)]

* ولما اسْتَحكَمتْ بينهما النَّفْرةُ والهجاءُ ، طلَّقَها الحارثُ بنُ خالد

---

(١) انظر : بلاغات النساء (ص١٣٩) ، والأغاني (٩/ ٢٦١ و٢٦٢) ، والدر المنثور (ص١٧١ و١٧٢) ، وشاعرات العرب (ص٧٧) ، وحماسة أبي تمام (٢/ ٤٢٤ و٤٢٥) ، ونسب قريش (ص٣١٣ و٣١٤) ، معجم الأديبات الشّواعر (ص١٩٨) مع الجمع والتصرف . وفي تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء ص٢٥٩) نسب ابن عساكر الأبيات إلى عمرةَ بنتِ النعمان أخت حميدة .
ومعنى «الجالية» : أهل الحجاز ، كانَ أهلُ الشَّام يسمّونهم بذلك لأنَّهم كانوا يَجْلُون عن بلادِهم إلىٰ الشَّام ، ولما بلغَ عبدُ الملك بنُ مروانَ قولها ، قال : لولا أنَّها قدّمتِ الكهولَ علىٰ الفتيان لعاقبتُها . و«الحجون» : جَبَلٌ بأعلىٰ مكةَ عنده مَدَافِنُ أهلها .

المخزوميّ ، ولما انقضتْ عدّتَها تزوّجها آخر فَهَجَتْه أيضاً ، ترىٰ مَنِ الزَّوجُ الآخرُ ، وما أخبارُها معه؟

حُمَيْدَةُ وَزَوْجٌ آخَر:

* يزْعُمُ رواةُ الأخبارِ بأنَّ حُميدةَ بنتَ النُّعمانِ لما طلَّقَها الحارثُ بنُ خالد ، وانقضتْ عدَّتها منه ، تقدَّم لخطبتها أحدُ أَسْيادِ اليمانيّة في الشَّام ، وأَحَدُ الأمراءِ الخُطَبَاء ، فَقَبِلَتْ به زَوْجاً ، وكانَ هذا الرَّجلُ هو رَوْحُ بنُ زِنْباعَ بنِ رَوْح الجذاميّ[1] ، وعلىٰ الرَّغْمِ منْ مكانةِ روحٍ آنذاك ، إلاَّ أنَّ حُمَيْدةَ هَجَتْه هجاءً مُرّاً سَاخِراً ، بنفسٍ مستعليةٍ عليهِ وعلىٰ أَمْثالهِ.

* أوردَ ابنُ طيفورَ والأصبهانيُّ خَبَراً طريفاً عن عمرَ بنِ شبّة قال: كانتْ حُميدةُ بنتُ النُّعمانَ قد تزوَّجها روح[2] بنُ زنباعَ ، فنظرَ إليها يوماً تنظرُ إلىٰ قومِهِ جُذام ، وقد اجتمعوا عنده فَلامَها.

---

(١) رَوحُ بنُ زنْباعَ بنِ روحِ بنِ سلامةَ الجذامي ، سيِّد جُذَام وقائدُها وخطيبُها ، وأميرُ فلسطين ، كان عبدُ الملك بنُ مروانَ يقول: جَمَعَ رَوحُ طاعةَ أهْل الشَّام ، ودهاءَ أهلِ الحجاز ، وكانَ ذَا عَقْلٍ ورأي ، وكان معظّماً عند عبد الملك ، لا يكادُ يفارقهُ ، وهو عنده بمنزلةِ وزير ، وكانَ صاحبَ عِلْمٍ وديْن ، توفي سنة (٨٤ هـ) ـ رحمه الله ـ. (شذرات الذهب ١/ ٣٤٧).

(٢) «رَوح»: الرَّوْحُ: نسيمُ الهواء ، أو: بَرْدُ نسيم الهواء.
والمروِّح: المطيّبُ بالمسْكِ كأنَّه جَعَلَ له رائحةً تفوحُ بعد أنْ لم تكنْ له رائحة ؛ وفي قوله تعالىٰ: ﴿ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ ﴾ [الواقعة: ٨٩] أي: رحمةٌ ورزقٌ.
قال الزَّجاج: معناه فاستراحة وبَرْدٌ.
والرَّوحُ: السُّرور والفرحُ ، واستعاره عليٌّ ـ رضي الله عنه ـ لليقين فقال: فباشِروا رَوْحَ اليقين.
والرَّوح: الفَرح.
والرَّوح: الرَّحمة ؛ قال تعالىٰ: ﴿ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ﴾ [يوسف: ٨٧] أي: من رحمةِ الله. لسان العرب (٢/ ٤٥٥ ـ ٤٦٧) باختصار.

* فقالت: وهل أرىٰ إلا جُذام؟ فواللهِ ما أحبُّ الحلالَ منهم ، فكيفَ بالحرامِ[1]؟!

* وتروي كتبُ الأدَبِ والأخبارِ أنَّ سلْسلةً منَ المُهاجاة قَدْ جَرَتْ بينَ حُميدةَ وروحٍ ، أو يمكنُنا أنْ نقولَ: إنَّ شيئاً منَ النقائِضِ الشَّعريةِ قد جَرىٰ بينهما ومن العجيب أنَّ بعضَ الكتب قد احتفظت بهذه المهاجاة والملاحاة ، لتنقلها إلى الناس ، ومن أمثلةِ ذلك أنَّ حُميدةَ قالتْ تهجو رَوْحاً وتَسْخَرُ منْ قومهِ:

بكىٰ الخزُّ منْ رَوْحٍ وأنكرَ جلْدُه ... وعجَّتْ عَجيجاً منْ جُذَامَ المَطارِفُ
وقالَ العبَا قَدْ كُنْتُ حيناً لِباسَكم ... وأكُسيتــهُ كُــرديــة وقطــائــفُ

فقال رَوْحٌ مجيباً لها ومصحِّحاً مفهومَها ومشيراً إلىٰ أنَّ بكاءَ العباءَةِ ممنْ يهينُها في الحربِ والقتالِ ، ولكنَّ العباءةَ التي ترتديْها هي ، فإنَّها تهوىٰ اللئَام:

إنْ تَبْـكِ منّـا تَبْـكِ ممَّـنْ يهينُهـا ... وإن تَهْوَكم تَهْوَ اللئامَ المقَارِفا[2]

* ويبدو أنَّ هذه المساجلاتِ وأشباهِها لها مساحاتٌ واسعةٌ في حياةِ حُميدة ورَوْحٍ ، ففي أخبارِها التي وَصَلَتْنا منْ كتُب الأخبارِ والأَسْمار ما يشيرُ إلىٰ أنَّـه اجتمعتْ مـعَ رَوْحٍ يومـاً في مجلسٍ يَـتَسامران كعادةِ الأَزْواج ، إلاَّ أن حُميدة أخذتْ تهزأُ بهـذا الزَّوجِ ، وتسخرُ منـه ، وتضحكُ عليـهِ لأشيـاءَ في نَفسِها ، ولكنَّ رُوحاً بدأَ مساجلته ونقائضه ومناظرته بقولهِ يخاطبُ حُميدة ، ويطلبُ منها أنْ تَثْنِيَ عليه ، ثمَّ إنه يهزأُ بها فيقولُ:

أثْنـي علـيَّ بمـا عَلِمْـتِ فـإنَّنـي ... مُثْنٍ عليكِ لبئسَ حَشْوُ المنْطَقِ[3]

---

(١) بلاغات النِّساء (ص١٣٥) ، والأغاني (٩/ ٢٦٤).

(٢) الأغاني (٩/ ٢٦٤)؛ و«المقارف»: الأنذال. جَمع مقرِف: وهو النذل الخسيس. وانظر: الدر المنثور (ص١٧٢) ، ومعجم الأديبات الشواعر (ص١٩٩).

(٣) «المنْطَق»: ما يُشَدُّ به الوسَطُ ، والنّطاق: حزامٌ يُشَدُّ به الوسَطُ ، وذاتُ النِّطاق أو النِّطاقَين: أسماءُ بنتُ أبي بكر الصِّدِّيق ـ رضي الله عنهما ـ؛ والنِّطاق: إزارٌ تَلْبسُه =

فقالت حُميدةُ تردُّ له الصَّاعَ صَاعَيْن ، وتهزأُ به :

أُثْنــي عَلَيْـك بَــأَنَّ بــاعَــكَ ضَيِّــقٌ   وبــأَنَّ أَصْلَـكَ فـي جُـذَامِ مُلْصَـقُ[١]

فقالَ روحٌ سَاخِراً بها منْ جَديد :

أَثنِـي علـيَّ بمـا عَلِمْـتِ فـإنَّنـي   مُثْـنٍ عليـكِ بِمثْـلِ ريْـحِ الجَـوْرَبِ

فردَّتْ عليه حُميدةُ وزادَته على ما قالَ سَاخِرةً :

فَـثَـنَــاؤُنــا شَــرُّ الثَّـنَــاءِ عَليكــمُ   أَسْوَا وأَنْـتَـنُ من سُلاحِ الثَّعلبِ[٢]

* ولم ينطقْ روحٌ بَعْدَ ذلك ببنتِ شَفَة ، وسكتَ عنِ المُلاحَاةِ والمناظرةِ ، فلعلَّه قَدْ وَجَدَ نَفْسَه خاسِراً في هذهِ الصَّفَقة .

* ويظهرُ أنَّ حُميدةَ ـ كما أرادَ الرُّواة ونسَّاجُو القَصَصِ ـ لم تَحلُ لَهَا الحياةُ إلاَّ بمثلِ هذه الدَّعاباتِ مع زوجِها رَوْح ، وكانت تتلاعبُ تلاعباً واضحاً في اسْمِه بِشِعْرِها ، وذاتَ مرّةٍ أخذتْ تعبثُ به وباسْمِه وتقولُ :

سُمِّيْتَ رَوْحاً وأنتَ الغَمُّ قَد عَلِمُوا   لا رَوَّحَ اللهُ عَــنْ رَوْحِ بــنِ زنبــاعِ

* فردَّ عليها روحٌ وأَنْشَأَ يقولُ علىٰ الفَور :

لا رَوَّح اللهُ عَمَّــنْ ليــس يَمْنَعُنَــا   مَــالٌ رغيــبٌ وبَعْــلٌ غيــرُ ممْنَــاعِ
كشَـافـعٍ جَـونـةٍ ثُجْـلٍ مَخَـاصِـرُهـا   ذبَّــابــةٍ شَثْنَــةِ الكَفَيْــنِ جُبّــاعِ[٣]

* وتنتهي هذهِ المساجلةُ ، لتبدأ مُسَاجَلة أخرىٰ ، ولكِنْ هذه المرّة فيها شيءٌ منَ القسوةِ من كِلا الطَّرفَيْن ، فَقَدْ وافَقَ أنْ دخَلَ روحٌ علىٰ حُميدة ذاتَ

= المرأةُ تشدُّه علىٰ وسطها للمهنةِ . (المعجم الوسيط) .

(١) «الملصق : الدَّعي . والملصق : الرَّجل المقيمُ في الحي ، وليس منهم بنَسَب .

(٢) الأغـانـي (٩/ ٢٦٤ و٢٦٥) ، وبـلاغـات النِّسـاء (ص١٣٦) ، وشـاعـرات العـرب (ص٧٨) ، والدر المنثور (ص١٧٢) .

(٣) الدُّرُّ المنثور (ص١٧٢) ، وشاعراتُ العرب (ص٧٨ و٧٩) . ومعنى : «الشَّافع» : مِنَ النُّوق والشَّاء ، التي في بطْنِها ولَدٌ ويتبعُها آخر . «جَوْنة» : سَوْداء ، والجون : الأَسود والأبيض ، و«جونـة» : الشَّمس . «ثَـجْل» : عِظَمُ البَطَنِ وسعتـهُ . «شَثْـنَـةُ الكفَّيْن» : غليظتهما . «الجبّاع» : القصيرة .

مرَّة ، وكان قد تكَحَّلَ وتطيّبَ ، وَلَبِسَ لِباساً فَاخِراً ، فَرَاقَها هذا المنظر كي تنسجَ حولَه هذه الأبيات ، وتعرِّضَ[1] به:

تُكَحِّـلُ عينيَـكَ بَـرْدَ العَشـي ... كـأَنَّـكَ مُـومسـةٌ زَانيـة
وآيـةُ ذلـكَ بَعْـدَ الخُفـوق ... تَغَلُّـفُ رأسِـك بـالغَـاليـة
وأَنَّ بَنِيْـكَ لـريْـب الـزَّمـا ... ن أَمْسَـتْ رقـابُهـمُ حَـاليـة
فلـو كـانَ أوْسٌ لَهـم حَـاضِـراً ... لقـالَ لهـم إنَّ ذَا مـالِيـة[2]

* ولكنَّ رَوْحاً أَحَبَّ أَنْ يثْأَرَ لهذا التَّعريضِ ، فقالَ مُجيباً لها عَلىٰ الوَزْنِ والقَافِيَة:

إنْ يكُـنِ الخُلْـعُ مِـنْ بـالِكـم ... فليـسَ الخَـلاعَـةُ مِـنْ بـاليـة
وإنْ كـانَ مَـنْ قَـدْ مَضَـىٰ مثلُكـم ... فَـأُفٍّ وتـفٍّ علـىٰ المـاضِيـة
فبعـداً لمحيـاكِ إذْ مـا حييـتِ ... وبعـداً لأَعْظُمِـكِ البـاليـة[3]

* ترىٰ هل انتهتْ هذه المُسَاجَلات عند هذا الحدِّ؟! لا ، فالأخباريون وصنَّاعُو القَصَصَ يقولون: إنَّ هذهِ الحربَ الكلاميةَ ظلَّتْ مستمرةً بينَ حُميدة ابنةَ النُّعمانِ ورَوْح بنَ زنباع حِيْناً منَ الدَّهْرِ ، وذلكَ لتكونَ هذه المنازلات أَرْوَحَ للنُّفوس ، وأطربَ للقلوب. ومن هاتيكم الحروبِ والمنازلاتِ الكلاميةِ قولُها لروحٍ وقد شبَّهَتْ نَفْسَها بالمُهْرةِ الأَصيْلَةِ ، وشَبَّهَتْه بالخَسيسِ منَ الدَّوابِ:

---

(١) لعلَّ السيّدة زينبَ يوسف فواز ، قد تجاوزتِ الأصبهاني وقالتْ قُبيل هذه الأبيات ، وقال فيها ، وقد دَخَل عليها وهي في غايةِ الزِّينة والطِّيب:
تكحّـل عينيـك بـردَ العشـي ... كـأنَّـكِ مـومسـةٌ زانيـة
(الدر المنثور ص١٧٣). والمغالطة واضحةٌ ، إذ القائل حُميدة لا رَوح ـ هكذا زعم الأخباريون ـ.

(٢) «أوس»: رجل من جذام يقال: إنه استودع روحاً مالاً فلم يرده عليه ، وهنا تعرض حميدة بهذه المقولة!!

(٣) بلاغات النساء (ص٩٧) طبعة مدرسة والدة عباس الأول بمصر سنة ١٩٠٨ م. والأغاني (٨/ ١٣٤ و١٣٥) وشاعرات العرب (ص٧٩).

وهَـلْ أنَـا إلا مُهْـرةٌ عَـربيّـةٌ سَليلـةُ أَفْـراسٍ تجلَّلَهـا نَغْـلُ
فإنْ نُتِجَتْ مُهراً كريماً فبالحَرىٰ وإنْ يكُ إقْرافٌ فما أنْجَبَ الفَحْلُ(١)

فقال رَوْحٌ:

فَمـا بـالُ مُهْـرٍ رَائـعٍ عَـرضَـتْ لـه أَتـانٌ فَبـالَـتْ عنْـدَ جَحْفَلَـةِ البغْـلِ
إذا هـو ولَّـىٰ جـانبـاً ربَخَـتْ لـه كما ربَخَتْ قمراءُ في دمثٍ سَهْلِ(٢)

* وعلىٰ الرغْم منْ أنَّ هذا الشِّعْرَ وهذا الخبرَ منْ صُنْعِ الرُّواةِ ، إلا أنَّه

---

(١) بلاغات النِّساء (ص٩٦) طبعة مصر؛ وأعلام النِّساء (١/ ٣٠٠) ، وسمط اللآلىء (١/ ١٧٩) ، وقد علَّقَ الميمني شارحُ سِمْط اللآلىء على هذا الخبر فقال: في مَحَاسِنِ الجاحظ (ص١٨٥) ، وتُحفة المجالسِ (ص٢٨٩) هندُ بنتُ أسماءَ تقولُهما للحجّاج وكان تزوَّجها. وهما لهند بنت النّعمان ، أو أختها حُميَدة في رَوْحِ بن زنباع في خبرٍ شَهِيّ طويلٍ في بلاغاتِ النِّساء (ص٩٦) والأَغاني (٨٠/ ١٣٤) ، والعِقْد الفريد (٤/ ١٦٩) ، وأخبارِ النِّساء (ص٥٣) ، وتكلَّم عليهما ابنُ السَيد (ص١١٧ و٢٠٢ و٣٠٦) ، وقولُها «بَغْل» كذا حيثما وقَع ، والبَغْلُ لا ينْسِل ، والصَّواب «نَغْل» ، وأصله «نَغِل» ككَتِف: وهو الخسيسُ منَ النَّاس والدَّواب ، أرادتِ الفرسَ الهجين. قال ابنُ السيد: وقد أنكرَ أصحابُ المعاني علىٰ أبي علي القالي رواية بَغْل ، والعجب ـ إن صحَّ ـ منَ البحري أنْ يقع فيما تعارفَ أهلُ بلاده غلطه. (سمط اللآلىء ١/ ١٧٩) بالهامش.
بينما قال البكريُّ بعد هَذَيْن البيتَيْن بعد أنْ نسبَهما لهند بنتِ النَّعمان: وقال الليثي: إنَّ اسمها حَمْدة أو حُمَيدة ، وكانتْ عند رَوحِ بنِ زنباع هذا ، وهما يمانيان ، يجمعُهما النَّسبُ والدَّار ، ولو كانت نزاريةً وهو قحطاني قيلَ هذا لما بين نزارَ وقحطان ، ورَوْح سيِّد يمانية الشَّام يومئذ وقائدُها وخطيبُها ومِحْرَبُها وشجاعُها ، وإنَّما قالَتْ ذلك لأَنَّه مسَّه يوم المرجِ أسْرٌ ، وقيل: بل مسَّه قَبلَ ذلك حرب غسَّان فافتدىٰ ، فقالتْ له قول العربية الشّريفة للمولىٰ ، وعيّرته بالإقراف. (سمط اللآلىء ١/ ١٧٩).

(٢) الأغاني (٨/ ١٣٤) طبعة دار الفكر؛ وأعلام النِّساء (١/ ٣٠٠) ، وشاعرات العرب (ص٧٨) ، ومعجم الأديبات الشواعر (ص٢٠٠) و«ربخت»: استرخَتْ. و«القمراء»: البيضاء.

مُسَلِّي ، إذْ لا يُعْقَل أنْ تُقْدِمَ ابنةُ صحابيّ علىٰ مثل هذا القولِ ، أو يقدمَ رجلٌ مفوّهٌ شجاعٌ كَرَوْحٍ علىٰ مثْلِ هذا الكلام ، لأنَّ هذا المستوىٰ منْ مستوىٰ الجواري ، وليس منْ مستوىٰ الحرائِر ، فَضْلاً عن بناتِ الصَّحابةِ الأكابرِ .

ولكي تتمَّ أحداثُ هذا المَشْهَد ، زَعم الرُّواةُ أنَّ حُميدةَ قالتْ لأخيها أبانَ بنِ النُّعمان الذي زوَّجها منْ روح :

أطَالَ اللهُ شَأْنَك مِنْ غلامٍ   متىٰ كانَتْ مناكحُنَا جُذَام
أترضىٰ بالفَواسِقِ والذَّنابىٰ   وقد كُنَّا يقرُّ بنَا السَّنام[1]

رَوْحُ يَدعُو عَلىٰ حُمَيْدَةَ :

* بعد أنْ سَمِعْنا ما سمِعْنا ، وقرأْنَا ما وَرَدَ عَنْ حُمَيدةَ بنتِ النُّعمان ما قرأنا منْ كلامٍ مصنوعٍ موضوعٍ ، يطيبُ للرُّواةِ أنْ يجعلُوا نهايةَ المطَاف في هذهِ المُسَاجَلات ، بأنْ يضَعُوا هذا الخبرَ المخيفَ الذي يتَّهمُ العفيفاتِ في أعراضِهنَّ ، وذلك منْ خلالِ التَّعريضِ بهِنَّ علىٰ لسان روحِ بنِ زنباع ، فكيفَ كانَ ذلك؟

* فقَدْ ذكرَ الأصبهانيُ في «أَغانيه» أنَّ حُميدةَ بنتَ النُّعمانِ قالتْ لزوجها روحِ بنِ زنباع ـ وكانَ أسودَ ضَخْماً ـ: كيفَ تسودُ وفيك ثلاثُ خِصَالٍ: أنتَ منْ جذامٍ ، وأنْتَ جَبَانٌ ، وأنتَ غيورٌ؟!

فقال: أمَّا جذام ، فأنَا في أَرُومتها ، وبحسبِ الرَّجُل أنْ يكونَ في أرومةِ قومِهِ .

* وأمّا الجُبْنُ: فإنَّما لي نَفْسٌ واحدةٌ ، ولو كانَ لي نَفْسَان لجُدْتُ بإحداهما .

* وأمّا الغيرةُ: فهو أمْر لا أُحِبُّ أنْ أُشَارَكَ فيه ، وإنَّ المرءَ لحقيقٌ بالغيرةِ

---

(١) الأغاني (٨/ ١٣٤).

على المرأةِ الحمقاءِ الورهاءِ، لا يأمَنُ أنْ تأتيَ بولدٍ من غيرِهِ، فتقذفه في حجرِهِ[1].

* أمّا نهايةُ هذا «الحَفْل السَّاهر» بينَ حُميدةَ ورَوْحٍ، فينتهي ـ كما زعُموا وأحبُّوا وراقَ لهم ـ بدعوةٍ مُستجابةٍ منْ روح.

* ذكر ابنُ طيفورَ والأصبهانيُّ، أنَّ رَوْحاً قالَ لحميدةَ في بعضِ ما يتنازعانِ فيه: اللهمَّ إنْ بَقيتْ بَعْدي، فابْلُها بِبَعْلٍ يلطمُ وجههَا، ويملأُ حجرهَا قَيئاً[1].

* ترىٰ هل استُجيبتْ دعوةُ روح في حُميدة كما أرادَ الرُّواة؟

حمَيـدَةُ والفَيـْضُ بـنُ مُـحَمَّـد:

* يزعمُ الرُّواةُ أنَّ رَوْحاً بَعْدمَا دعَا علىٰ حُميدةُ، تعثَّرتْ حياتَهما فطلَّقَها، ثمَّ تزوَّجها منْ بَعْدِه الفيضُ بنُ محمّد بن الحكمِ بنِ أبي عقيل، وكانَ شابّاً جَميلاً يصيبُ منَ الشَّرابِ، فأحبَّتْه، وكان ربّما أصابَ مُسْكِراً، فيلطمُ وجههَا، ويقيءُ في حِجْرها، فتقولُ: يرحمُ اللهُ أبا زُرعةَ، قد أُجِيبَتْ دعوتهُ فِيَّ ـ أي: أُجيبَ دعاؤه ـ وقالتْ لفيض تَعْبَثُ به:

سُمِّيْتَ فَيضَاً ومَا شيءٌ تفيضُ بهِ ... إلاَّ سُلاَحَكَ بينَ البَابِ والدَّارِ
فَتِلْكَ دعوةُ رَوْحِ الخيرَ أَعْرِفُها ... سقىٰ الإلهُ صَدَاهُ الأَوْطفَ السَّاري[2]

* وقالتْ في الفَيْض أيضاً:

أَلا يَا فَيضُ كُنْتُ أَراكَ فَيضَاً ... فَلا فيضاً أَصَبْتُ ولا فُراتَا

* وقالتْ فيهِ أيضاً تعيِّره بألوانٍ منَ الخصالِ المذمومةِ وتهزأُ به:

ولَيسَ فيضٌ بفيَّاضِ العَطاءِ لنَا ... لكنَّ فيضاً لنا بالسَّلْحِ فيّاض

---

(١) بلاغات النساء (ص٩٧)، والأغاني (٨/ ١٣٥)، وانظر: الدر المنثور (ص١٧٣).

(٢) «صداه»: أي جسده بعد موته. و«الأوطف»: المطر المنهمر، أو الداني من الأرض.

لَيْثُ اللُيوثِ علينا باسِلٌ شَرسٌ   وفي الحُروبِ هَيوب الصَّدر جيَّاض[1]

* فولدتْ حُميدة منَ الفيضِ بِنْتاً ، فتزوَّجَها الحجّاج بنُ يُوسُف ، وكانتْ عندَ الحجّاجِ قَبْلَها أمُّ أبانَ بنتُ بشير ، فقالتْ حُمَيْدَةُ للحجّاج : إذا تذكرتُ نِكاحَ الحجّاح ، منَ النَّهارِ أوْ منَ الليلِ الدَّاج ، فاضتْ لها العينُ بدمعٍ ثجَّاج ، اشتعلَ القَلْبُ بوجدٍ وهّاج ، لو كانَ النُّعمانُ قَتِيْلَ الأَعْلاج ، مستوفي الشخص صحيح الأَوْدَاج ، لكنتُ منها بمكان النَّساج ، قد كنتُ أرجو بعضَ ما يرجو الرّاج ، أنْ تنكحيه مَلِكاً أو ذَا تَاج .

* ثمَّ قدمتْ حُميدةُ علىٰ ابنتها زائرةً ، فقالَ لها الحجّاجُ : يا حميدةُ إنِّي كنتُ أحتملُ مُزَاحَك مدَّة ، فأمّا اليومَ فَلا ، وأنا علىٰ أهْلِ العراق ، وهم قومُ سوءٍ فإياك .

فقالت : سأكفُّ حتَّىٰ أَرْحَل[2] .

* أمّا عن وفاةِ حُميدة ، فقد كانتْ في أواخِر ولايةِ عبدِ الملكِ بنِ مروانَ ؛ إلا أنَّ ابنَ عساكر لم يترجِمْ لها في تاريخِهِ ، ولم يذكرها في النِّساء اللواتي تَرْجَم لهنَّ في موسوعتهِ الكبرى «تاريخ مدينة دمشق»[3] .

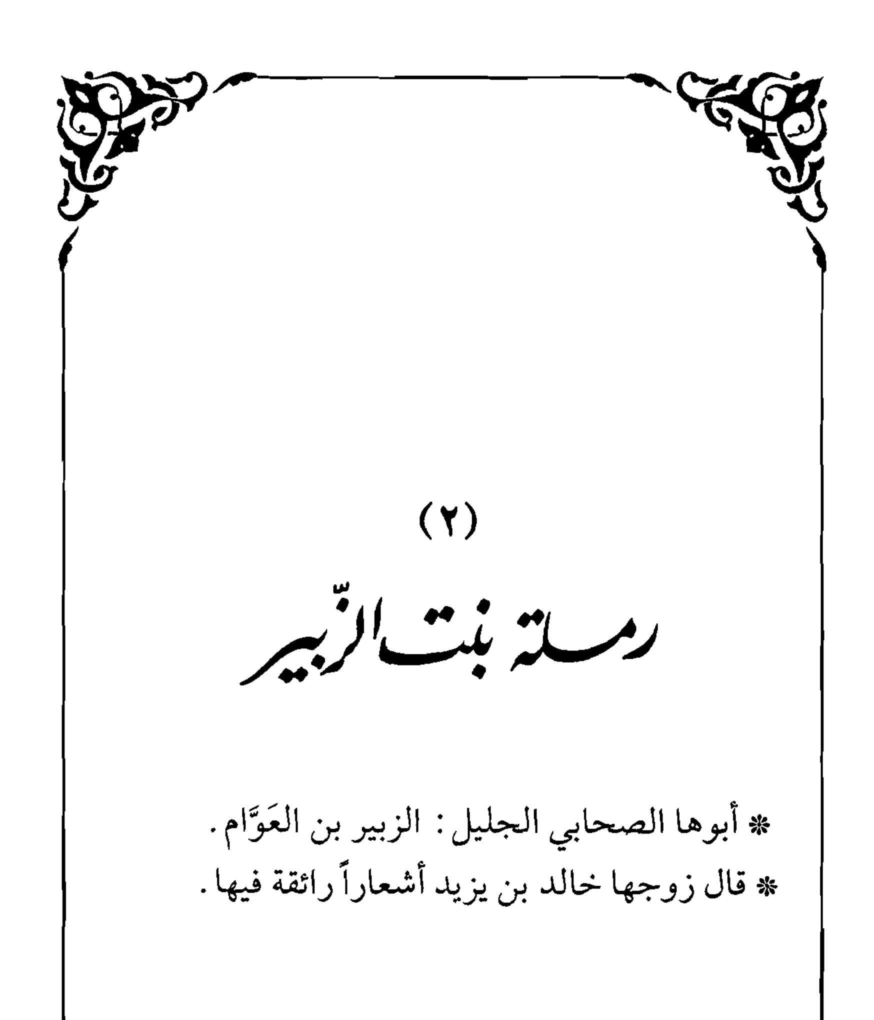
* رحمَ اللهُ حميدةَ ، ورضي عن أَبِيها وجدِّها وجدَّتِها .

* * *

(١) بلاغات النساء (ص٩٧ و٩٨)، والأغاني (٨/ ١٣٥) ، وشاعرات العرب (ص٧٩ و٨٠) وغيرها . و«الجياض» : الرَّدَّاع .

(٢) بلاغات النساء (ص٩٨) ، والأغاني (٨/ ١٣٥) .

(٣) معجم الأديبات الشواعر (ص٢٠٢) ، والدر المنثور (ص١٧٤) ، والأعلام للزركلي ترجمة حميدة .



(٢)

رملة بنت الزّبير

* أبوها الصحابي الجليل : الزبير بن العَوَّام .
* قال زوجها خالد بن يزيد أشعاراً رائقة فيها .

ابْنَـةُ حَـوَارِي رسُـولِ اللهِ ﷺ :

* رملةُ بنتُ الزُّبيرِ بنِ العَوّام الأَسَديّة القُرشيَّة[1] هي ضيفةُ هذهِ الصَّفَحات المباركات.

* ورملةُ هذهِ واحدةٌ منْ بناتِ الصَّحابةِ الأخيارِ الذينَ حلَّقُوا في سمواتِ الفَضْل في العَهْد النَّبوي وبعده.

* فهي حفيدةُ صفيةَ بنتِ عبدِ المطلب عمّةِ النَّبيِّ ﷺ ، وابنةُ ابنها الزُّبيرِ بنِ العوّام الفارسِ المغوارِ ، والبطلِ الكرارِ ، وقامعِ الفُجّار.

* والزُّبيرُ بنُ العوَّام ـ رضوانُ اللهِ عليه ـ أحدُ جَواهِرِ العِقْدِ النَّفيس منَ العَشَرةِ الكرامِ ، المشهودِ لهم بالجنَّة دارِ السَّلامِ ، منَ الحبيبِ المصطفىٰ ﷺ ، وهو حواري[2] الحبيبِ الأعظمِ ﷺ ، وناهيك بهذهِ الصِّفةِ

---

(١) المحبّر (ص٦٧)؛ والكامل في اللغة والأدب (ص٤٤٨ و٤٥٠ و١١٩٣) ، وزهر الآداب (١/ ٣٩٣) ، ومعجم الأدباء (١١/ ٤١) والبداية والنّهاية (٩/ ٨٠) ، والمعارف (ص٢٢١) ، ومنتخبات التّواريخ لدمشق (ص٤٤٢) ، والدّر المنثور (ص٢٠٧ و٢٠٨) ، وأعلام النِّساء (١/ ٤٦١ ـ ٤٦٣) ، والأغاني(٦/ ٢١٩) و(١٧/ ٣٤٠ و٣٤١ و٣٤٢ و٣٤٤ ـ ٣٤٩ و٣٨٠) ، وبلاغات النساء (ص١٨١) ، ونَسب قريش (ص٢٣٣ و٢٣٦) ، وقطوف الريحان (ص٢٢٧) ، وروضةُ المحبّين (ص٢٠٤ و٢٠٥) ونوادرُ المخطوطات (١/ ٦٥ و٦٩ و٧٢) ، ومختصرُ تاريخ دمشق (٦/ ٢٠٥) و(١٣/ ٣٢) و(٢٤/ ٣٢٠) ، وثمارُ القلوب (ص٢٩٠) ، وبلوغُ الأرب (٢/ ٦ و٧) ، وأنساب الأشراف (ص٣٦٠ و٣٦١ و٣٦٤) القسم الرابع ، الجزء الأول ، بتحقيق د. إحسان عباس ـ بيروت ١٤٠٠ هـ.

(٢) «حَواري»: الحَواريُّ النَّاصِرُ المبالِغُ في النُّصْرةِ ، والوزيرُ والخليلُ ، أو ناصرُ الأنبياءِ خاصّة. قال ابنُ منظور ـ رحمه الله ـ: الحوارياتُ منَ النِّساءِ: النَّقيّات الألْوانِ والجلودِ لبياضِهن. والحواريون: صفوةُ الأنبياءِ الذين قَدْ خَلُصُوا لهم. وقال الزَّجَّاج: الحواريون خُلْصَانُ الأنبياءِ ـ عليهم السّلام ـ وصفوتُهم. قال: =

التي جعلت أبا بكر محمّد الصُّوفي ـ رحمه الله ـ ينظمُ أسماءَ العَشَرةِ المبشَّرين بالجنَّةِ ، في بضعةِ أبياتٍ ، ويشيرُ خلالها إلىٰ لقبِ الحواري فيقول :

عَتيقٌ والفَتَىٰ عُمَرُ التَّقيّ ... وعثْمانٌ ومَوْلاَنا عَليّ
وطَلْحةُ وابنُ عَوفٍ وابنُ زَيدٍ ... وسَعْدُ مَنْ بِهم فَخَرتْ لُؤَيّ
كَذاكَ أبو عُبَيدةَ فهو منْهمُ ... ولَيْثُهمُ الحَوَارِيُّ الكَميّ
أُولاَكَ السَّابقونَ إلىٰ المعالي ... فَدَعْ قَوْلَ العَوازِل فَهوَ غَيّ

* منْ هذا الأصلِ الزَّاكي ، ومنْ هذهِ التُّربةِ المُباركة ، انحدرتْ رملةُ بنتُ الزُّبير بنِ العوَّامِ ، لتكونَ واحدةً منْ بناتِ الصَّحابةِ الطَّاهراتِ اللواتي حَفِظَ التَّاريخُ لهنَّ مآثرهُنَّ ، وخُصُوصاً في كَنَفِ زوجِها خالد بنِ يزيد بنِ معاوية بن أبي سفيان ، أحدَ أفرادِ الدَّهْر في المعرفةِ والأَدَبِ والطِّبِّ .

* وأمّا رملةُ فقد احتفظَ لنا التَّاريخُ ببعضِ مناقبها الحِسَان ، إذْ حَبَاهَا اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ العَقْل والفَضْل؛ والفَصَاحةَ والملاحةَ ، بالإضافةِ إلىٰ حُسْنِ المكارمِ والخصائِلِ اللطيفةِ .

= والدَّليلُ علىٰ ذلك قولُ النَّبيِّ ﷺ : «الزُّبيرُ ابنُ عمّتي وحواريّ مِنْ أمّتي» أي خاصّتي منْ أصْحابي وناصِري .
قال : وأصحابُ النَّبيِّ ﷺ حَواريّون ، وتأويلُ الحواريّين في اللغةِ الذين أُخْلِصُوا ونُقُّوا منْ كلِّ عَيْب .
قال : والحواريُّ تأويلُهُ في النَّاسِ : الذي قد رُوجِعَ في اختيارِه مرَّةً بعدَ مرَّةٍ ، فَوُجِدَ نقيّاً منَ العُيوب . قال ابن سِيْده : وكلُّ مبالغٍ في نُصرةِ آخر حواري .
وخصَّ بعضُهم به أنصار الأنبياء ـ عليهم السلام ـ وقوله أنشده ابن دُريد :
بكىٰ بعينِك واكِفُ القَطْرِ ... ابنُ الحَواري العَالي الذّكْرِ
يعني بالحواري الزُّبير ، وعنى بابنه عبد اللهِ بن الزُّبير .
والحواريّ : البَيَّاضُ ، وهذا أصلُ قولهِ ﷺ في الزَّبير «حواري من أمتي» قال شمر : الحواريُّ : النَّاصح ، وأصله الشَّيءُ الخالص ، وكلُّ شيءٍ خَلَص لونُه فهو حواري . (لسان العرب ٤/ ٢١٧ ـ ٢٢٢) مادة حور باختصار وتصرف .

* ذكر البلاذريُّ بعضَ صفاتِها نَقْلاً عن غيرهِ فقال: وكانتْ ـ رملةُ ـ معروفةً بالجزالةِ والعَقْلِ والفَضْل[1].

مـنْ أَخْـبَـار رَمْـلَـةَ وزَوَاجِهَـا:

* ذكرتْ كُتُبُ الأنسابِ والطَّبَقاتِ والأخبار أنَّ رملةَ بنت الزبير هي أختُ مُصْعَب وحمزة لأبيهما وأمّهما[2]، وهؤلاء الثَّلاثةُ أمُّهمُ الرَّبابُ بنتُ أُنَيف بنِ عبيد بنِ مصَاد الكلبّية.

* نشأتْ رملةُ، ونشأ معها نصيبٌ وافرٌ منَ الجمالِ والملاحةِ، ولما بلغتْ مَبْلَغ النِّساء تزوَّجها عثمانُ بنُ عبد الله بنِ حكيم بنِ حزام بن خويلد الأسديّ القُرشي[3]، وهو منْ أقاربِها، إذْ إنَّها من بني أَسد منْ قريش أيضاً.

* وكانَ عثمانُ بنُ عبد اللهِ بنَ حكيم قد قُتِل يومَ الجَمل مع أمِّ المؤمنين عائشة ـ رضوان الله عليها ـ.

* وأمّا عثمانُ فقد كانَ معَ عبدِ اللهِ بنِ الزُّبير ـ رضي الله عنهما ـ بمكةَ، فَقُتِل في الحِصَارِ الأَوَّلِ، وله يقولُ أبو دَهْبَل الجمحيّ:

ونِعْمَ ابنُ أُخْتِ القَومِ عُثمانُ في الوَغَىٰ ... إذا الحَربُ أبْدَتْ نَابَها وهيَ تكْلَحُ
هـو التَّـارِكُ المـالَ النَّفيـسَ حميَّـةً ... وللمـوتِ مـنْ بعْـدِ المعيشـةِ أَرْوَحُ
وجَـادَ بنفـسٍ لا يُجـادُ بمثْلِهـا ... لهـا لَـوْ أَقـرَّتْ غَـزْيـةً متـزحـزحُ

وقد ولَدَتْ رملةُ لعثمانَ بنِ عبد الله ابْنه سعيد بنَ عثمان، فانقرضَ، كما ولدتْ له ابنه عبد الله بنَ عثمان الذي تزوّج سُكينةَ بنت الحسين بن عليّ.

* ولعبد الله بن عثمان يقول أبو دهبل الجمحي، وقد نَوَّه بِذْكرِ أمّه

---

(1) أنساب الأشراف (ص٣٦٢).

(2) نسب قريش (ص٢٣٣)، مختصر تاريخ دمشق (٢٤/ ٣٢٠).

(3) انظر: المحبر (ص٦٧)، ونسب قريش (ص٢٣٣)، والدر المنثور (ص٢٠٧) وغيرها.

رملةَ ، وذكرَ طيْبَ عُنْصرِها وأصلِها فقال[1]:

تَمَطَّتْ بهِ بيضاءَ فَرْعُ نجيبةٍ ... حَصَانٌ وبعضُ الوالدين عُرامُ

* وبعد موتِ عثمانَ بنِ عبد الله ، تزوَّجَها خالدُ بنُ يزيدَ بنِ معاوية[2] ، ومن هنا اشتهرتْ رملةُ في عالم الأَدب.

* ولخالدِ بنِ يزيدَ في رملةَ أشعارٌ رائقةٌ جميلةٌ ، أمّا كيفَ تزوَّج بها خالدٌ ، فلذلك قصَّة شائقة ونعرفُها فيما يلي إنْ شاءَ الله.

رَمْلةُ وَخَالِدُ بنُ يزيدَ:

* قبل أنْ نبحرَ مع هذَيْن العلَمَيْن الكريمَيْن خالدٌ ورملةُ ، دعونا نقف وقفاتٍ وضيئاتٍ مع خالد بنِ يزيد بن معاوية ، هذا الرَّجلُ الذي ملأَ أَسْماعَ التَّاريخِ عِلْماً وأدَباً وفنّاً وفَهْماً ، وقلَّ أنْ يجودَ تاريخُ الرِّجالِ بمثلهِ ، إذْ يمثِّلُ دائرةَ معارفَ متحركةٍ في عَصْرِه.

* ولقد أثنىٰ عليه معاصِرُوه وعَارِفُوه ، ومَنْ بعدهم ، وأسْبَغُوا عليهِ جَلابيبَ المَدْحِ والثَّناء ، اعترافاً بفضله وفَهْمه وعلْمِه.

* فعندما ترجمَ له الذَّهبيُّ ـ رحمه الله ـ قال عنه في مفتتح ترجمته: خالدُ بنُ يزيد بنِ معاوية بنِ أبي سفيان ، الإمامُ البارعُ ، أبو هاشم القرشيّ الأمويّ الدّمشقيّ ، روىٰ عن أبيهِ ، وعنْ دِحْيَةَ الكلبيّ ، ولم يَلْقَه. وعنه روىٰ: رجاءُ بنُ حَيَوة ، وعليُّ بن ربَاح الزُّهري ، وعُبيد اللهِ بن عبّاس. كان موصوفاً بالعِلْمِ وقولِ الشِّعر ، قال أبو زُرعة الدّمشقي: هو وأخوهُ من صالحي القوم[3].

* وقال ابنُ كثير ـ رحمه الله ـ: كان عَالماً شَاعراً ، ويُنْسِبُ إليه شيءٌ منْ

---

(١) نسب قريش (ص٢٣٣) ، ونوادر المخطوطات (١/ ٦٩) و«العرام»: الأذىٰ.

(٢) المحبر (ص٦٧) ، والدر المنثور (ص٢٠٧).

(٣) سير أعلام النبلاء (٤/ ٣٨٢ و٣٨٣).

علمِ الكيمياء ، وكان يعرفُ شيئاً منْ علومِ الطَّبيعة[1] .

* وقَبْل الذَّهبي وابن كثير ، وصَفَه الجاحظُ بأنَّه منْ أعلمِ قريش بفنونِ العِلْم فقال: كانَ خالدُ بنُ يزيد بنِ معاوية خطيباً شاعراً ، فصيحاً جامعاً ، وجيِّد الرَّأي ، كثيرَ الأدبِ ، وكان أوَّلَ مَنْ ترجمَ كُتُبَ النَّجومِ والطِّب والكيمياء[2] .

* ونقلَ ابنُ حجر ـ رحمه الله ـ عن الزُّبير بنِ بكّار قوله: كان خالدُ بن يزيد يُوصفُ بالعلم ، ويقولُ الشِّعر؛ وذكرَه ابنُ حبّان في الثقات؛ وذكر العَسْكريّ أنَّه كان مُولعاً بالكُتُب[3] .

* وذكرهُ ابنُ حجرٍ أيضاً فقال: خالدُ بنُ يزيد بن معاوية بن أبي سفيان الأمويّ ، أبو هاشم الدّمشقي ، صَدُوق مذكورٌ بالعِلْم[4] .

* وقال عنه ابنُ خلّكان: كانَ منْ أعلمِ قُريش بفنونِ العِلْمِ ، وله كلامٌ في صناعةِ الكيمياءِ والطِّبِّ ، وكانَ بصيراً بهذَين العِلْمَيْن ، مُتْقِناً لهما ، وله رسائلُ دالَّةٌ علىٰ معرفتهِ وبراعته[5] .

* وقال المصعبُ الزُّبيري: كان خالدٌ يُوصفُ بالعِلْمِ ، ويقولُ الشِّعْر[6] .

* وتوسَّعَ ياقوتُ الحمويُّ في تعريفهِ خالدَ بنَ يزيد فقال: خالدُ بنُ يزيد بنِ معاوية بن أبي سفيان ، الأميرُ أبو هاشم الأُمويّ ، كان منْ رجالاتِ قُريش المتميّزين بالفَصَاحةِ والسَّماحة وقوّةِ العَارِضةِ ، علاّمةً خبيراً بالطِّبِّ

---

(١) البداية والنهاية (٩/ ٨٠).
(٢) البيان والتبيين (١/ ٣٢٨).
(٣) تهذيب التهذيب (٢/ ٥٤٣ و٥٤٤) ترجمة رقم (١٧٤٨) باختصار.
(٤) تقريب التهذيب (١/ ١٥٤) ترجمة رقم (١٧٤٨).
(٥) وفيات الأعيان (٢/ ٢٢٤)وانظر الوافي بالوفيات للصفدي ترجمة خالد بن يزيد.
(٦) نسب قريش (ص١٢٩).

والكيمياءِ شاعراً. قال الزُّبير بنُ مصعب: كان خالدُ بنُ يزيد بنِ معاوية موصوفاً بالعِلْم ، حكيماً شَاعِراً.

* وقالَ ابنُ أبي حاتم: كانَ خالدٌ منَ الطَّبقةِ الثَّانيةِ منْ تابِعي أهلِ الشَّام ، وقيل عنه: قد عَلِمَ عِلْمَ العربِ والعَجَمِ.

* روىٰ خالدٌ الحديثَ عن أبيهِ ، وعن دحيةَ بنِ خليفةَ الكلبيّ ـ رضي الله عنه ـ ، وروىٰ عنه الزُّهري وغيره.

* وأخرجَ البيهقيُّ والخطيبُ البغداديُّ والعَسْكَريُّ والحافظُ ابنُ عساكر عنه عدَّةَ أحاديث ، فكانَ إذا لم يَجِدْ أحَداً يحدّثهُ حدَّثَ جواريه ، وكانَ منْ صَالِحي القوم[1].

* وقالَ عنه أبو الفرج الأصبهاني: كانَ من رجالاتِ قُريش سَخاءً وعَارضةً وفَصَاحةً ، وكان قد شَغَلَ نَفْسَه بِطَلَبِ الكيمياء ، فأفنىٰ بذلكَ عمره ، وأسْقَطَ نفسه؛ وأمُّ خالد بن يزيد هي أمُّ هاشم بنتُ هاشم بن عتبة بن ربيعة[2].

* وقال عنه البلاذري: كانَ شَاعراً ينظرُ في الكيمياء والنُّجوم وغيرهما منَ العلوم ، وكانَ طويلَ الصَّمت ، فقال مولىٰ له: أرىٰ النَّاس يخوضُون فيما أنتَ أعلمُ به منهم وأنتَ سَاكتٌ؟!

فقال: ويحك ، إنِّي عُنيتُ بطلبِ الأحاديثِ والعِلمِ ، وصحَّحتُ ذلك ، فأخافُ إنْ نشرتُ ذلك أنْ يحفظوه.

فقال: جُعِلْتُ فِداك ، يكفيكَهمُ الله[3].

هذا هو خالدُ بنُ يزيدَ بنِ معاوية ، وتلكم شذراتٌ من أقوالِ العُلماء والمؤرِّخين عنه.

* أمّا رملةُ بنتُ الزبير ، فهي شهيرةٌ في عالم الشَّهيراتِ ، كريمةٌ ، طاهرةٌ ،

---

(١) معجم الأدباء (١١/ ٣٥ ـ ٣٧).

(٢) الأغاني (١٧/ ٣٤٢).

(٣) أنساب الأشراف ، القسم الرابع ، الجزء الأول (ص٣٦٠).

اشتهرتْ في قصيدةٍ لخالد بنِ يزيد ، وطارَ صيتُها في ذِرْوَةِ العَصْر الأموي.

* أمّا قصّةُ زواجِ رملةَ[1] منْ خالدِ بنِ يزيد بنِ معاوية ، فذلك ما ذكرتْهُ المصادرُ بصورٍ مختلفةٍ ، ولكنَّ مضمونَها واحدٌ ، فقد ذكروا أنَّ عبد الملك بنَ مروانَ خطبَها له ، وذلك أنَّ عبدَ الملك قد حجَّ ، ومعَهُ خالدُ بنُ يزيد بنِ معاوية ، وكان خالدٌ هذا منْ رجالاتِ قريش المعدودين ، وكانَ عظيمَ القَدْرِ عند الخليفةِ عبد الملك بن مروان ، وبينما كان خالدٌ يطوفُ بالبيتِ العتيق معَ الطَّائفين ، إذ بَصُرَ برملةَ بنتِ الزُّبير بنِ العوام عن جُنُب وهي لا تشعرُ به ولا بغيرِه ، وعندها وقَعَتْ في نفسهِ وقُوعاً متمكّناً ، وألجَمَتْه بجمالِها[2] ، بعد أنْ سَأَلَ عنها ، فأُخْبِر أنَّها رملةُ بنتُ الزُّبير الأسديّة القرشيّة.

---

(١) يبدو أن رملة كانت أكبر سناً من خالد.

(٢) قالَ أبو العبّاس الشَّريشي ـ رحمه الله ـ متحدّثاً عن الجمالِ ، وعنِ الإعجابِ به منْ قِبَلِ جميع فئات النّاس:
والولوعُ في الجمالِ سجيةٌ ركَّبَها اللهُ في الأولياءِ ، وأكابرِ العُلماء ، فَمَنْ دونَهم منَ السُّوقة والغوغاء ، وعلىٰ قَدْرِ ذكاءِ الأرضِ يطيبُ زَرعُها ، وعلىٰ قَدْرِ طيبِ التُّربة يطيبُ تَبْعُها ، فمنها العَذْبُ والأُجاج وما بينهما ، وعلىٰ قَدْرِ شَرفِ النَّفس يكونُ حبُّها ، فمنه المستحسنُ ومنه المستقبحُ ، «وكلُّ إناءٍ بالذي فيه ينضحُ».
وفي كتاب الوشاح: العشقُ إذا تزيَّنَ بالعفافِ فهو معنىً شريف ، ويتلو قولَه تعالىٰ: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزُّخرف: ٦٧] ، فَمَنِ اتّقىٰ اللهَ فهو خليلٌ...
والحُسنُ أوّلُ سعادةِ المرءِ ، ورائدُ اليُمْنِ ، وسائقُ النُّجح ، لأنَّ اللهَ تعالىٰ بلطفِ الحكمةِ ، وبشرفِ الإبداع والصَّنعة ، لم يخلقْ صورةً مختارةً منَ الصِّفات ، سليمةً منَ الآفاتِ إلاَّ عن فَضْلِ الاحتفاءِ ، ولم يطابقْها منَ الأخلاقِ إلا بما يناسبُ جمالَها منَ العَقْل والصَّفاء ، وقلّما تجدِ الخلقَ إلاَّ تبعاً للخلقة تناسباً يطردُ ، وأصلاً لا ينعكسُ ، وإجماعاً لا ينفردُ ، وما خَلَقَ اللهُ نبيّاً قطّ إلا وقد بَهَرَ أهْلَ زمانِهِ بحسنه وإحسانه ، فإذا نَظَرْتَه لأوَّلِ وهْلةٍ رأيته أحسنَهم صورةً ، وأتقنَهم بيّنةً ، فهو أوْلىٰ مرتبةً ، وأعلىٰ منقبةً. (شرح مقامات الحريري (١/ ٣٨٠ و٣٨١) باختصار. =

* ولما قضىٰ النَّاسُ مناسِكَهم ، ومسَّحَ بالأركانِ مَنْ هو ماسحُ ، وأرادَ عبدُ الملك الرجوعَ إلىٰ دمشقَ الشَّام ، همَّ خالدُ بنُ يزيد بالتَّخلُّف عنه ، فَعجِبَ عبد الملك وبعثَ إليه ، وسأله عمّا اعتراه من أمْرٍ ، فقالَ: يا أميرَ المؤمنين ، ما بي شيءٌ ، إلاَّ أنّني رأيتُ رملةَ بنتَ الزُّبير تطوفُ بالبيتِ فأذهَلَتْ عَقْلي ، واللهِ ما أبديتُ لكَ ما بي حتّى عِيْل صَبْري ، ولقد عرضتُ النَّومُ علىٰ عيني فلمْ تَقْبَلْه ، والسّلو عنْ قلبي ، فامتنعَ منه[1]؛ فأطالَ عبد الملك التَّعجب منْ خالدٍ ، ومما عَراهُ واعتراه ، ونزل به ـ وكان خالدُ عالي الهمّة ، عظيم القَدْر عند عبد الملك ـ وقال لخالد: واللهِ يا خالدُ ما كنتُ أقولُ إنَّ الهوىٰ يستأثرُ مثلَك ويأسره!!

* فقال خالد: وإنّي يا أميرَ المؤمنين لأشدُّ تعجباً من تعجبّكَ منِّي ، ولقد كنتُ أقولُ: إنَّ الهوىٰ لا يتمكَّنُ إلاَّ منْ صنفَيْن منَ النَّاس: منَ الشُّعراءِ؛ أو منَ الأَعْرابِ.

* أمَّا الشُّعراءُ ، فإنَّهم أَلْزمُوا قلوبهَم الفِكْرَ في النِّساءِ ووصفهنّ ، والتغزّل فيهنَّ ، فمالَ طبعهمُ إلىٰ النِّساءِ ، فضعُفَتْ قلوبهُم عنْ دفْعِ الهوىٰ ، فاستسلموا إليهِ منقاديْنَ.

* وأمّا الأعرابُ؛ فإنَّ أحدَهم يخلُو بامرأتهِ فلا يكونُ الغالبُ عليه غير حبِّه لها ، ولا يَشْغَلهُ عنها شيءٌ ، فضعُفُوا عنْ دفْعِ الهوىٰ فتمكَّن منهم.

* وجملة أمري ما رأيت ، نظرةٌ حارتْ وحالتْ بيني وبين الحزمِ ، وحسَّنَتْ عندي ركوبَ الإثم ، مثل نظرتي[2] هذه.

---

(١) وكأنَّ خَالداً يُسامِر النَّجوم السَّائِرات ، ويسايرُ الدَّجاجي والسَّحرات:

يبيــتُ كمــا بــاتَ السَّليــمُ مُسَهَّــداً … وفــي قَلْبِــه نــارٌ تشــبُّ لهــا وقــدُ

(٢) وكأنَّ قولَ الشَّاعر ينطبقُ عليه:

أَلاَ فَلْيقُـل مَـنْ شـاءَ مـا شـاءَ إنَّمـا … يُـلامُ الفتَـىٰ فيمـا اسْتَطـاعَ مِـنَ الأَمْـرِ

قَضـىٰ اللهُ حُبّـاً للمـلاحـةِ فـاصْطَبـرْ … عليـهِ فقـد تَجْـري الأمـورُ علـىٰ القَـدْرِ

وكذلك قول الآخر:

=

فتبسَّم عبد الملك ضاحكاً منْ قولهِ وقال: أوكُلُّ هذا قد بلغَ بكَ يا خالد؟

قال: نعم يا أميرَ المؤمنين وأكثرُ ، واللهِ ما عرتَني هذه البليّة قَبْل وقتي هذا ، و:

قَـدْ لَسَعَـتْ حيَّـةُ الهـوىٰ كَبِـدي فَـــلا طبيـــبَ لَهـــا وَلاَ راقـــي

إلاَّ الحبيـــبُ الــذي شُغِفْــتُ بــهِ فعنْــده رقْيَتـــي وَتِـــرْيَـــاقِـــي

* فتعجبَ عبد الملك ثانيةً منه ، ووجَّهَ يخطبُ رملةَ بنتَ الزُّبير علىٰ خالدٍ ، فذكروا لها ذلكَ ، فقالت: لا واللهِ؛ أو يطلِّق نساءَه ، فطلَّقَ امرأَتَيْن كانتا عنده ، وظعنَ بها إلىٰ الشَّام(١).

* ولكنَّ أحمدَ بنَ طيفور الخراساني ، يذكرُ أنَّ عبد الملكِ بنَ مروان هو الذي خطبَ رملةَ بنتَ الزُّبير بنِ العوّام فردَّتْهُ ، وقالتْ لرسولِهِ: إنِّي لا آمنُ نفسي علىٰ مَنْ قَتَلَ أخي ، وكانتْ أختَ مُصعب لأُمِّه ، كانت أمُّهما الكلبيّة(٢).

* وعند ابنِ كثير ـ رحمه الله ـ قصّةٌ أخرىٰ عنْ زواجِ خالد من رملةَ فيقول: وكان قد تجدَّدَ علىٰ خالدٍ اصفرارٌ وضَعْفٌ(٣) ، فسألَهُ عبد الملك عنْ هذا ، فلم يخبره ، فما زالَ حتىٰ أخبرَه أنَّه من حبِّ رملةَ أختِ مصعبَ بنِ الزُّبير.

= إنْ كُنْتَ تنكـرُ حَالـي والغَـرَام ومَـا ألقـىٰ وإنِّـي لفـي دَعْـوايَ متَّهَـمُ

فالليلُ والويلُ والـتَّسهيدُ يَشْهُد لي والحزنُ والدَّمعُ والأشواقُ والسَّقمُ

(١) روضةُ المحبّين (ص٢٠٤ و٢٠٥) ، وأعلامُ النِّساء (١/ ٤٦١) ، والقصَّة كما يبدو فيها نسْجٌ من خَيال ، واللهُ أعلمُ بحقيقة الحال.

(٢) بلاغاتُ النِّساء (ص١٨١)؛ وهذه روايةٌ تحومُ حولَها الشّكوك ، إذْ لا يُعْقَلُ أنْ تكونَ رملةُ عند عبد الملكِ ، وهي موتورةٌ حيث قَـتَـلَ أخاها مُصْعَباً وأولادَه ، فتأمَّلْ.

(٣) وما أجمل قول الشاعر في هذا المجال:

وعنْـدي شُهـودٌ للصَّبـابـةِ والأَسـىٰ يـزكُّـونَ دَعْـوايَ إذا جئْـتُ أَدَّعـي

سُقَـامـي وتَسْهيـدي وشَـوقـي وأنَّتِـي ووَجْـدي وأشْجـانـي وحُزْنـي وأدمُعـي

فأرسلَ عبدُ الملك يخطبها لخالد ، فقالت : حتّى يطلقَ نساءَه ، فطلقهنَّ ، وتزوَّجها وأنشدَ فيها الشِّعر[1] .

* ويبدو أنَّ الأصبهاني قد أدلىٰ دَلْوه في دِلاء زَواجِ خالد من رملةَ ، وذلك في فَصْل منْ فصول «أغانيه» بعنوان : «ذِكْرُ خالدٍ ورملةَ وأخبارهما» ، إلاَّ أنَّه أَدْخَلَ شخصيّةَ الحجاج بنِ يوسفَ في هذا الزَّواج ، ومن خلالِ هذا التَّدخُّل ، نَجدُ إساءةً واضحةً لسيّدنا معاويةَ ـ رضي الله عنه ـ لا تتناسبُ مع جلالةِ قَدْرِه ، وحُسْنِ صحبتهِ لرسولِ اللهِ ﷺ؛ ويبدو لنا أنَّها مرتجلةٌ مصنوعةٌ ، يقولُ الأصبهاني في ذلك : لما قُتِلَ ابنُ الزُّبير حجَّ خالدُ بن يزيد بن معاوية ، فخطبَ رملةَ بنتَ الزُّبير بن العوّام ، فأرسلَ إليه الحجّاجُ حاجبه عُبيد الله بنَ مَوهب ، وقال له : ما كنتُ أراكَ تخطبُ إلىٰ آلِ الزُّبير حتى تشاورني ، وكيف خطبتَ إلىٰ قومٍ ليسوا لك بأكْفاء ، وكذلك قال جدّك معاوية ، وهم الذين قارعوا أبَاك على الخلافةِ ، ورموه بكلِّ قبيحةٍ ، وشَهِدوا عليه وعلىٰ جدّك بالضَّلالة .

* فنظرَ إليهِ خَالِد طويلاً ، ثمَّ قال له : لولا أنَّك رسولٌ والرَّسولُ لا يُعَاقَب لقطعْتُك إرْباً إرْباً ، ثمَّ طرحتُكَ علىٰ بابِ صاحبك؛ قُلْ له : ما كنتُ أرىٰ أنَّ الأمورَ بلغتْ بكَ إلىٰ أنْ أشاوِرَكَ في خطْبةِ النِّساء!
وأمّا قولُك لي : قَارعُوا أباكَ وشَهِدوا عليه بكلِّ قبيحٍ ، فإنَّها قريشٌ يقارعُ بعضُها بَعْضاً ، فإذا أقرَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ الحقَّ قرارَه ، كَانَ تقاطعُهم وتراحمُهم علىٰ قَدْرِ أحلامِهم وفضْلِهم .

* وأمّا قولك : إنَّهم ليسوا بأكْفَاء ، فَقَاتَلَك اللهُ يا حجَّاج ، ما أقلَّ عِلْمَكَ بأَنْسابِ قُريش ، يكونُ العَوَّام كُفؤاً لعَبْدِ المطّلبِ بنِ هاشم بتزوُّجه صفيّة ،

---

(١) البداية والنهاية (٩/ ٨٠). ويروي البلاذريُّ خبراً آخَرَ طريفاً عنْ زواجِ خالد بن يزيدِ من رملةَ فيقول : كانَ خالدُ قصيراً ، فلمّا خَطبَ رملةَ استقْصَروه ، فبلغَه ذلك ، فجمعَ قوماً قِصَاراً ، ومشىٰ معهم ، ولبسَ قلنسوةً ، فرضيتْ به . (أنساب الأشراف ص٣٦٤) .

وبتزوج رسولِ اللهِ ﷺ خديجةَ بنتَ خويلد ، ولا تَراهُم أهلاً لأَبي سفيان! فرجَعَ الحاجبُ إليهِ فأَعْلَمَه[1] .

* وزادَ البلاذريُّ قوله : فتزوَّجَ خالدٌ رملةَ ، وهي أختُ مُصْعَب بن الزُّبير لأمِّه وأبيهِ ، أمُّها الرَّبابُ الكلبيّة ، وهي ابنة أُنيف بنِ عبيد الله بن مَصَاد بنِ كَعْب بن عُليم بنِ جَنَاب ، وكانتْ قَبْلَه عندَ عثمانَ بنِ عبد اللهِ بنِ حكيم بن حزام[2] .

* وتتعدَّدُ رواياتُ زَواجِ خالد بن يزيد منْ رملةَ ابنةِ الزُّبير ، وتتعدَّدُ الأَخْبارُ والقَصَصُ في ذلكَ ، فيذكر «المبرّد» في «كامله» أنَّ خالدَ بنَ يزيد تـزوَّج نساءً هُـنَّ شرفُ مَنْ هُـنَّ منه ، منهنّ : أمُّ كلثوم[3] بنتُ عبد اللهِ بن جعفرَ بنِ أبي طالب ، وآمنـةُ بنتُ سعيد بن العاص بن أميّـة ، ورملةُ بنتُ الزُّبير بن العوّام ، وفي ذلك يقولُ بعضُ الشُّعراء[4] يحضُّ عبدَ الملكِ عليه :

عَلَيْـكَ أميـرُ المـؤمنيـنَ بخـالـدٍ ... ففـي خَـالِـدٍ عمّـا يـريـدُ صُـدودُ

إذَا مـا نَظَـرنَـا فـي منـاكـحِ خَـالـدٍ ... عـرفْنَـا الـذي ينـوي وأيـنَ يُـريـدُ

* فطلَّقَ آمنةَ بنتَ سعيد ، فتزوَّجها الوليدُ بنُ عبد الملك ، ففي ذلك يقولُ خالد :

فتَـاةٌ أبـوهَـا ذُوا العِصَـابـة وابنـهُ ... وعثْمـانُ مـا أكْفَـاؤُهـا بكَثيـرِ

---

(١) الأغاني (١٧/ ٣٤٤ و٤٣٥) ، والقصَّةُ ـ كما يرىٰ القارىءُ الكريمُ ـ متكلَّفةٌ ، مركبةٌ تركيباً واضحاً لا يخفىٰ علىٰ كل ذي لبّ. وذكر ابنُ كثير ـ رحمه الله ـ أنَّ خالدَ بن يزيدَ كان يبغضُ الحجّاجَ ، وهو الذي أشارَ علىٰ عبدِ الملك لما تزوّج الحجاجُ بنتَ عبد اللهِ بن جعفر ، أنْ يرسلَ إليه فيطلقها ، ففعل. ـ أي عبد الملك وأمر الحجاج بذلك ـ. (البداية والنهاية ٩/ ٨٠).

(٢) أنساب الأشراف (ص٣٦١).

(٣) لم يذكر المصعب الزبيري أن خالد بن يزيد تزوجها. (نسب قريش ص٨٢).

(٤) هو شديد بن شداد بن عامر ، كما في الأغاني (١٧/ ٣٤٩).

فـإنْ تَفْتَلِتْهـا والخـلافـةُ تَنْقَلـبْ　　بـأكـرمَ عِلْقَـي مِنْبـرٍ وسَـريـرِ[1]

* وهكذا تعدَّدَتِ الرِّواياتُ والأقوالُ في زواجِ رملةَ وخالدٍ ، ولكنَّ الذي ترتاحُ إليه النَّفس أنَّ هذا الزَّواج كانَ عادياً مثل زواجِ ذلك العَصْر ، وإنَّ ما قرأناه منْ زياداتٍ هو من صُنْعِ الرُّواة ، وينفيه قولُ خالدٍ نفسِهِ في رملةَ عندما أنْشَدَ من قصيدة :

أَقِلُّـوا عَلـيَّ اللـومَ فيهـا فـإنَّنـي　　تَخَيَّـرتُهـا منهـم زُبَيْـريّـةً قَلْبـا[2]

رمْلَـةُ فـي شِعْـرِ خَـالِـدٍ :

* كانَ خالدُ بنُ يزيدَ منْ رجالاتِ قريش المعدودين ؛ الذين حَبَاهُمُ اللهُ فصاحةَ اللسانِ ، وحكمةَ القولِ ، وجمالَ الشِّعرِ وعذوبتَه ، وسماحةَ الوجهِ واليَدِ ، أُثِرتْ عنه أقوالٌ وأشعارٌ وأفعالٌ تزيدُ منْ رصيدهِ في ديوانِ المكارِمِ والفَضَائِلِ وحسنِ الخصائِلِ ، والسِّماتِ الشَّريفةِ التي جَعَلَتْه منَ المتميّزين بينَ رجالاتِ التَّاريخ .

* فمن أخبارِ جودهِ ونداه ، أنَّه كانَ أميراً علىٰ حِمْصَ ، وهو الذي بنىٰ جامعَ حمص ، وكان له فيه أربعمئة عَبْد يعملون ، فلمَّا فرغَ منه أعْتَقَهُم[3] .

* وكانتْ رملةُ بنتُ الزُّبير تعيشُ في كَنفِه ، وقد عَرَفَتْ خِلالَه وخَصَائِله الكريمةَ هذه ، فازدادتْ تَقْديراً له ، وخُصُوصَاً عندما أجازَ شاعراً بمئةِ ألف درهم ، فقد كانتْ رملةُ كريمةً ، وعاشتْ مع كريمٍ ، وكان شقيقُها مصعبُ بن

---

(١) الكامل (١/ ٤٥٠) ، وانظر قطوف الريحان (ص٢٢٧) ، ويعني بقوله : «ذو العصابة» : سعيد بن العاص ، يقال : إنه كان في الجاهلية إذا اعتم لا يعتمّ قرشي معه . وذلك لمكانته وقدره .

(٢) هذا البيتُ منْ قصيدةٍ جميلةٍ لخالدٍ في رملةَ ـ وستأتي كاملةً إنْ شاء اللهَ ـ ، والمعنىٰ أنَّ لرملةَ ابنةَ الزُّبير صفاتُ النِّساء الحِسَانِ ، ولكنَّ لرملةَ قلباً ليسَ كقلوبهنَّ ، وإنَّما قلبُها كقلوبِ آل الزبير بن العوّام تنفتحُ طهارةً وصلاحاً وحفاظَ عَهْدِ ، وكفىٰ بهذه الصِّفات أنِّي تخيّرتُها .

(٣) البداية والنهاية (٩/ ٨٠) ، وأنساب الأشراف (ص ٣٦٤) .

الزُّبير منَ الأجوادِ المعدودين أيضاً ، وكذلك زوجُها خالدُ بنُ يزيد .

* فقد كان خالدُ ـ رحمه الله ـ جَوَاداً ممدَّحاً ، جاءَه رجلٌ فقالَ له : إنِّي قَدْ قُلْتُ فيك بيتَيْن ، ولستُ أنْشِدُهما إلاَّ بحُكْمِي .

* فقال له : قُلْ ، فَقَالَ :

سَأَلْتُ النَّدىٰ والجودَ حُرَّانِ أَنْتُما ... فَقَالاَ بَلَىٰ عَبْدانِ بينَ عَبيدِ
فقُلْتُ ومَنْ مَوْلاكُما فَتَطَاوَلاَ ... عَليَّ وَقَالاَ خَالِدُ بنُ يزيدِ

فقالَ له : تَحَكَّمْ ؛

فقالَ : مئةُ ألف درهم .

فأمَرَ له بها[1] .

* وكانَ لخالد كلماتٌ سائراتٌ ، ونفحاتٌ رائعاتٌ ، تشيرُ إلىٰ ما آتاهُ اللهُ منْ حكمةٍ وفَصْلِ خطابٍ ، منْ ذلكَ أنَّه قيل له : ما أقربُ شيءٍ؟

قال : الأَجَلُ .

قيل : فما أرْجَىٰ شيء؟

قال : العَملُ .

قيل : فما أوحش شيءٍ؟

قال : الميّت .

قيل : فما آنَس شيء؟

قال : الصَّاحب المؤاتي[2] .

ومنْ بدائعِ حكمتهِ أيضاً أنَّه قيل له : ما الدُّنيا؟

---

(١) انظر : معجم الأدباء (١١/ ٣٧) ، والبداية والنهاية (٩/ ٨٠) ، وسير أعلام النبلاء (٤/ ٣٨٣).

(٢) البيان والتبيين (٣/ ١٥٦) ، وسير أعلام النبلاء (٤/ ٣٨٣) ، ومعجم الأدباء (١١/ ٣٩).

قيل: ميراثٌ.

قيل: فما الأيّام؟

قال: دُوَلٌ.

قيل: فالدَّهْرُ؟

قال: أطْباق[1]، والموتُ يكمِّلُ سبيلَه، فليحذرِ العزيزُ الذُّلَّ، والغنيُّ الفَقْر، فكم عزيزٍ قَدْ ذَلَّ، وكم منْ غني قد افْتَقَر[2].

* وقال في الخسَارةِ الحقيقةِ للرِّجال: إذا كانَ الرَّجلُ مُمارياً لجوجاً[3] مُعْجَباً برأيهِ فقد تمَّتْ خَسَارتُه[4].

* ولمّا لزمَ بيتهُ قيل له: كيفَ تركتَ النَّاس ولزمْتَ بيتَك؟ قال: هلْ بقيَ إلاَّ حاسدُ نعمةٍ، أو شامتٌ بنكبةٍ[5].

* أمَّا أشعارُ خالدٍ فكثيرةٌ، ومنْ أشهرِها ما قال في زوجتهِ رملةُ بنتُ الزُّبير، ولكنَّ تاريخَه الوضيءُ احتفظَ لنا بأشعارٍ جميلةٍ له، فقد قالَ شعراً في حقِّ عاليةَ أختِ عمرَ بنِ عبد العزيز وكانت تحته، وهي التي يُنسبُ إليها سُوقُ عاليةَ المشهور في دمشقَ في ذلك الوقْتِ، ولم يُعْلَمْ مكانهُ اليوم[6].

* ومنْ محاسنِ شعره، بل منْ محاسِنِ الشِّعر:

فأُقْسِمُ ما زَيَّنْتُ كفِّي لريْبَةٍ ... ولا حَمَلَتْني نَحْوَ فاحِشَةٍ رجْلي
ولا قَادَني سَمْعِي ولا بَصرِي لِها ... ولا دلَّني رأيي عليها ولا عَقْلي

---

(١) «أطباق»: جمع طبق: والمراد به: الحال.
(٢) معجم الأدباء (١١/ ٤٠).
(٣) «ممارياً»: مجادلاً، و«لجوجاً»: متمادياً في الخصومة.
(٤) سير أعلام النبلاء (٤/ ٣٨٣)، ومعجم الأدباء (١١/ ٤٠).
(٥) معجم الأدباء (١١/ ٤٠).
(٦) انظر: منتخبات التواريخ لدمشق (ص ٤٤٢ و٤٤٣).

وأعلـمُ أنّـي لـمْ تصبْنـي مصيبـةٌ   مِنَ الدَّهْر إلاَّ قَدْ أَصَابت فتىً مثلي[1]

* ومن جميلِ شعره وبديعهِ في الموتِ قوله:

أَتَعْجَـبُ أنْ كُنْـتَ ذَا نعْمَـةٍ   وأنَّـكَ فيهـا شَـريـفٌ مَهيـبْ
فكـمْ وَرَدَ المـوتَ مِـنْ نـاعـمٍ   وحـبُّ الحيـاةِ إليـهِ عَجيـبْ
أَجَـابَ المنيـةَ لمّـا دَعَـتْ   وكـرهـاً يُجيبُ لَهـا مَـنْ يُجيـبْ
سَقَتْـه ذَنُـوبـاً مـن أنْفَـاسِهـا   ويُـذْخَـرُ للحـيّ منهـا ذَنُـوب[2]

* وقالَ في العَمَلِ ليومِ القيامَةِ:

إِنْ سَرَّكَ الشَّرفُ العظيمُ معَ الغِنَىٰ   وتكـونُ يـومَ أشـدَّ خـوفٍ وَائِـلا
يومَ الحسابِ إذا النُّفوسُ تَفَاضَلَتْ   في الوَزْنِ إذْ غَبَطَ الأَخَفُّ الأَثْقَلا
فاعْمَلْ لِما بَعْدَ المَماتِ ولا تَكُنْ   عنْ حظِّ نَفْسِك في حياتِك غَافِلا[3]

* وأمَّا شعرهُ في رمْلَةَ فمشهورٌ سائِرٌ في المصادِر، وهو منَ الشِّعْرِ الجيِّد الجميلِ، وممَّا قال في رمْلَةَ، وحُفِظَ في بطونِ الكُتُب وفي ثنَايا الأَذْهان قوله:

أَليسَ يـزيـدُ السَّيـرَ فـي كـلِّ ليلـةٍ   وفـي كـلِّ يـومٍ مـنْ أحبّتِنَـا قُـرْبَـا
أحنُّ إلىٰ بنتِ الزُّبير وقَدْ عَدَتْ   بِنا العيسُ خُرقاً من تِهامةَ أو نَقْبَا
إذا نـزلَـتْ أرضـاً تحبِّـبُ أَهْلَهـا   إلينـا وإنْ كـانَـتْ منـازلُهـا حَـرْبـا
وإنْ نَـزلَـتْ مـاءً وإنْ كـانَ قَلبُهـا   مَليحـاً وجَـدْنـا مـاءَه بـارداً عَـذْبـا
تجـولُ خَـلاخيـلُ النِّسـاءِ ولا أرىٰ   لـرمْلَـةَ خلخَـالاً يجـولُ ولا قَلْبـا
أَقِلُّـوا علـيَّ اللـومَ فيهـا فـإنَّنـي   تخيّـرتُهـا منهـم زبيـريـةً قَلْبـا[4]

---

(١) المصدر السابق نفسه.
(٢) معجم الأدباء (١١/٤٠)، و«ذنوب»: بفتح الدال: الدلو العظيمة المملوءة، والمراد: أذاقته مرارتها.
(٣) انظر: معجم الأدباء (١١/٤٢). ومعنى «وائلاً»: لاجئاً إلىٰ الشَّرف والغنى فينجيانك.
(٤) ذكر البلاذري أن هذا البيت يروىٰ علىٰ النحو التالي: =

أحــبُّ بنــي العــوّامِ طــراً لحبِّهــا ومنْ حُبِّها أحْبَبْتُ أخوالَها كَلْبا[1]

* ويبـدو أنَّ صيـتَ هـذهِ الأبيـاتِ قَـدْ طـارَ فـي الآفـاقِ ، وسمعَهـا

= لمــا رأيــتُ العِتْــقَ فيهــا مبيّنــاً تَـنَخَّلتُهــا منهــم زبيــريــةً قَلبــا

ويُروىٰ أيضاً :

تخيّــرتُهــا مــنْ ســرِّ قــومٍ كــريمــةً مــوسَّطــةً فيهــم زبيــريــةً قَلْبــا

(1) انظر هذه الأبيات ـ أو بعضها ـ في الأغاني (١٧/ ٣٤٥ و٣٤٦) ، وأنساب الأشراف (ص٣٦١) ، ومحاضراتِ الأدباء (٢/ ٥٣) ، ومعجم الأدباء (١١/ ٤١) ، وزَهْر الآداب (١/ ٣٩٣) ، والكامل للمبرّد (١/ ٤٥٠) ، ومنتخبات التَّواريخ لدمشق (ص٤٤٢) ، ووفيات الأعيان (٢/ ٢٢٤ و٢٢٥) ، والدُّرِّ المنثور (ص ٢٠٨) ، وقطـوفِ الـرَّيحـان (ص٢٢٧) ، والمعـارف (ص٢٢١) ، وروضـة المحبّيـن (ص٢٠٥) ، وأعلام النِّساء (١/ ٤٦٢ و٤٦٣) وغيرها كثيرٌ جداً لا يكاد يُحْصَر.

ومعنى «خِرقاً» : الخِرقُ : الفَلاةُ الواسعةُ . و«نَقْباً» : النَّقب : الطَّريقُ في الجبل .

«المَليْح» : الملحُ ضدُّ العَذْب .

و«الخلاخيلُ» الخَلْخَال : حليةٌ كالسِّوارِ تلبسُها النِّساء في أرجُلهنَّ ، والجمعُ خلاخيل . وقد كانتِ المرأةُ في السَّابق تزيّنُ ساقَيها بالخلاخيل ، وكان لصوتِ الخلاخيلِ التي تلبسُها المرأةُ في رجليها أو ساقيها أثرٌ في إظهار جمالها ، وإبرازِ زينتها . وكانتِ المرأةُ تَعْمدُ إلىٰ إخراجِ مثل هذا الصَّوت لتباهي وتفاخر بأنّها صاحبةُ زينةٍ واهتمامٍ بأمورِ الجَمال ، وكان لهذا الصَّوتِ أثرهُ في إغراءِ الرِّجال وإلهابِ مشاعرهم ، ولهذا نهى القُرآن الكريم عنه في قولهِ تعالىٰ : ﴿ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ﴾ [النور : ٣٢] .

هذا وكثرتْ أقوالُ الشُّعراء في الخلاخيل ، ومنها قولُ أبي تمام الطائي :

مَهَـا الـوحْـشِ إلاَّ أنَّ هـاتَـا أوانـسٌ قَنَــا الخــطِّ إلاَّ أنَّ تلــكَ ذَوابِــلُ

منَ الهيفِ لو أنَّ الخلاخيل صُيِّرَتْ لَهـا وُشُحاً جَالـتْ عليهـا الخـلاخـل

وقال ابن أبي زُرعة الدّمشقي :

استكْتَمــتْ خَلْخَــالَهــا ومشَــتْ تحــتَ الظَّــلام بــه فَمــا نَطَقَــا

حتَّــى إذا ريــحُ الصَّبــا نَسَمــتْ مــلأَ العبيــرُ بسيــرِهــا الطُّــرقــا

و«قُلْبا» : القلب : سِوَارُ المرأة؛ ويريدُ خالدُ بنُ يزيد هنا أنّ ساقَها مليئةٌ ، ويدَها عَبْلةٌ سمينةٌ ، فلا سبيلَ أنْ تجولَ الخلاخيلُ والحليُ فيها .

عبدُ الملكِ بنِ مروانَ وأُعْجِبَ بها ، إلاَّ أنَّ بعضَ المُغرضين زادَ فيها بيتاً في آخرِها فقال :

فـإنْ تُسْلمـي نُسْلِـمْ وإنْ تَتَنصَّـري تَخُـطُّ رجـالٌ بيـنَ أَعْينِهـم صُلْبَـا

فقالَ له عبدُ الملك : تنصّرتَ يا خالد؟

قالَ : وما ذاكَ يا أميرَ المؤمنين؟

فأنشدَهُ عبدُ الملك :

فـإنْ تُسلمـي نُسْلـمْ وإنْ تَتَنصَّـري تَخُـطُّ رجـالٌ بيـنَ أَعينهـم صُلْبـا

فقالَ له خالدٌ : علىٰ مَنْ قالَه ومن نَحَلْنِيْهِ لَعْنَةُ اللهِ[1] .

* وبهذا الحبّ المتميّزِ خلَّدَ خالدُ بنُ يزيدَ ـ رحمه الله ـ رملةَ بنتَ الزُّبيرِ ، بعد أنْ كانَ خالدٌ نَفْسُه لا يودُّ القُربَ منْ آلِ الزُّبير .

* حكي عنه أنَّه قالَ عنِ سَبَبِ حبِّه لآلِ الزُّبير : كان أبغضُ خَلْقِ اللهِ ـ عزَّ وجلَّ ـ إليَّ آلَ الزُّبير ، حتّى تزوَّجتُ منْهم رملةَ ، فصاروا أحبَّ خلقِ اللهِ ـ عزَّ وجلَّ ـ إليَّ وفيها أقول :

أحـبُّ بنـي العَـوَّامِ طـرّاً لأَجْلِهـا ومنْ أجلِها أحبَبْتُ أخوالَها كَلْبا[2]

---

(١) الأغاني (١٧/ ٣٤٦) بتصرف يسير؛ وانظر : قطوف الريحان (ص٢٢٧ و٢٢٨). ويبدو أن قصة هذا الحب والعشق ، عشق خالد لرملة إحدىٰ النوادر الرائعة في الأدب العربي .

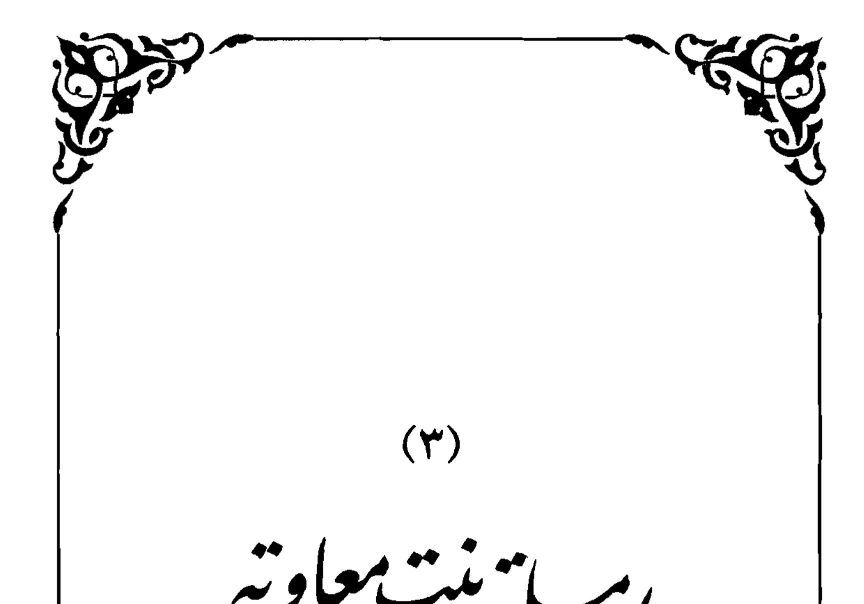
(٢) انظر : بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب للآلوسي (٢/ ٦ و٧). وقد ذكر الآلوسي ـ رحمه الله ـ مقاصد العرب منَ الزواج فقال :
لم تزلِ العربُ تجتذبُ البُعَدَاءَ ، وتتألَّفُ الأعداءَ ، بالمُصاهرةِ حتّى يرجعَ المنافرُ مؤانساً ، ويصيرَ العدوُّ موالياً ، وقد يصيرُ للصِّهر بينَ الاثنين ألفةٌ بين القبيلتَيْن ، وموالاةٌ بين العشيرتَيْن ، وإنّما كانتْ سبباً منْ أسبابِ الألفةِ لأنَّها استحداثُ أصْلِهِ ، وتمازجُ مناسبةٍ صَدَرَا عن رغبةٍ واختيار انعقدا علىٰ خيرٍ وإيثار ، فاجتمعَ فيها أسبابُ الألفةِ وموادُّ المُصَاهرة .
ويقولُ الآلوسيُّ أيضاً : ولذلكَ قيل : المرء علىٰ دِيْن زوجتهِ ، لما يستَنْزِلُها الميلُ =

* وهكذا عاشتْ رملةُ معززةً مكرمةً عند خالدِ بنِ يزيدَ الذي وافَتْه المنيةُ سنة (٩٠ هـ) ، أمّا رملةُ فقد بَخِلَتْ علينا المصادِرُ بكثيرٍ من أخبارها ، فلا نعلمُ عَنْ حياتِها إلاَّ شَذَرات كما رأينا ، ولا نعرفُ عن أحوالِها شَيئاً بَعْدَ وفاةِ زوجها خالدِ بنِ يزيد ، ولكنَّا حاولنا قَدْرَ الإمْكان إعطاءَ صورة طيِّبة عنْ سيرتها حَسبَ ما تيسَّرَ لنا منْ مصادرَ؛ لذلك لا نعلمُ بالتَّحديدِ متىٰ كانت وفاتُها ، إلا أنَّ أغلبَ الظَّنِّ كانتْ بنهايةِ القرنِ الهجري الأول.

* رحم الله رملةَ بنتَ الزُّبير بن العوّام ، وأدخلها الجنَّةَ دارَ السَّلام.

* * *

= إليها منَ المتابعةِ ، ويجتذبُه الحبُّ لها منَ الموافقةِ ، فلا يجدُ إلى المخالفةِ سبيلاً ، ولا إلىٰ المباينةِ والمشَّاقَّة طريقاً ، ولما في النِّكاح من حصولِ الأُلْفةِ أكثرتِ العربُ منَ النِّساء. (بلوغ الأرب ٢/ ٦ و٧).



(٣)

رملة بنت معاوية

* فصيحة ، بليغة ، من ذوات الرأي الجزل ، والذكاء الألمعي ، والنباهة ، والفطنة .

ذِرْوَةُ الحَسَبِ والشَّرفِ:

* هي ابنةُ صحابيٍّ كريمٍ، وزوجُ ابنِ صحابي كريم، بل هي ابنةُ صحابي، وحفيدةُ صَحابي، وجدَّتُها لأَبيْها صحابيّةٌ جليلةٌ، وأبو زوجهَا حَسيْبٌ شريفٌ كريمٌ حَييٌّ جَوَادٌ سَمْحٌ بشّره رسولُ اللهِ ﷺ بالجنَّةِ، بل إنَّ عمَّتَها إحدىٰ أُمَّهات المؤمنينَ، وإحدىٰ نساءِ أَهْلِ البيتِ الطَّاهراتِ اللواتي كُنَّ زوجاتِ رسولِ الله ﷺ، وأمَّهات المؤمنين.

* وقد بلغتْ هذه الابنةُ في مرحلةِ حياتِها ذروةَ المجدِ، إذا كانْ أبوها أميرَ المؤمنين وخليفةَ المسلمين، وكذلك أخُوها كان أيضاً أميراً للمؤمنينَ. وكان العزُّ والشَّرفُ يحفُّ بها منْ كلِّ جانب، عاشتْ عزيزةً، ترفلُ في أرديةِ المجْدِ، ولكنَّه لم يغبْ عن وعْيها، أنَّها سليلةُ آباءٍ كرامٍ، شهدوا صحبةُ رسولِ اللهِ ﷺ، وحظُوا بمعيّتِهِ، فكانوا ممنْ قالَ اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ فيهم: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ [الفتح: ٢٩].

* ومع هذَا وذاكَ لم تَخْلُ سِيْرتُها منْ عَبَثِ الرُّواةِ، وأهواءِ بعضِ الأخباريين، وجعلُوها ممن يُتَغزَّلُ بها، في وقتٍ كانَ أبوها حاكمَ الدُّنيا، وأميرَ المؤمنين، وله مكانتهُ في عالَم الصَّحابة الأبرارِ الكرام!

* أمَّا ابنته فهي رملةُ بنتُ أبي سُفيان الأمويّة القرشيّة[١]، إحدىٰ بناتِ الصَّحابةِ اللواتي كانَ لهنَّ في تاريخِ الإسلامِ نصيبٌ، وكان لهنَّ مساحةٌ

---

(١) نسب قريش (ص ١٠٩ و١١٠ و١١٣ و١٢٨)، والأغاني في مواطن متفرقة (١/ ٢٦٧) و(٣/ ٣٥٢) و(١٣/ ٢٨٦) و(١٥/ ١٠٣ و١٠٧) و(١٦/ ٤٢ و٤٣) و(١٧/ ٢١٣)، والمعارف (ص٣٥٠)، وأعلام النساء (١/ ٤٦٦ ـ ٤٦٩)، وأنساب الأشراف؛ القسم الرابع، الجزء الأول (ص٦ و٤٦ و٥٨ و٦٥ و٦٦ و٧٣ و١٠٨ و١٥١ و١٥٣ و١٥٥ و١٥٧ و٢٨٥ و٦٠٢)، والبداية والنهاية (٨/ ١٥٧)، وتاريخ دمشق (تراجم النساء ص٩٥ ـ ٩٩)، والمحبر (ص٥٧)، وتاريخ القضاعي (ص٣٢٧)، ومختصر تاريخ دمشق (٥/ ١٥٢) و(١٤/ ٢٣١ و٢٣٢) و(٢٧/ ١٩٢)، والكامل في التاريخ (٤/ ٨).

واسعةٌ بينَ بناتِ الصَّحابة في خيرِ القرونِ.

* وأمُّ رملةَ اسمُها كنود بنتُ قرظةَ[1] ، أختُ فاختةَ بنت قرظة بن عبد عمرو بنِ نوفل بن عبد مناف القرشيّة. ولما غـزَا معاويةُ ـ رضي الله عنه ـ قُبْرس[2] ، كانت زوجُه كنود معه ، وماتتْ هناك[3] ، فَكُتِبَتْ مَعَ الغازياتِ اللواتي حظينَ بهذا الشَّرفِ الوافي العظيم؛ وكان ممن حظيَ بالشَّهادة أيضاً في غزوةِ قبرصَ الصَّحابيةُ الجليلةُ أمّ حرام بنت مِلْحان ، حيثُ خرجتْ مع زوجها عبادةَ بن الصَّامت الأنصاريَّ غازيةً في البَحْرِ في إمارةِ معاويةَ بنِ أبي سُفيان ـ رضي الله عنهما ـ في خلافةِ عثمانَ بنِ عفَّان ـ رضوان الله عليه ـ ، فلمّا وصلُوا جزيرةَ قبرص ، خرجتْ منَ البحرِ ، فقُرِّبَتْ إليها دابّةٌ لتركبَها ، فصرعَتْها فماتتْ ، ودُفنتْ في قبرص سنة (٢٧ هـ) ، وكانَ النَّبيُّ ﷺ قد بشَّرها من قبل بالشَّهادة[4] .

* هذا وقد كانتْ رملةُ بنتُ معاويةَ واحدةً منْ فصيحاتِ بناتِ قُريْش ونسائِهنَّ ، وواحدةً من بليغاتِ بناتِ الصَّحابةِ اللواتي حلَّقْنَ في سَماءِ الفضيلَة ، وكُنَّ منْ ذواتِ الرَّأْيِ الجزْلِ ، والذَّكاءِ ، والنَّظرِ في عواقبِ الأُمور ، كما كانتْ ذات نباهةٍ وفطنةٍ ، تعرفُ كيفَ تتصرَّفُ في الأوقاتِ المُناسبةِ ، وفي الأَسْطُرِ التَّاليةِ نعرفُ شيئاً عن ذكاءِ رملةَ بنتِ معاويةَ ، وكيف كانت تحسنُ التَّصرُّفَ في الوقتِ المُناسب.

ذَكَـاؤُهَـا وفِـطْنَـتُـهَـا:

* كانـتْ رمـلةُ بنـتُ معاويـةَ متزوِّجـةً منْ عمرو[5] بنِ عثمان بنِ عفَّان ،

---

(١) نسب قريش (ص١٢٨) ، وذكر الطَّبري وابن الأثير أنَّ اسمها «كتوة».

(٢) «قبرس»: الجزيرة المعروفة الآن باسم قبرص.

(٣) انظر: نهاية الأرب (٢٠/ ٢٧٥).

(٤) اقرأ سيرة هذه الصحابية الجليلة أم حرام بنت ملحان في موسوعتنا الشهيرة «نساء مبشرات بالجنة» (١/ ٧٣ ـ ٨٩) طبعة دار ابن كثير الثالثة ١٩٩٦ م.

(٥) عمرو بنُ عثمانَ بنِ عفَّان الأمويّ ، قيل: يُكنى أبا عثمان ، روىٰ عن أبيهِ وعن =

ويظهرُ أنَّ هذا الزَّواجَ كان بُعيدَ سَنة (٤١ هـ) ، حيثُ زوَّجَها أبوها معاويةُ ـ رضي الله عنه ـ منْ عمرو بنِ عثمان بعد أنْ أصبحَ أميراً للمؤمنين وخليفةً لهم؛ وقد كان هذا الزَّواجُ ميموناً ، حيثُ ولدتْ رملةُ لعمرو ولدين هما: عثمان وخالد ابنا عمرو ، وكانا منْ خيارِ النَّاس وفضلائِهم.

* كانت رملةُ امرأةً نبيهةً ذكيةً ، وكان زوجُها عمرو بنُ عثمان أكبرَ ولَدِ عثمانَ الذين أعْقبوا[1]؛ وكان لرملةَ موقفٌ مشهورٌ منْ مروانَ بنِ الحَكَم الذي كان يزورُ زوجَها عمراً ، ويذكرُ مكانةَ رجال آبائهِ وكثرتهم علىٰ رجال آباءِ معاوية ـ رضي الله عنه ـ.

* وقصَّةُ ذلك الموقفِ الذّكي ، قد حكَاهُ المصعبُ الزُّبيري قال: اشتكىٰ عمرو بنُ عثمان من مرضٍ أَلَمَّ به ، فألزَمه ذلك المرضُ الفراشَ؛ وكان العُوَّادُ يدخلونَ عليه يعودونه ، ويسألونَ عن حالهِ ، ثمَّ يخرجون؛ وكان يدخلُ فيمن يدخلُ مع العُوَّادِ مروانُ بنُ الحكم ، فيمكثُ عنده ، ويطيلُ الجلوسَ ، ولا يخرجُ معَ غيرهِ منَ النَّاسِ ، فنُميَ خيرُ تخلُّفه لرملةَ بنتِ معاويةَ ، فأوجستْ خيفةً في نفسِها منه ومن جلوسِه؛ وأخذتِ الأفكارُ تجولُ برأسِها ، والتَّساؤلاتُ الكثيرةُ تتراقصُ أمامَ مخيّلتِها ، وراحتْ تفكِّرُ في السِّرِّ الذي يجعلُ مروانَ يطيلُ الجلوسَ ، فجلوسُه الطَّويلُ ليسَ من أجْلِ مرضِ زوجها عمرو ، ولعلَّ ذلك لأَمْرٍ يُبيِّته في نَفْسِه.

= أسامةَ بن زيد ـ رضي الله عنهم جميعاً ـ.
وعنه: ابنهُ عبدُ الله ، وعليُّ بنُ الحُسين ، وسعيدُ بنُ المسيب ، وأبو الزِّناد.
ذكره ابنُ سَعْد في الطَّبقةِ الأولىٰ وقال: كانَ ثقة وله أحاديثُ وقال العجلي: مدنيٌّ ، ثقةٌ ، منْ كِبَار التَّابعين.
وقال الزُّبيرَ بنُ بكّار: كانَ أكبرَ وَلَدِ عثمان الذين أَعْقبُوا.
قال ابنُ حجر ـ رحمه الله ـ: قلتُ: وذكرَ الزُّبيرُ أنَّ معاويةَ زوَّجه لمّا وَلَي الخلافةَ ابنته رملة ، وذكره ابنُ حبّان في الثِّقات. (تهذيب التّهذيب ٦/ ١٨٥ و١٨٦) ترجمة رقم (٥٢٤٩).

(١) نسب قريش (ص١١٠).

* وهَداهَا تَفكيرُها إلىٰ طريقةٍ لطيفةٍ لمعرفةِ خَبايا ما يخفيهِ مروان ، ومن ثمَّ تهتدي إلىٰ سرِّ جلوسهِ الطَّويلِ المريبِ عند زوجها ، هنالك خرقتْ كوَّةً منْ غرفتها التي تجاورُ غرفةَ زوجها ، كيما تسمعَ ما يتكلَّمُ به مروانُ من دون أن يشعرَ بها أحدٌ.

* ولما دخلَ مروانُ بن الحكم مع العُوَّادِ ، وكالعادةِ خرج جميعُهم عدا مروانَ؛ وإذ ذاك اقتربتْ رملةُ بهدوءٍ وحذَرٍ من الكوّةِ ، فاستمعتْ لما يقولُ مروان ، وإذا هو يقولُ لزوجِها عمرو بن عثمان: يا عمروُ ، ما أخذَ هؤلاء ـ يعني بني حرب بن أميّة ـ الخلافةَ إلا باسمِ أبيكَ ، فما يمنعُك أنْ تنهضَ بحقِّكَ؟ فَلَنَحْنُ ـ والله ـ أكثرُ منهم رِجَالاً! منّا فلانٌ ، ومنهم فلانٌ؛ ومنّا فلانٌ ، ومنهم فلانٌ. حتى عدَّدَ رجالاً ، ثمَّ قال: ومنّا فلان وهو فَضْلٌ ، وفلان فَضْلٌ؛ فعدَّدَ فضُول رجالِ بني أبي العاصي علىٰ رجال بني حرب.

* سمِعَتْ رملةُ هذا الكلامَ الخطيرَ من مروانَ ، فأَسَرَّتْ ذلك في نفسِها ، ولم تُبْدِهِ لزوجها ، ولا لولديْهَا ، ولا لأحدٍ ممن حولَها ، وعلمتْ أنَّ في نَفْسِ مروانَ بنِ الحكمِ أشياءَ ، ولكنَّها صبرتْ ، وسكَتَتْ حتى تستطيعَ إخبارَ أبيها بهذا الحديثِ الخطيرِ من مروانَ ، وأخذتْ تفكِّر كيفَ توصلُ لأبيها هذا الحديثَ ، إلىٰ أن جاءتِ الفرصةُ المناسبةُ ، فتوجَّهتْ إلىٰ الشَّام ، ونقلَتِ الخبر لأَبيها ، فكيف كان ذلك؟

أطلَّقَكِ زَوْجُكِ يا رمْلَة؟

* لما برأَ عمرو بنُ عثمانَ زوجُ رملةَ من مرضِهِ ، وتماثلَ للشِّفاء ، كانَ موعدُ الحجِّ قد اقتربَ ، فتجهَّزَ للحجِّ ، وأعدَّ له العُدَّةَ ، وتجهَّزَتْ رملةُ في جِهَازِهِ ، كأنَّها تريدُ الحجَّ معه ، فلمّا خرجَ عمرو بنُ عثمان إلىٰ أداءِ فريضةِ الحجَّ ، خرجت رملةُ إلىٰ أبيها معاويةَ ، فقدِمَتْ عليه الشَّامَ.

* وعجبَ معاويةُ ـ رضي الله عنه ـ منْ قدومها عليه في موسمِ الحجِّ ، وظنَّ أنَّ هناك أمْراً قد حزَبَهَا ، فقال لها: مالك يا بنية؟ هل منْ شيءٍ؟

* قالت رملةُ: لا شيء يا أبي ، ثمَّ إنَّها ركَنَتْ إلىٰ الصَّمت. فقال معاويةُ وقد ظنَّ أنَّ زوجها قد طلَّقَها أو أهانَها: يا بُنية أطلَّقَكِ زوجُك[1]؟

قالت رملةُ: لا يا أبتِ ، هو ضنينٌ بي.

فقال معاويةُ: إذاً ما دهاكِ يا بنية؟

* وعندها راحتْ رملةُ تقصُّ القَصَصَ علىٰ أبيها ، وأخبرتْهُ بما تكلَّم به مروانُ بنُ الحكم لزوجها عمرو بنِ عثمان حَرْفاً حَرْفاً ، وكلمةً كلمةً ، ثمَّ قالت: يا أبتِ ما زالَ يعدُّ فَضْل رجالِ أبي العاصي علىٰ بني حَرْب ، حتى عدَّ ابنيّ عثمانَ وخالداً ابنا عمرو ، فتمنَيْتُ أنَّهما ماتا[2].

فقال معاويةُ ـ رضي الله عنه ـ: يا بُنية ، آلُ أبي سفيان أقلَّ حظّاً في الرِّجال من أنْ تكوني رجُلاَ ، فلا تخافي ولا تحزني.

ثمَّ إنَّ معاويةَ ـ رضي الله عنه ـ كتَبَ إلىٰ مروانَ هذيْن البيتَيْن ، وذيّلهما بكلامٍ فقال:

أَوَاضِعُ رجْلٍ فوقَ أُخْرىٰ يعدُّنا ... عَديدَ الحصىٰ ما إنْ تزالُ تكاثَرُ
وأمّكُمُ تُزجي تُؤاماً لِبَعْلِها ... وأمُّ أخيكم نَزْرَةُ الوُلْدِ عَاقِرُ

* أشهدُ يا مروان ، أنِّي سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «إذَا بلغَ وَلَدُ الحكمِ ثلاثينَ رجُلاً ، اتَّخذوا مالَ اللهِ دُولاً ، ودينَ اللهِ دَخَلاً ، وعبَادَ اللهِ خَوَلاً» ، والسَّلام.

---

(١) قال البلاذريُّ: قَدِمَتْ رملةُ بنتُ معاويةَ الشَّامَ منَ المدينةِ ، وكانتْ عندَ عمرو بنِ عثمان بن عفّان ، وكان عمرو محباً لها ، إلاَّ أنَّه كانَ ربّما أغارها ، فقال لها: أَطَلَقَكِ ابنُ عمّي! فقالت: كلاَّ. (أنساب الأشراف ص١٠٨).

(٢) ذكر البلاذري أنَّ معاويةَ ـ رضي الله عنه ـ أمرَ مروانَ بن الحكمِ أنْ يحملَ إليه ابنته رملة منَ المدينةِ ، ففعل وحَمل رملة إلىٰ معاوية ، فقال: يا بُنية كيف رضاك عن عمرو بن عثمان زوجك؟
قالت: واللهِ ما يزالُ بنو أبي العاص يتكثرون علينا بعددهم حتى لوددتُ أنَّ ابني هذَيْن منهم في البحر. (أنساب الأشراف ص٦٦).

* ثمَّ إنَّ معاويةَ بعثَ الرسالةَ إلىٰ مروانَ بنِ الحكَم ، فلَّما وصلتِ الرِّسالةِ مروانَ كَتَبَ إلىٰ معاويةَ: أمّا بعد يا معاويةُ ، فإنِّي أبو عشرة ، وأخو عشرة وعمّ عشرة ، والسَّلام[1].

هَـلْ تَـغَـزَّلَ الشُّـعَـرَاءُ بِـرَمْلَـةَ؟

* جعلَ بعضُ المغرضينَ منْ أهلِ الأَخْبار نهمَهمُ في أنْ ينالُوا من أعراضِ نساءِ عِلْيةِ القوم؛ وأنْ يخوضُوا في الحديثِ عنهنَّ مُشَرِّقينَ ومغرِّبينَ ، وأَنْ يكثروا منَ الإساءةِ إليهنَّ بشتىٰ ألوانِ الصُّور والأَشْكال.

* ومنَ اللواتي نالتهنَّ يَـدُ المغرضينَ وألسنتُهم السَّيدة المصونة الكريمة رملة بنت معاويةَ ، التي جعلُوها منَ اللائي يُتَغَزَّلُ بهنَّ ، وممن يراهَا الغادي والرَّائح ، فَيَصِفُ جمالَها وملاحتَها وزينتَها ودلَّها ودلاَلَها.

* ومنَ القَصَصِ المزعومةِ التي طابَ لواضعيها إلْصَاقها برملةَ بنتِ معاويـة ، هـذه القصَّـةُ التي أوردَهـا الأصبهانـيُّ في أكثـرَ مـن موضـع مـن أغانيه ، بسندٍ رفعَه إلىٰ ابنِ أبي زريـق قال: شبَّـبَ عبدُ الرحمن بـنُ حسَّان[2]

---

(١) نسب قريش (ص١٠٩ و١١٠) بشيء من التَّصرف ، وانظر: تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء ص٩٦ و٩٧) ، وأنساب الأشراف (ص٤٦ و٥٨) ، وأعلام النِّساء (١/ ٤٦٦ و٤٦٧). ولعلَّه منَ الطَّريفِ والمفيدِ أنْ نشيرَ هنا إلىٰ زُهير بنِ جذيمة بنِ رواحةَ العبسيّ ، فقد كانَ أبو عشَرة ، وأخو عشَرة ، وعمٌّ عشرة.
ومنْ أشهرِ أبنائِه قَيس بن زهير ، حيثُ كان شريفاً حَازِماً ذَا رأْيٍ ، وكانت عبسُ تَصْدُر في حُروبها عنْ رأيه ، وهو صاحبُ داحِس وهيَ فرسُه ، وكان قيسُ أحمرَ أعْسَر أَيْسَرَ بكْرُ بكْريَنْ ، وهو القائلُ في قَتْلِ حُذيفَةَ بنِ بَدْر وبنو عبس تولَّتْ قتلَه:

أظـنُّ الحِلْـمَ دلَّ علـيَّ قَـومـي ... وقَـدْ يُسْتَجْهَـلُ الـرَّجـلَ الحليـمُ
ومَـارسْـتُ الـرِّجـال ومـارسُـونـي ... فَمِعْـوَجٌّ عَلـيَّ ومستقيـمُ

(معجم الشعراء ص١٧٨).

(٢) عبدُ الرَّحمن بنُ حسَّان بنِ ثابت بنِ المنذر الأنصاريّ أبو محمّد المدنيّ؛ روىٰ عن أبيهِ؛ وأمُّهُ سِيْرين القُبطيّة وهي أختُ مارية والدةُ إبراهيمَ بنِ محمّد رسولِ الله ﷺ.
وعنه: ابنهُ سعيد ، وعبدُ الرحمن بن بهمان ، والمنذرُ بن عُبيد المدنيّ. ذكره ابنُ =

برملةَ بنتِ معاويةَ فقال:

رَمْلُ هلْ تَذكُرينَ يَومَ غَزالٍ ... إذْ قَطَعْنَا مَسيْرَنا بالتَّمنِّي

إذْ تقُوليْنَ عمْركَ اللهُ هَل شَيءٌ ... وإنْ حلَّ سوقٌ يُسْليكِ عنِّي

أمْ هَلْ أُطْمِعْتُ منكُمُ بابنِ حسَّا ... نَ كما قَدْ أَرَاكِ أُطْمِعْتَ منِّي

قال: فبلغَ ذلك يزيدَ بنَ معاويةَ فَغَضِبَ، فدخلَ علىٰ معاويةَ فقال: يا أميرَ المؤمنين، ألا ترىٰ إلىٰ هذا العِلْج[1] منْ أهلِ يثرب، يتهكَّمُ بأعراضِنَا، ويشبِّبُ بنسائِنا؟

قال: ومَنْ هو؟

قال: عبدُ الرَّحمن بنِ حسَّان، وأنْشَده ما قال.

فقال: يا يزيدُ، ليستِ العقوبةُ منْ أحدٍ أقبحَ منها منْ ذوي القُدْرَةِ، ولكنْ أَمْهِلْ حتى يقدمَ وفْد الأنصارِ ثمَّ ذكِّرني.

قال: فلما قَدِمُوا أَذْكَره به. فلمَّا دخلُوا عليهِ قال: يا عبدَ الرَّحمنِ، ألم يبلغْني أنَّك تشبِّبُ برملةَ بنتِ أميرا لمؤمنين؟ قال: بلىٰ، ولو علمتُ أنَّ أحداً أشرِّفُ به شعري أشرفَ منها لذكرتُه.

قال: وأينَ أنتَ عن أختِها هِنْد[2]؟!

= معين في تابعي أهلِ المدينة ومحدّثيهم؛ وقال ابنُ سَعْد: كانَ شاعراً قليلَ الحديثِ. وذكره ابنُ حبّان في الثِّقات. قال خليفةُ في تاريخه: ماتَ سنة (١٠٤ هـ) وله عندَ ابن عَسَاكر حديث: «لُعن زوَّارات القُبور»، وذكرَ أنَّه ماتَ من ثمانٍ وأربعينَ سنة. قال ابنُ حجرَ: كان في زمانِ أبيهِ رجلاً، وأبوهُ القائل:

فَمنْ للقَوافِي بَعْدَ حسَّان وابنِهِ ... ومَنْ للمثَاني بَعْدَ زيد بنِ ثابت؟!

ويرى ابنُ حجر أنَّه ماتَ، وله ثمانٌ وتسعونَ سنة. (تهذيب التَّهذيب ٥/ ٧٤ و٧٥) ترجمة رقم (٣٩٥٠).

(١) لاحظْ هذا الكلامَ الخطيرَ الذي خَرْطُ القتَادِ دونَه والعياذُ باللهِ، وهو منسوبٌ إلىٰ يزيد بلا شكّ، إذ يزيدُ منْ أفصح النَّاس، وعلينا ألاَّ ننسىٰ أنَّه ابنُ صَحابيٍّ جليل.

(٢) هندُ بنتُ معاويةَ، تزوَّجها عبدُ اللهِ بنُ عامر بنِ كُريز، وأمُّها فاختة بنت قرظة. =

قال: وإنَّ لها لأُخْتاً[1]؟

قال: نَعمْ.

قال: وإنَّما أرادَ معاويةُ أنْ يشبِّبَ بهما جميعاً، فيكذِبَ نفسه!!!.

قال: فلم يرضَ يزيدُ ما كان منْ معاويةَ في ذلك، أنْ يشبِّبَ بهما جميعاً؛ فأرسلَ إلىٰ كعب بن جُعيل[2] فقال: اُهْجُ الأنصارَ فقال: أَفْرقُ[3] منْ أميرِ المؤمنين؛ ولكنْ أدلُّك علىٰ الشَّاعِرِ الماهرِ.

قال: مَنْ هو؟

قال: الأَخْطَل.

قال: فدعَا به فقال: اُهْجُ الأنْصَارَ.

قال: أَفْرقُ من أميرِ المؤمنين!

قال: لا تَخَفْ شيئاً، أنا لكَ بذلك.

قال: فهجاهم فقال:

= ولهند ورملةَ ابنتي معاوية يقولُ عبدُ الرَّحمن بن الحَكَمْ بن أبي العاصي:

أؤمِّلُ هنداً أنْ يموتَ ابنُ عامرٍ ... ورملةَ يوماً أنْ يطلِّقَها عمرو

(نسب قريش ص١١٣ وص١٢٨)، و(تاريخ مدينة دمشق تراجم النساء ص٩٥).

وذكرَ البلاذريُّ البيتَ علىٰ النَّحو التَّالي:

أَيرجُو ابنُ هنْدٍ أنْ يموتَ ابنُ عامرٍ ... ورَمَلْةَ يوماً أنْ يطلِّقَها عمرو

(أنساب الأشراف ص٧٣).

(١) لاحظْ هذا الحوار البارد السَّخيف المهلهل المصنوع.

(٢) كعبُ بنُ جُعَيل بن قُمير التَّغلبيّ، شاعرُ تغلبَ في عَصْرِه، مُخَضْرم عُرِفَ في الجاهليةِ والإسلام، كان لا ينزلُ بقومٍ إلا أكرموه وضربُوا له قبّة، أدرجَهُ الأخطلُ في صِبَاهُ وهاجاهُ، وكان في زَمَنِ معاوية ـ رضي الله عنه ـ، وشهدَ معه وقعةَ صفِّين، توفي نحو سنة (٥٥ هـ).

(٣) «أفْرَق»: أخاف.

وَإِذَا نَسَبْتَ ابنَ الفُريعَةِ خِلْتَه ... كالجَحْشِ بينَ حمارةٍ وحمارِ
لعَنَ الإلهُ منَ اليهودِ عصَابةً ... بالجزْعِ بين صليصلٍ وصرارِ
قومٌ إذا هَدَرَ العصيرُ رأيتَهم ... حمراً عيونُهم منَ المصْطَارِ
خَلُّوا المكارمَ لَسْتُمُ مِنْ أهْلِها ... وخُذوا مَسَاحِيْكُم بني النَّجّارِ
إنَّ الفَوَارِسَ يَعْلَمُون ظُهورَكم ... أولادَ كلِّ مقبّحٍ أكّارِ
ذَهَبَتْ قريشٌ بالمكارمِ كلِّها ... واللؤمُ تَحْتَ عمائِمِ الأَنْصَارِ[1]

* فبلغَ ذلك النُّعمانَ بنَ بشير الأنصاريَّ ـ رضي الله عنه ـ ، فدخلَ علىٰ معاويةَ ، فَحَسَرَ عنْ رأسِهِ عمامَته وقال: يا أمير المؤمنين ، أترىٰ لُؤْماً؟

قال: لا ، بل أرىٰ كَرَماً وخَيْراً ، ماذاك؟

قال: زعمَ الأخطلُ أنَّ اللؤمَ تحتَ عمائمنا.

قال: أَوَفعل؟

قال: نعمْ.

قال: لكَ لسانهُ. وكتَبَ فيه أنْ يُؤتىٰ بهِ ، فلمَّا أُتيَ به سألَ الرَّسولَ ليدخلَ إلىٰ يزيدَ أوّلاً ، فأدْخَله عليه ، فقال: هذا الذي كنتُ أخاف!.

---

(١) انظر الأغاني (١٥/ ١٠٤). و«ابنُ الفُريعة»: لَقَبُ حسَّان بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ ، والفُريعة هي أمُّه ، وهي فُريعة بنتُ خالد. قال ابنُ حجر: فُريعةُ بنتُ خالد بنِ حبيش بنِ لوذان الأنصاريّة ، والدةُ حسَّانَ بنِ ثابت ، وإليها كانَ يُنْسَبُ ، فيُقال: قالَ ابنُ الفريعة: ونَسَبَ هو نفسُه إليها في قوله:
أَمْسىٰ الجلابيبُ قد عزُّوا وقَدْ كبرُوا ... وابنُ الفُريعةِ أضحىٰ بيضَةَ البلدِ
و«الجلابيب»: الأذلاء ، و«بيضة البلد»: أعظم أهلها.
وذكرها ابن سعد في المبايعات. (الإصابة ١٣/ ٨٩) ترجمة رقم (٨٦٢).
«صُلَيصل»: موضعٌ بنواحي المدينةِ المنوَّرة. و«صرار»: موضعٌ قُربَ المدينةِ أيضاً.
«المسَاحي»: جَمْع مِسْحاة ، المجرفَةُ منَ الحديد ، يُجْرفُ بها الطِّينُ منْ علىٰ وجْهِ الأرض ، و«بنو النَّجار»: فريقٌ مِنْ أهلِ المدينة يهجوهم بأنَّهم حراثون.
«الأكَّارُ»: الحرَّاث الزَّراع.

قال: لا تَخَفْ شيئاً. ودخلَ علىٰ معاويةَ فقال: علامَ أُرسلَ إلىٰ هذا الرَّجلِ، وهو يرمي منْ وراءِ جَمْرتنا[1]؟!

قال: هجَا الأنصارَ.

قال: ومَنْ زَعَم ذلك؟

قال: النُّعمانُ بنُ بشير.

قال: لا تقبلْ قولَه عليه، وهو يدَّعي لنفسهِ، ولكنْ تدعوهُ بالبيّنة، فإنْ ثبتَ شيئاً أخذتَه بِهِ لَهُ.

* فدعاه بالبيّنة، فلم يأتِ بها، فخلَّىٰ سبيله. فقال الأخطلُ:

وإنِّي غَداةَ استعْبَرتْ أمُّ مالكٍ ... لَراضٍ منَ السُّلطانِ أَنْ يَتَهدَّدَا

ولولا يزيدُ ابنُ الملوكِ وسَعْيهُ ... تَجَلَّلْتُ حِدْباراً منَ الشَّرِّ أنْكَدَا

فكمْ أَنْقَذْتني منْ خُطوبِ حبالِهِ ... وخرساءَ لو يُرمىٰ بها الفيلُ بَلَّدَا

وأَطْفَأْتَ عنِّي نَارَ نُعمانَ بَعْدَمَا ... أَعَدَّ لأَمْرٍ فَاجِرٍ وتَجرَّدَا

ولما رأىٰ النُّعمانَ دوني ابنُ حُرَّةٍ ... طوىٰ الكَشْحَ إذْ لم يَستطعْني وعرَّدا[2]

* ويروي الأصبهانيُّ أنَّ يزيدَ بنَ معاويةَ لما أمَرَ كَعبَ بنَ جُعَيل بهجاءِ الأنصارِ قال له: أَرَادِّي أَنْتَ إلىٰ الكُفْرِ بَعْدَ الإسلام؟! أَأَهجو قوماً آووا رسولَ اللهِ ﷺ ونصروه؟!

قال: أما إذ كنتَ غيرَ فاعلٍ، فأرشدني إلىٰ مَنْ يفعل ذلك. قال: غلامٌ منَّا خبيثُ، فَدَلَّهُ علىٰ الأخطل[3].

* والقصَّةُ كما قرأْنَاها واضحةُ الصَّنعةِ في معْظَم جوانبها، وفيها تعريضٌ

---

(١) «جمرتنا»: الجمرة، القبيلة التي لا تنضم إلىٰ غيرها بحلف أو نحوه في القتال.

(٢) انظر: الأغاني (١٥/ ١٠٣ ـ ١٠٥)، ومختصر تاريخ دمشق (١٤/ ٢٣١ ـ ٢٣٣)، وأعلام النساء (١/ ٤٦٧ ـ ٤٦٩) و«الحِدْبار»: النَّاقة الضَّامرة التي ذَهَب سنَامُها. و«الخرساء»: الدَّاهية. و«بَلَّدَ»: لَصِقَ بالأرضِ لما دَهَاه.

(٣) الأغاني (١٦/ ٤٥).

بالأنصارِ ، وبسيِّدنا معاويةَ؛ وإساءة أيضاً لحسَّانَ بنِ ثابت وابنهِ ، ولرملةَ بنتِ معاوية. ولكنَّ تاريخَ رملةَ بنتِ معاوية وحياتها مع زوجها عمرو بنِ عثمانَ بنِ عفَّان يخالفُ ما جاءَنا منْ مثلِ هذه الأخبارِ وأشباهها عن بناتِ الصَّحابةِ الطَّاهراتِ.

* لقد كانتْ لرملة ومثيلاتها منَ النِّساءِ في ذلك العصرِ منزلةٌ ساميةٌ في القلوبِ ، تعنو لها الوجوهُ ، وتطمئنُ دونها النُّفوس ، ولم يكنْ مرجعُ ذلك لِما لَها منْ جلالٍ ودلالٍ وغضَارةٍ ونضارةٍ وخلابةٍ ودعابةٍ ، فما كانتْ مِنْ ذلكَ في قليلٍ ولا كثير ، ولكنَّها كانتْ فيما تفرَّدتْ به بينَ نساءِ العصورِ الأولىٰ من سموِ الرُّوحِ إلىٰ أبْعَدِ مرتقىٰ ، وصفاءِ النَّفس إلىٰ أتمِّ غاية ، وكانَ منْ أثرِ ذلك ما ذاعَ عنها منْ نُبْلٍ وسَنَاءٍ وعزّةٍ وكبرياء ، وجلالٍ في الطَّبع والخُلُق ، وترفُّع في القولِ والفعلِ ، وإسعادٍ للزَّوجِ والوَلَد ، حتى كان من ثمرتها تلك الأُمَّةَ التي جَمَعتْ أطرافَ الأرضِ ، وملكتْ نواحي الأُمم في أقلَّ منْ خمسينَ عاماً[1].

رَمْلَـةُ وَوَفَـاةُ أَبِـيْهَـا :

* لم تنقطعْ أخبارُ رملةَ عنْ ساحةِ الأحداثِ في عَصْرِها ، وقد وجْدنا لها ذكراً في بعضِ المواقفِ[2] ، وكذلك في بعضِ الأحداثِ كوفاةِ أبيها معاويةَ ـ رضي الله عنه ـ ، حيثُ ذكرَ ابنُ عَسَاكر هذا فقال: لما حضرتْ معاويةُ الوفاة ، جعلُوا يديرونَه في القصْرِ ، فقال: هل بلغْنَا الخَضْراء؟! فَصَرَخَت ابنته رملة ، فقال: ما أَصْرَخَك؟

---

(١) انظر: المرأة العربية في جاهليتها وإسلامها (٣/ ١١٠) ، بتصرف يسير جداً.

(٢) لرملةَ ذِكْرٌ في شِعْرِ عبدِ اللهِ بنِ همام السَّلولي ، وذلك لما أَخَذَ معاويةُ ـ رضي الله عنه ـ البيعةَ لابنهِ يزيد ، سَخِطَ بعضُ الشُّعراء ، وحَمَلَ بعضُهم حملةً شعريةً ، فيها شيءٌ منَ الحِقْدِ أو السُّخرية ، كقولِ ابنِ همام السَّلولي هذا:

فإنْ تَأْتُوا بِرَمْلَةَ أو بِهِنْد نُبَايعُها أميرةَ مُؤْمنينَا

ويقصدُ برملةَ وهند بنتا معاويةَ رضي الله عنه. (مروج الذهب ٤/ ٣٢٤) بتصرف يسير.

قالت: نحنُ ندورُ بكَ في الخَضْراء وتقولُ: هل بلغتُ الخضراءَ بعد؟! فقال: إنْ عزبَ عَقْل أبيك فطالَما وقَر[1].

* وذكر ابنُ عساكر أيضاً خبراً آخرَ عن رملةَ فقال: ولما حضرتْ معاويةُ الوفاةَ احتوشَهُ بناته، فضربَ بيدِهِ فسقطتْ يده علىٰ حجرِ رملةَ ابنته، فقال: مَنْ هذا؟ قالت رملةُ: أنا يا أبتاه!

قال: حوِّلي أباك فإنّك تحولينَه حُوَّلاً[2] قُلَّباً، ثم قال:

لا يَبْعُدنَّ رَبيعَةُ بنُ مُكدَّمٍ وسَقىٰ الغَوادِي قَبْرَهُ بِذَنُوبِ[3]

* وفي روايةٍ أخرىٰ: أنَّ معاويةَ ـ رضي الله عنه ـ لما حضرته الوفاة قال لابنتيهِ هند ورملة: اقلبنَنِي، فقلبته هندُ ورملةُ فقال: إنّكما لتُقلِّبا حُوَّلاً قلباً، إنْ وُقِيَ كبَّةَ النَّار غداً، ثم قال:

لا يبعُدنَ ربيعة بن مكدّم وسَقىٰ الغوادي قَبرهَ بَذَنُوب

* ثم توفي رضي الله عنه.

* وقال المدائني: قال معاويةُ لابنتيه وهما تقلّبانهِ في مرضه: قلِّباه حوَّلاً قُلَّباً، جمعَ المالَ منْ شبَّ إلىٰ دُبَّ، فليتهَ لا يدخلُ النَّار، ثم قال:

لَقَدْ سَعيتُ لكم سعيَ امرىءٍ نَصِبٍ وقد كفيتكمُ التَّطوافَ والرِّحلا

* وذكرَ المدائنيُّ أيضاً أنَّه أُغميَ علىٰ معاويةَ في مرضهِ الذي ماتَ فيه فقالتْ رملةُ ابنته، متمثّلة بِشِعْرِ الأَشْهب بن رُمَيْلة النَّهشلي:

إذا مُتَّ ماتَ الجودُ وانْقَطَعَ النَّدىٰ مِنَ النَّاسِ إلاَّ منْ قليلٍ مصرَّدِ
ورُدَّتْ أكفُّ السَّائلين وأمْسَكُوا منَ الدِّين والدُّنيا بخلفٍ مُجَدَّدِ

* ثمَّ أفاقَ وأُغمي عليه فأَنْشَدتْ:

لَوْ دَامَ شَيءٌ لهـا لَدَامَ أبو حيَّانَ لا عاجِزٌ ولا وَكِلُ

---

(١) تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء ٩٨ و٩٩).
(٢) «حولاً»: أي رجلاً عارفاً بالأمور.
(٣) المصدر السابق نفسه. «والذَّنوب»: بفتح الذال: الدلو بما فيه من الماء.

الحُـوَّلُ القُلَّـبُ الأريـبُ وهَـلْ ... يـدفَـعُ زَوَّ المنيـةِ الحِيَـلُ[1]

* وقد جاءَ ذكرُ رملةَ في شعرِ أخيها يزيد عندما أتاهُ نعيُ أبيه وهو بالصَّائغة ، فأنشأَ يقولُ بضعةَ أبياتٍ أوَّلُها :

جَاءَ البـريـدُ بقـرطـاسٍ يخـبُّ بِـهِ ... فأَوجسَ القلْبُ منْ قرطاسهِ فَزِعا

* وآخرُهَا وقد ذكر أخته رملةَ المفجوعة بأبيها معاوية :

لمَّـا وَرَدْتُ وبـابُ القَصْـرِ منطبِـقٌ ... لصوتِ رملةَ هُدَّ القَلْبُ فانْصَدَعا[2]

* ويظهرُ اسمُ رملةَ أيضاً في مرثيةٍ جميلةٍ لمعاويةَ ـ رضي الله عنه ـ حيث يقولُ أيمنُ بنُ خُريم بنِ فاتك الأسديّ :

رمَـىٰ المِقْـدارَ نِسـوَةَ آلِ حَـرْبٍ ... بحـادثـةٍ سَمِـدْنَ لهـا سُمـودا
فـردَّ شُعـورهـنَّ السُّـودَ بيْضـاً ... وَرَدَّ خُـدودهـنَّ البيـضَ سُـودا
فـإنَّـكَ لـو سَمِعْـتَ بكـاءَ هنْـدٍ ... ورملـةَ إذْ يُلَطِّمْـنَ الخُـدودا
بكيـتَ بكـاءَ مـوجعـةٍ بحـزنٍ ... أصابَ الدَّهرُ واحدَها الفَريدا[3]

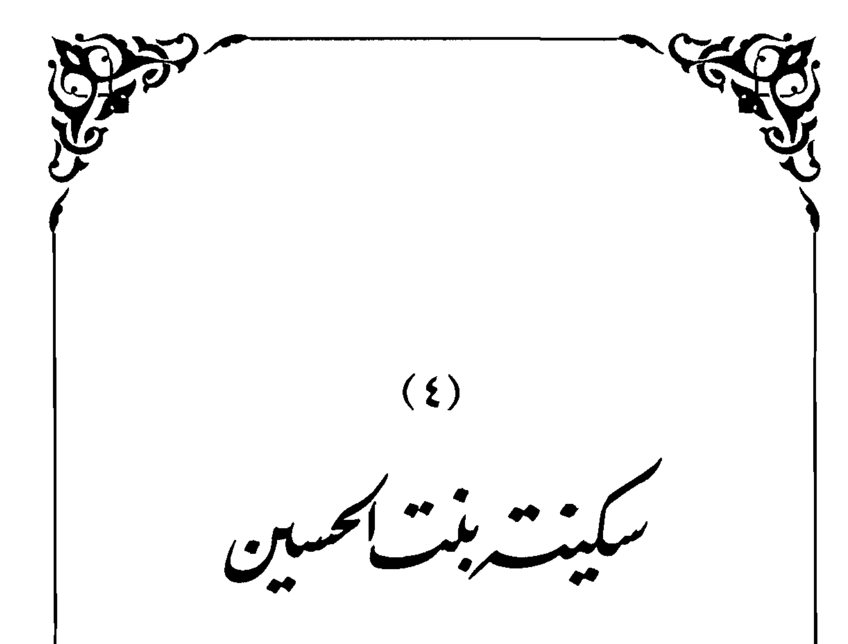
* ومن آثارِ رملةَ ما ذكره ابنُ عساكر ـ رحمه الله ـ ، بأنَّ دارَها كانتْ بدمشقَ في عقبة السَّمك في طرقِ زقاق الرّمان ، وطاحونتها معروفة إلىٰ اليوم[4] .

* وبَعْدُ ـ أحبّائي ـ فتلكم لمحاتٌ عن حياةِ ابنة صحابي جليل ، وامرأة منْ نساءِ الإسلام اللواتي تركْنَ أثراً وضيئاً في تاريخ بناتِ الصَّحابة الطَّاهرات .

* * *

---

(١) أنساب الأشراف (ص١٥١ و١٥٢) ، وتاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء ص٩٨) .
(٢) الأغاني (١٧/ ٢١٣) بتصرف يسير ، وأنساب الأشراف (ص١٥٥) .
(٣) انظر : خزانة الأدب (١/ ٣٤٤) ، وأمالي القالي (٣/ ١٦) ، والمنازل والديار (ص٢٦٤) ، وعيون الأخبار (٣/ ٦٧) ، وغيرها كثير . ومعنى «سمدن» : سَمِدَ : سَهَا .
(٤) تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء ص٩٥) .



(٤)

سكينة بنت الحسين

* من أهل البيت النبوي الطاهر .
* كانت من أجمل النساء ، وأحسنهن أخلاقاً ، وأفصحهن ، وأبلغهن .
* صابرة ، ولها نوادر ، وظرف ، وفكاهة ، وفطنة .
* شاعرة ، أديبة ، نبيلة ، ناقدة لشعراء عصرها .

مِنَ الذُّرِّيَّةِ الطَّاهِرَةِ:

* فتاةٌ عرَفَها المجدُ منذُ أنْ رَأَتْ عيناهَا نورَ الشَّمْسِ ، وعرفتْ هي المجدَ منذُ أنْ وَعَتْ مكانَتَها منَ الذُّرِّيَّةِ الطَّاهِرَةِ ، والنَّسبِ الزَّكي الزَّاكي الذي ثَبَتَ أصلُه ، وزكَا فرعُه ، وحَسُنَتْ غصونهُ ، وازدانتْ أوراقهُ ، وطابتْ ثمارُه.

* هذه الابنةُ الكريمةُ منْ تلكَ الشَّجرةِ النَّبويّةِ الطَّاهِرةِ التي لا تشبهُها شجرةٌ في هذَا الوجودِ ، وابنةُ هذه الصَّفحاتِ غصنٌ رطيبٌ منْ تلكم الشَّجرةِ المباركةِ النَّديَّةِ المُندَّاة بنفحِ الطِّيْبِ ، وبرحيقِ النُّبوةِ ، وأريجِ النَّسبِ العريقِ المُعْرِق.

* ولدَتْ ابنةُ هذا الصَّحابي ، وَوُلِدَ معهَا نصيبٌ كبيرٌ منْ محبَّةِ أَبيْها لها ولأُمِّها ، فقد كانَ أَبوها يحبُّها محبّةً عظيمةً فائقةً ، بل كانتْ تستأثِرُ بقلبِهِ هي وأمُّها.

* ترىٰ منْ هذا الأَبُ الذي أُوْلعَ بابنتهِ هذهِ ، وزوجِهِ؟ لا شَكَّ أنّكم تعرفونَه إنَّه الحُسين بنُ عليٍّ ـ رضي الله عنهما ـ سيّدُ شبابِ أهلِ الجنّةِ ، وسبطُ رسولِ الله ﷺ ، وفيه يقولُ الشَّاعر:

مسَحَ النَّبيُّ جَبِينَه فَلَهُ بَيَاضٌ في الخُدود
وبِوجْهِهِ دَيْباجَةٌ كَرَمُ النُّبوَّةِ والجُدُود[1]

* وكريمُ الآباءِ والجدِّ هذا ، يقولُ في محبَّتِهِ لابنتهِ وزوجهِ اللتَيْن أخذَتا نَصِيباً وَاسِعاً في قَلْبِه ومنْ نفسِه:

لَعَمْرُكَ إنَّنِي لأُحِبُّ دَارَاً تَحلُّ بِهَا سُكَيْنَةُ والرَّبَابُ
أحبُّهمَا وَأَبذلُ جُلَّ مَالي وَلَيْسَ لِلائِمي فيهما عِتابُ

---

(١) المحاسنُ والمساوىءُ للبيهقي (ص٩١).

وَلَسْـتُ لهـم وَإِنْ عتبُـوا مُطيعـاً   حيَـاتـي أو يُغيّبنـي التُّـرابُ[1]

* وفي هاتَيْن المرأتَيْن ، يقولُ الحُسين أيضاً :

كـأَنَّ الليـلَ مـوصُـولٌ بليـلٍ   إذا زَارَتْ سُكَيْنَـةُ والـرَّبَـاب[2]

* نعم ، إذا ما غادرتْ هاتانِ المرأتانِ المنزلَ للزِّيارةِ ، فإنَّ الأيَام البيضَ تستحيلُ جميعها إلىٰ ليالٍ سُود موصولةٍ ببعضها ، أمَّا إذا عادتَا إلىٰ منزلهِ ، فإنَّ الليلَ والنَّهارَ يتعاقبانِ بنظرهِ ، ويبتسمُ الفجرُ في عيونهِ ، ويغرِّدُ الطَّيرُ في لِسَانِهِ .

* إذاً ، سُكينةُ بنتُ الحسين بنُ علي بن أبي طالب الهاشميّة القرشيّة[3] ،

---

(١) نسبُ قريش (ص٥٩) ، وزهرُ الآداب (١/ ٦٣) ، والمحبَّرُ (ص٣٩٧) ، والمعارفُ (ص٢١٣) ، والبدايةُ والنّهاية (٨/ ٢١١) .

(٢) انظر هذا البيت في تاج العروس (٩/ ٢٣٩) ، قال السُّهيليُّ : أَي إذا زَارَتِ الرَّبابُ ـ زوجُ الحُسين ـ قومَها ، وهم بنو عُليمُ بنُ جَنَاب .
وقال الحُسين ـ رضي الله عنه ـ أيضاً :
أحِـبُّ لحبِّهـا زُبْـداً جميعـاً   ونَتْلَـةَ كلَّهـا وبنـي الـرَّبَـابِ
وأخْـوالاً لهـا مِـنْ آل لأمٍ   أحبُّهـم وطـرَّبنـي جَنَـابُ
و«الرَّباب» : هذه ، هي بنتُ أُنيَف بن حارثة بن لأم الطَّائي . و«زُبْدُ» بنتُ مالك بن عميت من كَلْب .
و«نَتْلَة» بنتُ مالك بن عمرو مِنْ طيء . (أنساب الأشراف علي وبنوه ص١٤٠) .

(٣) وفيات الأعيان (٢/ ٣٩٤ ـ ٣٦٧) ، ونسب قريش ، والدر المنثور (ص٢٤٤ ـ ٢٤٩) ، والنجوم الزاهرة (١/ ٢٧٦) ، وشذرات الذهب (٢/ ٨٢) ، وتاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء ص١٥٥ ـ ١٧١) ، والموشىٰ (ص٧٧ و٩٢) ، وبلاغات النساء (ص٢٦٦ و٢٢٧) ، ولسان العرب (١٣/ ٢١٨) ، وتاريخ الإسلام للذهبي (حوادث سنة ١٠١ ـ ١٢٠ ، ص٣٧١ ـ ٣٧٣) ، ونوادر المخطوطات (١/ ٦٤ ـ ٦٩ ـ ٧٧) ، ومصارع العشاق (١/ ٢٤٨) و(٢/ ٧٩ ـ ٨٤ و١٣٠) ، والمعارف (ص٢٠١ و٢١٣ و٢١٩ و٢٣٧ و٥٩٤) ، وشاعرات العرب (ص١٦٤ و١٦٥) ، ونور الأبصار (ص١٩٢ ـ ١٩٤) ، وإسعاف الراغبين بهامش نور الأبصار (ص ٢٢٩ ـ٢٣١) ، وأمالي المرتضىٰ (١/ ٤١٣) وعيون الأخبار (١/ ٢١٢ و٢٥٨) و(٤/ ٢٥ و٩٠) ، =

هي التي مَلَكَتْ علىٰ أبيها كلَّ هذه المكانةِ ، ومع هذه الابنةِ الشَّهيرةِ ستكونُ رحْلَتُنا لطيفةً ناعمةً في أفياءِ الحديثِ عن مسيرةِ حياتِها .

* ومن خلالِ رحلَتِنا الميمونةِ مع هذهِ الابنةِ الكريمةِ الآباءِ والجدودِ ، نتعرَّفُ بَعْضَ الجوانبِ المهمة في حياتها ، ونكشفُ عنْ بعضِ خَبايا الزَّوايا لتتوضَّحَ صورتُها بشكلٍ وضيءٍ ، كما نعرفُ مكانتَها في البيتِ النَّبويِ الطَّاهِرِ .

* وإذا عرفنا أنَّ أبَاهَا هو الحُسين بنُ عليّ ـ رضي الله عنهما ـ ، فإنَّ أمَّها هي الرَّبابُ بنتُ امرىءِ القَيْس بن عدي الكلبيّ أحدِ أسيادِ بني كَلْب بالشَّام ، أسلم في زمن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ ، وزوَّجَ ابنَتَه الرَّباب منَ الحُسين بن علي ، فولدتْ له عَبْدَ اللهِ بنَ الحسين الذي يُكنىٰ به ، ثمَّ أنجبَتْ له ابنتَه سُكينة[1] ، إلا أنَّ سُكينةَ لم تكنْ معروفةً بهذا الاسمِ عندَ ولادتها ، وإنَّما كان اسمها آمنة ، أو أمينة ، وقيل : أميمة[2] .

= وزهر الآداب (ص٦٣ و٦٤ و١٦٧) ، وتاريخ الأدب العربي لعمر فروخ (١/ ٦٣٧ و٦٣٨) ، والفخري (ص٣٣) ، والشعر والشعراء (ص ٥٥٤ و٥٧٩ و٥٨٠) ، والكامل في التاريخ (٢/ ٣٤٣) و(٤/ ٨٦ و٨٨ و٣٣٣) و(٥/ ١٩٥) ، والبداية والنهاية (٨/ ٢١٠) ، وتهذيب الأسماء واللغات (١/ ١٦٦ و١٦٧) ، وتاريخ الطبري (٨/ ٢٢٨) ، والكامل في اللغة والأدب (ص٦٥٩ و٦٦٠ و٨٠٥) ، ودائرة معارف القرن العشرين (٥/ ٢١٧ ـ ٢١٩) ، وحب ابن أبي ربيعة وشعره (ص١٨٠ ـ ٢٠٢) ، مرآة الجنان (١/ ٢٥١ ـ ٢٥٣) ، وسير أعلام النبلاء (٥/ ٢٦٢) ، والموشح (ص١٨٨ و١٩٣ و٢٠٠ و٢٠١) ، والمحاسن والمساوىء للبيهقي (ص٢٤٥ ـ ٤٥٠) ، وأعلام النساء (٢/ ٢٠٢ و٢٢٤) ، والأغاني في مواضع كثيرة ، والحدائق الغناء (١٤٢ ـ ١٥٥) ، وغيرها كثير جداً من المصادر .

(١) في كتاب «إسعاف الرَّاغبين في سيرة المصطفىٰ وأهل بيتهِ الطَّاهرين» للشَّيخ الصَّبَّان : أَنَّ السَّيِّدة سكينة هي بنتُ الحسين ـ رضي الله عنه ـ ، وأنَّ المشهورَ في اسمها أنَّه مُكبَّرٌ بفتح السِّين وكَسْرِ الكاف «سَكِينة» . لكنْ في القاموسِ وشرحِ أسماءِ رجالِ المشْكاة : أنَّه مُصَغَّر بضَم السِّين وفتح الكاف «سُكَينة» .

(٢) وفيات الأعيان (٢/ ٣٩٧) ، وتهذيب الأسماء واللغات (١/ ١٦٦) نقلاً عن تاريخ مدينة دمشق .

* أمّا سُكينةُ[1] فلقَبٌ لقَبَتْها بهِ أمُّها الرَّباب ، ولم تُعْرَفْ إلاَّ بهذا الاسم ، ونسيَ معظمُ النَّاس اسمَها الحقيقي ، لكنَّهم لم يَنْسَوا مكانَتَها في البيتِ النَّبويِ الطَّاهر الذي أذْهَبَ اللهُ عنه الرِّجْس وطهَّره تطهيراً.

محبَّةُ سُكَيْنَةَ وأَهْلِ البَيتِ النَّبويِّ :

* منَ الجديرِ بالذِّكْرِ ـ ونحنُ في هذه السِّيرةِ المعطاءِ ـ أنْ نشيرَ إلىٰ أنَّ أَهْلَ البيتِ النَّبوي رجَالاً ونسَاءً قد ظلُّوا محطَّ أنْظَارِ النَّاسِ علىٰ مدارِ الزَّمن ، وقد تبارىٰ الأدباءُ والشُّعراء ، ومحبُّو البيتِ النَّبوي وأقاربه في إبرازِ حُبِّهم ، وما يجري علىٰ ألسنَتِهم من لطيفِ القولِ ، وما تصدرهُ قلوبهم من همساتِ الودِّ؛ فهذا حَرْبُ بنُ المنذر بنِ الجارود يَقْنع منَ الدُّنيا بيسير الطَّعام ، ويقنعُ منَ الآخرةِ بثوبٍ منَ الكِتَّان ، ويكفيهِ منْ دُنياه وأُخْراه أنَّه يحبُّ أقاربَ النَّبيِّ ﷺ ، وأهلَ بيتهِ ، مُسْتَجيباً بذلك لقولِ اللهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ [الشورى: ٢٣] ، يقولُ حربُ بنُ المنذر بنِ الجارود[2] :

فَحَسْبي منَ الدُّنيا كَفَافٌ يُقيمني ... وأثــوابُ كتَّــانٍ أزورُ بهَــا قَبْـري
وحبّـي ذَوي قُـربـىٰ النَّبـيِّ محمّـد ... فما سَالنا إلاَّ المودَّة في القُربىٰ

---

(١) «سُكَينة»: من الكلماتِ التي توسَّع ابنُ منظور في شَرحِ أصْلها «سَكَن» ومما قال: «السَّكَن»: كلُّ ما سَكَنْتَ إليه واطمأننتَ بهِ من أهْلٍ وغيره ، و«السَّكَن»: المرأةُ لأنَّه يُسْكَنُ إليها. و«السُّكَينةُ»: الجاريةُ الخفيفةُ الرُّوح تسمّىٰ سُكينة ، و«السُّكينة» أيضاً: اسمُ البقَّة التي دخَلَتْ في أنفِ نمرود بنِ كنعان الخاطىء فأكلتْ دماغه. و«السُّكَينة»: الوادعة والوقار. وقيل: الرَّحمةُ والطمأنينةُ والنَّصر. و«سُكينة» بنت الحسين بن علي؛ والطّرة السّكينيّة منسوبةٌ إليها. (لسان العرب ١٣/ ٢١١ ـ ٢١٨) باختصار.

(٢) البيان والتبيين للجاحظ (٣/ ٣٦٥)؛ و«الكفَافُ»: مِنَ الرِّزْقِ: القوتُ ، وهو ماكفَّ عن النَّاسِ ، أي: أغنىٰ ، وفي الحديث: «اللهمَّ اجعل رزقَ آلِ محمّد كفافاً». (مختار الصِّحاح ص٢٦٣). و«سَالَنا»: أصلُها سَأَلْنا: خفَّفَها للضَّرورة. وبالتَّخفيف والهمز تؤدي المعنىٰ نفسه.

* وهذا دِعْبل بنُ عليّ الخزاعيّ المولودُ سنةَ (١٤٨ هـ) يؤكّدُ حبَّه لأهلِ البيتِ في قصيدتِهِ التَّائيةِ الشَّهيرةِ الملتهبةِ ، والتي أخَذ عليها عشرةَ آلافِ درهم منْ أبي عليّ بنِ موسىٰ الرِّضا بخراسان ، وخَلَعَ عليه بردةً منْ ثيابهِ قُوِّمَتْ بثلاثينَ أَلْف درهم ، يقولُ منْ قصيدتهِ :

مَلامَكَ في أَهْلِ النَّبيِّ فإنَّهم ... أحبَّايَ ماعاشُوا وأَهْلِ ثقَاتي
فيارِبِّ زِدْني منْ يقيني بصيرةً ... وَزِدْ حبَّهم يا ربِّ في حَسَنَاتي
أحبُّ قَصِيَّ الرَّحمِ منْ أجْلِ حبِّكم ... وأهجرُ فيكم أُسْرَتي وَبَنَاتي

* ويَعْتَبِرُ كُثَير بنُ كُثير السَّهميّ أنَّ حُبَّ أَهْل البيتِ سعادةٌ ومثوبةٌ ، ويؤكّدُ لمنْ يلومُهُ بأنَّه يحبُّهم ، فحبُّهم كَفَّارةٌ للذَّنْبِ ، يقول :

أَيُعَدُّ ذَنباً أَنْ أُحبّهم ... بل حبُّهم كفَّارةُ الذَّنْبِ

* وفي هذا البيتِ الطَّاهرالزَّكي ، البيتِ النبوي الكريمِ يُعْلنُ كثيرُ بنُ كثير أيضاً حبَّه لهم ، والسَّلامَ عليهم ما دامَ هناك مَنْ يقولُ السَّلام عليكم[١] :

طِبْتَ بيتاً وطَابَ أهْلُكَ أَهْلاً ... أَهْلُ بيتِ النَّبيِّ والإسْلامِ
رحمةُ اللهِ والسَّلامُ عَلَيْكُم ... كلَّما قامَ قائمٌ بِسَلامِ

* وما أجْمَل قول ابنِ الوردي في هذا المجال :

وَمَالِيَ إلا حُبُّ آلِ مُحمّدٍ ... فكَمْ جَمعُوا فَضْلاً وكَمْ فَضلُوا جَمْعَا
محبَّتهمُ تريَاقُ زلَّاتي التي ... يُخَيِّلُ لي مِنْ سِحْرِها أنَّها تَسْعىٰ[٢]

* أمّا أبو الأَسْود الدُّؤلي فلا يقلُّ عن كثير بنِ كثير ، وابنِ الوردي ، ودعبل بنِ علي ، وغيرهم ، فيرىٰ أنَّ حبَّ أهلِ البيتِ من الرُّشد ، ترىٰ ماذا قال؟ :

---

(١) نسب قريش (ص٦٠ و٦١).
(٢) ديوان ابن الوردي (ص٤٢٠)؛ وقد اقتبسَ ابنُ الوردي بالشَّطر الثَّاني منَ البيتِ الثَّاني من قوله تعالىٰ : ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ [طه : ٦٦] .

فـإنْ يَـكُ حبُّهـم رشْـداً أُصِبْـه ولَسْـتُ بمخطـىءٍ إنْ كـانَ غيّـا[1]

* في هذا البيتِ النبوي الطَّاهرِ المطهَّر ، المحفوفِ بالمحبّةِ من عامةِ النَّاسِ ، نَشَأَتْ سُكينةُ بنتُ الحُسين ، وهي تعي مكانَتَها بأنَّها ابنةُ صحابيّ هو سِبْطُ النَّبيِّ ﷺ وريحانتهُ ، وتعي أنْ جدَّتها فاطمةَ الزَّهراء بنتَ سيّدنا رسولِ اللهِ ﷺ سيّدة نساءِ العَالمين ، وأطْهر الطَّاهرات .

* نشأتْ سُكينةُ في الجوِّ العَبق بأنداءِ النُّبوة ، وأريج التّقوىٰ ، فكانت ذات مكانة عُليا بينَ البيوتات العُليا ، ومع هذا كلّه ، نجدُ كثيراً منَ الأخبارِ العبثيّة تُصاحب سيرتها ، ولكنَّا كاشفو ذلك الزَّيف ـ بإذن الله ـ كما سيرىٰ القارىء الكريم ، إنْ شاءَ اللهِ .

نشــأةٌ عِلْمِـيَّــةٌ :

* لمّا كَبرتْ سُكينةُ ، كانتْ سيِّدةَ نساءِ عَصْرِها ، وغدتْ منْ سيّداتِ نساءِ أَهْلِ البَيتِ النَّبوي الطَّاهرِ ، وقَدْ حَبَاهَا اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ جَمَالاً بَاهِرَاً ، فكانتْ منْ أجملِ النِّساءِ وأحسنِهنَّ أخْلاقاً ، فطارتْ شهرتُها في الآفاقِ ، وعزَّزَتْ ذلكَ بمعارفها المتعدّدةِ ، ومنها روايةُ الحديثِ النَّبوي الشَّريف ، إذْ حدَّثَتْ[2] عن أبيها الحُسين بنِ عليّ ـ رضي الله عنهما ـ الذي حَفِظَ عنِ النَّبيِّ ﷺ ، وعنْ أبيهِ وغيرهما[3] .

---

(١) انظر : أدب السِّياسة في العصر الأموي (ص٢٠٩) .

(٢) قال الذَّهبيُّ ـ رحمه الله ـ : يُروىٰ عنها حديثٌ عن أبيها .

(٣) انظر : سِيَرَ أعلام النُّبلاء (٥/ ٢٦٢) ، وتهذيب التَّهذيب (٣/ ٣١٨) ترجمة رقم (١٣٩١) والحدائق الغناء (ص١٤٢) ومن الجدير بالذِّكْر أنَّ الحُسين ـ رضي الله عنه ـ قد روىٰ عن جدِّهِ سيِّدنا وحبيبنا رسولِ اللهِ ﷺ ، وروىٰ عن أبيه عليّ وأمِّهِ فاطمةَ الزَّهراء ، وخالِه هند بن أبي هالة ، وعمرَ بنِ الخطاب ـ رضي الله عنهم جميعاً ـ .
وروىٰ عنه : أخوهُ الحَسَنُ بنُ عليّ ـ رضي الله عنهما ـ ، وابناه : عليٌّ وزيدٌ ، وابنتاه : سُكينةُ وفاطمةُ ، وابنُ ابنه أبو جعفر الباقر ، والشَّعبي ، وعِكْرمة ، وكُرْزٌ =

* وقد روىٰ الحديث عنْ سُكينةَ فائدُ مولىٰ عبَادِل[1] ، كما روىٰ عنها كذلك أهلُ الكوفة[2] .

* وقد أخرجَ ابنُ عَسَاكر ـ رحمه الله ـ منْ مروياتِها عن فائدٍ مولىٰ عُبيد الله بن رافع قال: حدَّثَتْني سُكينةُ بنتُ الحُسين بنِ عليّ عن أبيها قال:

= التَّيميُّ ، وسِنَان بن أبي سنان الدُّؤَلي ، وعبد اللهِ بن عمرو بن عثمان ، والفرزدق وجماعة . (تهذيب التهذيب ٣/ ٣١٨).

(١) فَائِد مولىٰ عَبَادِل ، واسم عَبَادِل: عُبيد اللهِ بنُ عليّ بنِ أبي رافع المدني مولىٰ النَّبي ﷺ.
روىٰ عن مولاه ، وعن أبي مرّة مولىٰ عَقيل بن أبي طالب ، وعبد اللهِ بن سعد ، وسكينة بنت الحسين وغيرهم وروىٰ عنه: عبد الرحمن بن أبي الدَّال ، وحمّاد بن خالد الخيّاط ، والواقدي ، والقعنبي وآخرون. قال أبو طالب عن أحمد: لا بأس. وقال يحيىٰ بن معين: ثقة. وقال ابنُ أبي حاتم عن أبيه: لا بأس به. وذكره ابن حبّان في الثِّقات. (تهذيب التَّهذيب ٦/ ٣٧٩) ترجمة رقم (٥٥٦٣).

(٢) أعلام النِّساء (٢/ ٢٢٤).
ولعلَّه من المفيدِ هنا أنْ نشيرَ إلىٰ أنَّ سُكينةَ اسمٌ لعدَّة نسوة محدثات ذكرهنّ ابنُ ماكولا في «الإكمال» فقال:
* سكينةُ بنتُ الحُسين ، روتْ عن أبيها ، وروىٰ عنها فائد المدني.
* وسُكينةُ أختُ إسماعيل بن أبي خالد.
* وسكينةُ بنتُ القاضي أبي ذرّ محمّد بن محمّد يُوسف. (الإكمال ٤/ ٣١٦).
كما أنَّ هناك عددٌ منَ النِّسوة محدّثات أخريات ، اسم كلِّ واحدةٍ منهنَّ سُكينة وهنَّ:
* سُكينة بنتُ أبي وقّاص الزَّهريّ أختُ سَعْد بنِ أبي وقاص ، وهي راويةٌ منْ راوياتِ الحديثِ ، روىٰ عنها هاشمُ بنُ هاشم.
* سُكينةُ بنتُ قريش ، محدّثةٌ حدَّثتْ عن عائشةَ وروىٰ عنها مُسْلم الجرميّ.
* سُكينةُ بنتُ سَعْد ، محدّثةٌ حدَّثتْ عن مليلة بنتِ هانىء ، وروىٰ عنها إسماعيلُ بنُ يُوسُف.
* وسُكينةُ بنتُ حنظلةَ ، محدّثةٌ حدَّثَتْ عن أبيها ، وروىٰ عنها عبدُ الرحمن بنُ سليمان بنِ الغسيل.

قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «حَمَلَةُ القُرآنِ عرفاءُ أهْلِ الجَنَّةِ»[1].

سُـكَيْنَـةُ والـزَّوَاجُ:

* عندما شبَّتْ سُكينةُ بنتُ الحُسين ، وصارتْ منْ عدادِ النِّساء ، كانتْ منْ أجملِ نساءِ عَصْرِها ، فقد أنعمَ اللهُ عليها بالملاحةِ والجمالِ والحُسْنِ ، ونَشَأَتْ في بيتِ أبيها الحُسين ـ رضي الله عنه ـ في نعمةٍ ورَغَدٍ منَ العيشِ.

* وكان لسُكَينةَ أختٌ تُسمّىٰ فاطمة لا تقلُّ عنْها جَمالاً وأدباً وخُلُقاً وعلْماً ، وهي إحدىٰ اللواتي رَوَيْنَ الحديثَ النَّبويَّ الشَّريفَ أيضاً ، وكانتْ فاطمةُ هذهِ أكبرُ منْ سُكينةَ[2] ولكنَّهما قرينتانِ في الفَضْلِ والأَدَبِ وحُسنِ الأحدوثةِ وكرمِ الخَصَائِلِ.

* وتروي كُتُبُ الأدبِ وغيرِها منْ كُتُبِ الطَّبقاتِ ، أنَّ ابنَ عمِّها الحسنَ بنَ الحسنِ بنِ علي الملقّب بالمثنَّىٰ ، قد خَطَبَ إلىٰ أبيها الحُسين ، فقال له الحُسين ـ رضي الله عنه ـ: انطلقْ معي يا بن أخي فقد انتظرتُ هذا منك.

* وخرجَ الحُسين بابنِ أخيهِ حتّىٰ أدْخَله منزلَه ، ثمَّ إنَّه خيَّره في ابنتيهِ: فاطمةَ وسُكينةَ ، وقال له: يا بني اخترْ أحبَّهما إليكَ. فاختارَ الحسن المثنّى فاطمة ، فزوَّجه إيّاها.

* وكان يُقال بعد هذا الزَّواجِ: إنَّ امرأةً تُخْتَارُ علىٰ سُكينةَ لمنقطعةُ القرينِ في الحُسْنِ والجمالِ[3].

* ويُقالُ: إنَّ الحسنَ بنَ الحسنِ المثنّىٰ قَدْ غَلَّفَه الحياءُ ، وعندها اختارَ له عمُّه الحُسين فاطمةَ إذْ إنَّها أكثرُهُما شبْهاً بجدّتها فاطمة الزَّهراء ، سيّدة نِساءِ العالمينَ ، وأفضل بناتِ النَّبييْنَ والمُرسلين ﷺ.

---

(١) تاريخ مدينة دمشق (تراجم النِّساء ص١٥٥) ، والحدائق الغناء (ص١٤٣).
(٢) البداية والنهاية (٨/ ١٩٠) ، والكامل في التاريخ.
(٣) الأغاني (١٤/ ١٦٥) بتصرف يسير. وانظر: نسب قريش.

* وهنالكَ تهافتَ الخاطبونَ علىٰ سُكينةَ يبغونَ رَبْطَ سَبَبِهم ونَسبِهم بالبيتِ النَّبوي الطَّاهرِ ، فكانَ أنْ تزوَّجَهَا ابنُ عمِّها عبدُ اللهِ بنُ الحسَن بنِ علي ، وهو أوَّلُ مَنْ تزوَّجَها ، ثمَّ إنَّه ماتَ عنها بعد مدّة[1] .

* ثمَّ إنَّ مُصْعَبَ بنَ الزُّبير بنِ العوَّام أمير العراقَيْن ، وابنُ حواري رسولِ الله ﷺ كانتْ له أُمنيةٌ بأنْ يجمعَ بين عقيلتَي قريش: سُكينة بنتُ الحُسين ، وعائشةُ بنتُ طلحةَ ، حيث تذكُرُ الأخبارُ أنَّه اجتمعَ في المسجدِ الحرام: عبدُ الملكِ بنُ مروانَ ، وعبدُ اللهِ بنُ الزُّبير ، وأخواه مُصعبٌ وعروةُ؛ أيّامَ تألُّفِهم بعَهْدِ معاويةَ بنِ أبي سُفيان ـ رضي الله عنهما ـ ، فقال بعضُهم: هَلُمَّ فَلْنَتَمَنَّه ، فقال عبدُ اللهِ بنُ الزُّبير: مُنْيَتي أنْ أملكَ الحرَمَيْن ، وأنالَ الخلافةَ. وقال مُصعبُ: منيتي أنْ أَمْلِكَ العِرَاقَيْن ، وأجمعَ بينَ عقيلَتي قُريش: سُكينة بنتُ الحُسين ، وعائشةُ بنتُ طلحة.

* وقال عبدُ الملكِ بنُ مروانَ: مُنيتي أنْ أملكَ الأرضَ كلَّها وأخْلُفَ معاويةَ. فقال عروةَ: لستُ في شيءٍ مما أنتمْ فيهِ ، مُنيتي الزُّهدُ في الدُّنيا ، والفوزُ بالجنَّةِ في الآخرةِ ، وأنْ أكونَ ممن يُروىٰ عنه هذا العِلْمُ. فصرفَ الدَّهرُ منهم مَنْ صَرَفَهُ ، إلىٰ أنْ بلغَ كلُّ واحدٍ منهم إلىٰ أمَلِهِ. وكان عبدُ الملكِ بنُ مروانَ يقول: مَنْ سَرَّهُ أنْ ينظرَ إلىٰ رجلٍ منْ أهلِ الجنَّةِ ، فلينظر إلىٰ عروةَ بنِ الزُّبير[2] .

* وجاءَ اليومُ الذي تحقَّقَتْ فيه أمنيةُ مُصْعَب بنِ الزُّبير ، إذْ أصبحَ أميرَ العراقَيْن ، وكانَ شُجاعاً جَميلاً جليلَ القَدْرِ مُمدَّحاً ، فتزوَّج سُكينةَ بنتَ

---

(١) انظر: المحبر (ص٤٣٨) ، ونوادر المخطوطات (١/ ٦٤).

(٢) وفيات الأعيان (٣/ ٢٥٨) ، وهناك روايات مشابهة ، وفيها عبد الله بن عمر بدلاً من عروة.

الحُسَين وعائشةَ بنتَ طلحةَ ، وجَمَعهما في دارِه ، وكانتا منْ أعظمِ النِّساء قَدْراً ومَالاً وجمَالاً[1] .

* وتروي الأخبارُ أنَّ مُصْعَباً قدْ أمْهَرَ سُكينةَ بنتَ الحسينِ مليون درهماً ، كما أمْهَرَ عائشةَ بنتَ طلحة مثلها أيضاً .

* وفي «أغانيه» يذكرُ أبو الفرج الأصبهانيُّ أنَّهُ لما قدمتْ سُكينة عليه ، أعطىٰ أخاهَا عليَّ بنَ الحسين لأنَّه حملَها أربعينَ ألف دينار[2] .

* ويروي أبو الفرج أنَّ سُكينةَ قالت : دخلتُ علىٰ مصعبٍ وأنا أحسنُ من النَّار الموقَدةِ في الليلةِ القَرَّة[3] .

* ولعلَّ خَبر هذا المَهْرِ الخيالي الضَّخْم في ذلكَ العَصْرِ ، قد انتشرَ صيتهُ بينَ النَّاسِ انتشارَ النَّار في الهشيم ، وأعظمُوهُ ، وذكَرَهُ الشُّعراءُ وأصحابُ اللَّسَنِ والفَصَاحةِ ، وفي هذا المَهْرِ يقولُ أحدُ الشَّعراء ويُدعىٰ أنسُ بنُ زنيم الدَّيلي[4] لعبدِ اللهِ بنِ الزُّبيرِ أخي مُصْعب :

---

(١) انظر : حلية الأولياء (٢/ ١٧٦) ، وعيون الأخبار (١/ ٢٥٨) ، وسير أعلام النبلاء (٤/ ١٤١) وغيرها .

(٢) الأغاني (١٦/ ١٥٩) .

(٣) المصدر السابق نفسه . و«الليلة القرَّة» : الباردة .

(٤) أنسُ بنُ زُنَيم بنِ عمرو بنِ عبد اللهِ الكِنانيّ الدِّيليّ منْ شُعراء الصَّحابةِ ، كانَ قَدْ هَجا النَّبيَّ ﷺ فَأَهْدَرَ دمَه ، فبلَغَه ذلك ، فَقَدِم عليه مُعْتَذراً ، وأنشدَه أبياتاً مَدَحَهُ بها ، وكلَّمَهُ فيه نَوفلُ بنُ معاويةَ الدِّيلي فقال : أنتَ أوْلىٰ بالعفوِ ، ومَنْ مِنَّا لَمْ يُؤْذِكَ ولمْ يُعادِكَ ، وكنا في جاهليةٍ لا نَدري ما نأخذُ وما نَدعُ ، حتّى هَدَانا اللهُ بِكَ ، وأنقذَنا منَ الهُلكةِ ، فقال : «قد عَفوتُ عنه» . فقال : فِداكَ أبي وأمِّي . فمدحه أَنَسٌ بأبياتٍ منها :

تَعَلَّم رسولَ اللهِ أنَّك مُدركي ... وأنَّ وعيداً منْكَ كالأَخْذِ باليَدِ

ومنها :

فَما حَمَلَتْ منْ ناقةٍ فوقَ رحْلِها ... أبرَّ وأوفىٰ ذمَّةً منَ محمّدِ

وهذا البيتُ قال عنه دِعْبل بن عليّ : هذا أصدقُ بيتٍ قالَتْه العرب . =

أَبْلـغْ أميـرَ المـؤمنيـن رسـالـةً   مـن نـاصحٍ لـكَ لا يـريـدُ خِداعـا
مَهْـرُ الفتـاةِ بـألـفِ ألْـفٍ كـامـلٍ   وتبيـتُ سَـاداتُ الجيـوشِ جيَـاعَـا
لـو لأبـي حَفْـصٍ أقـولُ مقـالتـي   وأقـصُّ شَـأْنَ حـديثهـم لارْتَـاعـا[1]

* ولمّا سَمِعَ عَبْدُ اللهِ بنُ الزُّبير شِعْرَ أنسِ بنِ زنيم قال: واللهِ صَدَقَ أَنَسٌ ، لو قيْلَتْ هذهِ المقالة لأبي حَفْص ـ كنية عمر بن الخطّاب رضي الله عنه ـ لارتاعَ منْ تزويجِ امرأةٍ علىٰ ألفِ ألفٍ ، ثمَّ استدعىٰ عبدُ الله أخَاه مُصْعَباً ، وعاتَبه علىٰ فعْلَتِهِ التي فَعَل.

* وتقولُ بعضُ المصادرِ: إنَّ هذا الزَّواجَ قَدْ أثْمَرَ ، حيثُ أنجبتْ سُكينةُ لمصعبَ ابنةً أسْمَتْها فاطمة ـ أو الرَّباب ـ ، ولكنَّها ماتَتْ وهي صغيرةٌ[2].

* وفي كَنَفِ مُصعب بنِ الزُّبير ، طارتْ شهرةُ سُكينة ، وأضحتْ كالعَلَمِ في عَالم النِّساءِ القُرشيّات الأديْبَاتِ العَالِمات.

= قال ابنُ حجر: ولأَنس بنِ زُنيم مع عُبيد اللهِ بنِ زياد أمير العراق أخبارٌ أوردَهَا أبو الفرج الأصبهاني في ترجمة حارثة بن بدر الغدَّاني ، منها أنَّ عُبيد اللهِ بن زياد كانَ يُحرِّشُ بين الشُّعراء فأمر حارثةَ أنْ يهجوَ أنسَ بنَ زنيم ، فقال أبياتاً منها قوله:
وخُبِّـرتُ عـنْ أنـسٍ أنَّـه   قليـلُ الأمـانـةِ خـوَّانهـا
فأجابه أنسٌ بأبيات أولها:
أتَتْنـي رسـالـةَ مستنكـرٍ   فكـانَ جـوابـي غُفْـرانهـا
(الإصابة ١/١٠٨ ـ ١١٠).

(١) المعارف (ص٢٢٣) ، والأغاني (١٤/١٦٨) ، ولكن أبا الفرج الأصبهاني قال بأنَّ قائلَ الأبيات هو عبدُ اللهِ بنُ همام السَّلولي ، وأنَّه كَتَبَها علىٰ يَدِ أبي السَّلاس ، وأرسلَهُ إلىٰ عبدِ اللهِ بنِ الزبير.

(٢) المحبّر (ص٣٩٧). وقال أبو الفَرج الأصبَهانيّ: وَلَدَتْ منْ مُصْعَبَ بِنْتاً فقالَ لها: سمّيها زَهْراء. قالتْ: بلْ أسمّيها باسمِ إحدىٰ أمَّهاتي ، وسمّتها الرَّباب. فلمَّا قُتِلَ مُصعب وَليَ أخوه عروةُ تركته ، فزوَّجها يعني الرَّباب بنتُ مصعب ابنه عثمان بن عروة ، فماتتْ وهي صغيرةٌ ، فورِثها عثمان بنُ عروة عشرة آلاف دينار. (الأغاني ١٦/١٥٩).

* ويبدو أنَّ مصعبَ بنَ الزُّبيرِ قد طارتْ شهرتُه هو أيضاً ، حينما كانَ شاعرهُ عُبيدَ اللهِ بنَ قيس الرُّقيَّات ينسجُ أَشْعَاره فيهِ ، ويضعهُ في مصافِّ الخُلفَاءِ ، إذ يقول :

عَلىٰ بَيْعَةِ الإسْلامِ بَايَعْنَ مُصْعَبَا ... كَراديْسَ مِنْ خَيلٍ وجَمْعاً مُبَاركا
تُـدارِكُ أُخْـرانـا وتَمْضـي أمَـامَـنـا ... وتَتْبَـع ميمـونَ النَّقيبـةِ نـاسِكَـا
إذَا فَـرغَـتْ أظْفَـارهُ مِـنْ كتيبـةٍ ... أمَالَ علىٰ أخرىٰ السُّيوفَ البواتكا[1]

* ويظهرُ أنَّ ابنَ قيس الرُّقيّات كان كَلِفاً بمُصْعَب بنِ الزُّبيرِ أشدَّ الكَلَفِ ، حيث كانَ مصعبٌ جَواداً كريماً[2] ، لا تمرُّ الدَّراهِمُ علىٰ يدهِ إلا عابراتُ سَبيل ، بل لم تعرفْ في جيبهِ موضعاً ، ولمْ تجدْ في قلبهِ مرتَعاً. ولذلك فإنَّ ابنَ قيس الرُّقيّات قَدْ توَّجَ مُصْعباً منْ أشعارِهِ بتيجان منْ دُرَرِ البيانِ والأناقةِ والتَّأنق ، وجمالِ المعاني الإسلاميّة الحُلوة اللائقةِ ، ومنها قوله :

إنَّمـا مُصْعـبٌ شهَـابٌ مِـنَ ا ... للهِ تجلَّـتْ عـنِ وجْهِـهِ الظَّلْمـاءُ
مُلْكـهُ مُلْـك عـزَّةٍ ليـس فيـهِ ... جَبَـروتٌ منـه ولا كِبْـريَـاءُ
يتَّقـي اللهَ فـي الأُمُـورِ وقَـد أفـ ... ـلحَ مَـنْ كَـانَ هَمُّـهُ الاتِّقَـاءُ[3]

---

(١) ديوان ابن قيس الرقيات (ص ٢٣٠) ، والأغاني (٥٧/١٦) طبعة بولاق. و«كراديس» : جمع كردوسة ، وهي الجماعةُ الكبيرةُ منَ الخيل. و«البَواتك» : جَمْع باتك ، وهو القَاطع.

(٢) كانَ مُصعبُ بنُ الزُّبير يُسمّى آنيةَ النَّحل منْ كرمِهِ وجودِه ، وكانَ منْ أجملِ النَّاس وأشْجَعِهم وأجودِهم ، وذكرهُ عبدُ الملك بنُ مروانَ فقال : كانَ رئيساً نفيساً ، وقال بعضُ الأَشْراف في قَتْلِهِ :

فَـلا تَحْسَـبِ السُّلطـانَ عـاراً عِقَـابُه ... ولاذلـه عنـدَ الحفَـائِـظ والأَصْـلِ
فَقَـدْ قَتَـلَ السُّلطـانُ عَمْـراً ومُصْعبـاً ... قَـريعَـي قـريـشٍ واللـذْيـن هُمـا مِثْلـي
عمـادُ بنـي العَـاص الـرَّفيـع عمَـادُهُ ... وقـرْمُ بنـي العـوّام آنيـةُ النَّحـلِ

(ثمار القلوب للثعالبي ص٥٠٨).

(٣) ديوان ابن قيس الرقيات ، وفيه يقول أيضاً :

ومُصْعَـبُ حيـنَ جـدَّ الأمْـ ... ـرُ أكثـرُهـا وأطيبُهـا

فِـرَاقُ الحَبِيْــبِ :

* عاشتْ سُكينةُ حياةً متموّجةَ الأحداثِ مع مصعب بنِ الزُّبير ، فقد شهدتْ حَرْبَه الضَّروسَ مع عبدِ الملك بنِ مروانَ ، وكانت منزلتُه عظيمةً عنْدهَا ، فقد دخَلَ عليها يومَ قُتِلَ ، فنزعَ عنه ثِيابَه ، ولبسَ غلالةً ، وتوشَّحَ بثوبٍ ، وأخذَ سَيْفَه ، فعلمتْ سُكينةُ أنَّه لا يريدُ أن يرجعَ ، فصاحَتْ منْ خَلْفِهِ : واحزناهُ عليكَ يا مُصعَبِ. فالتفتَ إليها ـ وكانت تُخْفِي ما في قلبِها منه ـ فقال: أَوَكُلّ هذا لي في قَلْبِكِ؟!.

فقالت : إي وَاللهِ وما كنتُ أخْفي أكثر.

فقال: لو كنتُ أعلمُ أنَّ هذا كلَّه لي عندكِ لكانتْ لي ولَكِ حالٌ ، ثمَّ خرجَ ولم يرجعْ[1].

* وأوردَ ابنُ عَساكر ـ رحمه الله ـ أنَّ مُصْعَباً قد اشتاقَ إلىٰ سُكينةَ بعد رحيلهِ إلىٰ القتالِ ، فقال: لما خرجَ مصعبُ بن الزُّبير ، فصارَ علىٰ عَشَرة أيامٍ منَ الكوفةِ ، كَتَبَ إلىٰ سُكينَة بنتِ الحُسين :

وكـانَ عَـزيـزَاً أنْ أَبيـتَ وبَينَنَـا ... شعَارٌ فَقْدَ أصبحتُ منكِ على عَشْرِ
وأبكـاهُمـا واللهِ للعَيْـن فـاعْلَمـي ... إذا ازددتُ مثْلَيْها فصرتُ على شَهر
وأبكـىٰ لعينـي منْهمـا اليـومَ أنّنـي ... أخـافُ بـألاّ نلتقـي آخِـرَ الـدَّهـر[2]

---

(١) أعلام النّساء (٢/ ٢١٧) ، وبعدَ هذه القصّة بينَ سُكينة ومُصْعب تردُّ الدكتورةُ بنتُ الشّاطىء علىٰ الدّكتور زكي مبارك ردّاً عنيفاً في كتابهِ «حبّ ابن أبي ربيعة وشعره» فتقول: أَجَلْ لا تعجبْ ، فقد مُسَخَتِ القيمُ عند صاحبِ «حبّ ابن أبي ربيعة» فقد انعكستِ الأوضاعَ في تقديره ، فصار هذا الضّبطُ العاطفيُّ ـ حتّى في مُخْدَعِ الزَّوجية دليلُ نزقٍ وطيشٍ ، مثْلُهُ مِثْل التّبذلِ الماجنِ الذي عدَّه مظهرَ أصالةٍ في أسرةِ سُكينة ، والتَّخرّج الخاشع الذي عدّه سِمةَ القِيانِ الإماءِ في جميلةِ المغنية. (تراجم سيدات بيت النبوة ص ١٠٠٧).

(٢) تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء ص ١٥٨) ، وتاريخ الإسلام للذهبي (ص ٣٧٢) ، والحدائق الغناء (ص ١٤٤).

* ومنَ الجدير بالذّكْرِ أنَّ عبدَ الملك بن مروان عندما خرجَ إلىٰ مُصعب ، أعدَّ العُدَّةَ ، وحَسِبَ حسابَ مُصعب ، وعلمَ شجاعةَ مصعبٍ أيضاً ، لذلك قالَ لرؤساء أهْلِ الشَّام عندما عرضُوا عليه أنْ يُرسلَ له أحدَ القُوّاد : إنَّه لا يقومُ بهذا الأَمْرِ إلا قرشيٌّ لهُ رأيٌ ، ولعلَّي أبعثُ مَنْ له شجاعةٌ ولا رأيَ له ، وإنّي أجدُ في نَفْسي أنّي بصيرٌ بالحربِ ، شجاعٌ بالسَّيفِ ، إنْ أُلْجِئْتُ إلىٰ ذلك ، ومصعبٌ في بيتِ شجاعةٍ ، أبوهُ أشجعُ قريش ، وهو شُجاعٌ ، ولا عِلْم له بالحربِ ، يحبُّ الخَفْضَ ، ومعهُ مَنْ يخالِفهُ ، ومعي مَنْ يَنْصَحُ لي .

* ثمَّ نهضَ وسار حتّى نَزَلَ مَسْكِن[1] ، وتدانىٰ العَسْكَران والتقىٰ القومُ ، وبدأت الدَّائرة تدورُ علىٰ مصعب حيث همَّ أهلُ العراقِ بالغَدْرِ به ، واشتدَّ القتالُ بينَ الفريقيْن حتى قُتِلَ مصعبٌ ـ رحمه الله ـ ، ويبدو أنَّ سُكينةَ قد لحقتْ به وشهدتْ مصرعَه .

* هذا ولم يترك شاعره عبيد الله بن قيس الرقيات مقتل مصعب يمر دون أن يسجلَه في أشعارِه ، فقد رثَاهُ في هذه المَقْطُوعةِ التي تَسيلُ فيها النَّفْسُ ، ويسيلُ فيها الحزنُ سَيَلاناً فقال :

إنَّ الرَّزيّةَ يَومَ مَسْـ ... ـكِنَ والمُصيبةَ والفَجيعَه

يا بْنَ الحواريّ الذي ... لم تَعْدُهُ يومَ الوقيعَه

غَدرتْ به مُضَرُ العِرا قِ ... وأمكَنتْ منه ربيعَه

فأَصَبْتِ وِتْرَكِ يا ربيـ ... ـعُ وكنتِ سامعةً مطيعه

يا لَهْفَ لو كانتْ له ... بالدَّيْرِ يومَ الدّير شِيْعَه

سُكَينَةُ ومَقْتَلُ مُصْعَب وأَثارَةٌ مِنْ فَصَاحَتِهَا :

* في «بدايتِهِ ونهايتِهِ» أورَدَ ابنُ كثير أنَّ سُكينةَ بنتَ الحُسين كانتْ مع

---

(١) «مَسْكِن» : موضعٌ قريبٌ منْ أوانىٰ ، على نَهْر دُجَيل عند دير الجاثليق ، به كانتِ الوقعةُ بين عبد الملك بن مروان ومصعب بن الزبير ، ويوم مَسْكن هو لعبد الملك بن مروان .

زوجها مصعبَ بن الزُّبير يومَ مَسْكِن ، في تلكَ الوقْعةِ التي قُتِل فيها ، ولمّا وَضَعتِ الحربُ أوزارها ، دخلتْ سُكينةُ بينَ القَتْلَىٰ تطلبُ مُصْعَباً ، حتى عرفته بشَامَةٍ كانت في خَدِّهِ ، وعندها تأوَّهَتْ وقالتْ تحمدُه : نِعْمَ بعْلُ المرأةِ المسلمةِ كنتَ يا بنَ الأخْيَار ، أدركَكَ واللهِ ما قالَ عنترةُ بنُ شدَّاد :

وَحَليلِ غَانِيةٍ تركتُ مُجدّلاً تمكُو فريصَته كَشِدْقِ الأَعْلَمِ

فَشَكَكْتُ بالرُّقْمِ الأَصَمِّ ثيابَه ليس الكريمُ علىٰ القَنَا بمحرَّمِ (١)

---

(١) البداية والنهاية (٨/ ٣٢٥) بتصرف يسير ، وانظر مختصر تاريخ مدينة دمشق (٢٤/ ٣٢٨و٣٢٩) ، وقد نقلتُ البيتَيْن من شرحِ المعلقات العَشْر للزَّوزني ، تحقيق : يوسف علي بديوي .
هذا والبيتَان اللّذان تمثَّلَتْ بهما سُكينة من معلَّقةِ عَنترةَ ، والتي تبلغُ (٧٥ بيتاً) ، وأوّلها :
هَل غَادَرَ الشُّعراءُ مِنْ متردَّم أمْ هَلْ عرفتِ الدَّارَ بعد توهُّمِ
والبيتَان اللّذان أنشدتْهُما سُكَينةُ ليسا متتاليَيْن ، وإنّما جَمَعَتْ بينهما لما يحملان منْ معنىٰ في نفسها .
و«حَليل» : هو الزَّوجُ ، والحليلةُ : الزَّوجةُ . و«الغانيةُ» : الغانيةُ البارعةُ الجمال المستغنية بكمالِ جِمالها عنِ التَّزيُّن . قال عَمارةُ بنُ عقيل : الغانيةُ : الشَّابَّةُ الحسَنْاء التي تُعجبُ الرّجال ويعجبُها الرجال .
و«مجدّلاً» صريعاً . و«تمكو» : تُصَفِّر ، والمُكاء : الصَّفِير ، وفي القُرآن الكريم ، ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ [الأنفال : ٣٥] ، يعني : إنَّ صلاتَهم عندَ البيتِ الحرام باطلةٌ كمكاءِ الطَّير ورجْع الصَّدى . و«فريصتُه» الفريصةُ : لحمةٌ بين الكَتِفِ والصَّدْر ترتعدُ عِنْدَ الفزعِ ، وهما فريصتان ، وهما عصبُ الرَّقبةِ وعروقُها لأنَّها هي التي تثورُ في الغَضَب . و«الأعْلَمُ» : العَلَمُ : الشَّقُّ في الشَّفَةِ العُليا .
ومعنى البيت : وربّ زوج امرأةٍ بارعةِ الجمالِ مستغنية بجمالها عن التَّزيَّن قَتَلْتُه ، وألقيتُه على الأرض ، وكانت فريصتُه تمكو بانصباب الدَّم منها كشدقِ الأعْلَم .
ومعنى «شككتُ» الشَّكُّ : الانتظام ، والفعل : شكَّ يشُكُّ ، و«الأصمّ» : الصّلْب .
ومعنى البيت الآخر : انتظمتُ برمحي الصّلب ثيابَه ، إذ طعنتهُ طعنةً أنفذتِ الرمحَ =

* ويروي ابنُ الفقيه أنَّه لما قُتِلَ مصعبٌ أرادتْ سُكينةُ ـ رحمها الله ـ الرَّحيلَ إلىٰ المدينةِ المنوَّرةِ ، وكانتْ بالكوفةِ في أرضِ العراقِ ، فقالَ لها أهلُ الكوفةِ ، يا بنتَ رسول الله ، أَحْسَنَ اللهُ صحابتِكِ ، وفَعَلَ بكِ وفَعَل .

فقالت : يا أهلَ الكوفةِ! لا أَحْسَنَ اللهُ صحابَتكم ، فلقد قَتَلْتُم جدّي عليّاً ، وعمّي الحَسَن ، وأبي الحُسين ، وبعْلي مُصْعَباً ، فأيتمتموني صغيرةً ، وآيمتموني[1] كبيرة ، فلا أحْسنَ اللهُ عليكم الخلافةَ ، ولا رفَعَ عنكمْ السُّوء[2] .

* وتروي كثيرٌ منَ المصادرِ أنَّ سُكينةَ بنتَ الحُسين ، لم تتركْ حادثةَ مَقْتلِ زوجها ، تمرُّ دونَ أنْ تَتْرُكَ أثارةً من ذوبِ نفسِها ، فقد نُقِلَ عنها أنَّها قد رثَتْ مُصْعَباً أجودَ رثاءٍ ، وأشارتْ إلىٰ شجاعَتِهِ وإقدامِهِ فقالتْ :

= في جسمه وثيابه كلّها ، وإنَّ الرِّماحَ مولعةٌ بالكرامِ لِحرصهم علىٰ الإقدامِ ، فليس الكريمُ محرّماً على الرّماح .

(١) «آيمتموني» : أي أرملتموني كبيرة .

(٢) كتاب البلدان لابن الفقيه (ص ٢٢٤و٢٢٥) ، وانظر : عيون الأخبار (١/ ٢١٢) ، والبَصَائر والذَّخائر (٢/ ٢٢٦) ، وغيرها .

هذا وقد عَقَدَ ابنُ الفقيه فَصْلاً جميلاً في ذمِّ الكوفةِ ، ومنه : قالَ عمر بنُ الخطَّاب ـ رضي الله عنه ـ : أَعْضَلَ بي أهلُ الكوفةِ ، ما يرضُون بأميرٍ ، ولا يرضاهم أميرٌ ، ولا يصلحون لأميرٍ ولا يصلحُ لهم .

ودخَل اليقظانُ بنُ ظهير على عائشةَ أمِّ المؤمنين ـ رضوان الله عليهم ـ فقالتْ : ممّن أنتَ؟

فقال : منْ أهلِ الكوفة .

فقالت : ودَدْتُ أنَّ اللهَ سلَّطَ علىٰ أهلِ الكوفةِ عذاباً مثل عذابِ يوم الظُّلةِ .

وهجاهُم أصغرُ بن حسَّان المازِني المذحجيّ حينما التمسَ منهم الإحسان فلمْ يفعلوا به جميلاً ، فقال أبياتاً منها :

رحَلتُ إلى قومٍ أُوَمِّلُ رِفْدَهم ... وما سائلُ الكوفيّ إلا مُقاتِلُهُ
لصوصٌ إذا مارستَهم في بيوتهم ... مُنيتَ بخصْمٍ لا تزالُ تُجادِلُه
فويلٌ أُمِّها منْ قريةٍ غير أنَّها ... قليلٌ بها مُعطي الجزيلَ وفاعلُ

فإنْ تَقْتُلُوهُ تَقْتُلوا الماجِدَ الذي يرىٰ الموتَ إلاّ بالسُّيوفِ حَرَاما
وقَبْلَك ما خَاضَ الحُسينُ منيّةً إلىٰ القوم حتّى أوْرَدُوه حِمَاما(١)

وفي رثاءِ مُصْعَب بن الزُّبير يقولُ رجلٌ من بني أَسَد بن عبد العُزّى:

لعمركَ إنَّ الموتَ منّا لمولَعٌ بكلِّ فتىً رحْبِ الذِّراع أَريبِ
فإنْ يكُ أمسىُ مصعبٌ نالَ حَتْفَه لقد كان صلْبَ العودِ غير هَيُوب
جميلُ المحيّا يوهنُ القِرْنَ غَربُهُ وإنْ عضَّه الدَّهْر فغيرُ رهُوبِ
أتاهُ حِمَامُ الموتِ وسْطَ جُنوده فطاروا سلاسلاً واستقىٰ بذَنُوب(٢)
ولو صَبَروا نالوا حباً وكرامةً ولكنّهم ولّوا بغيرِ قُلوبِ

* ومنَ الجدير بالذّكْر أنَّ الذي قَتَل مُصْعَباً يُسمَّى عُبيدَ الله بنَ زياد بنِ ظبيان، وذكرَ عبدُ الرَّحيم العَبّاسي في كتابهِ النَّفيس «معاهد التَّنْصيص»، أنَّه لما قُتِلَ مصعبٌ اجتمعَ عبدُ اللهِ بِن الزَّبير ـ الشَّاعر الكوفي منْ شعراءِ الدَّولة الأمويّة ـ وكانَ عبد الله يُكْنَى أبا كَثير، ماتَ في خلافةِ عبدِ الملكِ بنِ مروانَ، وكان يمدحُ مصعبَ بنَ الزُّبير، وعبيد الله بن زياد بن ظبيان في مجلسٍ، فعرفَ ابنُ الزَّبيرِ خبرَه، وكانَ عبيدُ اللهِ هو الذي قَتَل مُصْعَباً، فاستقبله ابنُ الزبير بوجههِ وقالَ له:

أبَا مَطَرٍ شَلَّتْ يَمينٌ تَفَرَّعَتْ بسيفكَ رأْسَ ابن الحَواريِّ مُصْعَبِ(٣)
ولا ظَفَرَتْ كفَّاكَ بالخيرِ بَعْدَه ولا عشْتَ إلاّ في بوارٍ مُخيبِ(٤)

---

(١) زهر الآداب (١/ ٦٤)، وشاعرات العرب (ص ١٦٤)، وأعلام النساء (٢/ ١١٧)، والحدائق الغناء (ص ١٤٤).
(٢) «الذَّنُوب»: بفتح الذال: الدّلو.
(٣) «تفرعتَ»: علوتَ رأسَه بالسَّيف. و«الحواري»: هو الزبير بن العوام ـ رضي الله عنه ـ وأمه صفية بنت عبد المطلب عمة سيدنا رسول الله ﷺ، وكان يقال له حواري رسول الله.
(٤) «بوار»: هلاك. وفي القرآن الكريم: ﴿وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾ [إبراهيم: ٢٨]، أي: الهلاك ـ جهنم.

قَتَلْـتَ فتـىً كـانـتْ يَـدَاهُ بفَضْلـهِ تَسُحَّانِ سَحَّ العَارِضِ المُتَصَوِّبِ[1]
أَغَـرَّ كضـوءِ البَـدْرِ صُـورةُ وجهِـهِ إذا مَـا بَـدا فـي الجَحفَـلِ المتكَتِّـبِ

فقالَ لهُ ابنُ ظبيان: فكيفَ النَّجاةُ منْ ذلك؟ فواللهِ ما أفْلَحْنا بعده فَهَلْ من تَوبةٍ؟

فقالَ: لا نجاةَ، هَيْهاتَ، سَبَقَ السَّيفُ العَذَلَ[2].

* وكان ابنُ ظبيان بعد قَتْلِهِ مُصْعَباً لا ينتفعُ بنفسِهِ في نومٍ ولا يقظَةٍ، وكانَ يُهَوَّلُ عليه في منامه فلا ينامُ، حتّى نَحلَ جسمُه ونهكَ، فلم يزلْ كذلك حتّى مات[3].

* هذا ولمْ تحفظْ لنا ذاكرةُ التَّاريخِ ما رثَتْ به سُكينةُ مُصْعباً إلاّ قليلاً، وما تلفَّظَتْ منْ كلماتٍ بيِّناتٍ فصيحاتٍ إلاّ ما جاءَ نزراً في بطونِ المصادرِ، ويبدو لي أنَّ سُكينةَ ـ رحمها الله ـ قد ورثتِ الفَصَاحَة وقول الشِّعْرِ عن أبويها، فقد كان الحُسينُ ـ رضوان الله عليه ـ يقرضُ الشِّعْرَ، ويحسنُ النَّظْمَ، وقد مرَّتْ بنا بعضُ أشعارِهِ الجميلة في مطلعِ التَّرجمة، كما كانتْ أمُّها الرَّباب بنت امرىء القيس تجيدُ قَولَ الشِّعْر، فهِيَ منْ شاعراتِ عَصْر التَّابعين، وممن أَدْلَيْن دَلْوهنَّ في نظمِ الشِّعْر، وقد حَفِظ عنها رثاؤُها لزوجها الحُسين حينما قُتِلَ في كَرْبَلاء سنة (٦١ هـ) حيث تقول[4]:

إِنَّ الـذي كـان نُـوراً يُسْتَضـاءُ بـهِ بكـربـلاءَ قَتيـلٌ غيـرُ مَـدْفُـونِ

---

(١) «العارض»: السَّحاب. وفي القرآن الكريم: ﴿ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ﴾ [الأحقاف: ٢٤] أي: سحاب.

(٢) هذا مثل من الأمثال الشهيرة، وله قصة جميلة طريفة، انظرها في مجمع الأمثال للميداني.

(٣) انظر: معاهد التنصيص على شواهد التلخيص (١/ ٣١٣)، والممتع في صنعة الشعر (ص ٨٧).

(٤) الأغاني (١١/ ١٤٩ و١٥٠)، وشاعرات العرب (ص ١٢٨)، وأعلام النساء (٢/ ٤٣٨ و٤٣٩).

سِبْطَ النَّبيِّ جَزَاكَ اللهُ صالحةً   عَنَّا وَجُنِّبْتَ خُسرانَ الموازينِ
قد كنتَ لي جَبَلاً صَعْباً ألوذُ بهِ   وكنتَ تَصْحُبنا بالرّحمِ والدِّينِ
مَنْ لليتامىٰ ومَنْ للسَّائِلين ومَنْ   يعنىٰ ويأوي إليه كلُّ مسْكينِ
واللهِ لا أبتَغِي صِهْراً بصهرِكم   حتّى أُغَيَّبَ بيَن الرَّمْلِ والطِّينِ[1]

* وتحتضن كتب الأدب بين جوانحها مقطوعة يقال بأن سكينة قد رثت بها أباها ، وزعمت تلكم المصادر بأن سكينة قد خصت أباها بأثارة من رثائها ، وأظهرت من جراحات القلوب ما يشهد لها بالفصاحة والتقدم في هذا المجال ، ففي قصيدة تحرك كوامن القلوب ، وتستدر الدمع من العيون ، تقول سكينة في رثاء أبيها :

لا تَعْذُليه فَهَمٌّ قَاطِعٌ طَرَقَهْ   فعَيْنُه بدموع ذُرَّفٍ غَدِقَهْ
إنَّ الحُسَين غداةَ الطَّفِّ يرشُقُه   ريبُ المنونِ فما أَنَّ يخطىء الحدقَةْ
بكفِّ شَرِّ عبادِ اللهِ كلِّهم   نَسْل البغَايا وجَيْشِ المُرَّق الفَسَقَهْ
أَأُمَّةَ السُّوءِ هاتُوا ما احْتِجاجِكمْ   غداً وجلُّكُمُ بالسَّيفِ قَد صَفَقَهْ
الويلُ حلَّ بكمْ إلاّ بِمَنْ لحقه   صيرتموه لأَرْماحِ العدا دَرَقَهْ
يا عينُ فاحْتفلي طولَ الحياةِ دماً   لا تَبْكِ ولْداً ولا أَهْلاً ولا رَفَقَهْ

---

(١) هذا وقد رثى عدد من محبي أهل البيت الحسين ـ رضي الله عنه ـ وممن رثاه عبد الله بن الأحمر بقصيدة مطلعها :

صحوت وقد صحُّوا الصّبا والعَواليا   وقلتُ لأصحابي أَجيبوا المُناديا

ومنها :

ألا وانع خير الناس جداً ووالدا   حسينا لأهل الدين إن كنتَ ناعيا
وأضحىٰ حُسينٌ للرّماح دريئةً   وغُودِرَ مسلوباً لدىٰ الطَّفِّ ثَاويا
فياليتني إذْ ذاك كنتُ شهدتُه   فضاربتُ عنه الشَّانئين الأعاديا
سقىٰ اللهَ قبراً ضُمِّنَ المجدَ والتّقىٰ   بغربية الطَّفّ الغمام الغواليا

وللمزيد من هذا الرثاء انظر : مروج الذهب (٢/ ٢٣٣) ، وتاريخ الطبري (٦/ ٢٧٠) طبعة مصر . وغيرها من مصادر .

لكنْ على ابنِ رسول اللهِ فانْسَكِبي   دَمَاً وقيحاً وفي أثريهما العَلَقَةْ[1]

حيـاتُهـا بَعْـدَ مُـصْعَــب:

* تقولُ الرِّواياتُ الأدبيَّةُ وغيرها: بعدْ أَنْ قُتِلَ مُصْعَبُ بنُ الزُّبير، وبعد انقضاءِ عدَّة سُكينة، تهافَتَ الخاطبونَ علىٰ سُكينة واحِداً بعْدَ الآخر، وممن خطَبها عبدُ الملك بنُ مروانَ فَأَبَتْه وقالت: واللهِ لا يتزوّجني بَعْدَ قَاتِلهِ أبداً[2].
ثمّ إنّها ردَّتْ رسوله خائباً مَدْحُوراً.

* وعلمتْ رملةُ بنتُ الزُّبير بن العوّام ـ أختُ مصعب ـ بأنَّ عبدَ الملك بن مروانَ قد خَطَبَ سُكَينةَ، فَسَارَعَتْ رملةُ وخطبَتْها لابنها عبدِ اللهِ بن عثمانَ بن عبدِ اللهِ بن حكيمِ بن حزام، فولدت سُكينةُ لعبدِ اللهِ ولدَيْن هما: حكيمٌ، وعثمان، كما ولَدتْ له ابنة تُسمى: ربيحة.

* ولما ماتَ عبدُ اللهِ بنُ عثمان بن حكيم، تزوَّجها زيدُ بنُ عمرو بن عثمانَ بنِ عفّانَ، فشرطَتْ عليه شُروطاً منها: ألاّ يُغيْرَها، وألاّ يمنعها شيئاً تريدُه، وألاّ يُخالفها في أمْرٍ تريدُه وتحبُّه، وأنْ يقيمَها حيثُ جَلَتْها أمُّ منظور[3]، فوافَقَها علىٰ ذلك، وعلىٰ الذي تريدُ، فكانتْ تقولُ له: اخرجْ بنا إلىٰ المدينةِ، فإذا رجعَ يومه ذلك، قالت: اخرجْ بنا إلىٰ مكةَ[4].

---

(١) انظر: أمالي الزجاج (ص ١٠٩). ونعتقدُ أنَّ الأبيات تبدو منها رائحةُ والوضْع والنِّسبة إلىٰ سُكينة، إذِ التّكلُّف واضحٌ جداً فيها، والصَّنْعةُ تبدو عليها لتفضحَ واضعَها، ويبدو أنّها وُضعَتْ بعد مَقْتلِ الحُسين بقرون، والتمرس بصنعةِ الشْعر يدركُ ذلك، ثمّ إنَّ صاحبَ التّذوق الشّعري يدرك أنَّ قائلَ بل ناظمَ هذه الأبيات رجلٌ وليس امرأة، والله تعالى أعلم بالصّواب.

(٢) نوادر المخطوطات (١/ ٦٥).

(٣) «أم منظور»: امرأةٌ كانتْ تزيّن النّساء في ذلكَ العَصْر مشهورة، وقد وردتْ في شعرِ جميل بثينة.

(٤) أعلامُ النِّساء (٢/ ٢١٨) بتصرّف يسير. قالَ أبو الحَسن عليُّ بن محمّد المدائني في كتابه: «المردفات منْ قريش»: كانت سكينةُ تقولُ لزوجها زيد بن عمرو بن عثمان: =

* وكانتْ سُكَينةُ فيما رواهُ الرُّواة قَدْ شَرَطَتْ علىٰ زوجِها زيدِ بنِ عمرو إنْ مسَّ امرأةً ، أو حالَ بينها وبين شيءٍ منْ مالِهِ ، أو منعها مخرجاً تريدهُ فهي خَليّةٌ ، وصادفَ أنْ حجَّ زيدٌ في السَّنَةِ التي حجَّ فيها سُليمانُ بنُ عبد الملك ، فأَعْلَم زيدٌ سُكينةَ ، أنَّها أوّلُ سَنَةٍ يحجُّ الخليفةُ سُليمان ، وأنَّهُ لا يمكنهُ التَّخلُّفَ عن الحجِّ معه ، فأعْلَمَتْه أنَّها لا تأذنُ له بالحجِّ إلاّ أنْ يُخْرِجَ معه أَشْعب ـ الطَّماع المشهور ـ ويكونُ أشعبُ عَيْناً لها علىٰ زيدٍ ، ومانِعاً منْ عدولِهِ إلى ضيعتهِ التي تُسمّى العَرج ، حيث كانَ له فيها مالٌ وخدم .

* وانطلقَ زيدٌ ، فأدّى حجَّه ومنَاسِكَه ، ومعَه أَشْعبُ ، ولمّا انصرفَ راجِعاً واقتربَ منْ ضيعةِ العرَجِ ، دعَا أشعبَ وأعطاه أربعمئة دينار ، واستأْذنه في المسير إلىٰ العرجِ ، والمبيتِ فيها ، وأذنَ له في السَّير ، وحَلَفَ له أنَّه لنْ يخبرَ سُكينة . ولكنَّ سُكينةَ علمتْ فيما بعدُ بالخبرِ ، فاسْتَعْدَتْ عليهِ والي المدينة ـ وقتذاك عمر بن عبد العزيز ـ فأصلحَ بينهما ، وردَّ سُكينة عليه بعدما كادَتْ تخرجُ منْ يدِهِ[1] .

* ولما ماتَ زيدٌ ، خطبهَا الأصبغُ بن عبد العزيز بن مروانَ ، فقال فيه بعضُ المدنيّين : ـ وقيل : أيمنُ بنُ خريم ـ :

نكَحَتْ سُكينةُ في الحِسَاب ثَلاثةً فإذا دَخَلْتَ بها فأَنْت الرَّابعُ

= اخرجْ إلىٰ مكةَ وأَخْرِجْ معكَ أشعب ، فيُخْرِجه ويخرجُ مَنْ أرادتْ ، فإذا قضُوا حجَّهم ورجعوا فكانوا في نصفِ الطَّريق قال : يا بنَ عثمان ، ارجعْ إلى مكةَ ، فيقول : نعم ، فإذا صرفُوا الإبل إلى مكةَ قال لها : يا سُكينةُ ما أستطيع أنْ أخالفَك وقد انصرفَ النَّاسُ ، فإنْ رأيتِ أنْ تمضي معهم ، فتقولُ : نعم فتُمْضي معَهم يومَهم ذلك ، ثمّ تقولُ : يا بنَ عثمان ، ارجعْ! فيقول : نعم ، فتفعلُ ذلك مراراً ، ومع هذا مواتاة منها ، وقرّة عين وشفقة ونصيحة ، وإنّما كان ذلك كلّه منها مزاحاً لتسره ، ثم ترجعُ إلى ما يريد . (نوادر المخطوطات ١ / ٦٧) .

(١) أعلام النساء (٢ / ٢١٨ ـ ٢٢١) ، ونوادر المخطوطات (١ / ٦٦ / ٦٧) مع الجمع والتّصرف والاختصار .

إنَّ البقيــعَ إذا تَتَــابــعَ زَرْعُــهُ   خَـابَ البقيعُ وخَـابَ فيـه الـزَّارعُ[1]

* وكانَ الأصبغُ يتولىٰ مصرَ ، فكتَبَتْ إليه ، إنَّ أرضَ مصرَ وخمةٌ ، فبنىٰ لها مدينة تُسمّى الأصبغ. وبلغَ عبد الملكِ تزوّجه إياها ، فَنَفَسَ بها عليهِ ، فكتبَ إليه ، اخترْ مصرَ أو سُكينة. فبعثَ إليها بطلاقِها ، ولم يدخلْ بها ، ومتَّعها بعشرينَ ألف دينار[2]. ثم إنَّ سُكينة لم تتزوَّجْ بعدَ زيدِ بن عمرو ، وأقامتْ في المدينةِ المنوّرة حِيثُ أهلُها وأقاربُها وذووها وأولادُها.

سكَينـةُ وعَمَليّـةُ تَجْميــلٍ جِرَاحيّــة :

* لا يحسبَنَّ القارىءُ الكريمُ أنَّ ما نذكره أو نأتي بهِ بدْعاً منَ القولِ ، أو تسليةً نقطعُ بهِ السَّاعات والأُويقات ، أو ما شابَهَ ذلك ، بل إنَّ ما نتكلَّمُ عنه ، قد حَدَثَ لسُكَينة ، كما أكَّدَ الرُّواةُ والأخباريون ذلك.

* فلَقد شَهِدَ تاريخُ سُكينةَ عمليةً جراحيّةً تجميليّةً في وجهها ، ولم تخضعْ تلكمُ العمليةُ لأيِّ نوعٍ منْ أنواعِ التَّخديرِ ، بل ظلت صابرةً علىٰ الألَمِ حتّى انتهتِ العملية بِسلامٍ.

* والآن ، دعونا نقرأُ خَبر تلكم العملية الجراحية التي استغرقتْ بضعةَ سُطور ، ولم تستغرقْ سوىٰ زمنٍ بسيط. تقولُ أخبارُ العمليّة :

* خرجتْ سِلْعَة[3] في أَسْفَلَ عينِ سُكينةَ حتى كبرتْ ، ثمَّ أَخذَتْ وجهَها

---

(١) نوادر المخطوطات (١/ ٦٦). و«البقيعُ» : أصْلُ البقيعِ في اللّغة : الموضعُ الذي فيه أرومُ الشَّجر من ضُروبٍ شتّى ، وبه سُمِّي بقيعُ الغَرقد ، وهو مقبرةُ أهلِ المدينة المنورة. معجم البلدان (١/ ٤٧٣).

(٢) أعلام النّساء (٢/ ٢٢١) باختصار ، نقلاً عن الأغاني (١٦/ ١٦٠).

(٣) «سِلْعَة» : قال الفيوميُّ : السِّلْعَة : خُرّاجٌ كهيئةِ الغدّة تتحرّك بالتَّحريك. قال الأطبّاء : هي وَرَمٌ غليظٌ غيرُ ملتزقٍ باللحم ، يتحّرك عند تحريكه ، وله غلافٌ ، وتقبلُ التَّزيُّد ، لأنَّها خارجةٌ عنِ اللحم ، ولهذا قالَ الفقهاء يجوزُ قطعُها عند الأمنِ. (المصباح المنير).
وقال الرازي : السِّلْعَة : زيادةٌ تحدُث في البَدن كالغُدَّة ، تتحرّك إذا حُرِكَتْ ، وقد=

وعينَها ، وعظُمَ ما بها ، وكان «بدراقُس» مُنْقَطِعاً إليها ، فقالت له: ألا ترىٰ ما وقَعْتُ فيه؟

* فقال لها: أتصبرينَ علىٰ ما يمسُّكِ منَ الألَمِ حتّى أعالجَكِ؟ قالتْ: نَعَم.

* فأَضْجعَها ، وشَقَّ جِلْدَ وجهِهَا أَجْمعَ ، وسَلَخَ اللحَم من تحتِها ، حتى ظهرتْ عروقُها ، وكان منها شيءٌ تَحتَ الحدقةِ ، فرفَعَ الحدقةَ عنها ، حتى جَعَلَها ناحِيةً ، ثمَّ سَلَّ عروقَ السِّلْعَةِ منْ تحتِها ، فأخرجَها أجْمعَ ، وردَّ العينَ إلىٰ موضِعها ، وسُكينةُ مضطجعةٌ لا تتحرَّكُ ، ولا تَئِنُّ حتَّى فرغَ ممّا أرادَ ، وزال ذلك عنها ، وبرئتْ منه ، وبقيَ أثرُ تلكَ الحزازةِ في مؤخّرِ عينها ، فكانَ أحسنَ شيء في وجهِها منْ كلّ حُليّ وزينةٍ ، ولم يؤثّر ذلك في نَظَرِها ، ولا في عينِها[1]!!.

= تكونُ من حِمّصَةٍ إلىٰ بطيخة. (مختار الصحاح).
وقال مؤلفو «المعجم الوسيط»: السِّلْعَةُ ورمٌ غليظٌ غير ملتزقٍ باللحم ، يتحّرك عند تحريكهِ ، وله غلافٌ ، ويقبلُ الزّيادة لأنّه خارجُ عن اللحم. وزيادةٌ تحدثُ في الجَسَد في العنق وغيره تكون قَدْرَ الحِمّصة أو أكبر.
وقال ابنُ منظور السِّلْعَة: بكسر السّين: الضَّواةُ ، وهي زيادةٌ تحدثُ في الجَسدِ مثل الغُدّة.
وقال الأزْهري: هي الجدرةُ تخرجُ بالرأسِ وسائر الجسد ، تمورُ بينَ الجلدِ واللحم إذا حرّكتها، وقد تكون لسائر البدن في العنق وغيره، وقد تكون حمصة إلى بطيخة.
وفي حديثِ خاتَم النُّبوّة: فرأيتهُ مثلَ السِّلْعة ، قال: هي غدّةٌ تظهرُ بين الجلد واللحم إذا غُمِزَتْ باليدِ تحرّكت. (لسان العرب).
ـ نقول: ولعلّ السِّلْعة هذه تُشْبه ما يسميّه الأطباءُ اليوم «كتلة شحمية» أو «كيس شحمي» أو «درن» أو ما شابه ذلك والله أعلم بالصواب.

(١) انظر: أعلام النساء (٢/ ٢٢٢/ ٢٢٣) نقلاً عن الأغاني (١٤/ ١٧٣)، ونترك للقارىء الكريم حرية تصديق القصة أو عدم تصديقها. وأمّا «بدراقس» هذا ، فلم أجدْ له ترجمةً فيما بين يديّ من مصادر طبيّة قديمة وحديثة أو كتب تراجم قديمة وحديثة.

* وإذا ما صحَّتْ هذه القصّة ، فمعنىٰ ذلك أنَّ الطِّبَّ قديماً قد عرفَ عمليات التَّجميل عن طريقِ الجراحةِ ، وهذه إحداها[١] .

* وإذا ما رجَعَنا إلىٰ كتابِ «الطِّبِّ النَّبويِّ» نقرأُ عند ابن قيِّمِ الجوزيّة ـ رحمه الله ـ باباً بعنوان: فَصلٌ في هَديهِ ﷺ في علاجِ الأورامِ والخراجاتِ التي تبرأُ بالبطِّ[٢] والبَزْل[٣] ، وساقَ ابنُ قيم الجوزيّة أدلّةً علىٰ كلامه ، مشفوعةً بعددٍ منَ الأحاديثِ النَّبويّة ، ومن كلام الأطبّاء .

ظَـرفهَـا وحُبُّهَـا للـفُكَـاهَــةِ :

* لا شَكَّ في أنَّ الفكاهاتِ والمُلَحَ هي نزهةُ النُّفوسِ ، وربيعُ القُلوب ، ومرتعُ الأسْماعِ ، ومجلبُ الرَّاحاتِ ، ومعدنُ السُّرورِ ، وجمامُ القلوبِ والأبدان .

* ولما تعرَّضَ الرُّواةُ لأخبار سُكينةَ بقولهم :

* سيّدة نساءِ عَصْرِها ، منْ أجملِ النِّساء وأظرفِهِنَّ وأحسنِهنَّ أخْلاقاً[٤] .

* وقالَ اليافعيُّ : ولها نوادرُ وحكاياتُ ظريفةٌ[٥] .

* وصوَّرها الدّكتور زكي مبارك بقوله : كانتِ السَّيِّدةُ سُكينةُ تميلُ إلىٰ الفكاهةِ والمُزاح ، تخالطُ الأجلَّةَ منْ قُريش ، ويجتمعُ إليها الشُّعراءُ ،

---

(١) من ناحيةٍ أخرىٰ ، فإنَّ هذه العملية تدلُّ علىٰ شجاعتها ـ إذا سلّمنا بما ذكرهُ الأصبهاني عن صبرها وجَلَدها الذي أظهرتْه في استسلامِها لهذه الجراحة التي تُعْتَبُر من نوادرِ الجراحات في عالم الطِّبِ القديم .
(٢) «البط» : شق الدمل والخراج ونحوهما .
(٣) انظر : الطب النبوي لابن قيم الجوزية (ص ١٨٥ و١٨٦) .
(٤) انظر مثلاً : الخطط التوفيقية لعلي مبارك (١/ ١٨٦) .
(٥) مرآة الجنان (١/ ٢٥٢) .

فتخرجُ الجِدَّ بالهزلِ ، وتخلطُ الوقارَ بالمجونِ ، ولها في الدّعابة أحاديثُ ظريفة[١].

* وفي الصَّفحاتِ التَّالياتِ ، نصحبُ سُكَينةَ في بعضِ نوادِرِها وحكاياتِها مع عَدَد من فئاتِ النَّاسِ ، وذلك كما جَاءَتِ الرِّواياتُ والقَصَصُ بذلك.

ظَـرْفُهَـا مَــعَ أَشْعَــبَ :

* ورَدَ عن سُكينةَ أنَّها كانتْ تأنسُ بمزاحِ ونوادرِ أشعبَ الطمَّاع ، الذي عُرِفَ بالدَّعَابةِ والفُكَاهَةِ والمُزاحِ وخفَّةِ الظِّلِّ ، وسرعةِ البديهة أحياناً.

* ومنْ لطائفِ ظرائِفِها[٢] ، أنَّها قد حَبَسَتْ أشعب هذا ، لما كَذَبَ عليها ، وأقسمَ يميناً مغلَّظةً ، وعندما عرفَتْ كَذِبَهُ ، أخذَتْه وَحبَسَتْه في غرفةٍ منَ الخَشَبِ ، وجعلتْ فيها سرجيناً[٣] وتبناً وزبلاً ، ووضعتْ عليه بيضَ الدَّجاج ، وأرغمتْه علىٰ أنْ يحتضِن هذا البيض كيما يفقِّسَ ، وقد فَعَل ، وكانتْ سُكينةُ تسمّي الفراريج : بنات أَشْعب[٤].

---

(١) حب ابن أبي ربيعة وشعره (ص ١٩٥).

(٢) يريدُ الدكتور زكي مبارك أنْ يؤكّد صورةَ الحضارةِ المتأَصِّلَةِ في حياةِ السَّيدة سُكينة فيقول بشيء من الفلسفة ، أمّا صورةُ تلك السّيدة كما رسمَها الأوّلُون فهي صورةٌ طبيعيةٌ لا غرابَةَ فيها ولا شذوذ ، ولو كُتِبَ عنها فَصْلٌ في مجلَّةٍ فرنسيةٍ أو إنجليزيةٍ أو ألمانيةٍ ، لتلَقَّاهُ أهلُ الغربِ بالقبول ، وعدّوا حياتَها المرحةَ دليلاً على تأصُّل الحضارةِ في تلك الأسْرَة التي سادتِ الشرقَ زمناً غير قليل.!!.
(حب ابن أبي ربيعة وشعره ص ١٨١).

(٣) «السَّرجين»: الزّبل. (المعجم الوسيط). و«السّرجين»: الزّبل كلمةٌ أعجمية ، وأصلها سِرْكين بالكافِ ، فعُرِّبتْ إلىٰ الجيم والقَاف ، فيُقال: سرقين أيضاً. وعن الأصمعي: لا أدري كيف أقوله ، وإنّما أقولُ روث. (المصباح المنير).

(٤) الأغاني (١٤/ ١٦٧و١٦٨) ، ولكَ عزيزي القارىء أنْ تصدِّقَ هذا ، أو لا تصدِّق هذه المحاولة الفريدة العجيبة لتفقيس البيض بجلوس الطَّماعين فوقه!!.
ويبدو أنَّ هذه العدوىٰ قد امتدّتْ إلى العصرِ العبّاسي ، حيثُ سَجَنَ أبو جعفر المنصور أبا دُلامةَ مع الدَّجاجِ ، لأنَّ العَسسَ وجدوه سكراناً ثمِلاً لا يَعِي شيئاً ، =

* ولنستمعْ إلىٰ جزءٍ من حديث التَّفقيس هذا بأسلوبِ أشعبَ نفسه إذْ يقولُ: ثمَّ أَدْخَلَتْني سُكينة البيتَ وفيه البيضُ ، والتِّبْنُ ، والسّرجينُ ، وحَلَفَتْ بحقّ جَدِّها ألاّ أخرجَ منْ ذلكَ البيتِ حتى أحضنَ ذلك البيضَ كلَّه إلىٰ أنْ يُفقِّس ، ففعلتُ ذلك ، ولم أزلْ أحضنهُ حتى فَقِس كلّه ، فخرجَ منه الألوفَ منَ الفراريج ، وَرُبِّيَتْ في دَارِ سُكينة ، فكانتْ تَنْسبُهنَّ إليَّ وتقولُ: بناتُ أَشْعَبَ ، ونَسْلُ أَشْعَب.

* ويتابعَ أَشْعَبُ حديثهُ فيقول: وبقيَ ذلكَ النَّسلُ في أيدي النَّاس إلىٰ الآن ، فكلُّهم إخواني وأقاربي وأهلي[1].

= فحبَسه مع الدَّجاجِ في بيتٍ ، فلما أفاقَ جَعَلَ ينادي غَلامَه مرَّةَ ، وجاريته مرة ، فلا يجيبهُ أحدٌ ، وهو معَ ذلك يسمعُ صوتَ الدَّجاجِ ، وزُقَاءَ الدّيَكَةِ ، فلّما أكثرَ قال له السَّجَّان: ما شأنُك؟

قال: ويلكَ! مَنْ أَنتَ ، وأينَ أنا؟

قال: في الحْبسِ ، أنا فلانُ السَّجان.

قال: ومَنْ حَبَسَني؟

قال: أميرُ المؤمنين.

قال: ومَنْ خَرقَ طيْلَسَاني؟

قال: الحرسُ.

فطلبَ منه أنْ يأتيَه بدواةٍ وقرطَاس. ففعل ، فكتبَ إلىٰ المنصور أبياتاً منها:

أميرَ المؤمنين فَدَتْكَ نفسي ... علامَ حَبَسْتَني وخرقْتَ سَاجي
أُقادُ إلىٰ السُّجون بغيرِ جُرمٍ ... كأنّي بعضُ عمّالِ الخَراجِ
ولو معهم حُبِستُ لكانَ سهلاً ... ولكنّي حُبِسْتُ مع الدَّجَاجِ

فدعا به المنصور ، وقال له: أينَ حُبِستَ يا أبا دُلامة؟

فقالَ: مع الدَّجاج.

قال: فما كنتَ تصنعُ؟

قال: أقوقىءُ معهم حتى أصبحتُ ، فضحكَ وخلّىٰ سبيله. (معاهد التنصيص على شواهد التلخيص ٢/ ٢١٩و٢٢٠) بتصرف.

(١) الأغاني (١٤/ ١٦٨) طبعة مصر ، والأغاني (١٦/ ١٥٧و١٥٨) و(١٩/ ١٧٥ ـ ١٧٧) طبعة بيروت دار الكتب العلمية.

* ويظهرُ أنَّ أشعبَ قد مكثَ فوقَ البيضِ بدارِ سُكينةَ قرابةَ أربعين يوماً[(١)] كما ادّعىٰ هو ، وأصبحَ في فترةِ حضانَتِهِ للبيضِ يقوقىءُ مثل جماعةِ الدَّجَاج ، ولأشعبَ نوادرُ أخرى مع سُكينة لا يتّسعُ المقام لذكرها[(٢)] .

هـل صَـحِيـحٌ مُـزَاحُهَـا مَـعَ كِبَـارِ التَّـابِعيـنَ؟

* تروي بعضُ الكتب والمَصَادِر الأدبيّة أنَّ سُكينةَ كانتْ تَعْبَثُ بأكابرِ عُلماءِ التَّابعين ، وتمزحُ مَعَهم ، وتتظرّفُ في تَحضيرِ «المقَالِبِ الحلوة» لهم ـ كما زعموا ـ ولا أَحَدَ ينكرُ عليها شيئاً[(٣)] .

---

(١) الأغاني (١٦/ ١٧٧).

(٢) منَ العجيبِ حقّاً أنْ نجدَ بعضَ القَصَصِ والأخبارِ المحشوَّةِ بالكلماتِ البذيئة تُنْسَبُ إلى السَّيدة سُكينة بحجّةِ الظَّرفِ وخفّةِ الدَّمِ والظِّل ، ولكنْ تُرى كيفَ كان ذلك معَ أشعب الفكِهِ الظَّريفِ؟! وهل نستطيعُ أنْ نصدِّق مثل هذه القَصَص والأخبار ، وإن كانتْ خفيفةَ الظّلِ كما زعموا؟
ففي أغانيه أخرجَ الأصبهاني خبراً رفعه إلى عُبيدةَ بنِ أشعب الذي تحدَّثَ عن والدِهِ فقال: غضبتْ سكينةُ على أَبي في شيءٍ خالَفَها فيه ، فحلَفَتْ لتحلقنَّ لحيتَه ، ودَعَتْ بالحجّام ، فقالتْ له: احلقْ لحيتَه. فقال له الحجّام: انفخْ شدقيَك حتى أتمكّنَ منك.
فقال له: يا بنَ البظراء ، أَمَرتكَ أنْ تحلقَ لحيتي ، أو تعلمني الزَّمْر؟! خبّرني عن اِمرأتك إذا أردتَ أنْ تَحلق حِرَها تنفخُ أشْداقه؟ فَغَضبَ الحجّام ، وحلفَ ألاّ يحلقَ لحيتَه وانصرف.
وبلغ سُكينةُ الخبرَ ، وما جرىٰ بينهما ، فضحكتْ ، وعَفَتْ عنه.
(الأغاني ١٩/ ٢٨٧).
ومعنى «ابن البظّراء»: عبارة شتم وسخرية. و«الحِرُ»: الفَرج.
ونتركُ للقارىء الكريم حريةَ تصديق مثلَ وأمثال هذه القَصَص ، بل نطلبُ منه أنْ يَزِنَ هذه القصّة بميزان العقل ، وأدب المرأة.

(٣) «أبو الزِّناد»: بزاي مكسورة ، هو أبو عبد الرَّحمن عبدُ الله بن ذكوان المدنيّ القرشيّ مولاهم ، واتّفقُوا على أنَّ كنيته أبو عبد الرحمن ، وأبو الزِّناد لَقَبٌ له اشتهرَ به ، =

* منْ ذلك ماأوردهُ الأصبهانيُّ بسندٍ رفعه إلىٰ الزُّبير بنِ بكّار عن عمّه ، وزعمَ فيه أنَّ أشْعَبَ الطَّمَّاع جَعَلُ يقوقيءُ مثل الدَّجاج بحضورِ أحد عُلماء التَّابعين ، يقولُ الأصبهاني: بَعَثَتْ سُكينةُ إلىٰ أبي الزِّناد ، فجاءهَا تَسْتَفْتيه في شيءٍ ، فاطَّلعَ أشعبُ منْ بيتٍ ، وجعلَ يقوقيءُ مثلما تقوقيء الدَّجاجة ، قال: فَسَبَّحَ أبو الزِّناد وقال: ما هذا؟

فضحكتْ وقالتْ: إنَّ هذا الخبيثَ أَفْسدَ علينا بعضَ أمْرِنا ، فحلفتُ أنْ

= وكان يغْضَبُ منه ، وأبو الزِّناد مِنَ التَّابعين رُوي له عن ابنِ عُمرَ وأَنَس وعمرو بن أبي سَلَمة وأبي أمامة بن سَهل مرسلاً.

وسمعَ عروةَ بن الزبير ، والقاسم بن محمد ، والشّعبي ، وعبد الرحمن بن الأعرج ، وغيرهم.

روىٰ عنه ابن أبي مُليكة ، وهشام بن عُروة ، وموسىٰ بن عقبة ، والأعمش ، والسُّفيانان ، والليث بن سَعد وغيرهم ، واتّفقُوا على الثَّناء عليه وكثرة علمهِ وحفظهِ وفَضْلهِ وتفننه في العلوم وتوثيقه والاحتجاج به ، وسمّاه الإمامُ أحمد: أميرَ المؤمنين في الحديث. وقال الليثُ بن سعد: رأيتُ أبا الزِّناد وخلفه ثلاثمئة تابع مع طالبِ علمْ وفقْه وشعْرٍ وصنوفِ العِلْم. وقال مُصعب: كان أبو الزِّناد فقيه أهل المدينة.

وقال البخاري: أصحُّ الأسانيد كلّها: مالكٌ عن نافع عن ابن عمر. وأصحُّ أسانيد أبي هريرة: أبو الزِّناد عن الأعرج عن أبي هريرة.

وقال محمدّ بنُ سعد: كان أبو الزِّناد ثقةً كثير الحديث ، فصيحاً ، بصيراً بالعربية ، عالماً ، ناقلاً ، ماتَ فجأة ليلةَ الجمعة (١٧ رمضان) سنة (١٣٠ هـ) وهو ابن (٦٦ سنة) ـ رحمه الله ـ.

(تهذيب الأسماء واللغات ٢/ ٥١٥و٥١٦) و(تقريب التهذيب ٢/ ٢٨٧) مع الجمع والتصرف.

ومن الجدير بالذّكر أنَّ لسانَ الدِّين بن الخطيب قال موريّاً في اسمِ قتادة ، وأبي الزِّناد:

مَضْجعي فيكَ عنْ قتادةَ يروي ... ورَوىٰ عن أبي الزِّناد فؤادي
وكذَا النّوم شاعرٌ فيك أمسىٰ ... منْ دموعي يَهيمُ في كلِّ وَادِ

يحضنَ بيضاً في هذا البيتِ ، ولا يفارقه حتَّى يَنْقُبَ ، فجعلَ أبو الزِّناد يعجبُ منْ فعْلِها[1] .

* ويظهـرُ أنَّ فكـرةَ جـلوس النَّـاس علـىٰ البيـضِ قـد استهوتْ سُكينـة ، واستهـوت الـرُّواةَ الذين أُغْرمـوا بهذه الأخبارِ العجيبـةِ ، وفي طيّات هـذه الأخبارِ : السّخريـة منْ أحدِ كبارِ عُلماء التَّـابعين!! نعم ، فهذا ما سنقرؤه في الطرفةِ الآتيـةِ : أجلستْ سُكينـةُ شَيخاً فارسيّـاً على سَلَّـةِ بيضٍ وبَـعَـثَتْ إلىٰ سُليمان بنِ يسار[2] كأنَّها تُريدُ أنْ تسأله عنْ شيءٍ ، فجاءَ إكْراماً لها ، فأمرتْ مَنْ أخرجَ إليهِ ذلك الشَّيخ ، جَالِساً علىٰ سلَّةٍ فيها البيضُ ، فولّى يُسبِّح[3] .

---

(١) انظر : الأغاني (١٦/ ١٧٧) ، وهذه القصَّةِ ـ عزيزي القارىء ـ من صنْعِ الرُّواة ، وفيها استخفافٌ بالعُقولِ .

(٢) سُليمان بن يَسَار التَّابعي أبو أيّوب أخو عَطاء وعبد الملك موالي ميمونة بنت الحارث الهلاليّة أمّ المؤمنين ـ رضي الله تعالى عنها ـ سَمِعَ ابنَ عباس وابنَ عمر وجابراً وحسَّانَ بنَ ثابت وأبا رافع وزيدَ بن ثابت ، والمقدادَ بنَ الأسود وأبا سعيد وأبا وَاقد وأبا هُريرة وعائشةَ وأمَّ سَلمةَ ـ رضي الله تعالى عنهم ـ ، وسمعَ خلائقَ منَ التَّابعين . روى عنه جماعات من التَّابعين منهم : عمرو بنُ دينار ، ونافعٌ ، والزُّهريُّ ، وقَتَادةُ ، وآخرون ـ رحمة الله عليهم ـ .
قال محمدّ بنُ سعد : كان ثقةً عالماً رفيعاً فقيهاً كثيرَ الحديث ، واتَّفقوا علىٰ وصفْهِ بالجلالةِ وكثرة العِلْم . وقال أبو زُرعة الرَّازي : سُليمان بن يَسار مدني ثقةٌ مأمونٌ فاضلٌ عابدٌ .
وهو أحدُ فقهاءِ المدينة السَّبعة ، وهم : سَعيدُ بنُ المسيّب ، وعروةُ بنُ الزُّبير ، والقـاسـمُ بـنُ محمّـد ، وعُبيـد الله بـنِ عتبـة بـنِ مسعـود ، وخـارجـةُ بـنُ زيـد ، وسُليمان بنُ يسار ، وأبو بكر بنُ عبد الرحمن بن الحارث بنِ هشام ، وقد جَمعَهم الشَّاعر في قوله :
ألا كـلُّ مَـنْ لا يقتـدي بـأئمـةٍ ... فقسمتُـه ضيـزىٰ عـنِ الحقّ خَـارِجـه
فخُـذْهـم عُبيـد الله عـروةُ قـاسـمٌ ... سعيـدٌ أبـو بكـر سليمـانُ خَـارجـه
توفي سُليمان بن يسار سنة (١٠٩ هـ) وعمرن (٧٣ سنة) ـ رحمه الله ـ . (تهذيب الأسماء واللغات ١/ ٢٢٥و٢٢٦) .

(٣) الأغاني (١٦/ ١٥٢) ، وأعلام النساء (٢/ ٢٢٢) .

* ولك أنْ تتصوَّرَ جلالةَ سُليمانَ بنِ يسار التَّابعي الشَّهير ، بل أحدُ فقهاءِ المدينةِ السَّبعة ، وهو يأخذُ هذا (المَقْلَب). ومنَ المعُتقَدِ أنَّ هذه القصَّة لا تصحُّ عن السَّيّدةِ سُكينةَ مع رجلٍ كسُليمانَ بنِ يسار ، ومكانته العلميّة في المديمة المنوّرةِ.

* وعلى الرّغم مِما ذُكِرَ في «دائرة المعارف الإسلاميّةِ» بأنَّها إحدىٰ سيّداتِ عصرِها المشهوراتِ ، ولم يكنْ يحولُ بينها وبينَ المزاحِ والتَّبسطِ في الحديث [النّكاتِ ، والقَفَشات] شيئاً[1]. فإننا لنْ نُسلِّمَ بأنَّها كانتْ تهزأُ بأكَابِرِ عُلماءِ المدينة.

* وكانتْ سُكينةُ تحبُّ المُزاح ، وكان لَها هواية فائقة بتلقيب النَّاس بما ينطبقُ عليهم ، فقد لقَّبتْ يعقوب بن أبي سَلمةَ بلَقَبِ الماجِشُون[2].

ـ * ذكر ابن خلِّكان ـ رحمه الله ـ أنَّ السَّيِّدةَ سُكينةَ لقَّبت يعقوبَ بن أبي سلمةَ الماجِشُون ، ويعقوب بن أبي سلمة الماجشون[3] هذا تابعيٌّ ذو قَدْرٍ

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية (١٢/ ١٩ ـ ٢١).

(٢) «المَاجِشُون»: بفتح الميم، وجيم مكسورة ـ وقيل بفتح الجيم ـ ثم شين مضمومة، ومعناه: المورَّد ، ويُقال: الأبيضَ الأحمر ، وقيل: الأبيضَ المشرّب بحمرة ، وقيل: إنَّ أصلَ آلِ الماجشون منْ أصبهان ، فكان إذا سلَّم بعضُهم على بعضٍ قال: شُوني ، شُوني ، فسمّي الماجشون. (وفيات الأعيان ٣/ ١٦٦و١٦٧) بتصرف.
وقال البكْريّ: سُمّي الماجشون لأنَّه كان أبيضَ تعلوهُ حُمرة: وهو اسمُ لثيابٍ مصبَّغَةٍ بضربٍ من الصَّبغ ، لقَّبته بذلك سُكينة بنتُ الحسين بن عليّ ، والماجشون المورَّد بالفارسّية. (سمط اللآلي ٢/ ٦٤٤).

(٣) يعقوبُ بن أبي سلمة الماجشُون التَّيمي أبو يوسُف المدنيّ ، روىٰ عن أبي هريرة ، وأبي سَعيد ، وابن عباس ، ـ رضي الله عنهم ـ وروىٰ عنه ابناه عبد العزيز ويوسُف وابن أخيه عبد العزيز بن عبد الله وآخرون.
قال ابنُ سعد: الماجشون سُمّي بذلك هو وولده ، وكان فيهم رجالٌ لهم فقْه وروايةٌ للحديثِ والعِلْم.
وقال البخاري: الماجشون بالفارسية: الورد. =

ومكانة، وقد جرىٰ هذه اللقبِ علىٰ أهلِ بيته من بنيه وبني أخيه[1]. ويُقال عنها: إنَّها ما لقَّبَتْ أَحَداً قطّ بلقبٍ إلا لَصَقَ به[2].

* ومنْ نوادِرها الحلوة، أنَّها سَمِعَتْ مرثيةَ عروةَ بن أُذنيةَ العَالِمِ الصَّالِحِ المشهورِ في أخيهِ بكْر بنِ أذينة ـ وكان أسود اللونِ على ما يبدو ـ حيث يقول:

سَرىٰ همّي وهَمُّ المرءِ يَسْري   وغابَ النَّجم إلا قَيْدَ فتْرِ
أراقبُ في المرَّة كلَّ نَجْمٍ تعرّض   أو علىٰ المجراةِ يَجْري
لهّم ما أزالُ له قَريناً   كأَنَّ القلبَ أبطَن حَرَّ جَمْرِ
علىٰ بكرٍ أخي ولَّى حميداً   وأيُّ العيش يصْفُو بَعْدَ بكْرِ

* فلّما سَمِعَتْ سُكينةُ هذا الشِّعْرَ، لَفَتَ نظرَها لجمالِ رقَّتِهِ، وسلاسَةِ معانيهِ، فقالت: ومَنْ هو بكْر هذا؟ فَوُصِفَ لها، فقالت: أَهْوَ ذلك الأُسيّد[3] ـ أو الأُسيود ـ الذي كانَ يمرُّ بنا؟!.

قالوا: نعم.

قالتْ والابتسامةُ تَعلُو وجهها: إذاً، لقد طابَ بعده كلُّ عيشٍ، حتّى الخبز والزَّيت[4].

= وللماجشون هذا قصّة مُثيرة عند وفاته ذكرها ابنُ خلكان في ترجمته له، وذكرها ابنُ حجر أيضاً، وابنُ العماد في شذراته. وذكره ابن حيّان في الثّقات. مات سنة (١٢٤ هـ). (سمْطُ اللآلي ٢/ ٦٤٤)، و(تهذيب التهذيب ١١/ ٤٠٦و٤٠٧).

(١) وفيات الأعيان (٣/ ١٦٧).
(٢) الأغاني (١٥/ ٢٥و٢٦).
(٣) «الأسيد»: تصغير أسود.
(٤) وفيات الأعيان (٢/ ٣٩٥)، وشذرات الذهب (٢/ ٨٢)، والأغاني (١٨/ ٢٥٠) مع الجمع والتصرف اليسير.
وانظر: مرآة الجنان (١/ ٢٥٢)، والعقد الفريد (٦/ ٤٨)، وأعلام النساء (٢/ ٢٠٨و٢٠٩).

سكَينَــةُ وَنَـوادرُ ثَـقِيْـلـةُ الــدَّم:

* تحتفظُ بعضُ المصادِرِ بنوادرَ عنْ سُكينَة ، ولكنَّ هذه النَّوادرَ ثقيلةُ الوطْأَة بِالنّسبة لما سبقَ منْ نوادرَ ، وفيها بعضُ السَّماجَةِ الممجوجَةِ ، إذْ لا يُعقَل أنْ تتصرَّفَ سيدةٌ متَّزِنَةٌ كَسُكَينةَ بذلك ، ولكنَّ المخرجينَ أحبُّوا ذلك ، بما لفَّقُوه منْ أخبارٍ حولَ هذه السَّيدةِ المتفرّدةِ بالفَضْلِ بينَ نساءِ عَصْرها .

* ومن نوادرهـا ، بل ما صُـنِعَ منْ نـوادرَ ، ما جـاءَ عنـد أبـي الفـرجِ الأصبهاني قال : قالتْ سُكينةُ لأمِّ أشْعَب : سَمعتِ للنَّاس خَبَراً؟

قالت : لا .

فبعثَتْ إلىٰ إبراهيمَ بن عبدِ الرحمن بن عوفٍ[1] فتزوَّجَتْه ، وبلغَ ذلك بني هاشِمٍ فأنكَروه ، وحَملُوا العصيَّ ، وجَاؤُوا فقاتَلُوا بني زُهْرَةَ حتى كَثُر الشِّجاجُ ، ثم فُرِّقَ بينهم ، وخيّرتْ سُكينةُ ، فأَبَتْ نِكاحَ إبراهيم ، ثمَّ التفتتْ إلىٰ أمِّ أَشْعَبَ وقالتْ : ألا ترينَ أنَّه كانَ للنَّاسِ اليوم خَبرٌ؟

قالت : أي واللهِ ـ بأبي أنتِ ـ وأي خبر[2]؟

* ويُروىٰ هذا الخبرُ ـ ثقيل الدَّم ـ بشكل آخرَ أوسع ، وأكثر صنعة وذلك مع جاريتها بُنانة التي ـ زعموا ـ اشْتَهَتْ أنْ تَسْمَعَ جلبةَ العُرس بدارِ سُكينةَ ،

---

(١) إبراهيمُ بنُ عبد الرحمن بنِ عوف الزّهري ، أمُّه أمّ كُلْثُوم بنتُ عقبةَ ـ رضي الله عنها ـ روىٰ عن أبيهِ ، وعمرَ ، وعثمانَ ، وعليّ ، وسَعْدِ ، وطلحةَ ، وعمار بنِ ياسر ، وأبي بكرة ، وصهيبَ وجُبير بن مطعم ـ رضي الله عنهم ـ وغيرهم.
وعنه : ابناه سَعْدٌ ، وصالحٌ ، والزُّهري وغيرهم.
قال العجليّ : تابعيٌّ ثِقة ، وقال يعقوب بن شيبة : كان ثقةً يُعَدُّ في الطبقةِ الأولىٰ من التَّابعين. توفي سنة (٩٦ هـ) وهو ابن (٧٥ سنة) رحمه الله.
(تهذيب التّهذيب ١/١٥٩) ترجمة رقم (٢٢١).

(٢) الأغاني (١٦/١٦٦).

وانتهتْ هذه الشَّهوة بأَنْ تَضارَبَ القَومُ بالعصيّ وشُجَّ أكثرُ منْ مئةِ نَفر ، فلنستمعْ إلىٰ هذهِ المشاجرةِ التي أحدثَتْها سُكينة وهي تتطرَّفُ ـ كما زعمَ الرُّواة ـ.

* قالَ الأَصْبَهانيُّ في «الأَغاني» : تنفَّستْ يَوماً بُنَانَةُ جاريةُ سُكيْنَةَ وتنهَّدتْ ، حتى كادَتْ أضلاعُها تتحطَّمْ ، فقالتْ لها سُكَينةُ : مالَكِ ويْلَكِ؟!

قالت : أحبُّ أنْ أرىٰ في الدَّار جَلَبَةً ـ تعني العُرسَ ـ.

فدعتْ سُكينَةُ مولىً لها تَثِقُ به ، فقالت له : اذهبْ إلىٰ إبراهيمَ بنِ عبدِ الرحمنَ بن عوفٍ فَقُلْ له : إنَّ الذي كُنَّا ندفَعُكَ عنه قد بدا لنا فيه ، أنْتَ منْ أخوالِ رسول الله ﷺ ، فأَحْضِر بيتَك.

* قال : فجمَعَ عدَّةً منْ بني زُهْرَةَ ، وأَفْناءِ قريش منْ بني جُمَحٍ وغيرهم ، نحواً منْ سبعين رجُلاً أو ثمانينَ ، ثمَّ أرْسَل إلىٰ عليِّ بن الحُسين ، والحَسن بن الحَسَن ، وغيرِهم منْ بني هاشم ، فلمّا أتاهمُ الخبرُ اجتمعُوا وقالوا : هذه السَّفيهَةُ تريدُ أن تتزوَّج إبراهيمَ بن عبد الرحمن بن عوف! فتنادىٰ بنو هاشم واجتمعُوا ، وقالوا : لا يخْرجُنَّ أَحَدٌ منكم إلاّ ومَعَهُ عَصَا.

* فجاؤوا وما بقي إلاّ الكلام ، فقال : اضربُوا بالعصي ، فاضَّربُوا هم وبنو زُهْرة ، حتى تشاجُّوا ، فَشُجَّ بينهم أكثرُ منْ مئةِ إنسانٍ ، ثمَّ قالت بنو هاشم : أينَ هذه؟

قالوا : في هذا البيت. فدخَلَوا إليها فقالوا : أَبَلغَ هذا منْ صُنْعِكِ؟

* ثـمَّ جاؤوا بِكِسَـاءٍ لها روقيّ، فَبَـسطَوه ثمَّ حَـمَلُوهَا، وأَخَـذُوا بجوانِـبِه، ـ أو قال: بزوايـاهُ الأَرْبَـع ـ، فالتفَتَتْ إلىٰ بُنانَـةَ فقالت: يا بنانـةُ أرأيتِ في الدَّار جَلَبَـةً؟

قالت: إي واللهِ إلاّ أنَّها شَديدة[1].

ظَرفُهَا مَعَ سَائِرِ النَّاسِ:

* هناكَ بعضُ الطُّرَفِ والنَّوادرِ المقبولةِ والتي تروِّحُ عنِ النُّفوسِ، وربّما تكونُ مقبولةً إلىٰ حَدٍّ مَا، ولَعَلَّ مُعْظَمَ النَّوادِرِ، المنسوبةِ إلى سُكينةَ قد صُنِعَتْ في مَصَانِعِ الرُّواةِ، ولكنَّ بَعْضَها قد يكونُ فيه شيءٌ منَ الصِّحةِ، أَوْ لَه أَصْلٌ، وإنّما زادَ فيه الأخباريّون ليجعلُوا منه ظَرْفاً وتندُّراً.

* فمنَ الطُّرفِ المقبولةِ المُسْتَمْلَحَةِ التي تَدُلُّ علىٰ خفَّةِ الظِّلِّ، أنَّ سُكينةَ قَدْ أَرْسَلْت مرَّةً إلى صاحبِ الشُّرَطِ أنْ دَخَلَ علينا شاميٌّ، فابْعَثْ إلينا بالشُّرَطِ، فركبَ وأتىٰ وأمرتْ أنْ يُفْتَحَ البابُ، وخَرَجَتْ جاريةٌ منْ جواريها وبيديها بُرْغُوثٌ، وقالتْ: هذا الشَّاميُّ الذي شكَوناهُ، فلّما رأى الشُّرطيُّ ذلكَ حَصَلَ الخَجَلُ، وذَهَبَ هو ورجالُه بِخَجَلِهِ[2].

* وفي روايةِ الأَصْبهاني: فانصرفُوا يَضْحَكُون[3].

* ولشِدَّة وَلَع سُكينَةُ بالطُّرَفِ والمُلَحِ، فإنَّ النَّادِرَةَ أو النُّكتَةَ تَجْري علىٰ لِسَانِها حتى وإنْ كانتْ في حالةِ أَلَم.

* رويَ عنها أنَّه لَسَعَتْها يوماً دَبْرةٌ، فولْوَلَت وجاءَتْ إلىٰ أمِّها، فَقالَتْ لها: مالَكِ يا سيّدتي؟!

* فضَحِكَتْ وقالَتْ: مرَّتْ بي دُبَيرة، فَلَسَعْتني بأُبَيْرة، فأوجَعتْني

---

(١) الأغاني (١٦/ ١٦١و١٦٢). والوضعُ والصنعةُ ظاهران في هذه القصّة ـ كما يرىٰ القارىء الكريم ـ وهذه المشاجرةُ بالعِصي بين أكابرِ بني هاشم وبني زهرة تحصُل، ثمّ يسألون عن السَّبب!.

(٢) الدر المنثور (ص ٢٤٥).

(٣) الأغاني (١٦/ ١٥٣).

قُطَيرة[1]. أو قالت: لَسَعْتني دُبيرة، مثْلُ الأُبَيرة، فأوجعتني قُطيرة[2].

* وكانَ المرحُ لا يفارقُها ـ كما زعموا ـ في معظم أحْوالِها ـ وكان يُقال: إنَّها لما زُفَّتْ إلى زيدٍ فَحُمِلَتْ، قالتْ لمولىً لها كانَ يمشي معَ دايتها، يُقالُ له بخّة: ويلكَ مالكَ. وقالتْ لرجلٍ: قَوِّمْ هذا الأَديم[3].

* ولعلَّ سُكينةَ قد لاَمَهَا بعضُ النِّسوةِ علىٰ كثرةِ مُزاحِها[4].

فقيل لها: يا سُكينةُ، أُخْتُكِ ناسكةٌ، وأنتِ مزّاحَةٌ؟

قالتْ: إنّكم سمّيتموها باسم جدَّتِها المؤمنةِ، وسميتموني باسمِ جدَّتي التي لمْ تُدْرِكِ الإسْلام[5].

---

(١) تاريخ مدينة دمشق (تراجم النّساء ص ١٥٧)، ونساء من عصر التَّابعين (٢/ ٣٤)، ولسان العرب (٤/ ٢٧٥)، وأعلام النّساء (٢/ ٢٢٢).
و«الدَّبْر»: النَّحل. و«دُبَيرة»: تصغير دَبْرة أي النَّحلة. وحَميُّ الدَّبْر: عاصمُ بن ثابتِ بن أبي الأقلح الأنصاريّ من أصحاب سيّدنا رسول الله ﷺ، أُصيبَ يومَ الرَّجيع، فَمَنَعَتِ النّحلُ الكفَّار عنه، وذلك أنَّ المشركين لما قتلُوه، أرادوا أنْ يمثِّلوا به فسلّطَ الله عزَّ وجلَّ عليهم الزَّنابير الكبار فحمته.

(٢) الأغاني (١٦/ ١٥٢)، والحدائق الغناء (ص ١٤١).

(٣) نوادر المخطوطات (١/ ٦٨).

(٤) قال الدّكتور زكي مُبارك: وكانتْ ـ سُكينة ـ مَعَ ميلِها المفرطِ إلى الدّعابةِ عفيفةً نقيةَ العرضِ، لا يُؤخذُ عليها غيرَ العبثِ البريء، واللهوِ المُباح!! (حب ابن أبي ربيعة وشعره ص ١٩٦).

(٥) كان لسُكينة أختٌ اسمُها فاطمة وُلدتْ سنة (٤٠ هـ) وماتتْ بالمدينةِ المنَّورةِ سنة (١١٠ هـ)، واشتهرتْ بالصَّلاح والزُّهدِ. وتقصدُ سكينة بأنَّ أختهَا فاطمةَ قد سُمّيتْ باسمِ جدّتها سيدتنا فاطمة الزَّهراء بنت نبينا وحبيبنا محمدّ ﷺ وهيَ مَنْ هي بالفضلِ والورع وفضائلِ المكارم.
وتقصدُ سكينة بقولها: جدّتي التي لم تدركِ الإسلامَ السَّيدةُ آمنةُ بنتُ وهَبْ أمْ الحبيب الأعظم محمدّ ﷺ، وقُلنا في أوّل التّرجمة: إنَّ سكينةَ لقبٌ لها، واسمها آمنة وهذا يطابقُ آمنةَ بنت وهب الزّهرية. وفي النفس شيءٌ من هذه الطُّرفة لأنَّها تبدو مركبة. أمَّا مَنْ أرادَ المزيدَ والخيرَ من أخبار آمنةَ بنتُ وهَب الزّهرية، فليقرأ =

ومنْ أنباءِ فكاهَتِها ما رواهُ ابنُ عَسَاكر قال: قالتْ جاريةُ سُكينةَ لِسُكينةَ: بالبابِ رجلٌ يقول: لي حَاجَةٌ.

قالت: ما حاجتُه؟

فذهبتُ ثمَّ عَادَتْ، وقالتْ: يقولُ: لي حاجةً، حتَّى فَعَلَتْ ذلك مرَّةً أو مرَّتَيْن أو أكثرَ.

قالت: فلعلَّها حاجةُ الدّيكِ إلىٰ الدَّجَاجةِ[1]؟!!.

ويبدو أنَّ طرائف أخْبَارِ سُكينةَ وظَرائفَ قَصَصِها قد اتَّسَعَتْ في الحِلّ والتّرحالِ، فمنْ ذلكَ أنَّها كانتْ مرَّةً في سَفَرٍ مع ذَويها، فمرّوا في طريقهم علىٰ منزِلٍ فقالت لهم: ما اسمُ هذا المَنْزِل؟ قالوا: جَوْف الحِمارِ.

قالت: ما كنتُ لأَدخُلَ جَوْفَ الحِمار أبَداً[2].

= سيرتَها في موسوعتنا: «نساءٌ منْ التَّاريخ» (من ١٧ ـ ٧٢)، فسيرتها إمتاعٌ للأسماعِ، ومتعةُ النفوس المحبّةِ لسيدنا وحبيبنا محمد رسول الله ﷺ.

(١) تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء ص ١٥٩)، والحدائق الغناء (ص ١٤٥)، وسنترك القصة دون تعليق!!

(٢) انظر: أعلام النّساء (٢/ ٢٢١)، قال البكريُّ في معجمعه: «جوفَ الحمار»: موضعٌ في ديار عَاد، منسوبٌ إلى حِمار بن مُوَيلع منْ بقايا عَاد، أشْركَ باللهِ وتمرَّدَ، فأرسلَ اللهُ عليه ناراً فأحرقته، وأحرقتِ الجوفَ أيضاً، فصارَ ملْعباً للجنِّ، لا يستجرئُ أحدٌ أنْ يمرَّ به، والعربُ تضربُ به المثلَ فتقول: «أخلىٰ منْ جوفِ الحمارِ». (معجم ما استعجم للبكري: ٢/ ٤٠٥).

وقال الميدانيُّ ـ رحمه الله ـ: «أخْلَى من جوفِ حمار»، و«أخربُ منْ جوفِ حمار» قالوا: هو رجلٌ منْ عاد. وجَوْفُه: وادٍ كانَ يحلُّه، ذو ماء وشجر، فخرجَ بنوه يتصيّدون، فأصابَتْهم صاعقةٌ، فأهلكَتْهم فكَفَر وقال: لا أعبدُ ربّاً فَعَلَ ذا ببنيّ، ثمَّ دعا قومَه إلى الكفْرِ، فَمَنْ عصَاه قَتَله، فأهلكَهُ اللهُ وأخربَ واديه، فَضَرَبَتِ العربُ به المثل في الخَراب والخلاء، وقالوا: «أَخرب من جوف حمار»، «وأخْلى من جوف حمار». وأكثرتِ الشُّعراء ذكرهَ في أشعارِهم، فمن ذلك قولُ بعضهم:

وبشُؤمِ البغيِ والغَشْمِ قديماً ... ما خلا جَوْفٌ ولم يَبْقَ حمار

وقيل: «أخلىٰ من جوف حمار» هو الحمارُ بعينه، فالحمار الوحشي إذا صِيْدَ لم =

* وكانَ المرحُ سجيةً عند السَّيِّدةِ سُكينةَ ، وكانتْ تَخْلِطُ هذا المرحَ بالكرَمِ والجُود[1] ، فقد رُؤيتْ مرَّةً في الحجّ ترمي الجمَار ، فَسَقَطَتْ من يدِها الحصاةُ السَّابِعَةُ فَرَمَتْ بخاتَمٍ ثمينٍ كان في يَدِها بَدلاً منْ تِلْك الحَصَاة[2]!! .

* ومَرَحُ السَّيِّدةُ سُكَيْنَة كثيرٌ مبثوثٌ في ثَنايا المَصادرِ وكُتُبِ الأَخْبار ، تقولُ زينب يوسُف فواز العامليّة عنها: كانت السَّيِّدةُ سكينة تحبُّ الهَزْلَ ، واللهوَ والطَّربَ ، وهي منَ الحذقِ علىٰ جانبٍ عظيم[3] .

* وتذكرُ الدّكتورة عائشةُ عبد الرحمن بنتُ الشَّاطىء ، أنَّ نوادرَ وظرْفَ السَّيدة سُكينة ، كانت متعارفةً متعالَمةً بينَ النَّاسِ فتقولُ: أمَّا نوادرُهَا فكانتْ حديثَ المُجتمع وروحَ مَسَامرِه ، وكانَ النَّاسُ يتناقلُون هذهِ النَّوادِر ، ويضحكُون لها بملءِ قلوبهم وأفواهِهم ، يستوي في ذلكَ مَنْ يَسْتَطيبون النّكتة ويهشُّون للدَّعابـةِ ، ومَنْ عُـرِفُوا بالحزْمِ والرَّزانَـةِ ، وما ظنُّـكَ بعمرَ بـن

= يُـنْـتَـفَعُ بشيءٍ مما في جوفِهِ بل يُـرمى به ولا يُـؤْكل. (مجمع الأمثال ١/ ٣٢٨).
وقد ورد اسم هذا الوادي في معلقة امرىء القيس ، وإياه عنى فقال:
ووادٍ كجـوف العيـر قفـرٍ قطعتـه   بـه الـذئـب يعـوي كـالخليـع المعيـل
والمعنى: ربّ وادٍ يشبه أذني الحمار ، أو جوف الحمار الوحشي في الخلاءِ ، قد طويتُه وقطعتُه سَيْراً على الأقدام ، ولا يوجدُ به إلا الذّئب يعوي فيه من شدّة الجوع والتّعب والبحث ، وهذا الذّئبُ كالخليع الذي خَلَعَه قومه وبرئوا منه ، وله عيالٌ حَمل همَّهم ، يطالبونه بالنّفْقة هو يبكي على حَالِهم ، إذ لا يَجدُ ما يرضيهم. (شرح المعلقات العشر ص ٦١) و(شرح ديوان امرىء القيس وأخبار المراقسة والنوابغ).

(١) قال الإمامُ النَّوويُّ ـ رحمه الله ـ في سخاءِ وكَرمِ السَّيدة سُكينة : وكانتْ منْ سيّدات النساء وأهل الجود والفَضْل ، رضي الله عنها وعن آبائها. (تهذيب الأسماء واللغات ١/ ١٦٧).

(٢) يعتبرُ الدكتور ـ زكي مبارك أنَّ هذا منَ الخُيلاء فقال: وكانتْ لا تخلُو منَ الخُيلاء ، فقد رآها سُفيان بنُ حرب ترمي الجمار ، فسقطتْ منْ يدَها الحصاةُ السَّابعة فرمَتْ بخاتمها. (حب ابن أبي ربيعة وشعره ص ١٩٦).

(٣) الدر المنثور (ص٢٤٤) ، ولسنَا ندري في الحقيقة أمديحٌ هذا أمْ هجاءٌ في حقِّ السّيدة سكينة!!.

عبدِ العزيز في صَرامَة جِدّهِ ، ووقارِ هَيْبَتِهِ يضحكُ لإحدىٰ نوادرِ سُكينةَ حتى يُمْسكَ بطْنَه ، وهو يومئذٍ وَالٍ علىٰ المدينةِ .

* ثمَّ تُقولُ ابنةُ الشَّاطىءِ : هكذا كانتْ عزَّةُ النَّسبِ ، وعزَّةُ الجَمال ، وأناقَةُ المظْهَرِ ، وظرفُ السَّجايا ، وذكاءُ الأنوثة ، ولطفُ الدَّعابةِ ، إلىٰ جانبِ ما عُرِفَ لها منْ ذَوقٍ أَصيلٍ ، وَفِقْهٍ لأَسْرارِ البيانِ ، عناصر تشتركُ جميعاً في تأليفِ شخصّيتها الفريدةِ ، بكلّ جاذبيتها وسِحْرِها .

* ثمّ أضيفُ إلىٰ ذلك كُلِّه هذا المزاجَ النَّادرَ منَ التَّحرُّر والإباءِ منَ التَّسامحِ والتَّصوُّن منَ الانطلاقِ والتَّرفُّع ، فأُتيحَ لها أنْ تَظْهَرَ في المجتمع ملءَ البَهاءِ والظَّرْفِ ، وملءَ الجلالِ والوَقَارِ ، وتهيأَ لها أنْ تختارَ أسلوبَها في الحياة ، متحرّرةً منَ النِّفاقِ الاجتماعيّ ، دونَ أنْ ينالَ ذلك منْ مهابتها ، أو يلقيَ عليها ظلاًّ منَ التَّهاون فيها يجبُ لمثلِها منَ تَصوّنٍ وعزّةٍ[1] .

جَمَالُها وأَنَاقَتُها وَأخلاقُهَا :

* لعلَّه منَ الملفتِ للنَّظرِ أنَّ معظمَ الذين تعرَّضُوا لترجمةِ سُكينةَ منْ قدماءَ ومحدثينَ ، قد أَشَارُوا إلىٰ جمالِها البَاهِرِ ، الذي حبَاها اللهُ به ، وإلىٰ أناقَتِها المشهورةِ ، وإلىٰ جمالِ شَعْرِها ، وكانوا يشْهَدون بكمالِ أخلاقِها وهيبتِها وعفّتِها ، وحسنِ أقْوالها وأَفْعالِها .

* ففي مفْتَتَحِ ترجمتهِ للسَّيِّدةِ سُكينةَ يقولُ ابنُ خلّكان : كانتْ سيّدة نساءِ عَصْرها ، ومنْ أَجملِ النِّساء وأظرفهنَّ وأحسنهنَّ أَخْلاقاً[2] .

* وقال عنها ابنُ العماد في شَذَراتِهِ : وجمالُها وحُسْنُ خُلُقِها مَشْهُور[3] .

* وفي «خُطَطه» قال علي مُبارك عنها : سُكينةُ بنتُ الحُسين سيّدةُ نساءِ

---

(١) تراجم سيدات بيت النبوة (ص ٩٦٠و٩٦١) .
(٢) وفيات الأعيان (٢/ ٣٩٤).
(٣) شذرات الذهب (٢/ ٨٢) .

عَصْرها ، منْ أجْملِ النِّساء ، وأظرفهِنَّ وأَحْسَنِهنَّ أخْلاقاً[1] .

* وقالَ اليافعيُّ في «مِرْآته»: كانتْ سُكينَةُ منْ أجملِ النِّساء وأظرفهِنّ وأَحْسَنِهنَّ أَخْلاقاً[2] .

* وقال ابنُ كثير ـ رحمه الله ـ في تاريخه: سُكينةُ بنتُ الحُسين كانتْ منْ أجْملِ النِّساءِ ، حتى إنَّه لم يكنْ في زَمَانِها أَحْسنَ منها[3] .

* وجاءَ في دائرةِ المعارفِ الإسلاميّة: سُكينةُ بنتُ الحُسين ، إحدىٰ سيّداتِ عَصْرِها المشهورات ، كانتْ عفيفةً ، شديدةَ التَّأنُّقِ ، ذاتَ هيبةٍ وَوَقَار[4] .

* وقالت زينبُ بنتُ يوسُف فواز العاملية: سُكينةُ بنتُ الحُسين ، سيِّدةُ نِسَاءِ عَصْرها ، ومنْ أَجْمَلِ النِّساءِ ، وأظرفِهِنَّ وأَحْسَنِهنَّ أَخْلاقاً[5] .

* وقال الدّكتور زكي مبارك متحدّثاً عنْ جمالها: كانتِ السَّيِّدة سُكينةُ إحدىٰ نوادرِ الجمَال في العَصْر الذي ظَهَرتْ فيهِ ، وكانتْ تنافِسُ عائشةَ بنتَ طلحةَ مَعْبودة العيون والقُلوب[6] في ذلك الحين ، وكانت حريصةً مُسْرِفةً في الحرصِ علىٰ جمَالِها[7] .

* وفي «نُجومِهِ» قال ابنُ تغري بردى: سُكينةُ بنتُ الحُسين واسمها آمنةُ ، كانتْ منْ أجمل نِساءِ عَصْرِها[8] .

---

(١) الخطط التوفيقية (٢/ ١٨٦).
(٢) مرآة الجنان (١/ ٢٥١).
(٣) البداية والنهاية (٨/ ٢١٠).
(٤) دائرة المعارف الإسلامية (١٢/ ١٩).
(٥) الدر المنثور (ص ٢٤٤).
(٦) لاحظْ هذا الكلام الخطير ، وكأنَّه يتحدَّثُ عن إحدىٰ الممثلات السَّاقطات في الأفلامِ المصْريّة الماجنةِ في عصْرِه وفي أوائل الأربعينات ؟!!!
(٧) حب ابن أبي ربيعة وشعره (ص ١٩٣).
(٨) النجوم الزاهرة (١/ ٢٧٦).

* ونَقَلَ الشَّبْلَنْجي عن كِتاب «دُرَرَ الأَصْدافِ» نبذةً عن جَمالِ السَّيِّدةِ سُكينةَ فقال: كانتْ سكينةُ منَ الجمالِ والأدبِ والفَصَاحةِ بمنزلةٍ عظيمةٍ[1].

* ولعلَّ أكثرَ شيءٍ لَفَتْ أَنْظَارَ النِّساءِ إلىٰ سُكينةَ جمالُ شَعْرِها[2]، فقد كانَ جمالُ شَعْرِها أمْرَاً معروفاً، وكانَ لها طريقةٌ خاصَّةٌ في تَجميلهِ وتَصْفيفِهِ، فقد كانتْ مِنْ أَحْسَنِ النِّساءِ شَعْراً، وكانتْ تَعْتَنِي به عنايةً فائقةً، وتجعلُه في طريقةٍ جميلةٍ، فَلَمْ يُرَ شَعْرٌ علىٰ امرأةٍ أَحْسَن منه، حتَّى كانتْ تلكَ الطَّريقةُ علامةً مميزةً لسُكينةَ، وعُرِفَ ذلكَ عنها، وكانتْ تلكَ الطَّريقة تُسَمَّىٰ: «الطُّرّةُ السُّكَينيّة».

* وكان عمرُ بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ قَدْ مَنَعَ أَحَداً منَ الرِّجالِ الأخْذَ بهذهِ الطَّريقة، فكانَ إذا وَجَدَ رجُلاً يصفِّفُ شَعْره وجَمَّتَه علىٰ الطَّريقةِ السَّكينيّة جَلَدَه وحَلَقَه. وقالَ ابنُ خلكان: والطُّرَّةُ السُّكَينيّةُ منسوبةٌ إليها[3].

---

(١) نور الأبصار (ص ١٩٣).

(٢) قال عمرُ رضا كحّالة، وزينبُ يوسف فوّاز عن ذلك: وكانتْ سُكينةُ منْ أحْسَنِ النَّاس شَعْراً، فكانتْ تصفِّفُ جمَّتَها تصفيفاً لم يُرَ أحْسنَ منه حتى عُرِفَ ذلك، وسميتْ تلك الجمّة بالسّكينّية. (أعلام النّساء ٢/ ٢٢٢)، و(الدُّرُّ المنثور ص ٢٤٥).
هذا وقد تحدَّث كثيرٌ منَ المصنفين عن هذه النَّاحيةِ، وأشَاروا لهذا الجمالِ الرَّباني العظيم، وكان بعضُ الكتَّاب يتحدَّث عَنْ هذا الجمالِ وكأنَّه يتحدَّثُ عن امرأةٍ من سَراةِ النّساء، ونسيَ أو تناسىٰ أنَّها ابنةُ صحابي جليلِ القَدْر وابنة البيتِ النبوي الطَّاهر.

(٣) وفيات الأعيان (٢/ ٣٩٤)، وانظر: الخطط التوفيقية (٢/ ١٨٦).
ومن الجدير بالذكْر، أنّ الشَّعْر الجميلَ ـ كما أجمَع عليه الذَّوق العام ـ هو الفاحمُ الطَّويلُ الكثيفُ المسترسل، ولا يخفىٰ أهمية الشَّعْر في إظهارِ جمالِ المرأةِ، فقد اعتُبِر جمالُ الشَّعر نصف الحُسْن: كما ذكرَ داود الأنْطاكي في كتابه «تزيين الأسواق» (٢/ ٣٩٧)، ورُوي عن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ قوله: إذا تمَّ بياضُ المرأةِ في حُسْنِ شَعرها فقد تمَّ حسنُها. وقد تفنَّن القدماءُ في رسْم جمالِ المرأةِ من خلالِ جمالِ شعرها، من مثل: طُفيل الغنوي، والحُطيئة، وعمر بن أبي ربيعة، وغيرهم.

* ولعلَّ هذا الجمالَ وكثرة واصفيهِ ، قد جَرَّ المتقوِّلينَ والكذَّابين أنْ يَضَعُوا عنها قَصَصاً غريبةً ، حتى إِنّ سُكَينةَ وضرّتَها عائشة بنت طلحة قَادهُما جَمَالُهُما ـ فيما زعموا ـ لأنْ تحتكِما إلى عمرَ بن أبي ربيعة!!! كيما يَفْصِل بينهما إذْ هو ـ بزعمِ الرُّواة ـ مُتَخصِّصٌ في الجميلاتِ ، وخُصوصاً الشَّريفات العفيفات!!.

* ففي واحدٍ منَ الأَخْبارِ المزعومةِ يقول: كانتْ سُكينَـةُ منْ أجملِ نِساءِ عَصْرِها ، فقالتْ ذاتَ يومٍ لعائشةَ بنتِ طلحةَ ـ وكانت ضرّتَها وكانتا عند مُصْعب بن الزُّبير ـ: أَنَا أَجْملُ منكِ ، قالت عائشةُ: بل أنا.

* فاخْتَـصَمتَـا إلىٰ عمرَ بن أبي ربيعةَ ـ وما أدراك ما ابنُ ربيعةَ هذا ـ ، فقال: لأَقْضِـيَنَّ بينكما ، أمَّا أنتِ يا سُكينةُ فأَمْلَحُ منها ، وأمّا أنتِ يا عائشةُ فأجْمَلُ منها.

فقالت سُكينةُ: قَضَيتَ لي واللهِ[1].

* ويكملُ الأصبهاني بقيَّةَ هذه القصَّة فيقول: وكانتْ سكينةُ تُسَمّي عائشةَ ذات الأُذنَيْن ، وكانت عظيمةَ الأُذنَيْن[2].

---

(١) أعلام النّساء (٢/ ٢٢٢) نقلاً عن الأغاني (١٦/ ١٦٠) ، ومنَ العجيبِ أنَّ الدّكتور جبرائيل جبّور قد تلقَّف هذهِ القصَّة بخبثٍ ظاهرٍ فقال: وكان عمرُ ـ ابن أبي ربيعة ـ يحبُّ الجمالَ والمجالسَ الأدبيةِ ، فلمْ يرَ بأساً في أنْ يذكرَها بشعره ، ويشيدَ بجمالها ومكانتها ، بل ذهبَ الرُّواةُ إلى أنَّها احتكمتْ إليهِ مرَّةً هي وعائشةُ بنتُ طلحة في أيّهما أجْمل ، ووقعَ عمرُ في أحْرجِ المواقف ، ولكنّه كان لبقاً في تخلُّصه في الحكْمِ ، فقال لعائشةَ: أنتِ أجمل ، ولسُكينة: أنتِ أمْلح ، وأرضى الاثنتَيْن. (عمر بن أبي ربيعة ، حبّه وشعره ٣/ ٩٤).

(٢) الأغاني (١٦/ ١٦٠). ومنَ الجدير بالذّكر أنَّ رسول الله ﷺ كان يمازحُ أنسَ بنَ مالك خادَمه ، ويقولُ له: «يا ذا الأذنَيْن» انظر: التّرمذي في المناقب برقم (٣٨٣١) ، وسنن أبي داود برقم (٥٠٠٢) ، وأحمد في المسند (٣/ ١٢٧و٢٦٠) ، =

* وزيفُ هذا الخبرِ واضحٌ وضُوحَ الشَّمس ، والافتراءُ فيه أكثرُ وضُوحاً من رائعةِ النَّهار ، فكيفَ نُصَدِّقُ أنَّ أَشْهَرَ ابنتي بنات الصَّحابة وهما: سُكينةُ وعَائشةُ تَحْتكِمان إلى أَحَدِ الفُسَّاقِ ليحكمَ أيّهما أَجْمَل؟! فعلىٰ أيّ أسَاسٍ اعتمدَ الرُّواةُ هذا الخبر؟ وهل بَلَغ منْ جرأَتهمْ أنْ يتقوَّلُوا علىٰ أشرفِ امرأتَيْن في عَصْرهما ، ويزعموا بأنَّهما قد كَشَفَتا عن وجْههما أمامَ فاسقِ الشُّعراء عمرَ بن أبي ربيعة فيرىٰ محاسِنهما ثمَّ يحكمُ بذلكَ الحكم المطَّاطي؟

* أَلَيْسَ في هذهِ القصَّة جرأةٌ على مثْلِ هؤلاء النِّساء الطَّاهرات؟!

* فاللهُ المُستعان على خُبْثِ الخُبثَاء ، وتَقَوُّلِ الأَخَابِثِ الجُبناءِ.

* لقد امتدحَ الإمامُ الذَّهبيُّ ـ رحمه الله ـ أَخْلاقَ السَّيدة سُكينة ، وذكرَ بأنَّها ذاتُ هيبةٍ وَوَقَارٍ فقال: كانتْ شَهْمةً مَهيبةً[1] ، فكيف يصحُّ أنْ تَعْرِضَ جَمالَها علىٰ مثل عمرَ بن أبي ربيعة أو غيره ليحكمَ لها أو عَلَيْها؟ بل كيفَ يصحُّ أنْ تفتخرَ بجمالِها أمام الرِّجالِ الأجانبِ وهي مكشوفةُ الوَجْهِ؟!

* ومما يزيدُ الطِّينَ بلَّةً ، والقلب المعنّى علّةً ، ما جاءَ في دائرةِ المعارفِ الإسلامّيةِ منْ أنَّ سُكينةَ كانتْ جدُّ فخورةً لا بجمالها فَحَسْب ، بل بِنَسَبِها أيضاً[2] ، وبابنتِها التي كانتْ تحبُّ أنْ تغمرَها بالحليّ والجواهر[3].

* أمَّا قِصَّةُ فَخْرِها بابنتها ، فقد وَرَدَ أنَّها كَسَتْ ابنتهَا دُرَّاً كثيراً وحُليّاً ولؤلؤاً وقَالَتْ: واللهِ ما أَلْبَسْتُها إيَّاه إلاّ لتَفْضَحه[4]. فَسُكينةُ ترىٰ أنَّ ابنتَها

= والإصابة (١/ ٨٤) طبعة دار الكتاب العربي.
وإذا ما صحَّ أنَّ سُكينةَ كانتْ تسمّي عائشة بنتَ طلحةَ ذاتَ الأذنين ، فإنَّ ذلك من فِقْه سُكينة، ومعرفتها الحديثَ النبوي، ورفع لمكانةِ عائشة بنت طلحة رحمها الله.

(١) سير أعلام النبلاء (٥/ ٢٦٢).
(٢) الفخر بنسبها لا يدانيه فخر ، وهي من أعظم الناس أصلاً ونسباً.
(٣) دائرة المعارف الإسلامية (١٢/ ١٩) وما بعدها.
(٤) تاريخ مدينة دمشق (تراجم النّساء ص ١٥٩) ، وعيون الأخبار (٤/ ٢٥) ، والأغاني (١٦/ ٩٩) وتقصد سكينة أنّها تريدُ أنْ تفضحَ الحليَ بحُسْنِ وجمالِ ابنتها ، لأنّها =

أَجْملُ منَ الحليّ ، وقد فَضَحت الحليَّ عندما عَلَّقته علىٰ ابنتها وذلك لفَرْط جَمالِها.

* وتروي كتبُ الأَدَب أنَّ عمرَ بنَ عبد العزيز قد جَلَدَ الأَحْوصَ الشَّاعر مرَّةً من أجْلِ سُكينةَ ، فَقَد بَلَغَ من استهتارِ الأَحْوصِ أنَّ سُكينةَ بنتَ الحُسين افتخرتْ بجدّها رسول الله ﷺ ، ففاخَرها بجدّهِ ، فأَمرَ الوليدُ بنُ عبدِ الملك وَاليه علىٰ المدينةِ عمرَ بنَ عبد العزيز[1] بجَلْدِه لذلكَ ، ولِمَا قَدْ شَاعَ عنه من التَّخنيثِ والتَّعدّي علىٰ الأَعْراضِ[2].

سُكَينةُ وأَخْبارٌ مدسُوسَةٌ وَآرَاءُ المُؤلِّفين :

* إنَّ كثيراً ممّا رواهُ صَاحِبُ الأَغاني منْ أخبارٍ عن سُكينةَ مدسوسٌ مشوَّهٌ مَصْنُوعٌ موضوعٌ ، ويحتاجُ إلىٰ غربلَةٍ ونَقْدٍ وإعادةِ نَظَرٍ ، إذْ فيهِ ما فيهِ منَ الإساءَةِ إلىٰ هذهِ السَّيِّدةِ العظيمةِ ، التي تَنْتَمي إلىٰ دوحةِ أهلِ البيتِ البَاسِقَةِ المتطَاوِلةِ في سَمَاءِ المَكَارِم ، والثَّابتةِ الأصولِ في أرضِ الفَضَائِلِ ، وناهيكَ بها منْ مَحاسِنَ.

* وممّا يطالِعُنا به الأصبهانيُّ ـ ومَنْ أَخَذَ عنه ـ قولهُ: بأَنَّ سُكينةَ كانتْ

= أجمل منه.

(١) كان عمرُ بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ والياً علىٰ المدينةِ ما بين عام (٨٦ ـ ٩٣ هـ).

(٢) تاريخ الأدب العربي لعمر فروخ (١/ ٦٣٧و٦٣٨).

ونجد مفاخرةَ الأحوصِ لسُكينة بنتِ الحسين واضحةً عنْدَ الأَصْبَهاني حيثُ قالَ: إنَّ الأحوصَ كان يوماً عند سُكينة ، فأذَّن المؤذّنُ ، فلمّا قال: أشهدُ أنْ لا إله إلا الله ، أشهدُ أنَّ محمداً رسول الله ، فخرتْ سُكينة بما سمعَتْ ، فقال الأحوص:

فَخَـرتْ وانتمَـتْ فقلـتُ ذَريني ... ليسَ جَهْـل أتيتـهُ ببديـع

فأنـا ابنُ الـذي حَمَـتْ لحمَـه الـدَّبْـ ... ـرُ قتيـلَ اللحيانِ يومَ الرَّجيـعِ

غَسَلـتْ خالـي المـلائكـةُ الأبـ ... ـرارُ مَيْتـاً طوبـىٰ لـه مـن صَريـعِ

قال أبو زيد: وقدْ لعمري فَخَر بفخرٍ لو علىٰ غيرِ سُكينة فَخَرَ به! حَمَتْ أباهُ الدَّبر ، وغسَّلتْ خالَه الملائكةُ.

(الأغاني ٤/ ٢٣١ و٢٣٢).

برزةً من النِّساءِ ، تجالسُ الأَجِلَّةَ منْ قريش ، ولَها صِلَةٌ أَدَبية بأكثرِ الشُّعراءِ في عَصْرِها[١]. وقالَ في موضعٍ آخر: كانتْ سُكينةُ عفيفةً سَلِمَةً[٢] بَرْزَةً[٣] من النِّساءِ ، تجالسُ الأَجِلَّةَ منْ قريش ، وتجتمعُ إليها الشُّعراء ، وكانتْ ظريفةً مزَّاحةً.

* ثمَّ جَاءَ المصنِّفُونَ والكُتَّابُ معظمُهم فيما بَعْد قديماً وحديثاً ، ونقلُوا عنِ الأَصْبهاني ما افترىٰ بهِ على سُكَينة دونَ تَمْحيصٍ وشَرحٍ وتدقيقٍ ، ونسُوا أنَّها ابنةُ صحابي ، بل منْ كُبرياتِ بناتِ الصَّحابةِ قَدْراً وجَلالاً في عَصْرها.

* فمِنَ المُعَاصرينَ الذين أَدْلوا دِلاءَهم في هذا المضْمَارِ دون تمحيصٍ زينبُ يوسُف فواز العامليّة حيثُ قالَتْ عنها: كانت سُكينةُ عفيفةً تجالسُ الأَجِلَّةَ منْ قريشٍ ، وتجتمعُ إليها الشُّعراء ، وكانتْ ظريفةً مزّاحةً[٤].

* ومنَ المصائبِ أنْ نَجِدَ ابنةَ الشَّاطىءِ تقولُ عَنْ سُكينةَ: وإنَّها لتجالسُ

(١) الأغاني في مواضعَ متعددة ـ طبعة مصر ، وانظر الأغاني أيضاً (١٦/ ١٥١) طبعة دار الكتب العلمية في بيروت.

(٢) «سلمة» مسالمة.

(٣) «برزة»: المرأةُ التي تجالسُ الرِّجال. (المعجم الوسيط). وقال الفيّومي: برزة: مثل ضَخم ضخامةً فهو ضَخْمٌ وضَخْمةً ، والمعنى عفيفٌ جليلٌ ، وقيل امرأة برزة: عفيقةٌ تبرزُ للرجالِ ، وتتحدَّثُ معهم ، وهي المرأةُ التي أسَنَّتْ وخرجتْ عن حدِّ المحجوباتِ (المصباح المنير).
وقال ابنُ منظور: امرأةٌ برزة: بارزةُ المحاسنِ ، قال ابنُ الأعرابي: قال الزُّبيري: والبرزةُ منَ النِّساء التي ليستْ بالمتزايلةِ التي تزايُلك بوجهها تسترهُ عنك وتنكبُّ إلى الأرضِ. وقيل: امرأةٌ برزةٌ: متجالَّةٌ تبرزُ للقومِ يجلسونَ إليها ويتحدَّثُون عنها. وقال أبو عُبيدة: البرزةُ منَ النِّساء الجليلةُ التي تظهرُ للنَّاس ويجلسُ إليها القومُ. وامرأةٌ برزة: موثوقٌ برأيها وعفافها ، ويُقالُ: امرأةٌ برزةٌ: إذا كانت كَهْلَةً لا تحتجبُ احتجابَ الشَّوابّ ، وهي معَ ذلك عفيفةٌ عاقلةٌ تجلسُ للنَّاسِ وتحدّثهم ، منَ البروزِ ، وهو الظّهور والخروج. (لسان العرب ٤/ ٣١٠) مادة برز.

(٤) الدر المنثور (ص ٢٤٥).

الأَجِلَّةَ منْ رجالِ قُرِيش ، ويجتمعُ لديها الشُّعراء ، وتُصغي إلى المغنّين[1] ، وتُسَيْطرُ علىٰ المجتمع الأَدبيّ ، دونَ أنْ تتخلّىٰ عن اعتزازِها بشرفِها العَالي ، أو يُزايلها وعْيُها لموضِعها من بيتِ النُّبَّوةِ[2] .

* وتُتَابِعُ بنْتُ الشَّاطىءِ هذه السِّلْسَلةِ منَ الكلامِ غيرِ الصَّحيح فتقولُ : وبهذهِ الشَّخصيّةِ الفريدةِ الجذَّابَةِ ، ظَهَرتْ سكينةُ في المجتمع ، فَشَغَلَتْ عَصْرَهَا ، والعصورَ منْ بعدِهِ[3] .

* أمَّا عمرُ رضا كحّالة ، فيقول عنها في مفتتح ترجمتهِ لها : سُكينةُ سيّدةٌ جليلةٌ ذات نُبْلٍ ومقَامٍ رفيع ، كانتْ تجالسُ الأجلَّةَ من قريش ، وتجتمعُ إليها الشُّعراءُ والأُدباءُ والمغنُّونَ فيحتكمونَ إليها فيما أَنْتَجَتْه قرائحُهم فَتُبَيِّنَ لهمُ الغَثَّ منَ السَّمينِ ، وتناقش المخطىءَ مناقشةً علميةً ، فيقنعُ بخطئهِ ويقرُّ لها بالفَضْلِ وقوَّةِ الحجَّةِ وسَعَةِ الاطلاع[4] .

* وقال علي مبارك في خُطَطهِ : كانَ منزلُها مألفَ الأدباءِ والشُّعراء[5] .

* وجاءَ عنها في دائرةِ المعارفِ الإسلاميّةِ : وكانتْ سُكَينةُ امرأةً فطنةً حصيفةً تهوىٰ الشِّعرَ والغِنَاء[6] .

---

(١) لاحظ المغنين؟!

(٢) تراجم سيدات بيت النبوة (ص ٩٦١) .

(٣) المرجع السابق (ص ٩٦٢) .

(٤) أعلام النساء (٢/ ٢٠٢) ، وكأنَّه صوَّرها بأنّها حكمُ الشُّعراء في سوق عُكاظ!!

(٥) الخطط التوفيقية (٢/ ١٨٦) .

(٦) دائرة المعارف الإسلامية (١٢/ ٢١) . ومنَ العجيبِ أنْ تستمعَ السّيدةُ سُكينة إلىٰ الغناءِ ، وتستمتعَ به ، ومن العجيبَ أيضاً أنْ نجدَ هذا الخبر في «فجر الإسلام» عند الدّكتور أحمد أمين نقلاً عن الأغاني ، إذ يؤكّد أنَّ دارَ سُكينة قد تداعتْ وسقطتْ فوقَ النَّاس ، وماتَ النَّاس تحتَ الهدمِ وهم يستمعون إلىٰ المغنين!!
يقول أحمد أمين : واشتهرَ في عصر واحد أربعةٌ من كبارِ المغنين : ابنُ سريج ، والغريضُ ، ومعبدُ ، وحُنينُ ، وكان الثَّلاثة الأوّلون بالحجازِ ، والأخير وحْدَه بالعراق ، فاجتمعَ الأوّلون فتذاكروا ، وكتبُوا لحنين يقولون : نحنُ ثلاثةٌ ، وأنتَ =

* ويقولُ الدّكتور زكي مبارك: وكان بيتُها مألفاً للمغنّين، وكانتْ تؤثِرُ ترفيهَ النَّاسِ بما تستطيعُ تقديمه إليهم منَ مُتَعِ الغِنَاء[1].

* ونجدُ الدكتور شوقي ضيف يقول عن سُكينةَ بعد أنْ تحدَّثَ عن ضرّتِها عائشة بنت طلحةَ: وكانتْ تشرُكُها في كثير منْ جوانبِ هذه الصّورةِ المترفةِ السَّيدةُ سُكينةُ بنتُ الحُسين[2].

* ثمَّ يلجأُ الدكتوُر شوقي ضيف إلىٰ صاحبِ كِتابِ الأَغاني لِيَصِفَ سُكينة، فيتابعُ قوله: ويقولُ صاحب الأغاني: كانتِ السَّيِّدةُ سُكينة عفيفةً بَرْزَةً منَ النِّساءِ، تجالسُ الأَجِلَّة منْ قُريش، ويجتمعُ إليها الشُّعراء.

* ويتابعُ شوقي ضيف قائلاً: وكانَ للسَّيدة سُكينة ذوقٌ جَيِّدٌ في الشعرِ، فكانتْ تنقدُ الشُّعراء، وتفاضلُ بينهم، وكانَ أشْعَبُ مُضحِك أهلِ المدينةِ يختلفُ إليها كثيراً لإِضْحَاكِها، وَجلْبِ السُّرورِ إليها.

* ويقولُ: ومن خيرِ ما يصوِّرُ تَرفَها ما يُروىٰ عنها منْ أنَّها حَجَّتْ، وَرَمَتِ الجمارَ، فَسَقَطَتْ منْ يَدِها الحَصاةُ السَّابعةُ فَرمَتْ بخاتَمِها، ويُروىٰ أنَّها

= وحدكَ، فأنتَ أولىٰ بزيارتنا، فشخصَ إليهم، واجتمعوا بمنزلِ سُكينة، فلما دخلُوا أذنتْ للنّاسِ إذناً عاماً، فغصَّتْ بهم الدَّار، وازدحمَ النَّاسُ على السَّطح وكثروا ليسمعوه، فَسَقط الرُّواقُ على مَنْ تحته، وماتَ حُنين تحتَ الهدم!! (فجر الإسلام ص ١٧٦)!! نقلاً عن الأغاني (٣/ ٣٤٩).
وزادَ الأصبهاني بعد أنْ أوردَ الخبرَ أنَّ سُكينة قالت: لقد كدّر علينا حُنين سرورنَا، انتظرناه مدَّةً طويلة، كأنّا واللهِ نسوقُه إلى منيّته.!! (الأغاني ٣/ ٣٤٩).

(١) حبُّ ابن أبي ربيعة وشعره (ص ١٨٨). والدّكتور زكي هذا، لم يستَنِدْ إلىٰ دليلٍ في مقولتهِ هذه، وإنّما راحَ يكتبُ عن خَيالٍ، وكأنَّه في حَفْلةٍ ساهرةٍ، كما قالتْ عنه ذلك إحدىٰ الكاتبات.
وعلَّقتِ الدكتورةُ بنتُ الشَّاطىء على الدكتور زكي مبارك بقولها: على حين أخذَ الدكتور زكي مبارك كلَّ هاتيكَ الأخبار والقَصَصَ والمغامرات أخذاً لمّاً، وصدَّقَها غيرَ مرتاب فيها ولا متظنّن. (تراجم سيدات بيت النبوة ص ١٠٠٢).

(٢) الشّعر والغناء في المدينة ومكة (ص ٣٥).

استبدلتْ مالَها بالزّوراء ، بقَصْرٍ في العقيقِ يُسمَّىٰ البريدي ، فلما سَالَ العقيقُ خَرجَتْ ومعها جواريها تَمْشي حتّى جَاءَتِ السَّيْل ، فجلستْ علىٰ جَرْفهِ ، ومالَتْ برجلهَا في السَّيل ، ثُمَّ قالت : واللهِ لهذه السَّاعةُ في هذا القَصْرِ خيرٌ منَ الزَّوراء[1] .

* ويقولُ : وأكبرُ الظَّنّ أنَّ ما يُروىٰ عنِ السَّيدةِ سُكينةَ ، إنَّما هو رمزٌ لترفِ البيئةِ ، فقد كانتِ المدينةُ ، رجالُها ونساؤُها في العَصْرِ الأموي غارقةً في ألوانِ التَّرفِ وأَصْباغِ النَّعيم[2] .

* ويتحدَّثُ الدكتور أحمد محمد الحُوفي عن المجالسِ التي اشتَهرَتْ بها بعضُ النِّساءِ الأمويّاتِ، فتحدَّثَ عنْ عائشةَ بنتِ طلحة ، ثمَّ تحدَّثَ عن سكينةَ فقال : كانتْ ذاتُ صيتٍ طائرٍ في حُبِّ الشِّعرِ وتذوّقِهِ ونَقْدِه ، حتّى ليصحَّ أنْ نقولَ بِلُغَةِ العَصْرِ الحاضِرِ : إنَّها كانتْ صاحبةَ ندوةٍ أدبيةٍ ، وكانَ يهفو إليها الشُّعراءُ ، فيسمعونَها ويسمعون رأْيَها ونَقْدَها ، ولها في ذلكَ أخبارٌ شتّى[3] .

* ونعودُ قليلاً وثانيةً إلى الدّكتور زكي مبارك فنجده يتحدَّثُ بكلام خطيرٍ ورهيبٍ عنِ السَّيِّدة سُكينةَ ، كما نجدُ في كلامِهِ جرأةً علىٰ ابنةِ ذاك الصَّحابي فيقول : والسَّيِّدةُ سُكينةُ بنتُ الطَّبيعةِ قَبْلَ أنْ تكونَ بنتَ الحُسين ، كما كانَ أبوها غذيَّ الفِطَرة ، قَبلَ أنْ يكونَ سبْطُ الرَّسولِ ، فلا يَغْضَب قومٌ إذا ذكَرنا أنَّها كانتْ في عفَافِها نَزِقَةً طائِشَةً ، تُؤثرُ الخِفَّة على الوَقار ، وتهوىٰ أنْ يُخَلَّدَ حُسْنُها في قصائدِ الشُّعَراءِ ، فقد قَضَتِ الطبيعةُ أنْ تكونَ المرأةُ كذلك ، إلاَّ إنْ قُدِّر لها المَسْخُ فَعادَتْ شُرطيّاً يلبسُ أثوابَ النِّساء[4] .

---

(١) المرجع السَّابق نفسه (ص ٣٥و٣٦) .
(٢) المرجع السَّابق نفسه (ص ٣٥و٣٦) .
(٣) أدب السِّياسة في العصر الأموي (ص ٢٦٦) .
(٤) حبُّ ابن أبي ربيعة وشعره (ص١٨١) . وكلامُ زكي مبارك هذا خارجٌ عن قانون بنات الصَّحابة ، ويدلُّ على نزقهِ هو وطيشهِ وخفّته وعدم وقَاره ، هدانا الله للخير والحق جميعاً .

* ونجدُ منَ المُحدثين والمعاصرين أيضاً دكتوراً يُدعىٰ: محمود حسن أبو ناجي يلخِّصُ آراءَ المصادرِ في سُكينةَ ثمَّ يمزجُ ذلك برأيهِ في أُسلوبِهِ فيقول: تروي كُتُب الآدابِ أنَّ سُكينةَ بنتَ الحُسين كانتْ أديبةً ناقدةً ، وقد حكمتْ بينَ الشُّعراء ، وكانت تَعْقِدُ مجالسَ الأَدبِ والمُناظرة في بيتها ، وكثيراً ما كانتْ تمازِح[1] الأدباءَ والشُّعراء ، وكانتْ ظريفةَ النَّفسِ ، مليحةَ الرُّوحِ[2].

* أمَّا الدّكْتُور جبْرائيل جبّور فيقول مؤكّداً نظريةَ الأصبهاني ومَنْ تابَعَه ، وزادَ عليها أشياءَ منْ إنشائِهِ واختراعِهِ: سُكينَةُ بنتُ الشَّهيدِ الحُسينُ بنُ علي بن أبي طَالب ، وهي قرشيّة هاشميّة منْ شريفاتِ النِّساءِ في عَصْرِها ، ومنَ الأديباتِ العربيّات المعدودات[3].

* ثمَّ يقولُ: نشأَتْ في بيتِ أبيها في نعمةٍ ورَغَدٍ منَ العيشِ ، وأُحيطَتْ بأسبابِ الرَّفاهية والغِنىٰ والجاه ، وثقفتْ ثقافةً أدبيةً عاليةً ، ظهرَ أثرُها فيما حَفِظَتْه منْ شعرٍ ، وفيمن كانتْ تنقدهم منْ شعراءَ ، وكانت برزةً منَ النِّساءِ ، تجالسُ الأَجِلَّةَ منْ قُريش ، ولها صِلَةٌ أدبيةٌ بأكثرِ الشُّعراءِ المشهورين في عَصْرِها ، بل كان بعضُهم يحلُّونَ ضُيوفاً عندها ، أو يحتكمونَ إليها في أشعارِهم.

* ثمَّ يقولُ: أمَّا علاقةُ عمرَ بن أبي ربيعة بها فترجعُ إلىٰ حبِّها للأَدَبِ

---

(١) لاحظ عبارة: وكثيراً ما كانت تمازح الأدباء والشعراء. ما شاء الله على هذا الافتراء!؟!

(٢) انظر: عمر بن أبي ربيعة زعيم الغزل العربي (ص ٩٨) لمحمود حسن أبو ناجي ، ومن الجدير الذّكْر أنَّ هذا الكتاب قدَّمه مؤلِّفُه لنيل رسالة الماجستير من كليةِ اللغةِ العربية بجامعةِ الأزهرِ الشَّريفِ لعام ٩٣/ ١٣٩٤ هـ.

(٣) عمر بن أبي ربيعة: حبه وشعره (٣/ ٨٨و٨٩و٩٣و٩٤). وكلنا نلاحظ كيف أن الدكتور جبور يصطاد في الماء العكر ، بل ويزيده سمّاً.

والشِّعْر والغِنَاء ، وتذوّقها لهذهِ الفنونِ ، وحرّيتها الاجتماعيةِ ، ومكانتِها بينَ نساءِ عَصْرِها .

* ويتابعُ قائلاً : وكانَ عمرُ يحبُّ الجمالَ والمجالسَ الأدبِيَّة ، فَلَمْ يَرَ بأساً في أنْ يذكُرَها بشعره ، ويشيدَ بجمالِها ومكانتها .

* ويطَلَعُ علينا أيضاً «كَرَم البستاني» بصُوَرٍ أُخرىٰ لا تقلُّ خبثاً وغشّاً عنْ سابِقهِ ، وعمَّنْ أرادَ السُّوء بهذهِ الطَّاهرةِ الشَّريفةِ ، ويجعلُها أسبقَ منَ النّساءِ الغربيات في المنازلِ والمجالسِ الأدبيةِ فيقولُ تحت عنوان سيّدة النَّاقدات : أمّا سيّدَةُ النَّاقداتِ فسُكينةُ بنتُ الحُسين ، فقد كانَ الشُّعراءُ أيّامها يحكّمُونَها ما بينهم ، فَتَنْقُدُ قولَ كلٍّ منهم ، وتبيِّنُ ما فيهِ من جيّدٍ ورديء ، وكانَ منزلُها نادياً أدبيّاً يرتادُه الأدباءُ والشُّعراءُ ، فيتذاكرون فيه أخبارَ العَربِ وأشعارهم ، وكان قولُها القولَ الفَصْلِ في كلِّ ما يعرضُ أمامَها .

* والنِّساءُ العربياتُ اللواتي كانت منازلُهنَّ أنديةً[1] يجتمعُ فيها رجالُ العِلْم والأدبِ للمذاكرةِ والرّوايةِ كثيرات أشهرهن : سُكينةُ في المشرقيّاتِ ، وولاّدةُ بنتُ المستكفي[2] في المغربيّات .

* وهذا يدلُّ على أنّ النّساءَ العربياتِ سَبَقْنَ الغربيّات بِزَمَنٍ طويلٍ في جَعْلِهِنَّ منازلهنَّ أنديةً أدبيةً[3] .

* ويستبعدُ الكاتِبُ الفرنسي «جان كُلود فاديه» أنْ تكونَ السَّيدةُ سُكينة ممن تَضَعُ الحجاب ، بل يؤكّدُ ـ بخُبْثٍ ومَكْرٍ ـ بأنَّها رَفَضَتِ الحجابَ ،

---

(١) يقول جان فاديه : لا ريب في أن للسيدة دون مراعاة قواعد الحجاب والاحتجاب مطمعاً في أن تعقد مجلساً في أي مكان تشاء ، بل حتى علىٰ كثبان رمال الصحراء . . (الغزل عند العرب ١/ ١١٥) ، ولا يخفىٰ على القارىء الكريم مافي هذا الكلام من خبث ومكر وتمويه لحقائق بنات الصَّحابة ، ونساء العرب .

(٢) اقرأ سيرةَ ولاّدة بنت المستكفي في كتابنا «المرأةُ العربيةُ في الأندلس بين الحقيقة والخيال» حيثُ أثْبتنا بالأدلةِ القاطعةِ أنَّ ولادة شخصيةٌ مزعومةٌ وغير موجودة .

(٣) النساء العربيات (ص ١٥و١٦) .

وانطلقتْ إلىٰ الانفتاح بحريةٍ ، وأي حرية ، فيقول: إنّنا علىٰ عِلْمٍ بحياةِ سُكينةَ بنتِ الحُسن حفيدة الإمامِ عليّ ، فهي لم تَضَعِ الحجابَ الذي فُرِضَ علىٰ نِساءِ النَّبيّ[1] ﷺ اللواتي ظَلَلْنَ مقيماتٍ في المدينةِ حيثُ كُنَّ قدوةً للآخرين ، فقد استقبلتِ الشُّعراء رافضةً إطلاقاً التَّبعيَّة الزَّوجيّة[2] ، وقرَّعَتْ قاضياً مَدنيّاً ذا أَفْكار ضيّقةٍ ، وأَحَدَ دُعَاة السُّنَّة المتحمّسين آخذاً ذلك عن عمَّته عَمْرَة التي أعْتَقَتْها السَّيِّدةُ عائشةُ المقيمةُ في المدينة.

* ثمَّ يتابعُ فاديه هذه النَّفْثَ المسمومَ الكاذبَ فيقولَ: وكان في مقدور نساءِ البيوتات ، استناداً منهنّ إلى تلك الحريةِ ، أنْ يتجاهَلْنَ الواجباتِ الزَّوجية التي تشدَّدَ الإسلامُ في فَرْضِها وهي أنَّ المرأةَ شبيهةٌ بالأَمَةِ[3].

* وهناكَ عَددٌ جَمٌّ منَ الكُتَّابِ والمؤلّفينَ داروا في الفَلَكِ نفسِهِ ، والميدانِ عَيْنِهِ ، وصَالُوا وَجالُوا وطلبُوا وحدهم الطَّعْنَ والنِّزالَ ، لخلو السَّاحةِ منَ الفُرسان.

* أمَّا القُدماء فكانوا أكثرَ دقَّةً في نَقْلِ الأَخْبار ، حيث نجدُ أنَّ معظمَهم يذكرُ السَّيِّدةَ سُكينةَ بالاحترامِ والإجْلالِ والتَّوقير دون الإشارةِ إلى أنَّها كانتْ برزةً ، أو تجالسُ الرِّجالَ ، أو ما شَابه ذلك من هراءٍ وافتراء.

* وليس معنىٰ هذا أنَّنا نَنْعىٰ علىٰ المُحدثين طريقتهم أو بعض القدماء الذين نقلُوا عن الأصبهاني أَقْوالَه المدسوسةَ في سُكينة ، بل نعرضُ هذه الأقوال ليكونَ القارىءُ علىٰ بصيرةٍ منَ الأَمْر ، وليعرفَ كيف ينالُ المغرضونَ منْ ساداتِ النِّساء ، ونساءِ السَّادة ، بل منْ أعلىٰ وأرفعِ النِّساء أَصْلاً وفَصْلاً

---

(١) يريدُ هذا الخبيثُ أن يُوهمَ النَّاسَ بأنَّ الحجابَ فُرِضَ علىٰ نساءِ النَّبي وحدهنَّ ، ولم يُفْرَضْ علىٰ نساءِ المؤمنين. فتأمّل.

(٢) يعتبر هذا الماكر أنَّ طاعةَ المرأة لزوجها المرأة تبعية ، وذل ، وانقياد.

(٣) الغزل عبد العرب (١/ ١١٢و١١٣). ويحسنُ بنا أنْ نَكونَ حَذرين منْ هذه الكتابات التي تشوِّه صورةَ المرأة التي أكْرمها الإسلام وجَعَل لها المكانةَ العُليا بعد أنْ كانتْ في المكانة الدنيا ولا قيمة لها.

وفضلاً وحَسباً ونَسَباً وحُسْنَ أحدوثةٍ منْ مثلِ السَّيِّدة سُكينة ابنة الحسين ، وعائشة ابنة طلحة ، ولبابةُ ابنةُ عبد الله بن عبّاس ، ورملة بنت معاوية ، وغيرهن منْ بناتِ ساداتنا الصَّحابةِ الطَّاهرات العفيفات العالمات المحدّثات ناقلاتِ العلم والمعرفة.

كَيفَ كَانَتْ سُكَينَةُ تَسمَعُ الأدَبَ والشِّعْرَ؟

* إنَّ كلَّ ما قرأنَاه منْ أقوالٍ وآراءَ حولَ مجالسةِ السَّيِّدة سُكينة للرِّجال ، تحتاجُ إلىٰ إعادةِ نَظر ، وإلىٰ دقّةٍ ، كما تحتاجُ إلىٰ توضيحٍ وعرضٍ بشكلٍ صَحيحٍ سَليمٍ مَقْبول.

* فنحنُ لا ننكرُ أنْ تكون المرأةُ قديماً أو حديثاً منَ الشَّاعِرات أو منَ الأديباتِ ، أو ممن يحترفْنَ الكِتابةَ ، أو منَ اللواتي يُحبِبْنَ سماعَ الأخبارِ الأدبيّة ومحاوراتِ الشُّعراء والبلغاءِ ، وكذلك يحببْنَ سَماعَ أَشْعَارِ المُبدعينَ منَ الشُّعراء والأُدباء ، وما رافقَ ذلك منْ قَصَصٍ متنوّعةٍ تضيفُ إلىٰ جَمالِ الأَخْبارِ روعةً ومتعةً وحُسْناً ، ولكنْ كيفَ كانتْ تلكَ الصُّورة التي تَسْمَعُ فيها المرأةُ عامّةً وسُكينةُ خاصّةً المسامرات والأَدَبيّات؟

* لا شكَّ بأنَّ ذلكَ كانَ منْ وراءِ حِجاب ، وضمنَ ضوابِطَ معيّنة ، لا تخرجُ عنِ دائرةِ الشَّريعةِ الإسلامية ، ناهيكَ بأنَّ السَّيدةَ سُكينَة كانتْ منْ نساءِ أهلِ البيتِ اللواتي لَهُنَّ وَزْنٌ كبيرٌ في المجتمعِ في عَصْرِها ومِصْرِها ، وغير مِصْرِها عَصْر ذاك ، كما كانَ لها هيبةٌ ، وشهامةٌ ، وأصالةٌ ، وصيانةٌ ترفعُها عمّا قيلَ عنها منْ مجالستِها الأجلَّة منْ قريشٍ وغيرهم.

* وعلينا ألاّ نَنْسىٰ أنَّ السَّيدة سُكينةَ تابعيّة ابنةُ صحابي ، وحفيدةُ صحابي ، وكلُّ أنْداءِ البيتِ النَّبوي[1] ترطِّبُ حياتَها صباحَ مساءَ ، فهي تَعي

---

(١) كانَ أهلُ البيتِ النَّبوي رجالاً ونساءً معْقِدَ كلِّ فضيلة ، ومجمع كلّ فَضْل ، وكعبةَ قُصَّاد المكارم ، وقدوةَ النَّاس في كلِّ حسنَة. فقد كانوا عِباداً يقضُون نهارهم في جهادٍ وصَوْم ، ويقضونَ ليلَهم في صلاةٍ ودراسةٍ للقرآن الكريم ، وإنَّ التزامَهم =

تماماً مكانتَها ، وأَصْلُها الكريمُ لا يغادِرُ وعْيَها لحظةً واحدةً ، فهل يُعقَلُ أنْ تعرضَ جمالَها للنَّاس أو أنْ تجالسَ الأَجلَّة وغيرِ الأجلَّة؟.

* إنَّ حُبَّ السَّيدةِ سُكينةَ للشِّعْرِ والأَدب لا يُنْزِلُ منْ قَدْرِها ، وربّما كانت تَسْتَمِعُ للشُّعراءِ منْ وراء حجابٍ وستارٍ ، بحيثُ تَراهُم ولا يروْنَها ، أو بحيثُ لا تَراهُم ولا يرونَها ، فالسَّيِّدةُ سكينةُ ـ رحمها الله ـ كانتْ شاعرةً نبيلةً تَقْرِضُ الشِّعر ، وتحسنُ ألوانَ الكلامِ ، ولعلَّها وَرِثَتِ الفَصَاحةَ عنْ أهلِها وذويها الذين ذُلِّلتْ لهم قطوفُ الفَصَاحةِ تَذْليلاً ، ففاضتْ ألسنتُهم تُعَبِّرُ عمّا في قلوبهم منْ ألوانِ البيَان ، فكانُوا سَادةً في كلِّ مكرمةٍ وفضيلةٍ منَ الفضائلِ كالحَسَبِ والنَّسَبِ والفَصَاحَةِ واللَّسَنِ.

أَخْبَارٌ تَحْتَاجُ للوقُوفِ عنْدَهَا :

* في حياةِ السَّيِّدةِ سُكينةَ ابنةِ الحُسين أخبارٌ كثيرةٌ في حاجةٍ إلى وِقْفَاتٍ فَاحِصةٍ ، وقراءات كثيرة كيما نعرفَ غثَّها منْ سمِينها ، فكثيرٌ منَ الأخبار والقَصَصِ تحتاجُ إلىٰ محاكمةٍ صحيحةٍ نزيهةٍ بعيدةٍ عن العَواطِفِ ، مع العِلْم بِأنَّ الذين صاغُوا هاتيكَ الأخبار التي زعموها وافْتروا فيها علىٰ سُكينةَ ليرفَعُوا ـ بزعمهم ـ منْ شأْنِها ، فجاءَ رفْعُهم لها ذمّاً وخَفضاً.

* ومنْ أمثلةِ تلكمُ الأخبار التي صَنَعَها صانِعُوها في مجالِ فَخْرِ السَّيِّدة سُكينةَ بنتِ الحسين لبيانِ قوّة حجّتها ، وبلاغةِ بيانها ، وبيانِ بلاغتها ، وفصاحةِ بيانِها ، وبيان فصاحَتِها هذا الخبرُ الآتي الذي يقولُ: كانتْ سُكينةُ

= بأحكام القُرآن ، وحرصَهم على تطهيرِ أنفسِهم من الآثامِ ، بَاعَدَ بينهم وبينَ الخداع والدَّهاء ، فلا أحدَ يساويهم ، فهم في الذّروةِ العُليا ، وغيرهم في الحضيض ، وقد ترجمَ هذه المعاني شِعْراً أيمنُ بنُ خريم في شعره ، حيث قال في حقِّهم:

نهـارُكـمُ مُكـابَـدَةٌ وصَـوْمٌ ... وليلكـمُ صـلاةٌ واقْتِـراءُ
وليْتُـمْ بـالقُـرآنِ وبـالتَّـزكّـي ... فـأَسْـرعَ فيكـمُ ذاكَ البـلاءُ
أَأجْعَلكُـم وأقـومـاً سَـواءً ... وبنيكـمُ وبينهـمُ الهَـواءُ
وهـم أرضٌ لأرجلكـم وأنتـمْ ... لأرؤُسِهـم وأعينهـم سَمـاءُ

ذاتَ بيانٍ وفصاحةٍ ، فقد كانتْ في مأْتَم فيهِ بِنْتٌ لعثمانَ ، فقالتْ بنتُ عثمان: أنا بنتُ الشَّهيد. فَسَكَتَتْ سُكينةُ ، فلمّا قالَ المؤذِّنُ: أشهدُ أنَّ محمداً رسول اللهِ ، فقالْت سُكينة: هذا أبي أو أبوك؟!

* فقالتِ العثمانيّةُ: لا جَرَمَ ، لا أفخرُ عليكم أبداً[1]!!

---

(١) انظر: الأغاني (١٦/ ١٥٠) ، والدُّر المنثور (ص ٢٤٥) ، وأعلام النّساء (٢/ ٢٢٣).
ولاحظْ ـ عزيزي القارىء ـ ركاكةَ هذا الخبرَ وسخَافَتِه وأمثالِهِ ، حيثُ إنَّ المكانَ ـ إنْ صحَّتِ الروايةُ ـ مكانَ عَزَاءٍ ، لا مكانَ فَخْر ، ثمَّ ما الحاجةُ لفخرِ ابنة عثمان وهي تعلمُ علْمَ اليقين أنَّ سُكينةَ بنتَ الحسين التي أمامها منْ سَادة النّساء ، وتعلمُ أنَّ كلا الرّجلين: عثمانُ والحُسين صحابيّان مبشَّران بالجنّة؟ ثم إنَّ واضعَ هذا الخبر يقول: هذا أبي أو أبوك؟ ويقصدُ بأنَّ أبا سُكينة هو رسول الله ﷺ!
علماً بأنّ رسول الله ﷺ هو جدُّ أبيها الحُسين لأمّه فاطمةَ الزَّهراء ـ رضي الله عنها وأرضاها ـ!.
ومثلُ هذه الأخبار مبثوثةٌ في ثنايا الكُتُب ، ومنها ما جاءَ عندَ صاحبِ كتابِ: المحاسِن والمَساوىء حيث قال: كانَ عليُّ بنُ عبد الله بنِ عبّاس رضي الله عنه ، عندَ عبدِ الملك بن مروانَ ، إذْ فاخَره عبدُ الملك فجعلَ يذكرُ أيّام بني أميّة ، فبينا هو كذلك ، إذْ نادىٰ المُنادي للأذانِ ، فقال: أشهدُ أنْ لا إله إلا الله ، وأنّ محمداً رسول الله ، فقال عليّ لعبد الملك ـ متمثلاً ببيتٍ منَ الشِّعر لأميّةَ بنِ أبي الصَّلْتِ ـ:
تلْكَ المكارِمُ لا قعْبَانَ منْ لَبَنٍ شِيْبَا بماءٍ بَعْدُ أَبْوالا
فقال عبد الملك: الحقُّ في هذا أبيَنُ منْ أَنْ يُكَابرَ. (المحاسنُ والمساوىءُ للبيهقي ص ١٢٤).
وهذا الخبرُ ظاهرُ الصُّنعة والتَّلفيق ، فعبدُ الملك بنُ مروان ـ علىٰ الرَّغم منْ أنه أميرُ المؤمنين وحاكمُ الدّنيا بوقتِهِ ـ فقيهُ ، عالِمٌ ، مؤدَّبٌ في حَضْرة رسول الله ﷺ يعرفُ مالَه وما عَلَيْه.
ـ ونجدُ كثيراً منَ الأخبارِ المصنوعةِ في هذا المجال ، حيثُ أُغْرِمَ صانعوها وناحتوها منَ الخيال والتّخيّل ، وظنُّوا أنّهم يحسنُونَ صُنْعاً بذلك ، ولكنّهم مَطُّوا وشطُّوا وبطُّوا وحطُّوا وكُشِفَتْ ظنونُهم في عَراء الحقيقةِ ، وميدانِ الواقعِ ، ومنْ أمثلةِ ذلك أنَّ المتوكّل العبّاسي سأَلَ الرَّضي فقال:
يابن عمّ ، مَنْ أشعرُ زماننا؟! قال: عليّ بنُ محمّد العلوي. =

* ومنَ الأخبارِ التي تَحْتَاجُ إلى وقفَةٍ طويلةٍ هذا الخبرُ المزعُومُ الذي يقولُ: كانتْ سُكينةُ تجيءُ في ستارة يوم الجُمعة ، فتقومُ بإزاء ابن مُطيرة ، ـ وهو خالدُ بنُ عبد الملك بن الحارث بن الحكم ـ إذا صَعِدَ المنبر ، فإذا شتم عليّاً شَتَمَتْه هي وجواريها ، فكانَ يأْمُر الحرسَ فيضربُون جواريها(١).

ـ وذكر الذَّهبيُّ ـ رحمه الله ـ أن أبا بكر بنَ البَرْقي قال: كانتْ سُكينةُ منْ أجْلَدِ النَّاس ، دخلتْ علىٰ هشام بنِ عبد الملك في قَواعدَ منْ نساءِ قريش ، فَسَلَبَتْه مِنْطقَتَه وعمامتَه ومِطْرقَتَه ، فقال لها لمّا طلَبَتْ ذلك منه: أوَ غَيرَ ذلك!!

فقالتْ: ما أريدُ غيره ، وكانَ هشامُ يعتمُّ ، فأَعْطَاها ذلك ودَعَا لها بثياب ، وكانتْ إذا لَعَنَ مروانُ عليّاً لَعَنَتْه وأباه(٢).

= قال: وما تحفظُ منْ شعرِه؟ قال: قولهُ:

لَقَدْ فاخَرتْنا مِنْ قريشٍ عصابةٌ … بمطِّ خُدودٍ وامتدادِ الأصَابعِ
فلّما تَنازعْنا القَضَاء قضىٰ لَنا … عليهمْ بما نهوىٰ نِداءُ الصَّوامعِ

قال المتوكّل: وما معنى نداء الصّوامع؟! قال: أشهدُ أنْ لا إله إلا الله ، وأنْ محمداً رسول الله.

قال: وأبيك إنَّه لأشعرُ النَّاس. (المحاسنُ والمساوىء ص ١٢٤).

والخبر كما يرىٰ القارىء الكريم الحصيفُ مصنوعاً ، ولكنْ صناعةٌ رديئةٌ ركيكةٌ مركبةٌ مهلهلةٌ.

(١) الأغاني (١٦/ ١٥١) ، والدر المنثور (ص ٢٤٥) ، وأعلام النساء (١/ ٢٢٣).

(٢) تاريخ الإسلام للذهبي (ص ٣٧١) ، وتاريخ مدينة دمشق (تراجم النِّساء ص ١٥٧).
وهنا كلمةٌ لابدَّ منْ إيضاحِها ، ونودُّ أنْ نبيِّن لعزيزنا القارىء كَذِبَ المفترين علىٰ أصحابِ رسول الله ﷺ ، وهي حكايةُ لَعْنِ عليّ بن أبي طالب ـ عليه سحائب الرضوان ـ علىٰ منابر بني أمية. فهذه الحكايةُ ـ أو الأسطورةُ المزعومةُ ـ لا تتّفِقُ أبداً مع منطقِ الحوادثِ ، ولا معَ طبيعةِ المتخاصمين.
وإذا ما رجَعْنا إلىٰ المصادر المتنوّعة المعاصرة لبني أميّة ، فإنّنا لا نلمحُ أثراً لذلك أبداً ، وإنّما نجدُه فيما بَعْد ، وفي عَصْر غيرِ عصرهم ، حيثُ اختلفتْ هذه القصّة في عَهْد بني العبّاس بُعَيْد القَرنِ الهجري الثّالث ، وكَتَب المؤرِّخُون في عَصْر العبّاسيين هذه الفِرْية ، وأصبحتْ هذه القصّة مسطورةً عند الطَّبري ، ونصيباً =

* ومثلُ هذا الخبرِ وأَضْرابُه موجودٌ في كُتُبِ الأَدَبِ ، وقد وَرَدَ أنَّ عَدَداً منَ الشُّعراء كانوا يردُّون علىٰ مَنْ يشتمُ عليّاً.

* قال كثيرُ بنُ كثير السَّهمي[1] لمّا سَمِعَ عمّال خالد بن عبد الملك يلعنُون عليّاً والحسنَ والحُسينَ علىٰ المنابرِ :

لَعَنَ اللهُ مَنْ يسبُّ عليّاً ... وحُسَيناً مِنْ سُوقَةٍ وَإمامِ

أَيسبُّ المطيَّبون جُدوداً ... والكرامُ الأَخْوالِ والأعمامِ

يأْمَنْ الظَّبيُ والحَمامُ ولا يَأْ ... مَنْ آلُ الرَّسولِ عنْدَ المقَامِ

طِبْتَ بيتاً وطابَ أهْلُكَ أهلاً ... أهلَ بيتِ النَّبيِّ والإسلام

= مفروضاً عنْد غيرهِ منَ المعاصرين للدَّولة العبّاسية ، فلّما جاء أهلُ التَّأْريخ منَ بعدهم ، نَقَلُوا هذه الأكذوبة المُفْتَعَلة ـ دون رويّة أو تمحيص ـ ثمَّ جاء في العصر الحديث المستشرقون وتلامذتهم منْ مختلفِ الأصقاع ، فوجدوا في هذه القصّة مرتعاً خصْباً ، ومسرحاً واسعاً ، فأخذوا يصوِّرون تلك الخصومات حَسبَ أهوائِهم ، وتناسوا أنَّ الصَّحابةَ الكرام لم ينزلوا إلىٰ هذا الدَّرْكِ الذي ضخّموه من الخلافِ والبغي والعدوان.

هذا ولم يصحَّ أنَّ سيّدنا معاوية ـ رضي الله عنه ـ قد سَبَّ سيّدنا علياً ـ رضوان الله عليه ـ ، أو لَعنَه مرّةً واحدةً ، فضْلاً عن التّشهير به على المنابرِ ، بل كان إنْ نالَ أحدٌ من أصحابه منْه ردَّهُ إلى جادَّة الصَّواب.

ثمَّ لماذا يلعنُ الأمويّون عليّاً وهم الغالبون ، وهم ملوك الأرض؟ والغالبُ لا يأْبَه بالمغلوب ، فيكف يسبُّه على المنابر؟! إنَّ هذه القصص والرّوايات والأخبار منسوجة موضوعة ظاهرة الضْعف.

والممحص في الأخبار وقراءة التّاريخ يبيّن له مصداق ما قلناه.

(١) كثيرُ بنَ كثير بنِ عبد المطلب بن أبي وداعة بن هُبيرة القُرشي السَّهمي المكيّ ، روىٰ عن أبيه ، وسعيدِ بن جبير ، وعلي بن عبد الله البارقيّ وغيرهم. وروى عنه ابنُ جريج ، ومَعْمر ، وهشام بن حسّان ، وابن عيينة وآخرون.

قال ابنُ سعد: كانَ شاعراً قليلَ الحديث. وقال أحمدُ وابنُ معين: ثقةٌ ، وقال النّسائي: لا بأس به ، وذكره ابنُ حيان في الثّقات ، (تهذيب التّهذيب ٦/ ٥٦٣) ترجمة رقم (٥٨١٦).

رحمـــةُ اللهِ والسَّـــلامُ عليهـــم كلّمـــا قـــامَ قـــائـــمٌ بِسَـــلامِ[١]

* ولمّا عابوه بذلك الرّأي أنْشَدَ قَائِلاً:

إنَّ امــرأً أَمْسَــتْ معــايبــهُ حُــبَّ النّبــيّ لغيــرِ ذي ذَنْــبِ
وبَنــي أبــي حَسَــنٍ ووالــدِهــم مَــنْ طَــابَ فـي الأَرحـام والصُّلْـبِ
أيُعَـــدُّ ذنبـــاً أَنَّ أحبّهـــمُ بـــل حبُّهـــم كفّـــارةَ الـــذَّنْـــبِ[٢]

* ومن الأخبارِ العجيبةِ المموَّجةِ، ما جاءَ أنَّ مصعبَ بنَ الزُّبير قال لسُكينة: أنتِ مثْلُ البغلةِ لا تَلِديْنَ!

فقالت سُكينةُ: لا واللهِ، ولكن كَرَمي أبىٰ أنْ يقبل لُؤْمَك[٣]. !؟!

* ومنَ الأخبارِ التي تحومُ حولَها الشّكوكُ، ما جاءَ عند أبي الفَرج بأنَّ سُكينةَ بنتَ الحُسين حجَّتْ، فدخَلَ إليها ابنُ سريج، والغريض، وقد استعار ابنُ سريج حُلَّةً لامرأةٍ منْ قُريش فَلَبسَها. فقال لها ابنُ سريج: يا سيّدتي إنّي كنتُ صَنَعْتُ صوتاً وحسَّنْتُه وتنوَّفْتُ[٤] فيه، وخبأْتُه لكِ في

---

(١) نسب قريش (ص ٤٠٧)، وانظر: أدب السّياسة في العصر الأموي (ص ١٨٥و١٨٦) وفيه تخريج الأبيات.

(٢) البيان والتبيين (٣/ ٣٦٠).

(٣) انظر: نثر الدر (٢/ ٤٦)، والبصائر والذخائر (٨/ ١١٦)، وأعلام النّساء (٢/ ٢٢٣)، ولكنْ أينَ ابنة سُكينة من مصعب التي كانتْ تثقلها بالحَلّي لتفضحَ الحلي؟! بل إنَّ مُصعباً لا يمكن أنْ يؤذيَ زوجتَه سُكينة بمثلِ هذا الكلام ـ إن صحَّ أنَّها عاقرٌ ـ وهي كريمةُ الأصول فلا تردُّ عليه بذلك الردّ المرّ.
ونعتقد أنَّ هذه القصّة وأشباهَها موضوعةٌ، فقد رُويت مثل هذه القصة عن رملة بنتِ طلحة بن عمر بن عبيد الله بن معمر، وكانت رملةُ هذه عند هشام بن عبد الملك، وكانت لا تلدُ، فقال لها هشَام يوماً: أنتِ بغلة لا تلدين. فقالت: بلىٰ، يأبىٰ كَرَمي أنْ يدنّسه لؤمك. (بلاغات النساء ص ١٨٦).
وقصّة رملة مع هشَام مصنوعة أيضَاً قد صاغها صائغو الزّور والأخبار في مصانعهم الهزيلة.

(٤) «تنوّفتْ فيه»: تجوّدت. وتنوفس في الأمر: تأنّق فيه. وتنوّف: بالغَ في تجويده. =

حريرةٍ في درجٍ مملوءٍ مِسْكاً ، فَنَازَعْنيْه هذا الفَاسِق ـ يعني الغريض ـ فأردنا أنْ نتحاكمَ إليكِ فيه ، فأيّنا قَدَّمْتِهِ فيه تَقَدَّم ، قالت : هاتِهِ ، فغنّاها :

عــوجــي علينــا ربَّــةَ الهَــوْدَجِ إنَّــك إلاّ تَفْعَلــي تَحْــرجــي[1]

فقالت : هاتهِ أنتَ يا غريض . فغنَّاها إيّاه .

فقالتْ لابنِ سريج : أَعِدْه ، فأعادَه .

وقالت : يا غريض ، أَعدِه ، فأعَاده .

فقالت : ما أشُبِّهكما إلا بالجِدْيَيْن الحارّ والبارِد ، لا يُدرىٰ أيهما أطيب .

* وفي خبر آخرَ أنَّها قالت : واللهِ ما أفرق بينكما ، ومَا مَثَلُكما عندي إلا كَمَثَلِ اللُّؤلؤِ والياقوتِ في أعناقِ الجواري الحِسَان ، لا يُدرىٰ أيّ ذلكَ أَحْسَن .

سكينــةُ والـشِّعْـر وعمـرُ بـنُ أبـي ربيعَـةَ :

* منْ هذهِ النُّقطة دُهيَتْ سُكينةُ في سِيرتِها ، إذْ قيل عنْها بأنّها كانتْ تجالسُ الشُّعراء ، وتخالطُ الأُدَبَاءَ والشُّعَراء ، حتى قال بعضُهم : إنَّ منزلها كانَ مألِفَ الأدباءِ والشُّعراء[2] ، وكان الشُّعراءُ ينالونُ جوائِزَها ، حيثُ تغْدِقُ عليهم بالآلافِ ! ! وبعضُهم كانت تودُّ لقاءَه ، لتجاذِبَه أطرافَ الحديث وعَذْبَ الشِّعر .

* ومن الأخبارِ التي اشتهرتْ في بعض كُتُبِ الأَدَب وغيرها ، وتسيءُ إلى سُكينة إساءةً مباشِرةً ، تلكمُ القِصَّةُ التي استدعَتْ فيها سُكينة عمرَ بن أبي ربيعة منْ مكةَ فَزَارَها ، ولم يَزُرِ المسجدَ النّبويَّ الشَّريفَ ، إذْ زعمَ أنَّه لا يودُّ أنْ يَخْلطَ بزيارةِ سُكينة وصويحباتها شيئاً .

= يقال : تنوفَ في منطقه وتنوّف في ملبسه .

(١) الأغاني (٢/ ٣٥٥ و٣٥٩ و٣٦٠) . ونتركُ محاكمة هذا الخبرِ للقارىء الكريم كيما يحكم عليه بنفسه .

(٢) الخطط التوفيقية (٢/ ١٨٦) .

* ففي «أغانيه» ذكرَ أبو الفرج الأصبهانيّ خَبَراً عنها رفع سَنَده إلىٰ أبي عبد الله مُصْعَب الزُّبيري قال: اجتمعَ نسوةٌ ـ بالمدينة المنورة ـ فذكَرْن عمرَ بن أبي ربيعة، وشعْرَهُ وظَرفَه وحُسْنَ مجلسِهِ وحديثِهِ، وتشوَّقْنَ إليهِ وتمنيْنَه، فقالتْ سُكينةُ: أنا لكُنَّ بهِ. فَبَعَثَتْ إليهِ رسولاً ووعدته الصُّورين[1] لليلةِ سمَّتها، فوافَاها علىٰ رواحِلهِ ومعه الغريضُ، فحدثَهنَّ حتّى وافىٰ[2]، وحانَ انصرافُهُنَّ، فقالَ لهنَّ: إنّي واللهِ لمشتاقٌ إلىٰ زيارةِ قَبْر النَّبيِّ ﷺ،

---

(١) «الصُّوران»: قال البكريُّ: بفتحِ أوّله، تثْينة صُوْر، وهو الجماعةُ منَ النَّخل، وهو موضعٌ بين المدينةِ وبني قريظة، وهناك مرَّ رسول الله ﷺ بنفرٍ منْ أصحابهِ، قبل أنْ يصلَ إلى بني قُريظة، فقال: «هل مرَّ بكم أحَدٌ»؟ قالوا: مرَّ بنا يا رسول اللهِ دِحيْة بن خليفةِ الكلبيّ على بغلةٍ بيضاءَ عليها رحالة، عليها قطيفة دَيْباج. فقال رسول الله ﷺ: «ذلكَ جبريلُ، بُعِثَ إلى بَني قريظة يُزلزِلُ حصونَهم».
وقال عمر بن أبي ربيعة في الصُّورين:

قَدْ حَلَفْتَ ليلةَ الصُّورينِ جَاهِدةً ... وَمَا علىٰ المرءِ إلا الصَّبرُ مُجْتهدا
لِتِرْبِها ولأُخرىٰ مِنْ مَنَاصِفِها ... لَقد وجدْتُ بهِ فَوقَ الذي وَجَدا

وقال ياقوت: «الصُّوران»: موضعٌ بالمدينةِ بالبقيع، ثمَّ ذكر بيتَي عمر بن أبي ربيعة. وقال مالكُ بن أنس: كنتُ آتي نافعاً مولىٰ ابن عمر نصفَ النَّهار ما يظلني شيءٌ من الشَّمس، وكان منزلُه بالبقيعِ بالصُّورين.
(معجم البلدان ٣/ ٤٣٢)، و(معجم ما استعجم ٣/ ٨٤٦ و٨٤٧)، و(ديوان عمر ص ٣٩٢) مع الجمع والتصرف.

(٢) في خبثٍ واضحٍ يقدّمُ جان فاديه مقدمةً بسيطةً لهذه القصّة فيقول: وتجيدُ السَّيِّدة ـ دون ريب ـ اختيارَ العِشْرة الأقلّ تعريضاً للشُّبْهةِ (الغزل عند العرب ١/ ١١٥).
وفي خبثٍ أكثر وضوحاً يتابعُ جان فاديه رحلةَ سمومِهِ فيقول: وتدخلُ عناصرُ كثيرة على هذا المجلسِ الذي تمَّ حسبما تشتهي قلوبُ سيّدات أمويّات متحرّرات، ولا جدالَ في أنَّ لجاذبيةِ خروجهنَّ منفردات، أو منخفّيات النَّصيب الأكبر في هذا الجانبِ من المسّرات، وتبدي قاعدة مدنية تسامحاً واسعاً تجاه هذا النوع من مغادرة الدور، مُتيحة للسيدة جواز طريق طويلة مع خَدَمِها. (الغزل عند العرب ١/ ١١٥و١١٦).

والصَّلاة في مسجدِه ، ولكنْ لا أَخْلِطُ بزيارتكُنَّ شيئاً ، ثم انصرفَ إلى مكةَ ، وقال:

أَلْمِمْ بزينبَ إنَّ البينَ قَدْ أَفِدَا ... مَلَّ الثَّواءَ لئن كانَ الرَّحيلُ غَدا

قد حَلَفَتْ ليلةَ الصُّورَيْن جاهدةً ... وما على الحرِّ إلا الصَّبرُ مجتهدا

لأُخْتِها ولأخرىٰ منْ مَنَاصِفِها ... لقد وجدتُ بهِ فوقَ الذي وَجَدا

لعمُرِهَا ما أراني إنْ نوىٰ نَزَحتْ ... ودامَ ذا الحبَّ إلا ميّتاً كَمِدَا[1]

* إن القَصَصَ التي وَرَدَتْ عنْ أغزالِ ونسيبِ عمرَ بن أبي ربيعة في سُكينةَ ـ رحمها الله ـ لا تَصحُّ ، بل إنَّ عمرَ نَفْسَه لا يجرؤُ أنْ يتعرَّضَ لِمثْلِ سُكينةَ ، لعِلْمِه عِلْم اليقين مَنْ هي سُكينةُ ، وما مكانتها في المجتمع القرشيّ ، وبينَ نساءِ أَهْلِ البيتِ الطَّاهرات.

* ولقد أصابَ ابنُ سلاّم قديماً ، عندما تَحدَّثَ عنْ هذا الموضوع وكذلك

---

(١) الأغاني (٢/٣٦٦ ـ ٣٧١) ، وللخبرِ بقيةٌ مفادُه أنَّ عمرَ بن أبي ربيعة أرسلَ بالأبياتِ إلى سُكينةَ مع الغريضِ المغني المشهور ، فذهبَ إلىٰ المدينةِ ، وقَصَدَ سُكينةَ وأخبرَها بأنَّ أبا الخطَّاب عمرَ بن أبي ربيعة قَدْ أَمَره أنْ ينشَدها الأبيات ، فأنْشَدها الأبيات كلّها:

ألممْ بزينبَ أنَّ البينَ قد أفِدا ... قَلَّ الثّواء لئن كان الرحيلُ غَدا

فوجَّهتْ إلى النّسوةِ وجمعتهنّ وأنشدتهنّ الشعّر ، ثمّ أمرتْ بنانةَ جاريتَها أنْ تعطيَه أربعةَ آلاف درهم لكلّ بيت ألف درهم ، وقالتْ سكينة للغريضِ: لو زادنا عمرُ لزدناك!

ونقولُ للقارىء الكريم ـ إنْ صحَّ الخبر ـ: هل يأتي عمرُ بن أبي ربيعة من مكةَ إلى المدينة في ذلك العصر ويسير حوالي (٤٥٠ كم) من أجلِ أنْ يرىٰ النّسوة ولا يخلطُ بزيارتهن شيئاً؟! ويتركُ الصَّلاة في المسجدِ النّبوي وهو علىٰ قابِ قوسين منه أو أدنىٰ؟! وهل بلغَ الطّيشُ بسكينة أنْ تجمعَ النّسوة مرةً ثانية وتنشدهنّ شِعْر عمر الذي غنّاه الغريض؟! ثم تدفعُ أربعة آلاف درهم؟! وهو في ذلك الوقتِ يعادل ثمانية مهور لثمان نساء منْ أجلِ أربعةِ أبيات في الغزل؟! إنَّ مثل هذه الأخبار يصلحُ أنْ نقفَ عندها كثيراً قبل تصديقها ، ففي ثناياها إساءاتٌ إلى سكينة ، فهل كان هَمُّ القوم قدماً ـ وخصوصاً النّساء ـ سماع شعر عمر بن أبي ربيعة؟!.

الحصريُ اقتفىٰ أَثَرَ ابنِ سلاّم وتحدَّثَ عنْ ذلك فقالا :

* كان عمرُ بن أبي ربيعةَ فَاسِقاً يتعرَّضُ للنِّساء الحواجّ ، وفي الطَّواف ، وغيره منْ مشاعرِ الحج ، ويشبِّبُ بهنَّ ، فَسَيَّرَهُ عمر بنُ عبد العزيز ـ رحمه الله ـ إلى الدّهْلك ، وكان يشبِّبُ بسَكينةَ ، وفيها يقولُ كَذِباً عليها :

قالتْ سكينةُ والدُّموعُ ذَوَارِفٌ ... منها علىٰ الخَدَّيْنِ والجِلْبابِ
ليتَ المغيريَّ الذي لمْ نجْزِهِ ... فيما أطالَ تَصيُّدي وطِلاَبي
كانت تردُّ لنا المنىٰ أيّامنَا ... إذْ لا نُلامُ علىٰ هوىً وتصَابي
خُبِّرْتُ ما قالتْ فَبِتُّ كأَنَّما ... رُمِيَ الحشَا بنوافذِ النُّشَّابِ
أسُكينُ ما ماءُ الفراتِ وطيبُهُ ... منّا على ظمأٍ وحبِّ شَرابِ
بألذَّ منكِ وإنْ نأَيْتِ وقلَّما ... ترعىٰ النِّساءُ أمانةَ الغيّابِ[1]

* ومنَ العجيبِ أنْ نجدَ الدّكتور محمود حسن أبو ناجي يقولُ معقّباً علىٰ

---

(١) انظر: الشّعراء والشّعراء (٢/ ٥٥٤) ، وزهر الآداب (١/ ٦٤) ، وانظر المحاسن والأضداد للجاحظ (ص ٣١٠ و٣١١) ، وديوان عمر (ص ٤٣٤ و٤٣٥) ، وهي قصيدة مؤلَّفة من (١٢ بيتاً) مطلعها :

رَدَعَ الفؤادُ تذكُّرَ الأَطْرابَ ... وصَبَا إليكِ ولاتَ حينَ تَصَابي

وفي كتابها : «تراجم سيّدات بيت النّبوة» تنعىٰ الدكتورة ابنةُ الشَّاطىء طريقةَ الدكتور زكي مبارك ، وتسخرُ منه ، وتتساءلُ فيما إذا صحَّ غَزَلُ عمر بن أبي ربيعة بسكينةُ فتقول: ولا تسأَلْهُ ـ أي لزكي مبارك ـ أينَ كان بنو هاشم ، وأينَ كان الإمامُ زين العابدين ، وعمرُ يرفعُ عقيرتَه بالغزلِ في سُكينة؟ وبيتُها قد صار «مألفاً للمغنين وملاذاً للشّعراء المخلصين ، لِما خُلِقُوا له من عبادةِ الطَّرفِ السَّاحر والقدِّ الرشيق»؟ ، فمثلُ الإمام زين العابدين عنده مَنْ لا يَغْضب لأُخْتهِ. (تراجم سيدات بيت النبوة ص ١٠٠٧).

وتتابعُ ابنة الشَّاطىء سخريتها منَ الدكتور زكي مبارك ونعيها عليه طريقته وفكره فتقول: أجلْ لا تسأله عنْ هذا ، فإنّما يُسْأَلُ مَنْ يُحاسبُ قَلَمه ، ويتّقي الحقَّ والضَّمير فيما يكتب ، ويحترمُ عَقْلَه وعقولَ النَّاس ، (تراجم سيدات بيت النبوة ص ١٠٠٨) ، ثمّ تتابع بنت الشَّاطىء السّخرية من زكي مبارك. راجع إنْ شئتَ: سيدات بيت النبوة (ص ١٠٠٨ و ١٠٠٩).

هذه الأبياتِ: هذه الأبياتُ كانت ترضى بها سُكينةُ بنتُ الحسين ، هذه المرأةُ القرشيةُ الأرستقراطيّةُ ، ويبدو أنَّها ترغبُ في إشاعةِ الحديث بِالجمالِ والأَصْلِ والأناقةِ والظَّرافةِ والهيئةِ[1].

* ومنَ الأعاجيب أيضاً أنَّ الأصبهانيَّ قد ذكَرَ أنَّ هارونَ الرَّشيد قد استنكرَ أبيات عمرَ بن أبي ربيعة في سُكينةَ ، فقد روىٰ خَبَراً عنْ إسحاق الموصلي قال: غنَّيْتُ الرَّشيدَ يوماً بقوله: ـ أيْ بقولِ عمرَ بنِ أبي ربيعة ـ:

قالتْ سُكَينةُ والدُّموعُ ذَوَارِفٌ ... منْها علىٰ الخدَّيْنِ والجِلْبابِ

فوضعَ القَدحَ منْ يَدِه ، وغَضِبَ غضباً شديداً وقال: لَعَنَ اللهُ الفاسِقَ ، ولَعَنَكَ مَعَهُ.

فسُقِطَ في يدي ، وعَرَفَ ما بي ، فَسَكَن ، ثمَّ قال: ويحكَ! أَتُغنّيني بأحاديثِ الفاسِق عمر بن أبي ربيعة في بنتِ عمّي ، وبنتِ رسول الله ﷺ؟! ألا تتحفَّظ في غنائك وتدري ما تخرجُ منْ رأسِك؟ عُدْ إلىٰ غنائِك الآن ، وانظرْ بين يديكَ ، فتركْتُ هذا الصَّوتَ حتى أُنْسِيْتُه ، فما سَمِعَه منّي أحَدٌ بَعْده[2].

* وينسبُ الرّواةُ كثيراً منَ الأَشْعارِ التي قالَها عمرُ في سُكينةَ ، وإنَّ تلكم الأشعارَ يحومُ حولَها الشّكّ ، ومنها قولُه قصيدة طويلة بلغَتْ (٢٣ بيتاً) مطلعُها:

---

(١) انظر: عمرُ بنُ أبي ربيعة زعيمُ الغزلِ العربي (ص ٩٩) لمحمود حسن أبو ناجي ، والكتابُ كما قُلْتُ هو بحثٌ تقدَّمَ بِهِ المؤلِّف لنيلِ رسالةِ الماجستير من كلية اللغة العربية بالأزهر الشَّريف.. !
ومن الجديرِ بالذكر أنَّ الدكتور جبرائيل جبور قد قال قبل «أبو ناجي هذا»: ولعل أكثرَ شعر عمر في سُكينة كان عن تظرُّفٍ وفنّ. (عمر بن أبي ربيعة ٣/ ٩٦).
ولعمري ما ندري هذا التّظرف في التّغزل بالشّريفات.

(٢) الأغاني (١٧/ ١٦٣) ، وعلى الرغم منْ شكّنا في صحةِ هذه القصّة لما فيها منْ إساءةٍ إلى الرشيدِ أيضاً ، إلا أنّها تدلُّ على مكانةِ نساءِ أهل البيت عند الخاصّة والعامة.

أَرِقْتُ وَلَمْ آرَقْ لِسُقْمٍ أَصَابني ... أُرَاقِبُ لَيْلاً ما يَزولُ طَويلا

ومنها وقد رخَّمَ اسمَ سُكينة إلىٰ سُكْن:

فقلتُ لها يا سُكْن إنّي لسائلٌ ... سُؤالَ كريمٍ ما سأَلتُ جميلا

سَأَلتُ بأنْ تَعْصي بنا قول كاشحٍ ... وإنْ كانَ ذا قُربى لكمْ ودخيلا

وآخرها:

وأنْ تحفظي بالغيبِ سرّي وتَمْنَحي ... جليسَك طرفاً في الملامِ كَليْلا[1]

* ومن شعرهِ في سُكينةَ ـ كما زعمَ الأصبهاني والرّواة ـ ، وقد شَبَّهها بالغزالِ الأَجم الذي لا قُرون له:

إنَّ طيفَ الخيالِ حينَ أَلمّا ... هَاجَ لي ذِكْرُه وأحْدَثَ هَمّا

جدّدي الوصلَ لي سُكينُ وجُودي ... لمحبٍّ فراقُه قَد أحَمّا

إنْ تُنيلي أعشْ بخيرٍ وإنْ لمْ ... تَبْذُلي الودَّ متُّ بالهمِّ غمّا

ليسَ دون الرّحيلِ والبَيْن إلاّ ... أنْ يردُّوا جمالَهم فتزمّا

ولقد قُلتُ مخفياً لغريضٍ ... هل ترىٰ ذلك الغَزالَ الأَجمّا

هلْ ترىٰ فوقَه منَ النّاس شَخْصاً ... أحسنَ اليومَ صورةً وأتمّا

* وقد علَّق الدكتور جبرائيل جبور علىٰ هذه الأبيات بكلامٍ فيه مواربة وخُبْث ، إذْ يسيءُ إلىٰ شريفات النّساء عصْر ذاك فقال[2]:

لقد كانتِ الكثيراتُ منَ نساءِ ذلك العَصْر يُحِببْنَ أنْ يُذْكَرْنَ في شِعْرِ الشُّعَراء ، وكان بعضُهنّ يفتخرنَ إذا ذُكرنَ أو ذُكِر جمالُهُنَّ بشعرِ ابن أبي ربيعة ، فليسَ على ابنِ ربيعةَ منْ لومٍ في نفسِهِ إذا عَرَضَ بشعرهِ لبعضِ الشَّريفات وذَكَر جَمالَهُنّ[3].

---

(١) ديوان عمر (ص ٣٥٥ ـ ٣٥٧) قطعة رقم (١٨٧).

(٢) ديوان عمر (ص ٥٠١) قطعة رقم (٤٢٦) ، والأغاني (١/ ٢٩٤) وفيه خمسة أبيات فقط.

(٣) عمر بن أبي ربيعة حبه وشعره (٣/ ٩٨).

* ويقولُ عن سُكينةَ في موضعٍ آخر: ومهما يكنْ مِنْ أمْرٍ فليسَ في شعْرِ عمرَ في سُكينةَ ما يشيرُ إلى عَبَثٍ أو إثمٍ، لقد كانَ متبذلاً في حياتِهِ، ولكنَّ سُكينةَ ـ علىٰ حبِّها للظَّرفِ والمُزاحِ ـ كانتْ شريفةً، ليس يهمُّها منْ أمرِهِ سوى فَنِّه وشعْرِه، فكان منَ الطَّبيعيّ إذاً أنْ يكتفيَ بوصْفِ جمالها، وأَثَر ذلك في نفسِهِ[1].

* وفي موضعٍ آخر يقولُ عنها: نرىٰ أنَّ صِلَتَه بِسُكَينةَ لم تكنْ كالصَّلاتِ التي كانت له بكثيرٍ منْ غيرِها منَ النِّساءِ، ولعلَّه لمْ يذكرْهَا إظهاراً لحبِّهِ لها، ولكنَّه ذكَرهَا علىٰ سبيلِ الثَّناء، ولم تكنْ ترىٰ بأْساً لمكانتها وحرمتِها أنْ تُذكَرَ بشعْرِ الشُّعراء، ومن هنا فقد أصابَ هؤلاء الذين نَسبُوا إليه الكذبَ فيما قاله عنها[2].

* أمّا الدكتور محمود حسَن أبو ناجي فقد علَّق علىٰ الأبياتِ السِّتةِ السَّابقة بقوله: أبياتٌ تدخلُ قلوبَ الحرائرِ الشَّريفات، وتجعلُهنَّ يتهالكْنَ في مُصَاحَبتِه، فشَاعَ هذا المَعذَّب الذي أجادَ وصْفَ الحِسان منَ الأرستقراطياتِ، فشاعَ الكلامُ عنهنَّ بالجمَالِ والدَّلال والخَفَرِ. وفي ظنّي أنَّ هؤلاءِ الحِسَان كُنَّ يرغبْنَ في مواصلةِ هذا الحديثِ حتى يكونَ لَهنَّ ذِكْرٌ في المجالس والتَّاريخ[3].

* ومنْ أشعارِ عمرَ بن أبي ربيعة في سُكينةَ قصيدة بلغَتْ (١١ بيتاً)، وهي

---

(١) المرجع السابق (٣/ ٩٩/ ١٠٠).
(٢) المرجع السابق نفسه (٣/ ١٠٠).
(٣) عمرَ بنُ أبي ربيعة زعيم الغزل العربي (ص ١٠٠)، ونحنُ نقولُ لهذا الدّكتور: إنَّ ظنَّك ليسَ في محلّه، وإنَّ الشّريفاتِ لمْ يكُنَّ يتهالكنَ في مصاحبةِ عمرَ بن أبي ربيعة، حيثُ يصدُّهُنَّ عنْ ذلك الإسلامُ، ومعرفتهنّ بما لَهُنَّ وما عليهنّ، ناهيك بأنَّ عَصْر سُكينة كانَ عَصْرَ عِلْمٍ وروايةٍ، وقد وثّق المحدِّثون جميعُ أولئك الشّريفات اللواتي رَوَينَ الحديث النَّبوي الشَّريف، ولو كنَّ كما زعمتَ لما كُنَّ منَ الثّقات، والله أعلم بالصَّواب.

أيضاً منَ الكذبِ علىٰ السَّيِّدةِ سُكينةَ ، ومنها :

يـا سُكْـنُ قَـدْ واللهِ ربِّ محمّـدِ ... أَقْصَـدتِ قَلبـي بـالـدَّلالِ فعـوِّضِـي
وتحرّجي مِنْ قَتْل مَنْ لم يَبْغكُم ... هجـراً ولا صـرمـاً ولـمْ يتبغَّـضِ
يـا سُكْـنُ كَـم ممـن تـودَّدَ عنـدنـا ... أُقصـي وكـن مـنْ كـاشـحٍ متعـرِّضِ
وصَرَمْتُ فيكِ أقاربي وعواذلي ... ووصلتُ عمداً فيك حَبْلَ المبغضِ
يـا سُكْـنُ حبُّك إذْ كلفتُ بحبِّكـم ... عـرضـاً أَرَاهُ وربّ مكـةَ مُمـرضـي
يـا سُكْـنُ كـانَ العَهْـدُ فيمـا بيننـا ... ويميـنُ صبـرٍ منـكِ أنْ لا تنقضـي
فوجَدْتُ حَبْلَكِ منْ حبالِ محافظٍ ... سُجُحِ الخَلائقِ في الوصالِ معرِّض[١]

* وقد علَّقَ الدكتور محمود حسن أبو ناحي على هذهِ الأبيات بقولهِ :

هذهِ الأبياتُ الرَّائعةُ راقَتْ سُكينةَ ، وكات تَصِلُ الرَّسُول بالهدايا لأنَّها سَمِعَتْ ما يُرضيها من عمر[٢] . ! !

* إنَّ الأخبارَ والقَصَصَ التي رُويتْ عنْ غَزلِ عمرَ بن أبي ربيعة في السَّيِّدة سُكينةَ بنتِ الحُسين كثيرة ، وتحتاجُ إلىٰ دراسةٍ عميقةٍ وتمحيصٍ ، وقد رأينا زَيْفَها ، ولعلَّ ما جاءَ عنها ؛ هو افتراءٌ منَ الافتراءاتِ والجرأةِ على بناتِ الصَّحابة الطَّاهرات .

---

(١) انظر : ديوان عمر (ص ٤٧٨) قطعة رقم (٣٢٨) .
و«سُكْن» ترخيم سُكينة ، والتَّرخيم في اللغة : ترقيقُ الصَّوت ، ومنه قولُ ذي الرّمة :
لهـا بَشَـر مثـلُ الحـريـرِ ومنطـقٌ ... رخيـمُ الحـواشـي لا هـراءٌ ولا نَـزْرُ
وفي الاصطلاح : حذفُ أواخرِ الكَلِم في النّداء مثل : يا سُكين ويا سُكْنُ ، والأصل : يا سكينةُ ، ومثل يا سُعَا ، والأصل يا سُعَادُ . و«أقصدت قلبي» : رميته فأصبت منه مقتلاً . و«أقصىٰ» : أَبْعَد . و«صرمتُ» : قطعتُ العلاقةَ . و«سُجُح» : سَهل ليِّن .
(٢) عمر بن أبي ربيعة زعيم الغزل العربي (ص ١٠٠) . ونحنُ نقول : اللهُ المستعان، فلا يصحّ أنْ تصنعَ سُكينة هذا الصَّنيع ، فهل نحنُ نشاهدُ أحدَ الأفلامِ القديمة التي فيها أمثالُ هذا الكلام؟! نسألُ الله أنْ يلهمَنا الصَّواب ، ومعرفةَ أقْدارِ بنات الصَّحابة .

سكينةُ والفِرزْدَق:

* قال الزِّركلي ـ رحمه الله ـ في «الأعلام» عن سكينَة ـ رحمها الله ـ ما ملخّصه: سُكينةُ بنتُ الحُسين نبيلةٌ شَاعِرةٌ كريمةٌ ... تجمعُ إليها الشُّعراء ، فيجلسونَ بحيثُ تراهُم ولا يرونَها ، وتسمعُ كلامَهُم فتفاضلُ بينهم وتناقِشُهم وتجيزُهم[1].

* وفي كتابِ «الأغاني» وغيرِهِ من كُتُبِ الأدَبِ والأخبارِ ، نجدُ بعضَ القَصَصِ عنْ دخولِ الفِرزدق[2] علىٰ سُكينةَ ، وإجازتها له ، بَيْدَ أننا نَجِدُ في بَعْضِ القَصَصِ والأخبار أشياءَ غيرَ معقولةٍ ، وألفاظاً غير مَقبولةٍ ، تُقال أمامَ سُكينةَ ، فتضحَكُ ـ كما زعموا ـ ضحْكاً شَديداً حتى تكادُ تخرجُ منْ ثيابِها لكلمةٍ نابيةٍ يلفظُها الفرزدقُ أمامَها.

* ومثلُ هذه الأخبارُ لا تتوافقُ مع سيرةِ ومِنْهجِ وسلوكِ السَّيِّدة الفَاضِلة سُكينة ـ رحمها الله ـ ولا مَع امرأةٍ دونها وأقلّ منها.

* ونحنُ مرسلو القولَ في ذِكْرِ بعْضِ الأخبارِ التي تَعْبَثُ في سيرة سُكينةَ وغيرِها منَ النِّساء الشَّريفات الفَاضِلاتِ مِنْ بناتِ الصَّحابة الطَّاهرات ، أولئك النّسوة اللواتي لم ينجبِ الدَّهْرُ أمثالهُنَّ ، بل كُنَّ من خيرِ أمّة ، وفي خيرِ أمّة وخير عَصْر ، وفي خيرِ بَلدٍ ، والخيرُ يحيطُ بهنَّ منْ كلِّ جانِبِ.

---

(١) الأعلام (٣/ ١٠٦).

(٢) اسمهُ همام بنُ غالب بن صعصعة التّيمي ، وكنيتُه أبو فراس ، والفرزدقُ لقبٌ غَلبَ عليه ، وتفسيره: الرّغيفُ الضَّخم الذي يجفّفُه النّساء للفتوت ، وقيل: هو القطعةُ منَ العجين التي تبسط فيخْبَزُ منها الرّغيف ، وشبِّه بذلك لأنَّه كانَ غليظاً جَهْماً ، وكانَ الفرزدقُ قد أصابه جُدَري في وجهِهِ ثمّ برأَ منه ، فبقيَ وجههُ جهماً مُتَغَضِّناً. توفيَ الفرزدقُ في سنةِ (١١٠ هـ) ، وأخبارُهُ مشهورةٌ متعالَمة في معظم كتب الأدبِ والتَّراجم.

* ففي خَبرٍ جَمَعَ الفرزدقَ الشّاعر بسُكينةَ ، وتظهرُ فيه سُكينةُ ناقدةً عنيفةً[1] فذَّة ، تُكَذِّبُ ما يدَّعيه الفرزدقُ منْ تَفوّقٍ وتقدُّمٍ في قَرْضِ الشِّعر ونَظْمِهِ ، وفي نهايةِ الخبرِ تأمرُ له بجاريةٍ حَسْناءَ ، فيأخذُها ويخرجُ.

* إذاً ، فلنقرأْ معاً هذا الخبر الذي ورَدَ في عَدَدٍ منَ المصادر ، فقد حدَّث المدائني قال: خرجَ الفرزدقُ حاجّاً ، فمرَّ بالمدينةِ ، فأتَىٰ سُكينةَ بنتَ الحُسين، فاستأذنَ بالدُّخولِ عليها ، فأذنتْ له ، فقالت: يا فرزدقُ ، مَنْ أشْعَرُ النَّاسِ؟!

قال: أنا.

قالت: كذبتَ ، أشعرُ منك الذي يقولُ:

بنَفْسي مَنْ تجنُّبُه عزيزٌ ... عليَّ ومَنْ زيارتُه لمامُ
ومَنْ أمسي وأصبحُ لا أرَاهُ ... ويَطْرقُني إذا هَجَعَ النِّيامُ[2]

فقالَ: واللهِ لو أذِنْتِ لي لأَسْمَعْتُكِ أحْسَنَ منه.

فقالت سُكينةُ: أقيموهُ ، أو أخرجوهُ عنّي. فأُخْرِجَ.

ثمَّ عادَ إليها في اليوم الثَّاني ، فقالتْ له: يا فرزدقُ ، مَنْ أشْعَرُ النَّاس؟

قال: أنَا.

قالت: كذبتَ ، أشعرُ منك الذي يقولُ:

---

(١) يقول الدكتورُ زكي مبارك عن السَّيدة سكينة ونَقْدها للفرزدق: ومنْ مظاهرِ عنفها الذي كان يتلقّاه الشّعراءُ بالقبول ، حديثُها معَ الفرزدقِ وقد خرجَ حاجّاً. . . ثم يسوق خبر الفرزدق. (حب ابن أبي ربيعة وشعره ص ١٨٥).

(٢) هذا البيتان من قصيدة لجرير وعدد أبياتها (٤٧ بيتاً) مطلعها:

متَى كانَ الخيامُ بذي طلوعٍ ... سُقيتِ الغيثَ أيتها الخيامُ

(ديوان جرير ١/ ٢٧٨ ـ ٢٨٤).

لــولا الحيَــاءُ لعَــادَنــي استعْبَــارُ ولــزرتُ قَـبْــرَكِ والحبيــبُ يُــزَارُ
لا يَـلْبَـثُ القُــرنــاءُ أَنْ يتفـرّقُـوا ليــــلٌ يَكُـــرُّ عَليهــــمُ ونَهَــــارُ
كـانـتْ إذا هَجَـر الحليـلُ فـراشَهـا خُزِنَ الحديثُ وعفَّتِ الأَسْرارُ[1]

قال: أفأسمعُك أحْسَنَ منه؟

قالت سُكينة: اخرجْ، فأخرجُوه.

ثمَّ عادَ إليها في اليومِ الثَّالث، وعندها جوارٍ كالتَّماثيلِ، وعند رأسِها جاريةٌ كأنَّها ظبيةٌ، فاشتدَّ عَجَبَه بها، وأخذتْ بقلبِهِ ولَبّه، فقالت: يا فرزدقَ: مَنْ أشْعَر النَّاس؟

قال: أنا.

قالت: كذبتَ أشعرُ منك الذي يقولُ:

إنَّ العُيونَ التي في طَرْفِها حَوَرٌ قَتَلْننــا ثــمَّ لَــمْ يحيِيــنَ قَتْــلانــا
يَصْرعنَ ذا اللُّبِ حتَّى لا صِراعَ بهِ وهُـنَّ أضعـفُ خَلْـقِ الله إنْسـانـا[2]

---

(١) هذه الأبياتُ منْ قصيدةٍ طويلة لجرير يرثي فيها زوجه «خالدة» من بني كَلْب، وهي أمُّ ابنه حَرْزَةَ، ويبلغُ عددُ أبياتها (١١٥ بيتاً)، والأبياتُ التي ذكرتْها سُكينةُ ليستْ متتابعة وإنّما رقمُها (١ و٢١ و٢٣) كما في الدّيوان. (ديوان جرير ٢/ ٨٦٢ ـ ٨٧٥). ومن الجدير بالذّكر أنّني أنقلُ نَصَّ هذهِ الأبيات من الديوان، وليس منَ المصادر، علماً بأنَّ هناك بعضَ الاختلاف اليسير في بعضِ الكلمات.

(٢) وهذان البيتان أيضاً لجرير، من قصيدةٍ طويلةٍ عَددُ أبياتها (٧٣ بيتاً) يهجو بها الأخْطَلَ ومطلعها:
بـانَ الخليـطُ ولـو طُـوِّعْـتِ مَـا بَـانَـا وقطَّعـوا مـنْ حِبـالِ الـوصـلِ أقْـرانـا
ورقم البيتَيْن في القصيدة (٣٦ و٣٧). (ديوان جرير ١/ ١٦٠ ـ ١٦٧).
ولكثرةِ انتشارِ هذيْنِ البيتَيْن وشيوعهما بين النّاس، خَمَّسَهُما كثيرٌ من الأدباء، ومن ذلك:
بليّـةُ المـرءِ فـي شَـرعِ الهـوىٰ النَّظَـرُ فــلا تُعــذِّبْ محبّــاً أيُّهــا القَمــرُ=

ثمَّ إنَّ سُكينةَ قالَتْ له: قُمْ فاخرجْ.

فقال لها: يا بنتَ رسول الله، إنَّ لي عليك حقّاً بإقبالي عليكِ منْ مكةَ، إذ كنتُ جئْتُ مُسَلِّماً عليك، فكانَ منْ تكذيبكِ إيّاي، وصنيعكِ بي حينَ أردتُ أنْ أسمعَك شيئاً من شعري ما ضاقَ به صَدْري، والمنايا تغدو وتروحُ، ولا أدري لعلِّي لا أفارقُ المدينةَ حتى أموتَ، ولي إليك حاجةٌ.

قالت: وما هي؟

قال: إنْ متُّ فَمُري مَنْ يدفنني في حِرِ[1] هذه الجارية التي علىٰ رأسكِ، وأشارَ إلىٰ الجاريةِ.

فضحكتْ سكينةُ حتى كادتْ تخرجُ منْ ثيابها، وأمرتْ له بالجاريةِ، وضمَّتْ إليها جائزةً وكسوةً وقالت: أَحْسِنْ صُحبتهَا، فقد آثرتُك بها علىٰ نفسي، فخرجَ وهو أخذٌ بريطتها[2].

= نحنُ الضَّحايا وفي تاريخنا عِبَرُ   [إنَّ العيون التي في طرفها حَورُ
قَتَلننا ثمّ لمْ يُحيينَ قَتْلانا]
وكمْ شَكَا ذو الهوىٰ ألحاظَ صاحبهِ   لكنَّ قاضيه أغفىٰ عَنْ مطالبهِ
وخَطَّ كم أعْيُنٍ في بيتِ كاتبهِ   [يَصرعنَ ذا اللُّبِّ حتى لا صَراع به
وهنّ أَضعفُ خلْق الله إنسانا]

(١) «الحِر»: الفَرْج عند المرأة.

(٢) الأغاني (٢١/ ٣٦٨ ـ ٣٧٠)، ومصارع العشاق (٢/ ٨٢ ـ ٨٤)، والمحاسن والمساوىء (ص ٢٥٤ و٢٤٦). وانظر حب ابن أبي ربيعة وشعره (ص ١٨٥ ـ ١٨٧). ويعلِّق الدكتور زكي مبارك على هذه القصّة كعادتِه في عدم استنكار القبيح فيقول:
فلو صحّتْ هذه القصّة لكانت دليلاً على تسامح تلكَ السَّيدة وغَفْرِها تهافتَ الشّعراء علىٰ ما كانت تملكُ من المولّدات الحِسَان، والشَّاعر لم يُخْلَقْ إلا ليشقىٰ بالحُسْنِ ويعذَّبْ بالجمالِ، ويقدّر إحساسَ السَّيدة سُكينة لمحنةِ الشَّعراء المسرفين وعلمها =

* هذه هي القِصَّةُ التي وافَتْنا بها كتُبُ الأَخْبار والأَدبِ ، كما رأينا ، ونودُّ أنْ نَسألَ: هل يمكنُ لامرأةٍ شريفةٍ منْ ساداتِ النِّساءِ ، ومنْ أهْلِ البيتِ النَّبويِّ الطَّاهرِ أنْ تَسْمعَ وتَسْمحَ بمثلِ هذا الكلامِ في مجلسِها؟! ثمّ تضحكُ ضحْكاً شديداً تكادُ تخرجُ فيه منْ أثوابِها ، وتَهَبُ بعد ذلك كلِّه جاريةً ذات مكانةٍ عندها محمّلة بالمالِ والكسوة؟!.

* إنَّ مثلَ هذه الأخبارَ المضطربةَ المصنوعةَ لا تقبلُها النُّفوسُ السَّليمةُ التي ربِّيَتْ علىٰ الطُّهْرِ والعفَافِ ، بل ولا يصحُّ أنْ يحدثَ هذا في بيتِ سُكينةَ ، ولا في بيتِ امرأةٍ أقلَّ منها بكثير.

= بما كُتِبَ عليهم من سَفَه المنى وطيشِ الأحلامِ ، وكانت تَرقُّ وتلينُ كلَّما شَهِدتْ إخلاصَهم لما خُلِقُوا له منْ عبادةِ الطَّرفِ السَّاحرِ ، والقدِّ الرَّشيق ، ويمكنُ الحكْمُ بأنَّ في توفّرها علىٰ نَقْد النَّواحي الغزلية دليلاً علىٰ أنَّها كانتْ تحيا حياةً وجدانيّةً معقَّدةً ، وكانت تَجدُ في تَفقُّدِ الصِّلاَتِ بين أرواحِ الشُّعراء ، وقلوبِ النّساء مفرّاً من لوعةِ الوجْدِ المكتوم ، ووقْدَةِ الحزنِ الدّفين!!.
(حب ابن أبي ربيعة وشعره ص ١٨٧).
ـ ويقول هذا الدكتور معللاً التَّلفُّظ بالكلماتِ المكشوفةِ أمامَ سُكينة ، وأنَّ ذلكَ كانَ سَائغاً مألوفاً آنذاك: ويا ليتني أعرفُ متىٰ يتَّفِقُ النَّاسُ علىٰ أصول الأخلاقِ ، ففي بعض ما ننكرُ اليومَ صورٌ منَ الحياةِ الاجتماعية ، كانتْ في العصور الماضيةِ منَ السَّائغ المألوفِ ، وفي بعضِ ما نألفُه ونرضاهُ أنماطٌ منَ العاداتِ والتَّقاليد كانتْ مما يكرهُ الأَقْدمُون ، حتّى الألفاظ والتَّعابير يديْلُها العُرفُ ، وتحيلُها الأوضاعُ ، وأشدُّنا حِرصاً علىٰ الأَدَبِ المكشوفِ ينْدىٰ وجهُه أمامَ طائفةٍ منَ الكلماتِ لم يكن يتحرّجُ منها المتجمّلون المهذّبون في الزَّمن القديمِ ، فلا يظنُّ ناسٌ أنَّ ما ينكرونَه علىٰ السَّيِّدةِ سُكينَة كان يُقاسُ في عَصْرها بنفس ما عندهم منَ المقاييس ، وإنْ كانَتْ عناصرُ التّحرّجِ والتّزمُّت غيرَ جديدةٍ في البيئاتِ الإسلاميّةِ ، فما أظنُّ هذه السَّيدة سلمتْ في صِلَتِها بابن أبي ربيعة منْ متورِّعٍ يرميها بالخلاعةِ والمجُون. (حبَّ ابن أبي ربيعة وشعره ص ١٨٢).
ويلاحظ أنَّ تعليلَ الدكتور زكي مبارك هو تعليلق باردٌ وغير صحيح ، فالآدابُ هي الآدابُ على مرِّ العصور.

* ثمّ إنَّ الفرزدقَ قد عُرِفَ عنه الفُجورُ والمجاهرةُ ، فلا يمكن لسُكينةَ أنْ تحاورَه في الشِّعْرِ ، مع العِلْم أنَّ عمرَ بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ كانَ قد نَفىٰ الفرزدقَ عنِ المدينةِ المنّورة لفجورِه.

* أوردَ المعافىٰ بن زكريا النَّهرواني خبرَ فجورِ الفرزدق فقال: قدمَ جريرٌ علىٰ عمرَ بنِ عبد العزيز وهو يتولّى المدينة ، فأنزله في دارٍ وبعثَ إليه بجاريةٍ تخدمُه ، فقالت له: إنِّي أراكَ شعثاً ، فهل لكَ في الغُسْل؟ ، فجاءته بغِسْل[1] وماء ، ويُقالُ: إنَّ عمرَ بن عبدِ العزيز قد نفىٰ الفرزدقَ عنِ المدينةِ ، حين ذكرَ سُكنيةَ بنتَ الحُسين ، وشبَّبَ بها. ويُقالُ إنَّه كان يَعْبَثُ بذِكْرِ الشَّريفاتِ ، فقد وَرَدَ أنَّه لقَيَ مخنّثاً فقال له: من أينَ راحَتْ عمّتنا؟

فقال له المخنّثُ: نفَاها الأغرُّ ابنُ عبد العزيز ، يريدُ قول جرير فيه:

قال الأغرُّ ابن عبدِ العزيز وحقُّك تُنْفَىٰ منَ المسْجِدِ[2]

* ومنَ الجدير بالذّكْرِ أنَّ مروانَ بنَ الحكمِ ، كان قَدْ أخرجَ الفرزدقَ منَ المدينةِ قَبْل عمرَ بنِ عبد العزيز ، لأنَّه قال قصيدتَه التي يُجَاهِرُ فيها بالزِّنىٰ والفجورِ ، والتي منها قوله:

هُما دَلتاني منْ ثمانينَ قامةً كما انقضَّ بازٌ أقْتَمُ الريشِ كاسِرُه

فلما استوتْ رجْلايَ في الأرضِ قَالتا أحيٌّ يُرجَّىٰ أمْ قتيلٌ نحاذِرُه

---

(١) «الغِسْلُ»: ما يُغْسَل به الرّأسُ والجَسدُ منْ خِطميّ. والخِطميُّ: شجرةٌ منَ الفصيلةِ الخبّازيةِ ، كثيرةُ النفْعِ ، يُدَقُّ ورقُها يابساً ، ويُجْعَلُ غسْلاً للرأْسِ فينقّيهِ.
و«الغَسْلُ»: مصدر غَسَلْت ، أي أزلتُ عنه الوسخَ وطهرتُه بالماء.
و«الغُسْلُ»: بضمّ الغَين: هو تمام غَسْل الجَسد كلّه ، وقيل: هو الماءُ ، وقيل: هو ما يُغْسلَ به كالصَّابون والأشنان ونحوه.

(٢) الأغاني (٢١/ ٣٢٦) ، ونوادر المخطوطات (١/ ٦٨).

فقلتُ ارفعُوا الأَمْراسَ لا يشعُروا بنا ... وأقبلْت في أعقابِ ليلٍ أبادِرُه[1]
أبادرُ بوابينَ لم يشعُروا بنا ... وأحمر منْ ساجٍ تلوحُ مَسامِرُه
فأصبحتُ في القومِ القُعودِ وأصبحتْ ... مُغَلَّقَةً دوني عليهَا دسَاكِرُه
يرىٰ أنَّها أضحَتْ حَصَاناً وقد جرىٰ ... لنا بِرُقَاها ما الذي أنا شَاكِرُه[2]

فقال: تنحّي عنّي، ثمَّ اغْتَسَل.

* ثمّ قدمَ الفرزدقُ، فأنزلَه داراً، وبعثَ إليهِ بجاريةٍ، فعرَضَتْ عليه مثلَ ذلكَ، فوثبَ عليها[3]، فخرجتْ إلىٰ عمرَ، فَنَفَاهُ عنِ المدينةِ، وأجَّلَه ثلاثاً، ففي ذلك يقول:

تَوعَّدَني وأَجّلني ثَلاثاً ... كما لَبِثَتْ لِمهْلِكِها ثَمُود[4]

* وبلغَ ذلك جريراً فقال:

نَفَاكَ الأَغَرُّ ابنُ عبدِ العزيز ... بِحقِّك تُنْفَىٰ عنِ المسجدِ
وشبَّهْتَ نَفْسَك أشْقَىٰ ثمود ... فقالُوا ضَلَلْتَ ولَمْ تَهْتَدِ

---

(١) «الأمراس»: الحبال.
(٢) الأغاني (٢١/ ٣٢٤)، ومعاهد التنصيص (١/ ٤٦ و٤٧)، والموشح (ص ٢٠١)، والمحاسن والمساوى (ص ٢٤٧).
(٣) منَ الجديرِ بالذّكْرِ أنَّ جريراً قد هَجَا الفرزدقَ بقصيدةٍ منها:

وكنتَ إذا نزلتَ بدارِ قومٍ ... رحلتَ بخزيةٍ وتركتَ عَارا

فاتّفقَ أنَّ الفرزدقَ بعد ذلك نزلَ بامرأةٍ من أهلِ المدينةِ، وجرىٰ له معها قصَّة ملخُّصها أنَّه راودَها عن نفسِها بعدْ أنْ كانتْ أضافَتْه، وأحسنَتْ إليه، فامتنَعَت عليه، وبلغَ الخبرُ عمرَ بنَ عبد العزيز ـ رحمه الله ـ وهو يومئذٍ والي المدينة المنورة، فأمر بإخراجه منها، فأُرْكِبَ علىٰ ناقته ليُنْفَىٰ، فقال: قاتلَ اللهُ ابنَ المراغَةِ ـ يعني جريراً ـ كأنَّه شَاهَدَ هذا الحال حين قال:

وكنتَ إذا نَزْلتَ بِدَارِ قومٍ ... رَحَلْتَ بخزيةٍ وتركْتَ عارا

(معاهد التنصيص ١/ ٤٦).
(٤) ذكر ذلك جريرُ في مناقضتِه إيّاه فقال:

وشبَّهْتَ نَفْسَكَ أشْقَىٰ ثَمودَ ... فقالُوا ضَلَلْتَ ولم تَهْتَدِ

(الأغاني ١٦/ ١٧٧).

وقـد أُخِّـروا حيـنَ حَـلَّ العَـذَاب ثــلاثَ ليــالٍ إلــىٰ المــوعــدِ[1]

فقال له مروانُ بنُ الحكم: أتقولُ هذا بينَ أزْواجِ رسول الله؟ ، اخْرُجْ عنِ المدينة[2].

* وقد عيَّره جريرٌ وفَضحَه بهذهِ الحادثةِ ، بقصيدةٍ طويلةٍ بلَغَتْ (٨٤ بيتاً) منها:

لَقَـدْ وَلَـدَتْ أمُّ الفـرزدقِ فَـاجـراً وجَـاءَتْ بـوَزْوَازٍ قَصيـرِ القَـوائِـم

ومَـا كـانَ جَـارٌ للفـرزْدَقِ مُسلِـمٌ ليـأْمَـنَ قِـرْداً لَيلَـهُ غيـرُ نـائِـمِ[3]

يـوصِّـل حَبْلَيْـه إذا جَـنَّ لَيلُـه ليـرقـىٰ إلـىٰ جـاراتِـه بـالسَّلالـمِ

* ثمَّ يقولُ مشيراً إلى إخراج الفرزدَقِ منَ المدينةِ:

هو الرِّجْس يا أهلَ المدينةِ فاحْذَروا مـداخـلَ رجْسٍ بـالخبيثاتِ عَـالـمِ

لقد كانَ إخراجُ الفِرزدقِ عنكمُ طهُوراً لما بينَ المصلَّى ووَاقِمِ[4]

تـدليـتَ تَـزنـي مِـنْ ثمـانيـنَ قـامـةً وقصَّرتَ عن باعِ العُلا والمكارمِ[5]

سُـكَـينـةُ تَـنْـقُـدُ شُعَـرَاءَ عَصْـرِهَـا:

* في رحلتِنا الأدبيةِ في عالم النَّقْدِ وميدانِ الشِّعْرِ وأجواءِ الأَدبِ ، نلتقي أخْباراً كثيرةً متنوعةً تفصحُ عنْ مقدرة سُكينةَ النَّقدية في مجالِ نَقْدِ شعْرِ الشُّعَراء الذينَ عاصروها ، وتشيرُ إلى تمكُّنِها من ناصيةِ الأَدَبِ والشِّعر ، كما

---

(١) انظر: الجليس الصَّالح الكافي والأنيس النّاصح الشّافي (٢/ ٧٧) ، وانظر: وفيات الأعيان (٦/ ٩١) ، هذا ولم أجد هذه الأبيات في ديوان جرير.

(٢) المصادر السابقة نفسها.

(٣) «ليأمن قرداً»: يرميه بالزّنىٰ ، والعرب تقول: هو أزنى من قرد.

(٤) يشير هنا إلى إخراج عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ الفرزدق من المدينة وهو والٍ عليها من قبل الوليد بن عبد الملك.

(٥) انظر ديوان جرير (٢/ ١٠٠٠/ ١٠٠٧) ، والأغاني (٢١/ ٣٢٤) ، ووفيات الأعيان (٦/ ٩٠ و٩١) ، ومعاهد التنصيص (١/ ٤٦ و٤٧).

تشيرُ إلىٰ حفْظِها لكثيرٍ منْ أشعارِ القُدَماءِ ، وأشعارِ مَنْ عاصَرَها ، فقد كانتْ تجلسُ إلىٰ العُلماءِ والشُّعراءِ بحيثُ تراهُم وتسمعُ كلامَهم ومحاوراتِهم وتقتبسُ منْ معارِفهم.

* هذا وإنَّ بعضَ هاتيكم الأخبار تحملُ بينَ ثناياها المبالغات ـ إنْ صَحَّتْ ـ كما وتحملُ بين أعطافِها صورةً عن تذوّق الأدب والشِّعر في ذلك العَصْرِ ، وتشيرُ إلىٰ تمكُّنِ المرأةِ العربيةِ منَ المعرفةِ والآدابِ والعُلُوم.

* ولاشكَّ في أنَّ السَّيِّدة سُكينةَ واحدةٌ منْ نابهاتِ بناتِ الصَّحابةِ الأخيارِ ، وواحدة منْ أديباتِ عَصْرِها ، تَـنَشَّقَتْ رحيقَ البلاغةِ ، وتغذَّتْ علىٰ لُبابِ الآدَابِ ، فكانتْ بصيرةً بألوانِ الأدب ، تعرفُ جيِّده منْ رديئِهِ ، ولكنْ ليسَ إلى الحدِّ المبالَغ فيه الذي يشيرُ إلىٰ نقدِها الصَّحيح لخمسةٍ منْ أكابرِ شُعَراءِ عَصْرِها[١] ، ثُمَّ تصحِّحُ لكلٍّ واحدٍ منهم ما وقَع فيهِ منْ خَطأ ، وأعتقدُ أنَّ هذا النَّقدَ الأدبيَّ لِشعْرِ هؤلاء الخمسة وغيرهم ، إنَّما نَمَا واشتدَّ عودُه ، وصَلُبَ عمودُه في عَصْر بعدها ، وبُعَيد انتهاءِ القرنِ الهجري الثَّاني ، وهذا لا يمنعُ أنْ يكون هناك لَمساتٌ نقديَّـةٌ في عَصْرِها ، ولكنْ إلىٰ حَدٍّ ما.

* وتروي كتبُ الأَدبِ بعضَ الصُّورِ لبعضِ المجالسِ الأدبيّة التي كانت تُعْقَدُ ـ كما زعمت ـ في منزلِ سُكينةَ ـ وعندها تقومُ سكينةُ بنَقْدِ الشِّعْر ، وتبيانِ الحَسنِ منه ، فتُثْنِي عليه ، وتبيِّنُ الرَّديءَ وما لَمْ يَرُقْ لها فتَنْقده[٢].

---

(١) الشُّعراءُ الخمسةُ هم : جرير ـ كُثير ـ جميل ـ نُصيب ـ الأحوص.

(٢) عن حياةِ سُكينةَ الأدبيةِ يتحدَّثُ الدّكتور زكي مبارك ويشيرُ إلىٰ موهبةِ السَّيّدة سُكينة في نَقْدِ الشّعر في منْتَداها الأدبيّ فيقول : كانتِ السَّيدةُ سُكينةُ حريصةً على أنْ تعيشَ عيشةً نابهةً ملؤُها الزّهو والإعجاب ، ويظهرُ مما نُقِلَ عنها منْ شتّى الأحاديث ، أنّها كانتْ سليمةَ الذُّوق في اختيار الوصائفِ ، وكان بيتُها لذلك خفيفَ الظِّلّ علىٰ الأدباءِ والشُّعراءِ ، وكانتْ ترعىٰ الحياةَ الأدبيةَ رعايةً لا تخلو منْ قسوةٍ وعنفٍ ، فتفاضلُ بين المعاني والأغراض ، وتَجْبَهُ مَنْ تَشاءُ منَ الشُّعراء بلاذع النَّقد وموجعُ التّجريح ، وكانتْ تهتمُّ بنوعٍ خاص بالمعاني الوجدانيةِ التي تُقالُ في وصْفِ =

* ومنْ هـاتيكم المجـالسِ ، ما وَرَد عنـد الأَصْبَهانـي فـي أَغانيـه ، والمرزباني في موشّحه قالا: يُروىٰ أنَّه اجتمعَ في المدينةِ راويةُ جرير ، وراويـةُ كُثير ، وراويةُ جميل ، وراويةُ نُصيب ، وراويةُ الأحوص ، فافتخرَ كلُّ واحدٍ منهم بصاحبِهِ ، وقالَ: صاحِبي أشْعَرُ ، ثمَّ أجمعُوا أمرهم أنْ يُحكِّمُوا سُكينةَ بنتَ الحُسين ، لِما يعرفونَه منْ عقلِها وبصرِها بالشِّعر ، وتراضوا بذلك ، وخرجُوا يتقادون[1] حتى أَتَوا منزلَها ، فاستأذنُوا عليها ، فأذنَتْ لهم ، وذكروا لها الذي كانَ منْ أمرِهم ، وأنَّهمُ ارتضوها فَيْصلاً وحَكَماً لهم.

* هنالكَ قالتْ سُكينةُ لراويةِ جَرير: أليس صاحبُك الذي يقول:

طرقَتْكَ صَائِدةُ القُلوبِ وليس ذَا　　حيـنَ الـزِّيـارةِ فـارجِعـي بسَـلامِ

قال: بلىٰ.

فقالت: وأيُّ ساعةٍ أحلىٰ للزِّيَارةِ منَ الطُّروق[2] ، قَـبَّـح اللهُ صاحِبَك ، وقبَّح شِعْره! أَلاَ قالَ:

طرقَتْكَ صَائِدةُ القُلوبِ وليس ذَا　　حيـنَ الـزِّيـارةِ فـادْخُلـي بسَـلام

ثمَّ إنَّها قالتْ لراويةِ كُثير: أليسَ صاحبُك الذي يقولُ:

يقــرُّ بعَيْنــي مــا يقــرُّ بعينِهــا　　وأحْسَـنُ شـيءٍ مـا بـهِ العيـنُ قَـرَّتِ

قال: بلىٰ صاحبي هو القائلُ.

قالت: فليسَ شيءٌ أحبَّ إليها ، ولا أقرّ لعينها منَ النِّـكاح ، أفيحبُّ صاحبُك أنْ يُـنْـكَح؟! قبَّحَ اللهُ صاحِبَك ، وقبَّح شِعْره!

= المرأةِ ، وفي الخضوعِ لها من السَّطوةِ والجبروت ، ولها حديثٌ ممتعٌ في نَقْد جرير والفرزدق وجميل وكثير ونصيب. (حب ابن أبي ربيعة وشعره ص ١٨٣).

(١) «يتقادون»: يتبارون في التَّفاخُر بأصحابهم.

(٢) «الطُّروق»: الزّيارة ليلاً ، والطَّارقُ: الآتي لَيْلاً.

ثمَّ قالتْ لراويةِ جميل: أليسَ صاحبُك الذي يقولُ:

فَلو تركَتْ عَقْلي مَعي ما طلبتُها ولكنْ طِلابِيها لما فَاتَ منْ عَقْلي

قال: بلى هو صاحبي الذي قالَ ذلك.

فقالت: فما أرىٰ بصاحبك منْ هَوَىً، إنّما يطلبُ عَقْلَه. قبحَّ اللهُ صاحِبكَ، وقبحَّ شعْرهَ!.

ثم قالتْ لراويةِ نُصيب: أليسَ صاحبُك الذي يقول:

أَهيمُ بدعْدٍ ما حَييتُ فإنْ أَمُتْ فواحَزَني مَنْ ذَا يهيمُ بهَا بَعْدي

قال: بلىٰ نَصيب قال ذلك.

قالت: كأَنَّه يتمنّى لَها مَنْ يتعشَّقُها بَعْدهَ، قبحَّه اللهُ وقبَّح شِعْره، ألا قالَ:

أهيمُ بدعْدٍ ما حييتُ فإنْ أَمُتْ فلا صَلَحتْ دَعْدُ لذي خُلَّةٍ بَعْدي

ثمَّ قالتْ لراويةِ الأَحوصِ: أليسَ صاحبُك الذي يقولُ:

مـنْ عـاشِقَيْـن تَـواصَـلا وتَـراسَـلا ليـلاً إذا نَجْـمُ الثُّـريـا حَلَّقـا

بـاتَـا بـأنْعَـم ليلـةٍ وأَلَـذِّهـا حتّـى إذا وَضَـحَ الصَّبـاحُ تَفـرّقَـا

قال: بلىٰ... هو قال ذلك.

قالت: قبَّحَ اللهُ صاحِبَك، وقبَّح شِعْره، ألا قال: تعانَقا؟!

قال: فلم تثْنِ علىٰ أحَدٍ منهم في ذلكَ اليومِ ولم تقدّمْه[1].

* ويعلِّقُ الدكتور زكي مبارك على هذا الخبرِ بتعليقٍ لا يَقلُّ خطورةً عمّا وَرَدَ خلالَه، ويعلِّلُ بأنَّ صَبْرَ الرُّواة علىٰ خشونَةِ سُكينة، واحتمالَهم

---

(1) انظر: الأغاني (١٦/ ١٧٢ ـ ١٧٤)، والموشح (ص ١٩٣ و١٩٤)، والحدائق الغناء (ص ١٥٠ ـ ١٥١)، والخبر كما تراه ـ عزيزي القارىء ـ يحتاجُ إلى تمحيصٍ، وإلى نَقْدٍ سليم بشكلٍ ينسجمُ وطبيعة العصرِ الذي عاشَتْه سُكينة. ونحنُ نميلُ إلىٰ وجود المبالغةِ في هذهِ الأخبار وأمثالها، إذ إنّها مرصوفةٌ مصفوفةٌ مركبةٌ مختارةٌ عن عَمْدٍ لتوافقَ النَّقْد المصنوعَ أو المتخيَّل. وانظر الخبر الذي يليه.

لِنَقْدِها ، إنَّما هو مراعاةٌ لجمالِها!! فالحسنُ مرحومٌ!! يقولُ زكي مبارك: فهيَ كما يرىٰ القارىءُ قاسيةٌ عنيفةٌ تتلمَّسُ الهَفَواتِ ، وتعدَّ السَّيئاتِ ، وتخاطبُ الرُّواة بلهجةٍ خشنةٍ جافيةٍ لا رِفْقَ فيها ولا إِيناس ، وما كانُوا ليحْتَمِلوها لولا جمالُها وسيطرتُها علىٰ ناحيةٍ منَ الحياةِ الأدبيّةِ[1] في ذلك العَصْرِ ، هي تقديرُ الشِّعْر الذي قيل خاصّة في التَّشبيب بالنِّساء ، ومَنْ ذا الذي يرضىٰ بأنْ تظلِمه سيّدة يلوذُ بجمالِها النُّبْل والجَاهُ والجمالُ؟ فما كلُّ ظالمٍ بَغِيْض ، ولا كلُّ مظلومٍ مغبون[2].

* وهناكَ خبرٌ آخر أكثرُ وضُوحاً عن مجالِسِ سُكينةَ النَّقديةِ ، بل عَنْ المجالسِ الشِّعْرية في منزلِ سُكينةَ ، وهاكم الخبرَ كما جاء في عَدِدٍ منَ المصادر.

* أخرجَ الأصبهاني في «أغانيه» بسندٍ طويلٍ عريضٍ تجاوزَ عشرة أشخاصٍ أَوْصَلَهُ إلىٰ عمرَ بنِ شبَّة موقوفاً عليه ، وكذلك أخرجَ المرزباني في «موشّحه» بسندٍ طويلٍ عريض أيضاً عدّتَه عشرة أشخاص أخرهم عمرُ بنُ شبة أيضاً ، وابنُ عساكر أيضاً بسندٍ طويل ، قالوا: اجتمعَ في ضيافةِ سُكينةَ بنتِ الحسين

---

(١) تردُّ الدكتورةُ ابنةُ الشّاطىء علىٰ زكي مبارك ردّاً بينَ طيّاتِه رفْض فِكْرِه ، والسُّخرية منه فتقول: وليسَ صحيحاً أنَّ أمراءَ الشّعر في زمانِها إنّما أقرُّوا لها بالسَّيطرة الأدبية خضوعاً لجبروتِ جمالِها ، وهيبةَ شرفِها ، كما ذهبَ الدّكتور زكي مبارك ، فما لجمال الأُنْثى جبروتٌ في سنِّ الكهولةِ والشّيخوخة ، وهي بَعْدَ لم تَنْفرِدْ بالحسنِ دونَ بناتِ جيلها ، بل شاركَتْها فيه أخريات ، يكفي أنْ نذكرَ منهنَّ أختها فاطمة بنت الحسين ، كما نذكرُ ضرتها عائشة بنت طلحة التي خَلبتْ ألبابَ الشُّعراء في عَصْرها فكادوا يجنّون بها جنوناً. كذلك لم يكنْ شرفُها العالي هو الذي ألقىٰ إليها مقاليدَ الحكم الأدبي ، وأخضعَ لها الشّعراء ، وإنّما كانتْ سيطرتُها الأدبّية ترجعُ في الحقيقةِ إلى علوِّ كعبها في فنِّ القول ، وحساسيتها المرهفة في ذوقِ الشّعر ، وإدراكها البصير لمواطن التأثير ودوافع القول وأسرار البلاغة والبيان. (تراجم سيدات بيت النبوة ص ١٠١٩) باختصار.

(٢) حب ابن أبي ربيعة وشعره (ص ١٨٥).

جريرٌ ، والفرزدقُ ، وكُثيرٌ ، وجميلٌ ، ونُصيبٌ ، فمكثوا أياماً ، ثمَّ أذِنَتْ لهم ، فدخلُوا عليها ، فقعدتْ حيثُ تراهم ولا يرونَها ، وتسمعُ كلامَهم ، ثمَّ أخرجتْ وصيفةً لها وضيئة ، قد رَوَتِ الأشعارَ والأحاديثَ ، فقالت : أيّكم الفرزدق؟

فقال : ها أنذا .

فقالت : أنتَ القائلُ :

هُما دلَّتاني منْ ثمانينَ قامةً كما انقضَّ بازٌ أقتمُ الريشِ كاسِره
فلما اسْتَوتْ رجْلاي في الأَرضِ قَالتا أَحيٌّ يرجّىٰ أمّ قَتيلٌ نُحاذِره

قال : نَعم ، أنا قُلْتُه .

قالت : فما دعاكَ إلى إفشاء سرِّك وسرّها؟ هلاّ سترتَها وسترتَ نَفْسَك؟ خُذْ هذهِ الأَلْف ، والحقْ بأهْلِكَ .

ثمَّ دخلَتْ على مولاتِها وخرجَتْ فقال : أيّكم جرير؟

قالَ لها : ها أنذا .

قالت : أنتَ القَائل :

طَرَقَتْكَ صَائِدةُ القُلوبِ وليسَ ذَا حينَ الزِّيَارة فارجعي بسَلامِ
تجري السِّواكَ على أغرَّ كأَنَّه بَرَدٌ تَحدَّرَ منْ متونِ غمامِ

قال جرير : نعم أنا قُلْتُه .

قالت : أفلاَ أخَذْتَ بيدِها ، ورَحَّبْتَ بها ، وقلتَ لها ما يُقالُ لمثلها؟ أنتَ عفيفٌ وفيك ضَعْفٌ ، خُذْ هذه الأَلف ـ أو الأَلفَيْن ـ والحقْ بأهْلِكَ .

ثمَّ دخلَتْ على مولاتِها وخرجتْ ، فقالت : أيّكم كُثيّر؟

فقال: هَا أنذا.

فقالت: أنتَ القَائِل:

وأعْجَبنِـي يَـا عـزُّ منْـكَ خَـلائـقٌ كــرامٌ إذا عُــدَّ الخــلائــقُ أَرْبــعُ
دُنوُّكِ حتّى يطمعَ الطَّالبُ الصِّبا ودَفْعُـكِ أسبـابَ الهـوىٰ حيـنَ يطمـعُ

قال: نعم، أنا قُلتُه في عَزَّةَ.

قالت: ملَّحْتَ وشكَّلَتْ، خُذْ هذه الثَّلاثة آلاف والحقْ بأهلكَ.

ثمَّ دخَلَتْ إلى مولاتِها وخرَجَتْ فقالت: أيُّكم نُصيب:

قال: ها أنذا.

قالت: أأنتَ القَائِل:

ولــولا أنْ يُقــالَ صَبَــا نُصيــبٌ لقُلــتُ بنفســيَ النَّشْــأُ الصِّغــارُ
بنفســيَ كــلّ مَهضُــومٍ حشَــاهــا إذا ظُلِمَــتْ فليــسَ لهــا انتصــارُ

قال: نعم أنا قُلْتُه.

قالت: ربيتَنا صغاراً، ومدحتَنا كِباراً، خُذْ هذه الأربعة الآلاف، والحقْ بأهْلِكَ.

ثمَّ دخَلَتْ علىٰ مولاتِها وخَرجَتْ فقالتْ: يا جميلُ، مولاتي تقرئكَ السَّلام وتقولُ لك: واللهِ ما زلتْ مشتاقةً لرؤيتكَ منذُ سمعتُ قولَك:

أَلاَ لَيـتَ شِعْـري هَـلْ أبيتَـنَّ ليلـةً بِــوَادي القُــرىٰ إنّــي إذاً لسَعيــدُ
لكـلِّ حـديـثٍ بينهـنَّ بَشَـاشـةٌ وكــلُّ قَتيــلٍ عنــدهــن شَهيــدُ

* جعلتَ حديثَنا بشاشة ، وقَتْلانا شُهداء ، خُذْ هذه الأربعة الآلاف الدّينار[1] والحقّ بأهْلِك[2].

(١) لعبدِ اللهِ عفيفي رأيٌ في موضوعِ نَقْدِ سكينةَ للشّعر والشّعراء ، نوردُه هنا ـ وإن كُنّا لا نوافِقُه علىٰ ذلك ـ فيقول : ولَقد أثمرتْ روايةُ الشّعر في تلكَ النُّفوسِ الصَّافيةِ النّقيةِ ثمراً حُلواً جَنياً ، فكانتِ المرأةُ ناقدةً لا تُبارىٰ ، وشاعرةً لا تُجارىٰ ، وبنَقْدِها وصَوْغها تبوَّأَ الشّعرُ العربيُ تلكَ المنزلةَ التي لا تُطاول روعةً وجمالاً .
ولئن أثارَ الخلائفُ منْ بني أميّةَ في نفوسِ الشّعراء روحاً خبيثةً منَ التّنابزِ والأحْقَادِ ، فأثابوهم علىٰ المخزياتِ المنديّاتِ يترامَونَ بها ، ويتهالكون عليها ، لقد دافعَ عَقَائلُ العربِ تلكَ الرُّوح بنفاذِ نَقْدهنّ ، ولُطفِ مآخذهنّ ، وإجمالِ مثوبتهنّ ، فكُنَّ ينظرنَ في نقدهنّ إلى نُبْلِ الغَرضِ ، وشرفِ اللفظِ ، وجلالِ المعنى فحسب .
وكانتْ سيّدةُ النّاقدينَ سُكينةَ بنتَ الحُسين ، فهيَ حَكَمُ الشّعراءِ الذي لا يُرَدَّ حكمُه ، ولا يَفيلُ رأيه ، ولا تبددُ منزلته ، وكانوا يَفِدُون علىٰ دارِها منْ كلِّ صوبٍ وحَدبٍ ، وكلُّهم قَدْ عَقَدَ يدهَ على خيرِ ما قال ، وليس بينهم إلاّ مَنْ كان حديثُه طولَ طريقِهِ عمّا عسىٰ السَّيدة أنْ تقولَه وتحكمَ به ، لأنَّه سيكونُ بين المتأدّبين وبغاةِ الشّعر يقيناً لا شكَّ فيه .
اجتمعَ إليها ذاتَ مرّةٍ جرير والفرزدق وكُثير وجميل ونُصيب ، فنقدتْ لِكلٍّ شعرَه ، وأخذتْ عليه مآخذه ، ثم أثابتْ كلاًّ بألفِ دينار ، فخرجوا بخمسةِ آلاف دينار ، وما كانَ الخليفةُ ليظفرهم بما دونَها حتى يجمعوا فيهِ منَ الفضائِلِ ما تفرّق في الأبرارِ والمقرّبين ، والكرامِ الكاتبينِ ، والقادةِ الفاتحين ، كذلك كانتْ مثوبتُها للمغنّين ، وكانَ بصرُها بمذاهبِ الغناءِ وضروبِ الإيقاع ، كبصرِهَا بأعطافِ الشّعر وقُطافِ الأدب . (المرأةُ العربيّة في جاهليتها وإسلامها ٢/ ١٧٥).
والحقيقةُ ، لا ندري منْ أينَ هذا الفتوحُ بل الفتوحات ، بل ما هذا الوحيُ العظيمُ الذي هَبَط على عبدِ اللهِ عفيفي فجادتْ قريحتُه وقلمُه بما لا يتناسبُ مع جلالِ السَّيدة سكينة ، ونسيَ أنّها منْ نساءِ أهل البيت النّبوي الطاهر ، فمن أين أتى بمعرفتَها ، بل إجادتِها لمذاهبِ الغناء؟! فالله المستعان وحده .

(٢) الأغاني (١٦/ ١٦٩ ـ ١٧٢) ، والموشح (ص ٢٠٠ ـ ٢٠٣) مع الجمع والتصرف .
ومن الحدير بالذكر أنَّ مثل هذا القصَّة قد رُويت عن عقيلة بنت عقيل بن أبي طالب . انظر : الجليس الصالح ٤/ ١٠١ ـ ١٠٢) ، و(أعلام النساء ٣/ ٣٢٢ ـ ٣٢٤) وغيرها .

* ومنَ الجديرِ بالذّكْرِ أنَّ مثلَ هذه الأَخْبار لا تُقبَل في ميزانِ العَقْل ، أو المنطقِ ، أو الواقعِ ، فَهَلْ تستطيعُ سُكينَةُ أنْ تَدْفَعَ أكثرَ منْ عشرةِ آلاف دينار لهؤلاء الشُّعراء ، في حين أنَّ خزانةَ أميرِ المؤمنين تعجزُ عن دَفْعِ مثل هذا المبلغِ الضَّخْمِ الهائلِ عَصْرَ ذاك!! ثمَّ ما الذي دعَا السَّيِّدة سُكينَة لتعطيَ هؤلاء هذا العَطاءَ العظيم؟! يُعْتَقَدُ أنَّ هذه الأخبارَ وأشباهِهَا وُضِعَتْ للسَّمَرِ وقَضَاءِ السَّهَرات الطَّويلةِ في الجلساتِ أيّام الشِّتاءِ ولياليْها البارِدَةِ ، كيما يقطعُوا الوقتَ بمثل هذهِ الأَسْمار ، ولو صحَّتْ هذه الأخبارُ ، فإنَّ المبالغةَ باسطةٌ ذارعَيها بالوصيدِ ، وتحتاجُ إلى غربلٍ وتنقيحٍ وتصحيحٍ .

* ومنْ أخبارِ سُكينةَ معَ الشُّعراء ، ما ورد أنَّها نظرتْ إلىٰ العرجي وهو يطوفُ بالبيتِ ، فبعَثَتْ إليهِ جاريةً لها تقولُ له : أَنْشدني مما قلتَ في الطَّواف حولَ البيت .

* فقال : أقرئيها السَّلام ، وقولي لها : قد قُلْتُ :

يقْعُدنَ في التَّطوافِ آونةً ويَطُفْنَ أحياناً علىٰ فَتَرِ
ثمّ استلمنَ الرّكْنَ في أنَفٍ مِنْ ليلهِنَّ يطلنَ في أُزُرِ
فنَزَعْنَ عَنْ سبعٍ وقد جَهدتْ أحْشاؤُهنَّ موائلَ الغَمْرِ

فقالت سكينةُ للجاريةِ : قولي له : ويحكَ لو طافَ الفيلُ بهذا البيتِ لجهدتْ أحشاؤُه[1] .

* ويروي الأصبهانيُّ خبراً يدلُّ علىٰ شدّةِ شَغَفِ سُكينة بالشِّعر ، فقال : بينما سكينةُ ذاتَ ليلةٍ تسيرُ ، إذا سَمِعَتْ حادياً يحدو في الليلِ يقولُ : لَولا ثَلاثٌ هُنَّ عَيشُ الدَّهْر .

* فقالتْ لِقائِدِ قِطَارِها : الْحَقْ بنا هذا الرَّجلَ حتى نَسْمَعَ منه هذِهِ الثَّلاث ،

---

(١) بلاغات النساء (ص ٢٢٦ ـ ٢٢٧) ، وأعلام النساء (٢/ ٢١٦) ، ونوادر المخطوطات (١/ ٦٩) .

فطالَ طلبهُ لذلك حتّى أَتْعَبَها ، فقالتْ لغلامٍ لها : سِرْ أنتَ حتى تسمعَ منه ، فرجعَ إليها ، فقال : سمعتُه يقول :

المَاءُ والنَّومُ وأمُّ عمرو

فقالت : قبَّحهُ الله! أتْعبَني منذُ الليلة[1].

* تقولُ ابنةُ الشَّاطىء عن نَقْد سكينةَ للشِّعر والشُّعراء : وهكذا تمثِّلُها الأخبارُ ، وقد عُقِدتْ لها إمامةُ النَّقدِ في عَصْرها ، واشتدَّتْ في رقابتِها الأدبيةِ على الشُّعراء ، فمضتْ تكشفُ في صَراحةٍ قاسيةٍ عنْ مواضع المؤاخذةِ ، وتهدي إلى أسرارِ التَّعبيرِ ، وتوجِّهُ إلىٰ ضرورةِ التزامِ معوّقَاتِ الشِّعْر في رأيها منْ عمقِ المعاناةِ ، وعاطفيَّةِ التَّناوُلِ ، وصدق الوجْدَانِ ، والسُّمو بالشِّعْر إلى أفْقِهِ الجمالي ، بعيداً عن الماءِ والنَّوم وأمّ عمرو[2].

* هذا وأخبارُ سُكينة كثيرةٌ في هذا المجالِ ، وكذلك معَ المغنّين[3] ، ولكنْ أضْربْنَا عنِ ذكْرها ، لأنَّ معظمها موضوعٌ ركيكٌ ضعيفُ النَّسْج .

سُكَيْـنَـةُ تَـنْـقُـد شِعْـرَ عُـروةَ بـنِ أُذَيْنَــةَ :

* تذكرُ كُتُبُ الأَدَبِ والأَسْمارِ والأخبارِ أنَّه كان لسُكينةَ أخبارٌ ونوادرُ وحكاياتٌ ظريفةٌ معَ الشُّعراء ، وغيرهم منَ الفُقَهاءِ الشُّعراء الذين كانوا ينظمُون الشِّعْر ، وبعضُهم ينظمُ الغَزَلَ العفيفَ ، منْ مثلِ النَّاسِكِ المشهور : أبي السَّائب المخزوميّ ، وعروةَ بنِ أذينة ، وعُبيد الله بنِ عبد الله بن عُتبة

---

(١) الأغاني (١٦/ ١٦٧ و١٦٨).

(٢) تراجم سيدات بيت النبوة (ص ١٠٣).

(٣) يؤكّد الدكتور زكي مبارك في معرض حديثه عن سكينةَ ودلال سكينة وجمالها فيقول :
إنّي أكتبُ هذا الفصل وأنا أضمرُ الحبَّ والإجلالَ لتلك السَّيدة التي قَدَّرتْ نعمةَ اللهِ عليها ، فدلَّتْ وتاهَتْ بما وُسِمَتْ بهِ منَ الملاحةِ والجمالِ ، وعاشتْ في رعايةِ الحُسْنِ والحبّ غير حافلةٍ بأوضاعِ الاجتماع ، وكان فيها بلا ريب ، ما يَنْهي مثلها عن التَّبذّل في مخالطةِ المغنّين وملابسة الشّعراء. (حب ابن أبي ربيعة وشعره ص١٧٥).

ـ أحد فُقَهاء المدينة السَّبعة ـ وغيرِهم.

* وكانَ لعروةَ بنِ أذينة المتوفى سَنَة (١٣٠هـ) ، أخبارٌ لطيفةٌ معَ السَّيِّدةِ سُكَيْنَة ، إذْ كانَ عروةُ معدوداً في الفُقَهاء والمحدِّثين ، بل كانَ منْ أعيانِ العُلماء وكبارِ الصَّالحين ، وله أشعارٌ رائقةٌ ، وبعضُها غَزلٌ رقيقٌ ينسابُ بترانيمَ جميلةٍ أخّاذَةٍ تأسرُ النُّفوسَ ، وتمتعُ الأسماعَ ، ومنها قصيدتُه المشهورة التي فيها:

إنَّ التي زَعَمتْ فؤادَك ملَّها ... جُعِلَتْ هَواكَ كما جُعِلَتْ هوىً لها
فَبِكَ الذي زعَمتْ بها وكلاكُما ... يُبدي لِصَاحِبِهِ الصَّبابةَ كلُّها

ومنَ القصيدةِ أيضاً قوله:

ولعمرُها لو كانَ حبُّك فَوقَها ... يوماً وقد ضَحِيْتَ إذاً لأَظلَّها
بيضاءُ باكرَها النَّعيمُ فَصاغَها ... بلباقةٍ فأدقَّها وأجلَّها[1]

* ومنْ أخْبَارِ سُكَيْنة معَ عروةَ بنِ أُذينَة ، أنَّها وقَفَتْ ذاتَ يومٍ على عروةَ في موكبِها ومعها جواريها ، وهو بفناءِ قَصْرِ ابن عُيينة ، فقالتْ لجواريها: مَنِ الشَّيخُ؟

قالوا: عروةُ بنُ أذينةَ؛ فعدلَتْ إليهِ فقالَتْ له: يا أبا عَامِر ، أنْتَ الذي تزعُمُ أنَّ لكَ مروءةً ، وأنَّ غَزَلَك منْ وراءِ عفَّةٍ وأنَّك تقيٌّ؟ وأنتَ الذي يُقال فيه الرَّجُل الصَّالحُ؟

قال عروةُ: نعم يا بنةَ الكِرام.

فقالت سُكينَةُ: أفأنتَ الذي تقولُ:

إذَا وجَدْتُ أُوَارَ الحبِّ في كَبِدي ... أقْبَلتُ نحوَ سِقَاءِ القومِ أبتَرِدُ
هَبْني بَرِدْتُ بِبَرْدِ الماءِ ظاهِرَهُ ... فَمَنْ لِحَرٍّ علىٰ الأَحْشَاءِ يتَّقِدُ

قال عروةُ: نعم أنا قُلْتُه[2].

---

(١) انظر الأبيات كاملة في الأغاني (١٨/ ٣٣٩).
(٢) اقرأ ترجمة عروة بن أذينة في وفيات الأعيان (٢/ ٣٩٤) وغيرها من مصادر.

فقالت: وأنتَ القَائِل:

قالَتْ وأبثَثْتُها وجْدي فَبُحْتُ بهِ   قد كنتَ عندي تحبُّ السِّتْر فاسْتَترِ
لَسْتَ تبصرُ مَنْ حَولي فقلتُ لها   غطَّىٰ هَوَاكِ وما ألقىٰ علىٰ بَصَري

قال لها: نَعم.

قالت سُكينةُ ـ والتفتَتْ إلىٰ جواريها ـ: هُنَّ حرائرُ إنْ كانَ هذا الكلامُ خَرجَ منْ قلبٍ سَليم قطّ[1].

أيْـنَ مَاتَـتْ سُـكَينَـةُ؟:

* ظلَّتْ سُكينةَ ـ رحمها الله ـ أميرةَ الفَضْلِ والبيانِ والجودِ طيلةَ حياتِها، كما ظلَّتْ عابدةً تَصِلُ الطَّاعاتِ بِالصَّدقاتِ، والعملَ الصَّالحَ بالقُرُباتِ إلىٰ آخِرِ أيّامِها.

* وتروي الكتبُ وبعضُ المصادر أنَّها قَدِمَتْ دمشْقَ معَ أهلِها وذويها، ثمَّ عادَتْ إلىٰ المدينةِ، حيثُ أمضتْ عمرها في رحابِ البلدَيْن المقدسَيْن مكةَ والمدينةِ، إلىٰ أنْ وافاهَا الأجلُ بالمدينةِ المنوَّرة، يوم الخميس، في الخامسِ منْ ربيعِ الأوّل سنة (١١٧هـ)[2] الموافق (٧نيسان) سنة (٧٣٥م).

---

(١) انظر: وفيات الأعيان (٢/ ٣٩٤ و٣٩٥)، وسمط اللآلي (١/ ١٣٦ و١٣٧)، والأغاني (١٨/ ٣٣٦ و٣٣٧) مع الجمع والتصرف اليسير. وانظر: الدر المنثور (ص ٢٤٤)، وأعـلام النسـاء (٢/ ٢٠٩)، والحـدائـق الغنـاء (ص ١٤٥ و١٤٦)، والموشى (ص ٧٧).
وعلَّقَ الوشّاء علىٰ هذا الخبر فقال:
فهذانِ قد كتَما هَواهُمَا، فتمَّتْ شواهدُ نجواهَما، لأنَّ مَنِ اغْتمَسَ في بحرِ الهوىٰ، نمَّتْ عليه شواهدُ الضَّنىٰ، فأمَّا أهلُ الدَّعاوىٰ الباطلَة، الذين ليستْ أجسامُهم بِناحِلَة، ولا ألوانُهم بحائِلَة، ولا عقولُهم بذاهِلَة، فهم عند ذوي الفراسة يكذبون، وعند ذوي الظَّرف لصحّتهم يُوبَّخُون. (الموشى ص ٧٧).

(٢) وفيات الأعيان (٢/ ٣٩٦ و٣٩٧)، وتاريخ الطبري (٨/ ٢٢٨) طبعة دار الفكر عام ١٩٧٩م، والكامل لابن الأثير (٥/ ١٩٥)، وشاعرات العرب (ص ١٦٥)، =

* ويروي الأصبهاني خَبَراً غريباً عنْ قصّة وفاتِها فيقول: إنَّه لَم يُصَلَّ علىٰ أحدٍ بَعْد رسول اللهِ ﷺ بغير إمامٍ، إلا سُكينةَ بنتُ الحسين، فإنّها ماتَتْ، وعلىٰ المدينةِ خالدُ بنُ عبدِ الملك، فأرسلُوا إليهِ، فآذنوه بالجنَازة، وذلك في أوَّل النَّهار في حَرٍّ شديدٍ، فأرسلَ إليهم خالدٌ: لا تُحِدثُوا حَدثاً حتّى أجيءَ فأصلّي عليها. فوُضِعَ النَّعشُ في وضِع المصلَّى علىٰ الجنائِزِ، وجلسُوا ينتظرونَه حتّى جاءتِ الظُّهر، فأرسلوا إليَه، فقالَ: لا تُحدثوا فيها شيئاً حتّى أجيءَ، فجاءتِ العَصْرُ، ثمَّ لم يزالُوا ينتظرونَه حتّى صُلِّيتِ العشاءُ، كلُّ ذلك يرسلونَ إليه، فلا يأْذَنُ لهم، حتى صُلِّيَتِ العتمةُ ولم يجىءْ، ومكثَ النَّاسُ جُلوساً حتَّى غلبَهم النُّعاسُ، فقامُوا فأقبلُوا يصلُّون عليها جَمْعاً جَمْعاً وينصرفُون.

* فقال عليُّ بنُ الحُسين[1]: مَنْ أعانَ بِطِيْبٍ يرحمُه اللهُ! قال: وإنّما أرادَ خالدُ بنُ عبد الملك، فيما ظنَّ قومٌ أنْ تُنْتِنَ. قال: فأتي بالمجامِرِ، فوضعت حولَ النَّعش، ونهضَ ابنُ أختِها محمّد بنُ عبدِ اللهِ العثماني، فأتىٰ عطاراً كان يعرفُ عنده عُوداً، فاشتراه منه بأربعمئةِ دينار، ثم أتىٰ به، فَسُجِرَ حول السَّرير، حتى أصبحَ وقد فُرِغَ منه، فلما صُلِّيَتِ الصُّبح أرسلَ إليهم: صلُّوا عليها وادفنوها، فصلى عليها شيبةُ بنُ نِصَاح[2] قُدِّمَ لِفَضْله[3].

= وتاريخ مدينة دمشق تراجم النساء ص ١٧٠)، ومرآة الجنان (١/ ٢٥٣)، وإسعاف الراغبين (ص ٢٣١) وغيرها كثير جداً.

(١) عليُّ بنُ الحُسين توفي سنة (٩٤هـ)، فلا يصحُّ أنْ يشهدَ موتَ أختِهِ في سنة (١١٧هـ)، ويظهرُ أنَّ في الخبر خطأً، فربما شَهد موتَها بعضُ محارِمها أو أقربائها، ووهمَ ناقلُ الخبر فقال: علي بن الحسين.

(٢) شيبةُ بنُ نِصاح؛ بكسر النّون، القارىء المدنيُّ القاضي، ثقةٌ مات سنة (١٣٠هـ) (تقريب التهذيب ١/ ٢٤٧) ترجمة رقم (٢٩١٦).
وقال ابنُ العماد: كان شيبةَ إمامَ أهلِ المدينة في القِراءات في دَهْره. (شَذَرات الذهب ٢/ ١٢٨).

(٣) الأغاني (١٦/ ١٨١ و١٨٢)، وتاريخ دمشق (تراجم النّساء ص ١٧٠)، وتاريخ =

* ويبدو أنَّ وفَاةَ سُكينة قد اخْتَلَط علىٰ كثيرٍ منَ الباحثين[1] ، إذ حَسِبُوا

= الإسلام للذهبي (ص ٣٧٣) ، والحدائق الغَناء (ص ١٥٥) وغيرها كثير.

(١) منَ العجيبِ حقّاً أنْ نجدَ بعضَ المغالطاتِ التّاريخيةِ عند الدّكتور أحمد شلبي وذلك في موسوعته «موسوعةُ التّاريخ الإسلامي» حيثُ نجدُ الخَلْطَ عندما تحدَّث في مَعْرِض كلامِهِ عنِ السَّيِّدة زينبَ بنتِ عليّ وأختِ الحُسين ، ووفادتها إلى مصرَ فقال:

وَمنْ أجْلِ حبِّ المصْريّين لآلِ البيت ، وإحْسَاسِ السَّيدة زينب بذلك ، كانَ منَ الطَّبيعي أنْ تختارَ مصرَ محلاً لإقامتِها ، فحَضرتْ إلى مصرَ ومعها السَّيِّدة فاطمةُ والسَّيدة سكينة ابنتا الإمام الحسين. (موسوعة التاريخ الإسلامي ٢/ ٢٠٥) ونحنُ نقولُ للدكتور أحمد شلبي:

إنَّ هذا الكلامَ غيرُ علميّ ، وينبني علىٰ العواطفِ المهزوزةِ والمشحونةِ منَ العوام بالحبِّ الخاطىء لأهلِ البيتِ الأطْهار ، كما أنَّ حبَّ المصْريّين ـ كما زعمتَ ـ لا يمكنُ أنْ يغيِّر حقائقَ التَّاريخِ ومُسَلَّمَات الأمورِ مَهْمَا تَقَوَّلَ المتقوِّلُون ، ومهما أبرزُوا منَ العواطفِ الجيَّاشة الممزوجةِ بحسنِ الانفعال والتَّظاهرِ بالوجْدِ والحبِّ.

إنَّ السيدةَ زينبَ بنتَ عليّ ـ رضي الله عنهما ـ لمْ تذهبْ إلىٰ مصرَ ، ولم تصطحبْ معها فاطمة ولا سكينة ولا واحدة؛ بل إنَّ زينب لم تتّجِهْ نحوَ مصرَ زائرةً في يومٍ منَ الأيامِ ، فالسّيدة زينب قد تُوفيت بالمدينةِ المنورة سنة (٦٢هـ) ، وكان عُمْر سُكينة آنذاكَ (٢٥عاماً) ، وكانت متزوجةً من مصعبِ بنِ الزُّبير ، فمتى خرجتْ سكينةُ مع عمّتها زينب التي لم تخرجْ إلى مصر؟! ـ إذا افترضنا بأنها خرجت ـ ولكنّ زينبَ ـ كما قلنا ـ لم تخرجْ نحو أرضِ الكنانة.

وسنأتي للدكتور أحمد شلبي بشاهدٍ منْ أهلهِ وأبناء جلْدتِه ليشهدَ له بأنَّ ما زَعَمه باطلٌ وغير صحيحٍ ، وهذا الشّاهد هو علي مبارك الذي يقولُ في كتابه الشهير «الخططُ التّوفيقيةُ» معلِّقاً على ما يتداوله النَّاس مِنْ أنَّ السيدة زينب بنت علي ـ رضي الله عنهما ـ هي المدفونةُ في الحيِّ المعروفِ الآن باسمِ السّيدةِ زينب في القاهرة: لم أَرَ في كتَبِ التَّواريخ أنَّ السَّيدة زينبَ بنتَ عليٍّ ـ رضي الله عنها ـ جاءتْ إلىٰ مصرَ في الحياةِ ، أو بَعْدَ الممات! (الخطط التّوفيقية ٥/ ٢٨) ، وإذاً فمتىٰ وأيّان ومِنْ أينَ جاءتْ سُكينة إلى مصرَ؟! وهل في هذا مَقْنَع يا دكتور شلبي؟! بل نزيدُكَ أنّ ابنَ عساكر أنكرَ أنْ يكونَ قَبْر سُكينة بدمشقَ فضْلاً عن مصرَ وقال: إنّ قبر سكينة بنت الحسين بدمشقَ، ولكنْ يضعِّفُه أهلُ العِلْم. (تاريخ مدينة دمشق ـ تراجم النّساء =

أنَّها مدفونةٌ بمصرَ ، وذلك لوجودِ جامعٍ يُسمَّى : جامع السَّيدة سُكينة . وهذا الجامعُ ـ كما ذكر علي مبارك ـ يقع بخطِ الخليفةِ عن شمالِ الذَّاهبِ من الصَّليبة إلى القَرافة الصُّغرى ، وقد أنشأَهُ الأميرُ عبد الرحمن كتخدا في سنة (١١٧٣هـ) ، ثمَّ أجْرىٰ عليه عبّاس باشا عمارةً ، وله ثلاثةُ أبوابٍ ، اثنان علىٰ الشَّارع ، مكتوبٌ على وَجْهِ أحدهما ، وفيه تأريخُ بنائِه بحسابِ الجُمَّل :

حَـرَمٌ بـه بِنْـتُ الحُسَيْـنِ مُـؤَرَّخٌ بسُكينـةَ تُصِـبِ المَـواهِـبَ كلَّهـا

٥٦ + ٨٥ + ٤٩٢ + ٥٤٢

سنة (١١٧٥هـ)

ومكتوبٌ علىٰ واجِهة الآخر تأريخ بنائه أيضاً :

ذَا مسجـدٌ يـا آلَ طـه مَـؤَرَّخٌ شَمْسُ الهدىٰ بنتُ الحسين سُكينة

١٤٥ +١٥٩ +٤٥٤ +١٩ + ٤٠٠

سنة (١١٧٥هـ)

* والبابُ الثَّالثُ وهو في الجهةِ القِبْليّةِ مكتوبٌ عليه :

لـكِ مظْهَـرٌ بنـتَ الحُسيـن مـؤرَّخٌ لُـجْ هَهنـا التّـابـوتُ فيـه سكينَـة

١٤٥ + ٩٥ + ٨٤٠ + ٦١ + ٣٣

سنة (١١٧٤هـ)

* وبجوارِ القبلةِ في هذا المسجدِ شبَّاك مُطِلٌّ علىٰ ضريحِ السَّيدةِ سُكينة ، وهو ضريحٌ[1] مجلل بالبَهاءِ والنّور ، عليه تابوتٌ منَ الخشبِ منْ داخلِ مقصورةٍ كبيرةٍ منَ النُّحاس الأصْفَر منْ إنشاءِ عبَّاس باشا ، وبأعلىٰ بابِ

= ص ١٦٩)، وأكدّ ابنُ عساكر أنَّ سُكينة قد ماتتْ في المدينة (المصدر السابق نفسه). وأكَّد خليفةُ بنُ خيَّاط في تاريخه أنَّها توفيت بالمدينة سنة (١١٧هـ) ، فلماذا إِضلال وتضليل النّاس؟!!

(١) لا تنسَ عزيزي القارىء أنَّه لا يوجد ضريحٌ ، بل ذاكَ ضريحٌ مزعوم ، ومزعومٌ مهما كَتَبَ الكاتبون بحساب الجمَّل أو غيره ، فلنْ يكونَ هناك ضريحٌ حقيقي لسكينة ، فتأمّل .

المقصورة بيتان منقُوشان في النُّحاس وهما:

مقصـــورةٌ أتْقِنَـــتْ للهِ صَنْعتُهـــا   تستوجبُ الشَّكر عند اللهِ والنَّاسِ
تــذيــعُ همَّــةَ مَنْشيهــا مــؤرِّخَــةٌ   مــنْ بعــضِ طيْــب إحســانٍ لعبَّــاسِ

١٦٣ +١٢٠ +٢١ +٨٧٢ +٩٠

سنة (١٢٦٦هـ)

* ويحيطُ بذلك قبةٌ جليلةٌ مرتفعةٌ ، وبأسْفَلِها إزارٌ منْ خَشَبٍ وعلىٰ وجْه بابِها مكتوبٌ: ﴿ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴾ [هود: ٧٣]، وحَضرتُها كلَّ خميس ، ولها مولدٌ كلَّ سنةٍ قَبْل مولدِ السَّيدةِ نفيسة[١].

* ولعلَّ مما أوهمَ النَّاس أيضاً في أنَّ سُكينةَ بمصرَ ما جاءَ عند عبد الوهاب الشَّعراني في «طَبقاتِه» قال: إنَّها مدفوفةٌ بالقرافةِ بقربِ السَّيدة نفيسة[٢]. وكذلك المناوي في «طبقَاته»: إنَّها مدفونةٌ بالمراغةِ[٣].

* وقال الشَّعراني: لما دخَلتِ السَّيدةُ نفيسةُ مصْرَ كانتْ عمّتُها السَّيدةُ سُكينَةُ المدفونةُ قريباً من دارِ الخلافةِ مقيمةً بمصر قَبْلها ، ولها الشُّهرةُ العظيمة ، فَخُلِعَتِ الشُّهرة والنُّذور عليها واختفتْ[٤].

---

(١) انظر: الخطط التوفيقية (٥/ ٤٢ و٤٣) بتصرف يسير جداً. وقد تحدَّث علي مبارك عن مشهدِ السَّيدة سُكينة في موضعٍ آخر منْ خُطَطِه فقال: مشهدُ السّيدة سُكينة ، لها شارعٌ يُقال له شارعُ السَّيدة سُكينة ـ أو شارع الخليفة ـ أوّلُه منْ بابِ الحُصْر ، وينتهي إلى تكيّة السَّيدة رُقَية. وبوسطِ شارعِ الخليفةِ المذكور الجامع المعروف بمشهد السّيدة سُكينة الذي جدَّدَهُ الأميرُ عبد الرحمن كتخدا سنة (١١٧٣هـ) ، ثم أجرى فيه المرحوم عباس باشا عمارةً جليلةً ، وهو منَ الجوامعِ الشهيرةِ ، وبه ضريحُ السَّيدة سُكينة يُقْصدُ بالزِّيارةِ ، وتُعْمل به حضرة كل ليلةِ خميس ، ومولد كل عام. (الخطط التوفيقية ٢/ ١٨٥ و١٨٦).

(٢) طبقات الشّعراني ترجمة سكينة.

(٣) الطبقات الكبرى للمناوي مخطوط. ترجمة سكينة.

(٤) الخططُ التَّوفيقية (٥/ ٤٣ و٤٤). ومنَ الواضحِ أنَّ كلامَ الشَّعْراني ـ الذي نَقَله علي مبارك ـ لا يعتمدُ علىٰ دليلٍ ، وإنَّما هو بابٌ منْ أبوابِ الأوهام والتّخيّلات والكشْف=

* ومَن الأوهامِ أيضاً ما نَقَلَه علي مبارك عن «تُحفَة الأَحْباب» للسخاوي قال: إنَّ سُكينةَ أوّلُ علويةٍ قَدِمَتْ إلىٰ مصْرَ ، وسببُ قدومها أنَّ الأصبغَ بنَ عبد العزيز أميرُ مصرَ خَطَبهَا من أخيها ، وبعثَ مَهْرَها إلىٰ المدينةِ ، فحملها أَخوها إلىٰ مصْرَ ، فقالت له: واللهِ لا كانَ لي بَغْلُ ، فلمّا وصَلتْ إلىٰ أبوابِ مصرَ ماتَ الأصبغُ ، فماتَتْ بِكراً بمصرَ ، وهي أقدمُ وفاةً منْ نفيسةَ[1] .

* ويذكرُ علي مبارك أنَّ قول الأكثرين هو أنَّ سُكينةَ بنتَ الحُسين توفيتْ بالمدينةِ ، واحتمالُ نَقْلِها ـ إلى مصرَ ـ بعيد[2] .

* وبعد أحبّائي القُرّاء ، يَحْسُنُ بنا أنْ نودِّعكم هنا ، فَقَدْ حاولتُ قَدْرَ المُستطاع أنْ أرسمَ الصُّورةَ الحقيقيةَ للسَّيدةِ سُكينةَ ، وأنْ أزيحَ تلكم الأوهامَ الضَّبابية التي كانتْ تكتنفُ سيرتَها ، إذْ هي قدوةٌ طيبةٌ للنِّساء في كلِّ زمانٍ ومَكانٍ ، وإنَّ بعضَ الأخبارِ التي شوَّهَتْ شيئاً منْ سيرتِها ، لا تُنْقِصُ قَدْرَها ، بل تزيدُها رفعةً ومكانةً .

* تلكم ـ أحبّائي ـ سُكينةُ ابنةُ الحُسين ، إحدىٰ بناتِ الصَّحابة اللواتي عَطَّرْنَ التَّاريخ بحسنِ الأُحدوثَةِ ، أرجو الله أنْ أكونَ قد وُفِّقْتُ في عَرضِ سيرتها والدّفاع عنها ، وأجدُني هنا أسوقُ ما قالَه عنها الإمام النّووي ـ رحمه

= الذي يدّعيه وأمثاله ، كي يضَعُوا مَنْ أرادوا في المكانِ الذي يُريدون .
ومع الأسفِ نجدُ كثيراً منَ النَّاسِ وبعضِ أهل الثَّقافة يصدّقون هذه الأوهام ، ولا يصدّقون حقائقَ التَّاريخ ، بل إنَّ بعضهم ليقول: لا تعترضْ فتنطرد؟!!! وهذه أعجب من أهل الكشْف الذين يدَّعُون الكَشْف .

(١) انظر: الخطط التوفيقية (٥/ ٤٥) ، ومن العجيبِ أنَّ هذه القصَّة أكذوبةٌ بَلْهاء وهي مخالفةٌ لحقائقِ التَّاريخ؛ لأنَّ الأصبغَ بنَ عبد العزيز بنِ مروان قد توفيَ بالإسكندرية شاباً قبل وفاةِ أبيه عبد العزيز . فتأمّل هذه التّهريج والضّجيج!

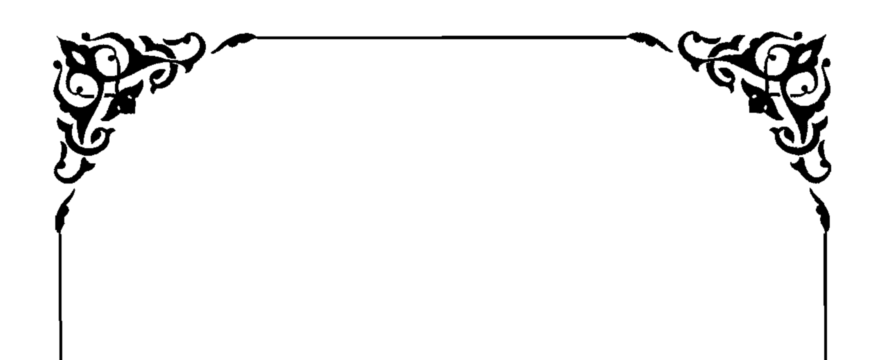
(٢) الخطط التّوفيقية (٥/ ٤٤) .

الله ـ: كانتْ سُكينةَ منَ سيّدات النِّساء ، وأهلِ الفضلِ ، رضي الله عنها وعن آبائِها[1] .

* رحمَ اللهُ سُكينة ، وأسْكَنَها جنَّاتِهِ الفسيحة ، وأكْرمَنَا من فَضْله ، إنَّه غفورٌ كريم .

* * *

(١) تهذيبُ الأسماء واللغات (١/ ١٦٧) ترجمة رقم (١٢٣) .



(٥)

عائشة بنت سعد

* قالت عائشة : أدركتُ ستاً من أزواج النبي ﷺ .

* راوية لأحاديث رسول الله ﷺ .

* عالمة ، فقيهة ، عابدة .

ابْنَـةُ فَـارِسِ الإسْـلاَم:

* عائشةُ بنتُ سَعْدِ بنِ أبي وقّاص الزُّهرية المدنيّة[1] ، هي ابنةُ الصَّحابي سَعْد في هذا العِقْدِ منْ بنَاتِ الصَّحابةِ ، والذي نُنَضّدُه ليكونَ حليةً للعُقولِ والنُّفوسِ والأرواحِ .

* وعائشةُ هذهِ واحدةٌ منْ ثقاتِ النِّساء اللواتي عمرتْ بسيرهنَّ المصَادرُ ، ومنَ اللواتي نَقَلْنَ كثيراً منَ العِلْمِ والمعرفةِ والحديثِ إلى النَّاسِ وطالبي العلْمِ .

* ولقد أتحفَتْنَا عائشةُ بنتُ سعد بمعارفَ كثيرةٍ متنوّعةٍ في الحديثِ والسِّيرةِ والتَّراجمِ والمغازي ، كما أعطتْنَا صورةً وضيئةَ القَسَماتِ عن أبيها سعدِ بنِ أبي وقّاص الزُّهري ما كُنَّا عرفْنَاها لولاها .

* وابنةُ هذا الصَّحابي الشَّهير شَغَلَتْ مساحاتٍ واسعةً في كُتَب التَّراجمِ والطَّبقات ، واتّفقُوا علىٰ توثيقها ومكانتِها، وقَدْرِها بينَ بنَاتِ الصَّحابة العَالماتِ .

وعائشةُ هذه عُمِّرتْ حتّى أدركَها مالكُ ، قالُ ابنُ حجر ـ رحمه الله ـ: عائشةُ بنتُ سَعْدِ بن أبي وقّاص المدنيّة ، ثقةٌ ، من الرَّابعةِ ، عمرتْ حتّى أدركَها مالكٌ ، ووهمَ مَنْ زعمَ أنَّ لها رؤيةً[2] .

---

(١) طبقات ابن سعد (٨/ ٤٦٧) ، تاريخ بغداد (١/ ١٤٤) ، الكامل في التاريخ (٥/ ١٩٥) ، لسان الميزان (٩/ ٥٥٠) تهذيب التهذيب (١٠/ ٤٨٩ و٤٩٠) ترجمة رقم (٨٩٣١) ، وتقريب التهذيب (٢/ ٨٦٩) ترجمة رقم (٨٩٣١) ، والإصابة (١٣/ ١٣/ ٤٢ و٤٣) ترجمة رقم (٧٠٣) ، وشذرات الذهب (٢/ ٨٢) ، وأعلام النساء (٣/ ١٣٥ و١٣٦) ، والأغاني (١/ ٣٧٨) و(٥/ ١٠٦) و(١٧/ ٢٧٢ و٢٧٩ ـ ٢٨١) ، وجمهرة الأمثال (١/ ٢٠٣ و٢٠٤) ، وزاد المعاد (١/ ٣٤٣) ، وتحفة العروس للتجاني (ص ١٤٠) وتجريد أسماء الصَّحابة (٢/ ٢٨٦) ، والمغازي (ص ٢٣٤ و٥٠٠) ، والرياض النضرة (٢/ ٢٨٤) ، وتحرير تقريب التهذيب (٤/ ٤٢٥).

(٢) انظر: تقريب التهذيب (٢/ ٨٦٩) ترجمة رقم (٨٩٣١).

وقالَ الخليلُ: لم يَروِ مالكٌ عن امرأةٍ غيرها[1].

* ويبدو أنَّ مولدَ عائشة بنت سعد الصُّغرى كانَ في خلافةِ عثمانَ بنِ عفّان حوالي سنة (٣٣هـ) وكانَ مولدُها في المدينةِ المنوَّرةِ، حيثُ فتحَتْ عينيهَا

---

(١) انظر: تهذيب التهذيب (١٠/ ٤٨٩ و٤٩٠) ترجمة رقم (٨٩٣١).
وها هنا ملاحظةٌ مهمةٌ ـ يجبُ أنْ نوردَها لإيضاحِ الإشكالِ، حيثُ إنَّ عائشةَ بنتَ سعد هذه التي نقرأُ عنها، قد وُلدتْ بعد وفاة النبي ﷺ بدهْرٍ، بدليلِ ما ذكره الحافظُ ابنُ حجر في الإصابةِ قال: ثَبَتَ في الصَّحيحَيْن عن سَعْد بنِ أبي وقّاص أنَّه قالَ للنّبي ﷺ لما عاده وهو مريضٌ بمكةَ في عامِ الفَتْح أو في حجّة الوداع: ولا يرثُني إلا ابنة لي. فقال النّووي في المبهمات: اسمُها عائشة، وتعقّبه في التّجريد بأنَّ عائشةَ بنتُ سَعْد تابعيةٌ تأخّرت حتّى لقيها مَالِك، وهو تعقبٌ غير مَرضيّ، فإنَّ عائشةَ التي ذكرها ابنُ سَعْد هي الكبرىٰ، وأمّا التي أدركَها مَالِك فهي الصُّغرى إنّما وُلدتْ بعد النّبي ﷺ بدهْر، ولا ترجموها بأنّها أدركتْ شيئاً منْ أمّهات المؤمنين. (الإصابة ١٣/ ٤٢ و٤٣) ترجمة رقم (٧٠٣).
إذاً، لم يكنْ لسعدٍ عامَ الفَتح إلا عائشة الكبرى، وبعدَها وببركةِ دعاءِ النبّي ﷺ أنجبَ عدّة بنين وبناتٍ ومنهم عائشةُ الصُّغرى ضيفة حلقتنا.
هذا وقد وجدتْ بعضُ الأخبارِ المتفرقةِ في ثَنايا المصادرِ، وقد اختلطَ فيها الأمرُ بينَ عائشة الكبرىٰ وعائشةَ الصُّغرى، ومنْ ذلكَ ماوردَ عند ابن أبي الدّنيا عن مُغيرة عن أمّه قالت: دخلْنا بيتَ سَعْد فرأينا امرأةً قامتها قامةَ صبيّ فقُلنا مَنْ هذه؟ قالوا: هذه ابنةُ لسَعْدٍ، وضَعَ ذات يوم طهورهِ، فغمستْ يدَها فيه، فلطَمها ودعا عليها ألا تشبَّ، فما شَبَّتْ بعد.
انظر: (الإصابة ٤/ ١٦٢). و(تهذيب تاريخ دمشق ٦/ ١٠٥).
وفي النفس شيء من هذه الرّواية، وأعتقد أنها غير صحيحة.
ومنَ الرواياتِ الأخرىٰ التي اختلطَ فيها الأمْرُ أيضاً أنَّ سعداً زوّج ابنتَه رجُلاً من أهل الشام، واشترطَ عليه ألا يخرجها، فأرادتْ أنْ تخرجَ فقال: اللهمّ لا تبلغها ما تريدُ. فأدركَها الموتُ في الطّريق فقالت:
تذكرت مَنْ يبكي عليَّ فكمْ أجدْ ... منَ النّاس إلا أَعْبُدي وَوَلائدي
فوجَدَ سعدٌ في نَفْسه. (تهذيب تاريخ دمشق ٦/ ١٠٥ و١٠٦). وفي هذه الرواية شيء في النفس أيضاً.

علىٰ أبٍ له مجدٌ سَامِقٌ في سماءِ الصَّحابةِ ، فهو أحدُ العَشَرةِ الذين شَهِدَ لهم رسولُ الله ﷺ بالجنَّةِ ، وتوفي وهو عنْهم راضٍ ، وهؤلاءِ العشرةُ البررةُ نَظَمهم ابنُ حجر العَسْقَلاني من خلالِ قصيدةٍ طويلةٍ مدحَ بها رسولَ اللهِ ﷺ بلَغَتْ (٦٤ بيتاً) مطلعُها :

إنْ كُنْتَ تنكِرُ حبّاً زادَني كَلَفَا حَسْبي الذي قد جَرىٰ منْ مدمعي وكَفى

* ومنها :

مُحمّدٌ صفْوةُ اللهِ الذي انكَشَفَتْ إذْ جاءَ بالحقِّ شَمْس الكُفْرِ وانكشَفَا

كانَ الأنَامُ جَميعاً قَبْلَ مبعثِهِ عَلىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَعادَ شفَا

هُوَ الكريمُ الذي مَا رَدَّ سَائِلهِ ما شكَّ شَخْصَان في هَذا ولا اخْتَلَفَا

* ثمَّ يذكرُ أسماءَ العَشَرة المبشرين بالجنَّة فيقولُ :

وجوهُ أصحابِهِ كالدُّرِّ مشْرق إذا رأيتَ امرأً عنْ هديهم صَدَفَا

نالُوا السِّيادةَ في دُنيا وآخرةٍ والسَّبقَ والفَضلَ والتقديم والشَّرفَا

وبالرِّضا خُصَّ منهم عشرةٌ زُهُرٌ يا ويحَ مَنْ في موالاةٍ لَهم وقَفَا

سَعْدٌ سَعيدٌ زبيرٌ طلحةٌ وأبو عُبيدةٌ وابنُ عوفٍ قبلَه الخُلُفَا

لا تَسْأَلنَّ القَوافي عَنْ مآثرِهم إنْ شئْتَ فاستَنْطِقِ القُرآن والصُّحفا[1]

* وسعدٌ منْ أوائلِ الذينَ شهدوا شهادةَ الحقّ لمّا فاحَتْ بأريجها العَطِرِ من مكةَ ، وهو أوّلُ مَنْ رمىٰ بسَهْمٍ في سبيلِ اللهِ ، وأول مَنْ أراقَ دماً في سبيلِ اللهِ ، وهو منَ المهاجرين الأوّلين ، ومن أولياءِ اللهِ المتّقين ، شَهِدَ بدراً وأُحُداً والخندق وسائرَ المشَاهد كلّها ، وكانَ يُقال له فَارِسُ الإسلام ، وكان مجابَ الدَّعوةِ ، وفضائلهُ كثيرةٌ منثورةٌ مشهورةٌ في كُتُب الصَّحيحِ والسّيرةِ والتَّراجمِ والطَّبقاتِ .

* نشأتْ عائشةُ وهي تعي مكانَها ومكانتَها بينَ بناتِ الصَّحابة ، وتدركُ

---

(١) انظر : ديوان السبع النيرات لابن حجر العسقلاني (ص ٩٣ ـ ٩٨) من إصدارات نادي أبها الأدبي بالسعودية عام ١٩٩٣م .

المكانةَ التي يقْتَعِدُها أبوها بينَ أعلياءِ أصحابِ رسولِ الله ﷺ ، وكغيرِها من بناتِ كبراءِ الصَّحابة راحتْ تقعدُ علىٰ موائدِ العِلْم ، وتنهلُ من معينِ المعرفةِ حتّى غدتْ ممن يُشَار إليها بالبَنان.

عَائِشَةُ وَالعِلْمُ وَالحديْثُ:

* عائشةُ واحدةٌ من بنَاتِ الأُسْرةِ السَّعْديّةِ الكثيراتِ التي لمعَ اسمُها في سماءِ بناتِ الصَّحابَةِ الأَبْرارِ ، وحظيتْ بالشُّهرةِ مِنْ بينِ بناتِ سَعْدٍ اللواتي يقتربُ عددهُنَّ منْ عشرينَ امرأة[1] ، ناهيك بأنَّ المصنّفينَ عندما يذكرون رواةَ سعدِ بنِ أبي وقاص ، يذكرونَ عائشة منْ بينِ جميع بناتِه ، فقد قال النَّوويُّ ـ رحمه الله ـ: وروى عنه من التَّابعين أولادُه الخمسةُ: محمّدُ ، وإبراهيمُ ، وعامرُ ، ومصْعَبُ ، وعائشة[2].

* إذا ففي رياضِ الأسرةِ السَّعْديّة نشأَتْ عائشةُ أوّل ما نَشَأَتْ تقتطفُ أزاهِرَ العِلْمِ منْ دوحةِ أبيها سَعْد ، تلك الدَّوحةُ ذات الأَصْلِ الثَّابت في المعرفةِ ، والفرعِ المتطاولِ في سَماء العِلْمِ ، حيث إنَّ سَعْداً من أصحابِ المئينَ في روايةِ الحديثِ النّبوي ، فقد روىٰ عن الحبيبِ المصطفى ﷺ فأجَادَ وأطاب. قال النَّووي: رويَ له عن رسول الله ﷺ (٢٧٠ حديثاً)[3].

* لقد روتْ عائشةُ عن أبيها ، واقتبستْ كثيراً منْ شمائِلهِ وأخلاقِهِ ، وعرفتْ كثيراً منْ فَضائِله وسجَّلَتْها في ديوانِ تاريخِ الصَّحابةِ ـ كما سنرى ـ.

* ويذكرُ «البسويّ» أنَّ عائشةَ بنتَ سعدٍ قد تعلَّمت في مدارسِ أمَّهاتِ

---

(١) ذكر صاحب الرياض النضرة بنات سعد الإناث فقال: هن: أم الحكم الكبرى ، حفصة ، أم القاسم ، أم كلثوم ، أم عمران ، أم الحكم الصغرى ، أم عمرو ، هند ، أم الزبير ، أم موسى ، حمنة ، أم عمر ، امرأة أخرى ـ أم إسحاق ، رملة ، عمرة ، عائشة.

(٢) انظر: تهذيب الأسماء واللغات (١/ ٢٠٨).

(٣) المصدر السابق.

المؤمنينَ وخصوصاً أمّنا عائشةَ ، فقد روى أيّوب السّختياني[1] ـ رحمه الله ـ عنْ عائشةَ بنتِ سعد أنّها قالت: أدركتُ ستاً منْ أزواجِ النَّبي ﷺ[2].

* وانطلقتْ عائشةُ أيضاً تنهلُ العِلْمَ من مصادر أخرى ، فقد روتْ عن امرأةٍ تُدعىٰ: أمّ ذرَّة المدنية[3] مولاة عائشة أمّ المؤمنين ـ رضي الله عنهما ـ.

* وروىٰ عن عائشةَ عدوٌّ جمٌّ منْ كبارِ التَّابعين ، ومن كبار التَّابعيّات ، فقد روىٰ عنها منَ الرِّجال: أيوب السِّخْتياني والجُعيدُ بنُ عبد الرحمن ، والحكمُ بنُ عُتَيبة ، وأبو الزِّناد ، ومهاجر بنُ مسمار. كما روىٰ عنها الإمامُ مالكُ بنُ أَنس[4] ، وقال الخليلُ: لم يروِ مالكٌ عن امرأةٍ

---

(١) «أيّوب السِّختياني»: هو الإمامُ التَّابعي أيّوب بن أبي تميمة البَصري السّختِياني ـ بكسر التاء ـ رأى أنسَ بنَ مالك ، وسمعَ عمرو بن سَلِمَة الجرمي ، وجابر بن زيد ، والحسن البصري ، وابن سيرين والأعمش وغيرهم. وروىٰ عنه من تابعين التّابعين وأعلام الأئمة: مالكٌ ، والثّوري ، وابن عيينة ، والحمادان ، وخلائقُ ، واتّفقوا على إمامتِه ، وحفظِه ، وتوثيقه ، ووفورِ علمِهِ وفهمِه وسيادته؛ وكانَ شعبة يسمّيه سيّد الفقهاء ، وقال الحسنُ البصري: أيوب سيّد شباب أهل البصرة. وقال محمّد بنُ سعد: كان أيوبُ ثقةً ثبتاً في الحديثِ جامعاً كثيرَ العلْمِ عَدْلاً حجّة ، ومناقبه كثيرةُ مشهورة وكان من كبارِ الفُقَهاء العُبَّاد ، توفي سنة (١٣١هـ). (تهذيب الأسماء واللغات ١/ ١٤٠) ، بتصرف.

(٢) انظر كتاب: المعرفة والتاريخ للبسوي (٣/ ١٩).

(٣) «أم ذرَّة المدنية»: مولاةُ عائشةِ تُعْرف بكنيتها ، روتْ عنَ عائشةَ ، وأمِّ سلمة رضي الله عنهما ، وروى عنها ابنُ المنكدر ، وأبو اليمان الرَّحال ، وعائشةُ بنتُ سعد. ذكرها ابنُ حبّان في الثّقات ، وقال العجلي: تابعيةٌ مدنية ثقةٌ. (تهذيب التهذيب ١٠/ ٥١٩) ترجمة رقم (٩٠٢١).

(٤) مالكُ بنُ أنس بنِ مالك الأصبحيّ المدنيّ إمام دارِ الهجرة ، وأحدُ أئمةِ المذاهب المتبوعةِ ، وهو منْ تابعي التَّابعين ، سمعَ نافعاً مولىٰ ابن عمر ، ومحمدَ بنَ المنكدر ، والزّهريّ ، وخلائقُ آخرين منَ التّابعين ، روىٰ عنه يحيىٰ الأنصاري والزُّهري وهما منْ شيوخه؛ وابنُ جُريج ، والأوزاعيّ ، والثّوري وخلائقُ آخرون؛ وأجمعتْ طوائفُ العُلماءِ على إمامتِه وجلالتِه ، وعظَم سيادتِه وتبجيلهِ وتوقيرِه ، والإذعانِ له في الحِفْظِ والتَّثبيتِ وتعظيمِ حديثِ رسولِ اللهِ ﷺ. =

غيرها[1]. كما روىٰ عنها رجالٌ آخرون.

* أمّا مَنْ روىٰ عنها منَ النِّساء فعُبيدة بنتُ نَابِل[2].

* وروىٰ لها البُخاري[3].

* هذه هيُ بطاقةُ عائشة العِلْميّة، وأولئك همْ معلموها، وأولئك طلابُها وتلامذتُها؛ ويكفي عائشة منَ الفَخْر أَنَّ الإمامَ مالك إمام دارِ الهجرة قد روى عنها، وهذا يزيدُ من مكانتِها في عالَم بناتِ الصَّحابة، وقد سجَّلَها ابنُ حبّان في ثقاتِهِ، وأخرجَ لها حديثاً في صَحيحه[4]. وقال عنْها العجليُ، واسمه: عبدُ اللهِ بنُ صالح: عائشةُ بنتُ سَعْد مدنيةٌ، تابعيةٌ، ثقة.

= أثنىٰ عليه أئمةُ العُلماءِ فقال الشَّافعي: إذا جاءَ الأثرُ فمالك النَّجم. وقال الشَّافعي أيضاً: لولا مالكٌ وسفيانُ بنُ عيينة لذهبَ عِلْمُ الحجاز. وقالَ وهبُ بنُ خالد: ما بينَ المشرقَ والمغربِ رجلٌ آمَنْ علىٰ حديث رسول الله ﷺ منْ مالك. وقال أبو سلمة الخزاعيّ: كان مالك إذا أرادَ أنْ يخرجَ يُحدث، توضأ وضوءه للصلاة، ولبس أحسن ثيابه، ومشط لحيته، فقيل له في ذلك، فقال: أوقر به حديثَ رسول الله ﷺ. وقال معن بن عيسىٰ: كان مالك إذا أراد أنْ يجلسُ للحديثِ اغتسل وتبخَّر وتطيَّب، فإنْ رفعَ أحدٌ صوتَه في مجلسِهِ قال: قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ ﴾ [الحجرات: ٢]، فَمَنْ رفعَ صوتَه عند حديثِ النبي ﷺ فكأنّما رفَعَ صوته فوقَ صوتِ رسول الله ﷺ. وقيل لأختِ مالك: ما كانَ شغلُه في بيته؟ قالت: المصحفُ والتّلاوة، وأحوالُ مالك ومناقبه كثيرة مشهورة، توفيَ بالمدينة في صفر سنة (١٧٩هـ) ودفن بالبقيع، وكان مولده في سنة (٩٣هـ). وقال عند وفاته ﴿ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [الروم: ٤] (تهذيب الأسماء واللغات ٢/ ٣٨٣ ـ ٣٨٦] ترجم رقم (٥٣٩) بتصرف.

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (٨/ ٥٢). وتهذيب التهذيب (١٠/ ٤٩٠).

(٢) عبيدة بنت نابل، روت عن عائشة بنت سعد، وروى عنها: إسحاق بن محمد الفروي، والواقدي، ومعن بن عيسى، والخصيب بن ناصح، وقد ذكرها ابن حبان في الثقات (تهذيب التهذيب ١٠/ ٤٩١) ترجمة رقم (٨٩٣٦).

(٣) انظر: أعلام النساء (٣/ ١٣٥).

(٤) صحيح ابن حبّان (٣/ ١١٨).

* كما أثنى عليها أهلُ العِلْمِ والحديثِ في كُتُبِهم، وأشاروا إلى جلالةِ قَدْرِها، وأمانتِها في الرِّواية، وصدقها وتوثيقها، كما تحدّثُوا عن حفْظِها وفضلِها بينَ بناتِ الصَّحابة.

أَحَادِيْثُ مِنْ مَروياتِهَا:

* عرفْنَا أنَّ أكثرَ مروياتِ عائشة كانتْ عن أبيها سَعْد، وفي مدرستهِ الحديثيةِ تخرجتْ، وغدتْ تروي ما سَمِعَتْه منه، ففي واحدةٍ من كراماتِ سعد، ودعاء النَّبيِّ ﷺ له، ما جاء في الصَّحيح والسَّنَن، حيثُ روتْ عائشةُ بنتُ سَعْد أنَّ أباهَا قال: تشكيتُ بمكةَ شكوى شديدةً، فجاءني النَّبيُّ ﷺ، فقلتُ: يا نبيَّ اللهِ! إنِّي أتركُ مالاً، وإنِّي لمْ أتركْ إلا بنْتاً واحدةً، أفأوصي بثلثَي مالي، وأتركُ الثُّلث؟

قال: «لا».

قلتُ: فأوصي بالنِّصفِ، وأتركُ النِّصف؟

قالَ: «لا».

قلتُ: فأوصي بالثُّلث، وأترك الثُّلثَيْن؟

قال: «الثُّلثُ والثّلث كثيرٌ».

* ثم وضعَ يدَهُ علىٰ جبهتِه، ثم مسحَ يده علىٰ وجهي وبطني ثم قال: «اللهمّ اشفِ سَعْداً، وأتممْ له هجرته». فما زلتُ أجِدُ بَرْدَهُ علىٰ كبدي فيما يخالُ إليَّ حتى السَّاعة[1].

* ومن أحاديثها التي وردتْ عند ابن حبّان، ما أخرجَه بسندِه عن سعيدِ بنِ أبي هلال، حدَّثَ عنْ عائشةَ بنتِ سعد بنِ أبي وقَّاص عن أبيها، أنَّه

(١) أخرجه البخاري في المرضى برقم (٥٦٥٩)، ومسلم برقم (١٦٢٨)، والنسائي (٦/ ٢٤١)، وأحمد (١/ ١٦٨)، وانظر تهذيب تاريخ دمشق (٦/ ٩٥)، (٦/ ١٠٣)، وسير أعلام النبلاء (١/ ١١٠).

دخلَ مع رسول الله ﷺ علىٰ امرأةٍ في يدِها نوىً أو حصى تسبِّحُ فقال: «ألا أخبركِ بما هوَ أيسرُ عليك منْ هذا وأفْضَل؟ سبحانَ اللهِ عَدَدَ ما خلَقَ في السَّماء، وسبحانَ اللهِ عَدَدَ ما خَلَقَ في الأَرْضِ وسبحانَ اللهِ عددَ ما هو خَالِقٌ، واللهُ أكبرُ مثْلُ ذلك، والحمدُ للهِ مثْلُ ذلك، ولا إله إلاّ الله مثْلِ ذلك، ولا حولَ ولا قوّةَ إلا باللهِ مثلُ ذلك»[1].

* ومن أخبارِ المغازي التي شَهِدَها سَعْدٌ معَ رسولِ الله ﷺ، يروي لابنتهِ جانباً منها، ومن ثمّ تحكي عائشةُ هاتيكمُ المكارمَ الحِسَان التي تُصَاحِبُ والدَها وهو في مغازيهِ مع الحبيبِ الأعظم ﷺ.

* ولنستمعْ إلى جانبٍ منْ بطولاتِ سَعْدٍ ودفاعِهِ عنِ النَّبيِّ ﷺ في غزاةِ أحُدٍ، حيثُ روتْ عائشةُ بنتْ سَعْد عن أبيها سعدِ بنِ أبي وقّاص قال: لقد رأيتني أرمي بالسَّهم يومئذٍ فيردّه عليَّ رجلٌ أبيضُ، حسنُ الوجهِ، لا أعرفُه حتى كان بَعْد، فظننتُ أنَّه مَلَكٌ[2].

* وفي غزوةِ بني قُريظة كانَ لسَعْدٍ بطولةٌ عظمىٰ فيما أخبرتْ به عائشةُ عن أبيها قال: قالَ لي رسولُ الله ﷺ: «يا سعدُ، تقدَّم فارمهم»؟ فتقدمتُ حيثُ تبلغُهم نبلي، ومعي نَيّفٌ علىٰ الخمسين، فرميناهم ساعةً، وكان نبلُنا مثلُ جَرَاد، فانحجروا فلمْ يطلعْ منهم أحد[3].

صُورَةُ سَعْدٍ في أَقْوَالِ عَائِشَةَ:

* إذا أردْنَا أنْ نَعْرِفَ صورةَ سَعْد بنِ أبي وقّاص معرفةً حقيقيةً، فالواجبُ أنْ نُصْغيَ إلى ابنتِهِ عائشةَ التي رسمتْهُ في أقوالها، وخلَّدتْ شخصيتَه في

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٣/ ١١٨) برقم (٨٣٧)، وأخرجه أبو داود في الصلاة برقم (١٥٠٠)، وأخرجه الترمذي في الدعوات برقم (٣٥٦٨)، والحاكم (١/ ٥٤٧، ٥٤٨).

(٢) انظر: المغازي (١/ ٢٣٤).

(٣) المصدر السابق (٢/ ٥٠٠).

كلماتِها بوصْفِهِ ونَعْتِ شيمِهِ وأخلاقِهِ ، ولا عجبَ في هذا ، فكلُّ فتَاةٍ بأبيها مُعْجَبَةٌ(١) .

* وسعدٌ ـ رضوان الله عليه ـ ذو شَرفٍ وافٍ كافٍ لا يُلحقُ شأوُه ، فهو زُهريٌّ منْ أخوالِ الحبيبِ المصطفىٰ ﷺ من جهةِ آمنةَ بنتِ وهب(٢) الزُّهريّة أمِّ النَّبيِّ ﷺ وهي ابنةُ عمِّ أبي وقَّاص ، ومن هُنا كانَ الحبيبُ الأعظمُ ﷺ يكرمُ سَعْداً ويقولُ عنه : «هذا خَالي» .

* أخرجَ التّرمذيُّ بسندهِ عن جابرِ بنِ عبد الله ـ رضي الله عنهما ـ قال : كُنَّا مع رسولِ اللهِ ﷺ ، إذْ أقبلَ سعدُ بنُ مالك ـ اسم أبي وقَّاص مالك ـ فقال

---

(١) «كُلُّ فتَاة بأَبيها مُعْجَبةٌ» : مَثَلٌ منَ الأمثال المشهورةِ وهو للعجْفَاء بنتِ علقمةَ السَّعديّ ، اجتمعتْ معَ ثلاثِ نسوةٍ فتحدثْنَ فقُلْنَ : أيُّ النّساء أفْضل؟
فقالتْ إحداهنَّ : الخريدةُ الودودُ الولودُ؛ وقالت الأخرى : خيرهنَّ ذات الغَنَاء ، وطيْبُ الثَّناء ، وحسنُ الحياء؛ وقالت الأخرى : خيرهنَّ الجامعةُ لأهلِها ، الواضعةُ الرافعة .
قُلْنَ : فأيّ الرِّجال أفْضَل؟
قالتْ إحداهنّ : الخطيُّ الرضيُّ غيرُ الخطِل البَطيّ . وقالت الأخرىٰ : الغنيُّ المقيمُ فلا يَشْخص؛ والرَّاضي فلا يَسْخط؛ وقالتِ الأخرى : هو الوفيُّ السَّنيّ الذي يُكرم الحرّة ، ولا يجمع الضّرة؛ فقالتْ إحداهنَّ : وأبيكنّ إنكنّ في نَعْت أبي . فقالتِ العجفاءُ : «كلُّ فتاةٍ بأبيها معجبَة . فذهبتْ مثلاً . فقُلْنَ : فأخبرينا عنْ أبيك ، قالت : كانَ يكرمُ الجارُ ، ويعظمُ الخِطار ، ويحمل الكِبار ، ويأنفُ من الصَّغَار .
فقالتِ الأخرىٰ : أبي واللهِ عظيمُ الخطَرَ ، منيعُ الوزَر ، عزيزُ النَّفر .
فقالتِ الأخرى : أبي واللهِ كريمُ الفَعال ، كثيرُ النَّوال ، قليلُ السُّؤال ، منيفُ المعالي ، فتنافَرْنَ إلى كاهنةٍ في الحي فقالت : كلٌّ ماردةٍ بأبيها واجدة ، ولنفسها حامدة ، ولكن اسمعْنَ : خيرَ النِّساء المبقية علىٰ أهلها ، المانعةُ المعطيةُ؛ وخيرُ الرجال الجوادُ البطل ، الكثير النَّفل ، ولم تُنَفِّرْ واحدةً منهنّ . (جمهرة الأمثال ٢/ ١٢٠ و١٢١) ، والمستقصى (٢٩٦) .

(٢) اقرأ سيرةَ السَّيدة الجليلةَ آمنة بنت وهب الزّهرية أمّ حبيبنا ونبينا محمد ﷺ في كتابنا الشّهير «نساء من التّاريخ» (ص ١٧ ـ ٧٢) فسيرتها إمتاع للأسماع .

رسولُ اللهِ ﷺ: «هَذَا خَالي فَلْيُرِني امرؤٌ خاله»[1].

* إذاً يمكننا أنْ نفخرَ نحنُ بضيفةِ هذا العِقْدِ النَّفيس فنقولُ: إنَّ عائشةَ بنتَ سعد ابنةُ خالِ رسول الله ﷺ، فهل بعد هذا الشَّرف منْ شَرفٍ؟! فأعظمْ به!.

* .... وأوَّلُ ما تطالِعُنا عائشةُ عن حياةِ أبيها وصورتِه، ما جاءَ عن إسلامِهِ أنَّها سمعتُه يقول: أسلمتُ وأنا ابنُ تسعَ عشرةَ سنة[2].

* وإذا أردنا أنْ نتعرَّفَ ملامحَ سعدٍ وشكلِهِ، فما علينا إلا أنْ نسمعَ ابنته عائشة وهي تصفُه فتقولُ: كان أبي رجُلاً قصيراً دَحْداحاً، غَليظاً، ذا هامةٍ، شَثْنَ الأصابع، أشعرَ يخضبُ بالسَّواد[3].

* وتفتخرُ عائشةُ بأبيها الذي حظيَ بمكرمةٍ نبويةٍ، حيثُ جمعَ له النَّبيُّ ﷺ أبويهِ يومَ أحُدٍ فقال له: «يا سعدُ ارْمِ فداكَ أبي وأمِّي»[4]؛ ولهذا كانتْ عائشةُ تقولُ: أنَا ابنـةُ المهاجِـرِ الذي فَـداهُ رسولُ اللهِ ﷺ يوم أُحُدٍ بالأبوَيْن[5].

* وترسمُ عائشةُ صورةً جميلةً لشجاعةِ أبيها، وإنشادِه الشِّعْرَ في أوَّل قتالٍ كانَ في الإسلام، إذْ كانَ أوَّلَ مَنْ رمىٰ بِسَهْمٍ في الإسلام، وكانَ سعدٌ يقول: إنّي لأوّلُ العربِ رمىٰ بسهمٍ في سبيلِ اللهِ[6]. وكانَ ذلك في سريةِ عُبيدةَ بنِ

---

(١) أخرجه الترمذي في المناقب برقم (٣٧٥٣).

(٢) انظر: تاريخ بغداد (١/ ١٤٤)، وتقول: مكث أبي يوماً إلى الليل وإنه لثلث الإسلام (سير أعلام النبلاء (١/ ١٠١).

(٣) انظر تاريخ بغداد (١/ ١٤٥)، وتهذيب تاريخ دمشق (٦/ ٩٩)، وسير أعلام النبلاء (١/ ٩٧)، وطبقات ابن سعد (٣/ ١٤٣).

(٤) أخرجه البخاري في مواضع من صحيحه برقم (٢٩٠٥، ٤٠٥٨، ٤٠٥٩، ٦١٨٤)، ومسلم في الفضائل برقم (٢٤١١)، والترمذي برقم (٣٧٥٦)، وابن ماجه برقم (١٢٩)، وأحمد في المسند (١/ ٢٩، ١٢٤ و١٣٦ و١٣٧)، وانظر: الإصابة (٢/ ٣١)، والاستيعاب (٢/ ١٩)، والبداية والنهاية (٧/ ٧٣).

(٥) انظر: سير أعلام النبلاء (١/ ١٠١).

(٦) أخرجه البخاري برقم (٣٧٢٨).

الحارثِ بنِ المطلب ، حيث بعثَ رسولُ الله ﷺ سريةً إلى جانبٍ منَ الحجازِ يُـدعى «رابغ» وذلكَ في السَّنَةِ الأولىٰ منَ الهجرةِ ، فانكفأ المشركون علىٰ المسلمين ، فحماهم سعدٌ يومَ إذْ بسهامِهِ ، حيث كانَ رامياً مُجيداً ، فكانَ هذا أوّل قتالٍ في الإسلامِ ، وتروي عائشة أنَّ أباها قد أخذَ يترنَّمَ يومَها قائلاً :

ألا هَـلْ أَتَـىٰ رسُـولَ اللهِ أَنّـي حَميـتُ صَحَابتـي بصُـدُورِ نَبْلـي

أَذودُ بهـا عـدوّهـم زِيَـاداً بكُـلِّ حُـزُونَـةٍ وبكُـلِّ سَهْـلِ

فَمـا يَعْتَـدُّ رَامٍ مـنْ مَعَـدٍّ بِسَهْـمٍ مـع رسـولِ اللهِ قَبْلـي[1]

* وتسجِّل عائشةُ موقفاً وضيئاً لأبيها ترسمُ فيه التزامه بالدِّين ، وتوضحُ جانباً مُهمّاً منْ أدائِهِ لأَحَدِ أركانِ الإسلام فتقول : أرسلَ أبي إلىٰ مروانَ ـ بنِ الحكم ـ بزكاتِهِ خمسةَ آلاف ، وتركَ يومَ ماتَ مئتي ألْف وخمسين ألفاً[2] .

* أمّا عن وفاةِ سعدٍ فعندَ عائشة الخبرُ اليقينُ ، حيث تحدِّدُ عائشةُ مكانَ وفاتِهِ ومكانَ دفْنِهِ فتقول : ماتَ أبي رحمهُ الله في قَصْرِه بالعقيقِ على عشرةِ أميالٍ منَ المدينةِ ، فَحُمِلَ إلىٰ المدينةِ علىٰ رقابِ الرِّجالِ ، وصلَّى عليه مروانُ بنُ الحكم وهو والي المدينةِ ، وذلك في سَنَةِ (٥٥هـ) ، وتركَ يوم ماتَ مئتي ألف وخمسين ألفاً[3] .

عِلْمُهَا وَفِقْهُهَا وَعِبَادَتُهَا :

* كانتْ عائشةُ بنتُ سَعْدٍ تعزِّزُ معرفتهَا وعلْمَها بما تقتبسُه من البيت

---

(١) طبقات ابن سعد (٣/ ١٤٣) ، وسير أعلام النبلاء (١/ ١٠١) ، وذكرُ ابنُ عسَاكر أنَّ سَعْداً قال : أنا أوّل مَنْ رمىٰ في الإسلامِ بِسَهْم ، خرجْنَا مع عُبيدة بنِ الحارثِ ستينَ راكباً سريّة . (مختصر تاريخ مدينة دمشق ٩/ ٢٥٦) .

(٢) انظر : سير أعلام النبلاء (١/ ١٢٣) ، وتهذيب تاريخ دمشق (٦/ ١١٠) .

(٣) انظر تاريخ بغداد (١/ ١٤٥) ، وتهذيب تاريخ دمشق (٦/ ٩٩) ، وطبقات ابن سعد (٣/ ١٤٨) وسير أعلام النبلاء (١/ ١٢٣) مع الجمع والتصرف اليسير .
وتذكر عائشة أيضاً وفاةَ سعيد بن زيد فتقول : ماتَ سعيدُ بنُ زيد بالعقيق ، فغسَّله سعدُ بنُ أبي وقّاص ، وكفَّنه ، وخرجَ معه . (سير أعلام النبلاء (١/ ١٤٠) .

النَّبويّ من علْمٍ ، وخاصّة من نساءِ النَّبيِّ ﷺ ، فكانتْ تدخلُ عليهنَّ ، وتسألهنَّ في أمورِ الدِّين، وعمّا يصلحُ للمرأةِ في دِيْنِها ودنياها، وكانت تستفيدُ من كُلِّ صغيرةٍ وكبيرةٍ في أمورِ الدِّيْن ، وبعض الأمورِ والآدابِ الشَّرعية.

* وفي واحدةٍ منْ لقاءاتِ عائشةَ بنتِ سعد مع أمّهاتِ المؤمنين ، تنقلُ لنا إحدى الصُّورِ المفيدةِ التي تهمُّ كلَّ امرأةٍ ، فمنْ ذلكَ ما أخرجه ابنُ سَعْد في طبقاتِهِ ، بسندهِ عن عائشةَ ابنةِ سَعد أنَّها قَالَتْ:

* أدركتُ ستّاً منْ أزواجِ النَّبيّ ﷺ وكنتُ أكونُ معهنَّ ، فما رأيتُ علىٰ امرأةٍ منهنّ ثَوباً أبيضَ ، وكنتُ أدخلُ عليهن ، وعليَّ الحُللُ فلا يَعِبْنَ ذلكَ عليَّ ، فقيل لها: ما هو[1]؟

قالت: قلائدُ الذَّهبِ ومزيقياتُ الذَّهبِ ، فلا يعبْنَ ذلكَ عليَّ.

* وروى عبد الملك بن حبيبٍ عنْ عائشةَ بنتِ سَعْد بنِ أبي وقّاص قالت: أدركتُ نساءً منْ أزواجِ النَّبيِّ ﷺ ، وما جُلُّ لِباسُهُنَّ إلا العصبُ والمعصْفَرُ[2].

* وكانتْ عائشةُ إحدىٰ بناتِ الصَّحابة الفقيهاتِ ، وكانتْ تقتدي بنساءِ النَّبيِّ ﷺ في كلِّ شَيءٍ ، حتّى في الصَّلاةِ والوضوءِ ، فقد حدَّثَتْ عُبيدةُ بنتُ نابل تلميذتُها ما رأتْهُ من فِقْهِ عائشةَ بنتِ سعد في الوضوءِ فقالت: كانَ لعائشةَ بنت سَعْدٍ خاتمان من وَرِق[3] في اللَّتَيْن تليان الخنْصَر ، فكانت إذا توضَّأَتْ أجالَتْهُما.

* وأمّا الصَّلاةُ ، فكانت تقتدي في ذلكَ بأُمِّ المؤمنينَ عائشة ـ رضي الله عنها ـ حيث كانت تُصَلّي صلاة الضُّحى على الصُّورةِ والهيئةِ التي كان يصلّيها النَّبيُّ ﷺ ، والتي نقلتها لنا أمُّنا عائشةُ ـ رضي الله عنها ـ.

---

(١) طبقات ابن سعد.
(٢) انظر: تحفة العروس للتجاني (ص ١٤٠). «العصب»: نوع من الوشي.
(٣) «وَرِق»: فضة.

* أخرجَ الإمامُ أحمد بسندهِ عن عائشةَ بنتِ سعد ، عن أُمِّ ذرَّةَ قالت: رأيتُ عائشةَ رضي الله عنها تُصلِّي الضُّحى وتقولُ: ما رأيتُ رسولَ اللهِ ﷺ يصلّي إلاّ أربعَ ركعاتٍ[١].

* والحديثُ عنِ الصَّلاة والعبادةِ ممتعٌ وشائِقٌ ، فقد كانت عائشةُ ابنةُ سَعْد منَ النِّساء المُحافِظَات علىٰ صلاةِ الجماعةِ في المسجدِ النَّبوي الشَّريفِ ، وخاصَّةً كانتْ تشهدُ صلاتَيْ الفجرِ والعشَاءِ في المسجدِ ، وكانت تحرصُ في خروجها إلى الصَّلاة على الالتزامِ بالهدي النَّبوي[٢].

* ذكرَ حبيبُ بنُ أبي مرزوق[٣] ما رآه في المدينة المنوَّرةِ فقال: لقيتُ

---

(١) أخرجه أحمد (٦/ ١٠٦).

(٢) يقول الفقهاءُ: يجوزُ للنِّساء أنْ يخرجْنَ إلى المساجدِ ، ويشهدنَ الجماعة ، بشرطِ أنْ يتجنبْنَ ما يبعثُ الشَّهوةَ ويثيرُها ، أو ما يدعو إلىٰ الفتنةِ منَ الزينة ، أو منَ الطِّيبِ ، أو اللباسِ غيرِ الشّرعي أو ما شابه ذلك.
عن ابنِ عمر ـ رضي الله عنهما ـ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «لا تمنعوا النِّساءَ أنْ يخرجنَ إلى المساجدِ ، وبيوتهنَّ خيرٌ لهنّ» أخرجه أحمد وأبو داود.
ـ وقد منعَ الحبيبُ المصطفىٰ ﷺ النِّساء اللواتي يضعنَ البخورَ أو الطِّيب منَ الصَّلاة في المسجد ، فعن أبي هُريرة ـ رضي الله عنه ـ أن النَّبيَّ ﷺ قال: «أيّما امرأة أصابتْ بخوراً فلا تشهدْ معنا العشَاءَ الآخرةَ» أخرجه مسلم وأبو داود والنسائي بإسناد حسن.
ـ إنَّ الأفضل للنِّساء أنْ يصلينَ في بيوتهنّ ، وفي حديثِ أمّ حُميد السَّاعدية شفاءٌ لكلّ مَنْ تودُّ ذلك ، فقد أخرجَ الإمامُ أحمد عنها أنّها جاءَتْ إلىٰ رسولِ اللهِ ﷺ فقالت: يا رسولَ اللهِ إنّي أحبُّ الصَّلاة معك ، فقال ﷺ: «قد علمتُ ، وصلاتك في حجرتك خيرٌ لك مَنْ صلاتِك في مسجدِ قومك ، وصلاتُك في مسجدِ قومك خيرٌ لك من صلاتك في مسجدِ الجماعة».

(٣) حبيبُ بنُ أبي مرزوق الرَّقي ، روىٰ عن عطاء بنِ أبي ربَاح ، وعطاء بن مُسلم ، ونافع ، وروى عنه: جعفر بن برقان ، وأبو المليح الرَّقي ، وقال أحمد: ما أرىٰ به بأساً ، وقال ابنُ معين: مشهورٌ ، وقال هلال: شيخ صالح ، وذكره ابن حبان في الثّقات ، مات سنة (١٣٨هـ). (تهذيب التهذيب ٢/ ١٦٥) ترجمة رقم (١١٥٧).

امرأةً بالمدينةِ معها نسوةٌ ، وضوءُ نارٍ ـ يعني شمعة ـ خارجةً منَ المسجدِ ، فسألتُ عنها فقالوا: هذه بنتُ سعد بن أبي وقاص.

عَـائِشَـــةُ وَمَـوْلاَهَـــا فِنْــد:

* كانَ فِنْدُ أبو زَيْد مولى عائشةَ بنتِ سعد بن أبي وقّاص ، وكان منشؤهُ في المدينةِ ، وعُرِفَ بالظَّرفِ والخلاعَةِ ، وبهِ ضُرِبَ المَثَلُ في الإبْطَاءِ ، فيُقالَ: تَعِسَتِ العَجَلةُ.

* ومنْ طَرائِفَ فِنْدٍ[1] هذا مع مولاتِهِ عائشة ما ذكرتُه المصادِرُ قالت: كانتْ عائشةُ بنتُ سَعْد قد أَرسَلَتْ فِنْداً مولاها كيما يقتَبِسُ لها نَاراً ويجيئُها بها ، فخرجَ فِنْدٌ لذلك الغَرضِ ، فلقيَ عِيْراً خَارِجاً إلى مِصْرَ ، فخرجَ معهم إليها وأقامَ بها سنةً ، ولما كانَ بعْدَ السَّنَةِ رجعَ فأخذَ نَارَاً ، ثمَّ جاءَ عائشة ، ودخل عليها وهو يعدو فَسَقَط وقَد قَرُبَ منها ، فَتَبدَّدَ الجَمْرُ ، فقال: تَعِسَتِ العَجلةُ! فقالتْ عائشةُ:

بَعَثْتُـكَ قَـابِســاً فلبثْــتَ حَــوْلاً متَــى يــأْتــي غِيــاثُــك مَــنْ تغيــثُ

* ثمَّ قالَ فيه الشَّاعِرُ ، أو في رجُلٍ ذُكِرَ بمثلِ هذه الحال:

---

(١) «فِنْد»: الفِنْد: الشّمراخ منَ الجبل ، ويُقال: بل هو الجبَلَ العظيم ، وبه سُمّي الرجل فِنداً. انظر (مجمل اللغة ص ٥٥٤).
وقال الزَّمخشري: فِنْد: يُقال للضَّخم الثَّقيل: كأنَّه فِنْد ، وهو الشِّمراخ منَ الجَبل ، وقيل لشَهْل ـ بن شيبان ـ الفِنْد ، لقولهِ في بَعْض الوقائع: استندوا إليَّ فإنّي فِنْدٌ لكم. وسمّي به مَنْ قيل فيه: «أبطأُ منْ فِنْد» لتثاقُلِهِ في الحاجات ، ومنَ المجاز: ما وردَ في هذا الحديثِ: إنّي أريد أنْ أفنِّد فَرَساً ، أي أتّخذه حِصْناً ألجأُ إليه ، منَ الفِنْد. (أساس البلاغة ص ٤٨٢ و٤٨٣).
وقال ابنُ منظور: الفِنْدُ: القطعةُ العظيمةُ منَ الجبل ، وقيل: الرأسُ العظيمُ منه ، وبه سمّي الفِنْد الزِّمّاني الشَّاعر ، وهو رجلٌ من فرسانهم ، سمّي بذلك لعظم شخْصِهِ واسمُه شَهْلُ بنُ شيبان ، وكانَ يقال له: عديدُ الألْف. وقيل: الفِنْد: قطعةٌ منَ الجبلِ طولاً. (لسان العرب ٣/ ٣٣٨ ، ٣٣٩) باختصار وتصرف يسير.

مَـــا رأيْنَـــا لعُبَيْـــدٍ مثَـــلاً ... إذْ بعثْنَـــاه يَجِـــي بِـــالمَسَلَـــهُ
غَيْـــرَ فِنْـــدٍ بعثْـــوهُ قَـــابِســـاً ... فَـثَـوىٰ حَـوْلاً وسَـبَّ العَجَلَـهْ[1]

ومنْ طرائفِ فِنْد معَ مولاتِهِ عائشةَ ما جاءَ في «الأغاني» ما مفادُه: ضَرَبَ سَعْد بنُ إبراهيم[2] ابنُ أختِ عائشةَ فِنْداً ضَرْباً مبرِّحاً ، فحلفتْ عائشةُ بنتُ سعدٍ أنَّها لا تُكلِّم ابنَ أختها إبراهيم أبداً ، أو يرضىٰ عنه فِنْدٌ ، فصارَ إليه سَعْدٌ طاعةً لخالتِهِ عائشة ، فوجده وَجِعاً مِنْ ضَرْبهِ ، فسلَّمَ عليه فحوَّلَ وجهه عنْه إلى الحائطِ ولم يكلِّمْه ، فقال له: أبا زَيد ، إنَّ خالتَي عائشةَ حلفَتْ ألاّ تكلَمني حتّى ترضىٰ ، ولَسْتُ ببارحٍ مكاني حتّى ترضىٰ عنّي. فقال فِنْدٌ: أمَّا أنَا فأَشْهَدُ أنَّك مقيتٌ سَمجٌ مبغَّضٌ ، وقد رضيتُ عَنْك على هذهِ الحال لتقومَ عنّي ، وتريحَنِي مِنْ وجهك ومن النظر إليك.

* فقام سعد من عنده ، ثم دخل على خالته عائشة ، وأخبرها بما قال له فند ، فقالت: قد صدق ، ثم رضيت عنه وصالحته[3].

---

(١) انظر: جمهرة الأمثال (١/ ٢٠٣ و٢٠٤) ، ومجمع الأمثال للميداني (١/ ٧٨) ، والمستقصى للزمخشري (١٣) ، والأغاني (١٧/ ٢٨٠) مع الجمع والتصرف.

(٢) سعدُ بنُ إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف الزُّهري ، أمُّه: أمُّ كُلثوم بنتُ سعد بن أبي وقّاص ، وكان قاضي المدينة ، رأىٰ ابن عمر ، وروىٰ عن أبيهِ عبد الرحمن بن عوف ، وعمّيه حُميد وأبي سلمة ، وابن عمّه عمر بن أبي سلمة ، وخالَيه إبراهيمُ وعامُر ابني سعد ، وعنْ أنسٍ ، وعبدِ الله بنِ جعفر ، وأبي أمامةَ بن سَهْل بنِ حُنيف وغيرهم ، وروىٰ عنه: ابنهُ إبراهيم ، وأخوه صَالح ، والزّهري ، وموسىٰ بن عقبة وغيرهم. قال ابنُ سعد: كان ثقةً كثيرَ الحديث. وقالَ صالح بنُ أحمد عن أبيه: ثقةٌ ، وَليَ قضاءَ المدينةِ وكان فَاضلاً ، وقال ابنُ معين: ثقةٌ لا يُشكُّ فيه. وقد سَرَدَ الصَّوم قَبْل موته بأربعينَ سنة. وذكره ابن حبّان في الثّقات ، وأجمع أهلُ العِلْم على صِدْقِهِ والرّواية عنه ، توفي سنة (١٢٥هـ). (تهذيب التهذيب ٣/ ٢٧٥ ـ ٢٧٧) ترجمة رقم (٢٣٠١) باختصار وتصرّف.

(٣) انظر: الأغاني (١٧/ ٢٨٠ و٢٨١).

مَعَ الخَالِدَاتِ:

* امتدتِ الحياةُ بضيفةِ حلقتِنا عائشةَ بنتِ سَعْد حتّى بلغتْ منَ الكِبر عتيّاً ، وكانتْ حياتُها حافلةً بالعِلْمِ والنَّفْع والمُدارسةِ والفائدةِ؛ وكانتْ راويةً منْ راوياتِ الحديثِ الثِّقات ممن نقلْنَ ما عندهنَّ منَ العِلْمِ إلىٰ النَّاسِ الذينَ يَفِدونَ علىٰ المدينةِ المنوَّرةِ ينهلونَ منْ علمائِها وعالماتِها منَ الصَّحابةِ ، أو منْ أبناءِ أو بناتِ الصَّحابةِ وغيرهم من علماءِ عَصْر التَّابعين.

* واقتربَ الوعدُ الحقُّ ، ودنتْ منيةُ عائشةَ في أَحَدِ أيّامِ سنةِ (١١٧هـ) ، حيثُ وافَتْها المنيةُ وقد أربتْ على الثَّمانين ، وكانتْ عائشةُ بنتُ سعد لما ماتت آخرَ مَنْ بقيَ منْ بناتِ المهاجرينَ في المدينةِ المنوَّرةِ ، بل وفي مختلفِ البلادِ الإسلاميّةِ ، ويتَّضحُ لنا مصداقُ ذلك منْ قولها: واللهِ ما بقيَ علىٰ وجْهِ الأَرضِ بنْت مهاجرٍ ولا مهاجرةٍ غيري[1].

* وممن توفي مَنْ بنَاتِ الصَّحابةِ في سنَةِ (١١٧هـ) السَّيدة سُكينةُ بنتُ الحُسين بن عليّ بن أبي طالب ، كما توفيتْ فاطمةُ بنتُ عليّ بن أبي طالب ، وهي التي تُعْرف بفاطمةَ الصُّغرى[2].

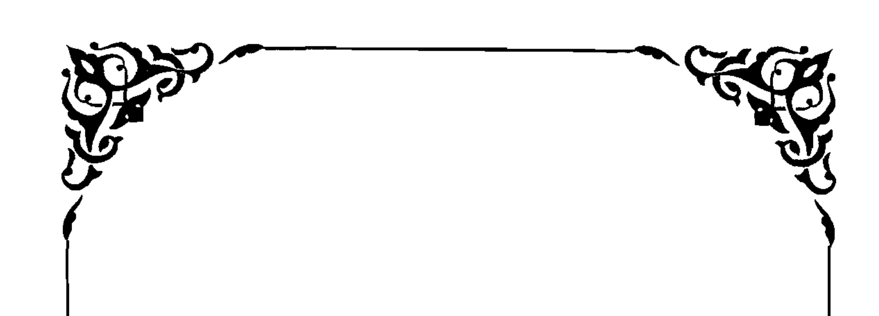
* تلكم هي عبقاتٌ منْ سيرةِ عائشةَ بنتِ سَعْد بنِ أبي وقّاص ، إحدىٰ بنات أعْلياء الصَّحابة ، فرحمَ اللهُ عائشةَ ، ورضيَ عن أبيها ، وحَشَرنا في معيّتهم إنَّه سميعٌ مجيبٌ ، والحمدُ للهِ ربِّ العَالمين.

* * *

---

(١) انظر: العبر (١/١٤٧) ، وشذرات الذهب (٢/٨٢ ، وأعلام النساء (٣/١٣٥) والكامل في التاريخ (٥/١٩٥).

(٢) انظر الكامل (٥/١٩٥) ، واقرأ سيرة فاطمة بنت علي في كتابنا «نساء من عصر التابعين» (١/١٧٩ ـ ١٩١) ، فسيرتها إمتاع للأسماع.



(٦)
عائشة بنت طلحة

* تابعية ، مُجلِّية في ميادين المكارم والعز والمجد والنسب الطاهر .

* قال يحيى بن معين : عائشة بنت طلحة ثقة حُجَّة .

* قال ابنُ كثير : كانت بارعة الجمال ، عظيمة الحسن ، لم يكن في زمانها أجمل منها .

* أديبة ، عفيفة ، راوية للحديث النبوي .

* كانت إحدى ثلاث نساء حملن العلم عن عائشة أم المؤمنين .

مِنْ ذِرْوَةِ البيُوتِ:

* إذَا أردْنَا أنْ نتحدَّثَ عنْ هذهِ المرأةِ التي عاشَتْ في عَصْرِ الإسلامِ الذَّهبيِّ، فعلينا أنْ نعرِفَ أنَّها من بيتٍ زكيٍّ، طابَ أصْلُه، وافترَّ فرعُهُ عن رحيقِ الحَسبِ الزَّاكي، وتطاولَ في سماءِ الشَّرف والعَطاءِ والإيْثَار.

* فقد جُمِعَتْ لها أرديةُ المجْدِ مِن جميعِ أطرافِها، واكتَنَفْتَها عنايةُ فقيهةِ الأمّةِ المحمّدية، إذْ ربَّتْها علىٰ كريمِ الفَضَائِلِ، وجميلِ الخَصَائِل، فبلغتْ درجةً عُليا تُغْبَطُ عليها.

* وهيَ مع هذا كُلِّه، ابنةُ صحابيٍّ كريمٍ منَ الصَّحابةِ الأَبرارِ الأكابرِ، ممَّنْ سَبقُوا العالَمينَ إلىٰ التَّصديقِ برسولِ اللهِ ﷺ، وهو أحدُ السِّتَّةِ أصحاب الشُّورى، وأحدُ الثَّمانيةِ السَّابقينَ، وأحدُ العشَرةِ المشهودِ لهم بالجنَّةِ، وأحدُ الأجوادِ الأسْخياءِ الكُرماءِ الذين سَبقَتْ لهمُ الحسنىٰ منَ الكريمِ الرَّحيم.

* ولكنَّنا وجدنا معَ كلِّ هذهِ المناقبِ أنَّ كثيراً منَ المتقوِّلينَ قد تقوّلُوا عليها منْ قدماءَ ومحدثين، ورَوَوْا بعضَ الأخبارِ والقَصَصِ التي لا تتناسبُ معَ سيرتِها وعلْمِها وفَضْلِها وأصلِها وحَسَبِها ونَسَبِها.

* وقبلَ أنْ نَقرأَ سويّاً بطاقةَ هذهِ الابنةِ الكريمةِ المعطاءِ، تعالوا نطوفُ في رحابِ نَسبِها الزَّاكي العريق، إذْ كانتْ ماجدةَ الأعراقِ، طيبةَ الأَخْلاقِ، عفيفةً دَيِّنةً صيِّنةً.

* فأبوها: طلحةُ بنُ عُبيد الله بنِ عثمانَ التَّيمي القُرشيّ المكيّ المدنيّ المُبشَّر بالجنَّةِ، وهو الفارسُ الفَصيحُ المليحُ، الجوادُ الخيِّرُ الفيَّاضُ، روىٰ عن رسولِ اللهِ ﷺ (٣٨ حديثاً)، وحضرَ المشاهد كلَّها، كان كريماً نَحَر جزوراً للمسلمين في غَزاةِ تبوك، وكانَوا في حالةٍ شديدةٍ منَ الجوعِ، فقال له

النَّبيُّ ﷺ «أنتَ طلحةُ الفيّاض» وسمّاه يومَ أحُدٍ «طلحةَ الخير» ويومَ حنين «طلحة الجُود» وذلك لكثرةِ إنْفاقِهِ علىٰ العَسْكر ، ذلكم هو طلحةُ الخيرِ والجود ، و:

طَلْحَةَ الخيرِ طلحةَ الجُودِ أَبْشِرْ ... صِرتَ تُدعىٰ بِطلحَةَ الفيَّاضِ
نَفْحةٌ بَعْدَ نفَحةٍ وانتهَاضٌ ... في مجالِ السَّخاءِ بعدَ انتهاضِ
في حُنينٍ يَدٌ وفي أُحُدٍ أخـ ... ـرىٰ وهذي تَبوكُ ملأىٰ الوِفَاض
حَزَبَتْه الأمورُ في طاعةِ الله ... فما هَمَّ مرَّةً باعتراضِ
عَالِمٌ أنَّ أَفْضَلَ المقاديرِ ما شَا ... ءَ وخيرَ الأمورِ ما هو قاضِ
لكَ في المسلمينَ يا بن عُبيد اللهِ ... برقٌ مباركُ الإيماضِ
تَسْتَهِلُّ الصَّنائِعُ الغرُّ إنْ لا ... حَ وتَجرِي الصّلاتُ مِلءَ الحِياضِ
هكذا المؤمن الموفَّق يُغني ... في مُروءاته غَنَاءَ المواضي

* وأمُّها: أمُّ كُلثومٍ بنتُ أبي بكرٍ الصِّدِّيق ، عاشَتْ في كَنَفِ أختِها عائشةَ بنتِ أبي بكر ، وتخرّجَتْ في مدرستِها العظيمةِ المتفرِّدةِ في الدُّنيا ، وروتْ عنها الحديث ، ثمَّ روىٰ عنها بَعْدُ جابرُ بنُ عبدِ اللهِ الأنصاري ـ رضي الله عنهما ـ وهو صحابيٌّ أكبرُ منها ، كما روىٰ عنها جلّةٌ منْ أعلامِ التَّابعين وأعلياءِ العُلَماء.

* وجدُّها لأُمِّها: شيخُ الصَّحابةِ وسيدهُم وأعلاهُم وأتْقاهُم ، وأوّلُهم إسلاماً ، ذو المواقفِ المشهودةِ المشهورةِ الرَّفيعةِ المنيعةِ ، منها: قصَّةُ يوم ليلةِ الإسراءِ وثباتُه وجوابُه للكفَّارِ في ذلك ، وهجرتُه معَ رسولِ اللهِ ﷺ وتَرْكُ عيالِهِ وأطفالِهِ ، وملازمتُه له في الغَارِ وسائرِ الطَّريق ، وناهيك ثباتُه يومَ وفاةِ رسولِ الله ﷺ ، وخطبتُه النَّاسَ وتسكينُهم ، وقتالُه أهْلَ الرِّدَّةِ ، واستخلافُه فاروقَ الأُمَّة عمر ـ رضي الله عنه ـ. وكمْ لَه منْ مواقفَ وآثارٍ ، ومَنْ يُحصي مناقبه؟ بل مَنْ يحيطُ بفضائِله غيرَ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ؟ هذا العَلَمُ الكريمُ أفضلُ الصَّحابة علىٰ التَّحقيق؛ سيّدُنا أبو بكر الصِّدِّيق ـ عليه سَحابات الرضوان ـ.

* وجـدَّتُها لأُمِّهـا : حبيبـةُ بنتُ خارجـةَ بن زِيـدٍ الأنصاريّـةِ زوجُ أبي بكر الصِّدّيق ، أسلَمَتْ وبايَعَتْ[1] .

* وجدَّتُها لأَبيها : الصَّعْبةُ بنتُ الحضرمي[2] ، إحدىٰ أُمَّهاتِ الصَّحابَةِ المؤمنات ، أسلمتْ وهاجرتْ ، وكُتِبتْ منَ الذينَ سُعِدُوا .

ولا زلنا ـ عزيزي القارىء ـ في رحلةِ النَّسب العريقِ ، والمِسْكِ الفتيق ، لهذه الابنةِ ذاتِ القَدْرِ الكبير .

* فخالتُها : أمُّنا عائشةُ ، أمُّ المؤمنين ، وابنةُ الصِّدِّيق ، وأَفْقَهُ نساء الأمّةِ على الإطلاقِ ، ومَنْ فَضْلُها علىٰ النِّساء كَفَضْلِ الثّريدِ على سائِر الطَّعام ، ومَنْ نزلَتْ براءتها منَ السَّماء ، وتُتلىٰ في المحاريبِ إلىٰ ما شاء اللهُ ، ومَنْ نزلَ الوحيُ في بيتِها ، وكفىٰ بهذه المنقبةِ فخراً وعزّاً وبركةً .

* وخالتُها الأخرى : أسماءُ بنتُ أبي بكر ذاتُ النِّطاقَيْن ، امرأةُ فارسِ الإسلامِ ، وحواريِّ خيرِ الأنام ، الزُّبيرِ بنِ العوّام ، وأسماءُ إحدىٰ عالمات الصَّحابة وراوياتِ الحديث ، ومناقبُها جمَّةٌ .

* وأما أخوالهـا : فهـم عبـدُ الله ، وعبـدُ الرحمن ، ومحمّـد بنو أبي بكر الصّديق منْ أعلامِ المسلمين ، ومنَ الشُّجعان المذكورين ، منَ الأوائِلِ في سائِر الميادين .

* بقي أنْ نعرفَ هذه الابنة التي تفرَّعَتْ من هذه الدَّوحةِ الباسقةِ السَّامقةِ الشَّاهِقَة في الشَّرفِ والفَضَائِل ، ومن ذاكَ البيتِ الرَّفيع العماد :

في البَيْتِ ذي الحَسَبِ الرَّفيع ومنْ ... أهْـلِ التُّقـىٰ وَالبِـرِّ وَالصِّـدْقِ

* هـذه الابنـةُ المجليـةُ في ميـادينِ المكـارمِ هي عائشـةُ بنتُ طلحةَ بن

---

(١) الإصابة (١٢/١٩١) ، والاستيعاب بهامش الإصابة (١٢/٢٤٩ ـ ٢٥١) .

(٢) اقرأ سيرتها في موسوعتنا «نساء من عصر النبوة» (١/٢٠٩ ـ ٢١٧) ، ففي سيرتها فوائد جمة بإذن الله .

عُبيد الله التَّيميّة بنتُ أختِ أُمّ المؤمنين عائشة؛ أمّ كلثوم بنتَيْ الصِّدِّيق رضي الله عنه[1].

* ومع عائشةَ بنتِ طلحةَ ـ رحمها الله ـ سنصحبُ سيرتَها في هذه الصَّفحات، حيثُ مُلئَتْ بعضُ كُتُبِ الأَدَبِ والأخبارِ بأحاديثَ لا تتفِقُ وسيرتها، فاستخرتُ الله عزَّ وجلَّ وعزمتُ على إجلاءِ صورتها كما ينبغي، وإبرازِ أخبارِها بما يتناسبُ مع مكانتها بين بناتِ الصَّحابة الطَّاهرات.

عَائِشَةُ والعِلْمُ والحَدِيْثُ وثَنَاءُ الأَكَابِرِ عَلَيْهَا:

* لو نظَرنا إلى المدرسة العِلْميةِ التي تعلَّمَتْ فيها عائشةُ بنتُ طلحَة، لألفينا أنَّها قد تعلَّمَتْ في أعظمِ بيتٍ في دُنيا العِلْمِ، في عَصْرِ العِلْمِ، وزَمَنِ العِلْم والعُلَماء، فقد غُذِّيَتْ بِرَسْلِ عِلْمِ خالتِها عائشةَ أُمِّ المؤمنين، وتَلَقَّتْ

---

(1) سير أعلام النبلاء (٤/ ٣٦٩ و٣٧٠)، وطبقات ابن سعد (٥/ ١٨٣ و١٩٤) و(٨/ ٤٦٧)، والبداية والنهاية (٩/ ٣٠٢)، والنجوم الزاهرة (١/ ٢٩٠)، والكامل في التاريخ (٤/ ٢٧٤ و٣٣٣)، و(٦/ ٥٢٩)، وزهر الآداب (١/ ٦٤ و٢٤٣، ٢٥٧)، والمحاسن والأضداد للجاحظ (ص ٢٢٢ و٢٢٣)، والمحبر (ص ٦٦ و١٠٠ و٤٤٢)، والكامل في اللغة والأدب للمبرد (٢/ ٧٨٢ و٧٨٣)، ورسائل الجاحظ (٢/ ١٢٩ و١٥٤ و٢٥٨ و٣٦١)، وتاريخ الأدب العربي لبلاشير (ص ٧٤١ و٧٤٢)؛ والحدائق الغناء (ص ٥٤ ـ ٦٩)؛ ودولة النساء للبرقوقي (ص ٢٦ ـ ٣٠)، وتهذيب التّهذيب (١٠/ ٤٩٠) رقم الترجمة (٨٩٣٣)، وتقريب التهذيب (٢/ ٨٦٩) ترجمة رقم (٨٩٣٣)، ونسب قريش (ص ٣١٤)، والدر المنثور (ص ٢٨٣ ـ ٢٩١)، والعقد الفريد والأغاني (انظر الفهارس فيهما)، والغيث المسجم في شرح لامية العرب للصفدي (١/ ١١٤ ـ ١١٥)، وحب ابن أبي ربيعة وشعره (ص ١٤٣ ـ ١٧٩)، وتاريخ الإسلام للذهبي (حوادث سنة ١٠١ ـ ١٢٠ ص ١٣٣ و١٣٤)، وعيون الأخبار (١/ ٢٥٨)، (٤/ ٢١، ٢٢) ومصارع العشاق (٢/ ١٦٤)، وجمهور أنساب العرب (ص ١٣٧)، ومرآة الزمان (١/ ٢١١)، وأعلام النساء (٣/ ١٣٧ ـ ١٥٥)، وتاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء ص ٢٠٧ ـ ٢٢٠)، وقصص العرب (٢/ ١٥٨ ـ ١٦٠)، ونهاية الأرب (٤/ ٢٨٩ ـ ٢٩٧)، وتحفة العروس للتجاني (انظر الفهارس)، ونوادر المخطوطات (انظر الفهارس) وغيرها كثير.

عنها روايةَ الحديثِ ، وكثيراً من المعارفِ والعلومِ والآدابِ ، قال ابنُ سَعْدٍ وابن حَجَرٍ : روتْ عن خالتِها عائشة[1] .

* ومنَ الجديرِ بالذّكْر أنَّ عائشةَ بنتَ طلحة كانتْ أَشْبَهَ النَّاسِ بخالتِها عائشةَ أُمّ المؤمنين ابنةَ الصِّديق ـ رضي الله عنهما ـ وكانتْ منْ أحبِّ النِّساءِ إليها ، ومنْ أطبعِهم علىٰ عِلْمِها وأَدَبِها ، فغدتْ إحدىٰ العَالمات اللواتي يُؤْخَذُ عنهنَّ العِلْمُ ، وممن يُقصَدْنَ منْ كُلِّ فجٍّ عميقٍ ليسمعُوا ما سمعَتْه عائشةُ منْ أحاديث روتها عن خالتِها ، ومنْ معارفَ نادرةٍ ، قَلَّ أنْ تُوجد في امرأةٍ تعاصِرها .

* ولَسْنَا نبالغُ لو قلنا : إنَّ عائشةَ بنتَ طلحة منْ سيّدات عالماتِ النساءِ في عَصْرها ، لأنّها غُذِّيَتْ في بيتِ النُّبوَّة ، وتَفَيأَتْ في ظلالهِ حيناً منَ الدَّهْرِ ، وتَعَطَّرَتْ بأنداءِ رحيقهِ العَطِر ، ورأتْ أكابِرَ عُلماءِ الصَّحابةِ ، وصفوةِ علماءِ التَّابعين ، وجلَّةِ الأصفياءِ الذين يَفِدُون إلىٰ بيتِ خالتِها عائشة يروون عنها الحديثَ النَّبويَّ الشَّريفَ ، ويسمعونَ العِلْمَ؛ ولا غرابةَ في هذا ، فأمُّنا عائشةُ أُولىٰ نساءِ رسَولِ اللهِ ﷺ حفْظاً وعلْماً : بل أُولى نساءِ الصَّحابة علماً وحفْظاً ودقةً وضبطاً في الرّواية ، ناهيك أنَّها منَ الصَّحابة السبعة المكثرين[2] في

---

(١) طبقات ابن سعد (٨/ ٤٦٧) وتهذيب التَّهذيب (١٠/ ٤٩٠) رقم التّرجمة (٨٩٣٣) ، وانظر الحدائق الغناء (ص ٥٤).

(٢) يُقْصَدُ بالمكثرين هنا : الصَّحابةُ السَّبعةُ الذين بلغَتْ مرويّاتهم أكثرَ منْ ألفِ حديث نبويّ ، وهم علىٰ التَّرتيب حسب رواية أكثرهم : أبو هُريرة ـ عبدُ الله بن عمر ـ أنس ابنُ مالك ـ الصِّدّيقة عائشة أمّ المؤمنن ـ عبدُ الله بن عباس ـ جابر بن عبد الله ـ سعدُ ابن مالك وهو أبو سعيد الخدري ـ رضي الله عنهم ـ وقد نَظَم أسماءَهم أحدُهم بقوله :

سبْعٌ مِنَ الصَّحْبِ فوقَ الألْفِ قَدْ نَقَلُوا ... مِنَ الحديثِ عنِ المُخْتَار خَيرِ مُضَرْ
أبـو هُـريـرةَ سَعْـدٌ جَـابِـرٌ أَنَـسٌ ... صـدِّيْقَـةٌ وابْنُ عبَّاسٍ كـذا ابـنُ عُمَـرْ

ونَظَمهم آخر فقال :

صحَـبَ النّبـيَّ ذَوُو الأَلْـفِ عـدَّتُهـم ... قُـلْ سَبعـةٌ نجبٌ بـالفَضْـلِ قَـد رأَسُـوا
أبـو هُـريـرةَ عبـدُ اللهِ عـائِشَـة ... جَـابِـرٌ وابْـنُ عبَّـاسٍ كـذا أَنَـسٌ=

الرِّواية عن رسولِ اللهِ ﷺ ، وليسَ منَ المُسْتَبعَدِ أنْ تكون أمُّ المؤمنين عائشة ، قد أَوْلَتْ ابنةَ أختِها عنايةً فائقةً ، فَغَدَتْ منْ نابهاتِ النِّساء ، ومن عِلْيَةِ العالماتِ علْماً وصدقاً ومكانةً؛ ولو استعرضْنَا أقوالَ الثِّقاتِ ، وأئمةَ العلماءِ في عائشة بنتِ طلحة لعرفنا القَدْرَ والمكانةَ التي تَقْتَعِدُها هذه الابنةُ المتفرِّدَةُ في عَصْرِها ، وبينَ بناتِ جنْسِها.

* ففي رحلةٍ معَ العُلماءِ الكُبراءِ في الجَرْحِ والتَّعديل[1] ، نلتقي الإمامَ أبا زكريا يحيىٰ بنَ معين إمامَ الحديثِ في زمنه ، والمعوّل عليه فيه ، فقد كان يحيى بنُ معين إماماً ، ربّانيّاً ، عالماً ، حافظاً ، ثبتاً ، مُتقناً ، متقدّماً ، مضطلعاً في معرفةِ الحديثِ النّبوي الشَّريف ، قال عنه الإمامُ أحمدُ بنُ حنبل ـ رحمه الله : يحيى بنُ معين خَلَقَه اللهُ لهذا الشَّأنِ ، يُظْهِرُ كذبَ الكذَّابين ، وكلُّ حديثٍ لا يعرفُه يحيى ليسَ بحديثٍ.

* هذا العَلَمُ الكبيرُ المتوفىٰ بالمدينةِ المنوَّرةِ سنة (٢٣٣هـ) يوثِّقُ عائشةَ بنتَ طلحةَ ، ويحتجُّ بحديثها ، ويثني عليها فيقولُ: الثِّقاتُ منَ النِّساءِ:

= وأبو سَعيدٍ روىٰ ألفاً ويتبعُها ... سبعونَ مَعْ مئةٍ يُجلى بها الغَلَسُ
(الذيل على رفع الإصر للسّخاوي ص ٤٠٠).

(١) «علْمُ الجرحِ والتَّعديل»: هو علْمٌ يبحثُ عنِ الرواةِ من حيثُ ما وَرَدَ في شأْنِهم ممّا يشينُهم أو يزكّيهم بألفاظٍ مخصوصةٍ ، وهو ثمرةُ هذا العِلْم والمرقَاةُ الكبيرةُ منه.
(معرفة علوم الحديث ص ٥٢) ويعرِّفُ «حاجي خليفة» المتوفّىٰ سنة (١٠٦٧هـ) هذا العِلْم بقوله: هو علمٌ يبحثُ فيه عن جَرح الرّواة وتعديلهم بألفاظٍ مخصوصةٍ.
(كشف الظنون ١/ ٥٨٢).
أمّا صاحب كتاب: «المختصرُ في علْم رجالِ الأثر» فيعرِّفُ كلاًّ من الجرح والتَّعديل بتعريفٍ مستقلٍّ: الجرحُ: هو ردُّ الحافظ المتقن روايةَ الرّاوي لِعِلَّةٍ قادحةٍ فيه أو في روايته مِنْ فِسْقٍ أو تدليسٍ أو كَذبٍ أو شُذوذٍ ونحوها. والتَّعديلُ: هو وصفُ الرّاوي بما يقتضي قَبُول روايته.
(المختصرُ في علْم رجالِ الأثر ص ٤٥).

عائشةُ بنتُ طلحةَ ثِقَـةٌ حجّةٌ ، وذكرَ غير هذه[1] .

* وهذا العجليُّ ـ واسمهُ عبدُ اللهِ بنُ صالح بنِ سلم العجليّ ـ أحدُ العلماءِ الثِّقات يثني عليها فيقولُ : عائشةُ بنتُ طلحةَ مَدَنيَّةٌ ، وتابعيّةٌ ، ثِقَةٌ[2] .

* وأثنىٰ أبو زُرعة الدّمشقي ـ رحمه الله ـ علىٰ عائشةَ بنتِ طلحةَ ، وذكر فَضْلها وقَدْرَها فقال : حدَّثَ عنها النَّاسُ لفضلِها وأدبِها[3] . وفي لَفْظٍ آخر : عائشةُ بنتُ طلحةَ امرأةٌ جليلةٌ تحدِّثُ عنْ عائشةَ ـ الصِّدِّيقة أمّ المؤمنين ـ وتَحَدَّثَ النَّاسُ عنها بقدْرِها وأَدَبها[4] .

* ومع عقْدِ الثِّقات أوردهَا ابنُ حبّان ، وأثنىٰ عليها ، وذكرهَا في كتابه الشَّهير «الثِّقات»[5] .

* وقال المِزِّيُّ ـ رحمهُ الله ـ لم يكنْ في النِّساء أعلمُ منْ تلميذاتِ عائشةَ أمِّ المؤمنين ، وهنَّ : عمرةُ بنتُ عبد الرحمن ، وحفصةُ بنتُ سيرين ، وعائشةُ بنتُ طلحة[6] .

* ولما كانتْ عائشةُ منْ سيِّداتِ التَّابعيّاتِ ، ومنْ رواةِ الحديثِ الثّقات ، فقد أَخذَ عنها الحديثَ عددٌ جمٌّ منْ أهلِ بيتها ، وآخرون منْ كبارِ عُلماءِ التَّابعين ، فمن أقاربِها الذين أخذوا عنها :

* ابنُها طلحةُ بنُ عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق التَّيمي المدَنيّ .

---

(١) تهذيب التهذيب (١٠/ ٤٩٠) ، وتاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء ص ٢١٠) .
(٢) تهذيب التهذيب (١٠/ ٤٩٠) ، وتاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء ص ٢٠٩) ، والحدائق الغناء (ص ٥٧) .
(٣) تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء ص ٢٠٧) ، وتهذيب التهذيب (١٠/ ٤٩٠) .
(٤) نساء من عصر التابعين (١/ ٢٠) .
(٥) تهذيب التهذيب (١٠/ ٤٩٠) .
(٦) انظر كتابنا : نساء من عصر التابعين (١/ ٢٠ ، ٢١) . وهؤلاء النّسوة الثّلاث كنَّ من فُضليات تلميذاتها الفقيهات . (علوم الحديث ومصطلحه ص ٣٦٦) .

* وابن أخيها طلحة بن يحيى بن طلحة بن عبد الله التّيمي المدني نزيل الكوفة المتوفى (١٤٨هـ) ، وابن أخيها الآخر معاوية بن إسحاق بن طلحة بن عبيد الله التيمي أبو الأزهر ، وابن ابن أخيها موسى بن عبيد الله بن إسحاق.

* وممن روىٰ عنها من العلماءِ: حبيبُ بنُ أبي عمرة[1] ، والمنهالُ بن عمرو الكوفي ، وفُضَيلُ بنُ عمرو الفقيمي[2] ، وعطاءُ بنُ أبي رباح[3] ، وعمرُ بنُ سعيد ، وعبدُ الله بنُ يَسار الكوفي ، وعمرُ بنُ سُويد وغيرهم.

* وتحدَّثَ الإمامُ الذَّهبيُّ ـ رحمه الله ـ عن روايةِ عائشةَ بنتِ طلحة للأحاديث النَّبويّةِ الشَّريفةِ فقال: وحديثُها مخرَّجٌ في الصِّحاحِ[4].

* فمما وردَ لها في الصَّحيحِ ما أخرجهُ مسلمٌ في الفَضَائِل ، بسندهِ عن ابنِ أخيها طلحةَ بنِ يحيى بنِ طلحةَ عن عائشةَ بنتِ طلحة عن عائشةَ أمِّ المؤمنين قالت: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «أسرعُكُنَّ لحاقاً بي أطولكنَّ يداً».

* قالت: فكُنَّ يتطاولْنَ أيتهنَّ أطولُ يَداً.

---

(١) حبيبُ بُن أبي عمرة القصَّاب ، أبو عبد الله الحِمّاني ، الكوفي ، ثِقَة ، روىٰ عن مجاهد ، وسعيد بن جُبير من الرِّجال ، ومنَ النِّساء عن عائشةَ بنتِ طلحة ، وأمِّ الدَّرداءِ الصُّغرىٰ ، وثَّقَهُ يحيى بنُ معين والنّسائي وأحمد. ماتَ سنة (١٤٢هـ) ـ رحمه الله ـ.
(تهذيب التهذيب ترجمة رقم ١١٥٤).

(٢) فُضيل بن عمرو الفقيمي ، أبو النَّصر الكوفي ، ثقَةٌ ، مات سنة (١١٠هـ). (تقريب التَّهذيب ٢/ ٤٧٧) ترجمة رقم (٥٦١٩).

(٣) عطاءُ بنُ أبي رباح ـ واسم أبي رباح ـ أسْلم ، وكنيةُ عطاء: أبو محمّد المكيّ القُرشي ، من كبار التَّابعين ، وُلِدَ بمكةَ بآخرِ خلافة عثمان ـ رضي الله عنه ـ وسَمِعَ العبادلةَ الأربعة وجماعاتِ آخرين منْ عُلماءِ الصَّحابة. قال عنه الشَّافعي ـ رحمه الله ـ: ليس في التَّابعين أحدٌ أكثر اتّباعاً للحديث من عَطاء ، وكان ماهِراً بالفتوىٰ ، واتَّفقوا علىٰ توثيقهِ وجلالَتِهِ وإمامته ، توفي بمكة سنة (١١٥هـ). (تهذيب الأسماء واللغات ١/ ٣٠٦ و٣٠٧).

(٤) سير أعلام النبلاء (٤/ ٣٦١).

* قالت: فكانتْ أطولنُا يداً زينب[1] ، لأنَّها كانتْ تعملُ بيدِها وتتصدق[2] .

* وقد روىٰ حديث عائشةَ بنتِ طلحة أصحابُ السُّنَن أيضاً ، ففي فَضائِل فاطمةَ الزَّهراء ، أخرجَ أبو داود في الأَدب بسندِه عن المنهالِ بنِ عمرو ، عن عائشةَ بنتِ طلحة ، عن أمِّ المؤمنين عائشةَ ـ رضي الله عنها ـ قالت: ما رأيتُ أَحَداً أَشْبَه سَمْتاً ودلّاً وهدياً برسولِ اللهِ منها في قِيامِها وقُعودِها منْ فاطمةَ بنتِ رسولِ اللهِ ، كانتْ إذا دَخَلَتْ علىٰ رسولِ اللهِ ﷺ قام إلَيها فقبَّلها ، وأجْلَسَها في مجلسهِ ، وكانَ النَّبيُّ ﷺ إذا دخلَ عليها قامتْ منْ مجلسِها فقبَّلَتْه وأجلسَتْه في مَجلسِها[3] .

* ومن روايتها أيضاً ما أخرجَهُ أبو القاسم بنُ عَساكر بسندٍ رفَعه إلى طلحةَ بنِ يحيى عنْ عائشةَ بنتِ طلحة عن عائشةَ قالت: قلتُ: يا رسولَ اللهِ ، إنَّ صبيّاً من الأنصارِ لم يبلغِ السِّنَّ عصفورٌ منْ عصافيرِ الجنَّةِ.

* قال: ـ أو غيرَ ذلك ـ: «يا عائشةُ ، خَلَق اللهُ الجنَّة ، وخَلَقَ لها أهلاً ، وخَلَقَ النَّار ، وخَلَقَ لها أهْلاً ، وهمْ في أصْلابِ آبائهم»[4] .

* وكانتْ عائشةُ بنتُ طلحة تتلقّى الفِقْهَ عن خالتِها أُمِّ المؤمنين عائشة؛ ومنْ ذلك ما روتْهُ عائشةُ بنتُ طلحة قالتْ: سافرتُ إلىٰ مكةَ في العمرةِ ، فلقيْتُ عائشةَ أمَّ المؤمنين ، فقالت لي: مالي أراكِ شعثةً سيئةَ الهَيْئَةِ؟

---

(١) أي: زينب بنت جحش أم المؤمنين رضي الله عنها.

(٢) أخرجه مسلم في الفضائل برقم (٢٤٥٣).

(٣) أخرجه أبو داود في الأدب برقم (٥٢١٧) ، والترمذي في المناقب برقم (٣٨٧١ و٣٨٧٢) ، والحاكم في المستدرك (٣/ ١٥٢) ، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، وأخرجه ابن عبد البر في الاستيعاب (١٣/ ١١٩) بلفظ ومعان متشابهة.

(٤) تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء ص ٢٠٧) ، والحدائق الغناء في أخبار النساء (ص٥٥).

قلتُ: أسْقَطْتُ سقْطاً ـ أو ولدتْ ولداً ـ ولم أَغْتَسِل بَعْدُ. قالت: اغتسلي وادّهِني وتطيّبي، فإنَّه قَدْ حلَّ لكِ كلُّ شيء إلا زوجك[1].

* إذاً، فعائشةُ بنتُ طلحة ـ رحمها الله ـ من فقيهاتِ بناتِ الصَّحابة، ومنْ عالماتِ التَّابعياتِ المحدّثات اللواتي تُـقْبَـلُ منهنّ الرِّواية[2]، وممن لهنَّ آثار محمودة في نقل الأخبار الوثيقة عن الثقات[3].

مكْـرُمَــةٌ لِعَـائِشَــةَ وَأَبِيْـهَـا طَـلْحَـةَ:

* كانَ لسيِّدنا طلحةُ بن عُبيد الله ـ رضي الله عنه ـ أَرْبَعُ بناتٍ منْ أُمَّهاتٍ شتّى وهنَّ: أمُّ إسحاق، وعائشةُ، ومريمُ، والصَّعبة[4]، ولكنَّ ضيفتنَا

---

(١) تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء ص ٢١١) والحدائق الغناء (ص ٥٩).

(٢) يكادُ علماءُ الحديثِ يتَّـفِـقُون تماماً علىٰ الشُّروطِ الواجبِ توفّرها في الرَّاوي لكي تُـقْبَـلَ رَوايته، وتدورُ حولَ اشتراط:
١ ـ الإِسْلامُ.
٢ ـ البلوغُ ومقدرةُ الرّاوي على التّمييز.
٣ ـ العقلُ والضبط والعَدالة.
٤ ـ السَّلامة منَ الفِسْق وخوارمِ المروءة والاستقامةِ التَّامة في أمور الدِّيْن.
٥ ـ اليقظةُ بألاّ يكون مغفّلاً.
٦ ـ الحفظ إنْ حدَّث من حفْظِه، والفهم إنْ حدَّث بالمعنى.
فإنِ اختلَّ شرطٌ منْ هذه الشَّروط رُدَّتْ روايتهُ سواء كانَ متفرّداً بروايتهِ أو معه غيره.
وقد عرَّفَ الخطيبُ البغداديُّ الرَّاوي العَدْلَ بأنَّه: مَنْ عُرِفَ بأداءِ فرائضه، ولزومِ ما أُمِرَ به، وتوقّي ما نُهِي عنه، وتجنُّب الفَواحش المُسقطة، وتحرّي الحق الواجب في أفعالهِ ومعاملتهِ، والتّوقّي في لفظهِ لما يثلمُ الدِّين والمروءة، فَمَنْ كانت هذه حالُه فهو الموصوفَ بأنَّه عَدْلٌ في دِيْنه، ومعروفٌ في حديثهِ.
(الكفاية في علم الرواية ص ٨٠).

(٣) انظر هذا في الحدائق الغناء (ص ٥٩).

(٤) تهذيبُ الأسماءِ واللغات (١/ ٢٤٠)، وكان لسيِّدنا طلحة ـ رضي الله عنه ـ عشرةُ بنيَن وهم: محمّد ـ مُوسىٰ ـ عيسىٰ ـ إسماعيل ـ إسْحاق ـ يعقُوب ـ زكريا ـ يحيىٰ ـ صالح ـ عِمران. ويلاحظُ أنَّ طلحةَ ـ رضي الله عنه ـ قد سمّاهم بأسماءِ أنبياءِ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ عدا (عمران).

عائشة كانت أشهرهُنَّ ، وأَرْأَس نِسَاء زمانِها ، ولعلَّ مولدها كان في نهايةِ الثُّلثِ الأَوَّل منَ القرنِ الهجريّ الأوّل ، فربما قد عرفتْ بعضَ ملامح أبيها ، ووعَتْ مكانتَها في البيتِ التَّيميّ المتَّصِل بالبيتِ النَّبوي ، وعرفتْ كذلك مكانةَ أبيها في سجلّ الصَّحابةِ الأَخْيار ، وديوان السَّابقينَ الأبرار .

* وعندما قُتِلَ أبوها طلحةُ سنة (٣٦ هـ) ، وكانتْ عائشةُ لا تزال في عمر الزَّهْر ، ولكنَّها تَعْرِفُ بعضَ صفاتِهِ وملامِحِه ، وتعرفُ أنَّه مدفونٌ بظاهِرِ البَصْرةِ منْ أرضِ العراقِ في قنطرةِ قريةٍ منْ قُراها .

* وبعد مضيٍّ أكثر منْ ثلاثين سنة علىٰ موتِ طَلْحةَ ، تراهُ عائشة في نومها وهو يطلبُ منها أنْ تُغيِّر مكانَه ، فقد تأذَّى من نزِّ الماءِ ، فأعدتْ عائشةُ العُدَّةَ لذلكَ ونفذَّت وصيَّةَ أبيها ، ولكنْ كيف كان ذلك .

* ذكرَ ابنُ قُتيبةَ في «المعارف» وابنُ سَعْد في «الطَّبقَات» والنَّووي في «تهذيب الأسْمَاء واللغات» وغيرهم منَ المصنّفين قصَّة ذلك الحلْمِ الذي رأَتْه عائشةُ في أبيها طلحة ، ومفادُها : أنَّ طلحةَ بنَ عُبيد الله ـ رضي الله عنه ـ قد دفِنَ بقنطرةِ قريةٍ بِظَاهِرِ البصرةِ لما قُتِلَ ، رُميَ يوم الجملِ بسَهْم فَقَتَله ، فرأَتْه ابنته عائشة بعد دفْنِه بثلاثينَ سنةٍ في المنامِ يشكو إليها النَّزّ ويقول : يا بُنية ، أخرجيني منْ هذا الماءِ الذي يُؤذيني ، فإنَّ النَّزَّ قد آذاني .

* وانتبهتْ عائشةُ منْ نومها وصورةُ والدها ما تزالُ مرتسمةً في مخيلتها ، وعرفتْ أنَّ ذلك لم يكنْ أضغاثَ أحْلامٍ ، أو مجردَ أوهامٍ ، بل إنَّ ذلك حقيقة ، ولا تكادُ تفاصيلُ تلك الرُّؤيا تفارقُ ذاكرتها .

* وفي صباحِ تلك الليلة جَمَعَتْ عائشةُ أعوانَها وأقاربها وقصَّتْ عليهم رؤياها ، وعزمتْ علىٰ تحويلهِ منْ مكانِه ، ثمّ ركبتْ في أهلها وحشمِها ، وقدمُوا مكان قَبْره ، وأمرتْ به ، فاستخرجَ صحيحاً طريّاً كما دُفِنَ منذ ثُلْث

قَرْنٍ تقريباً ، لم تنحَسِرْ له شعرةٌ ، والكافورُ لم يتغيَّر ، سوىٰ جنْبِه الذي يلي الأرضَ قد اخضرَّ كالسِّلْق منَ الماءِ الذي كان يسيلُ عليه وينزُّ بقربهِ ، فنزفُوا عنه الماء ، ثمَّ استخرجوه من مكانه .

* وكانَ الذي تولّىٰ إخراجه منْ قَبره عبد الرحمن بن سلامة التَّيمي ، فَلفَّه في الملاحفِ ، واشترتْ له عائشةُ داراً من دورِ آل أبي بكرة بعشرةِ آلاف درهم فدفَـنَـتْه فيها[1] ، وبَنَتْ حولَه مسجداً ، فكانتِ النِّساءُ منْ أهلِ البصرة يُقْبلْنَ بقوارير من البانِ والمسْكِ ، فيفرغنها على قَبْره ، فلم يزلْنَ يفعلْنَ ذلك حتى صار تُراب قبره مسْكاً أذفر ، وقبره هناك مشهورٌ معروفٌ بظاهر البصرة[2] .

* وهكذا كانتْ عائشةُ بارّةً بوالدها طلحةَ بَعْد وفاته ، وهذا منْ توفيقِ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لها ، وكرامةٍ من كراماتِها التي اختُصَّتْ بها .

نَشْـأَتُـهَـا وَطُفُـولَـتُهَـا :

* عندما قُتِل سيّدنا طلحةُ بنُ عُبيد الله ـ رضي الله عنه ـ ، كانت عائشةُ في طفولَتها البريئة ، لا تعرفُ منَ الحياةِ إلا كما يعرفُه الأطفالَ ، منْ لهوٍ ونومٍ ولعبٍ بريءٍ .

* ولعلَّ أمّ كلثوم بنت أبي بكر لم تحدِّثْ ابنتهَا عائشة عن دموعها التي في مآقيها ، وعنْ حزنها لمقتلِ زوجها طلحةَ والد عائشة ، فقد كانتْ أمُّ كلثوم ترىٰ في وجْهِ ابنتها الملائكي الجميلِ كلَّ براءةٍ وعذوبةٍ ، فكانت تضمُّها إلىٰ صَدْرِها ، وتهمسُ في أذنيها بعضَ التَّرقيصات التي كانتْ سائدةً عَصْر ذاك .

* ودرجتْ عائشةُ بين أَهْلِها وَلدَّاتِها وهي تقطعُ أعواماً وأعواماً ، لم تلْقَ خلالها بأْساً وعناءً ، ولكنَّها عرفَتْ نعيمَ الحياةِ ورخاءَها ، حيثُ تركَ لها

---

(١) وقيل : إنّه دُفِنَ في داره في الحجرتين في البصرة .

(٢) المعارف (ص ٢٢٩) ، وطبقات ابن سعد (٣/ ٢٢٣ و٢٢٤) ، وتهذيب الأسماء واللغات (١/ ٢٤٠) ، والعقد الفريد (٥/ ٦٧) بتحقيق محمد سعيد العريان ، وانظر كتابنا : فرسان حول الرسول ﷺ (٢/ ٢٨) وغيرها كثير جداً .

أبوها ثروةً طيِّبَةً عاشتْ من خلالها منعَّمةً راضيةً موفورةَ العَيْشِ.

* ولم يحدثْنا تاريخُ عائشةَ كثيراً عنْ طفولتِها، ولعلَّه كان غافلاً عنها قليلاً، فقد عَصَفَتْ بعضُ الأحداثِ العِظامِ بذاكرته وبالنَّاس، عندما كانتْ عائشةُ في سنِّ الطُّفوليّةِ البريء الهَامسِ.

* ولعلَّ التَّاريخَ قد غفلَ عنْ عائشةَ أيضاً، فلم يُسجِّلْ أحلامَها وتطلعاتِها، ولكنَّه سجَّلَ صُوراً من حياتها وهي تعيشُ في كَنَف خالتها عائشةَ تنهلُ منْ معارِفها وعلومها. ومنْ هذه الومضاتِ بدأَ التَّاريخُ يزيحُ السِّتار عنْ مجاهلِ طفولةِ عائشةَ بنتِ طلحة، حيثُ بدأتْ تقتعدُ مكانةً بارزةً بينَ فتياتِ وبناتِ الصَّحابةِ، وبدأَ التَّاريخُ منْ وقتها يرسمُ حياتَها بشيءٍ منَ الوضوح، وبدأت حياتُها تقتربُ منْ نافذةِ التَّاريخِ لتظهرَ جليةً أمامَ ريشتِه الصَّادقة. وفي الصَّفحاتِ التَّالياتِ سنعيشُ بَعْضَ الصُّورِ من حياةِ عائشةَ بنتِ طلحة، وسنجدُ بعضُ الأخبارِ الملفَّقةِ حولَ حياتِها، وحولَ سيرتها، والتي لا تتناسبُ مع جَلال قَدْرِها، وقد رَوَّجَ بعضَ هذه الأخبار عددٌ منَ القدماءِ والمحدثين، وظنُّوا أنَّهم فتحُوا بذلك فتحاً عظيماً، إلاّ أنَّ حقائقَ التَّاريخ تدفعُ أكاذيبَهم، وتقطعُ حبائلَ إفْكِهم، وخصوصاً ما زَعمه الزَّاعمون بأنَّ عائشةَ بنت طلحة كانت تكشفُ وجهَها، وتدعي بأنَّ مَيْسمَ الجمال يجب أنْ يراهُ الغادي والرّائح! ولكنَّا بعونِ اللهِ وتوفيقهِ استطعنا أن نجلوَ الحقائقَ، ونضع النِّقاط علىٰ الحروفِ، ونبرزَ شخصيّةَ عائشة كما ينبغي لها ولمثيلاتها أنْ تَخْرُجَ للنَّاس بصورةٍ صحيحةٍ.

زَوَاجُ عَائِشَةَ من ابنِ خَالِهَا:

* عندما أيفعتْ عائشةُ بنتُ طلحة، وبلغتْ مَبْلَغَ النِّساءِ، كانَ ابنُ خالها عبد الله[1] بن عبد الرحمن بن أبي بكر قد خَطَبها برأي وإشارةِ خالتها عائشة أمّ

(١) عبدُ اللهِ بنُ عَبْد الرّحمن بنِ أبي بكر الصِّدّيق القرشيّ التيميّ المدنيّ التّابعي، ابنُ أختِ أمِّ سلمة أمّ المؤمنين زوج النّبي ﷺ، روى عن أبيهِ وخالتِهِ أمّ سلمة، وروىٰ=

المؤمنين ، ويبدو أنَّ عائشةَ بنتَ طلحة لم تكنْ لديها رغبةٌ كاملةٌ في هذا الخاطبِ وإنْ كان قريباً ـ كما تزعمُ بذلك المصادر ـ؛ ولكنَّ عائشةَ أمّ المؤمنين قد رغَّبَتْها في هذا الزَّواجِ فوافقتْ وتزوَّجَتْه ، وكانَ لهذا الزَّواجِ ثمارٌ جنيةٌ منَ الأولادِ ، فقد وَلَدَتْ عائشةُ لعبدِ اللهِ أربعةَ أولاد ذكور وهم: عِمران ـ وبه كانت تُكنى ـ وطلحة ، وعبد الرحمن ، وأبو بكر ، كما ولدت له ابنة واحدة تُدعىٰ نفيسة[1].

* وقد نشأَ أبناءُ عائشةَ بنتِ طلحة نشأةً خيّرةً طيبةً ، واشتُهِرَ منهم في عالم المشَاهير ، وعالَم الأَجْوادِ والكُرماء ابنُها طلحةُ بنُ عبد الله بن عبد الرحمن[2].

* وكانَ طلحةُ ابنُ عائشة هذا أحدَ الأسخياءِ الكرامِ ، وأحدَ الأوفياء العِظام ، فقد ذكر ابنُ حجر ـ رحمه الله ـ نَقْلاً عنِ الزُّبيرِ بنِ بكّار أنَّ عروةَ بنَ

= عنْهُ ابنهُ طلحة ، وأختُه أسماء بنتُ عبد الرحمن ، وابنُ عمّه القاسم بن محمد ، وزيدُ بنُ عبد الله بن عمر ، وعثمانُ بن مرّة البصري ، واتّفقوا على توثيقه ، وذكرهُ ابنُ حبّان في «الثّقات».
قال ابنُ حجر ـ رحمه الله ـ: ذكرهُ البخاري في «التّاريخ الأوسط» في فَضْل مَنْ ماتَ بين السَّبعين إلى الثمانين ، وذكر أنَّه ورثَ عمته عائشة أمّ المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ. روىٰ له البخاري ومسلم حديث: «الذي يشرب الخمر في آنية الفضة إنّما يجرجرُ في بطنه نار جهنم»؛ توفي عبد الله قبل قتْلِ ابن الزبير وغسله ابن عمر. (تهذيب الأسماء واللغات ١/ ٢٦٠) و(تهذيب التهذيب ٤/ ٤/ ٣٧٠).

(١) انظر: جمهرة أنساب العرب لابن حزم (١/ ١٣٧).
(٢) طلحةُ بنُ عبدِ الله بنِ عبد الرحمن بن أبي بكر الصّديق التيمي المدني ، وأمُّه عائشةُ بنتُ طلحة بن عُبيد الله ، روى عن أبيهِ ، وأمّه ، وعمتي أبيهِ عائشة وأسماء ، ومعاويةَ بنِ جاهمة السُّلمي ، وعُفير بنِ أبي عفير رجل من العرب؛ له صحبةٌ وأرسلَ عن جَدّهِ الصّديق. وعنه ابناه: شُعيب ومحمّد ، وعطّاف بن خالد وعثمان ابن أبي سليمان ، وذكره ابن حبّان في الثّقات ، له عند أبي داود حديث العمل؛ وعند النّسَائي وابن ماجه حديث آخر في معاوية بن معمر. (تهذيب التهذيب ٤/ ١١١) ترجمة رقم (٣١٠٤).

الزبير ـ أحد فقهاء المدينة السَّبعة ـ قد أودعَ طلحةَ بنَ عائشة مالاً ، وأودعَ غيره مالاً أيضاً ، وذلك لمَّا سَافَرَ إلى الشَّام ، فلما رجعَ جَحَده بعضُهم ، وردَّ طلحةُ مالَه ، فقال عروةُ فيه هذيْن البيتَيْن :

فَمـا اسْتَخْبَـأتْ فـي رجـلٍ خَبيئـاً كـدَيْـنِ الصِّـدقِ لـو يُنْسَـبُ عَتيـقُ
ذَوو الأحسـابِ أكـرمُ مـا تَـراهُ وأصبـرُ عنْـدَ نـائبـةِ الحقُـوقِ[1]

* وفي حياةِ طلحةَ ابنِ عائشة مواقفُ مزهرةٌ بأزاهرِ الفَضْل ، فلم يكنْ ذلك الموقفُ النَّبيلُ مع عروة هو الموقفُ الوحيدُ في حياتِهِ ، وإنَّما كانَ وفيّاً كريماً معَ النَّاس كلِّهم ، حتّى مع جماعة الشُّعراء ، فهذا الحزينُ الدَّيلي يذكرُ كَرمَه ، ويشيرُ إلى أصْلِهِ العريق من جهةِ أبيه وأمّه عائشةَ فيقول :

فـإنْ تَـكُ يـا طَلْـحَ أعْطَيتنـي عَـذَافِـرةً تَسْتَخِـفُّ الضِّفـارا
فَمَـا كَـانَ نَفْعُـك لـي مـرَّةً ولا مَـرَّتَيـن ولكِـنْ مِـرَارَا
أبـوك الـذي صـدَّقَ المصطفـىٰ وسَـارَ مـع المهتـدي حيـثُ سَـارا
أمُّـكَ بَيْضَـاءُ تيميَّـةٌ إذا نُسِـبَ النَّـاسَ كـانـتْ نُضَـارا[2]

* وأمّا نفيسةُ ابنةُ عائشةَ بنتِ طلحة ، فتدلُّ الأخبارُ على أنّها تزوَّجتِ الوليدَ بنَ عبد الملك بنِ مروانَ؛ ومنَ الجدير بالذّكْر أنَّ أولادَ عائشةَ كان لكلٍّ واحدٍ منهم عَقِبٌ ونَسْلٌ[3] ، وظلَّ لعائشةَ بنتِ طلحة عَقِبٌ من أولادها ،

---

(١) انظر : تهذيب التهذيب (٤/ ١١١) بتصرف يسير جداً.

(٢) نوادر المخطوطات (١/ ٧٠) ، والأغاني (١١/ ١٨٥). ومعنى : «يا طلح» : مرخم يا طلحة. «عذافرة» : العظيمة الشديدة من الإبل؛ والمذكر : عذافر ، وهو أيضاً الأسد. «الضفار» : ما يُشدُّ به البعير ونحوه من شعر مضفور ونحوه ، والجمع ضفر. «أبوك الذي صدق المصطفى» : إشارة إلى جده أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه وأرضاه ـ. «المهتدي» : المقصود به هنا سيدنا محمد رسول الله ﷺ. «تيمية» : نسبة إلى تيم ، وتيم هنا : هو تيم بن مرة رهط أبي بكر الصديق ورهط طلحة ـ رضي الله عنهما ـ. «النضار» : الجوهر الخالص من التبر.

(٣) انظر : نهاية الأرب (٤/ ٢٩١).

منهم ابنُ عائشة البصري المتوفى سنة (٢٢٧هـ)[1].

* وتشيرُ بعضُ الأخبارِ إلى أنَّ حياةَ عائشةَ مع ابنِ خالها كانت مضطربةً بعضَ الاضطراب ، فقد استقبلتْ حياتَها معه غير راضيةٍ ذلك الرّضا التَّامّ عنْ هذا الزَّواجِ ، ولعلَّها كان ضيّقةً به ضيقاً يدعوها إلىٰ الانقباضِ عنه ، وزعموا أنَّها تكونُ جالسةً بينَ صُويحباتها تتحدَّثُ إليهنَّ ، ويتحدثْنَ إليها ، وهي مشرقةُ الوجهِ ، باسمةُ الثَّغر ، مبتهجةُ النَّفْس ، راضيةُ القلْب ، فإذا ما قيل لها: يا أمَّ عمران إنَّ زوجَك قد جاءَ ، هناك تقطّبُ وجهَها ، وكأنَّ شيئاً حَدَثَ ، مما يؤدّي بصويحباتها إلى الدَّهش والتَّعجُّب من هذا. !. فَمَنَ ذا الذي لا يعطفُ على فتىً كعبدِ الله زوجها ، إذْ لا تمنحه ابتسامةً رقيقةً أو نظرةً فيها شيءٌ منَ الرِّفق؟!

* وحكتْ بعضُ المصادرِ أنَّ عائشةَ كانتْ تصارمُ زوجَها ، فقد خرجَتْ من دارِه مغضبةً ذاتَ مرّة ، تريدُ خالتَها عائشةَ أمّ المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ ، فمكثتْ عندها قريباً منْ أربعةِ أشهرٍ ، وكانَ عبدُ الله قد آلى[2] منها ، فأرسلتْ إليهِ عائشةُ أمّ المؤمنين: إنّي أخافُ عليكَ الإيلاء[3] ، فضمَّها إليهِ ، وكان مُولِياً منها ؛ فقيلَ له: طلِّقْها فقال عبد الله:

يقُولُونَ طَلِّقْهَا لأُصْبِحَ ثاوِياً ... مُقيماً عَليَّ الهَمُّ أَحْلامُ نَائِمِ
وإنَّ فِراقي أَهْلَ بيتٍ أُحبُّهم ... لهم زُلْفَةٌ عندي لإِحْدىٰ العَظَائِمِ
فكيفَ بصفْوِ العيشِ منْ بَعْد بَيْنِهم ... وسخْطِهم يوماً علىٰ الأَنْفِ خَاطِمي[4]

* ويظهرُ أنَّ عائشةَ ـ كما تدلُّ الرِّواياتُ ـ تستأنفُ حياتَها مع زوجِها

---

(١) الكامل في التاريخ (٦/ ٥٢٩).
(٢) «آلى»: حَلَفَ وأقْسَم ، وفي حديث أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ: أنّ النَّبيَّ ﷺ آلىٰ منْ نسائِه شَهْراً. أي حَلَفَ لا يدخلُ عليهنّ.
(٣) «الإيلاء»: اليمينُ. وفي الشّرع: أنْ يُقْسم الزَّوجُ ألاَّ يقربَ امرأتهَ. وحكمه أنْ يُتَربَّص به أربعة أشهر ، ثم يوقف. فإمّا أنْ يُطلق ، وإمّا أنْ يرجع.
(٤) نوادر المخطوطات (١/ ٧٠).

عبدِ اللهِ في مشقَّةٍ وعُسْرٍ ونفورٍ ، فَقَدْ كانت سيئة العشْرةِ معه ، لا تخلو إليهِ ولا تتحدَّثُ إليهِ ، ويبدو أنَّ عبدَ الله كانَ راضياً أحياناً ، سَاخِطاً أحياناً أخرىٰ ، وكان سعيداً وشقياً بآنٍ واحدٍ مع زوجهِ عائشةَ ، وعلىٰ الرّغمِ منْ أنَّها لم تُنْجِبْ من غيرِه ، إلاّ أنَّها لم تكنْ مبتهجةً به ، ناهيك بأنَّ الأولاد قد توثِّقُ عرىٰ المحبَّةِ بينَ الزَّوجَيْن ، إلاّ أنَّ هذا لم يحدثْ بينَ عائشةَ وعبدِ الله ـ كما يزعم الرّواة ـ.

* وتمضي الأيَّامُ وحياةُ عائشةَ مع زوجِها عبد الله شاقَّة عسيرة ، وظلتْ نافرةً منه ، لم تغيِّرْ من مُصَارمتها له شيئاً. ولكنَّ الأيامَ لم تَطُلْ بعبدِ الله ، فقد وافَتْه المنيةُ وهي عنده؛ فما فَتَحتْ فاهَا عليه ، ولم تذرفْ دمعاً علىٰ فراقِهِ ـ كما زعموا ـ وكانتْ عائشةُ بنتُ أبي بكر أمّ المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ قد تأثَّرتْ كثيراً لوفاةِ ابنِ أخيها عبد اللهِ بنِ عبد الرحمن بنِ أبي بكْرٍ ، ولذلك فإنَّ أمَّ المؤمنين عائشةَ كانت تعدُّ علىٰ عائشةَ بنتِ طلحة في ذنوبها التي تعدِّدُها عدمَ تأثرِها لموتِ زوجِها عبدِ الله ، وعدم اكتراثها لذلك[1].

* وبعد انقضاءِ عدّتها توافدَ عليها الخُطَّاب ، ولكنْ فازَ منهم أحدُ نجباءِ أَبناءِ الصَّحابة ، ترىٰ منْ هذا الفتى النَّجيب الذي فازَ بقَلْبِ عائشة؟ وقبل أنْ نجيبَ عن هذا ، ونتعرفَ أخبارَه وأخبارَ عائشة ، دعونا نَقِفُ وقفةً لطيفةً مع ملاحةِ وجمال عائشةَ الذي شهرَهَا في دنيا النِّساء.

جَمَالُهَا ومَلاحَتُها بَيْنَ الثَّنَاءَ والإعْجاب:

* أجمعَ كلُّ مَنْ عَرفَ عائشةَ ابنةَ طلحة أنَّها كانتْ من أجمل نساءِ

---

(١) انظر: نهاية الأرب (٤/ ٢٩١ ، ٢٩٢) ، وأعلام النّساء (٣/ ١٣٩ و١٤٠) نقلاً عن الأغاني. ويعتبرُ الدكتورُ زكي مبارك أنَّ تصرّفَ عائشةَ يدلُّ علىٰ اللؤمِ فيقول: وكانتْ لئيمةً تصرُّ علىٰ العنف وتبيتُ العُدوان ، يؤيّدُ هذا ما كان بينها وبينَ زوجها الأول ، إذْ ماتَ وهي عنده فلم تفتحْ فاهَا عليهِ بالرّغم منْ أنّه ابنُ خالِها ، وأنَّها تزوَّجَتْه برأي خالتِها عائشة أمّ المؤمنين. . . وكانَ صاحبَ الفضلِ عليها ، إذْ لم تَلِدْ من أحدٍ منْ أزواجها سِواه. (حب ابن أبي ربيعة وشعره ص ١٥٦ و١٥٧).

عَصْرِها ، إذْ حَباها الله طلعةً بهيّةً ، وجمالاً نادرَ الوجودُ ، استرعىٰ انتباهَ النِّساء اللواتي عاصرنَها ، فأطرينَ جمالهَا وملاحتَها وأجْمَعْنَ بأنَّها إذا كَشَفَتْ وجهَها افتضحتِ الشمسُ والقمرُ لبديع حسنِها ، وأزرَتْ بالجُمانِ واللؤلؤِ والمرجانِ ، فقد مَلَكَتِ الحُسْنَ وملكَتْها الملاحةُ .

* ومما جاء في صِفَتِها ووصْفها ما ذكرتْهُ عزَّةُ الميلاء[1] ، وغيرها منَ النِّساء بأنَّها : ممتلئةُ التَّرائب ، زجَّاءُ العينَيْن ، هَدْبةُ الأَشْفار ، واضحةُ الثَّغْر ، نقيةُ الوجْهِ ، فرعاءُ الشَّعر .

* ووصفتْ عزَّةُ هذه عائشةَ ابنةَ طلحة لِمُصْعَب بنِ الزَّبير فقالت له : رأيتُ وجْهاً أَحْسَن من العافية ، ولها عينان نجلاوان هم مَسْكن هاروت وماروت ، من تحتِ ذلك أنْفٌ أقنى ، وخدَّان أسيلان ، وفمٌ كَفمِ الرمانة ، وعنقٌ كإبريقِ الفضَّة[2] .

* وجاءَ وصفُها في مكانٍ آخر بأنَّها مَن الحورِ العين ، ووصفتْ جاريتها وجهَها فقالت لها : واللهِ لوجْهُكِ أحسن من كلِّ زينة .

* وقالوا في وصْفِ جمالِها أيضاً : كانتْ منْ أحسنِ النَّاس وجْهاً في

---

(١) عزَّةَ الميلاء : ذكرَ الدّكْتور زكي مُبارك ترجمةً لعزَّةَ الميلاءِ هذه ، نَنْقُلها كما هي ، ليعرفَ القارىءُ الكريم كيفَ يوفِّقُ زكي مبارك بينَ عزَّة الميلاء ، وبينَ مطربة الجيلِ الحالي وكوكب الشّرق المغنية أمّ كلثوم!!! فيقول : كانتْ عزَّةُ من أجمل النّساء وجْهاً ، وأحسنُهنّ جسْماً ، وسُمّيتِ الميلاءَ لتمايلٍ في مِشْيَتِها . وقيل : بل كانتْ تلبسُ الملاءة ، وتَشَبَّه بالرِّجال فسمّيت بذلك ، كما كانت تفعلُ في عَصْرِنا أمّ كلثوم ـ حَرسَها اللهُ ـ . وقيل : بل كانتْ مغرمةً بالشَّراب ، وكات تقولُ : خُذْ مليئاً واردُدْ فارِغاً . وقال أبو الفَرج : والصَّحيح أنّها سمّيت الميلاءَ لميلها في مِشْيتِها . وقد غَنَّتْ يوماً عمرَ بنَ أبي ربيعة لحناً لها في شيءٍ منْ شعرِه ، فشقَّ ثيابَه ، وصاحَ صيحةً عظيمةً صَعِقَ منها ، فلمّا أفاقَ قال له القومُ : لغيركَ الجهلُ يا أبا الخطَّاب! فقال : إنّي سمعتُ واللهِ ما لم أمْلِكْ معه نفسي ولا عَقلي .
(حب ابنِ أبي ربيعة وشعره ص ١٤٩) الهامش .

(٢) تاريخ مدينة دمشق (تراجمُ النِّساء ص ٢١٧) .

زمنِها ، وأجمل ما أظلَّتْ سماءُ الحجاز.

* ثمَّ جاء بَعْدُ كُتَّابُ التَّراجم والمصنّفون وغيرهُم ، ونقلُوا ما ورَدَ عنْ غيرِهم منْ جمالِ عائشة وملاحتِها ، ومنهم الإمامُ الذَّهبيُّ ـ رحمه الله ـ حيث قال : كانتْ أجملَ نساءِ زمانِها وأرأسهنّ[1].

* وفي «مرآتِه» قال اليافعيُّ ـ رحمه الله ـ: كانتْ منْ أجملِ النِّساء ، وهي إحدى عقيلتَي قريش اللتَيْن تمنَّاهُما مُصعبُ بنُ الزُّبير ، فنالهما[2].

* وقالَ الحافظُ ابن كثير ـ رحمه الله ـ: كانتْ بارعةَ الجمالِ ، عظيمةَ الحسنِ ، لم يكنْ في زمانِها أجمل منها[3].

* وقال الحافظُ ابن حجر ـ رحمه الله ـ: كانت فائقة الجمال[4].

* وقال الذَّهبيُّ في موضع آخرَ منْ مصنَّفاته وذكرَ جمالَ عائشة: وكانت أجملَ أهلِ زمانِها وأحْسَنَـهُنَّ وأرْأَسَهُنَّ[5].

---

(١) سير أعلام النبلاء (٤/ ٣٦٩).

(٢) مرآة الجنان (١/ ٢١٢).

(٣) البداية والنهاية (١٣/ ٣٠٢).

(٤) تقريب التهذيب (٢/ ٨٦٩) ترجمة رقم (٨٩٣٣).

وشارك الدكتور زكي مبارك في الحديثِ عن جمالِ عائشة ناقِلاً ومؤلّفاً فقال: أمّا جمالُها فقد كانَ فتنةً لكلِّ مَنْ سَمِعَ بها أو رآها منْ أهلِ ذلكَ الزَّمان ، وإنّهم ليذكرونَ أنَّها صَارمَتْ زوجَها ، وخرجتْ مِنْ دارها غضبىٰ ، فمرتْ في المسجد وعليها ملحفةٌ تريدُ عائشة أمَّ المؤمنين ، فرآها أبو هريرة فقال: سبحانَ اللهِ ، كأنَّها منَ الحورِ العِيْن!

وروي أنَّها نازعتْ زوجَها يوماً ، فوقعَ خمارُها عنْ وجْهِها فقال: سبحانَ اللهِ! ما أَحْسَنَ ما غذاكَ أهلُك ، لكأنّما خرجتِ منَ الجنَّةِ!. وقال لها يوماً: ما رأيتُ شيئاً أحسنَ منك إلا معاوية أوّلَ يوم خطبَ على منبر رسولِ الله! فقالتْ: واللهِ لأنا أحسنُ منَ النَّارِ في الليلة القرَّة في عينِ المقرور! (حبّ ابن أبي ربيعة وشعره ص ١٤٤)!!!

(٥) في كتابِ اللطيف «فقْهُ اللغة» فَصَّلَ أبو منصور الثّعالبي ـ رحمه الله ـ ترتيبَ أوصافِ=

* ويقول حمّاد الرّاوية في وصفها: إنَّه لم يكنْ لها شبهٌ في زمانها حُسناً ودماثةً وجمالاً وهيبةً ومتانةً وعفَّةً.

* هذا بعضُ ما قيل في جمالِ السَّيِّدة عائشةَ بنتِ طلحة، ذلك الجمال[1] الذي كان أشهر منْ وضَح النَّهارِ في عَصْرها.

عَائِشَةُ في كَنَفِ مُصْعَب بنِ الزُّبَيْر:

* كانَ مصعبُ بنُ الزُّبير فتىٰ وسيماً قسيماً، أنيقاً رشيقاً، وكانَ أميرَ العراقِ، ومنْ أجملِ فتيانِ قريش، حيث كان يُغْبَطُ علىٰ جمالِهِ وملاحتِهِ، وكانَ مع هذا كُلِّه فارساً شجاعاً مِقْداماً جَواداً، رفيعَ المكانَةِ، بعيدَ

= الحُسْنِ، وتنزيلِ الألفاظِ اللغوية عليه فقال:
- إذا كانَ على المرأةِ مِسْحَةٌ منْ جمالٍ فهي: جميلةٌ ووضيئةٌ.
- فإذا أشْبَه بعضُه بعضاً في الحُسنِ فهي: حُسَّانَةٌ.
- فإذا استغنت بجمالها عن الزينة فهي: غانيةٌ.
- فإنْ كانتْ لا تُبالي أنْ تلبسَ ثوباً حسَناً، ولا تتقلَّدَ قلادةَ حَسنةً فهي: مِعْطَال.
- فإن كانَ حسُنها ثابتاً فائِقاً كأنَّه وسْمٌ فهي: وسيمةٌ.
- فإذا قُسِمَ لها حظٌّ وافرٌ منَ الحُسْنِ فهي: قسيمةٌ.
- فإذا كان النَّظر إليها يَسرُّ الرّوعَ فهي: رائعةٌ.
- فإذا غلبتِ النِّساء بجمالِها فهي: باهرةٌ.

وقال في فَصْل آخرَ من كتابهِ المذكور:
- الصَّباحةُ: في الوَجْهِ.
- والوضاءةُ: في البشْرة.
- والجمالُ: في الأَنْف.
- والحلاوةُ: في العينَيْن.
- والملاحةُ: في الفَمِ.
- والظَّرفُ: في اللسانِ.
- والرَّشاقةُ: في القد.
- اللباقةُ: في الشَّمائل.
- وكمالُ الحسنِ: في الشَّعْر.

الصَّوتِ ، ذا شباب باسمٍ مبتهجٍ ، وفيه قال عُبيد الله بن قيس الرّقيات :

إِنَّمــا مُصْعَــبٌ شهَــابٌ مــنَ اللهِ   تَجلَّـــتْ عـــنْ وجهِـــهِ الظَّلْمـــاءُ

* وكان مصعبُ قد تزوَّج سُكينةُ بنتَ الحُسين بعد موتِ زوجهِ فاطمةَ بنتِ عبد الله بن السَّائب أمَّ ولديه عيسى وعُكَّاشة ، وكانتْ سُكينةً فتاةً قد تأيَّمَتْ بعد وفاةِ زوجِها عبد اللهِ بنِ الحَسن بن علي ـ وهو ابُن عمها ـ وكانتْ سُكينةُ رائعةَ الجمالِ أيضاً منقطعةَ الحُسن في النَّظيرِ ، فصيحةَ اللسانِ ، عذبةَ الحديث ، خفيفةَ الرُّوح ، كثيرةَ المرحِ في براءةِ الطَّاهرات ، وخَفر العابدات .

* وتروي كتبُ الأخبارِ والأَسْمار أنَّ مُصْعباً هذا كان يتمنّى أنْ يتزوَّج عائشةَ بنتَ طلحة التَّيميّة ، هذه التي تمتازُ عن نساءِ جنْسِها وبناتِ قريش بجمالِ الوجهِ ونقائِه وإشراقِه ، كما تمتازُ بكلِّ ألوانِ الملاحةِ المُحبَّبةِ في النِّساء ، وكانتْ قد تأيَّمَتْ منْ زوجِها عبدِ اللهِ بنِ عبد الرحمن بن أبي بكر الصِّديق .

* وآنَ لمصعب أنْ يحقِّقَ حلْمَهُ ، فتكون عنده عقيلتا قُريش سُكينةُ بنتُ الحسين ، وعائشةُ بنتُ طلحة ؛ ولكنْ كيف السَّبيلُ إلىٰ عائشة؟!

* لم تَطُلْ حيرةُ مصعب ، حيثُ أرشده المرشدون إلىٰ امرأةٍ خبيرةٍ بالنِّساء ، طبيبةٍ بألوانِ جمالِهنّ ، عارفةٍ بأسرارِ ملاحتهنّ ، إنّها عزَّةُ الميلاء جوَّابَةُ البيوت ، وعرَّافةُ الأَسْرارِ ، وصاحبةُ النَّظرة الصَّحيحةِ ببناتِ جنْسِها .

* وتذكرُ كتبُ الأَدبِ والأَسْمار بأنَّ عزَّة هذه منْ أهلِ المدينةِ ذات صوتٍ عَذْبٍ ، ووجْهٍ مشرقٍ جميل ، يأْلَفُها الأشرافُ عندما تدخلُ بيوتهم ، وذلك لمعرفتها بأمورِ وأحاديث النِّساء وأخبارِ البيوتِ وقَصَصِها .

* وينطلقُ مصعبُ إلى عزَّةَ الميلاءِ ، ثم يقولُ لها : إنّي خطبتُ فانظري لي .

قالت عزَّةُ : ومَنْ خطبتَ؟

قال : عائشةُ ابنةُ طلحةَ بنِ عُبيد الله التَّيميّة .

قالت: حَسَناً، فانتظرْ حتى أرجعْ إليكَ بالخبرِ اليقين عنها، فإنّي خبيرةٌ بالنِّساء.

* ثمَّ انطلقتْ فدخلتُ علىٰ عائشةَ بنتِ طلحةَ وسلَّمَتْ عليها، وباسطَتْها في الحديث، ثمَّ قالت لها: فديتُكِ يا عائشةُ، لقد كُنَّا في مأدبةٍ لقريشٍ، فتَذَاكروا جمالَ النِّساء وخَلْقَهنَّ فذكَروكِ، وذكروا ملاحَتَك، فلمْ أَدْرِ كيفَ أَصِفكِ؟ فألقي ثِيابَك، فألقتْ عائشةُ ثيابَها، وأقبلتْ وأَدْبرتْ فارتجَّ منها كلُّ شيءٍ، ثمَّ إنَّ عزَّةَ رجَعَتْ إلىٰ مُصعب، فقال لها: ما صَنَعْتِ؟ قالت: أمّا عائشةُ فلا والله ما رأيتُ مثْلَها مقبلةً ومدبرةً، ثمَّ أخذتْ تَصِفُ أشياء لا نستطيعُ ذكرها هنا[١]، ثمَّ أَرْدَفَتْ قائلةً: وفيها عَيْبَان: أمّا أحدهُما فيواريه الخِمارُ، وأمَّا الآخرُ فيواريه الخفُّ[٢].

* وتزوَّج مُصعبُ عائشةَ وجَمَعَ بين عقيلَتي قُريش بالإضافةِ إلىٰ ولايةِ العراقِ، وبذلكَ تحققت أمنيتُه وأحلامُه[٣]. ولهذا اعتبره عبدُ الملك بنُ مروان أشْجَعَ العربِ وأفْرسَهم.

* وورَدَ أنَّ عبدَ الملك قال يوماً لجلسائِهِ: مَنْ أَشْجَعُ العرب؟ قيل: شبيبُ، وقيل: فُلان وفُلان.

فقال: إنَّ أَشْجَعَ العربِ رجلٌ وَلِيَ العِراقَيْن خَمْسَ سِنين، فأصابَ أَلْفَ أَلْف، وأَلْف أَلْف، وأَلْف أَلْف، وتزوَّج سُكينةَ بنتَ الحسين وعائشةَ بنتَ طلحة، ذاك مصعبُ بنُ الزُّبير[٤].

---

(١) اقرأ الخبر كاملاً في الأغاني، حيث تجدُ العجبَ العُجاب في هذا المضمار.

(٢) تشير عزّة هنا إلى عظَم أُذنَي وقدمَي عائشة.

(٣) انظر: سير أعلام النبلاء (٤/ ١٤١) بتصرف.

(٤) النّجومُ الزَّاهرة (١/ ٢٩٠) باختصار. وقال ابنُ عبد ربّه: وتزوَّجُ مُصعبُ لمّا مَلَكَ العِراق عائشة بنتَ طلحة وسُكينةَ بنتَ الحسين، ولم يكنْ لهما نظيرٌ في زمانِهما (العقد الفريد ٥/ ١٤٥) بتحقيق العُريان. وقال في موضعٍ آخر: وقالوا: كان مُصعبُ أجلَّ النّاس، وأسخىٰ النَّاس، وأشجعَ النَّاس، وكانَ تحته عقيلتا قُريش: عائشة بنت طلحة، وسكينة بنت الحسين. (العقد الفريد ٥/ ١٥٠). وكان عبدُ الملك =

* ولما تزوَّجَ مصعبُ عائشةَ أَمْهرهَا مليون درهم ، واحتلَّتْ عنده مكانةً رفيعةً مرموقةً ، ووصلَ خبرُ هذا المَهْرِ العظيمِ إلىٰ عبد الله بنِ الزُّبير أخي مصعب ، فكَتَبَ إليه يؤنّبه علىٰ زواجِه بامرأةٍ مَهْرها مليون درهم[1] .

مُفْتَرَيَاتٌ عَلَىٰ عَائِشَةَ بِنْتِ طَلْحَةَ :

* هناكَ بعضُ الأخبارِ في حياةِ عائشةَ تستحقُّ الوقوفَ والتَّمحيصَ ، حيثُ يَكْتَنِفُها الزَّيفُ والافتراءُ والصَّنْعَةُ والوضْعُ ، كما تكتنفُها الأهواءُ والنُّقولُ غيرُ الصَّحيحةِ؛ وخصوصاً بَعْدَ أنْ تزوَّجَتْ عائشةَ من مُصعبَ بنِ الزَّبير ، وعندها تبدأُ رحلةُ الأخبار الضَّبابيةِ ، والقَصَص الشَّائِكةِ التي نُسِجَتْ حولَ عائشةَ ، والأحداثِ والوقائعِ التي أُلْصِقَتْ بسيرتها؛ فقد وجَدْنا بعضَ الأخبارِ المسمومةِ في المصادرِ قديمها وحديثها .

* والآن؛ دعني أسْمِعُك ما قالَ عمرُ رضا كحالة ـ من المحدثين ـ في

= ـ على الرغم من أنّه قَتَلَ مصعباً ـ يقول عنه : هذا سيّدُ شبابِ قريش . وقال : لو علمَ مُصعب أنَّ الماء يُفْسِدُ مروءته لمَا شَربه حتى يموت عطشاً . (نهاية الأرب ٢١/١٢٦) .

(١) عندما تزوَّجَ مُصعبُ عائشةَ ، أرسلُ أنسُ بنُ زنيم الدّيلي بضعةَ أبياتٍ لأخيهِ عبدِ اللهِ ابنِ الزّبير ومنها :

أبَلِغ أميرَ المؤمنينَ رسَالةً ... مِنْ ناصحٍ لكَ لا يُريدُ خِدَاعَا
بضْعُ الفتاةِ بألفِ ألفٍ كاملٍ ... وتَبيتُ حرّاسُ الثَّغورِ جياعَا

وقد تناهىٰ النَّاسُ في الصَّدقات ـ مهور النّساء ـ حتّى بلغَ صداقَ المراةِ أَلْفَ أَلفٍ ، وبذلك أشارَ أنسُ بنُ زنيم إلى هذا . واستدعىٰ عبد الله أخاه مُصعباً ، وأقْسَم عليه ألاّ ينزلَ بمكةَ ولا بالمدينةِ ، وأنْ يكونَ نزولَه بالبيداءِ ، ـ أرضٌ مَلْساء بين مكةَ والمدينةِ أقربُ إلى مكة ـ فصارَ إليهِ مُصعب فترضّاه ، فقالَ لهُ عبد الله : ويحكَ يا مُصعب ، أرأيتَ مَنْ صنع ما صَنَعْت؟ أتعمدُ إلىٰ مالِ اللهِ فَتمهُر منه عائشة أَلْفَ أَلفٍ؟ أتُراك تغرفُ منْ بَحْرٍ؟ فاعتذرَ إليه مُصعب ، وقالَ : قد كانَ ما كانَ ، فتغافلَ عنه ، وعادَ مُصعب إلى عمَله ، وكانَ مُصعبُ أجودَ آلِ الزّبير . (تحفة العروس ص ٩٧) باختصار؛ نقلاً عن الأغاني (١١/ ١٧٣) وانظر : المعارف ص ٢٣٣) ، و(نوادر المخطوطات : ١/ ٧٠) .

مُفَتتح ترجمتها: منْ أَنْدرِ نساءِ عَصْرِها حُسْناً وجَمالاً وهيئةً ومتانةً وعفّةً وأدباً ، كانت لا تحتجبُ منَ الرِّجالِ ، فتجلسُ وتأذنُ لهم بالدُّخولِ عليها[١] .

* وجاءتْ بعضُ أمّاتِ المصادرِ الأدبيّة القديمةِ ، لتفتريَ هذه الفِريةَ الظَّالمةَ علىٰ عائشةَ بنتِ طلحة فقالت: كانتْ عائشةُ بنتُ طلحةَ لا تسترُ وجْهَها منْ أحدٍ ، فعاتَبها مصعبُ بنُ الزُّبير في ذلك ، فقالتْ: إنَّ اللهَ تباركَ وتعالىٰ وسَمني بميسمِ جمالٍ أَحببتُ أنْ يراهُ النَّاسَ ، ويعرفُوا فَضلي عليهم ، فما كنتُ لأسْتُرهُ[٢] ، واللهِ ما فيَّ وصمةٌ يقْدِرُ أَحَدٌ أنْ يذكُرَني بها أحدٌ؛ وطالَتْ مراجعةُ مُصعب إيّاها في ذلك[٣] .

* وهذا الكلامَ الخطيرُ المنسوبُ لعائشةَ بنتِ طلحة ـ رحمها الله ـ قولٌ مفتعلٌ مختلقٌ ، ظاهرُ الوضْعِ والتكلُّف؛ ونحنُ نتذكّرُ أنَّ هذه السَّيِّدةَ العظيمة قد تربَّتْ في البيتِ النَّبوي ، وصُنِعَتْ علىٰ عينِ خالتِها عائشةَ أمّ المؤمنين ، فهل يُعْقل أنْ تكشفَ عن وجهها[٤] ، وتظهرَ بجمالِها الآسِرِ للناس ، وفيهم

---

(١) أعلام النّساء (٣/ ١٣٧) ، ولاحظْ عبارة لا تحتجبُ منَ الرِّجال!!! وهي صاحبةُ الدِّين والفِقه والعلم والأدب والعفّة! .

(٢) هذه مقولة الأصبهاني ، إذْ يروي أنَّ عائشةَ بنتَ طلحة كانت تسْفِرُ ولا تسترُ وجهها من أحَدٍ. (الأغاني ١٠/ ٥٤). وقال عن غيرها: وكانتْ كذلك عمرةُ الجمحيّة صاحبةَ أبي دَهْبلَ الشَّاعر المعروف لا تستر وجهَها منْ أحد. (الأغاني ٧/ ١٣٥).

(٣) انظر: زهرَ الآداب (١/ ٢٥٧)، ونهايةَ الأرب (٤/ ٢٨٩)، والدّرّ المنثور (ص ٢٨٣)، والغيث المسجم (١/ ١١٤ ، ١١٥) ، ودولة النّساء (ص ٢٩ ، ٣٠) وغيرها. وقد عقَّبَ الدكتور جبرائيل جبور على هذا الخبرِ القميء بقوله: وكانتْ عائشةُ كالكثيراتِ منْ بناتِ الأشراف في بناتِ العَصْر تتمتَّعُ بقسطٍ منَ الحريةِ الاجتماعيّة، وتميلُ إلى الدَّعابةِ والمزاحِ والعَبَثِ البريء. وقد زادَ الدكتورجبرائيل الطِّينَ بلَّةً ، فَمَنْ قال له: إنَّ بناتِ الأشراف كُنَّ علىٰ تلكم الشّاكلة؟! إنَّ قولَه إفْكٌ مفترىٰ.

(٤) يؤكِّدُ عبّاسُ محمود العقّاد علىٰ عَدمِ سترِ عائشة بنتِ طلحةَ لوجهها ، ويعتبرُ أنَّ كلامَها المنسوبَ إليها قبسٌ من حجّة الدِّيْن والدُّنيا فيقول:
ولعلَّ عائشةَ بنت طلحةَ كانتْ مثلَ الشَّريفة في تلكَ الآونةِ: تُعطي حقَّ الحياء والدِّين ، وتعطي معه حقَّ النِّعمة والجمال ، فكانتْ تترفّع عن الرِّيبِ ، ولكنّها =

مَنْ فيهم منْ طيِّبٍ وخَبيثٍ؟ بل هل يَسْمَحُ لها زوجُها أميرُ العراقين وابنُ الصَّحابي الحواري أنْ تكشفَ عن وجهها في ذلكَ العَصْر الخيِّر المباركِ؟!

* لقد بلغَ منَ الوضَّاعين الاستخفاف بالنَّاس بأَنَّ رووا أمثالَ هذهِ الأخبار[1] ، بل نَسبُوا ذلك لعائشة وسُكينةَ وغيرهما من فضْلياتِ بناتِ الصَّحابةِ الطَّاهراتِ البريئاتِ القانتاتِ الحافِظاتِ!!.

* ومما يزيدُ الأَمْرَ تشويهاً ، والطِّيْنَ بلَّةً ، بل أَلْفَ بلَّة وبلَّة ، ما زعمه الوضَّاعون ، وافتراهُ الأفّاكون ، ولاكَهُ المرجفُون بأنَّ سيّدنا عمر بن الخطّاب ـ رضي الله عنه ـ كانَ إذا رأىٰ امرأةً مُتَنَقِّبةً ـ واضعةً نِقاباً ـ قال لها : أَسْفري نقابَك ، فإنْ رآها حَسَنةً أمرها أنْ تنتقبَ ، وإنْ رآها قبيحةً منعَها من النِّقاب[2]!!!.

= لا تسترُ وجهَها عن أَحد.
وإذا عاتَبها زوجُها في ذلك قالتْ وفي كلامها قَبَسٌ من حُجَّةِ الدِّين ، وحجّة الدُّنيا : إنَّ اللهَ وسَمَني بميسمِ جمالٍ أحببتُ أنْ يراهُ النَّاس ويعرفوا فَضْلَه عليهم ، فما كنتُ لأستره ، وواللهِ ما فيَّ وصمةٌ يقدرُ أنْ يذكرني بها أحَدٌ. (شاعر الغزل ص ٣٠).
ـ والحقيقة : لا ندري ما حُجَّة الدِّين عندَ الأستاذِ العقاد في كَشْف جمالِ المرأة أو محاسنها أو وجهها أمام النّاس ، وخصوصاً من مثل السّيدة عائشة بنت طلحة؟!!

(١) ومن أمثلةِ ذلك أنَّ الأصبهاني بَعْدَ أن ذكرَ أنَّ عائشةَ بنتَ طلحة لا تسترُ وجهها قال عنها وعن نساءِ بني تيم : وكانتْ شرسةَ الخُلُق ، وكذلك نساء بني تَيْم ، هنّ أشرسُ خَلْق اللهِ وأحظاهُ عنْدَ أزواجهنَّ.
وكانتْ عند الحَسَنِ بنِ عليّ أمُّ إسحاقَ بنتُ طلحة ، فكان يقول : واللهِ لربما حَمَلت ووضعت وهي مصارمةٌ ـ مقاطعةٌ ـ لي لا تكلمُني. (الأغاني ١١/ ١٨٠).
وفي الحقيقة فإنَّ هذا الكلامَ خطيرٌ جدّاً ، وفيه خُبْثٌ عظيمٌ ، وكَيْدٌ شديدٌ ، فكلُّنا يَعْلَمُ أنَّ أُمَّنا عائشةَ بنتَ الصِّدِّيق ـ رضي الله عنها ـ منْ بني تَيْم ، وهي زوجُ سيِّدنا وحبيبنا رسولِ الله ﷺ ، فكيفَ نَقْبَلُ مثلَ هذه الأقوال؟! والله المستعان.

(٢) انظر : تحفة العروس للتِّجاني (ص ٢٤٨). ودولة النِّساء للبرقوقي (ص ٣٠).
وأنشدَ الزُّبيرُ بنُ بكَّار :
لَيْتَ النِّقابَ علىٰ النِّساءِ محرَّمٌ كَيْلا تَغُرَّ قَبيحةٌ بنقَابِها
ومن العجيبِ أنَّ ما نُسب لسيدنا عمر إحدىٰ العجائب والدَّواهي! فالله المُستعان.

* والآن ، قُلْ لي بربِّك بأيِّ ميزانٍ وَزَنَ هذا الوضَّاع الأفّاك هذا الخبرَ عن سيّدنا عمر ـ رضوان الله عليه ـ؟ بلْ ما الميزانُ الذي وزَنَ به عمرُ جَمال النِّساء ـ كما زعموا ـ؟ وهل يُعْقَل أنْ يأمرَ عمرَ المرأةَ المحجَّبة أنْ تكشفَ عن وجهِها ليعرفَ مدىٰ جَمالها؟! اللهُ أكبرُ ، ما هذا الافتراءُ وهذا البهتان!؟!.

فِرْيَــةٌ أُخْـرَىٰ عَظيْـمَـةٌ عَلَـىٰ عَائِشَـةَ وَمُصْعَـبَ والشَّعبـيِّ :

* منَ العجيبِ في سيرةِ السَّيِّدة عائشةَ بنتِ طلحة ـ رحمها الله ـ ما حِيْكَ حولَها منْ أباطيل ومناكيرَ وموضوعاتٍ ، فلم تَسْلَمْ عائشةُ وحَدْهَا من ذلك ، وإنَّما زجَّوا في أكاذيبهم زوجَها مُصعباً والشَّعبي كذلك.

* ففي قصةٍ أدهىٰ وأمرّ ـ مما مرَّ معنا ـ زعمَ الرُّواةُ بأنَّ مصعبَ بنَ الزُّبير قد دعا الشَّعبيَّ ـ من أئمة التَّابعين وساداتهم ـ وهو في قبّةٍ له مجللة بالوشي ، معه فيها امرأتُه ، فقال: ياشعبيُّ ، مَنْ معي في هذه القُبَّة؟

فقال: لا أعلمُ أصْلَحَ الله الأمير!

فرفعَ السَّجْفَ ، فإذا هو بعائشةَ بنتِ طلحة.

* والشَّعبيُّ فقيهُ أهلِ العراقِ وعالمهم ، ولم يكنْ يستحلُّ أنْ ينظرَ إنْ كانَ النَّـظَرُ حَراماً[1].

* وتروىٰ هذه القِصَّة على نحوٍ أكثـر تفصيلاً ، وأشدّ تنكيلاً ، وفيها إساءةٌ للشَّعبي ولعائشةَ ولمصعب ، فقد زعما أنَّ الشَّعبي قال: إنّي لفي المسجد نصْفَ النَّهار ، إذا سمعتُ بابَ القَصْرِ يُفْتَح ، فإذا بمصعب بنِ الزُّبير ، ومعه جماعةٌ ، فقال: يا شعبيّ ، اتْبَعْني ، فاتَّبعتُه ، فأتىٰ دارَ موسىٰ بن طلحة[2] ،

---

(١) انظر: رسائل الحاجط (٢/ ١٥٤) ، ومتى كان الجاحظُ مفتياً؟!

(٢) موسىٰ بنُ طلحةَ بنِ عبيد الله التيمي أخو عائشةَ ، تابعيٌّ ، منْ أفصحِ أهل عصره ، كان أفضلَ أخوته بعد محمّد ، وكان يُسمّى المهدي لفضله ، سكنَ الكوفة ، وكان ثقةً جليلاً كثيرَ الحديث ، يُقال إنَّه وُلِدَ في عَهْد النّبي ﷺ مات سنة (١٠٣هـ) على =

فدخلَ مقصورةً ، ثمَّ دخلَ أخرى ، ثمَّ قالَ: يا شعبيُّ اتْبعني ، فاتَّبعتُه ، فإذا امرأةٌ جالسةٌ ، عليها منَ الحُلِي والجواهرِ مالم أرَ مثْلَه ، ولهي أحسنُ منَ الحليّ الذي عليها ، فقال: يا شعبيُّ ، هل تعرفُ هذه؟

فقلتُ: نعم أصْلحَ اللهُ الأميرَ.

قال: ومَنْ هي؟

قلتُ: سّيدة نساءِ المُسلمين عائشةُ بنتُ طلحة.

قال: لا ولكنْ هذه ليلىٰ التي يقولُ فيها الشَّاعر:

ومَا زِلْتُ منْ لَيلىٰ لَدُنْ طرَّ شَاربي ... إلىٰ اليومِ أُخْفِي حُبُّها وأُداجِنُ
وأحملُ في ليلىٰ لقومٍ ضَغِينَةً ... وتُحْمَلُ في ليلىٰ عليَّ الضَّغَائِنُ

ثمَّ قالَ: إذا شئتَ فَقُمْ.

فقالت له عائشةُ: أَمَّا إذْ جَلَوتَني عليه ، فأَحْسِنْ إليه!

فقالَ: يا شعبيُّ ، روح العشيةَ إلى المسجدِ؛ فرحتُ.

فقالَ: يا شعبيُّ ، ما ينبغي لمن جُلَيتُ عليه عائشةُ بنتُ طلحةَ أنْ ينفضَّ عنْ عشرةِ آلافِ ، فأمرَ لي بها وبكسوةٍ ، وقارورة غالية ، ثمّ التفتَ إلى كاتبهِ ابن أبي فروة ، وأمَرَهُ أنْ يدفعَ لي المالَ والثّيابَ ، ثم قال: أفتدري يا شعبيُّ لِمَ أَدْخَلْنَاك؟

قلتُ: لا.

قال: لتحدِّثَ بما رأيتَ.

فقيلَ للشَّعبي في ذلك اليوم: كيفَ الحال؟

قال: وكيفَ حالَ مَنْ صَدَرَ عنِ الأميرِ ببدرةٍ ، وكسوةٍ ، وقارورة غاليةٍ ،

= الصَّحيح. (تقريب التهذيب ٢/ ٦١٠) و(شذرات الذهب ٢/ ٢١) مع الجمع والتصرف.

ورؤيةِ وجْهِ عائشةَ بنتِ طلحة[1]. ؟!!!.

* وزادتْ بعضُ الكتبِ الطِّينَ بلَّة، فقالَتْ: إنَّ مُصْعباً بَعْدَ أنْ تمثَّل بالبيتَيْن السَّابقين: «وما زلت منْ ليلىٰ لدنْ طرّ شاربي....» ثمَّ قالَ للشَّعبي: يا شعبيُّ! إنّها اشتهتْ عَليَّ حديثك، فحادِثْها، وخرجَ، وتَرَكَنَا، قالَ ـ الشَّعبيُّ ـ: فجعلتُ أنْشِدُها وتنشدني، وأحادثُها وتحادثني حتّى أنشدتُها قولَ ابنِ ذريح:

أَلا يا غُرابَ البَيْنِ قَدْ طِرْتُ بالذي أحَاذِرُ مِنْ لبنىٰ فَهَلْ أَنْتَ واقِعُ

أتبكِي علىٰ لبنىٰ وأنتَ قَتَلْتَهَا وقَدْ هَلكَتْ لُبْنَىٰ فَمَا أنْتَ صَانِعُ

قالَ: فلَقَدْ رأيتُها وفي يدِها غرابٌ تَنْتُفُ ريشَه، وتضربُه بقضيبٍ وتقولُ له: يا مشْؤُوم[2].

* وهذهِ القصَّةُ العجيبةُ الممزقةُ مشهورةٌ في كُتُبِ الأَخْبار والأَدَب والأَسْمار، وفي بعضِ كُتُبِ التَّراجِم؛ ومنَ العَجيب أنّي لَم أرَ ـ في حدودِ

---

(١) عن العقد الفريد (٧/ ١٠٢ و١٠٣) بتحقيق العريان، وأعلام النساء (٣/ ١٤٣ و١٤٤) مع الجمع بينهما وانظر: نوادر المخطوطات (١/ ٧١) وتاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء ص ٢١٣ ـ ٢١٥)، ودولة النساء (ص ٢٦ ـ ٢٧)، والدر المنثور (ص ٢٩١)، وكل ذلك نقلاً عن الأغاني (٢/ ٣٧٣ و٣٧٤)؛ وانظر أيضاً القصة في: الحدائق الغناء في أخبار النساء (ص ٦٢ و٦٣).

(٢) انظر: الجليس الصَّالح الكافي (٢/ ١٣٨)، ومصارع العشّاق (٢/ ١٦٤)، وتاريخ دمشق (تراجم النساء ص ٢١٦)؛ والحدائق الغناء في أخبار النساء (ص ٦٣ و٦٤).
وممّا يجعلنا في شَكٍّ منْ بعضِ هذه الأَخبار التي وَرَدتْنا عنْ عائشةَ بنتِ طلحةَ هذا الخبر الذي يدعو إلى العجب؛ فقد جاءَ في تاريخ مدينةِ دمشقَ عن أنسِ بنِ مالك قال: دخلتُ علىٰ عائشةَ بنتِ طلحةَ في حاجةٍ، فقلتُ: إنَّ القومَ يريدون أنْ يدخُلوا إليكِ فينظروا إلى حُسْنِك!!.
قالت: أفلا قُلْتَ لي فألبسُ ثيابي؟!
وكانتْ منْ أَحْسنِ النَّاس في زمانها. (تاريخ مدينة دمشق تراجم النساء ص ٢١٠).
وليَضَعِ القارئُ هذا الخبرَ في الميزان الصَّحيح؟ فهل يُصَدِّقُ ذلك؟!

اطلاعي ـ مَنْ علّقَ عليها ، أو أبانَ زَيْفَها وكذبَها وصنعتَها ، بل لم أجِدْ من انتقدَهَا ، فلذلك كانتْ ميداناً خَصْباً يمرحُ فيه أهلُ الأهواءِ قديماً وحديثاً[1] ، مع العِلْم أنَّ في هذه القصّة إساءةً واضحةً إلىٰ هؤلاءِ الثَّلاثةِ الأعلام الكِبارِ: الشَّعبي ، ومُصْعَب ، وعائِشَة.

* فالشَّعبيُّ: واسمهُ عامرُ بنُ شَراحيل ، كوفيٌّ تابعيٌّ وافرُ العِلْمِ ، ثقةٌ مشهورٌ فقيهٌ فاضل ، أدركَ خَمْسَمئةٍ منْ أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ ، وتوفي سنة (١٠٤هـ) ـ رحمه الله ـ.

* ومُصْعَبُ بنُ الزُّبير تابعيٌّ وابنُ صحابي جليلِ القَدْرِ ، جليلِ المقامِ عندَ رسول اللهِ ﷺ ، فهو ابنُ عمّته صفيّةَ وحواريُّه وفارسُه وأحدُ العَشرة المبشّرين بالجنَّة.

* وعائشةُ تابعيّـةٌ جليلةُ القَدْرِ ، راوية للحديثِ الشَّريفِ ، تلاّءَةٌ لكتابِ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ.

---

(١) منَ العجيبِ أنّني وجَدْتُ «جان فاديه» يتناولُ هذه القصّةَ مع البيتَين تناولاً خبيثاً فيقولُ: ولا تعدمُ المرأةُ الشَّريفةُ وسيلةً لفَرْضِ ذوقها ، حتى لو لمْ يتكاملِ المجلسُ حَوْلَها ، وكانتْ متضايقةً منْ بعضِ آداب اللياقة ، ولعلَّ ذلك ثأراً للخيال مِنَ الواقعِ. إنَّها أحياناً ذاتُ ذهْنٍ حَالمٍ ، توّاقةٌ إلىٰ أنْ تَجِدَ في أشعارِ الشُّعراء المعاصِرين انعكاساً لوجودِها ، وتمجيداً لجمَالها ، أو عزاءً لخيباتها.
رويَ أنَّ عائشةَ بنتَ طلحة قالت للغَريض: إنْ أنتَ غنيتني صوتاً في نفسي فَلَكَ كذا وكذا ، قال: فغنّاها في شعر كثير:
وما زلتُ منْ ليلىٰ لَدُنْ طرَّ شَاربي ... إلىٰ اليومِ أُخْفِي حبَّها وأُداجِنُ
وأحملُ في ليلىٰ لقومٍ ضغينةً ... وتُحْمَلُ في ليلىٰ عليَّ الضَّغائِنُ
فقالتْ له: ما عَدوت ما في نَفسي. (الغَزلُ عند العرب ١/ ١١٩).
ويتابعُ «جان فاديه» هذه المهزلة بقوله: وقد يكونُ القَصْدُ أحياناً شعورُها بجمالِها ، وفخرُها بِسَحقِ منافِسَاتِها ، وزهوها بكونها أَحْسَنَ منهنّ ، ومحبوبةً أكثر منْ سواها ، أو أنْ يكونُوا عشّاقاً عذريّين لا تعرفُ اسمَ أحدِهم. (المرجع السّابق ١/ ١٢٠).

* وأبوها كذلك أحدُ فُرسانِ مدرسةِ النُّبّوة ، وأحدُ العشرة المبشّرين بالجنَّةِ منْ قريش ، منْ أصحابِ النّبي ﷺ ، ونشأتْ عائشةُ وتربَّتْ في أَطْهَرِ بيتٍ في دُنيا الطَّهارَة والعِلْمِ والقَداسَةِ ، وفي مهبطِ الوحي بيتِ أمِّنا الصِّدِّيقةِ ابنةِ الصِّدِّيقِ عائشةَ ـ رضي الله عنها وعن أبيها ـ.

* إذاً فهلْ يُعْقَلُ أنْ يكونَ هذا الثُّلاثي الموقَّر: الشَّعبيُّ ، ومُصعبُ وعائشةُ منَ المستهترين؟! وهل نتصوَّرُ أنَّ خرِّيجَةَ بيتِ النّبوة تُجْلَىٰ أمامَ الشَّعبي في الدَّيباجِ والحُلي والحُلل وكاملِ الزّينة بموافقةِ ورَضا زوجها مُصعب!؟ وهل يخالفُ هؤلاء الأعلامُ الأَخْيارُ أمْرَ العزيز القهّار في إسدالِ الحجابِ؟! بل وإظهارِ التّبرُّج؟! ومن ثمَّ يتركُها مصعبٌ زوجُها وحيدَيْن لا ثالثَ لهما ، ثمّ يخرجُ كيما يتناشدَا الأشعارَ ، ويتحدّثا برقائقِ الأَخْبار؟!

* إنَّ هـذا الخبـرَ وأمثـالَـه[1] ، لا يُـوزَنُ بميـزانِ العَقْـلِ أو المنطـقِ ، ولا العُرف ، ناهيك بالدِّينِ الإسلاميّ الحنيفِ الذي يدعُو إلىٰ العِفَّةِ والطَّهارَة ، والبُعد عن الرِّيبة ، بل وما يدعو إلىٰ الرِّيبَةِ والشَّك ، كما ينهىٰ عن التَّبرُّج ، فكيفَ بالتَّبرُّجِ المَقْصُود ـ كما زعمَ الزَّاعمون ـ؟! .

* ثمَّ لماذا اختارَ أولئك المغرمونَ بنَسْجِ الأكاذيبِ والأخبار السَّقيمة بناتِ الصَّحابةِ الطَّاهرات كيما يُلَفِّقُوا القَصَصَ حَوْلَهنّ؟! فزعموا أنَّ سُكينةَ بنت الحسين كانت تُسَاجِل الشُّعراء ، وتناضلُ الأُدباء والبُرعَاء ، ولها مجلسٌ ،

---

(١) يروي ابنُ عَسَاكر خبراً غريباً عن عدم احتجابِ عائشة من الرِّجال ، بسندٍ رفَعه إلى ابن إسحاقَ عن أبيهِ قال: دخلتُ علىٰ عائشةَ بنتَ طِلحة ، وكانت لا تحتجبُ منَ الرِّجال ، تجلسُ وتأذن كما يأذنُ الرَّجلُ ، فلقد رأيتُني دخلتُ عليها وهي متكئةٌ ، ولو أنَّ بعيراً أُنيخَ وراءَها ما رُئي.
(تاريخ مدينة دمشق تراجم النّساء ص ٢١٣) ، وهذا الخبر القميء واضحُ الغربة ، وأيّ ناحيةٍ جماليةٍ إذا كانتِ المرأةُ يختفي وراءَها البعيرُ ولا يُرىٰ لِعِظَم جثّتها ، بل كيفَ يدخلَ عليها رجلٌ وهي متكئة؟ سبحان الله عمّا يفترون!! وقد نقل هذا الخبر المعافري في الحدائق الغناء (ص٦١).

بل منتدىً أدبيٌّ يجتمعُ فيه عندها فحولُ شُعَراءِ عَصْرِها ومصْرِها ، فتعطي هذا ، وترفعُ هذا ، تخفضُ منْ قيمةِ هذا ، وتَفْصِلُ بينَ هذا و هذا ، وتفضِّلُ هذا عن ذاك؟! وتسمعُ منَ القَصصِ مالا يتوافَقُ مع أقل النّساء ، ويزعمون أَنَّها تحبُّ ذلك؟!

* وزعموا كذلكَ أنَّ لُبابةَ بنتَ عبد الله بنِ عبّاس كانتْ تكشفُ عن وجِهها ، فرآها عمرُ بنُ أبي ربيعة ، فرآها أحسنَ خَلْقِ اللهِ ، فكادَ عقْلُه أنْ يذهبَ ، وهامَ بها ، وشُغِفَ بذلكِ الجمالِ الآسرِ السَّاحرِ المؤثّرِ في الألبابِ والعُقولِ.

* وزعموا كذلك ، بل جَعلُوا وأوجدوا شخصيةً باسم سُعْدى[1] بنت عبد الرحمن بنِ عوف ـ أحد العشرة المبّشرين بالجنَّة ـ لها صلةٌ بعمرَ بن أبي ربيعة أيضاً ، وقد طلَبتْ لقاءهَ بعد فراغِه منْ طوافِهِ حولَ الكعبةِ ، فأتَاها وحادثَها وأنْشَدها شيئاً من شِعْره ، ثمَّ أمرته بتقوىٰ اللهِ تعالى؟!

* وزعموا كذلك أنَّ عَدداً منْ فواضلِ النِّساء التَّابعيات كُنَّ يُغَازِلْنَ ويُغَازَلْنَ ، ويطلبنَ منَ الشُّعراء والفُسَّاق أنْ يَقُلْنَ فيهنَّ الغزلَ ، ليشتهرنَ في عالم الحجاز ، بل في عالم الدُّنيا عَصْرَ ذاك ، وما ذاكَ فيما زعموا إلا ليُرضيْنَ غرورهنَّ ـ ويذكرُ الوضّاعون عَدداً منْ أولئكَ النِّسوةِ الشَّريفاتِ العفيفاتِ ومنهنّ: الثُّريَا بنتُ علي ، كذلك رملةُ بنتُ مروانَ أختُ عبدِ الملك بن مروانَ ، وليلىٰ بنتُ الحارث المريّة ، وامرأةُ أبي الأَسْود الدُّؤلي ، والمُلاءةُ بنتَ زرارة بنِ أوفى الجُرشي الفقيه المُحدّث من جِلّة التّابعين ، وهندُ بنتُ الحارث المريّة ، وزينبُ بنتُ موسى الجُمحية ، وميسونُ بنتُ بَحدل الكلبيّة زوجُ سيّدنا معاوية ـ رضي الله عنه ـ ونائلةُ بنتُ الفرافصة زوج سيّدنا عثمان

---

(١) اقرأْ ما افتراهُ الرُّواة ، ووضَعه الكذّابُون عن سُعدى المزعومة في هذه الموسوعة ، وقد أثْبَتنا أنّها شخصيةٌ مخترعةٌ لا وُجُودَ لها ، وكذلك عاتكةُ بنتُ معاوية بن أبي سفيان.

ـ رضي الله عنه ـ ، وفاطمةُ بنتُ محمّد بنِ الأشعثِ الكندية ، وغيرهن كثيرات عشْنَ في كَنَفِ الصَّحابة ، وأخريات عشْنَ في كَنَفِ الملوكِ والأمراءِ ، وكُنَّ مثالَ العِفّةِ والأخلاقِ؛ وممن نسُجوا حولها سِياجاً منَ الأكاذيبِ ، ومن أحاديثِ العشْقِ والغَرامِ والحُبِّ والهُيامِ: أمّ البنين[1] بنت عبد العزيز بنِ مروان أختُ عمرَ بنِ عبد العزيز ، وفاطمةُ بنتُ عبد الملك زوج عمرَ بنِ عبد العزيز ، وزبيدةُ بنتُ جعفر زوجُ هارونَ الرّشيد[2] ، وكلُّ هؤلاءِ الفُضْليات منْ أعلامِ النِّساء في تواريخهنَّ ، وفي دنياهنَّ ، وممن شَهِدَ لهنَّ أهْلُ الفَضْلِ بالفَضْلِ.

* وأستميحُ القارىءَ الكريمَ عُذْراً ، فقد جَمَحَ بي عنانُ القَلَمِ ، ولكنّي أحببتُ أنْ أضَعَ يَدَ القارىءِ وعينَه علىٰ مواطنِ الدَّاءِ في أخبارِ نسائِنا الفُضْليات ، وكيفَ هامَ المغرضون ، وتفنَّنُوا في الإساءةِ إليهنَّ ، ليجعلُوا منهنَّ أحدوثةً سيئةَ السُّمعة[3] ، كيما ينتشرَ الفَسَادُ في فضلياتٍ أخرياتٍ جئن

---

(١) اقرأْ سيرةَ أمِّ البنين بنت عبد العزيز في موسوعتنا «نساء من التّاريخ» (ص ٩٧ ـ ١٤١) ، وانظرْ ردَّنا على أولئك الخرّاصين المفترين.

(٢) اقرأ سيرةَ زبيدة بنت جعفر في موسوعتنا «نساء من التّاريخ» (ص ٢٩٩ ـ ٣٤٤) ، فهي بحقّ سيدة نساء الخلفاء من بني العبّاس ، واقرأ أعمالها في الحرمين الشّريفين والتي يعجزُ عنها فحول الرِّجال الأغنياء.

(٣) أودُّ أَنْ أتركَ القارىءَ الكريمَ مع هذه القِصَّةِ القصيرةِ التي لا تَقْبلُها العقولُ ، ولا تتذوّقها النّفوس ، وليلاحظ القارىء الكريم إلى مضمونها ، إذْ خَرطُ القَتَاد أَسهلُ منْ فِريتِها علىٰ أفْضَلِ امرأتَيْن في ذلكَ العَصْرِ ، وهما منْ بنَاتِ أكابرِ الصَّحابةِ وأشرافِهن ، بل إنَّ إحداهن من نساءِ أهْل البيتِ النَّبوي الذي أذْهبَ اللهُ عنْه الرِّجسَ وطهَّره تطهيراً.

قالَ أبو الفرج الأصبهاني:

قالتْ سُكينةُ بنتُ الحُسين يوماً لعائشةَ بنتِ طلحةَ: أنا أجملُ مِنْكِ.

فاخْتصمتا إلى عمرَ بنِ أبي ربيعة ، فقال: لأَقْضِينَّ بينكما.

أمّا أنتِ يا سُكينةُ فأَمْلَح.

وأمّا أنتِ يا عائشة فأجملُ وأحلىٰ. =

بعدهنَّ ، ومنْ ثمَّ يزعمنَ بأنَّ سابقاتِهنَّ كُنَّ مبتذلاتٍ مستهتراتٍ ، ولكنَّ هذا كلَّه ليسَ بِخَافٍ علىٰ ذوي البَصَائر والتَّمييز ، وأرجو اللهَ ـ عزَّ وجلَّ ـ أنْ يلهمني الصَّوابَ ، وأنْ يمدَّني بعونٍ منْ عندهِ ، لأعرضَ الصُّورَ الصَّحيحة لأولئك الفُضْليات في تاريخِنا الوضيءِ الزَّاهرِ.

عَـائِشَـــةُ وَمُصْـعَـبُ وَأَخـبـارٌ طَـريفَــةٌ:

* لا تخلو كُتُبُ الأَدَبِ والأخبارِ من بعضِ القَصَص الطَّريفةِ الظَّريفة ، ومنها قَصَصٌ عنْ مصعبَ وعائشةَ ، تحملُ في أَرْدَانِها طرافةً ودقّةً وخفَّةَ ظلٍّ. ـ وإنْ كانتْ ضعيفةَ الحبكةِ نشكُّ فيها ـ.

* روىٰ الهيثمُ بنُ عدي[1] هذهِ الطُّرفةَ فقال: دخلَ مصعبُ بنُ الزُّبير على عائشةَ بنتِ طلحة ، وهي تمتشطُ ، فتمثّل بقول جميل بثينة:

= قال: فقالتْ سكينةُ: قضيتَ لي واللهِ عليها. (تحفة العروس ص ٢٥ نقلاً عن الأغاني ١٦/ ١٠٠).

ولاحظ عزيزي القَارىء ، بل تصوَّر أنَّ سُكينةَ بنتَ الحسين ، وعائشةَ بنتَ طلحة قد كَشَفَتا عنْ محاسنِهما أمامَ عمرَ بنِ أبي ربيعة ليحكمُ لهما أو بينهما ، وعمرُ أجنبيٌّ عنهما ، معروفٌ في مجتمعهِ بمجاهرتهِ في وصْفِ النّساء والكذبِ عليهن ، وعلى ألسنتِهن ، واختلاقِ الأحداثِ والقَصَص وما شابَه ذلك.

ولو كان الخبرُ يقولُ: إنَّ امرأةً تحكمُ بينَ سُكينة وعائشة لكان أَسْهلَ ، ولكنْ هكذا طابَ للوضّاعين أنْ يثقلُوا كاهل كُتبِ الأَخْبار بهذه الأخبار الشَّائهة والمشينة التي تسيءُ إلى بناتِ الصَّحابةِ ونساءِ الأعلام ، في عَصْرِ مَشْرِقِ الرسالة ، وفتوحات الإسلامِ ، وخيرِ القرون.

(١) الهيثمُ بن عدي بنِ عبد الرحمن الطَّائي الكوفيّ ، كان راويةً أخبارياً ، نَقَلِ منْ كلامِ العرب وعلومِها وأشعارها ولغاتِها الكثيرَ ، وله عددٌ منَ الكُتبِ المصنَّفةِ المشهورةِ ، واختصَّ بمجالسة المنصور والمهدي والهادي والرّشيد وروىٰ عنهم ، وروى عن مُجالدِ ، وابن إسحاقَ وجماعةٍ ، وهو متروكُ الحديثِ ، وقال أبو داود السّجستاني: كذَّاب. توفيَ سنةَ (٢٠٧هـ) ، (وفيات الأعيان ٦/ ١٠٦ ـ ١١٤) و(شذرات الذّهب ٣/ ٣٩) مع الجمع والاختصار والتصرف.

ما أَنْسَ لا أَنْسَ منها نظرةً سَلَفَت بـالحجْـرِ لمّـا جَلَتْهَـا أمُّ مَنْظُـورِ
لا انْسِـلابتَهـا خـرسـاً جَبَـائِـرهـا إلـيَّ مـن سَـاقِـطِ الأَوراقِ مستـورِ

* فقيلَ لمصعب: إنَّ أمَّ منظور[1] ها هنا امرأةٌ كانتْ عجوزاً منْ قبيلةِ عذرة، وهي ما تزالُ حيَّة تُرزقُ، فاستدعىٰ بها، فَحُملَتْ إليه مكرّمة، فقالَ لها: أخبريني عن قولِ جميل: «ما أنْسَ لا أَنَس... إلخ» كيف كانت هذه الجَلْوة؟ وكيف كان جلاؤك لبثينة؟ فقالتْ أمَّ منظور: مَشَطتُ رأسَها، وضفرتُ شَعْرها، وجعلتُ فيه شيئاً من الخَلوق[2]، وألبستُها وشاحاً وقلادةً من بَلَح، ومرَّ بنا جميلُ راكباً ناقتَه، فجعلَ ينظرُ إليها بمؤخَّرِ عينهِ، ويلتفتُ إليها حتى غابَ عنها.

فقال لها مُصعب: فإنّي أقسمُ عليك يا أمَّ منظور، ألاّ جَلَوْتِ لي عائشةَ بنتَ طلحة، مثلما جلوتِ بُثينة.

ففعلتْ أمُّ منظور ذلك، وركبَ مُصْعَب ناقتَه، وأَقْبلَ عليها، وجعلَ ينظرُ إلىٰ عائشةَ بمؤخَّرِ عينه، ويسيرُ حتى غابَ عنها ثمَّ رجع[3].

---

(١) يبدو أنَّ أمَّ منظورِ هذه كانت امرأةً مرموقةً يُشَار إليها بالبنَان في عالَم النِّساء، إذْ كانتْ تُحْسِنُ جلوةَ النِّساء، تتقنُ تزيينهنَّ، وتَمشيطِ شُعورهنَّ، وإظهارهنَّ في صورةٍ فاتنةٍ تخلبُ أفئدةَ الرِّجال، وتستلبُ منهم العقولَ والألباب، وتشبهُ أمّ منظور «الكوافيرة» أو صاحبات صالونات تزيّين العرائس في عَصْرنا.
وكانتْ علىٰ ما يبدو ذات ذوقٍ رقيق، وإحساسٍ بالجمال، تَثِقُ بها نساءُ بني عذرة ورجالُها، لِمَا امتازتْ به من صِفَاتٍ تسرُّ الجميع.
ويبدو أنَّ أمَّ منظور قد جَلَتْ يوماً بثينة، فَبَدتْ رائعةَ الجمالِ، ساحرةَ الفتنة، وألْبَسْتها قلادةً منْ بلَحٍ، وضَفرتْ شعرَها، وجعَلَتْ في فِرقِها شيئاً من الطّيب العبقِ العَطر، فنُمَي الخَبرُ إلىٰ جميل بن معمر ـ وكانَ يتوقُ إلى رؤية بثينة ـ فتوسَّل إلى أمّ منظور ورجاهَا وألحفَ في الرجاءِ أنْ تريه بثينة، فأمرتْه أنْ يبتعدَ، فابتعدَ وركبَ ناقتَه ورآها من بعيد عندما انسلّتْ من خيمتها إلى خيمةٍ أخرى.
(٢) «الخلوق»: نوع من الطيب.
(٣) الأغاني (٨/ ١١٢)، وتاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء ص ٦٦)، والحدائق =

* وبهذا التَّصرُّف تحوَّلَ حُلْمُ مُصعبَ إلى حقيقةٍ ، واستطاعَ أنْ يتمثَّلَ بأبياتٍ جميلٍ مع زَوْجِهِ عائشة ـ هكذا أرادَ راوي هذا الخبر الهيثم بن عدي وهو كذَّاب ـ.

حِيْلَةٌ طَرِيفَةٌ لِدَفْنِ عَائِشَةَ بِالحَيَاةِ:

* تطْلعُ علينا كتبُ الأَدَبِ والأخبارِ بقصَّةٍ أخرىٰ طريفةٍ حدثَتْ لعائشةَ مع مُصعب ، ومغاضبتها إيّاه ، وتزعمُ القصَّةُ بأنَّ عائشةَ بنتَ طلحة كانتْ مثْلُ أكثر نِساء بني تَيْم معجبةً بنفسِها ، تيَّاهةً صعبةَ المراسِ ، ومن أشدِّ النَّاسِ مغايظةً لأَزْواجها ، وكان مُصعب منْ أشدِّ النَّاس إعجاباً بها وبجمالِها ، ولكنْ لم تكُنْ حياةُ عائشةَ عند مُصْعب كلّها هينةً مريةً ، فقد كان مُصعب مَلِكاً عظيماً ، ولم تكنْ عائشةُ سَلسَةُ القِيادِ ، ولكنّه يحاولُ أنْ يكسبَ رضَاها ، ووصفَها بأنّها سيّدةُ نساءِ المسلمين ، وغاضَبَتْه مرّة فلمْ تزلْ حالُها معه على مثْلِ ذلك حتّى شَكا ما بِهِ إلى كاتبهِ ابنِ أبي فروةَ ، ولم يستطعْ انتزاعَ غَضَبِها عليه إلا بالحيلةِ والتَّهديد والوعيد ، وبشيءٍ منَ التَّرهيب ثمَّ التَّرغيب.

* فلنعشْ أويقاتٍ حلوة من هذه القصّةِ الطَّريفة ، والحيلةِ اللطيفةِ التي عملها مصعبُ بالاتّفاقِ مع كاتِبهِ حتى استطاعَ أنْ يسلسَ قيادةَ عائشةَ ذات الدَّلِّ والدَّلالِ الكثيرِ والإعجابِ المفرط بنفسِها.

* تقولُ القصّةُ: زعَموا أنَّ مُصْعَبَ بنَ الزُّبير شَكا إلىٰ كاتبهِ عبدِ الله بنِ أبي فروة ، كثرةَ إعجابِ عائشةَ بنفسها ، لعلَّ هذا يَجِدُ له مخرجاً منْ هذا الضِّيقِ الذي يعتريهِ منْ مغايظتِها إيّاه ، وهجرانها له؛ فقال له ابنُ أبي فروة: أنَا

= الغناء (٦٥)؛ ويبدو أنَّ صيتَ هَذْين البيتَيْن لجميل قد ارتفعَ كثيراً ، وعلا علواً كبيراً ، حتى قال مصعبُ بنُ الزّبير: لوددتْ أني عرفتُ كيف جَلَتْها أمّ منظور. . . فاستدعىٰ بها كما رأينا وجَلَتها له. ومنَ الجدير بالذكر أنَّه كان لعائشةَ ماشطتها الخاصّة التي تعنى بطيبها وعطرها (الأغاني ١٠/ ٥٤ و٦٠).

أكفيكَ هذا إنْ أذنتَ لي. قال مصعبُ: نعم، افْعَل ما شئتَ، فإنّها أفْضَلُ شيءٍ نلْتُه منَ الدُّنيا.

فقال ابنُ أبي فروة: أفتأذنُ لي في حيلةٍ خَطَرتْ ببالي تنقذُك منْ هذا الهِجرانِ والضِّيق؟

قال: نعمَ، اصنْع ما بدَا لك يا بنَ أبي فروة.

وأخذَ عبدُ الله بنِ أبي فروة يجهِّزُ أمْرَ حيلتِه، فاستدعىٰ عبدَيْن أسودَيْن غليظَيْن، ثمَّ أتىٰ منزلَها ليلاً، فاستأذَنَ في الدُّخول عليها.

فقالتْ له متعجِّبةً منْ مجيئِه في الهزيعِ الأخيرِ منَ الليلِ: أفي مْثلِ هذه السَّاعة يا بن أبي فروة!.

قال: نعم يا بنةَ الكرامِ.

فأَدْخَلَتْه، فدخلَ ومعه الأَسْودان، فقال لهما بنبرةِ الشِّدَّةِ والحزم: احْفِر ها هنا بئراً عميقةً.

فقال له جاريتُها وقد تعجَّبَتْ منْ هذا الأَمْر: وما تصنع بالبئرِ الآن؟ فقالَ وهو يُظْهِرُ الجِدَّ في القَولِ: شؤمُ مولاتِك عائشةَ بنتِ طلحة، وسوءَ طَلْعَتِها.

فقالتِ الجاريةُ: وما علاقةُ شؤمها بِحَفْرِ البئر.

قال: أمرني هذا الفاجرُ الظَّالم مُصعب، أَسْفَكَ مَنْ خَلَقَ الله لدمٍ حَرام، وأَقْتَله للنَّاس: أنْ ادفنها حيّةً في هذهِ البئر.

فأخبرتِ الجاريةُ عائشةَ بما يجري، فقالت عائشةُ له: فأَنْظرني أذهبُ إليه لعلَّه يقْلِعْ عن هذا الطَّلبِ العظيم.

فقال ابنُ أبي فروة بشيءٍ منَ الجدِّ مُظْهِراً الخوف منْ مُصعب: هيهاتَ هيهات يا بنةَ الكرام، لا سبيلَ إلىٰ ذلك، فَقدْ فاتَ الأوانُ، ولا أَقْدِرُ مراجعتهُ فيما أَمَر.

ثمَّ التفتَ إلىٰ الأسودَيْن، وقال لهما بصوتٍ عالٍ: ويحكما احْفِرا.

فلمّا رأتْ عائشةُ منه الجدَّ ، بكَتْ وقالتْ: ويحكَ يابن أبي فروة ، إنّك لقَاتِلي ، أَمَا هناك وسيلةٌ تنقذني منها؟

قال: نعم يا بنةَ الكرام ، وليسَ لدي حيلةٌ ، وإنّي لأَعْلَمُ أنَّ اللهَ ـ عزَّ وجلَّ ـ سيجزيه بَعْدَكِ ، وسيجزيهِ جزاءَ عَمَلِهِ هذا ، ولكنَّه ـ كما تعلمين ـ قد غَضِبَ غَضَباً شديداً في هذا السَّاعة ، وهو شديد الغَضبِ صَعْبُ المِراس!.

قالت عائشةُ وفؤادها يرتجفُ منَ الخوفِ: وفي أي شيءٍ غَضَبه ، ومن أيّ شَيء؟

قال ابن أبي فروة وقد تَصَنَّعَ الجِدَّ أكثرَ وأكثر: إنَّه ثائرٌ غاضِبٌ في امتناعِك عليه ، وقد ظنَّ أنَّك تبغضينَه ، وأنَّك تتطلعينَ إلى غيرهِ ، وقد جُنَّ لذلك وغَضَبَ أشدَّ الغَضَبِ فما عادَ يعقلُ شيئاً أمامَه.

فقالتْ عائشةُ: أنْشدُكَ اللهَ يا بن أبي فروةَ إلاّ عاودته فلعلَّه قد سكَتَ عنه الغضب ، وسَكَنَ ما بِهِ.

قال ابنُ أبي فروة في لهجةِ خوفٍ شديدة: إنّي أخافُ أنْ يقتلَني ، أتريدينَ أنْ يسفِكَ دَمي في هذا الليلِ ، وفي هذا الوقْتِ؟!

وسكتَ ابنُ أبي فروة ، فبكَتْ عائشةُ ، وبكت جواريها معها ، فلما أنْ رأىٰ ذلك ، ولَمسَ أنَّها قدِ استكانَتْ ولانَتْ قال لها بلهجةِ المشْفِق الخائفِ: يا هذه ، قد رققْتُ لكِ ، وأقسمُ لك أنّني سأغرِّرُ بنفسي منْ أَجْلِ بكائِكِ ، فما أقولُ لمصعب وهو بهذهِ الحالة؟!

قالتْ: اضمنْ عنّي ألاّ أعودَ أبداً إلىٰ مخالفَتِهِ ومصارمتهِ وهجرِه.

قال ابنُ أبي فروة وقد تأكَّد منْ نفاذِ حيلتهِ: فما لي عندكِ يا بنةَ الكرام؟

قالت عائشةُ: قيامٌ بحقّكَ ما عِشْتُ.

قال: فأعطيني المواثيقَ حتّى أخاطرَ بنفسي.

فأعطَتْهُ المواثيقَ ، وحلَفَتْ أغلظَ الأَيْمانِ أنَّها ستكونُ موافقةً له. وهناك

قالَ ابنُ ابي فروةَ للأسودَيْن: مكانكما حتّى أعودَ إليكما.

ثمَّ انطلقَ فأتىٰ مُصْعباً والبسمةُ تعلو وجْهَه، وأخبرهِ بحيلتِه وبما جرىٰ له معَ عائشةَ، وأخبره أنَّه استوثقَ منها بالأَيْمان. فقالَ له مصعبٌ: أَحسَنْتَ، ثمَّ أمرَهُ أنْ يستوثقَ منها ثانيةً بالأَيمان، لتتمَّ حيلته وتَنْطلي عليها.

وعادُ ابنُ أبي فروةَ فأتى عائشة وقال لها وهو يظهرُ الخوفَ والرَّجاءَ: إنَّ مُصْعَباً قد سَكَنَ بعض السُّكون، وفَتَرَ عنه الغضبُ، لكن احْلفي لي ألاّ تخالفيهِ ثانيةً.

فحلفتْ له ووثَّقَتْ أيْمانها وفَعَلَتْ ما أمرهَا به، وبعد ذَلك صلحتْ لمصعبَ بفضلِ تلكم الحيلةِ اللطيفةِ، والدّرسِ البديعِ المريع لِهذه الحَسناء الظَّلومِ الغشومِ[1].

مِنْ طَرَائِفِ عَائِشَةَ مَعَ أَشْعَب:

* في حيلةٍ أخرىٰ طريفةٍ وتحملُ بين ثناياها خِفَّةَ الظِّلِّ، نرىٰ عائشةَ بنتَ طلحة تضحكُ منَ الفَكِهِ الظَّريفِ أشْعب، إذاً فَبَطَلُ هذه الحكاية في هذه المرَّة هو أشعبُ الطَّمَّاع الذي يُضربُ به المثلُ في الطَّمعِ، والمتوفىٰ سنة (١٥٤هـ).

* فقد جاءَ في بعضِ المصادر أنَّ عائشةَ قد غَضِبَتْ مرَّةً على مُصْعَبَ، وكان لا يقدرُ علىٰ ذلك، إذ كانتْ من أحبِّ النَّاس إليه، فَشَكا ذلك إلىٰ أشعبَ بنِ جُبير المدني، وكان يألفُ مُصْعَباً.

فقال له أشعبُ: مالي إنْ رضيَتْ عائِشَةُ عنك؟!.

قال مصعبُ: حكْمُك يا أشعبُ.

---

(١) عن نوادر الخطوطات (١/ ٨٠)، وأعلام النساء (٣/ ١٤١ و١٤٢) مع الجمع والتصرف، وانظر الأغاني (١١/ ١٨٦ و١٨٧)، ونهاية الأرب (٤/ ٢٩٢ و٢٩٣)، والدّر المنثور (ص ٢٨٤، ٢٨٥). والقصة كما يرى القارىء الكريم فيها ما فيها من صناعة، وفي النفس منها شيء.

قال: عشرة ألاف درهم تدفعُها لي حالاً.

قال مُصعب: هي لكَ، خُذْها.

فانطلقَ أشعبُ مستبشراً بالدَّراهمِ حتى أتىٰ عائشةَ بنتَ طلحة، فاستأذَنَ عليها، فأذِنَتْ له، وسَأَلَتْهُ: ما جاءَ بكَ إلينا؟

قال: جُعِلْتُ فداك يابنة الأكرمين، قد عَلِمْتِ احترامي لكِ، قديماً وحديثاً من فائدةٍ أنالُها؛ وهذه حاجةٌ قد عَرضَتْ لي تقضينَ بها حقّي، وترهنينَ بها شكري ما عِشْتُ.

قالت: وما الذي عرضَ لك يا بن جُبير؟

قال أشعبُ وإشراقُة الأَمَل ترتسمُ على وجههِ: إنَّ الأميرَ قد جعلَ لي عشرة آلافِ درهم آخذُها منه، إنْ رضيتِ عنه وصالحتِهِ.

قالت عائشةُ: ويحكَ يا أشعبُ، لا يمكنني ذلك فأنا غضبىٰ عليه منذُ مدّة.

فقال أشعبُ بشيءٍ منَ الخُبْثِ والظَّرف: بأبي أنتِ وأمّي يا بنةَ الأخيارِ، ارضي عن الأميرِ وكلميه حتّى آخذَ منه تلك الدَّراهم، ثمَّ بعد ذلك عُودي إلىٰ ما عوَّدكِ اللهُ عليه منْ سوءِ الخُلق، وشراسةِ الطَّبع.

فضحكتْ عائشةُ من قولِ أشعبَ، ورضيتْ عن مُصعب[1]!!.

صُــوَرٌ مــنْ دَلِّـهَـا وَدَلاَلِـهَـا:

* حكَتْ بعضُ الأخبارِ أشياءَ عن دلالِ عائشة، وعن إعجابِها بجمالِها وحُسنِها، وما حَباهَا اللهُ من وضاءَةٍ في الوجْهِ، وملاحةٍ في الخِلْقَة، كما ذكرتِ المصادرُ أنّها كانتْ تتدللُ وتمتنعُ علىٰ مصعبَ في غالبِ الأَوقاتِ،

---

(١) عن أعلام النِّساء (٣/ ١٤٠ و١٤١)، ودولة النّساء (ص ٢٧ و٢٨) مع الجمع والتّصرّف اليسير، وذلك نقلاً عن الأغاني (١١/ ١٨١ و١٨٢). وانظر الكامل للمبرّد (٢/ ٧٨٢ و٧٨٣) وفيه ابنُ أبي عتيق بدلاً من مُصْعَب.

وقد وَصلَ بها الدَّلالُ ذاتَ يومٍ إلى حدٍّ كبير يفوقُ التَّصوُّر ، فقد دَخَل عليها مصعبُ يوماً وهي نائمةٌ ، ومعه ثماني لؤلؤات قيمتُها عشرون ألف دينار ، فأَنْبَهَهَا ونثرَ اللؤلؤ في حجرِها ، وبدلاً منْ أنْ تثني عليه بما فَعَل في حقِّها ، قالت له : نومتي هذه كانتْ أحبُّ إليَّ منْ هذا اللؤلؤ[1] ! !

* ويبدو أنَّ مُصعباً قد تألَّم لهذا الرَّدِّ الفَظِّ ، وتوقَّع أنْ تطيرَ عائشةُ فَرحاً بهذا الحلي النَّادر[2] .

* ويظهرُ خبر آخر طريف منَ الأخبارِ الكثيرةِ التي جاءتنا عن عائشةَ بأنَّها كانت حادَّةَ الطَّبع ، تطيلُ هجرها ومصارمتها ، ولكنْ قد تَأْتيها نفحاتٌ منَ اللين ، فتحنو وتلينُ ، فقد زعموا أنَّها صارمتْ مُصعباً مرَّةً ، وطالَتْ مصارمتها له ، وشقَّ ذلك عليها وعليه ، وكانت لمصعب حربٌ فخرجَ إليها ثمَّ عادَ وقد ظَفرَ ، فَشَكَتْ عائشةُ مصارمتها إلى مولاةٍ لها ؛ فقالت : الآن يصلحُ أنْ تخرجي إليه ، فخرجتْ فهنَّأَتْه بالفَتْح ، وجعلتْ تمسح التُّراب عن وجهه ؛ فقال لها مصعب : مَرحباً بالغَاضِبِ العَاتِب ، ثم أَنْشَأَ يقولُ :

ونَهْتَجِـرُ الأَيَّـامَ ثُـمَّ يَـرُدُّنَـا   إلىٰ الوَصْلِ أَنّا لم يكنْ بيننا دخْلُ

فقالتْ : واللهِ ، لولا التَّهنئةُ لطالَ الإعراضُ ، ثمَّ أَهْوتْ إليهِ فعانَقَتْهُ .

فقالَ : معذرةً من ريحِ صَدأ الحديدِ ، فإنّي أشفقُ عليكِ منه .

فقالت : أَوَ ذَنْبٌ ذاكَ ؟ ! لهو واللهِ أطيبُ عندي منْ ريحِ المسْكِ . ثمّ قالت : أفلحَ الوجْهُ ، وعلا العقبُ ، وليهنك الظَّفر[3] .

* ويبدو أنَّ كلماتِ عائشةَ قد نزلَتْ برداً وسَلاماً على قلبِ مصعب ، إذْ لم يعهدْ منها مثلُ هذه النَّفحات العَطِرات ، والكلمات الآسراتِ السَّاحراتِ .

---

(١) أعلام النساء (٣/ ١٤١) بتصرف يسير .
(٢) نوادر المخطوطات (١/ ٧٧) .
(٣) الدر المنثور (ص ٢٨٥) ، وتاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء ص ٢١٩) ، والحدائق الغناء (ص ٦٦) .

* ولكنَّ حياةَ عائشةَ بنت طلحة وأخبارها معَ مُصْعب بن الزُّبير قد انقطعتْ في سنة (٧٣هـ) بمقتل مُصْعَب علىٰ يَدِ بني أميّة بأَمْرِ عبدِ الملك بنِ مروان ، وكان عُمْرُ مصعبَ إذ ذاك (٣٦سنة)؛ ولمّا عَلِمَ عبد العزيز بن.مروان أخو عبد الملك بمقْتَلِ مصعب قال: رحمك اللهُ ، أَمَا واللهِ لقد كنتَ منْ أَحْسَنِهم خلقاً ، وأشدّهم بأساً ، وأسْخاهم نَفْساً[١].

عَائِشَةُ وَحَيَاةٌ جَدِيْدَةٌ:

* لما قُتِل مصعبُ بنُ الزُّبير ، جاءَ نبأُ مَقْتَلِهِ إلىٰ زوجهِ عائشةَ بنتِ طلحة فهدَّها هدّاً ، وملأَ قلبها جزَعاً وهَلَعاً ، وأثارَ مَقتلَه في نفسِها الشّجون والأحزان ، وسَرَتْ في جسِمها رعدةٌ لم تهدأ عنها إلاّ بالدُّموع التي تحدَّرتْ من عينيها غزاراً ، وكانت تنهمرُ انهماراً؛ وكذلك أنفاسُها العنيفةُ المتقطعةُ راحت تحتبسُ في صَدْرِها احتباساً ، وأقبلتْ عليها جواريها فَجَلَسْنَ إلىٰ جانِبها ، وحاولنَ أَنْ يَرْدُدْنَ إليها الهدوءَ وسكونَ النَّفْسِ ما وسعهنَّ ذلك ، ورحْنَ يواسينَها بهذا الحادثِ الأليمِ الكئيب الذي لحقَها ولحقَ ضرّتها سُكينةَ بنت الحسين.

* وظلَّتْ عائشةُ بنتُ طلحةَ مدّةً منَ الزَّمنِ أيّماً دون زواجٍ ، ثمَّ خطبهَا عددٌ منَ الأَماثِلِ والأَشْرافِ ، فقد كانت إذ ذاك في ريعانِ الشَّبابِ ، وذِرْوَةِ الجمالِ والملاحةِ ، وكان ممن خطبَها بشر بنُ مروانَ.

* وحدثَ في تلكم الأيَّام أنْ قَدِمَ عمرُ بن عبيد الله بن معمر التّيميّ منَ الشَّام ، ـ وكان منَ الأَغْنياءِ الكرماءِ الأجوادِ وكان فارساً مغواراً لا يشقُّ له غُبار ـ ، فنزلَ الكوفةَ ، وبلغه أن بشرَ بنَ مروانَ قد خَطَبَ عائشةَ بنتَ طلحةَ ، فوقعَ في نفسهِ أنْ يخطبهَا هو ، وهناك فكَّر في الأَمْرِ ، فاهتدىٰ إلىٰ فكرةٍ لطيفةٍ ، حيثُ أرسلَ إليها جاريةً حصيفةً ذكيةً من جواريهِ اللاتي يثقُ بهنَّ ، ثمَّ قال لها: قولي لابنةِ عمّي عائشة: ابنُ عمّك عمرُ بنُ عُبيد الله يقرئكِ السَّلامَ ،

---

(١) نهاية الأرب (٢١/ ١٢٦).

ويقولُ لك: أنا خيرٌ لكِ منْ هذا المبسور[1] المطحول[2]، وأنَا ابنُ عمّك أحقُّ بك، وإن تزوَّجتُ بكِ ملأتُ بيتَك خَيْراً[3]، وكنتِ منَ السَّعيدات.

وآثرتْ عائشةُ الزَّواجَ منْ عمر بنَ عبيد الله التَّيمي، فهو جوادٌ كريمٌ، وأميرٌ سخي، وهو منْ تيم من نَفْسِ قبيلتها، وكان عظيمَ المكانةِ، رفيعَ المنزلةِ، مرتفعَ القامةِ، مهيبَ الطَّلعةِ، ظاهرَ النّعمة، تشرقُ في وجههِ الثِّقةُ، وتدلُّ على أنَّه راضٍ عن نفسِهِ كلّ الرّضا، وكانَ بالإضافةِ إلىٰ ذلك فارساً شُجاعاً مِقْداماً، قد فتنته حياةُ الحروبِ، فألقىٰ بنفسهِ في أتونها المُسْتَعر وهو لا يخافُ أوقعَ على الموتِ أمْ وقعَ الموتُ عليه، وكان قائداً من قوّادِ مصعب بنِ الزبير، وقد ولّاه مصعبُ حَرْبَ الأزارقةِ منَ الخوارج فانتصرَ عليهم انتصاراً باهِراً، وهزمَهم هزيمةً منكرةً شتَّتَ بها شَملَهم.

* كما استعمله مصعبُ على فارس فدبَّر أمورها تدبيراً حَسَناً، وسارَ فيها سيرةً قويمةً.

* ولما قُتِلَ مُصعبُ حَزِنَ عليه أشدَّ الحزنِ، ورأىٰ بعقله أنَّ الأَمْرَ صائرٌ إلى بني أميّة، فأقبل علىٰ عبدِ الملك بنِ مروان وصالَحه ووادعَه ومنحه الولاءَ، فرضيَ عبدُ الملك عنه، فهو قائدٌ شديدُ البأسِ، بصيرٌ، خبيرٌ بأمورِ الحربِ.

* عرفتْ عائشةُ هذا كلَّه عن عمرَ بنِ عبيـد الله التَّيمي، ومن ثمَّ فَضَّلَـتْه

---

(١) «المبسُور»: بَسَرَ، بُسْراً، وبُسوراً: عَجِلَ، وأظْهَر العبُوس؛ ويقال: بَسَرَ وجهُه، وفي القُرآن العظيم: ﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ﴾ [المدثر: ٢٢]، والمعنى العام أنَّه عبوس.

(٢) «المطحول»: يُقال: أطْحلُ اللونِ: أي كَدِرَ واغبرَّ، واربدَّ لونُه منْ غَضَبٍ ونحوه، أُخِذَتِ الكلمةُ منَ الطّحال؛ العضو المعروفُ بجوفِ الإنسان، إذْ لونُه رماديُّ اللونِ الذي يشبه الطّحال.

«فائدة»: الطِّحال: بكسر الطَّاء منَ الأمْعَاء معروفٌ، ويقَال: هو لكلِّ ذي كرش إلاَّ الفرس، فلا طِحال له، والجمعُ: طِحالات وأطْحلة، مثل: لِسَان وألْسِنَة، وطُحُل: مثل كتاب وكُتُب.

(٣) هناك كلامٌ مكشوفٌ جدّاً وبذيءٌ يرويه لكَ صاحبُ الأغاني عَقبَ كلمة «بيتَك خيراً» ولا نستطيعُ أنْ نرويه لك نحن، وتستطيعُ أنْ تراجعَ الأغاني إن شئتَ.

على بشر بنِ مروان ، ووافقتْ وتزوَّجَتْه ، فبنىٰ بها في الحيرةِ ، ويُقال: إنَّها قد مَهَّدَتْ له يومَ عُرسهِ فُرشاً لم يُرَ مثلها سبْع أزرع في عرضِ أربع ، وحَملَ إليها عمر مليون درهم مهراً لها ، كما مَهرَها مصعبٌ منْ قَبْل[1].

* وأنفقَتْ عائشةُ أيّاماً حلوةً لذيذةً باسمةً مع زوجِها عمرَ بنَ عبيد الله ، وهما سَعيدان ينعمان بِرحيقِ الحياةِ وقطوفِها الدَّانية ، وكانتِ السَّاعات التي تقضيها معه جميلةً خلابةً.

* ولكنّنا نَجِدُ فجأةً أنَّ المصادرَ تزعمُ بأنَّ عائشة ظلَّتْ على شراستِها المعهودةِ ، ونفورِها ، وتزعمُ أيضاً أنَّ تلكَ السَّاعات الصَّافيات مع زوجها عمر كانتْ تشوبُها لحظاتٌ منَ الغيظِ المفتعلِ من عائشة.

* تقولُ المصادرُ: كانتْ عائشةُ منْ أشدِّ النَّاسِ مغايظةً لأزواجِها ، وكانت تكونُ لكلِّ مَنْ يجيءُ يحدّثُها منَ النِّساء في رقيقِ الثّيابِ ، فإذا قالوا جاءَ الأميرُ ضمَّتْ عليها طرفيها وقطَّبتْ. وكانت كثيراً ما تصفُ مصعبَ بنَ الزُّبير لعمرَ بنِ عبد العزيز ، وتذكرُ جماله وكرمه وحسنَ خلقهِ ، وتغيظه بذلك ، فيكادُ عمر أنْ يموتَ غمّاً ، وكانَ شديد الغَيرة.

* يروىٰ أنَّه دخلَ مرّةً علىٰ عائشةَ ، وقد ناله حرٌّ شديد ، وغبارٌ ، فقال لها: انفضي التُّراب عنّي ، فأخذتْ منديلاً ، وجعلتْ تنفضُ عنه التّراب ثمّ قالت له: ما رأيتُ الغبارَ على وجْهِ أحدٍ أحسنَ منه على وجْهِ مصعب؛ لَعَهْدِي به يوماً وقد دخَل عليَّ ، وكان قد فَتَح فتحاً عظيماً وهو في الحديدِ ، وكانتْ بيني وبينهَ وحْشَة ، فخرجتُ فهنّأْتُه والغبارُ علىٰ وجههِ فقال: إنّي لأشفقُ عليكِ من رائحةِ الحديد؛ وأقبلتْ تَصِفُه وعمرُ يتّقدُ غيظاً ، وكادَ أنْ يموتَ غَيرةً وحيرةً[2].

---

(١) انظر: نوادر المخطوطات (١/ ٧١ و٧٢) ، ونهاية الأَرب (٤/ ٢٩٤ و٢٩٥) ، والدُّرُّ المنثور (ص ٢٨٥) ، مع الجمع والتّصرف؛ وانظر: الحدائق الغناء (ص٦٠).

(٢) انظر: تحفة العروس ومتعة النفوس للتجاني (ص ٧٣) نقلاً عن الأغاني (١١/ ١٧٧).

* وليسَ منْ شكّ في أنَّ هذا الحديثَ قَدْ غاظَ عمرَ بنَ عبيد الله غيظاً شديداً ، ووقعَ من نفسهِ موقعاً أليماً ، وكادَ يتميّزُ ويتقطَّعُ منْ هذه السُّخرية المبطَّنة ، وتزعمُ المصادرُ أنَّه كظمَ غيظَه ، وأخفىٰ أَلَمه ، وأرادَ أنْ يَصْرِف عائشةَ برفقٍ وأناةٍ عن حديثها الذي وَلَّدَ في قلبِه جمرات لاهبةً تلذعه وتحرقُ أحشاءَه بالغيرةِ ، فجعل يحدِّثها عن شجاعتِه وبسالَته وإقدامِه ، وكيف وقع اختيارُ الخليفةِ عبد الملك بن مروان عليه ليكون رئيساً وقائداً للحملةِ التي بعَثها لقتالِ الخوارج ، وأخذَ يحدثها عن أعمالِه ، وكيفَ انتصرَ عليهم ، وقَتَل زعيمهم أبا فُديك ، ولم يتركْهم إلا وقد فَعَلَ بهم الأفاعيل ، وجَعَل مواطنَهم قاعاً صَفْصَفاً ينعق فيها البومُ والغرابُ . وقد حَسبَ عمر أنَّه بهذا الحديث الشَّائق عن البسالةِ قد صرَف عائشةَ عن سخريتها به ، ولكنَّ عائشةَ أجابته بسخريةٍ غير متوقّعة له مطلقاً ، فقالتْ له : أنا أعْلَم أنَّكَ أشجعُ النَّاس ؛ وأعرِفُ أنَّ لكَ يوماً هو أعظمُ منْ هذا اليومِ الذي ذكرتَه ! .

* وخَطَرَ في بالِ عمر أنَّ عائشةَ ستحدِّثُه عن واحدٍ منْ أيّامِ انتصاراتِه الباهرةِ ، فَسَأَلها : وما هو ذلك اليومُ يا عائشةُ؟ فقالتْ في سخريةٍ ممزوجَة بالاستخفافِ : ذلكَ اليومُ يوم اجتليتَ رملةَ بنتَ عبد الله بنِ خلف الخزاعية[1] ، وأقدمتَ علىٰ وجهِهَا الجهمِ وأنفِها العظيم .

* وكان عمرُ يخرج منْ جلْدِه غيظاً ، ولكنّه كَتَمَ ذلك أيضاً ، فعائشة بنتُ طلحة أجْملُ من رملةَ وجْهَاً ، وأحسنُ منظراً .

* وكاد عائشةُ تظنُّ أنَّ زوجهَا عمر هذا قد سَمِع قول الشَّاعر فيها وفي رملة :

أَنعِـمْ بعَـائِشَ عَيْشَـاً غَـيرَ ذي رِنَـقِ   وانبذْ برملةَ نَـبْـذَ الجَـوربِ الخَـلَقِ

* لذلك ظنَّتْ أنَّـه لنْ يظلَّ مع رملةَ الخزاعيّة ، فكان ظنُّها في غير محلّه ؛

---

(١) اقرأ سيرة رملة الخزاعية في موسوعتنا الكبيرة الشهيرة : «نساء في قصور الأمراء» ستجد خيراً بإذن الله ، وتصحيحاً لأغاليط مقصودة .

وغيَّرتْ سلوكَها مع عمرَ ـ كما زعم الرُّواة ـ.

* ومكثتْ عائشةُ عند عمرَ بنِ عُبيد الله التَّيمي ثماني سنين كوامل ، كانت سنين سِمان ذَاقَتْ خلالها حلاوةَ المودَّةِ والرحمةِ ، وأنفقتْ أيّامَها مَعه خاضعةً له ، كما ينفقُ الطِّفْلُ الصَّغيرُ الغريرُ أيّامه مع أمّهِ الرَّؤومِ العطوفِ خَاضِعاً لها ، و يرىٰ الدُّنيا كلَّها منْ خلالِها ، وكذلك وجَدَتْ عائشةُ النَّعيمَ كلَّ النَّعيمِ مع زوجها عمرَ بنِ عبيد الله التّيميّ.

* وفي أَحَدِ أيّام سَنَة (٨٢هـ) وافىٰ الأَجَلُ زوجَها عمرَ بنَ عُبيد التَّيمي ، فلما ماتَ ، ماتَ معه أملُها كلُّه ، ونَدَبَتْه وهي قائمةٌ ، ولم تندبْ أحداً منْ أزواجِها قَبْلَه إلا جالسةً؛ وتسري الهَمَساتُ بين النَّاس ، ويأخذهُم الدَّهَشُ لذلك ، ويسألونَها عن سببِ ندبِ عمر قائمةً فقالت : إنَّه كان أكرمَهم عليَّ ، وأمسَّهم بي رحماً ، فأردتُ ألا أتزوَّجَ بعده[1].

* وكانتِ المراةُ إذا نَدَبَتْ زوجَها قائمةً لا تتزوَّج بعده أبداً ، ولم تتزوَّجْ عائشةُ بعد زوجها عمرَ بنِ عبيد الله ، وظلَّتْ أيّماً ، وقد خطبَها جماعةٌ فرّدتهم ولم تتزوَّج أبداً[2] ، فعُلِمَ أنَّها كانتْ تؤثرُه على غيرِه[3].

مِـنْ أَخْـبَـارَ عَـائِشَـةَ مَـعَ شُـعَـرَاءِ عَـصْـرِهَا :

* بعْدَ أنْ تأيَّمَتْ عائشةُ بنتُ طلحةَ سنة (٨٢ هـ) ، كانت تقيمُ بمكةَ سنةً ، وبالمدينـةِ سنـة[4] ، وتخـرجُ إلىٰ مـالٍ لها بالطَّـائِفِ ، وقَصْرٍ كان لها هناك ،

---

(١) نهـايـة الأرب (٤/ ٤/ ٢٩٥) ، وأعـلام النسـاء (٣/ ٤٥) ، نقـلاً عـن الأغـانـي (٢/ ٣٧٤). وفي روايةٍ أخرى أنّه قيلَ لها : لِمَ نَـدبتهِ قائمةً؟ فقالت : لقد كان فيه ثلاثـةُ خِلالٍ لم تكنْ في أحدٍ منهم : كانَ سيّد بني تَيْم ، وكان أقربَ القوم بي قرابة ، وأردتُ ألا أتزوَّج بعده . (الحدائق الغناء ص ٦٠).

(٢) نوادر المخطوطات (١/ ٧٧) ، والدُّرُّ المنثور (ص ٢٨٦).

(٣) الحدائق الغناء (ص ٦٠).

(٤) في خُبْثٍ واضحِ المعالم يقولُ كمال بسيوني عنْ عائشةَ بنتِ طلحة وكأنَّه يتحدَّث عنْ مطربةٍ أو ممثِّلة : وفرغَتْ عائشةُ بَعْدَ موتِ زوجها للغَزَل والغِنَاء ، فكانتْ تقيمُ=

فتتنزَّهُ فيه ، وتجلسُ بالعشيّات ، فَيَتَنَاضلُ بينَ يديها الرُّماة[١] .

* وتروي الأخبارُ أنَّها كانت جالسةً ذاتَ يومٍ بالطَّائف ، فمرَّ بها النُّميريُّ الشَّاعر ، فسَأَلتْ عنه ، فانتسبَ لها ، فقالت: ائتوني به ، فجيءَ به؛ فقالتْ له: أَنْشدني مما قُلْتُ في زينبَ[٢] فامتنعَ وقال: بنتُ عمّي ، وقد صارتْ عِظَاماً باليةً .

قالت: أقسمتُ عليك لمَّا فَعَلْتَ ، فأنْشَدَها قوله:

نَـزَلْـنَ بِفَـخٍّ ثُـمَّ رُحْـنَ عشيّـةً	يُلَبِّيـنَ للـرّحمـن مُعْتَمِـراتِ[٣]
يُخَمِّرْنَ أطرافَ الأكُفّ منَ التُّقىٰ	ويخرُجْنَ جُنْحَ الليلِ مُعْتَجِراتِ[٤]
ولمـا رأتْ رَكْبَ النُّميريّ راعَهَـا	وكُـنَّ مِـنَ أَنْ يَلْقَيْنَـهُ حَـذِراتِ
تَضَوَّعَ مِسْكاً بطْنُ نَعْمانَ أنْ مَشَتْ	بِـهِ زَيْنَـبٌ فـي نِسْوةٍ خَفِـراتِ

* فقالتْ له عائشةُ ـ لمّا أنشدها هذا الشِّعر ـ: واللهِ ما قلتُ إلا جميلاً ،

= بمكةَ عاماً وبالمدينةِ عاماً آخر ، وكان همُّها كلُّه أنْ تنفقَ نشاطَها في لقاءِ الغَزِلينَ والمغنّين ، فتلهو بهذهِ المعابثات التي كانت تملأُ قلبَها غبطةً وحُبوراً ، وتنعمُ بهذهِ الأَشْعارِ التي كانتْ تُصيبُ منْ قلبِها مواقعَ الرِّضا والابتهاجِ ، وتستمتعُ بهذهِ الأصواتِ العذبةِ التي كانتْ تقعُ في أذنِها موقعَ الموسيقا ، حتى إذا خَلَتْ إلىٰ نفسِها في ساعةٍ من ساعاتِ الليل ، أو في لحظةٍ من لحظاتِ النَّهار ، أخذتْ تعيدُ في نَفْسِها ما سَمِعتْ منْ حديثٍ وغِنَاءٍ ، وما رأتْ منْ حركةٍ ونشاطٍ ، وأخذتْ تتَعَمَّقُهُ وتستخرجُ منه صُوَراً ومعانيَ وعواطفَ وخواطرَ لا تُحصى ولا تُستقصى ، ولكنّها تُنسيها نَفْسَها وتُنْسيها كلَّ شيءٍ ، وكلَّ إنسان ، وتنتهي بها إلى عالَمٍ غريبٍ وهو أحبّ إليها ألف مرّة ومرّة منْ هذا العالم الذي تعيشُ فيه!!! .

انظر (عائشة بنت طلحة ص ١٤٧) من سلسلة اقرأ رقم ١٤٠ دار المعارف بمصر.

(١) أعلام النساء (٣/ ١٤٦) نقلاً عن الأغاني.

(٢) زينبُ هذه ، هي زينبُ بنتُ يُوسُف الثّقفي أختُ الحجّاج ، وكان النُّميري يهواها ويُشبِّبُ بها ، وله معها أخبار طوال جاءت في ترجمته في الأغاني وغيره.

(٣) «فخ»: اسم وادٍ في مكة.

(٤) «معتجرات»: أي مختمرات بالمعاجر ، وهو حسن المعتجر وهو الاعتمام. (أساس البلاغة ص ٤٠٩).

ولا وصفتَ إلا كَرماً وطيّباً وديناً وتقىً ، أعطوه ألفَ درهم؛ فلمّا كانتِ الجمعةُ الأخرىٰ تعرَّض لها ، فقالتْ: عليَّ بهِ ، فجاءَ فقالت له: أَنْشدني منْ شعرِك في زينبَ ، قال: أفَأُنْشِدُكِ من قولِ الحارثِ ـ بن خالد المخزومي ـ فيكِ؟ فوثبَ مواليها إليه ، فقالت: دعوه فإنَّه أرادَ أنْ يستقيدَ لابنةِ عمّه ، هَاتِ ، فأنشدَهَا:

طَعَـنَ الأميـرُ بـأَحْسَـنِ الخَلْـقِ وغَـدا بلُبِّـكَ مَطِلـعَ الشَّـرقِ

وتنـوءُ تُثْقِلُهـا عَجيـزَتُهـا نَهْضَ الضَّعيفُ ينوءُ بـالـوَسْـقِ

مَـا صَبَّحَـتْ زَوْجـاً بِطَلعَتِهـا إلا غَـدا بكـواكِـبِ الطَّلْـقِ

بَيْضَـاءُ مـنْ تيـمٍ كَلِفْـتُ بِهـا هـذا الجنـونُ وليـسَ بـالعِشْـقِ

* فقالت: واللهِ ما ذَكَرَ إلا جَميلاً ، ذكر أنّي إذا أصْبَحْتُ زوجاً بوجهي غدا بكواكبِ الطَّلق ، وأنّي غدوتُ مع أمير تزوّجني إلى الشَّرقِ. أعطوهُ ألْفَ درهم ، واكسوه حُلَّتيَن ولا تَعُدْ لإتْيانِنَا يا نُميريّ(١) .

* ويطالعنا الرُّواةُ والأخْباريّون بقَصَصٍ متنوّعةٍ ما أَنزَلَ اللهُ بها من سُلطان ، ويَحْكُون ألواناً منَ المواقفِ والأحاديثِ التي جَرَتْ لعائشةَ بنت طِلحة مع عددٍ منْ شعراءِ عَصْرها ، الذين تغزّلُوا بها ـ وهي راضيةٌ مسرورةٌ فيما زعموا ـ ، وذكروا لها علاقاتٍ متنوعةً مع بعْضِ الشُّعراء من مثل: عمرَ بنِ أبي ربيعة ، والحارثِ بنِ خالد المخزوميّ ، وعُبيدِ الله بن قيس الرّقيات؛ وغيرِهم وهؤلاء كانُوا يشيرون ويشيدون بجمالِ وملاحَةِ عائشة ، ويصفونَها بأرقِّ الكلماتِ ، ويتغزّلون بها وهم يزعُمون أنَّها تريدُ أنْ ينقلَها شعرهُم إلىٰ أسْماعِ النَّاس في كلّ مكانٍ ، وعلىٰ جميع موجاتِ البثِّ المباشرِ وغيرِ المباشرِ عَصْرَ ذاك ، وكذلك زعموا بأنّها تريدُ أنْ يتحدّثَ التَّاريخُ ـ فيما بعد ـ عن حُسْنِها وجمالِها وعمّا حَباها اللهُ منَ الملاحةِ والكَمال والدَّلالِ!!!.

---

(١) انظر: نهاية الأرب (٤/٢٩٦ و٢٩٧) ، وفي النفس شيء بل أشياء من هذه القصة!!.

* ومنَ العجيبِ أنْ نجدَ بعضَ الدَّارسينَ للأَدبِ في عَصْرِنا الحاضرِ يزعُم بأنَّ ذلك التَّصرُّف كانَ معروفاً مُتَعَالماً أو مُتَعَارفاً عليهِ عَصْر ذاك ، فاسْمَعْ إليهِ حيثُ يقول: وكانَ الذَّوقُ العربيُّ العام لا يمنعُ أنْ يشيدَ شاعرٌ بجمالِ امرأةٍ ، بل لعلَّ في هذهِ الإشادةِ ما يُعَرِّفُ بها وبجمالِها ، ولذلك كانتْ تطلبُها المرأةُ العربيةُ ، ولا تجدُ فيها غضاضةً ، بل علىٰ العكْسِ ، كانت تَجدُ فيه طرافةً وإعلاناً عنها ، وتمهيداً لأنْ يطلبها الأزواجُ ، وهذا الذَّوقُ العام هو الذي أشاعَ الغَزَلَ في المرأةِ العربيةِ الشَّريفةِ[1].

* ومنَ العجيبِ أيضاً ، أنْ يتابعَ الدكتور شوقي ضيف هذا الشَّوط ، ليؤكِّدَ وهو في معرضِ حديثه عنْ أغزالِ عمرَ بنَ أبي ربيعة في عائشةَ بنتِ طلحةَ وشريفات مكَّة ، وفي استغلاله الذَّوقَ العام داخلَ وخارجَ مكةَ في إشاعةِ الغَزَلِ ، فيقولُ: وأخذَ عمرُ بنُ أبي ربيعة يستغلّه ، ويبعدُ في استغلالِهِ ، لا في فتياتِ مكةَ ونسائِها ، بل في فتياتِ العرَب جميعاً ، ونسائِهم ممن يحججنَ إلىٰ مكةَ ، وتقعُ عينُه عليهنَّ ، وكأنَّما كانت عينُه «عَدَسَة» ـ أي كاميرا فيديو أو عدسة تلفزيون ـ مكةَ في هذا العَصْر ، فلا تمرُّ بها سيّدة تستحقُّ أنْ تُصوَّر[2] ، وأنْ تُرسَمَ في المرآةِ الفنيّة المكيّة إلا وتهبُّ عينُ عمر ، وتهبُّ عيونُ زملائه منَ الشُّعراء ، فيسجِّلُون صورتَها ، ومنْ هنا كُنَّا نقرأُ دائماً في أخبارِه أشْعاراً وقَصَصاً عن جميلاتِ الحواجّ.

* فهذهِ عائشةُ بنتُ طلحة تحجُّ فتتعرضُ لها عينُ عمر ، أو عدسةُ عمر فترسُمها؛ وهذهِ فاطمةُ بنتُ محمّد بن الأشعثِ الكندية تحجُّ ، فتتلقَّفُها العينُ أو العدسَةُ؛ وهذه زوجة[3] شيخِ النَّحو أبي الأسود الدُّؤلي تحجَّ ، فتأبىٰ العينُ

---

(١) انظر: الشعر والغناء في المدينة ومكة لعصر بني أمية (ص ٢٤٦). ورأي شوقي ضيف لا ينطبق على بنات الصحابة.

(٢) لاحظ قوله: سيّدة تستحقُّ أنْ تُصوَّر!! نعم تصوَّرُ بالعدسةِ العُمرية الغزليّة!.

(٣) اقرأْ سيرةَ امرأة أبي الأسود الدُّؤلي في موسوعتنا «نساءٌ منَ التَّاريخ» (ص ١٧١ ـ ١٨٤) ففيها أخبار مفيدةٌ بإذنِ الله تعالى.

أو العدسةُ إلا أنْ تتبعها ، وهذه ليلىٰ بنتُ الحارث البكريّة مع وقَارِها ترسُمها العينُ أو العدسَةُ؛ وهذه رملةُ بنتُ عبد الله الخزاعيّة تلمحها العينُ ، أو العدسَةُ فتصوِّرها.

* وهذا بابٌ يطولُ تعدادُ الأسماء والشَّخصيات فيه[1].

* لا شكَّ في أنَّ كثيراً منَ الأَخْبارِ التي وصلتْنَا عن السَّيِّدةِ الشَّريفةِ عائشةَ بنتِ طلحة مع أولئك الشُّعراء ، قد عَبَثَتْ فيها الأهواءُ ، وشوَّهَتْها يدُ الوضَّاعين والعابثين ، بل إنّ كثيراً منَ الأخبارِ والقَصَصِ والمواقفِ التي وصلتْنَا عن أغزالِ عمرَ بنِ أبي ربيعة المخزوميّ بعائشةَ بنتِ طلحةَ فيها تمويهٌ للحقَائِقِ ، وعبثٌ بالأخبارِ الصَّحيحة[2].

* فنحنُ نَعْلَمُ أنَّ أمَّ كلثوم بنتَ أبي بكر ـ وهي أمُّ عائشةَ بنت طلحة ، قد تزوَّجَتْ بعد مَقْتَلِ زوجها طلحةَ بنِ عبيد الله ـ رضي الله عنه ـ عَبْدَ الرحمنِ بنَ عبدِ الله بنِ أبي ربيعة المخزوميّ[3] ، وهو الأخُ الأكبرُ لعمرَ بنِ أبي ربيعة منْ أبيهِ.

---

(١) انظر: الشِّعر والغناء في المدينة ومكةَ (ص ٢٤٦ و٢٤٧)؛ ولعلَّه مما يزيدُ الطِّين بلّة ، أنَّ الدكتور شوقي ضيف يقولُ بعد نِصْفَ سَطْر: وأصبحتْ مواسمُ الحجّ مواسمَ للشّعرِ والفنِّ تُرسَمُ فيه صورُ العَذَارىٰ والسِّيدات الجميلات ، وحتّى أميرات بني أميّة ، كُنَّ يُرسَمْنَ ويصَورن وكُنّ يَطْلُبْن ذلك ـ كما ذكرَ الرّواة ـ ويَبْتَغينَه. (المرجع السَّابق نفسه ص ٢٤٧). ونحنُ نقولُ: اللهُ المستعان وحْدَه علىٰ ما يصفون ويتقوّلُون ويدّعُون ويزوِّرون.

(٢) ومنْ ذلكَ ما ذكرهُ الدّكتُور زكي مبارك عنِ السَّيِّدة عائشةَ ـ رحمها الله ـ في معرضِ حديثه عنها وعنْ عُمَر بنِ أبي ربيعة ، حيثُ يقول: فلنقفْ قليلاً عند ذكرىٰ هذهِ الفاتنة التي أثارتْ قَلْبَه ، وأضرمتْ إحساسَه ، ففتحتْ له بابَ الخُلود ، وإنَّه ليكفي أنْ نتحدَّثَ عنْ جمالِها ، وأخلاقِها ، وعقلِها ، وجاهها ، وأخبارِها مع الحارثِ بنِ خالد المخزوميّ ، وحوادِثها مع شاعرِنا المحظوظ. (حب ابن أبي ربيعة وشعره ص ١٤٣ و١٤٤).

(٣) ذكر الرواة أن عبد الرحمن بن عبد الله بن أبي ربيعة كان أحول ، وتزوج من أم كلثوم بنت أبي بكر بعد موت طلحة. (الشعر والشعراء ١/ ٣٤٩).

* ولا تستبعدُ أنْ يكونَ عمرُ بنُ أبي ربيعة قد رأىٰ عائشةَ بنتَ طلحةَ في بيتِ أخيهِ عبد الرحمن بعد أنْ تزوَّجَ أمّ كلثوم أمّ عائشةَ ، أو قد يكونُ رآها خِلْسَةً ـ من قبلُ ـ وهي في أداءِ فريضةِ الحجّ ، فَقَدْ ذَكَرَ الرُّواة أنَّ أَشْعَارَ عمرَ وأغْزَالِهِ قد كثُرت في عائشةَ بنتِ طلحةَ ، فبلغتْ شبابَ قومها بني تَيْم ، أبْلَغَها إياهم فتىً منهم ، وقال لهم مُنَبّهاً لأغزالِ عمر: يا بني تَيم بن مرّة ها اللهِ ، ليقذفنَّ بنو مخزوم بناتِنا بالعظائِم وتَغْفُلُون!!.

* فمشىٰ وَلَدُ أبي بكر الصِّدِّيق ووَلَدُ طلحةَ ـ وهم أهلُ أمِّها وأهل زوجِها ـ إلىٰ عمرَ بنِ أبي ربيعة نفسه ، فأعلموه بذلكَ ، وأخبروهُ بما بَلَغَهم ، واستنكروا ذلكَ منه.

فقال لهم: واللهِ لا أذكرُها في شِعْرٍ أبداً ، ثمَّ قالَ بَعْدَ ذلك فيها ، وكنّىٰ عنِ اسْمِها قصيدته:

يـا أمَّ طَلَحَـةَ إنَّ البَيْـنَ قَـد أَفِـدَا ... قَـلَّ الثَّـواءُ لَئِـنْ كـانَ الـرَّحيْـلُ غَـدا

أَمْسَىٰ العراقيُّ لا يَدري إذا بَرزَتْ ... مَنَ ذا تطوِّفُ بالأركانِ أَو سَجَدا[1]

* وعمرُ بنُ أبي ربيعة نفسُه يمدحُ عائشةَ ، ويذكرُ أصالةَ مَنْبَتِها ، وطيبَ غرسها وتربيتها ، ويشيدُ بأخلاقِها فيقول:

بَيْتُـكِ البيـتُ تَسْقُفيـنَ عليـه ... وعلـىٰ صـالـحِ الخَـلائـقِ ينْمِـي

أنـتِ فـي الجـوهـرِ المهـذَّبِ ... منْ تَيمٍ ذُرا المجدِيَيْنَ خَالٍ وعمٍّ[2]

* ولم يكنْ هناكَ منْ علاقةٍ ـ مهما كان نوعها ـ بينَ السَّيدة المحجّبةِ الطّاهرةِ عائشةَ بنتِ طلحة ، وبينَ عمرَ بنِ أبي ربيعة ، فيما زعمَ الرُّواة وأهلُ القَصَصِ والأَخْبارِ ، وإنَّما كانَ عمرُ يكثرُ منْ قولِ الشِّعْر فيها ، وينظمُ أغْزَالَه حَسْبَما تشتهيه نفسُه ، فكان يرقبُها ويراقبُها ويترقّبُها في المواسمِ ، ويطوفُ حولَها ، ويتعرَّضُ لها ، ولا يرىٰ وجْهَها؛ بل كانتْ ـ رحمها الله ـ كما تقولُ

---

(١) ديوان عمر (ص ٥٢) ، والأغاني (٢/ ٣٧١).

(٢) ديوان عمر (ص ٢٤١) ، قطعة رقم (٩٦).

المصادرُ تتجنَّبُ لقاءَه ، وتكرهُ أنْ يرىٰ وجهَهَا ، فقد كانت عفيفةً ، راويةً للحديث النَّبوي ، طاهرةَ الحَسبِ والنَّسبِ ، وكانَ أهلُها من قَبْلُ قَدْ أنكروا علىٰ عمرَ تشبيبهِ بها؛ ولكنَّ عمرَ ـ كما زعم الرواة ـ قد وافقها مرَّةً وهي تَرمي الجِمارَ سافرةَ الوَجْهِ ، فَنظرَ إليها[1] ، فقالتْ : أَمَا واللهِ لقد كنتُ لهذا كارهةً يا فاسق! وعندها أَنْشَدَ قائلاً :

إنَّـــي وأوَّلَ مَـــا كَلِفْـــتُ بحبِّهـــا ... عَجَبٌ وهَلْ في الدَّهْرِ منْ متعجَّبِ
نَعَتَ النِّساءُ فقُلْتُ لَسْتُ بمبْصِرٍ ... شبْهَـــاً لهـــا أبـــداً ولا بمقـــرّبِ
ولقـد تـركْـنَ حـزازَةً فـي قَلْبِـهِ ... منهـا بحـقٍّ أو حـديـثِ المُهْـربِ
فمكَثْـنَ حِيْنـاً ثـمَّ قُلْـنَ تـوجَّهـتْ ... للحّـجِ مـوعـدُهَـا لقـاءُ الأَخْشَـبِ
أقْبَـلْتُ أَنـظُـرُ ما زعَمْنَ وقُـلْنَ لي ... والقُلْـبُ بيـنَ مُصَـدِّقٍ ومكـذّبِ
فلقيْتُهـــا تَمْشـــي بهَـــا بَغـــلاتُهـــا ... تَـرمي الجِمَـارَ عشيّـةً فـي الموكـبِ

---

(١) يقولُ شوقي ضيف عن ترصُّد عمر والشّعراء للنّساء الحواجّ؛ وأنّهم يرسمُون أجملَ اللوحات الشّعرية فيهن: يظهرُ من شعرِ عمرَ ونظرائِه أنَّهم كانوا يرصدونَ الحواجَّ ، وكانوا يفْرِدُون للجميلاتِ منهنَّ صَفَحاتٍ في دواوينهم ، وأخذَ الشَّاعرُ المكيُّ في هذه العُصور يُشْبِه تمامَ الشَّبـه صحفيِّي عصرِنا الحديث ، فكما أنَّ هؤلاء يُعْنَونَ بأنْ يمثِّلُوا في صُحُفِهم صُورَ المجتمعِ وأخبارِه بنسائِه وفتياتِه ، فكذلك كانَ شعراءُ مكةَ في العصرِ الأمويّ ، وعلىٰ رأسِهم عمرُ بنُ أبي ربيعة ، فقد كانوا يعنونَ بأنْ يُـذيعُوا صورَ نبيلاتٍ قريش اللائي يَفِدْنَ علىٰ مكةَ ، وكذلك نبيلات العرب ، وأصبح عمرُ يرىٰ في الحجّ فرصةً هائلةً للاستعراضِ ، استعرض الفتياتِ والنِّساء ممن اشتهرن بالجمالِ في بُلدانهنَّ ، أو في أنحاءِ العالَم الإسلاميّ ، وكان يَـجِدُ في تَـتَبُّـعِهنَّ واستعراضهنَّ لذَّةً لا تُـقَـدَّر ، ولعلَّ ذلك ما جَعَلَه يقولُ:

لَيْـتَ ذَا الـدَّهْـر كـانَ حتمـاً علينـا ... كـلّ يـومَيْـن حجّـةً واعْتِمـارا

وعَتَبَ عليه عبدُ الله بنُ عمرَ حين أنْشَده هذا البيت ، وقال له: أمَا تتقي الله؟! فقال له عمر: بأبي أنتَ وأمّي ، إنّي وضعتُ لَيْتاً حيثُ لا تُغْني.

فعبدُ الله بنُ عمر يعجبُ منه إذْ يدعو أنْ تكونَ الأيّامُ كلُّها حجّاً وعمرةً ، وهو لا يريدُ الحجَّ والعمرَ من حيثُ هما ، وإنّما يريدُ ما يحملان إليهِ منَ النِّسوة الجميلات.
(الشعر والغناء في المدينة ومكة ص ٢٦٠).

غَـرّاءَ يُعشـي النّـاظـريـنَ بيـاضُهـا حَوْراءَ في غُلْواءِ عَيشٍ معجبِ[1]

* وتروي الأخبارُ أيضاً أنَّ عمرَ بنَ أبي ربيعة قد لَقِيَ عائشةَ بنتَ طلحة مرّة عند المُحَصَّب[2] منْ مِنىً ، وشاهدَ كفَّها الذي زيَّنَه الخضابُ[3] ، وشاهدَ

---

(١) انظر : ديوان عمر (ص ٤١٩) قطعة رقم (٢٥١) ، والخبر في الأغاني (١/ ٢٠١).
و«المتعجّب» : هنا مَصْدرٌ ميمي بمعنىٰ التّعجبُّ. «نعتَ النِّساء» أي وصَفْنَ مفاتِنَها ومحاسنَها ، وقد يصحّ أنْ تُقرأ «نُعِتَ» بالبناء للمجهول. وهذا دليلٌ على أنَّ قريبات عمرَ قد وصفنَ عائشةَ فَسَمعَ ذلك منهن.
«الموكب» : هنا جماعة النّساء. «غرّاء» : بيضاء مشْرقة. «يُغْشي النَّاظرين» : يُصيبهم بالعشىٰ وهو ضَعْفُ البَصر. «حوراء» : شديدةُ بياض العين مع شدّة سوادِ سوادِها.
«الغُلْواء» : بضم الغَين ، أوّلُ الشَّباب ونشاطِه وسرعتِه.

(٢) «المُحَصّب» : بضمّ أوّله وفَتْح ثانيه ، مُفَعَّل منَ الحَصْباء : موضع بمكة (معجم ما استعجم ٤/ ١٩٢).
قال الأزرقيّ : المُحَصّب : موضعٌ فيما بينَ مكةَ ومِنَى ، وهو إلىٰ مِنَى أقرب ، قال عمرُ بنُ أبي ربيعة :

نَظَـرتُ إليهـا بـالمحصَّـبِ مـنْ منـىً ولـي نَظَـرٌ لـولا التّحـرجُ عَـارمٌ
فَقُلْـتُ أشمـسٌ أمْ مصـابيـحُ بيعـةٍ بَدَتْ لك تَحتَ السَّجْفِ أمْ أنتَ حاكمُ

(تاريخ مكة للأزرقي ٢/ ٦٧٥).

(٣) «الخِضَابُ» : منْ مظاهرِ الزّينةِ التي كانتْ تصطنُعها المرأةُ الحجازّية وغيرُها استخدامَها الخضاب ، فهيَ لا تريدُ أنْ تتركَ يدَها وأناملَها دونَ زينةٍ ، فكفُّ المرأةِ دائماً خضيبٌ ، وكذلك أناملُها ، وكانتِ النّساءُ يحببنَ الخضابَ ، ويَتَفَنَّنَّ في استخدامِه ، وقد تَفَنَّنَ عمرُ في وَصْفِ أكفِّ النّسوةِ اللاتي تغزّل بهنَّ ، وفي ذلكَ يقولُ في كفِّ امرأةٍ تصوَّر وتخيَّلَ أنَّه يتوسّدها :

فَبـاتَ وسَـادي ثنـيُ كـفٍّ مُخضَّـبٍ معـاوِدَ عـذبٍ لـم يُكَـدَّرْ بمشْـرَبِ

ويقول :

ولقـد أبيـتُ ضَجيـعَ كـلّ مخضَّـبٍ رخْـص الأنـامـلِ طيِّـب الأَرْدَانِ

ويقولُ :

ربْـعٌ لـرخـصِ البنـانِ مختضِـبٍ طـوبـىٰ لمـن بـاتَ وهـو يلتَثِمُـه

ويقولُ في جمالَ أناملِ المرأة :

ومخضَّـبٌ رخـصُ البَنـانِ كـأنَّـه غَنَـمٌ ومنتفـجُ النِّطـاقِ وثيـرُ

مِعْصَمها ، فَذُهِل ـ كما زعموا ـ وقالَ:

لقدْ عرَضَتْ لي بالمحصَّبِ منْ مِنىً ... لِحَيْنِـيَ شمسٌ سُتِّرَتْ بِيَمَانِ
بَدَا لي منها مِعْصمٌ يومَ جمَّرَتْ ... وكفٌّ خضيبٌ زُيِّنَتْ بِبَنَانِ
فواللهِ مَا أدري وإنِّي لَحَاسِبٌ ... بسبعٍ رميتُ الجمرَ أمْ بِثَمَانِ[1]

* ويوردُ صاحبُ الأغاني خَبَراً يجمعُ بينَ الوضْع والصَّنْعَةِ والطَّرافة ، ومفادُه أنَّ عمرَ بنَ أبي ربيعةَ قالَ في عائشةَ بنتِ طلحةَ أبياتاً لمْ يصرِّحْ فيها باسْمِها ، وذلك لمّا غَضِبَتْ عليه بنو تيم لذِكْرِها في شِعْره ، فقال للغريض ـ وكان قد غنَّاها ولحنها ـ: إنَّ بلغت عائشةَ هذه الأبياتُ في غناء ، فَلَكَ خمسة آلاف درهم.

---

(١) انظر: ديوان عمر (ص ٢٦٥ و٢٦٦) قطعة رقم (١١٣) ، وهي ستةُ أبياتٍ. وانظر: تاريخ دمشق (تراجم النّساء ص ٢٢٠) ، والحدائق الغناء ص (٦٨).
«عَرضَتْ لي»: سَنَحتْ وظهرتْ. «شمس»: أرادَ بالشَّمس عائشةَ هنا ، تَشْبيهاً في الحُسْنِ.
و«اليمان»: المنسوبُ إلىٰ اليَمن؛ زادوا الألفَ بين الميم والنُّون عِوضاً عن ياء النَّسبةِ ، وأرادَ بالمنسوبِ إلى اليمن ثوباً ، لأنَّ أجودَ الثّياب كانتْ تُجلَبُ لهم منَ اليمن. و«المِعْصَم»: بكسر الميم بِزِنَة المِنْبر ، موضعُ السِّوار منَ اليَد ، و«جمرت»: رمتِ الجِمار بمنى. و«الخضيب»: الذي خضّب بالحنّاء. و«البنان»: الإصبع؛ وأراد زُيِّنت ببنانٍ كالعُنم ، أو ببنانٍ خَضيبٍ. «ما أدري»: ما أعلمُ.
«و«إنّي لحاسِبٌ»: لعارفٌ بالحِسَاب والعَدِّ؛ يريدُ أنَّه ذُهِلِ عمّا يصنعه منَ النّسك؛ وهذا البيتُ منْ شواهدِ النّحاة علىٰ جوازِ حَذْفِ همزة الاستفهام ، لأَمْن اللبْس وهي مقصودةٌ في الكلام ، فإنَّه أرادَ «أبسبعٍ رميتُ الجمرَ أمْ بثمان». انظر: شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك شاهد رقم (٢٩٤).
ونظيرُ هذا القول ، وَرَدَ عند الكُميت بن زيد الأسديّ في مَطْلع بائيّتِهِ الشَّهيرة:
طربتُ ومَا شَوقاً إلىٰ البيضِ أَطْرَبُ ... ولا لعباً منّي وذو الشَّيب يلعبُ
فإنَّه أرادَ: «أو ذو الشَّيب يلعبُ» ، فحَذَفَ الهمزةَ وهو يريدُها.
هذا ويروى بيت عمر: «فواللهِ ما أدري وإنْ كنتُ دارياً».
ولعلَّ ذاَ الرمة اقتبسَ عن عمرَ هذا فقال:
أصلّي فما أدريْ إذا ما ذكرتُها ... اثنتَيْن صلّيتُ العِشَا أَمْ ثمانيا

* وصادفَ أنْ أرسلَ الحارث بنُ خالد المخزوميَّ الغريضَ إلىٰ عائشةَ حين انصرفتْ منَ الحجّ مَرَّةً ، ومعه كتابٌ منْه إليها ، فيه شِعْرُ الحارثِ فيها ، فبلّغها رسالةَ الحارثِ ، وغنّاها بشعْرِه فيها ، ثم قالتْ له : غنّي[1] بشِعْرِ غيرِه ، فغنّاها بشعْرِ عمر فيها :

أَجْمعَتْ خُلّتي معَ الهَجْرِ بيْنَا ... جلّلَ اللهُ ذَلك الوَجْهِ زَيْنَا
أَجْمعَتْ بَيْنَا ولمْ نَكُ منْها ... لذّةَ العينِ والشَّباب قَضينا
فَتَولَّتْ حُمُولُها واستقَلَّتْ ... لم تَنَلْ طَائِلاً ولمْ نَقْضِ دِيْنَا
فأَصَابتْ بهِ فؤادي فَهاجَتْ ... حَزَناً لي مبرّحاً كانَ حَيْنا
ولقدْ قُلْتُ يومَ مكةَ لمّا ... أَرسلَتْ تقرأُ السَّلامَ عليْنَا
نِعْمَ اللهِ بالرَّسولِ الذي أُرْ ... سِلَ والمرسِلِ الرّسالة عَينا[2]

* فضحكتْ ، وقالتْ : وأنتَ يا غريضُ ، فأنْعَم اللهُ بك عَيْناً ، وأنعم يا ابن أبي ربيعة عيناً ، لقد تَلَطَّفْتَ حتّى أدّيت إلينا رسالتَه ، وإنَّ وفاءَك له لمّما يزيدُنا رغبةً فيكَ وثقةً بِكَ[3] .

---

(١) لاحظِ الطَّلَب هنا ، وذلك ليُظْهِر شعرَ عمر بن أبي ربيعة ، ـ هكذا أراد الراوي ـ ! !

(٢) «أجمعتْ» : اعترفتْ . «خُلّتي» : الخلة : بالضّم الخليلة . «بَيْنَا» : البَيْن : الفِراق . «جلّل الله ذلك الوجه زَينا» : أي غطى وجهَها بالملاحةِ والحُسْن . «الحُمُول» : مراكبُ النِّساء . «استقلّتْ» : سَارت . «لم تَنلْ» : لم تُعْطَ . «طائِلاً» : صفة لمحذوف ، والمعنى : لم تُعْطِ شيئاً ذَا غناء . «هاجتْ» : أثارتْ . «مبرّحاً» : شديداً وقْعُه . «حَيْناً» : هلاكاً .

(٣) انظر : الأغاني (٣/ ١٠٤ و١٠٥) طبعة دار الكتب المصرية عام ١٩٢٧م بتصرف ، وزعمَ بعضُ الدّارسين لشِعْر عمرَ بنِ أبي ربيعة وأخباره ، أنَّ عائشةَ بنتَ طلحة كانت تحبُّ الشِّعْرَ ، وتسألُ عنِ الجديدِ فيه ، فقد كانتْ تسألُ عن شِعْرِ الحارثِ بن خالد المخزوميّ ، وتستمعُ إليه ، وكانتْ تُعْجَبُ بِشِعْر عُمر ، وتكافىءُ عليه ، فقد كافأتِ الغريضَ بخمسةِ آلاف درهم حينَ غنّاها بشِعْره ، وقد أعجبتْ بشِعْر النّميري ، وأعطتْه ألفَ درهم بعد أنْ أنْشدها شِعْره ، وكانت تحفظُ الشّعْر ، وتستشهدُ به في الكثيرِ منْ مواقِفِها .
(صورةُ المرأةِ في شعر عمرَ بنِ أبي ربيعة ص ٨٨) . =

= ونحبُ بدورِنا هنا أنْ نَسْتَدركَ علىٰ الخبرِ السَّابقِ ، ونطرحُ سؤالاً عمّا إذا كانتْ عائشةُ بنتُ طلحةَ تستمعُ إلى الغِناء السَّاقط أم لا؟!

لقد استدلَّ العلماءُ في تحريم الغِنَاء بالكتابِ والسُّنَّة وأقوالِ الصَّحابة والتَّابعينَ والأئمةِ منْ علماءِ المسلمين. فأمَّا دليلُهم منَ القرآنِ الكريم فقولُه تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴾ [المؤمنون: ١ ـ ٣]؛ وقوله: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ ﴾ [القصص: ٥٥]، وفَسَّروا اللغوَ بالغِنَاء. وأمّا دليلُهم منَ السُّنَّة ، فقوله ﷺ: «كانَ إبليسُ أوَّلَ مَنْ ناحَ وأوَّلَ مَنْ غنّى» (نهاية الأرب ٤/ ١٥٧).

وأمّا أقوالُ الصَّحابةِ والتَّابعينَ ، فقد رُوي عن عثمانَ ـ رضي الله عنه ـ أنَّه قال: ما تَغَنَّيتُ قَطّ.

وروي عن ابنِ مسعود ـ رضي الله عنه ـ أنَّه قالَ: الغناءُ ينبتُ النّفاقَ في القلبِ كما ينبت الماءُ البَقْلَ.

ومرَّ ابنُ عمرَ ـ رضي الله عنهما ـ بجاريةٍ صغيرةٍ تغنّي فقال: لو ترك الشَّيطانُ أحَداً تركَ هذه.

وعن إسحاقَ بنِ عيسىٰ قال: سألتُ مالكَ بنَ أنسٍ ـ رحمه الله ـ عمّا ترخَّصَ فيه أهلُ المدينةِ منَ الغنَاء ، فقال: ما يفعلُه عندنا إلا الفُسَّاق.

قال الشَّعبيُّ: لُعِنَ المغنّي والمُغَنَّى لَه. وقال الفُضَيل بن عياض: الغناءُ رقيةُ الزِّنىٰ.

وقال الضَّحاك: الغناءُ مفسدةٌ للقلبِ ، مسخطةٌ للرَّبِ.

وأمّا أقوالُ الأئمةِ ـ رحمهم الله تعالى ـ: فقد قالَ الإمامُ الشَّافعي ـ رحمه الله ـ: الغناءُ لهوٌ مكروهٌ يشْبِهُ الباطلَ. وقال: مَنْ استكثرَ منْه فهو سفيهٌ تُرَدُّ شَهادَتُه.

وقال مالكُ بنُ أنسٍ ـ رحمه الله ـ: إذا اشترىٰ رجُلٌ جاريةً فوجَدَها مغنيَّةً ، كانَ له ردّها بالعَيْب.

وأمّا أبو حنيفة ، فإنَّه جَعَل سماعَ الغِنَاء منَ الذُّنوب.

وقال يزيدُ بنُ الوليد ـ مع اشتهارِه بما اشتُهِرَ به ـ: يا بَني أُميّةَ ، إيّاكُمْ والغِنَاء ، فإنّه ينقصُ الحيَاء ، ويزيدُ في الشَّهوةِ ، ويهدمُ المروءةَ ، وإنَّه لينوبُ عنِ الخمرِ ، ويفعلُ ما يفعله السُّكر ، فإنْ كُنتم لا شكَّ فاعلين ، فجنّبوه النِّساء ، فإنَّ الغناءَ رقْيَةُ الزِّنى ، وإنّي لأقولُ ذلكَ فيه علىٰ أنَّه أحبُّ إليَّ من كلِّ لذَّة ، وأشهىٰ إلى نفسي منَ الماءِ لذي الغُلَّة الصَّادي ، ولكنَّ الحقَّ أحقُّ أنْ يُقال.

* ومنَ العجيبِ أنْ نَجدَ كاتباً وأديباً منْ مثْلِ عبدِ اللهِ عفيفي يزعُمُ بأنَّ عائشةَ بنتَ طلحةَ تَقْفو أَثَـرَ سُكينةَ بنتَ الحُسين في الأَدَبِ والغِنَاءِ فيقول: وكانتْ عائشةُ بنتُ طلحة تتأثَّرُ خطواتِ سُكينةَ في نَقدِ الشِّعْر والغِناءِ والاجتماع بالمغنّينَ والشُّعراء والرُّواةِ والأُدَباء، وذوي الرّأْي والسَّنَاء، فتحدِّثُ كُلّاً بما عُرِف به، وخُلِقَ له حتّى لا تَدَع له مجالاً يقولُ فيه(١).

* إنَّ سيرةَ عائشةَ بنتَ طلحة ـ رحمه الله ـ تدلُّ دلالةً واضحةً علىٰ أدبِها وعفّتها، وعلىٰ نشأَتِها الصَّحيحةِ في بيتِ النَّبوةِ ومهبطِ الوحي، ونحنُ لا نَثِقُ بتلكَ الأخبارِ التي تسيءُ إلى سيرتها، وإنْ ذكرتْها بعضُ كُتُبِ الأدب والمُسامرات على الرغمِ منْ تداولها بينَ أَوسَاطِ القُرَّاء، ومحبّي الأدبِ والثَّقافات العامّة، فليسَ منَ المعقولِ أنْ تكونَ عائشةُ متهتّكةً إلى حدٍّ لا ترضاهُ إحدىٰ جواري عَصْرِها، حتى إنّ كثيراً من الأخبارِ والقَصصِ التي روَاها كِتابُ الأغاني تذكرُ عفّةَ عائشةَ وكراهيتها في أنْ يقولَ زعيمُ الغَزَل(٢) عمرُ بنُ أبي ربيعة أغزالاً فيها وفي غيرِها. والخبرُ الآتي يبيِّنُ مصداقَ ما قُلْنَاه؛ يقولُ الخبرُ: بينما عمرُ يطوفُ بالبيتِ، إذْ رأىٰ عائشةَ بنتَ طلحةَ ـ وكانتْ مِنْ أَجْمَلِ أَهْلِ دهْرِهَا وهي تريدُ الرُّكْنَ تَسْتَلِمه ـ فَبُهِتَ لما رآها، ورأتْه وعلمتْ أنّها قد وقَعَتْ في نَـفْسِهِ، فبعثَتْ إليهِ بجاريةٍ لها، وقالت:

= أَفَبَعْدَ هذا كلِّه تستمعُ عائشةُ بنتَ طلحة إلى الغِناءِ الذي يدعو إلىٰ المعصيةِ؟! ثمَّ إنَّها يُروىٰ عنها الحديثُ النبويُّ الشَّريف؟! وقد اشترطَ الرّواة للرّاوي منها أنْ يكونَ الرَّاوي سالماً منَ الفِسْق وخوارِمِ المروءةِ.
ومن المعلوم أنّه ليسَ بينَ عائشةَ بنتِ طلحة، وبين النَّبيِّ ﷺ إلا عائشةُ أمُّ المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ!! فتأملْ أيّها القارىء الكريم!

(١) المرأة العربية (٢/ ١٧٦).

(٢) يقولُ الدكتورُ مصطفى الشّكعة: إذا كانَ لنـا أنْ نُـنَـصِّبَ رائـداً لكلٍّ من فـنَّي الغَزَل المادي والعُذري فإنَّ عمرَ بنَ أبي ربيعة رائـدٌ للأوَّل، وجميـلَ بنَ مَعْـمَر رائـدٌ للثَّـاني، وإذا كانَ لا بُـدَّ منْ تنصيبِ زعيمِ الغزلِ بنوعَيْه، فلا نجدُ مناصاً من الاعترافِ لعمرَ بنِ أبي ربيعة بهذه الزّعامة. (رحلة الشّعر ص ٢٠٨).

قولي له: اتقِ اللهِ ، ولا تَقُل هجراً ، فإنَّ هذا مقام لا بدَّ فيه مما رأيت. فقال للجارية: أقرئيها السَّلام وقولي لها: إنَّ ابنَ عمّك لا يقول إلا حسناً ، وقال فيها:

لِعَائشَةَ ابنةِ التَّيميِّ عنْدي حمىً في القَلْبِ لا يَرْعىٰ حِمَاهَا
يذكِّرني ابنةَ التَّيميِّ ظَبْيٌ يرودُ بروضةٍ سَهْلٍ رُبَاهَا
فقُلْتُ له وَكَادَ يُراعُ قَلْبي فلمْ أَرَ قطّ كاليومِ اشْتِبَاهَا
وأنَّك عَاطِلٌ عَارٍ وَلَيْسَتْ بعاريةٍ ولا عُطُل يَدَاهَا[1]

* ويلاحَظُ منَ الخبرِ السَّابِقِ أنَّ عائشةَ بنتَ طلحةَ لما علمتْ أنَّ عمرَ

---

(١) انظر: ديوان عمر (ص ٥١). و «عُطُل»: يُقال: عَطِلَتْ المرأةُ: خَلَتْ منَ الحليّ ، فهيَ عاطِلٌ. و«العُطُل»: المرأةُ ليسَ عليها حَليٌ ، وتعطّلَتْ: إذا خلا جِيْدُها منَ القلائدِ فيه عُطُل وعَاطِل ومعْطَال.
ومنَ الجديرِ بالذّكْرِ أنَّ المرأةَ بشكلٍ عام حريصةٌ علىٰ الزّينة ، وعلىٰ التّحلّي بأنواع الحُليِّ المختلفة. يقولُ الدكتور أحمد الحوفي: إنّ حليَّ المرأةِ منْ أخصّ خصائِصها في كلِّ عَصْرٍ ، وفي كلّ شَعْبٍ ، تُضيفُ به إلى جمالِها جمالاً ، وتزهىٰ به وتفاخرُ وتكاثرُ ، وتختلبُ ألبابَ الرّجال ، وقلّما تبدو المرأةُ عَاطِلاً منْ حُلي. (الغزلي في العصر الجاهلي ص ١٠٧).
ولعلَّ استخدامَ المرأةِ للحُليّ وألوانِ الزّينةِ يدلُّ علىٰ حَضَريّتِها ، فمَع الحليّ يزدادُ جمالُها جمالاً ، إذْ يمتزجُ جمالُها وحسنُها بجمالِ حُليِّها وزينتِها. ولكنَّ النِّساءَ اللائي ذكرهُنّ عمرُ بنُ أبي ربيعة كلّهنَّ ممن أَسَرتِ الحليُ صباحنَّ ، وقد جَعَلَهُنَّ جميعاً ممن يتحلينَ بأنواعِ الزّينة والدرِّ والياقوتِ واللآليء ، فها هو يصوِّرُ إحداهنَّ ، ويصفُ جِيْدها الأَغْيد بزينةِ الدرّ والياقوت:
وبجيدٍ أغيدٍ زيَّنَهُ خَالصُ الدُّرِّ وياقوتٌ بَهي
وأخرىٰ يحسبُ الحليّ واللآلىءُ لها لمعانُ نَارٍ متَّقدةٍ ، اسمعْ إليه يصفُ امرأةً راقدةً في بيتها:
فوجدتُ فيه حرّةً قد زيَّنَتْ بالحلي تحسبُه بها جَمْرَ الغَضَا
والمرأةُ عنده كالشَّمس في النّهار عندما تتزيّن ، وكالبدر في الليل عندما تكون عاطلة:
شمسُ النَّهار إذا أرادتْ زينةً والبدرُ عاطلةً إذا تتجرّد

يَسْتَرِقُ النَّظر إلىٰ النِّساءِ وأنَّه رآها ، بعثتْ إليهِ تأمره بتقوىٰ اللهِ ، فإنَّه في مكانٍ طاهرٍ مُطَهَّرٍ .

* ولكنَّ عمرَ ـ علىٰ ما يبدو ـ لم يَرْعَوِ عمّا نَهَتْهُ عنه ، فقد وَرَدَ أنَّه لقيها بمكةَ ، وهي تسيرُ علىٰ بغلةٍ لها ، فقالَ لها : قِفي حتّى أسمعك ما قُلْتُ فيكِ .

فقالت : أَوَ قَدْ قُلْتَ يا فَاسِق؟!

قال : نعم ، فوقَفَتْ فأنْشَدَها :

يا ربَّةَ البَغلَةِ الشَّهباء هَل لكِ في ... أنْ تُنْشِري ميّتاً لا تُرهقي حَرَجَا
قالتْ بدائِكَ مُتْ أَو عِشْ تُعَالجُهُ ... فما نرىٰ لكَ فيما عِنْدنَا فَرَجَا
فقلتْ ولا والذي حَجَّ الحجيجُ له ... ما محَّ حبّكِ منْ قَلْبِي ولا نَهَجَا
كالشَّمسِ صورتُها غراءُ واضحةٌ ... تُعشي إذا برزتْ من حُسْنِها السُّرُجَا
ضنَّتَ بنائِلها عنه فَقَدْ تركَتْ ... في غَيرِ ذَنْبٍ أَبا الخطَّابِ مُخْتَلِجَا

* وتردُّ عليهِ عائشةُ مكذّبةً ما قال ، ثمَّ قَضَتْ حجَّها وانصرفت إلىٰ المدينةِ ، فقال في ذلك :

إنَّ مَنْ تَهوىٰ مَعَ الفَجْرِ ظَعَنْ ... للهوىٰ والقَلْبُ مِتْبَاعُ الوَطَنْ
بَانتِ الشَّمس وكانتْ كُلَّما ... ذُكِرتْ للقلبِ عادوتُ دَدَنْ
نظرتْ عيني إليها نَظْرةً ... تركَتْ قلبي لديها مُرْتَهَنْ
فرآهَا القَلْبُ لا شَكْلَ لها ... ربّما يعجبُ بالشَّيء الحَسَنْ
ولئن أمْسَتْ نواهَا غُربةً ... لا تُواتيني وليستْ منْ وطَنْ
فَلَقَدْماً قَرَّبَتْنِي نَظْرتي ... لِعَنَاءٍ آخرَ الدَّهْرِ مُعَنّ
ليسَ حبٌّ فوقَ ما أحببتُها ... غيرَ أَنْ أَقْتُلَ نفسي أو أُجَنْ[1]

---

(١) انظر : ديوانَ عمر (ص ٥٣) ، والدّرّ المنثور (ص٢٨٩) مع الجمع والتّصرف نقلاً عن الأغاني (١/ ٨١) ، وانظر : رسائل الجاحظ (كتاب البغال ٢/ ٣٦١) . و«ظعنَ» : سَافَرَ . «مِتْبَاع» : كثير الاتّباع . «بانَتْ» : فارقَتْ . «دَدَنْ» : اللهو واللعب . «لا شكلَ لها» : لا نظيرَ لها ولا مثيل . «نواها» : بيتُها .
«لا تواتيني» : لا توافقُني . «ليستْ مِنْ وطن» : ليستْ من وطني ، فحذفَ ياء =

* ومنْ أشعارِ عمرَ وأغزالِهِ في عائشةَ قولهُ منْ قصيدةٍ جاءَ في آخرِها :

أَبِيْنِي ابنةَ التَّيميِّ فِيمَ تَبِلْتِهِ عشيّةَ لفَّ الهاجِمينَ المُحَصَّبُ
خُذي العَقْلَ أو مُنِّي ولا تَمْثُلي بهِ وفي العَقْلِ دونَ القَتل للوترِ مَطْلَبُ[1]

* هذا وأشعارُ عمرَ كثيرةٌ في عائشةَ ، ومخترعاتُه أكثرُ فيما يتخيّل ، فليسَ منَ المعقولِ أنَّ عائشةَ ، أو أي شريفةٍ منْ شريفاتِ قريش أو العربِ يعتبرنَ أنَّ مجرَّدَ ذكْرِ اسمهنَّ في شعْرِ عمر يعطيهنَّ مكانةً خاصّةً بين نساءِ مجتمعهنَّ ؛ وقد زَعَمَ بعضُ الدَّارسين أَنَّ المرأةَ إذا ذكَرَها عمرُ في شِعْرِه ، عَلَتْ منزلتُها بينَ نِسَاءِ مجتمعِها ، ووضَعَها في مصافّ الجميلات ، ولهذا كُنَّ يأتينَ للحّج يحدوهنَّ الأملُ في الوصولِ إلى شِعْرِ الشَّاعر ، وليس إلى قَلْبه[2] .

* ومنَ المثيرِ أنْ نجدَ هذا الدَّارس يزعمُ أنَّ الرّجالَ في ذلك العَصْر ـ في القرنِ الهجريِ الأوّل وفي مكةَ والمدينةِ ـ لا يجدونَ حَرجاً في تشهيرِ الشُّعراءِ بجَمالِ نسَائِهم ؛ ولنْ أطيلَ عليكَ المشْوارَ ، فاسمعْ ما يقولُ هذا الدَّارس : ولم يجدِ الرّجالُ حَرجاً في تشهيرِ الشُّعراء بجمالِ نسائهم ، فقد أحبُّوا ذلك ، وراحُوا يفاخِرونَ به ، ويطلبونَ الشُّعراء ليطلعوهُم عليهِ كي يتغنّوا به ، وكانَ الشُّعراء يتناقلونَ في حديثهم محاسنَ سُكينةَ بنتِ الحُسين زوجِ مُصعبَ بنِ الزُّبير ، وكان كلما سَمِعَ ذلك لا ينكرُ ما يسمعُ ، ولا يكرهُ ما يَجدُ منَ الشُّعور ، ولا يردُّ نَفْسه عن هذا الغُرورِ الذي يثيرُه في الرَّجُل إعجاب النَّاس

= المتكلم وهو يريدها ، ووقعَ نظيرُ ذلك في القرآنِ الكريم مثل قوله تعالى : ﴿ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴾ [الحجر : ٥٤]. «لِعَنَاء» : العَنَاءُ : التّعب والشَّقاء . «مُعَنّ» : وصْفٌ له بأنّه تَعبٌ مُعَنّىً .

(١) ديوان عمر (ص ٤٠٧) قطعة رقم (٢٣٨) . و«تَبِلْتِهِ» : أورثتِه التّبْل ، ومعناهُ ذَهَبْتِ بعقلِه . و«المحصّب» : مكانُ رمي الجمارِ بمنى . «العَقْل» : أصلُه الإبل تُعطىٰ ديةً للقتيل ، سمّوها بذلك لأنّهم كانوا يعقلون الإبل ـ أي يربطونها ـ بفناءِ دارِ القتيل . «مُنّي» : فَعل أمْرٍ من المنِّ ، أرادَ به العفو عن الجناية بلا عِوَض . «لا تمثُلي به» : من المُثلة . وهي تقبيحُ مَنْ يُقتص منه . «الوتر» : بكَسْرِ الواو : الثّأر .

(٢) هذا مخالف للواقع وللعصر الذي عاشت فيه عائشة إذ هو قريب من عهد النبوة .

بزوجِهِ وتهالكهم عليها ، وقد أحضرَ مُصعب الشَّعبيَّ المحدِّث الكبيرَ إلى بيتِهِ ليريه جمالَ زوجِه عائشةَ بنتِ طلحة ، وطلب منه أنْ يحدِّث[1] بهذا الجمالِ ويشهرَهُ بينَ النَّاس ، فإذا كانَ هذا هو حالُ مُصْعَب بنِ الزُّبير ، وهو مضرب المثَلِ والمروءةِ ، فإنّنا نظنُّ أنَّ هذا الاتجاه سادَ عند أكثرِ رجالِ المجتمع[2] .

* وإذا كانَ الرجالُ يحرصونَ على إظْهارِ جمال نِسائِهم ، فإنَّ النساءَ أحرصُ على إظْهارِ جمالهنَّ وإشاعتهِ وعرضِهِ في الأَسْواقِ ، لأنَّ المرأةَ منْ طبيعتِها حبّ المفاخرة بجمالِها ، وحرصها علىٰ إظهارِه[3] .

* إنَّ مَنْ يُطالعُ ويقرأُ مثلَ هذه الأَخبار ، وأشباهِ هذه القَصص المصنوعةِ ـ عند القدماء والمعاصرين ـ يشْعُرُ بأنَّ المجتمعَ في مكةَ والمدينةِ ، كان مجتمعاً خَليعاً ماجِناً ، خَلا منَ الضَّوابطِ ، وخَلا من كلِّ مكرمةٍ ، ومنْ كلِّ فضيلةٍ ، وظَنَّ وحَسِبَ وخَالَ أنَّ النِّساءَ ـ ومعظمُهن منْ عليةِ القوم ـ لا حارسَ عليهنَّ ولا رقيبَ ، يفعلْنَ ما يحلو لهنَّ ، بل إنَّ إحداهُنَّ كانتْ تأتي ـ كما زعموا ـ لأداءِ الحجِّ ، وتستمعُ إلىٰ شعرِ عمرَ بنِ أبي ربيعة ، وكأنَّه أحدُ أركانِ الحجّ ، بل كانتْ إحداهنَّ ـ كما افتروا ـ تَنْشَغِلُ عنِ الطَّوافِ حولَ الكعبةِ ، لتسمعَ وتستمتعَ بشعْرِ عمرَ! ، ولعلَّ هذهِ الفرية ممّا أكَّدها صاحبُ كتاب: «صورة المرأة في شعر عمر بن أبي ربيعة» حيثُ يقول: وكانتِ المرأةُ تأبىٰ على نَفْسِها أنْ تأتيَ للحجِّ ، وتعودَ دونَ أنْ تمتّع سَمْعَها بشْعرِهِ وحديثِهِ ، وكأنَّ هذا فريضة[4] من فرائض الحج ، عليها أنْ تؤديَها قبل أن تعودَ. فأمَّ

---

(١) بيَّنّا في صفحاتٍ مَضَتْ أنَّ هذه القصة أكذوبةٌ بلهاء وفِريةٌ عرجاء وفتنةٌ عمياء .

(٢) صورة المرأة في شعر عمر بن أبي ربيعة (ص ٨٥ و٨٦). وهذا الكلامُ الذي أتىٰ به هذا الدَّارسَ: خَرْطُ القتادِ دونه ، ويحملُ خطراً كبيراً وأكاذيب لا حَصْر لها .

(٣) المصدر السابق .

(٤) لاحظ قوله: كأنَّ هذا فريضةً منْ فرائض الحجّ ، عليها أنْ تؤديَها قبل أنْ تعودَ!! فهل نسلّم بهذا القول؟ أو نستسلم لذلك الواقع!! إنَّ المطلعَ الحصيف لا تخفى عليه بواطنُ هذه الأخبار وأخطارها .

محمّد بنت مروانَ بنِ الحكم تأتي إلى عمرَ لتسمعَ حديثه بعد أنْ فَرَغَتْ منْ تأديةِ المناسكِ ، وقد أخْفَتْ نفسَها في نسوةٍ ، حتى لا يعرفها عمرُ ، لأنَّه لا يعنيها ، وإنَّما الذي يعنيها شعرُه وحديثُه.

* وأمُّ الحكم يَشْغَلُها حديثُ عمرَ عنِ الطَّواف ، فتميلُ إليهِ وهو يتحدَّثُ مع جماعةٍ منْ بني مخزوم ، لتستمعَ إلى كلامِه وتبادلَه أطرافَ الحديثِ.

* وفاطمةُ بنتُ الأشعثِ تأتي للحجّ فيراها عمرُ ، ويُعْجَبُ بجمالِها ، ويرسلُ خَلْفَها ، فتعده بالزّيارة ، وهي تفعلَ ذلك منْ أجْلِ شِعْرِهِ وسماع حديثه ، وقد كانت لما جاءها ، أرسلتْ بينها وبينه سِتْراً رقيقاً تراهُ منْ ورائه ولا يراها ، فجعلَ يحدّثُها حتّى استنشدته ، فاستخفَّها الشِّعْرُ فرفعتِ السَّجف[1] ، وهي لم ترفعِ السَّجف إعجاباً بعمرَ ، ولكنَّها ترفعُه بعد أَنِ استخفَّها شِعْرُه ، وهي تَعدَهُ بالزّيارة لا حبّاً في شَخْصِه ، ولكنْ حُبّاً في شِعْره[2] الذي تحرصُ على سماعِهِ قَبْل أنْ تعودَ إلىٰ بلدِها[3].

* إنَّنا بدورنا لا ننكرُ تبرئَةَ بعضِ النَّاسِ آنذاك منْ كلِّ ما يخدشُ الحياءَ ، أو منَ العواملِ الطَّارئةِ علىٰ المجتمع منْ كثرة الجواري والقيان وامتزاجِ العاداتِ. فالمجتمعُ العربيُّ المسلمُ مَثله مثْل أيِّ مجتمعٍ علىٰ وجْهِ الأرضِ في كلِّ زمانٍ وكلِّ مكَانٍ ، ولكنْ كانت هناكَ ضوابطُ واضحةَ المعَالمِ للنِّساء ، وخُصوصاً الشَّريفات ، أو بنات الصَّحابة ، أو التَّابعيات ، أو نساء التَّابعين ، فكُنَّ راوياتٍ للحديثِ ، ناقلاتٍ للعِلْم ، لم يتحدَّثْ علماءُ الجرحِ والتَّعديل عن واحدةٍ منهنَّ بسوءٍ ، أو شيءٍ يخدشُ منْ مكانتِها ، بل كُنَّ مِنَ الثِّقاتِ اللاتي يُـؤْخَـذُ عنهنَّ العِلْمُ.

---

(١) لاحظ أيضاً رفْعَ السَّجف ورفْعَ الكلفةِ بعد الحجاب والسَّتر ، إنّها فرية عظيمة والعياذ بالله.

(٢) هذا تعليل سخيف هزيل سقيم.

(٣) صورةُ المرأة في شعر عمر بن أبي ربيعة (ص ٨٧ و٨٨).

* أمّا القِيان[1] والجواري ، فنعتقدُ أنَّه كان لهُنَّ دورٌ كبيرٌ ، يتمثَّلُ في نَشْرِ الابتذالِ والإسفافِ واللهوِ والعَبثِ ، ولعلَّ العَصْرَ الأمويَّ ، وأوائلَ العصرِ العباسيّ ، هما عَصْرا الغزَلِ الذَّهبي ، والتّألُق والتّأنُّق في الشِّعر العربي كلِّه ، إذ كان شعرُ الغزلِ واحداً من الفنونِ الأدبيّة التي ميَّزَتْ تلكَ الحقبة تمييزاً ملحُوظاً.

* ويُرجِعُ أحدُ الدَّارسين إلىٰ أنَّ الغَزَلَ آنذاك مرتبطٌ ارتباطاً وثيقاً بالنَّشَاطِ السِّياسي ، يقولُ شاكر النَّابلسي: ويلاحظُ أنَّ انتشارَ شِعْرِ الغزَل في العَصْر الأموي ، كانَ له ارتباطٌ بالنَّشاط السِّياسيّ مباشرةً ، كما يُفَسِّرُ المؤرِّخُون ، فالدَّولةُ الأمويّةُ مَثَلاً ، كانتْ ـ وهي في دمشقَ ـ تريدُ أنْ ترىٰ الحجازَ هادئاً وسَاكِناً سياسياً هدوءَ مجرىٰ نَهْر بردىٰ في دمشقَ ، فكانت تشجّعُ الغِنَاءَ في الحجازِ مَثلاً ، والغِنَاءُ في الحجازِ وباقي بلادِ العرب ، ارتبطَ ارتباطاً وثيقاً بالغَزَلِ؛ فحيثما وُجِدَ الغناءُ ، وُجِدَ الغَزَلُ ، وكانتِ الحجازُ عاصمةَ الغناءِ العربيّ إبّان الدَّولةِ الأمويّة ، كما هي القاهرةُ في القَرنِ العشرين عاصمة الغِناء العربي[2].

* وفي شوطٍ آخر يعلِّلُ النّابلسي نشاطَ الغناءِ والشّعر الغَزَلي في الحجازِ ، فيقول: إنَّ الدَّولةَ قد أغمضَتْ عينَها عنْ شِعْرِ الغَزَلِ الذي كانَ في كثيرٍ منَ الأحيانِ يخدشُ حياءَ الحرائرِ ، وينالُ منْ سمعةِ بنَات البيوتات ، فهذا عمرُ بنُ أبي ربيعة يشبِّبُ ببناتِ الخُلفاء خفيةً وإعلاناً ، فلا يلقىٰ إلاّ تهديداً عَابِراً لَعَلَّه لِذَرِّ الرَّمادِ في العُيون ، وفي كثيرٍ منَ الأحيانِ كانَ الخليفةُ يلقاهُ ويأْنَسُ إليهِ ، ويخلعُ عليه ويجيزُه ، ولو حدثَ ذلك في بيئةٍ أخرىٰ غير بيئةِ

(١) كانَ في القيانِ شَاعراتٌ يجالِسْنَ الشُّعراء ، ويبادلْنَهم الأشعارَ الماجنةَ التي يخجلُ الرّجال منْ ذكرها؛ فكيفَ النّساء؟! هذا وكُتُبُ الأدبِ تحفلُ بأخبارٍ كثيرةٍ عنِ الجواري والقيانِ تؤيدُ ماذكرناه.

(٢) الضوء واللعبة (ص ٣١٢ و٣١٣).

الحجاز لَلَقِيَ الشّاعر الغَزِلُ منْ أمرِه عُسْراً[1].

* إنّنا لا نستطيع أنْ نُسَلِّم لشاكرِ النّابلسي ما جاءَ بِهِ من رأي ، إذْ لا نتوقّعُ أنْ يتغزَّلَ عمرُ ببناتِ الأَشْرافِ ، أو يذكرهنَّ بغزلٍ ينالُ منْ حيائِهنَّ ، ومن ثمَّ يُغضي عنه أهلُهنَّ وذويهنَّ ، كما أنَّ الخلفاءَ الأمويين كانوا يعنّفون عمرَ على صَبْوتِه ومجونِه؛ فقد ذكرَ المرزباني خَبَراً رفعه إلىٰ مُصعبَ بنِ عبد الله الزُّبيريّ قال: لما حجَّ عبدُ الملك بنُ مروانَ ، لَقِيَهُ عمرُ بن أبي ربيعة بالمدينةِ ، فقال له عبدُ الملك: لا حيَّاكَ الله يا فَاسِق!

قال: بِئْسَتْ تحيةُ ابنِ العمّ لابنِ عمِّهِ علىٰ طولِ الشَّحْط[2].

فقال له: يا فاسقُ ، ذاك لأنَّكَ أطولُ قريشٍ صبوةً ، وأبطؤها توبةً ، أَلَسْتَ القَائِل:

وَلـولا أنْ تعنِّفَنـي قُـريـشٌ ... وقَـولُ النَّـاصِـحِ الأَدْنَـىٰ الشَّقيـقِ
لَقُلـتُ إذِا التقَيْنـا قبِّلينـي ... ولـو كُنَّـا عَلـىٰ ظهْـرِ الطَّـريـقِ

اغْرُبْ.

فقال عمرُ: بئستُ تحيةُ ابنِ العمّ ، فاستحيا عبدُ الملك ، وقضى حوائجه[3].

* أمّا سُليمانُ بنُ عبد الملك ، فكانَ شديداً على عمرَ ، فقد أخرجَه إلى الطّائِف ، وحرمَهُ منَ الحجِّ ، لِفِسْقِهِ وتغزُّلِهِ بالحرائرِ ، وتَقوُّله عليهنَّ أيّام الحجّ ، وكذبه في غَزَلهِ ، حتى إنَّ عمرَ نفسَه قال لسُليمان: إنّي لا أمدحُ الرِّجال ، ولكنْ أمدحُ النِّساءَ. ذكرَ مصعبُ بنُ عبد الملك الزُّبيريّ قال: حجَّ

---

(١) المرجعُ السَّابق نفسه (ص ٣١٤).
(٢) «الشّحط»: البُعْد.
(٣) الموشح (ص ٢٣٩) ، وانظر الأبيات وهي أربعة في ديوان عمر (ص ٤٤٥) قطعة رقم (٢٧٨).

سُليمانُ بنُ عبدِ الملك ، فلما قدمَ مكةَ ، أرسلَ إلىٰ عمرَ بنِ أبي ربيعة ، فقال : ألستَ القائل :

كَـمْ مِـنْ قَتيـلٍ لا يُبَـاءُ بـهِ دَمٌ ... ومَـنْ غَلِـقٍ رَهْنـاً إذا ضَمَّـه مِنَـى
ومِنْ مالىءٍ عينيهِ من شيءِ غيرِه ... إذا راحَ نحو الجمرةِ البيضُ كالدُّمىٰ
أَوَانِـسُ يَسْلُبْـنَ الحَليـمَ فُـؤَادَه ... فيا طُولَ ما شَوْقٍ ويا حُسْنَ مُجتلىٰ
فَلَـمْ أرَ كـالتَّجميـر مَنْظـرَ نـاظِـرٍ ... ولا كَلَيالي الحجِّ أَفْلَتْنَ ذَا هَوىٰ[1]؟!

قال : نعم!

قال : لا جَرَمَ ، واللهِ لا تحجُّ مع النَّاسِ العام. وأخرجه إلى الطَّائفِ حتى قَضى النَّاس حجّهم[2].

* أفَبَعْدَ هذا كلِّه نُصَدِّقُ علاقاتِ عمرَ بنِ أبي ربيعة بعائشةَ بنتِ طلحة وغيرِها منَ النِّساء[3]؟! وفي أيّام الحجِّ والعبادةِ؟!

---

(١) «لا يباء به دم» : يريد ليس من يكافئه فيُقتل به. «غَلِقَ الرهن» : إذا صارَ لا سَداد له. والمرادُ كمْ منْ قلوبٍ أسيرةٍ لا يقدرُ أصحابُها على افتكاكِها. «البيض كالدّمى» : البيضُ : النِّساء الحِسَان ، شبَّههن بالدُّمىٰ لجمالهن. «التَّجمير» : رميُ الجمرات. «أَفْلَتْنَ» : رُوي بدلاً عنها أقْتَلْنَ وأفتنَّ.

(٢) انظر : الموشح (ص ٢٣٩ و٢٤٠) ، وديوان عمر (ص ٤٥٩) قطعة رقم (٢٩٦).

(٣) في خبثٍ ومكرٍ واضحَيْن يزعمُ كمال بسيوني بأنَّ النِّساء كُنَّ يتسابَقْنَ إلىٰ مَودَّةِ عمر ومنهنّ عائشة بنت طلحة ، ويزعمُ بأنَّ عائشةَ كانتْ تنتهزُ فرصةَ الحجِ وهي لا تريدُ الحجَّ ، بل تريدُ أنْ تلتقيَ عمرَ بنَ أبي ربيعة فيقول : وكانتِ النساءُ مفتوناتٌ بهِ ، متهالكاتٌ عليه ، يتنافَسْنَ فيهِ ، ويستبقْنَ إلىٰ مودَّته ورضائِهِ ، وتحريضهِ علىٰ قولِ الشِّعر ، وإغرائِهِ بالغَزَلِ فيه ، وكانَ هو مفتُوناً بهؤلاءِ النِّساءِ ، لا يكادُ يقفُ عند مَظْهرٍ منْ مظاهِرِ الجمالِ ، حتى يخلبَه مظهرٌ آخر ، وكان لا يسمعُ ثناءَ امراةٍ حتى يستهويه ثناءُ امرأةٍ أخرىٰ ، فكانَ طمعُه متّصلاً ، وأملُه لا حدَّ له.
وقد كانَ يتغزَّلُ بهؤلاءِ النِّساء جهرةً في غيرِ تكتُّم ولا استخْفَاء ، ولم يكُنْ يكْتَفي بإعلانِ غَزَلِه ، بل كانَ يستعينُ عليه نَفَراً منْ أشرافِ قُريش ، فيعينونَه ويجدونَ في هذهِ المعونةِ لذَّةً عظيمةً ، وكانَ موسمُ الحجّ بالنّسبة إليه مَعْرِضاً للجمالِ ، يستقبلُ فيه الوافدات منَ المدينةِ والشَّامِ والعراقِ فيتَّصِلُ بهنَّ ، ويتحدَّثُ إليهنَّ؛ وكانتْ له =

* إنَّ التَّرفَ والنَّعيمَ الذي عاشَ فيه عمرُ صغيراً ، وشبَّ وشَابَ عليهِ ، ثمَّ شاعريته السَّلِسَة ، كلُّ هذا جَعَلَه يسلكُ طريقَ الغَزل ، ويصفُ أحوالَ النِّساء[1] ، ويتعرَّضُ للمحصناتِ المتعفّفاتِ القانتاتِ العابداتِ منْ نساءِ قومِهِ

= رسُلٌ تعملُ في ذلك ، فتأتيهِ المواعيدُ في مكةَ حِيناً ، وفي مِنىً حيناً آخر. وقد كانتْ عائشةُ بنتُ طلحة قد عَلِمَتْ بأمْرِ هذا الفتى ، وكانتْ حريصةً على لقائِهِ والتّحدُّثِ إليه ، وكانت تريدُ أنْ يقولَ فيها الشعر ، كما قالَ في غيرها منْ نساءِ قُريش ، فانتهزتْ فرصةَ الحجّ ، وخرجتْ إلى مكةَ كغيرِها منَ النِّساء ، لا تريدُ الحج ، وإنّما تريدُ أنْ تلقىٰ عمر وتتحدّثُ إليهِ ، وتحرِّضه على قولِ الشّعر فيها.
وأقبلتْ عائشةُ على مكةَ في مواكِبَها الفخمةِ الرائعةِ ، يسبقُها عَرْفُ المِسْك ونَشْر القرنْفل!!!! والجواري من حولِها يملأْنَ الجوَّ بوجوههنَّ المشرقةِ وأصواتهن العذبةِ جمالاً وغناءً ، فما راعهنَّ إلا فتىً ينسلُّ بينهنَّ كأنَّه الحيةُ ، أو كأنَّه اللصُ ، فلا تكادُ تراهُ عائشةُ حتّى تعتقدَ أنَّه عمرُ بنُ أبي ربيعة ، وحتّى تحسَّ كأنَّ دَمَها كلّه قد صَعِدَ إلى وَجْهِها ، وتسألُ عائشةَ جواريها عنْه فتجيبُها إحداهنّ وكأنّها تتغنىٰ: «قالتْ أبو الخطَّاب أعرفُ زِيّه» ، وتضحكُ الجواري كلُّهن ولكنَّ جاريةٌ أخرى تقولُ في صوتِ عذب رائع أخّاذ: «تباً لهنَّ بالعرفانِ لمّا عرفني». وتُسَرَّ عائشةُ في نفْسها حبّاً له!!!! وإعجاباً به!!! وتُظْهِرُ للجواري إنْكارَها له ، وضيقَها به ، وسخطَها علىٰ انسلالِه إليهن ، وتضمُّ مطرفها إليها كأنّها تخشى أنْ يراها ، ولكنَّ عمرَ ما زال يطوفُ حولَها ، ويتعرضُ لها ، حتّى وافقها وهي ترمي الجمار ، فما كادَ يراها حتى فَقَدَ رشْدَه وصوابَه ، ووقفَ ساهماً واجماً لا يَعْرِفُ ماذا يصنع ، ولا يدري كيف يقولُ ، وقد ظلّ قائماً واجماً كأنه الصَّنم... إلى آخر هذا التهريف. انظر سلسلة اقرأ (ص ٣٨ ـ ٤٠).

(١) لَعَلَّ نزارَ قباني في عَصْرنا يشبُه عمرَ بنَ أبي ربيعة ، لكنَّ نزارَ قباني له طريقتُه الخاصّة منْ حيثُ المرأةِ والشّعر. يقولُ نزارُ في كتابه: «المرأة في شعري وفي حياتي»:
المرأةُ هي الشِّعْر. وليستْ مُلْحقَةً به ، أو مضافةً إليه ، أو هامشاً منْ هوامِشِه.
كلُّ شعرٍ كُتِبَ ، أو يُكْتَبُ ، أو سوفَ يُكْتَبُ ، مرتبطٌ بالمرأةِ ، كما الجنينُ بحبلِ المشيمة ، وأي محاولةٍ لفكّ الارتباط بينهما ، يقتلُ الطِّفل والأمَّ معاً.
الشّعرُ يجدُ في المرأة مرضعتَه وحاضنتَه وأنثاه... وبالتّالي فهي تؤكّدُ ذكورتَه وفحولته.
والمرأةُ تجدُ في الشِّعر رجُلَها وبطلَها ومحرِّضَ أنوثتِها ، وصانعَ مجدِها وأطفالِها ، =

ومنْ غيرِهنَّ ، لذلك وقَعْنَ منهُ في بلاءٍ عظيمٍ ، وصرنَ يحذرنَ الخروجَ إلىٰ الحجِّ ، لأنَّه كانَ يتلقاهنَّ بمكةَ ، ويترقَّبُ خروجهنَّ للَّطوافِ والسَّعي ، ويصفُهنَّ وهُنَّ محرماتٌ ، وقد حلُمتُ عليه رجالاتُ قريش طَمعاً في توبتِهِ ولمكانةِ نَسَبِهِ منهم ، فهو من أسرةٍ قرشيةٍ عظيمةِ الحظّ منَ الشَّرفِ والمجدِ ، ضخمةِ الثَّروة ، لها مكانتُها وصيتُها في الجاهليّةِ والإسلامِ.

ثمَّ بَعْدَ هذا كُلِّه اعترفَ أحدُ شُعراءِ الغَزَلِ بالتَّقدُّم لعمرَ بنِ أبي ربيعة في هذا المجال؛ فقال نُصيب: عمرُ بنُ أبي ربيعة أوصفُنا لربَّاتِ الحِجَال.

وقال جريرُ عنْ غَزَلِ عمر ونسيبِه: إنَّ أَنْسَبَ النَّاسِ المخزوميّ ـ يعني عمر ـ.

وما دامتْ هذهِ بعضُ آراءِ المتقدّمين في عمرَ بنِ أبي ربيعة المخزوميّ ، فمنَ الأَفْضَلِ ألاّ تنطلي علينا تلك القَصَصُ والأخبارُ التي فيها غَضٌّ منْ شَأْنِ الشَّريفات المُحصنَات ، من مثْل عائشةَ بنتِ طلحةَ ، وسُكينةَ بنتِ الحسين ، وغيرهما من سَادات النِّساء وأعليائهنَّ.

* ولعلَّ البيئةَ المُتْرفَةَ التي عاشَ فيها الشَّاعرُ عمرُ بنُ أبي ربيعة ، جَعَلَتْه ـ كما زعموا ـ يَنْتَقي في أَغْزَاله وفي تشبيبه طبقةً خاصةً تليقُ بمكانتهِ

= وحامي أنوثتِها منَ الذبول والنّسيان.
لا يستطيعُ الشّعر أنْ يكبرَ ، ويترعرعَ ، ويقفَ على قدمَيه دونَ امرأةٍ ، ولا تستطيعُ المرأةُ أن تغويَ ، وتفتنَ ، وتلعبَ بالعَالَم كعصفورٍ أزرقَ ، إلاّ إذا كانَ الشِّعْرُ رفيقَها وحبيبَها.
إذاً فالمرأةُ والشِّعر يكملُ بعضُهما بعضاً ، هي تُعطيه الاشتعالَ ، والتَّوهجَ ، والمادَّةَ الأوليةَ للإبداع. وهو يجملُها ، ويكحّلها ، ويعطّرُهَا ، ويحفظُها منَ التَّبدُّدِ والاندثَار.
المرأةُ في شِعْري أعطتْهُ حُضُوراً مائياً ، ونفضتْ عن أبجديّتي الغُبارَ الصَّحراوي.
وأنا لا أتحدثْ عن شعرِ الحبِّ فقَط ، وإنّما أتحدثُ عن كلِّ ما كتبتُ منَ شِعْرٍ ونَثْر.
فالمرأةُ تلاحقُني كسَحابةٍ ، وتنشرُ ظلالَها حتى على شِعْري القومي والسّياسي.
(المرأة في شعري وفي حياتي ص ٨٢ و٨٣).

الاجتماعيةِ ، فجعلَ يتغزَّلُ بأهْلِ الغِنىٰ منَ النِّساء ، ويتغزَّلُ ببناتِ علْيةِ القَوم في المواسِم ، فكأنَّ تجارتَه الشِّعرية تبلغُ ذِرْوتها في كلِّ موسمِ حجّ ، إذْ كانَ يقولُ أكثر قصائِدِه في مثْل هذا الموسم.

* ترىٰ أكانَ عمرُ يقولُ الغزلَ في امرأةٍ واحدةٍ أيّام الحجِّ منْ مكةَ أو من غيرِها منَ الوافداتِ إلىٰ الحجّ منْ جميعِ البلاد[1]؟

* إنَّ نساءَه كثيراتٌ وكثيراتٌ يتجاوزُ عَدَدهُنَّ العَشَرات ، وكلُّ واحدةٍ منهنَّ لها نصيبٌ تحسبُه لها وحْدَها ، فكأنَّ عمرَ في عَصْره ، ونزار في عَصْرِنا

---

(١) يبدو أنَّ حبَّ عمرَ للنِّساءِ كان أوسعَ منْ بلده ، كما زعمَ صاحبُ الأغاني ، حيثُ قال: كان عمرُ يقدمُ فيعتمرُ في ذي القعدة ، ويحلُّ ويلبسُ الحُلَل والوشيَ ، ويركبُ النَّجائبَ المخضوبةَ بالحناءِ ، عليها القطوع والدّيباجُ ، ويسبلُ لمتَه ، ويلقىٰ العراقيات فيما بينه وبين ذات عِرْق مُحْرِمَات ، ويتلقَّىٰ المدنيّات إلى مَرّ ، ويتلقىٰ الشَّاميات إلى الكُديد. (الأغاني ١/ ٢٢٩).
ويعلّقُ الدكتور خليل محمّد عودة على هذا الخبرِ فيقول: فهذه فِرصتُه الوحيدةُ التي تهيّىء له أنْ يلتقيَ بالمرأةِ العربيةِ ، وهي الفرصةُ الوحيدةُ التي تتيحُ له أن يوسِّعَ منْ دائرةِ حبِّه وعشْقِه ، وأنْ يخرجَه من حدود مجتمعه الضَّيقةِ إلى مجالٍ أوسعَ وأرحَبَ ، وأنْ يجعلَ من حبِّه حبّاً عالمياً ، ومنْ شَخصِهِ معشوقاً في كلِّ البلادِ العربيةِ ، وعاشقاً لكلِّ النِّساء العربيّات.
وعمرُ لا يريدُ المرأةُ فَي الحجّ لأنَّه عاجزٌ عن رؤيتها في غيرِه ، ولكنَّه يريدُها في هذا الوقتِ بالذَّات ، لأنَّه يريدُ أنْ يلتقيَ بكلِّ النّساءِ العربيّات ، فحبُّه لا يعرفُ الإقليميّةَ الضَّيقةَ ، ولا المكانيةَ المحدودةَ ، إنَّه لا يريدُ الحبَّ مع فتياتِ الحجاز ، وإنَّما يريده مع كلّ امرأةٍ عربيةٍ تعيشُ في مُدن الحجاز وخارِجها ، فهو يريدُ أنْ يحقّقَ لحبِّه مَكسَباً عالمياً ، وأنْ يجعلَ منْ نفسِه بطلاً في عالَم الحبِّ ، وتكون النّساءُ العربياتُ رسلاً تحملُ أخبارَهَ وأشعارَهَ إلى كلّ عربي...!!..!. (صورة المرأة في شعر عمر بن أبي ربيعة ص ٢٦٨).
نقول: منَ العجيبِ أنْ يستنتجَ مؤلِّف هَذا الكتاب صورةَ المرأةِ في شعر عمر بن أبي ربيعة هذا الاستنتاجَ الذي زادَ الطِّين بلَّة ، والبدن علّة ، والظمآن غُلّة ، فعمرُ بنُ أبي ربيعة نَفْسُه لا يعرفُ هذه الفلسفةَ ـ التي وضعوه فيها ـ في عالم الحبّ والغَزلِ الذي ينتقلُ من الإقليميةِ المحدودة إلى خارج مدن الحجازِ!!! سبحان الله.

يلتقيان عند هذه النُّقطة التي عبَّر عنها نِزار بقوله:

عشْرينَ أَلْفَ امْرَأةٍ أَحْبَبْت
عشرينَ أَلْفَ امْرَأةٍ جَرَّبَت
وعنْدما التَقَيْتُ فِيْكَ يا حَبيبتي
شَعْرتُ أنِّي الآنَ قَدْ بَدَأْت[1].

* ولكنَّ الأمرَ مختلفٌ جدّاً، فنساءُ نزار منْ نساءِ القَرن العشرين، لا يمثّلْنَ عَهْداً يعتمدُ علىٰ الروايةِ والعِلْم، كعَصرِ عمرَ الذي كانتْ فيهِ المراةُ راويةً للحديثِ، عالمةً به، ناقلةً للعلْم عمَّنْ حولَها من الصَّحابةِ والصَّحابيات، وعمَّنْ عاصرَ النَّبيَّ ﷺ وروى عنه.

* إذاً فلا نستطيعُ أنْ نأخذَ فكرةً عن نسائِنا في صَدْرِ الإسلامِ، بأنَّهنَّ عشْنَ للعبثِ واللهوِ، وتركْنَ جانبَ العِلْمِ، وقد عشْنَ في أطْهَرِ العُصُور.

* علينا أنْ نعيدَ النَّظرَ في بَعْضِ ما جاءنا عن النِّساء الفُضْليات اللواتي كُنَّ غرّةً في جَبين عَصْرهنَّ، بل في جبين الدَّهْر.

* وأستميحُ القارىءَ عُذْراً إذا أَطَلْتُ قَليلاً في هذهِ الفِقْرة، أو قارنتُ بين نزار قباني وعمر بن أبي ربيعة، فليسَ الهدفُ منْ ذاك إلا توضيح الصُّورة لتبدوَ في دائرةِ الحقيقةِ بيِّنةَ المعالمِ، واضحةَ القَسَماتِ.

* فلقَدْ تناولَ مُعظمُ الباحثينَ ـ وخصوصاً منَ المعاصرينَ ـ عائشةَ بنت طلحة، وكأنَّها امرأةٌ لاهيةٌ عابثةٌ، عاشتْ للهو والغناءِ والغزلِ، ونسوا أنّها ابنةُ أحدِ أكابرِ الصَّحابةِ، وأنَّها عاشتْ في كَنَفِ خالتِها عائشةَ أُمِّ المؤمنين، وهي إحدىٰ عالماتِ نساءِ عَصْرِها.

عَـائِشَــةُ وَشُـعَــرَاءُ آخَـرون:

* أشارتِ الأخبارُ وقَصَصُ الأَغْزَالِ العائشيّة بأنَّ هناكَ شعراءَ آخرين قد

---

(١) الأعمال الشّعرية الكاملة ص (٧٤٦).

شبّبُوا بعائشةَ بنتِ طلحةَ ، وذكروها في أغْزَالِهم .

* ونلاحظُ في قائمةِ الأخبارِ التي رُويتْ وأُلِّفتْ عَنْ عائشةَ أسماءَ شُعَراء نافَسُوا عمرَ بنَ أبي ربيعة في حبِّ عائشةَ والتَّشبيبِ بها ، ومن أشهرِهم : الحارثُ بنُ خالد المخزومي[1] الذي كان يذهبُ مَذْهَبَ عمر بن أبي ربيعة في الغَزَل .

* ولعلَّ الحارثَ[2] هذا كان أقلَّ شهرةً من عمر ، وكانَ في كثيرٍ منْ تشبيبِه يُعَرِّض في جاريةٍ لعائشةَ أو خاضنتِها «بُشْرَة» وهو يقصدُ سيّدتَها .

* وكان يزيدُ بنُ معاوية قد استعمل الحارثَ هذا أميراً على مكةَ ، وكان عبدُ اللهِ بنُ الزُّبير يؤمئذٍ بها ، فَمَنَعَهُ ، فلم يزلِ الحارثُ في دارِه يصلّي بمواليهِ

---

(١) الحارثُ بنُ خالد بنِ العاصي بنِ هشام بن المُغيرة المخزوميّ ، وأمُّه : فاطمةُ بنتُ أبي سعيد بنِ الحارث بن هشام ، كان الحارثُ شاعراً غَزِلاً كثيرَ الشّعر ، كان يسكنُ بالحجاز ، في بُليدة يُقال لها : الأقحوانة ، وفيها يقولُ منْ جملةِ أبيات :

مـنْ كـانَ يَسْـأَلُ عنّـا أيـنَ مَنْـزِلُنـا ... فـالأقحـوانـةُ منّـا منـزلٌ قَمِـنُ

إذْ نلبـسُ العيـشَ صَفْـواً لا يكـدّره ... طَعْـنُ الـوُشـاةِ ولا يَنْبـو بنـا الـزَّمـنُ

وكانَ الحارثُ يشبِّبُ بعائشةَ بنتَ طلحة ، توفيَ خالد نحو (٨٠هـ). (نسب قريش ص ٣١٣ و٣١٤) بتصرف .

وانظر : (وفيات الأعيان ٢/ ٤٨٨) و(تاريخ مكة ٢/ ٦٧٩) .

وقال البكريُّ ـ رحمه الله ـ : الحارثُ بنُ خالد بنِ العاصي شاعرٌ إسلاميٌّ ، وهو أحدُ شعراء قُريش المعدودين وكان ذا قَدْرٍ فيهم . وكانَت العربُ تفضِّلُ قريشاً في كلِّ شيءٍ إلاّ في الشِّعر ، حتى كان فيهم عمرُ ، والحارثُ ، والعَرْجي ، وأبو دَهْبَل ، وعبدُ الله بنُ قيس الرقيّات ، فأقرَّتِ العربُ أيضاً لها بالشّعر ، ويُروىٰ أنَّه قيل لابن المسيِّب : لمَ كانتْ قريشُ أضعفَ العرب شِعْراً ، وهي أفصحُ العرب لِسَاناً؟!

فقال : لأنَّ مكانَ رسولِ الله ﷺ قَطَعَ مَتْنَ الشّعر عنها .

(سمط اللآلي ٢/ ٦٤٥) .

(٢) قال جانَ فاديه عن الحارثِ هذا ، وعنْ عائشةَ بنتِ طلحة ، وكأنَّه يتحدَّثُ عن إحدىٰ ممثلات عَصْره وبلده : وعائشةُ هذه التي أوجعَتْ قلبَ الحارثِ المخزوميّ والي مكةَ . (الغزل عند العرب ١/ ١٢٠) .

وشيعتهِ في جوفِ دارِه ، حتى وليَ عبدُ الملك بنُ مروان ، فولّاه مكةَ ، ثمَّ عزَله ، ويحكي الرُّواة قصَّةً غريبةً ، وسبباً عجيباً ، لِعَزْلِ الحارثِ عنْ مكةَ ، وهذا السّببُ تكمنُ بين طياتِه قصَّةُ حبِّ الحارثِ لعائشةَ بنتِ طلحة!! ومخالفةُ الحارث لمشاعر المسلمين وهم يطوفون حول البيت العتيق!! مما أثار غَضبهم وشكوهُ إلىٰ عبدِ الملكِ فَعزَله. فما القصّة في ذلك ، وهل يصحُّ هذا؟!

* وها نحنُ أولاءِ مرسلو القول في تلكم القصّة المزعومة والتي تحملُ في طياتها الغَرابةَ والطَّرافة والتَّساؤلات.

* تقولُ القصّةُ المزعومةُ: كانتْ عائشةُ في إحدىٰ حجّاتها بمكةَ ، فأذَّنَ المؤذِّنُ يوماً ، فخرجَ الحارثُ بنُ خالد المخزومي أميرُ مكةَ إلى الصَّلاة ، فأرسلتْ إليه عائشةُ بنتُ طلحة أَخِّرِ الصَّلاةَ فإنَّه بقيَ عليَّ شيءٌ منْ طوافي لم أتمه ، فقعدَ خالدُ ، وأمرَ المؤذّنينَ فكفُّوا عنِ الإقَامةِ ، وأخَّرُوا الصَّلاةَ ، فجعلَ النَّاسُ يصيحون كي تُقَامَ الصَّلاةُ ، حتى فرغتْ عائشة منْ طوافِها ، ثمّ أقيمتِ الصَّلاةُ ، فصلَّى الحارثُ عندئذٍ بالنَّاس ، وأنكر أهْل الموسمِ فِعْلَه ذلك ، وأعْظَمُوه واعتبروه كبيرةً منَ الكبائرِ ، فشكوه إلىٰ عبدِ الملكِ بنِ مروانَ ، فَعَزَلَهُ وولّىٰ مكانه عبدَ الرحمن بنَ عبد الله بنِ خالد بن أسيد ، وكَتَبَ عبدُ الملك إلىٰ الحارثِ بنِ خالد يؤنّبُه ، ويوبّخُه فيما فَعَلَ فقال: ويلك يا حارثُ ، أتركتَ الصَّلاة لعائشةَ بنتِ طلحة؟!

* فقال الحارثُ: ما أهون ـ واللهِ ـ غضبه إذْ رضيتْ ، واللهِ لو لم تفرغْ منْ طوافِها إلىٰ الفجرِ لما كَبَّرْتُ. وقالَ في ذلك قصيدة منها هذه الأبيات:

أَنْعَمَ اللهُ لي بِذَا الوجْهِ عَيْنَاً ... وبهِ مرحَباً وأهْلاً وسَهْلا
حينَ قَالَتْ لا تفشينَّ حديثي ... يا بنَ عمّي أقسمتُ قُلْتُ أَجَلْ لاَ

* ويقول فيها:

لمْ أرَحِّبْ بأنْ سَخِطتَ ولكنْ ... مرحباً أنْ رضيتِ عنّا وأَهَلا
إنَّ وجْهاً رأيتُه ليلةَ البدْ ... رِ عليه أثنىٰ الجمالُ وحَلاّ

جَعَلَ اللهُ كلَّ أنثىٰ فَداءً ... لكِ بل خدَّها لرجليكِ نَعْلا
وجهُها الوجه لو يُسأل بهِ المزْ ... نُ منَ الحسنِ والجمالِ استهلاّ
إنَّ عندَ الطَّوافِ حينَ أَتَتْهُ ... لَجمالاً معمّاً وخلقاً رفلا
وكُسينَ الجمالُ إنْ غِبْنَ عنْه ... فإذا ما بَدَتْ لهنَّ اضمحلاّ

* ونحنُ بدورِنا هنا نتركُ الحُكْمَ علىٰ هذهِ القصَّة للقارىءِ الكريمِ ، كيما يستخلص بنفسهِ مدىٰ الهزل الموجود بين ثناياها؛ وكيفَ استغلَّها «بلاشير» ليقولَ في خُبْثٍ واضحٍ عن عائشةَ بنتِ طلحة والحارثِ بنِ خالد: ولاّهُ عبدُ الملك بنُ مروانَ مكّةَ ثمّ عَزَلَهُ بَعْدَ سَنَةٍ علىٰ أَثَرِ فضيحةِ عشْقِهِ لعائشةَ بنتِ طلحة المشهورة بجمالِها ، ويبدو أنَّها لمْ تُبَالِ بعاشقٍ غير فاتنٍ كالحارثِ ، مفضلةً عليه الفارس مُصعب بن الزبير[1] .

* ويتابعُ بلاشير إفْكَه فيقول: وليسَ لدينا اليوم منْ شعرِه ـ أي: الحارث بن خالد ـ سوىٰ مقطوعاتٍ قصيرةٍ نَظَم أكثرها في عائشةَ بنتِ طلحة ، وتُعْتَبَرُ صدىً لآمالِه وخَيْبَاتِه التي أثارتْها هذهِ الحسناءُ القاسيةُ القَلْب[2] .

* وهناك قَصَصٌ أخرىٰ تدلُّ على أنَّ الحارثَ بنَ خالد كان يودُّ لو يخطبُ وُدَّ عائشةَ بنتِ طلحة ، ولكنَّ عائشةَ تصدُّه وتصفُه بالسَّفيه ، أو قوَّالِ الباطلِ . . منْ ذلك ما أورده المصعبُ الزُّبيري وغيرهُ ، بأنَّ عائشةَ بنتَ طلحة قدمتْ مكةَ معتمرةً ، وكانَ الحارثُ بنُ خالد أمير مكةَ يومئذٍ ، فأتاهُ رسولُه يقرئُها السَّلام ، ويستأذنُها في المجيءِ ويقول: أنْعَمَ اللهُ بك عيناً وحيَّاك ، وقد أردتُ زيارتكِ ، فكرهتُ ذلك إلاّ عن أمْرِكِ ، فإنْ أذنتِ فيها فعلتُ .
فقالت لمولاةٍ لها جَزْلة: وما أردُّ علىٰ هذا السَّفيهِ؟

---

(١) تاريخ الأدب العربي لبلاشير (ص ٧٤١) ، ولاحظ مدىٰ السُّم في قول بلاشير هذا ، والله المستعان .
(٢) المرجع السابق (ص ٧٤٢) ، ولاحظْ بلاشير وكأنَّه يتحدّثُ عن إحدىٰ الممثلاتِ في بلده .

فقالت لها: أنا أكفيكِ أمْره.

* فخرجتْ إلىٰ رسولِ الحارثِ بنِ خالد، وقالت له: سيّدتي تقرأُ عليكَ السّلام وتقولُ: أنا حُرمٌ فنقضي مناسِكَنا، ثمّ نُعلمُك إنْ شاءَ الله.

* فلما ذهبَ الرَّسولُ، خرجتْ عائشةُ وطافتْ وسَعَتْ وقَضَتْ مناسكَ عمرتها، ثمّ ركبتْ دوابَّها في الليلِ وسارتْ نحوَ المدينةِ.

* فبلغَ ذلك الحارث، فأتبعَها رسولاً، فلحِقَها فقالت: قد خرجتْ من عَملِ مكةَ. فأشارَ بكتابٍ معه؛ وقال: رسولُ الأمير.

* فقالت لمولاةٍ لها: خذي كتابَه، فإنِّي لا أحسبُ إلا أنَّ فيه بعض هَناته، فأخذته فإذا فيه:

مَا ضَرَّكم لو قُلْتُم سَدَدا ... إنَّ المنيةَ عاجلٌ غَدُهَا
لو تَمَّمتْ أسبابَ نِعْمَتِها ... تَمَّتْ بذلك عندنَا يَدُهَا
ولهَا علَيْنَا نعمةٌ سَلَفَتْ ... لَسْنَا علىٰ الهِجْرانِ نَجْحَدُهَا

* فلما قرأتْ عائشةَ الكتابَ قالت: ما يدعُ الحارث باطِلَه[1].

* ومنَ الأخبارِ التي وصلتْنا عنِ السَّيِّدةِ عِائشةَ بنتِ طلحة ـ رحمها الله ـ والحارثِ بنِ خالد المخزوميّ، هذا الخبر المصنوع في مصانع الرِّواية؛ والذي يقول: قدمَ المدينةَ قادمٌ منْ مكةَ، فدخلَ علىٰ عائشةَ بنتِ طلحة فقالت له: من أينَ أقْبلَ الرَّجلُ؟

قالت: من مكةَ.

قالت: فما فَعَلَ الأعرابي؟ فلم يفْهَمْ ما أرادتْ.

فلما عادَ إلىٰ مكةَ، دخلَ علىٰ الحارث فقال له: من أين؟

---

(١) انظر: نسب قريش (ص ٣١٤)، وزهر الآداب (١/ ٢٤٣)، والدر المنثور (ص ٢٨٧ و٢٨٨) مع الجمع والتصرف اليسير. وهناك أخبار أخرى للحارث وعائشة لم تذكرها، وكلها متكلفةٌ، ومن أراد المزيد فليراجع: الدر المنثور (ص ٢٨٥ و٢٨٩)، وأعلام النساء (٣/ ١٥٠) وغير ذلك.

قال: منَ المدينةِ.

قالت: فهل دخلتَ علىٰ عائشةَ بنتِ طلحة؟

قال: نعم.

قال: فماذا سألتْكَ؟

قالت: قالت لي: ما فَعَلَ الأعرابيُّ؟

قال الحارثُ: فَعُدْ إليها، ولكَ هذه الرَّاحلةُ والحلّةُ ونَفَقَتُك لطريقِكَ، وادفعْ إليها هذه الرّقعة، وكتب إليها فيها:

من كانَ يسألُ عنَّا أينَ منزلُنَا ... فالأقحوانةُ منَّا منزلٌ قَمِنُ

إذْ نلبسُ العيشَ صفواً ما يكدّره ... طَعْنُ الوشاةِ ولا ينبو بنَا الزَّمنُ

ليتَ الهوىٰ لمْ يقربْني إليكِ ولمْ ... أعرفْكِ إذْ كان حظّي منكم الحزنُ

* وكانَ لعائشةَ بنتِ طلحة أَمَةٌ يُقال لها بشْرة، كانَ يذكرُها الحارث في شِعْرِهِ، يكني بها عن سيّدتها، من ذلك قوله:

يا ربعُ بُشْرةَ بالجنَانِ تكلَّم ... وأَبِنْ لنا خَبَراً ولا تَسْتَعجمِ

تَسقي الضَّجيعَ إذا النُّجومُ تغوَّرتْ ... طوعَ الضَّجيع أنيقةَ المتوسَّمِ

* وقولُه:

لبشرةَ أسرىٰ الطَّيفُ والخَبْتُ دونَها ... وما بيننا منْ حَزْنِ أرضٍ وبيدِها

وقرَّتْ بها عيني وقد كنتُ قَبْلها ... كَثيراً بُكَائي مُشْفِقاً منْ صدودها

* وقولُه:

يا رَبْعُ بشْرةَ إنْ أضرَّ بكِ البلىٰ ... فلقد عهدتُكَ آهلاً مَعْمُورا

كُنتِ المنىٰ وأعزُّ مَنْ وطىءَ الحصىٰ ... عندي وكنتُ بذاك منكِ جَديرا

* وكما زعمَ الرُّواة وصانعو الأخبار أنَّ عمرَ بنَ أبي ربيعة، والحارثَ بنَ خالد المخزوميّ تغزّلا في عائشةَ بنتِ طلحةَ، فإنَّ عُبيدَ الله بنَ قيس الرُّقيات قد تغزَّل فيها أيضاً، وكما نعلمُ أنَّ ابنَ قيس الرّقيات وهو شاعرُ مصعبَ بن الزُّبير زوج عائشة، ومن قولِهِ في عائشةَ لما رآها مرّةً:

خَبيئةٌ برزَتْ لتقتُلَني ... مطليةُ الأَصْداغِ بِالمسْكِ

عجبـــاً لمثلِـــكِ لا يكـــونُ لـــه خَـــرْجُ العـــراقِ ومَنْبَـــر المُلْـــكِ[1]

* ولعلَّ غزلَ ابن قيس الرُّقيات بعائشةَ كما يقولُ الدّكتور شوقي ضيف: يخلطُ غزلَها بالسّياسة، أو هو غَزَلٌ أُرِيْدَ به إلى السّياسة، وبيان حقّ عائشة وزوجها مُصعب في الملْكِ والحكومة[2].

ويزعمُ شوقي ضيف أنَّ ابنَ قيس الرّقيات كانَ يشبِّبُ بزوجتَي مصعب: عائشة بنت طلحة، وسُكينة بنتَ الحُسين، ويصلُ إلىٰ فكرةٍ معقولة فيقول: وعلىٰ هذا النَّحو كان ابنُ قيس الرّقيات يشبِّبُ بعائشةَ أو بسكينةَ، ليشهرهما منْ جهةٍ، وليثبت حقّهما في الملْكِ والحكومة، وإنْ لم يصرِّحْ في البيتَيْن السَّابقين، فَغَرَضُه علىٰ كلِّ حَالِ الدِّعَايةُ لمصعَبَ ولأَهْلِ بيتهِ عنْ طريقِ الغَزَلِ، ولا نسمّيه غَزَلاً، بل نسميه مديحاً لزوجتَيْه: عائشةَ وسُكينةَ، فالغزلُ حينما يصبحُ الغَرضُ منْه التَّعبيرُ عنْ جَمالِ المرأةِ والدِّعاية لها دعايةً سِياسيّةً أو غيرِ سياسيةٍ، يخرجُ من بابِهِ إلى المديح[3].

وهناك بعضُ الأخبارِ الجانبيةِ لعائشةَ مع ابنِ قَيْس الرّقيات، ومعظمُ هاتيكَ الأخبارِ يعتريها الوهنُ والضَّعْفُ والوضْع[4].

فقد جاءَ في بعضِ كتبِ الأخبارِ أنَّ ابنَ قيس الرّقيات، قال حينَ تزوَّجَ

---

(١) يؤكّدُ الدكتور زكي مبارك بأنَّ سُلطانَ المرأةِ كان قوياً في عَصْر بني أميّة فيقول: ويكادُ يكونُ عَصْرُ بني أميّة هو العَصْرُ الذي قَويَ فيه سُلطانُ المرأةِ، وذلَّ الرّجل على بطشهِ وبأسهِ لما في ضَعْفِها منَ القوةِ والجبروتِ، ويندرُ أنْ تجدَ شاعراً يحسُّ خَطَرَ المرأةِ، ويلمسه كما فَعل ابنُ قيس الرقيات إذْ يقولُ في خطابِ عائشةَ بنتِ طلحة:

عجبـــاً لمثلـــكِ لا يكـــونُ لـــه خـــرْج العِـــراقِ ومنْبَـــر الملْـــكِ

(حب ابن أبي ربيعة وشعره ص ١٥٩).

(٢) الشعر والغناء في المدينة ومكة (ص ٢٩٧).

(٣) المرجع السابق نفسه.

(٤) انظر: الدر المنثور (ص ٢٨٤)، وأعلام النساء (٣/ ١٤٧ و١٤٧).

مصعبُ بنُ الزَّبير عائشةَ بنتَ طلحةَ ، وخرجَ بها إلى العراق :

رَحَلَ الأَميرُ بأحْسنِ الخَلْقِ ... وَغَدا بلُبِّك مطلعَ الشَّرْقِ
وبَدَتْ لنا منْ تحتِ كلَّتِها ... كالشَّمس أو كغمامةِ البرقِ
ما صبَّحَتْ زوجاً بغرّتِها ... إلا غَدا بكواكبِ الطَّلقِ[1]

* وقبل أنْ أتركَكَ عزيزي القارىء معَ فِقْرةٍ أخرىٰ ، أودُّ أنْ ألقيَ بعضَ الأضواءِ على سيرةِ عائشةَ ، ومَنْ في طبقتِها منْ بناتِ الصَّحابة ، وأكابرِ التَّابعيّات ، وننظرَ هل كانتْ تلكم الرّوايات التي نُسِجَتْ وحِيْكَتْ حولَها وحولَ غيرها حقيقةً أم خيالاً أمْ صناعةً وإفكاً؟! إذا فاصحبني ـ قارئي العزيز ـ لنرحلَ عبْرَ الحقائقِ علىٰ مَتْن هذه الكلمات الكاشفاتِ .

الأَخْبَارُ بَيْنَ الحَقيقَةِ والخَيَالِ :

* لا شكَّ في أنَّ القارىءَ الكريمَ ، والباحثَ المتعمّقَ قد عاشَ في رحلةٍ طويلةٍ مع أخبارِ عائشةَ بنتِ طلحة التَّيميّة ـ رحمها الله ـ ، إحدىٰ اللواتي سَطَرْنَ العظَائِمَ في سَماءِ المعرفةِ في عَصْر الرِّوايةِ والعِلْم ، وقَدْ لاحظْنا كيفَ عَاثَتِ الأخبارُ فَسَاداً في بَعْضِ جوانبِ حياتها[2] ، ولعبتِ الأهواءَ دورَها في

---

(١) نوادر المخطوطات(المردفات من قريش ١/ ٦٥)؛ ويُقال: إنَّ هذه الأبيات قالها الحارثُ بنُ خالد المخزومي ، حينَ خرجَ مصعبُ بعائشةَ بنتِ طلحة .
وتُروىٰ هذه الأبيات لرجلٍ من ثقيفٍ قالَها في امرأةٍ من ثقيف .
ويلاحظُ القارىءُ الكريمُ مدىٰ الاضطرابِ في روايةِ مثل هذه الأبياتِ وهذه الأخبار ، فإنَّ مؤلف كتاب «المُردفات من قريش» وهو أبو الحسن عليّ بنُ محمد المدائني المتوفى سنة (٢٢٥هـ) ، ينسبُ هذه الأبيات لأكثر مَنْ شاعرٍ ، وفيهم رجلٌ مغمورٌ من ثقيف .
إذاً علينا أنْ نلزمَ الدّقةَ حينما نقرأُ خبراً مضطرباً ، وعلينا أنْ نكونَ على حَذَرٍ من مثلِ هذه الأخبار المدسوسة .

(٢) عندما تحدَّث الدكتور زكي مبارك عنْ أخلاقِ عائشةَ بنتِ طلحة قال: وأمّا أخلاقُها فكانَ أظهرُها العِفَّة ، والشَّراسة ، واللؤم ، وحدِّة الشَّهوةِ ، كانتْ عفيفةً فلم يستطعْ أحدٌ منْ طُغَاةِ الفتيانِ والأمراءِ أنْ يطمعَ منها في كثيرٍ منَ الإثمِ أو قليلٍ ، ولم يَجِدْ=

ذلك أيضاً ، وخصوصاً في أخبارِها مع الشُّعراء ، وفي مقدمتهم : عمرُ بنُ أبي ربيعة ، والحارثُ بنُ خالد المخزومي ، وعبيدُ الله بنُ قَيس الرّقيات وغيرهم .

* ترىٰ هل كانتْ أخبارُ ذلك العَصْر ـ القرن الهجري الأوّل ـ كما صوَّرتْها بعضُ كُتُبِ الأَدَب والأسْمارِ؟ وخصوصاً في مكةَ والمدينةِ!! وهل كان فقهاءُ مكةَ والمدينةِ عَصْر ذاك متساهلينَ إلى حدٍّ تخرجُ فيه النِّساء إلىٰ الحجّ منْ أجلِ أنْ يشتهرنَ على ألسنةِ الشُّعراء؟!!!

* إنَّ أشعارَ عمرَ بن أبي ربيعة ، والحارث بنَ خالد المخزومي وغيرهما ، وما قالا في عائشةَ بنتِ طلحة وغيرها منْ نسوةِ ذلك العَصْرِ ، لا تعطي صورةً واضحةً وصحيحةً عن حقيقةِ المرأةِ العربيّة المؤمنةِ التي عاشتْ بين أنْفَاسِ الذِّكْرِ وعبقاتِ المعرفةِ والعِلْم .

* ومما لا شكَّ فيه ، أنَّ الذي لا يعرفُ طبيعةَ عَصْرِ عائشةَ وحياتها ، يظنُّ أنَّ الشِّعْرَ مرآةٌ واضحةٌ تعكسُ حالَ العَصْرِ الذي عاشَتْ فيه ، ومن ثَمَّ جاءَ بعضُ الرُّواةِ وأهلُ الأهواءِ ، فنسجُوا مما في مخيّلتهم صورةً شَوْهَاء ، بل صُوراً شائِهةً للمرأةِ العربيةِ المسلمةِ ومجتمعها الذي نشأتْ وعاشتْ فيه .

* ولعلَّ بعضَ الأخبارِ التي قرأناها تفصحُ عن حقيقةِ السَّيِّدة عائشةَ بنتِ طلحة حينما أرسلتْ جاريتها إلى عمرَ بنِ أبي ربيعة تأمرُهُ بتقوىٰ اللهِ عند بيت اللهِ وتقول : اتقِ اللهَ ولا تَقُلْ هَجْراً ، فإنَّ هذا مقامٌ لا بدَّ فيه ممّا رأيتَ[١] . وكذلك قولُها له عندما باغتَها وهي ترمي الجِمار سافرةَ الوجهِ : أمَا واللهِ لقد كنتُ لهذا منك كارهةً يا فاسق[٢] .

* لذلكَ علينا ألا نَطْمَئِنَّ كثيراً إلىٰ ما جاءَنا من أخبارٍ تتعارضُ مع سلوكِ

= أترابُـها مغمزاً يَـنَلْـنَها منه حين يَجِـدُّ الشَّغـبُ ويطولُ اللجـاجُ .
(حبّ ابن أبي ربيعة وشعره ص ١٥٠ و١٥١) .

(١) الأغاني (١/ ٢٠٧ و٢٠٩) .
(٢) الأغاني (١/ ٢٠٧ و٢٠٩) .

عائشةَ ، أو غيرِها ممن شَهِدَ الثّقاتُ لَهُنَّ بالثِّقةِ والجلالةِ والقَدرِ .

* ولقد أصابَ الدكتورُ شوقي ضيف عندما حذَّر منْ أخبارِ الرُّواة في هذا المجال فقال: ينبغي أنْ نشيرَ دائماً إلى وجوبِ الحذَرِ منْ أقاصيص الرُّواة ، فقد شوّهوا لنا عمرَ بنَ أبي ربيعة ، وشوّهُوا معه المرأةَ المكيةَ ، والمرأة الحجازيةَ بصفةٍ عامّة ، فيما قَصُّوه عنه وعنها قَصَصاً يتجاوزُ الواقع في أغلبِ صَوَرِه ، وهو قَصَصٌ أُرِيدُ به إلى السَّمَرِ في المجتمعاتِ والنَّوادي الأدبية[1] .

* ومن هذهِ الزَّاوية أخذَ المغرضون يشوِّهُون صورةَ عائشةَ بنت طلحة وغيرِها اعتماداً علىٰ خيالِ القُصّاص ، ومغامراتِ المراهقين ، أو صبوةِ الشُّعراء حينما يتحدثُون عنِ النِّساءِ ، وتعلّقِهنَّ بهم ، أو تعلقهم بهنَّ. ومنَ المعروفِ أنَّ طبيعة القُصَّاص تدفعُهم إلىٰ التّزيُّدِ في الواقعِ والوقائِع ، وكذلك يكون خيالُهم خصْباً يساعدُهم علىٰ نَسْجِ ألوانٍ منَ القَصَصِ الشَّائقِ الذي يجتذبُ إليه عامّة النّاس.

* ولعلَّ عمرَ بنَ أبي ربيعة نفسه كان ذَا خيالٍ خَصْبٍ ، وقد سجَّل في أغْزَالهِ قَصَصاً بطريقةٍ فنيةٍ قدَّم فيها وأخَّر ، وقرّبَ وبعَّد ، ونَسَج خيالاً ووشّاه برائِق الكَلام ، ورقائقِ الهَمَسات ، فأبعدنَا عنِ الواقع الصَّحيح لعَصْرِه ، ورحمَ اللهُ الدكتور شُكري فَيْصَل الذي أشارَ إلى هذه النَّاحية فقال: ومنَ المؤكَّدِ أنْ ليسَ كلُّ الذي كانَ منْ أحداثٍ في شِعْرِ عمرَ كان كذلك في حياةِ عُمر. قد تكونُ له أصوله أو بذوره إنْ شئتَ الدِّقَّـةَ؛ ويجيءُ الشَّاعر بَعْدَ ذلك يستنبتُ هذهِ البذور ، ويفجِّرُ فيها الأحداثَ الكامنةَ فيها ، أو يجتذبُ إليها الأحداثَ المُشَابهة لها ، ثمّ يصنعُ منْ كلِّ ذلكَ في شيءٍ منَ القدرة القَصصيّة التي يعرضُها في شِعْرِه[2] .

* منْ هنا ندركُ أيَّ ظُلْمٍ لَحِقَ المرأةَ الشَّريفةَ عَصْر ذَاك من جرّاء تَحْليقِ

---

(١) الشعر والغناء في المدينة ومكة (ص٢٧٠).

(٢) تطوُّر الغَزل بين الجاهليّة والإسلام (ص٥٣٣).

عُمَر وأمثالِه ، ثمّ الرّواة في عالم الخَيال ، واختلافِ الأحداثِ والمغامراتِ ، وابتداع القَصص عنِ النِّساء العفيفاتِ والعالماتِ ، وتصويرهنّ في مشاهدَ لا تنطبقُ معَ الواقِع الذي عِشْنَ فيه ، كما قالَ الدكتور شكري فيصل : ولكنَّ الصورةَ التي تَعْرِضُ فيها هذه الأحداث ، ليست قطُّ صورة هذا الواقع[1] .

مِـنْ آثَـارِ نِـعَـمِ اللهِ عَلَيْـهَـا :

* نعَمُ الإلهِ علىٰ عائشةَ بنتِ طلحة كثيرةٌ جدّاً ، ويكفيها منَ الفَخْر أنَّها نَشَأَتْ في بيتِ خالتها أمِّ المؤمنين عائشةِ بنتِ أبي بكر الصِّدِّيق ـ رضوان الله عليهما ـ وكانتْ تُشَبَّهُ بها ، وقد أحسنَتْ أمُّنا الصِّدِّيقةُ ابنةُ الصِّدِّيق تربيتهَا وتعليمَها ، وغذَّتْهَا برضابِ العِلْمِ والمعرفَةِ وروايةِ الحديثِ ، فكانتْ من المتفرِّداتِ في دَهْرِها بالعِلْم والفِقْهِ وروايةِ الحديثِ ، بل كانتْ ـ كما أسلفنا ـ إحدىٰ ثلاث نساءٍ حَمَلْنَ العِلْمَ عنْ أُمِّنا عائشةَ ـ رضي الله عنها ـ وكُنَّ منْ فُضْلَيَاتِ فقيهاتِ النِّساء في صَدْرِ الإسلام .

* وكانتْ عائشةُ بنتُ طلحة منَ النِّساءِ اللواتي رُزِقْنَ حظّاً وافراً مِنَ المالِ ، إذا كانَ أبوها طلحةُ ـ رضوان الله عليه ـ منْ أغنياءِ الصَّحابةِ ، فورثَتْ عنه مَالاً عَظيماً ، ثمَّ ورثتْ عن أزواجِها أيضاً كثيراً منَ المالِ ، فكانتْ تحبُّ أن تَظْهَر نعمةُ اللهِ عليها ، وأنْ تتحدَّثَ بما أكرمَها اللهُ منْ نعمةٍ ظاهرةٍ وباطنةٍ .

* وذكرَ الرُّواةُ أنَّ عائشةَ كانت عندما تحجُّ أو تعتمرُ ، تركبُ علىٰ بغلةٍ شهباءَ ، في موكبٍ عظيمٍ منْ حَشَمٍ وأموالٍ وخَدمٍ ، حتّى رووا أنَّ عاتكةَ بنتَ يزيدَ بنِ معاويةَ بن أبي سُفيان ، وهي في الذِّروة مِنَ الشَّرف والعزّ والغِنَى ، لما استأذنتْ زوجَها عبدَ الملك بنَ مروان في الحجّ ، فأَذِنَ لها ، وقال لها : ارفعي حوائجك واستظهري ، فإنَّ عائشةَ بنتَ طلحة تحجُّ هذه السَّنة .

* فجاءتْ عاتكةُ بهيئةٍ جَهدتْ فيها ، فلمّا كانتْ بينَ مكةَ والمدينةِ إذا بموكبٍ قد جاءَ فَضَغطَها ، وفرّقَ جماعتهَا ، فقالت : أرىٰ هذه عائشةَ بنتَ

---

(١) المرجع السابق نفسه (٥٤٠).

طلحة! فسألتْ عنه فقالوا: هذه خازنتُها. ثم جاءَ موكبٌ آخرَ أعظمُ منْ ذلك، فقالوا: عائشة! عائشة! فضغطَهم، فسألت عنه، فقالوا: هذه ماشطتُها.

* ثمَّ جاءتْ مواكبُ على سننها، ثم أقبلتْ كوكبةٌ فيها ثلاثمئة راحلة عليها القباب والهوادجُ، فقالتْ عاتكةُ: ما عندَ اللهِ خيرٌ وأبقى[1].

* وقد أوردَ الدكتور شوقي ضيف هذا الخبر، ثمَّ عَقَّب عليه قائلاً: وإذا كانتْ بنتُ الخليفةِ يزيد حفيدةَ معاويةَ لا تبلغْ مَبْلَغَ عائشةَ بنتِ طلحة في زينتِها وهيئتِها، فماذا كانتْ هذه الهيئةُ والزِّينة؟ إنّنا لو سَمِعْنا في هذا العَصْر أنَّ أميرةً تحجُّ علىٰ هذا النَّحوِ، لَهَبَّ المصوِّرونَ منْ آفاقِ العَالَم يأخذون صُوَرَها ويذيعونها على الصُّحف[2].

* وذكرَ الرُّواةُ أنَّ السَّيدة عائشةَ بنتَ طلحة كانت إذا حجَّتْ، ذهبتْ ومعها ستّون بَغْلاً وعليها الهوادجُ والرَّحائلُ، فتعرّضَ لها عروةُ بنُ الزُّبير فقال:

عائِش يا ذاتَ البِغَالِ السّتين أكلَّ عَامٍ هَكَذَا تحجّين؟

فأرسلت إليه: نعم يا عُريَّة[3].

* وروتِ الأخبارُ أيضاً ما يدلُّ علىٰ أَثَرِ النِّعْمَةِ على عائشةَ من أنَّها حجَّتْ، وحجَّتْ معها سكينة بنتُ الحُسين، وكانت عائشة أحسنَ آلةً وثقلاً، فقال حَادِيْها:

عائش يا ذاتَ البغلِ السّتين لا زلتِ ما عشْتِ كذا تحجّين

* فشقَّ ذلك على سُكينةَ، ونزلَ حاديها فقال:

---

(١) تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء ص٢٠٥ و٢٠٦)، والدر المنثور (ص٢٨٦)، وأعلام النساء (٣/ ١٥٠) مع الجمع والتصرف اليسير جداً. وانظر الأغاني (١٠/ ٦٠)، ونهاية الأرب (٤/ ٢٩٥).

(٢) الشعر والغناء في المدينة ومكة (ص٣٤).

(٣) الأغاني (١٠/ ٦٠)، ، نوادر المخطوطات (١/ ٧٣)، والحدائق الغناء (ص٥٥).

عـــائشـــةُ هــذهِ ضـــرّةٌ تَشْكُـــوكِ   لــولا أَبــوهــا مــا اهْتَــدىٰ أَبُــوكِ

* فأمرت عائشةُ حاديها أنْ يكفَّ فكفَّ[1].

* وورَدَ أنَّ عائشةَ كانت شديدةَ الكرمِ والسَّخاء ، فقد حجَّتْ مرَّة ، فجاءتها الثُّريا[2] بنت عليّ وأخواتها ، ونساءُ أَهْل مكةَ القرشيّات وغيرهنَّ ، ودخل النّسوةُ عليها ، فأمرتْ لهنَّ بكسوةٍ وألطافٍ كانت قد أعدَّتْها لمن يجيئَها ، فجعلتْ تخرجُ كلُّ واحدةٍ ومعها جارتها ، ومعها ما أمرتْ به عائشةُ[3].

* ومن طريفِ ما رُوي منَ أخبارِ عائشةَ مفاخرتُها لأُمِّها ، فقد ذكرَ ابنُ عساكر ـ رحمه الله ـ خَبراً عن إسحاقَ بنِ طلحة ـ وهو أخو عائشة بنت طلحة لأبيها ـ أنَّه قال : دخلتُ علىٰ أمِّ المؤمنين ـ عائشةَ بنتِ أبي بكر رضي الله عنهما ـ وعندها عائشةُ بنتُ طلحة ، وهي تقولُ لأمِّها أمِّ كلثوم بنتِ أبي بكر : أنا خيرٌ منك ، وأبي خيرٌ منْ أبيك!! قال : فجعلتْ أمُّها تَنْسبها ـ أو تسبُّها ـ وتقول : أنتِ خيرٌ منّي؟! فقالت عائشةُ زوجُ النَّبيِّ ﷺ : ألا أقضي بينكما؟ قالتا : بلىٰ .

قالت : فإنَّ أبا بكر دخلَ علىٰ رسولِ الله ﷺ فقال له : «أنتَ يا أبا بكر عتيقُ اللهِ منَ النَّار» فمن يومئذ سُمِّي عتيقاً .

---

(١) انظر : أعلام النساء (٣/ ١٤٧) . وقد نقل عمر رضا كحالة عَقِبَ هذا الخبر عن السُّبكي في طبقاتهِ هذه الفَقْرة فقال : أَعْقَبَ السّبكيُّ في طبقاته علىٰ ذلك ، فقال : لله درُّها حيثُ كفَّتْ موضعَ الانكفافِ أدَباً مع رسولِ اللهِ ﷺ ، فقد كان الأمْرُ والمفاخرةُ في الدُّنيا هزلاً ، فقلبتْهُ سُكينة بذكْرِ رسولِ الله جدّاً ، فأفحمتْ خصمَها مذعنةً للحق ، منقادةً إلىٰ الصِّدقِ . (أعلام النساء ٣/ ١٤٧) الهامش .
ونحن نقول : في النّفس شيءٌ منْ هذه القِصَّة أَصلاً والمفاخرة التي يُشْتَمُّ منها روائح الصَّنعة والوضع .

(٢) اقرأ سيرة الثّريا في كتابنا «نساء في قُصور الأمراء» ففي ذلك خير بإذن الله .

(٣) الدر المنثور (ص٢٩١) نقلاً عن الأغاني .

* ودخل طلحةُ بنُ عبيد الله فقال: «أنت يا طلحةُ ممن قضى نَحْبه»[1].

مِـنْ مَـعَـارِفِ عَـائِشَـةَ وَثَـقَـافَـتِـهَـا:

* كانَ العَصْرُ الذي عاشَتْه عائشةُ بنتُ طلحة عَصْراً قد أينعتْ فيهِ الثَّقافاتُ المتنوّعةُ، وآتتْ أُكُلَها منْ معرفةٍ لعلومِ القرآنِ والتَّفسير والحديث والأدبِ والمعارفِ، وكانتْ عائشةُ بنتُ طلحة ربيبةَ عائشةَ أمِّ المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ فقد أَخَذَتْ منْ كلِّ عِلْمٍ بطرفٍ، وورثتْ عن خالتِها الصِّدِّيقة شتّىٰ أنواع المعارفِ، فَغَدَتْ عالمةً بالأَدَبِ وأخبارِ العَربِ وأشعارِها وأيّامها، ثمّ عزَّزَتْ ذلك بعِلْمِ الفَلَكِ والنُّجوم وغيرها.

* وقد انتشرتْ أخبارُ معارفها بينَ النَّاس حتّى عند خُلفاء بني أميّة،

---

(١) انظر: تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء ص٢١٠)، ومختصر تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر (١١/ ١٩٦)؛ ولهذا الحديث: «طلحة ممن قضىٰ نحبه» أصلٌ في كُتُب السُّنن، انظر: جامع الأصول (٩/ ٥) وتخريج الحديث فيه.
ولكنْ في النَّفس شيءٌ منْ تركيبِ القصَّةِ بهذِه الشَّاكلة، إذْ إنَّهُ ليس منَ المعقولِ أنْ تتجرأَ عائشةُ بنتُ طلحةَ علىٰ أمِّها أمِّ كلثوم بنتِ أبي بكر، وتفاخِرَها بأبيها طلحةَ علىٰ جدِّها أبي بكر الصِّدِّيق؟! وعائشةُ تعلمُ تمامَ العِلْمِ مكانةَ الصِّديق ـ عليه سَحاباتُ الرضوان ـ عند الحبيب الأعظمِ محمّد ﷺ، بل وفي نَفْسِ أبيها طلحةَ وفي نفوسِ المسلمين إلى يوم الدِّين، فهل تفاخرُ عائشة أمَّها بشيء مُسَلَّمٍ به؟ وهل يمكنُ لعائشةَ أن تفضِّل طلحة ـ وهو أبوها ـ علىٰ جدِّها لأمِّها أبي بكر، وهي تعلم أنه ﴿ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ﴾ [التوبة: ٤٠]، وأوّلُ خَلْقِ الله إسلاماً منَ الرِّجال؟! والله درّ القائل:

لا تُفَضِّلْ علىٰ العتيقِ صَديقاً ... فهو صِدِّيقُ أَحْمَدَ المُخْتارِ
وإنِ ارتبتَ في الأحاديثِ فاقْرأْ ... ثانيَ اثنينِ إذ هما في الغَارِ

وفي فَضْل أبي بكر وتقديمه، يقولُ محمدُ بنُ عليّ بنِ الفَضْل الحلبي مهذَّب الدين:

أربعةٌ مَنْ شَكَّ في فَضْلِهم ... فهو عنِ الإيمانِ في مَعْزِلِ
فَضْلُ أبي بكر وتَقْديمه ... وصاحبَيْه وأخيهم علي
فَقُلْ لهم عنّي كذا أخبرَ الثّقاتُ ... عنهم وكذا قِيل لي

(طبقات الشَّافعية ٥/ ٣٢).

وكانت كلمتُها مسموعةً في قُصورهم ، كما كانتْ لا تَخْشىٰ في قولها الحقَّ لومةَ لائم.

* ومنْ أخبارِها في هذا المجال ما وردَ أنَّها وفَدَتْ علىٰ الخليفةِ الأمويّ هشام بن عبد الملك بنِ مروان في دمشقَ لحاجةٍ تودُّ أنْ تؤدّيها أمامه؛ ولما علمَ هشامُ بقدومها ، أحسنَ وفادتها وقال لها: ما أوفدك يا بنةَ الكرام؟!

فقالت عائشةُ تشكو قلَّةَ المطرِ وجورَ السُّلطان: يا أميرَ المؤمنين ، حَبَسَتِ السَّماء مطرَها ، ومنعَ السُّلطان الحقَّ ، فجئتُك.

فقال هشام: إنّي أعرفُ حقَّك ، وأنا أَصِلُ رحمَكِ.

* ثم إنَّ هشَاماً أكرمها ، وبعثَ إلىٰ مشايخ بني أميّة وأخبرهم بوفادةِ عائشةَ عليه وقال: إنَّ عائشةَ بنتَ طلحةَ التَّيميّة عندي ، فاسْمُروا عندي الليلة ، فحضَروا ، ثمَّ أخذوا بأطرافِ الأحاديثِ ، فما تذاكروا شيئاً منْ أخبارِ العَرب إلاّ أفاضتْ معهم فيه ، وما تناشدوا شيئاً منْ أشعارِ العَربِ وآثارِها إلا كانت تعلمُ جانباً مهمّاً منه ، وما طلعَ نجمٌ في السَّماءِ ، ولا غارَ إلا أسْمَتْه ، وذكرتِ المعارفَ العديدةَ حَوْلَه.

* وتعجَّبَ الحضورُ وخصوصاً هشامُ بنُ عبد الملك الذي قالَ لها: أمّا الأوَّل؛ وهو معرفتُك أخْبارَ وأشْعَارَ العربِ وأحوالَهم فشيءٌ لا أنكره؛ وأمّا النُّجوم ومعرفتك بأحوالِها فهذا الذي أستغرِبُه ، فمن أينَ لكِ هذا؟

قالت: أخذتُ علْمَ النُّجوم عنْ خَالتي عائشةَ ـ رضي الله عنها ـ فخالتي لها حظٌّ وافرٌ منَ الفَصَاحَةِ والبلاَغَةِ والمعرفةِ ، ناهيك بمناقبها التي هي أشهرُ منَ الشَّمْسِ والقمرِ والنُّجومِ.

وعندها أمرَ لها هشامُ بمئةِ ألفِ درهم ، وقَضَىٰ حوائِجها ومن ثم ردَّها إلىٰ المدينةِ المنوّرةِ في غايةِ العزّ والإكرامِ ، وكذلك يفعلُ الكرام(١).

---

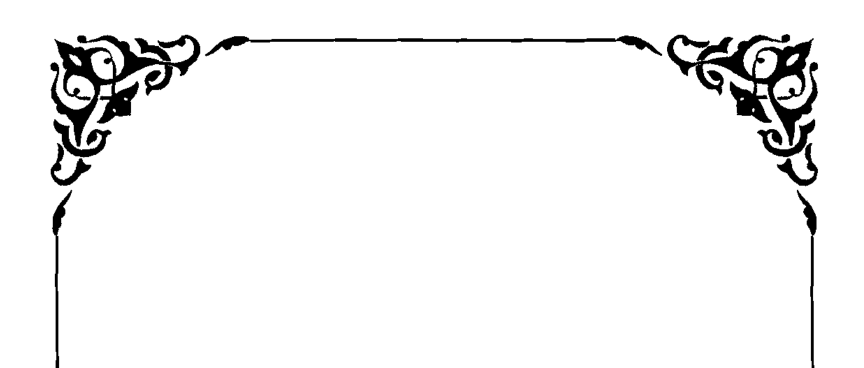
(١) انظر: نهاية الأرب (٤/٢٩٦) بتصرف ، وانظر: الأغاني (١٠/ ٦٠) ، وأعلام النساء (٣/ ١٥٤) ، والدر المنثور (ص ٢٨٦) وغيرها كثير.

* أمَّا عن وفاةِ عائشـةَ بنتِ طلحـة فتشيرُ المصـادِرُ إلىٰ أنّهـا توفيتْ بعـد المئةِ ، وحدَّدَ الذَّهبيُّ واليافعيُّ وابنُ العماد أنَّها توفيت في سنة (١٠١ هـ) ـ رحمها الله ـ ويبدو أنَّها توفيتْ في المدينةِ المنوّرةِ .

* والآن ، أرجـو أنْ يكونَ ما عرضتُـه منْ آراءَ ومنْ أدلَّـةٍ خيـرَ صـورةٍ عن حقيقةِ عائشةَ بنتِ طلحة ومثيلاتها في عَصْر الطُّهرِ والعِلْم . واللهُ وحْدهُ الموفِّقُ للصَّواب .

* رحم الله عائشة بنت طلحة ، وجعلها في مستقرّ رحمته .

* * *



(٧)

عائشة بنت عثمان

* نشأت في بيت خالتها عائشة أم المؤمنين.
* من المتفردات بالعلم والمعرفة ورواية الحديث والأدب وأخبار العرب وأشعارها.

فـي دَوْحَـةِ الـعَـلْـيَـاء :

* في دوحةِ العَلْياءِ نلتقي صَحابياً كبيرَ الشَّأْنِ ، كريمَ الحَسَبِ والنَّسبِ ، له في بيتِ النُّبوَّةِ مكانةٌ عظمىٰ ، ولهُ في نَفسِ الحبيبِ الأعظمِ ﷺ مكانةٌ تسمو عالياً ، ذلكمْ هوَ عثمانُ بنُ عفّان ـ رضي الله عنه ـ الذي سنلتقي سيرةَ ابنتهِ في هذه الصَّفحات ، والذي قالَ فيه ابنُ جابر منْ قصيدةٍ له مطوّلة في فَضَائلِ الصَّحابةِ العَشَرةِ ، فمما يختصُّ منها بعثمانَ ـ رضي الله عنه ـ قولُه :

وحَسْبِيَ عثمانُ بنُ عفّان أنَّه ... عليهِ اعتمَادي وهو سُؤْلي ومقصدي
إمامٌ صَبورٌ للأذىٰ وهو قادرٌ ... حليمٌ عنِ الجَاني جميلُ التَّعوُّد
هو الجامِعُ القُرآنَ والقانتُ الذي ... إذا جنَّ ليلٌ ليسَ يأوي لمرقدِ
علىٰ بنْتَي المختارِ أرخىٰ سُتورَه ... فناهيكَ منْ مجدٍ وعزٍّ مجدَّدِ
ولم يُدْعَ ذا النُّورَيْن إلاّ لأنَّه ... حوىٰ بيتهَ نُورَيْنِ منْ نورِ أحمدِ
وإنَّ لعثمانَ بن عفَّان رتبةٌ ... منَ المجدِ تسمو عنْ سماكٍ وفرقدِ[1]

* ولعثمان ـ عليه سحائب الرّضوان ـ فضائلُ لا تُحْصَى ولا تُحصَر ، فقد أسلمَ قديماً، وهاجرَ الهجرتَين، وهو ذو النُّوريْن لأنَّه تزوَّجَ بنتَي رسولِ الله ﷺ إحداهما بَعْدَ الأُخرى ، ولا يُعْرفُ أحدٌ تزوَّجَ بنتي نبيّ غيره ، وقد روىٰ (١٤٦ حديثاً) ، وفي زمنهِ فُتحَتْ كثيرٌ منَ الأَقْطارِ ، وكان محبّباً في قريش ، وكان منْ أجوادِ الصَّحابةِ وأسخيائِهم ، جهَّزَ جيشَ العُسْرة ، وهو أحدُ العشرَة المشهودِ لهم بالجنَّة ، وأحدُ السِّتةِ أصحاب الشُّورى ، وأحدُ الخلفاء الرّاشدين ، وأحد السَّابقين إلىٰ الإسلام ، وأحدُ المنفقين في سبيلِ اللهِ الإنفاقَ العظيم ، وأحدُ أصْهارِ رسولِ اللهِ ﷺ.

* ومع ابنةٍ لعثمانَ نلتقي اليوم لنبحرَ معها في سيرةِ حياتها ، هذه الابنةُ

---

(١) انظر : نفح الطيب (١٠/ ٢٢٣ و٢٢٤) باختصار.

هي عائشةُ بنتُ عثمان بن عفَّان القرشيّة الأموية[1] ، إحدىٰ بناتِ الصَّحابةِ الكريمات ، وإحدىٰ بناتِ الخُلَفاء الرَّاشدين ، وإحدىٰ شهيراتِ البناتِ في عالم بناتِ الرّعيل الأوّل ، فهل أتاكَ خبرُها؟ وهل أتاكَ حديثُ بلاغتِها؟!

عَائِشَةُ وَنَشْأَةٌ كَرِيْمَةٌ :

* في السُّطورِ السَّابقاتِ عرفنا جانباً عنْ والدِ عائشةَ ، وهو سيّدنا عثمانُ ابنُ عفَّان ، تُرىٰ مَنْ أمُّها؟! ومَنْ أخواتها؟!

* ذكرتِ المصادرُ المتنوّعةُ أنَّه كانَ لعثمانَ عدّة أولاد ذكور[2] ، وكان له سَبْعُ بناتٍ من خمسِ نساءٍ وهُنَّ :

* مريمُ : وأمُّها : أمُّ عمرو بنت جنْدب .
* أمُّ سعيد : وأمُّها فاطمةُ بنتُ الوليد بنِ عبد شمس المخزوميّة .
* مريمُ الصُّغرى : وأمُّها نائلةُ بنْتُ الفَرافصة .
* أمُّ البنين : وأمُّها أمُّ وَلد .
* عائشةُ : وأمُّها رملةُ بنتُ شيبةَ بنِ ربيعة .
* وأمُّ أبان وأمُّ عمرو شقيقتا عائشة ، وأمُّهما رملةُ بنتُ شيبة .

---

(١) صفة الصفوة (١/ ٢٩٥) ، وتاريخ بغداد (٧/ ٣٨) ، والمحبر (ص ٥٥) ، والكامل في التاريخ (٣/ ١٨٦) ، و(٤/ ١١٣) ، والبداية والنهاية (٧/ ٢١٩) ، والحيوان (٦/ ١٠٤ و١٠٥) ، والبيان والتبيين (٣/ ٣٠٠) و(٤/ ٧) ، والكامل للمبرد (ص ١١٣٠) ، والرياض النضرة (٣/ ٥٨) ، وتهذيب الأسماء واللغات (١/ ٣٠٠) ، وبلاغات النساء (ص ١٠٣ ـ ١٠٥) ، ونسب قريش (ص ١٠٤) ، والعقد الفريد (٤/ ٣٦٤) ، وعيون الأخبار (١/ ١٤) ، و(٢/ ٤٣) ، وأعلام النساء (٣/ ١٥٨ ـ ١٦١) ، وجمهرة أنساب العرب (ص ١٠٩) ، والأغاني (انظر الفهارس) ، ونهاية الأرب (١٩/ ٥٠٧) ، وطبقات ابن سعد (٣/ ٥٤) وغيرها .

(٢) قال النووي ـ رحمه الله ـ : كان لعثمان من الأولاد : عبد الله الأكبر أمه فاختة بنت غزوان ، وعبد الله الأصغر أمه رقية بنت رسول الله ﷺ ، وعمرو ، وأبان ، وخالد ، وعمر ، والوليد ، والمغيرة ، وعبد الملك . (تهذيب الأسماء واللغات ١/ ٣٠٠) .

* ورملةُ بنتُ شيبة أمُّ عائشة واحدةٌ من الصَّحابيّات القُرشيّات ، فهي من ذِرْوةِ بيوتِ مكةَ حَسَباً ونَسَباً ، فهي رملةُ بنت شيبةَ بنِ ربيعة بن عبد شَمْس العبشميّة ، وأبوها أحدُ الذين حاربُوا الإسلام مع أخيه عتبة بنِ ربيعة ، وقد قُتِلا يومَ بَدْرٍ كافريْن؛ ولكنَّ رملةَ كانتْ ممن فتحَ اللهُ بصيرتَها ، فأسلمتْ وبايعتْ وكُتِبَتْ من عداد السَّعيدات.

* وكانتْ هندُ بنتُ عتبةَ ابنة عمّها ما تزالُ على شرْكها ، ولما علمتْ بإسلامِ ابنة عمّها رملةَ ساءَها ذلك إساءةً شديدةً ، وشعَرتْ بالخيبةِ من انضمامِ رملةَ إلى عقْد المؤمناتِ ، وصفوفِ الصَّحابيات اللواتي نسينَ ركامَ الجاهليّة؛ وقَتْل الآباء ، ولذا فإنّها راحتْ تعيبُ عليها دخولَها في الإسلامِ ، ومن ثمَّ تعيّرها بقتْلِ أبيها شيبة بن ربيعة يومَ بَدْر ، عِلْماً بأنَّ شيبة عمّ هِنْد ، ولكنَّ الحقدَ أعمىٰ ، وأخذتْ هندُ تقولُ لرملَة التي اعتبرتها من الصَّابئات:

لَحىٰ اللهُ صَابئةً بِوَجٍّ ومكةَ أَوْ بأطْرافِ الحَجُون[1]

تَدِيْنُ لمعْشَرٍ قَتلُوا أبَاهَا أَقَتْلُ أبيكِ جاءَكِ باليقينِ؟

* ولكنَّ رملةَ لم تَرُدَّ علىٰ ابنةِ عمّها هند ، بل رَجَتْ أنْ تُسْلمَ ، بعد أنْ تتذوَّقَ حلاوةَ الإيمان ، وتعرفَ حقيقةَ الإسلام ، وتابعتْ رملةُ رحلةَ إيمانِها مع المؤمناتِ ، وكان الإيمانُ قد استحكم في نَفْس رملة ، ولمّا كانت الهجرةُ إلىٰ المدينةِ ، هاجرتْ ، وهناك تزوَّجها عثمانُ ـ رضي الله عنهما ـ فولدتْ له

---

(١) «وجّ»: بفتح أوله ، وتشديد ثانية ، هو الطَّائف ، قال النَّابغة:
أتُهْدي لي الوعيد ببطْنْ وجٍّ كأنّي لا أراكَ ولا تَرَاني
وقيل: وجّ: هو وادي الطَّائف ، قال أمية بنُ أبي الصَّلْت:
إنَّ وجّاً وما يلي بطنَ وجٍّ دارُ قومي بربوةٍ ورتوقِ
وفي كتابِ رسولِ اللهِ ﷺ: «وثقيفُ أحلُّ النَّاس بوجٍّ». وقال محمد بن سهل: سمّيت بوجّ بن عبد الحي منَ العمالقة ، وهو أوّلُ مَنْ نزلها. (معجم ما استعجم ١٣٦٩/٤ و١٣٧٠) باختصار.

ثلاث بنات هنَّ: عائشةُ، وأمُّ أبان، وأمّ عمرو. وقال أبو الزِّناد مولاها: أسلمتْ وبايعت[1].

* وقد كانَ أبو الزِّناد واسمه عبدُ الله بنُ ذكوان المدنيّ القرشيّ مولىً لرملةَ بنتِ شيبةَ، وكان منَ التَّابعين، ورُوي له عن ابنِ عمر وأَنس وأبي أمامة بن سَهْل مرسلاً، وروىٰ عنه خلائقُ منْ أكابرِ أهلِ العِلْم وأعليائهم؛ واتّفقُوا على الثَّناءِ عليه، وعلى كثرةِ علْمِهِ وحفظِهِ وفضلِهِ وتفنُّنِهِ في العُلوم، وكان سُفيان الثَّوري يسميه أميرُ المؤمنين في الحديث، وشهدَ له عليُّ بنُ المديني بالعِلْم، وقال محمّدُ بنُ سعد: كان أبو الزِّناد ثقةً كثيرَ الحديث فصيحاً بصيراً بالعربيةِ عالماً ناقلاً مات سنة (١٣٠هـ) وعمره (٦٦سنة).

* ومنَ الجديرِ بالذِّكْرِ أنَّ عائشةَ بنتَ عثمانَ كانتْ قد كَفلَتْ ابن أبي الزِّناد وربَّته وأحسنتْ إليه[2]. كما كان أبوه أبو الزِّناد مولىً لأمّها رملةَ بنت شيبة.

* وبين أبويْنِ كريميْنِ نشأتْ عائشةُ بنتُ عثمانَ نشأةً طيبةً، حيث اقتبستْ كثيراً منْ أخلاقِ أبويها، وتعلَّمتِ البلاغةَ وفصاحةَ الخطاب منْ أبويها، فكانتْ أشهرَ بناتِ عثمان ـ رضي الله عنه ـ. ولا نعلمُ بالتَّحديد متىٰ كان مولدُ عائشةَ هذه، ولكنْ يبدو لنا أنَّ مولدها كان في أواخرِ عَصْر النُّبوّة، أو في بدايةِ العَهْد الرَّاشدي، ولم يُؤْثَر عنْ عائشةَ رواية، ولم يذكُرِ المصنِّفُون بأنَّ لها صحبة كغيرِها منْ بناتِ الصَّحابة، وإنّما روتْ بعضُ كُتُبِ الأدب والأخبارِ شيئاً منْ أخبارِها، كما ذكروا لها خطبةً في غايةِ البلاغةِ والصِّناعةِ، ونعتقدُ أنَّ معظَمها موضوعٌ ـ كما سنرى ـ.

---

(١) انظر: الاستيعاب (١٣/ ٩) ترجمة رقم (٣٣٤٥)، وأسد الغابة (٦/ ١١٧) ترجمة رقم (٦٩٢٥) مع الجمع والتصرف؛ وانظر: الإصابة (١٢/ ٢٦٣)، ونسب قريش (ص ١٠٤ و١٠٥)، وطبقات ابن سعد (٨/ ٢٣٩).

(٢) انظر: تاريخ بغداد (٧/ ٣٨) بتصرف يسير.

شَذَرَاتٌ مِنْ خُطْبَتِهَا :

* نقلتِ المصادرُ فيما نقلتْهُ إلينا ، خطبةً عصماءَ نُسِبَتْ إلى عائشةَ بنتِ عثمان ، وقد تكفَّل ابنُ طيفور الخراسانيّ بنَقْلِ هذه الخطبةَ التي يعجزُ فحولُ بلغاء عَصْرِها ومصْرِها على صياغةِ مثلها ، بل إنَّ سَحبانَ وائل[1] يصبحُ أمامها أعْيَا منْ باقل[2] ، لا بلْ إنَّ

---

(١) «سَحْبَان وائل»: هو رجلٌ منْ باهلةَ يُضْرَبُ به المثَلُ في البلاغَةِ فيقال: أبلغُ منْ سحبَانَ؛ دخلَ على معاويةَ ـ رضي الله عنه ـ وعندَه خطباءُ القبائلِ ، فلما رأَوهُ خرجُوا ، لِعِلْمِهم بقصورِهم عَنْه ، فقالَ:

لَقَدَ عَلِمَ الحيُّ اليمانُون أنَّني ... إذا قُلْتُ أمّا بعدُ أنّي خطيبُها

فقال له معاويةُ: اخْطبْ ، فقالَ: انظروا إلىٰ عصا تقيمُ من أَوَدي ، فقالوا: وما تصنعُ بها وأنتَ بحضرةِ أمير المؤمنين؟ فقال: وما كانَ يصنعُ بها موسىٰ وهو يخاطبُ ربّه! فأخذَهَا ، فتكلَّم منَ الظُّهرِ إلىٰ أنْ فاتتْ صلاةُ العَصْر ، ما تنحنحَ ، ولا سَعَلَ ، ولا توقّفَ ، ولا ابتدأَ في معنى فخرجَ عنه وقد بقيتْ عليه بقيةٌ فيه ، ولا مالَ عن الجنسِ الذي يخطبُ فيه ، فقال معاويةُ: الصّلاةَ؛ فقال: الصّلاةُ أمامك ، أَلَسْنَا في تحميدٍ وتمجيدٍ ، وعظةٍ وتنبيه ، وتذكيرٍ ووعد ووعيد! فقال معاوية: أنتَ أخطبُ العرب ، قال: أوَ العرب وحْدَها! بل أخطبُ الجنِ والإنس. قال: أنت كذلك. (جمهرة الأمثال: ١/ ٢٠٢).

(٢) «باقِل»: رجُلٌ يُضْرَبُ به المَثَلُ في العيّ ، فيقال: أعْيَا منْ باقل؛ والعيُّ خلافُ البيانِ ، وكانَ باقلُ رجُلاً منْ إياد ، اشترىٰ ظبْياً بأحَد عَشَر درهماً ، فَسُئِلَ عن ذلك ، فمدَّ يدَيْه ، وَدلَع لسانه ، فشردَ الظّبيُ فقال حُمَيْد بنُ ثور يهجو ضيفاً له ، أو حُميد الأرقط:

أتَانَا ولمّا يَعْدُ سحبانَ وائِلٍ ... بيَاناً وعلْماً وبالذي هو قائلُ

فما زالَ منه اللقمُ حتى كأنّه ... منَ العيِ لمّا أنْ تكلَّم باقلُ

وباقلُ هو باقلُ بنُ عمر بن ثعلبةَ الإياديّ ، وقال أبو العلاء المعريّ في لاميته في ديوانه «سقط الزند»:

إذا وَصَفَ الطَّائيَّ بالبخلِ مَادِرٌ ... وعَيَّرَ قُسّاً بالفَهَاهةِ باقِلُ

وقال السُّهَا للشّمسِ أنتِ خفيّةٌ ... وقالَ الدجىٰ للصُّبحِ لونُك حائلُ

وطاولتِ الأرضُ السّماءَ سَفَاهَةً ... وفاخرتِ الشُّهْبَ الحصَى والجنَادلُ=

قُساً[1] لا يعرِفُ أمامَها الحابِلَ منَ النَّابل ، كما أنَّ أكثم[2] يعيا أمامَها وترتعدُ منه المفاصل؛ ولكنَّ ناقلي الأخبار عنِ الرُّواة والوضَّاعين أصرُّوا على أنَّ ما سنسمعُه منْ كلامٍ هو من بلاغةِ عائشةَ بنتِ عثمان وفصاحتِها ، بل إنّها

= فيـا مـوتُ زُرْ إنَّ الحيـاةَ ذميمـةٌ ويـا نفسُ جـدّي إنَّ دهـرَكِ هـازلُ
و«الطَّائي» هوحاتمُ المشهورُ بالكَرمِ. «ومَادِر»: رجُلٌ يُضْرب به المَثَل في البخل و«قُسّ»: أحدُ حكماءِ العرب وخُطبائهم ، يُضْرَبُ به المثلُ في الفَصَاحة. «والفهَاهة»: العيّ «والسُّها»: كوكبٌ في بناتِ نعش الكبرىٰ ، والنَّاس يمتحنون به أبصارهم ، وفي المَثَل: «أُريها السُّها وتريني القمر». (جمهرة الأمثال ٢/ ٦٣ و٦٤) و(سرح العيون ص ٣٧٧ و٣٧٩) مع الجمع والتصرف. وانظر: مجمع الأمثال (١/ ١٩٦).

(١) «قسُّ بنُ ساعدةَ الإياديّ»: يُضْرَبُ به المثل في البلاغةِ والبيانِ فيقال: أبْيَنُ منْ قُسّ ، وهو أوّلُ مَنْ خَطَبَ علىٰ عصا ، وأوّلُ مَن كتَبَ منْ فلان إلى فلان. ومن كلامه: لا تشاورْ مَشْغولاً وإنْ كان حَازماً ، ولا جائعاً وإنْ كان فهماً ، ولا مذعوراً وإنْ كان ناصحاً. . . ولا تستودعنّ سرَّك أحداً ، فإنّك إنْ فعلتَ لم تزلْ وَجِلاً. (جمهرة الأمثال ١/ ٢٠٢ و٢٠٣).

(٢) «أكثم»: هو أكثمُ بنُ صيفي بن رياح التّيمي ، أشهرُ حكّام العَربِ في الجاهليّة ، وحكمائِهم وخطبائِهم ، أدركَ مبعثَ النّبيّ ﷺ ورَاسَلَهُ ، بعثَ إليه ابنهُ حُبَيْش بنَ أكثم فقال: يا محمّد بمَ بعثَك ربُّك؟ قال: «بعثني بأنْ أكسرَ الأوثانَ» ، قال: بمَ أمرَكَ؟ قال: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٩٠]. فانصرفَ حُبيش إلىٰ أبيهِ فأخبرَه بكلامِ رسولِ الله ﷺ ، وتلا عليهِ الآيةَ الشَّريفة ، فجعلَ يردّدها ويقول: إنَّ هذا لربٌّ كريمٌ ، يأمر بمحاسنِ الأخلاقِ ، وينهىٰ عن مساوئها ، ثم جمعَ إليه بني تميم وقامَ فيهم خطيباً ، وعمرهُ إذ ذاك مئةٌ أوتسعونَ سنة ، وفي ذلك يقول:
وإنَّ امـرأً قـد عـاشَ تسعيـنَ حِجَّـةً إلـىٰ مئـةٍ لـم يسـأم العيـشَ جـاهـلُ
ويُروىٰ: «لخمس فلمْ يسأم» على أنَّ عُمره خمسٌ وتسعون سنة ، وهو الأقرب.
وكانَ منْ أفصحِ خطباء العرب ، وجُمِعَ منْ كلامِهِ شيءٌ كثيرٌ ، ومنْ أقوالِهِ: إنَّ مصارعَ الألبابِ تحتَ ظلالِ الطّمع. ومنْ أمثالِه: أشبعْ جارَك ، وأجعْ فارَك. ومنها: لا تهرفْ بما لا تعرف. (سَرح العيون ص ٣١ ـ ٣٤) بتصرف.

ارتجلتْ ذلكَ ارتجالاً عقب مقتلِ واستشهاد أبيها عثمان ـ عليه سحائب الرّضوان ـ.

* فقد وردَ أنَّه لما قُتِلَ أبوها عثمانُ ، وبُويع عليُّ بنُ أبي طالب ، بلغَ ذلك عائشةَ بنتَ عثمان ، فصاحتْ بأعلىٰ صوتِها قائلةً :

* يا ثارات عُثمانَ؛ إنَّا للهِ وإنَّا إليهِ راجعون ، أُفيتْ نفسُه ، وطلَّ دمُهُ في حَرمِ رسولِ الله ﷺ ، ومُنعَ منْ دفْنِهِ ، اللهُمّ! ولو يشاءُ لامتنعَ ووجدَ منَ اللهِ ـ عزَّ وجلَّ ـ حاكماً ، ومن المسلمينَ ناصِراً ، ومنَ المهاجرين شَاهِداً ، حتى يفيءَ إلى الحقّ من صدَّ عنه ، أو تطيحَ هاماتٌ ، وتفرىٰ غلاصمُ ، وتخاض دماء ، ولكن استوحشَ مما آنستم به ، واستوخمَ ما استمرأتموه.

* رحمةُ الله عليكَ يا أبتاهُ ، احتسبتَ نفسَك ، وصبرتَ لأمْرِ ربِّك ، حتى لحقتَ بهِ ، وهؤلاء الآن قد ظهرَ منهم تراوضُ الباطلِ ، وإذكاءُ الشَّنآنِ ، وكوامنُ الأَحْقَاد ، وإدراكُ الإِحَنِ والأوتارِ ، وبذلك وشيكاً كان كيدُهم وتبغّيهم ، وسعيُ بعضهم ببعض ، فما أقالوا عاثِراً ، ولا استعتبوا مُذنباً ، حتى اتّخذوا ذلك سبباً في سَفْك الدِّماءِ ، وإباحةِ الحمى.

* ثمَّ إنَّ عائشة ـ فيما زعم الزَّاعمون والوضّاعون ـ تتحدَّثُ وتنتقصُ من قَدْرِ سيّدنا عمر بن الخطّاب ـ رضي الله عنه ـ في كلامٍ خطيرٍ وخطيرٍ جداً ، وخَرْطُ القَتَاد دونَه ، وهو يخالفُ السِّيرة العمريّة ، تقول: فهلاَّ علنتْ كلمتُكم ، وظهرتْ حسكتُكم إذ ابن الخطّاب قائمٌ على رؤوسِكم ، ماثلٌ في عَرَصَاتكم ، يردعُ ويبرقُ بإرعابِكم ، يقمعُكم غيرَ حَذِرٍ من تراجعكم الأماني بينكم؟!

* وهلا نقمتم عليه عوداً وبدءاً إذْ مَلك ويملكُ عليكم مَنْ ليس منكم بالخلقِ الليّن والجسمِ الفصيل ، يسعىٰ عليكم وينصبُ لكم ، لا تنكرونَ ذلك منه خوفاً منْ سطوتهِ ، وحَذَراً من شدّتِهِ أنْ يهتفَ بكم متَقسوراً ، أو يصرخَ بكم متعذوِراً ، إنْ قال صدَّقتمْ قَالَته ، وإنْ سألَ بذلتُم سَأْلَتَهَ ، يحكمُ في رقابِكم وأموالكم كأنّكم عجائز صُلَّع ، وإماء قُصَّع؛ قد خطبَ عقولكم ،

واسْتَـمْهرَ وجلكَـم ممتحنـاً لكم ، ومعترفـاً أخطارَكـم ، وهل تسمو هممكم إلىٰ منازعتِه؟! ولولا تَيْك لكانَ قسمُه خسيساً ، وسعيُه تعيساً ، لكنْ بدرَ الرَّأي ، وثنىٰ بالقَضاء ، وثلَّثَ بالشُّورى ، ثم غدا سَامِراً مُسَلّطاً دُرَّتَه علىٰ عاتقه ، فتطأطأتم له تطأطُؤَ الحقّة ، ووليتموه أدباركم حتى علا أكتافَكم ، فلم يزلْ ينعـقُ بكم في كلّ مرتعٍ ، ويشد منكم على كلّ مخنق ، لا ينبعثُ لكم هتافٌ ، ولا يأتلفُ لكم شهاب ، يهجمُ عليكم بالسَّراء ، ويتورّط بالحوباء ، عرفتم أو نكرتم لا تألمون ولا تستنطقون ، حتى إذا عاد الأمرُ فيكم ولكم وإليكم في مونقةٍ منَ العيشِ عرقها وشيج ، وفرعها عميم ، وظلّها ظليل ، تتناولون من كثب ثمارها أنّى شئتم رغداً ، وحليتْ عليكم عشارُ الأرض دُرراً ، واستمرأتم أكلكم منْ فوقكم ومنْ تحتِ أرجلكم في خصبٍ غدقٍ وامقٍ شرق تنامون في الخفضِ وتستلينون الدَّعَة ، ومقتُّم زبرجةَ الدُّنيا ، وحرجتها ، واستحليتم غضارتهَا ونضرتها ، وظننتم أنَّ ذلك سيأتكم منْ كثبٍ عفواً ، ويتحلَّب عليكم رسُلاً ، فانتضيتم سيوفكم وكسرتُم جفونكم ، وقد أبىٰ اللهُ أنْ تُشَام سيوفٌ جُرّدت بغياً وظُلماً ، ونسيتم قول الله عـزَّ وجـلَّ : ﴿ ۞إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴾ [المعارج: ١٩ ـ ٢١] ، فلا يهنيكم الظَّفرُ ، ولا يستوطن بكم الحصر ، فإنَّ اللهَ بالمرصادِ ، وإليهِ المعاد ، واللهِ ما يقوم الظليم إلا علىٰ رجلين ، ولا ترنُّ القوسُ إلا على سِيتَيْن ، فأثبتوا في الغرزِ أرجلكم ، قد ضللتمْ هداكُم في المتيهةِ الخرقاءِ كما ضلَّ أدحية الحَسْقَل ، وسيعلم كيفَ تكون إذا كان النَّاس عباديد ، وقد نازعتكم الرِّجال واعترضتْ عليكم الأمور ، وساورتكم الحروبُ بالليوث ، وقارعتكم الأيّام بالجيوش ، وحمىٰ عليكم الوطيس ، فيوماً تدعون مَنْ لا يجيب ، ويوماً تجيبون مَنْ لا يدعو ، وقد بَسط كلتا يديهِ يرىٰ أنَّهما في سبيلِ اللهِ ، فَيَدٌ مقبوضةٌ ، وأخرىٰ مقصورة ، والرُّؤوس تنزو عن الطِّلى والكواهلِ كما ينقفُ التّنوم ، فما أبعد

نَصْر اللهِ من الظَّالمين ، وأستغفرُ الله مع المستغفرين[1] .

* هذه هي كلمةُ عائشة بنت عثمان التي قرأناها ، والتي ألفينا خلالها رائحة الوضْع ، بل إنَّ هناك كثيراً من الألفاظ الصَّعبة التي لم تكنْ تُستخدمُ في ذلك العَصْر ، بل وجدنا كثيراً منَ الجملِ غير المترابطة ، والمقحمةِ إقحاماً ، بالإضافة إلى السَّجع المقيت ، والتّهجُّم على عبقري الصَّحابة وفاروقهم عمرَ ـ رضي الله عنه ـ؛ ولعمري متى تحسنُ النِّساء مثل هذا القول؟! بل مَن حَفِظَ هذه الخطبة العَصماء ذات المعاني المصنوعة والألفاظ الخشنة؟! إنَّ الوضَّاعين ورواةَ الأخبار فَاتَهم ذلك ، فراحوا يضعُون ويصنعون الكلماتِ على لسانِ هذا وهذه ، ويضعون منْ شأْنِ هذا وهذه ، ويرفعون من شأْنِ من أحبُّوا ، ولكنَّ عقول المتنوِّرين لهم بالمرصادِ ، ولنْ تنطلي حِيَلهم على النَّاس .

عَائِشَةُ وَمُعَاوِيَةُ :

* كان مقتلُ عثمانَ بنِ عفان ـ رضي الله عنه ـ أليماً على قَلْبِ ابنته عائشةَ ، وعلى قلوبِ المسلمين في مشارقِ الأرض ومغاربها ، وقد رثاهُ كثيرٌ من رجالِ الصَّحابة ، ومن نساء وبنات الصَّحابة والتَّابعيات ، فممن رثاه زينبُ بنتُ العوّام أخت الزبير ، فقالت من قصيدة :

أَعَطَشْتمُ عثمانَ في جَوْفِ دارِه	شرِبْتُم كَشُربِ الهيم شُرْبَ حَميمِ
وأيْقَنْتُ أنَّ الدِّين أصبحَ مُدْبِراً	فكيفَ نُصلِّي بَعْدَه ونصومُ
وكيفَ بنا أمْ كيفَ بالدين بَعْدَما	أُصِيْبَ ابنُ أروىٰ وابنُ أمّ حكيم[2]

(١) انظر : بلاغات النساء (ص ١٠٣ ـ ١٠٥) ، وأعلام النساء (٣/ ١٥٨ ـ ١٦٠) مع الجمع التصرف اليسير جداً. وقد تعمدت ألا أشرح غوامض الألفاظ والمعاني ليعرف القارىء مكائد الوضاعين.

(٢) انظر : نسب قريش (ص ٢٣٢) ، وأسد الغابة (٦/ ١٣٣) ترجمة رقم (١٩٦٢) ، والإصابة (١٢/ ٢٨٥) ترجمة (٤٩٠) ، ونهاية الأرب (١٩/ ٥١٣) مع الجمع والتصرف.

وقالت ليلىٰ الأخيلية ترثي عثمان وتستنهضُ معاوية:

قتِـــلَ ابـــنُ عَفَّـــان الإمـــا م وضَـــاعَ أمْـــرُ المُسلمينَـــا

وتشتَّتَـــتْ سُبُـــلُ الـــرَّشـــا دِ لصـــادرِيـــنَ وواردينَـــا

فـــانهـــضْ مُعـــاوِيَ نَهْضَـــةً تَشفـــي بهـــا الـــدَّاءَ الـــدَّفينـــا

أنـــتَ الـــذي مـــن بعـــدِه تُـــدعـــىٰ أميـــرَ المـــؤمنيـــا[١]

* هذا ولم يُؤثر عنْ عائشةَ بنتِ عثمان أنَّها قالتْ شيئاً في قَتْل أبيها ، إلا أنَّها عندما لقيتْ معاويةَ صاحَتْ وندبتْ أباها ، وهي تقولُ باكيةً: واأبتاه ، وذلك بعد أنْ قَدِمَ معاويةُ المدينةَ بعد عامِ الجماعةِ بعد سنة ٤١هـ ، وعندها أدْخَلَ معاويةُ الاطمئنانَ إلىٰ نفسها ، وأمرها بالكفّ عن البكاء.

* تذكرُ المصادرُ أنَّ معاوية ـ رضي الله عنه ـ قدمَ المدينةَ المنورةَ أوّل حجّةٍ حجَّها بعد اجتماعِ النَّاس عليه في عامِ الجمَاعة ، فلقيه الحسنُ والحسين ـ رضي الله عنهما ـ ورجَالٌ منْ قريش ، فتوجّه معاويةُ إلى دارِ عثمانَ بنِ عفان ـ رضي الله عنه ـ فلما دنا من بابِ الدَّار ، وعلمتْ به عائشةُ بنتُ عثمان صاحتْ وندبتْ أباهَا ، وبكتْ ونادت أباها: واأبتاهُ واعثماناهُ ، فقال معاويةُ لمن معه من القوم: انصرفوا إلى منازِلكم يرحمكم اللهُ فإنَّ لي حاجةً في هذه الدَّار.

* وانصرفَ القومُ امتثالاً لأمْرِهِ ، ودخل مَعاويةُ مسْكَنَ عائشةَ بنتِ عثمان ، ثم إنَّه أمرهَا بأنْ تكفَّ عنِ البكاءِ وعن مناداةِ أبيها ، ثمَّ قال لها: يا بنةَ أخي إنَّ النَّاسَ أعطونا طاعةً وأعطيناهم أماناً ، وأظهرنا لهم حلْماً تحته غَضَبٌ ، وأظهروا لنا طاعةً تحتها حقْدٌ ، ومع كلّ إنسان سيفُه ، وهو يرىٰ مكانَ وموضع أصحابِه وأنصاره ، فإنْ نكثْنَا بهم نكثُوا بنا ، ولا ندري أعلينا تكونُ أمْ لنا ، ولأنْ تكوني ابنةَ عمّ أميرِ المؤمنين ، خيرٌ منْ أنْ تكون امرأة من

---

(١) انظر: نهاية الأرب (١٩/ ٥١٣).

عُرضِ المسلمين ، ونِعْمَ الخلفُ أنَا لك بَعْد أبيك[1] .

* وبهذا لخّصَ معاويةُ ـ رضي الله عنه ـ سياستَه مع النَّاس ، ومع جمهورِ الأمَّة الإسلاميّةِ ، فهو يعرفُ مالَه وما عليه ، ويعرفُ كيف يُرضي عائشةَ بنتَ عثمان وغير عائشة[2] .

مِنْ أَخْبَارِ عَائِشَةَ وَطَرَائِفِهَا :

* تحدثُنا كتبُ الأدبِ والتَّاريخ جملةَ أخبارٍ وطرائفَ عن ابنةِ هذا الصَّحابي الجليل ، وهذهِ الأخبارُ تحملُ بين أَردانها دعاباتٍ لطيفة لعائشةَ بنتِ عثمان ، وخصوصاً تعليقاتها الجميلة على ما يحدثُ معها .

---

(١) عن عيون الأخبار (١/ ١٤) ، والعقد الفريد (٤/ ٣٦٤) ، والبداية والنهاية (٨/ ١٣٥) ، وأعلام النساء (٣/ ١٦١) مع الجمع والتصرف اليسير . انظر : البيان والتبيين (٣/ ٣٠٠) .

(٢) كانَ معاويةُ ـ رضي الله عنه ـ منْ أعظمِ النَّاس حلْماً ، وأكثرهم سُؤدداً ، وأبعدهم أناةً ، قطعَ اللهُ به الفتنةَ ، وملّكه علىٰ العباد ، وفتحَ به البلاد ، وكانَ يحدِّدُ هدفَه في أقوالِهِ ، فقد روي أنَّه لما قَدِمَ المدينةَ المنوَّرة قال : أيُّها النَّاسِ ، إنَّ أبا بكرٍ ـ رضي الله عنه ـ لم يُرِدِ الدُّنيا ولم ترده ، وأمّا عمر فأرادته ولم يردْها ، وأمّا عثمانُ فَنَالَ منها ونالت منه ، وأمّا أنا فمالتْ بي وملْتُ بها ، وأنا ابنُها ، فهي أمّي وأنا ابنها ، فإنْ لم تجدوني خيركم ، فأنَا خيرٌ لكم . (العقد الفريد ٤/ ٣٦٤ و٣٦٥) .
لقد كانَ معاويةُ رجُلاً نسيج وحده حقاً ، وكان يملك منْ العبقريةِ والشَّجاعة ما يجعله خليقاً بأنْ يسوسَ النَّاس ، فلم يكن يعتمدُ البطشَ والإرهابَ لاستتباب ملكه وحكمهِ ، وإنّما كانت السِّياسة الرشيدةُ العاقلةُ الحكيمةُ التي اختطَّها هي التي حفظتْ له ملكه عشرين عاماً دون منازع .
ولقد وصَفَه ابنُ كثير ـ رحمه الله ـ فقال : انعقدتِ الكلمةُ علىٰ معاويةَ ، وأجمعتِ الرعايا علىٰ بيعتهِ في سَنةِ إحدىٰ وأربعين ، فلم يزلْ بالأمْرِ مستقلاً إلىٰ سنةِ وفاته ، والجهادُ في بلاد العدو قائمٌ ، وكلمةُ اللهِ عاليةٌ ، والغنائمُ تَرِدُ إليه منْ أطرافِ الأرضِ ، والمسلمون معه في راحة وعَدْل ، وصفح وعفوٍ .
وقال الذهبي ـ رحمه الله ـ : معاوية بن أبي سفيان أمير المؤمنين ، ملك الإسلام ، أبو عبد الرحمن ، القرشي الأموي المكي .

* فقد وردَ أنَّ أبانَ بنَ سعيد بن العاص قد خطبَها فقالت: هو أحمق، والله لا أتزوّجُه أبداً.

فقيل لها: ولِمَ ذاك؟

قالت: له برذونان أشْهبان فهو يحتملُ مؤونةَ اثنين، وهما عند النَّاس واحد[1].

وقالت فيه لما نزل بأيلة[2]، وتركَ المدينة المنورة:

نَزَلْتُ بِبَيْتِ الضَّبِّ لا أَنْتَ ضَائِرٌ عـدوّاً ولا مُسْتَنْفِعـاً أنـتَ نَـافِعُ[3]

* وتروي كتبُ الأخبارِ أيضاً بأنَّ عائشةَ كانت امرأةً جميلةً، ذاتَ خُلُق كريم، وخلْقٍ جميلٍ، ولكنَّ وجهَها فيه قُبْح وجمال، فقد وردَ أنَّه كان بالمدينةِ امرأةٌ حَسْناء تسمّى عزَّة الميلاء، يألفها الأشرافُ وغيرهم منْ أهلِ المروءاتِ، وكانتْ منْ أظرفِ النَّاس وأعلمِهم بأمورِ النِّساء، فأتاها مصعب بنُ الزُّبير، وعبدُ الله بنُ عبد الرحمن بن أبي بكر، وسعيدُ بنُ العاص، فقالوا لها: إنّا خَطَبْنا فانظري لنا.

فقالتْ لمصعبُ: يا بْن أبي عبد الله، ومَنْ خطبتَ؟

قال: عائشةُ بنتُ طلحةَ.

فقالت لسعيد: فأنتَ يا بن أبي أُحَيْحَة؟

---

(١) انظر: عيون الأخبار (٢/ ٤٣)، والبيان والتبيين (٤/ ٧)، وأعلام النساء (٣/ ١٦١).

(٢) «أَيْـلَة»: بفتح أوّله، على وَزْنِ فَعْلة: مدينةٌ علىٰ شاطىءِ البحرِ، في مَنْصفِ ما بين مصرَ ومكةَ، قال حسّانُ بنُ ثابت:

مَلَكـا مـنْ جَبَـلِ الثَّلْـج إلـىٰ جـانِبَـيْ أيْلَـةَ مـنْ عبـدٍ وحـرِّ

(٣) انظر: البيان والتبيين (٣/ ٣٠٠)، والحيوان (٦/ ١٠٤ و١٠٥)، وأعلام النساء (٣/ ١٦١) وهذا وبيتُ الضّبّ مَثَلٌ في الضِّيق والقِلّة فيُقال: «أضيقُ منْ مَبْعج الضَّبِّ» (جمهرة الأمثال ٢/ ٨) والمستنفع: طالب النفع.

قال: عائشة بنتُ عثمانَ.

فقال لعبد الله: فأنتَ يا بن الصِّدِّيق؟

قال: أمُّ القاسم بنتُ زكريا بن طلحة.

* وانطلقتْ عزَّةُ إلىٰ النِّساء ورأتهنَّ، ووصفتْ كلَّ واحدة لِمَنْ خطبهَا وقالتْ لسعيد: وأمّا أنتَ يا بن أبي أُحيحة فإنّي واللهِ ما رأيتُ مثْل خَلْقِ عائشةَ بنتِ عثمان لامرأةٍ قطّ، ليس فيها عيبٌ، واللهِ لكأنّما أُفْرِغَتْ إفراغاً، ولكنْ في الوجه رَدَّة[1]، وإن استشرتَني أشرتُ عليك بوجهٍ تستأنس به[2].

* ولكنَّ محمَّد بنَ حبيب عندما تعرضَ لأصهار عثمانَ بنِ عفَّان ـ رضي الله عنه ـ ذكرَ بأنَّ الذي تزوَّجَ عائشة هو الحارثُ بنُ الحكم بن أبي العاص بن أمية[3]، ثمَّ خلف عليها عبدُ الله بن الزُّبير بن العوام[4].

* ويذكر ابنُ حزم في «جمهرته» أنَّ الحارثَ بنَ الحكم قد تزوَّج عائشةَ بنتَ عثمان، وأنجبتْ له ولدَيْن هما: أبو بكر، وعثمان[5].

ومن الجدير بالذّكر أنَّ عائشةَ بنتَ عثمان قد تولَّتْ تربيةَ وكفالةَ أَشْعب بن جُبير[6] الطَّماع المتوفىٰ سنة (١٥٤هـ) وكان لها معه بعضُ الطَّرائف الجميلة.

عن الأصمعي قال: قالَ أشعبُ: نشأتُ أنَا وأبو الزِّناد في حجرِ عائشةَ بنتِ

---

(١) «ردّة»: الردة: القبح مع شيء من الجمال.
(٢) الأغاني (١١/ ١٨٢ ـ ١٨٤) باختصار وتصرف.
(٣) انظر: المحبر (ص ٥٥).
(٤) ذكر المبردُ في كامله: أنَّ أبا محمد الحسنَ بنَ علي ـ رضي الله عنهما ـ قد خطبَ عائشة بنتَ عثمان بنِ عفّان، واجتمعا لذلك، فزوّجها مروان بن الحكم من عبدِ اللهِ بنِ الزُّبير.
(الكامل للمبرد ص ١١٣٠).
(٥) انظر: جمهرة أنساب العرب (ص ١٠٩).
(٦) انظر: الأغاني (١٩/ ١٤٤).

عثمان ، فلم يزلْ يعلُو وأسفلُ حتى بلغنا هذه المنزلة[1].

ومن طرائفِ أشعب مع مولاتِهِ عائشةَ ما ذكره المدائني قال: دفعتْ عائشةُ بنتُ عثمان أشعبَ في البزّازينَ فقالت له بعد حَول: أتوجّهتَ لشيءٍ؟

قال: نعم ، تعلّمتُ نصفَ العَملِ وبقي نصفه.

قالت: وما تعلمتَ؟

قال: تعلمتُ النَّشر وبقي الطَّي[2].

هذا وهناك بعضُ الأخبار الأخرىٰ لعائشةَ مع أشعب ، إلا أنّنا عَرضْنَا ما يتوافُق مع منهجِنا في هذا الكتاب.

وبعد ، فهذه عائشةُ بنتُ عثمان[3] التي تعدُّ أشهر بناتِهِ ، أرجو أنْ أكونَ وفّقتُ في الحديثِ عنها ، وعرضِ صورتها بشكل صحيح. رحمَ الله عائشةَ وجعلها مع الذين أنعمَ عليهم.

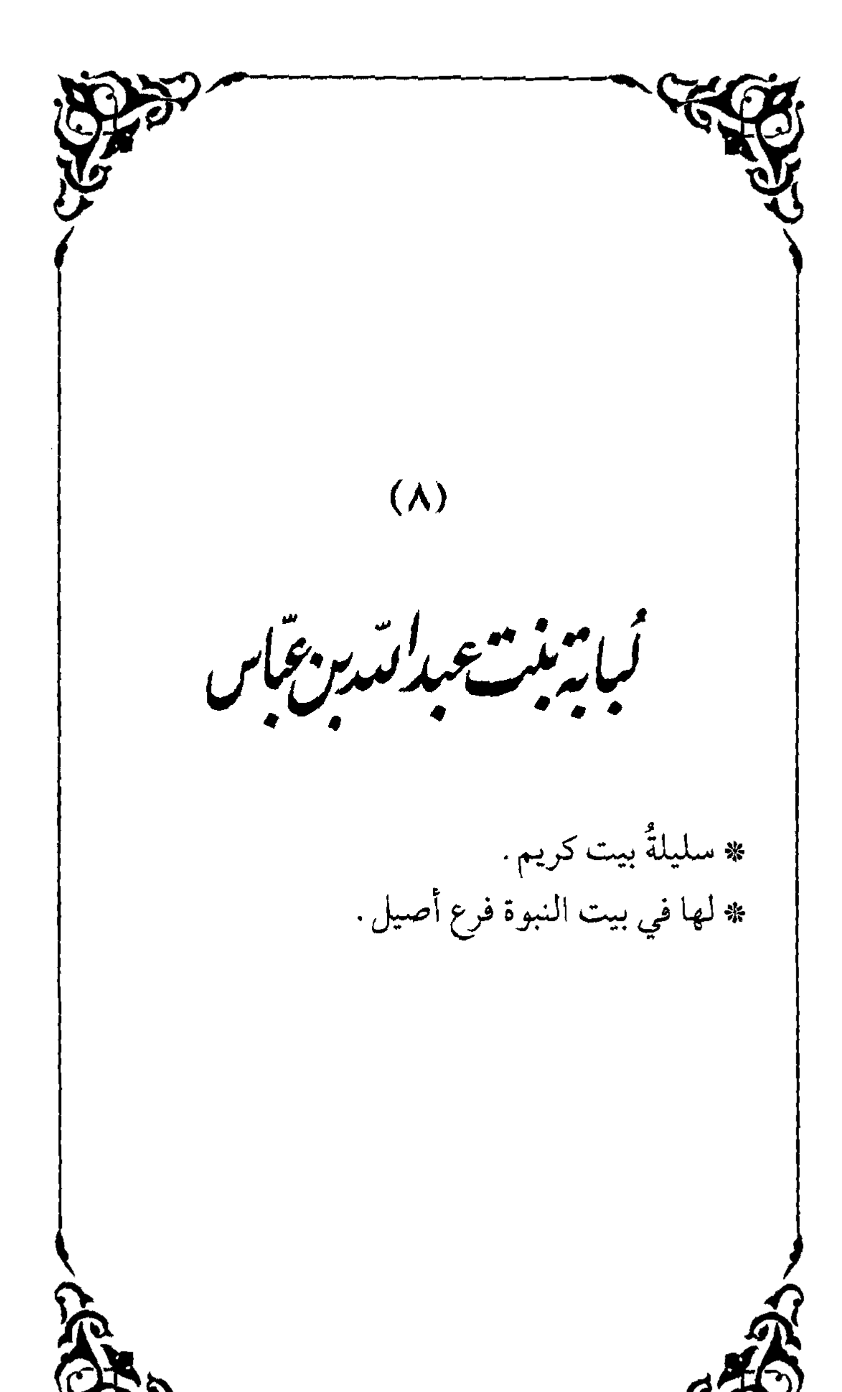
* * *

---

(١) الأغاني (١٩/ ١٤٥).

(٢) الأغاني (١٩/ ١٤٨ و١٤٩).

(٣) لم تذكر المصادر تاريخ وفاة عائشة بنت عثمان ، ولم أجد فيما بين يدي من الكتب من تعرض لذلك ، وأغلب الظن أنها توفيت في بداية القرن الثاني الهجري ، والله أعلم.



(٨)

لُبابة بنت عبد الله بن عبّاس

* سليلةُ بيت كريم .
* لها في بيت النبوة فرع أصيل .

لبَـابُ الفَـضْـلِ :

* ابنةُ هذا الصَّحابيِّ كريمةٌ بنتُ كريمٍ بنت كريمةٍ ، فهيَ أصيلةُ الآباءِ والجدُود ، لها في بيتِ النُّبوّة فرعٌ كريمٌ.

* وهذه الابنةُ الكريمةُ تحفُّها الفَضَائِلُ والمكارمُ أنّىٰ التفتَّ ، وأنّى اتّجهت ، وأنىٰ شرقّتَ وغرَّبتَ.

* فأبُوها عبدُ اللهِ بنُ عبَّاس ـ رضي الله عنهما ـ أبو العبَّاس الهاشميّ القُرشي الصَّحابي ابنُ الصَّحابي المكيّ، ابنُ عمّ سيِّدنا وحبيبِنا رسولِ الله ﷺ ، وهو حَبْرُ الأُمَّةِ ، وبحرُ العِلْمِ ، وترجمانُ القُرآن[1] ، وهو أحدُ العبَادِلَةِ الأربعـةِ مـنَ الصَّحـابـة وهـم: عبـدُ اللهِ بـنُ عمـرَ بـنِ الخطَّـاب؛ وعبـدُ اللهِ ابنُ عبَّاس ، وعبدُ اللهِ بنُ عمرو بنِ العَاص ، وعبدُ اللهِ بِنُ الزُّبير ـ رضي الله عَنْهم ـ ، وقد وهمَ بعضُهم ، فوضَعَ عبدَ اللهَ بنَ مسعودٍ ـ رضي الله عنه ـ بَدَلاً منْ عبدِ اللهِ بنِ عمرو بنِ العاص ـ رضي الله عنهما ـ.

* ومنَ الطَّريف أنَّ هؤلاء العبادلةَ الأربعةَ قد سمَّاهم بهذا الاسم الإمامُ أَحْمدُ بنُ حنبل ـ رحمه الله ـ وسائرُ المحدِّثين وغيرهم مِنْ حَمَلَةِ العِلْمِ. وقد نَظَم أسَماءَهم محمدُ بنُ عُبيدِ الله بنِ جبريل المتوفىٰ سنة (٦٧٤هـ) فقالَ في هؤلاءِ الأَرْبَعةِ الأَبْرارِ الأَخْيارِ الأَطْهار:

إنَّ العَبـادِلـةَ الأَخْيـار أَربعَـةٌ ... مَنَاهجُ العِلْمِ في الإسلامِ للنَّاسِ
ابنُ الزُّبيرِ وابنُ العاصِ وابنُ أبي ... حَفْصِ الخَليفةِ والحَبْرُ ابن عبّاسِ
وقد يُضَاف ابنُ مسعودٍ لهم بديلاً ... عنِ ابنِ عمروٍ لوهمٍ أوْ لإلْبَاسِ[2]

---

(١) اقرأ سيرةَ عبد اللهِ بن عبّاس في موسوعتنا الشّهيرة «علماء الصّحابة» حيثُ تجد فوائد جمّة بإذنِ اللهِ تعالى.

(٢) انظر: الدّليل الشّافي على المنهل الصّافي لابن تغري بردي (٢/ ٦٤٨) ، واقرأ سيرَ هؤلاءِ الأربعةِ وغيرهم في موسوعتِنا «علماء الصَّحابة» ففيها نَفْعٌ بإذْنِ الله.
أمَّا قولُه في البيتِ الثَّالث: إنَّ ابنَ مسعود يُضافُ لهم بَدلاً عن عبدِ اللهِ بنِ عمرو ، =

* وجَدُّها العبَّاسُ بنُ عَبْد المطلب ـ رضي الله عنه ـ عمّ سيِّدنا وحبيبِنا رسولِ الله ﷺ أبو الفَضْل الهاشميّ ، كانَ العبَّاسُ رئيسَاً جَليلاً في قُريش ، وكانَ رسولُ اللهِ ﷺ يعظِّمُه ويكرمُه ويبجّلُه ، وكانَ مُحْسِناً لقريش ، ذَا رأيٍ وكمالٍ وعَقْل ، جَواداً كريماً ، أعْتَقَ سَبْعين عبداً ـ رضي الله عنه وأرضاه ـ.

* وجدّتها لأَبيها: لبابةُ بنتُ الحارثِ بن حَزْن الهلاليّة ، أمُّ الفَضْل ، وأختُ ميمونةَ بنتِ الحارث أمّ المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ أسلمتْ قديماً ، وهي أوَّلُ امراةٍ أَسْلَمتْ بعد أُمِّنا خديجةَ ـ عليها سحائب الرضوان وحَشَرنا في معيّتها ـ ، وكانَ النَّبيُّ ﷺ يزورُها ، وهي لبابةُ الكبرىٰ ، روي لأمِّ الفضلِ عن النَّبيِّ ﷺ ثلاثون حديثاً.

* وأمّا ابنةُ هذهِ الصَّفَحات فهي لُبابة[1] بنتُ عَبد الله بنِ عبّاس ، إحدىٰ بنَاتِ الصَّحابةِ الأَعْلامِ الأخيارِ ، ولعلَّ لبابة[2] بنتُ عبدِ الله قد سُمِّيتْ باسمِ جدّتها لبابةَ بنتِ الحارث أمّ الفضل.

= هو أنَّ الجوهريَّ ذكرَ ذلك في كتابه «الصِّحاح» ، إذْ جَعَلَ ابنَ مسعودٍ أحدَ العبادلة الأربعة ، وأخرجَ عبدَ اللهِ بنَ عمرو بن العاص ، وهذا غلطٌ من الجوهري.
قال البيهقيُّ: تقدَّمَتْ وفاةُ ابنِ مسعود؛ وهؤلاءِ الأربعة عاشوا حتّى احتيجَ إلى عِلْمِهم ، فإذا اتّفقوا على شيءٍ قيل: هذا قولُ العبادلةِ أو فعلهم. (تهذيب الأسماء واللّغات ١/ ٢٥٢).

(١) نَسبُ قريش (ص ٢٨) ، والأغاني (١/ ٢١١ ـ ٢١٢ ـ ٢٧٤ و٣٠٠) ، وأعلام النّساء (٤/ ٢٧٣ و٢٧٤)، وديوان عمر بن أبي ربيعة (ص ٣٥٤) قطعة رقم (١٨٦)، والعِقد الفريد (٦/ ١٠٤) ، والحماسة البصرية (٢/ ٥٢٣)، والمحبّر (ص ٤٤)، والمعارف (ص ١٢٣ و٢٣٢)، ومختصر تاريخ مدينة دمشق (٢٠/ ٢٠٧ و٢٠٨)، وتاريخ الأدب العربي لبلاشير (ص ٧٤٩) ، والغزل عند العرب (١/ ٢٢٢) ومصادر أخرى كثيرة.

(٢) «لُبابة»: قال ابنُ منظور ـ رحمه الله ـ: لبُّ كلِّ شيءٍ ، ولُبابُه: خالُصه وخياره.
وشيءٌ لُبابُ: خَالِص ، هو لُبابُ قومِه ، وهم لُبابُ قومهم ، وهي لُبابُ قومها.
والحسَبُ: اللُّبابُ الخَالِص ، ومنه سُمِّيت المرأةُ: لُبابة.
واللبّ اللطيفُ القريبُ منَ النَّاسِ ، والأنثى لَبَّةُ ، وجمعها لُباب.
(لسان العرب ١/ ٧٢٩ ـ ٧٣٥) مادة لبب.

* ولبابة بنتُ عبد الله واحدةٌ منْ بناتِ الصَّحابة المشْهُورات ، وأمَّها ابنةُ مَلِكٍ منْ ملوكِ كِنْدةَ ، واسمُها زُرْعة بنتُ مِشْرِح بن معدي كَرِب الكندي ، ومِشْرَح بنُ معدي كَرِب أحدُ الملوكِ الأربعة ، وهم إخوة : مِخْوس ، وجَمْد ، ومِشْرح ، وأَبْضَعَة[1] .

* تزوَّجَتْ لبابةُ بنتُ عبدِ الله عليَّ بنَ عبد الله بنِ جعفرَ ، فولدتْ له ، ثمَّ خلَفَ عليها إسماعيلُ بنُ طلحةَ بنِ عُبيد اللهِ ، فولدتْ له يعقوبَ ، ثمَّ فارقَها ، ثمَّ تزوَّجَها محمّدُ بنُ عُبيد اللهِ بنِ العبَّاس[2] .

* وذكر الأَصبهاني أنَّها كانت زوجةً للوليدِ بنِ عُتبة بن أبي سفيان[3] .

لُبـابَـةُ وَشِعْـرُ عُمَـرَ بـنِ أبـي رَبيـعَـةَ :

* تقولُ كُتبُ الأدب : كانَ عبدُ اللهِ بنُ عبّاس ـ رضي الله عنهما ـ شديدَ الإعجابِ بشعْرِ عمر بن أبي ربيعة ، وكانَ كثيراً ما يقولُ : هلْ أحدثَ المغيريُّ شَيئاً بَعْدَنا؟

* وحُكِي أنَّ عمرَ بنَ أبي ربيعة أنْشَد عبدَ اللهِ بنَ عبَّاسٍ قصيدتهَ الدَّالية التي أوّلها : «تَشطُّ غداً دار جيراننا» فَبدَره ابنُ عبّاس فقال : «وللدَّارُ بَعْد غَدٍ أَبْعَدُ» ، قال : هكذا واللهِ قُلتُ! فقال ابنُ عباس : إنَّه لا يكون إلاّ هكذا[4] .

* وممّا يُروىٰ عنْ إعجابِ عبدِ اللهِ بنِ عبّاس بشِعْر عمرَ بنِ أبي ربيعة ، ما وَرَدَ أنَّه بينما كانَ في المسجدِ الحرامِ ، وعنده نافعُ بنُ الأَزْرَق[5] ، وناسٌ منَ الخوارجِ يَسْألُونه ، إذْ أَقْبَلَ عمرُ بنُ أبي ربيعة في ثَوبَيْن مَصْبُوغَين مورّدَيْن ،

---

(١) نسب قريش (ص ٢٨ و٢٩) .

(٢) المصدر السابق نفسه ؛ وانظر المحبر (ص ٤٤) .

(٣) الأغاني (٤/ ٢١١) .

(٤) انظر : سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون ، لابن نباتة (ص ٣٥٩ و٣٦٠) .

(٥) نافعُ بنُ الأزرق بنِ قيس الحنفيّ البَكريّ الوائليّ الحروري ، رأسُ الأَزارِقة وإليه نسبتُهم ، خرَجَ علىٰ عليّ بنِ أبي طالب يوم التحكيم مع جماعتهِ فسُمُّوا بالخوارجِ ، وكان جبّاراً فتّاكاً ، قُتِلَ يومَ دولاب سنَة (٩٥هـ) .

حتّى دخَلَ وجلَسَ ، فأقبلَ عليه ابنُ عبّاس فقال : أَنْشِدْنا ، فأَنْشَدَهُ :

أَمِـنْ آلِ نُعْـمٍ أَنْـتَ غَـادٍ فَمُبْكِـرُ ... غَـداةَ غَـدٍ أمْ رائـحٌ فَمُهجَّـرُ

* وهي قصيدةٌ رائيةٌ[1] طويلة تبلغُ (٧٥ بيتاً) ، ومنها :

رَأَتْ رجُلاً أمّا إذا الشَّمْسُ عَارضَتْ ... فيُـضْحـىٰ وأمّـا بـالعشـيّ فَيَخْصَـرُ

أخَـا سَفَـرٍ جـوَّابَ أرضٍ تَقَـاذَفَـتْ ... بـهِ فلـواتٌ فهـو أَشْعـثُ أغْبَـرُ

* وظلَّ عمرُ ينشدُ هذهِ القصيدةَ حتى أتىٰ علىٰ آخرِها .

* فأقبلَ نافعُ بنُ الأزرقِ علىٰ ابنِ عبّاس متعجّباً منْ شأْنِهِ وقال : إنَّا نضربُ إليكَ أكْبَادَ الإبلِ منْ أقاصي البِلادِ نسألُكَ عن الحرامِ والحلالِ ، فَتَتَثَاقَل عنّا ، ويأتيك غلامٌ مُتْرَفٌ منْ مترفي قريش ، فينشدك :

رَأَتْ رجُلاً أمّا إذا الشمسُ عَارضَتْ ... فَيَخْـزَىٰ وأمّـا بـالعَشـيِّ فيخْسَـرُ

فقال ابنُ عبّاس : ليسَ هكذا قالَ يا بْنَ الأَزْرق؟

قال : فكيفَ قال؟

فقال ابنُ عبَّاس : قال :

رأتْ رجلاً أمّا إذا الشَّمسُ عَارضَتْ ... فيضحـىٰ وأمّـا بـالعشـي فَيخْصَـرُ[2]

---

(١) قالَ الدّكتور زكي مبارك : أهمّ قصيدةٍ رويت لعمر بنَ أبي ربيعة هي رائيتُه التي فَضَّله بِهَا القُدماء علىٰ جميل ، ومنَ الواضحِ أنَّ أَوْلىٰ معشوقاتِه بالفضلِ عليه هي تلكَ الجميلةُ التي أوحَتْ إليهِ بتلك القصيدة . وما كانتْ تلك الحَسْنَاءُ فيما نظنُّ إلا عائشة بنتَ طلحةَ التي أجْمعَ أهلُ عصرِها على تفرّدها بروعةِ الجمال . (حبُّ ابن أبي ربيعة وشعره ص ١٤٣) .
وهذا ـ أعزائي القراء ـ يمثّلُ رأيَ الدّكتور زكي مُبارك ليس غير . ففي هذا الرّأي أيضاً أعاجيب واختراعات وافتراءات تجعلُ الفكر في وَادٍ ، والحقيقة في وَاد آخر .

(٢) «يضحىٰ» : يظهرُ للشّمس . و«يَخْصَر» : يبردُ . انظر : سمط اللآلي (٢/ ٦٧٣) .
ومنَ الجدير بالذّكْرِ أنَّ عبدَ الله بنَ الزبير ـ رضي الله عنهما ـ كان إذا سمعَ قولَ عمر بن أبي ربيعة :
«فيضحىٰ وأمّا بالعشي فيخْصَر» قال : لا ، بل «فيخزىٰ وأما بالعشي فيخسرُ» (الأغاني ١/ ٨٢) .

فقال ابنُ الأزرق: ما أراكَ إلا كُنْتَ حفظْتَ البيتَ.

قال ابنُ عبّاس: أَجَلْ! حفظتُه، وإنْ شئتَ أنْ أنْشِدَكَ القصيدةَ جميعَها أنشدتُك إياها.

فقال ابنُ الأزرقِ متعجّباً: إنّي أَشَاءُ أنْ تسمعنيها.

فأخذَ ابنُ عباس ينشدُه القصيدةَ حتّى أتىٰ علىٰ آخرِها[1].

وفي روايةٍ: أنَّ ابنَ عبّاسٍ أنْشَدها منْ أوّلها إلىٰ آخرِها، ثمَّ أنشدها منْ آخرِها إلىٰ أوّلها مقلوبةً، وما سَمِعَهَا قطُّ إلاّ تلك المرّة صَفْحاً[2]، وهذا غايةُ الذَّكاء والفَهْم.

فقال له بعضُهم: ما رأيتُ أذكىٰ منك قَطّ.

فقال ابنُ عبَّاس: لكنّي ما رأيتُ قطّ أذكىٰ منْ عليّ بنِ أبي طالب.

وكان ابنُ عباس يقولُ: ما سمعتُ شَيئاً إلاّ رويتهُ، وإنّي لأسمعُ صوتَ النَّائحة فأسدُّ أُذنيَّ كراهةَ أنْ أَحْفَظَ ما تقولُ.

* ولاَمَه بعضُ أصحابِه في حفْظِ هذه القصيدة: «أمن آل نَعْم...» قال ابنُ عبّاس: إنّا نستجيدُها[3].

---

(١) يقولُ بلاشير عن سِرِّ شهرةِ عمر وقصائده: وكان دَوْرُ المولَعِين بالموسيقا والمغنين في هذا الانتشارِ عظيماً، ولا ريبَ أنَّ سيرورةَ هذه الأبيات ـ الرائية ـ في وسطٍ ينتقدهُ المتزمّتُّون، تضفي عليها في نَظَرَ الشَّباب جاذبية الثَّمرة المُحَرّمة.
(تاريخ الأدب العربي لبلاشير ص ٧٥٢) باختصار.

(٢) «صفحاً»: مروراً وعرضاً.

(٣) انظر ديوان عمر بن أبي ربيعة (ص ١١ ـ ١٦) والأغاني (١/ ٨١ و٨٢) مع الجمع والتصرُّف، وانظر الأبيات كاملةً في خزانة الأدب للبغدادي (٢/ ٤٢١ ـ ٤٢٤).
وفي الحقيقية، في النَّفس شيءٌ من هذه القصَّة، ونتوقَّع أنَّ الاختراع والنَّسج والخيال ظاهرٌ في جنباتها، فكيف ينكر ابن الأزرق بيتاً من القصيدة، ثمّ يطلبُ من ابن عباس سماعها كاملةً على الرّغم من طولها، ثمّ بعد ذلك يظهرُ مجهولٌ ويعجبُ بذكاء ابن عبّاس، فنجدُ الإقحام بأنَّ سيّدنا عليَّ بن أبي طالب أذكى من ابن =

* إنّنا بَعْدَ هذا الكلامِ الذي عرفْنَا منْ خلالِهِ إعجابَ ابن عبّاس بشعرِ عمرَ ، فهل كانَ عمرُ وفيّاً لابنِ عبّاس ـ كما زعم الرَّواة ـ؟

* يزعمُ أبو الفرج الأصبهاني أنَّ عمر بنَ أبي ربيعة قَدْ رأىٰ لبانةَ بنتَ عبدِ الله بنَ العبَّاس امرأةَ الوليدِ بنِ عتبةَ بن أبي سفيان تطوفُ بالبيتِ ، فرأىٰ أحْسنَ خَلْقِ اللهِ ، فكادَ عقْلُه يذهبُ[1] ، فسألَ عنها فأُخْبِرَ بنسبِها ، فَنَسبَ بها وقال:

وَدِّعْ لبـابـةَ قبـلَ أنْ تتَـرحَّـلا ... واسْـأَل فـإنَّ قليلـهَ أنْ تَسْـأَلا
امكـثْ بعمـرِكَ ليلـةً وتَهَنَّهـا ... فلعـلَّ مـا بَخِلَـتْ بـهِ أَنْ يُبْـذَلا

* ومنها:

حتّى إذا مَـا الليـلُ جـنَّ ظـلامُـه ... ورقبْـتُ غَفْلَـةَ كـاشـحٍ أنْ يَمْهُـلا
خرَجَتْ تَأَطَّر في الثِّيابِ كأَنَّها ... ريـحٌ تَسنَّـتْ عـنْ كثيـبٍ أَهْيَـلا
فَجـلا القِنَـاعُ سحـابـةً مشهـورةً ... غـرَّاءَ تعْشـي الطَّـرفَ أنْ يتَـأمّـلا
سَلَّمْـتُ حيـنَ لقيْتُهـا فَتَهَلَّلـتْ ... لتحيّتـي لمّـا رأَتْنـي مُقْبِـلا
فَلبثْـتُ أَرقيْهَـا بِمـا لـو عـاقـلٌ ... يُـرقـىٰ بـهِ مـا اسْطَـاعَ ألاّ ينـزِلا
تـدنـو فتطمـعُ ثـمّ تمنـعُ بَـذْلَهـا ... نفـسٌ أبـتْ بـالجـودِ أنْ تَتَحلّـلا[2]

= عبّاس ، ولا يوجدُ ترابطٌ منطقيٌ بين صَدْرِ القصّة ونهايتها ، ولا بينَ أجزائها بل تبدو شبْه مرتجلة؛ حيث هي مهلهلة النّسج. والله أعلم بحقيقة الصَّواب.

(١) يرغمُ جان فاديه أنَّ عُمرَ يعزمُ على مغازلةِ السَّيِّدةِ الحسيبة ليجعل منها غرضاً لنسيبه فيقول: ويصادفُ مع ذلك في الرِّواية الغَراميّة أيضاً ، أنْ يعلِّقَ الشاعر فجأةً على إثر نظرةٍ ألقاها على التي ستصبحُ غرضَ تشْبيبه ، وليس موضوع النَّظرة المحتومةِ بذي أهميّةٍ بالرغمِ منْ أنَّه أُسيء تمثيلهُ ذلك ، لأنّنا نلقاهُ دوماً بشكل أكثرَ بروزاً مما هو عليه عند عمر بن أبي ربيعة في أخلاقيات الكياسة مع النِّساء ، والتَّلطف إليهن. (الغزلُ عند العرب ١/ ٢٢٢).

(٢) انظر: ديوان عمر (ص ٣٥٤ و٣٥٥) قطعة رقم (١٧٦) ، والأغاني (١/ ٢١١) مع الجمع والتصرف اليسير ، وانظر: الحماسة البصرية (٢/ ٥٢٣) حيث أورد صاحبها ثلاثة أبيات فقط. =

* والآن فَهَلْ يمكنْ لعمرَ بنِ أبي ربيعة أنْ يجترىءَ علىٰ لبابةَ ، وأنْ يتغزَّلَ فيها ، وفي موسمِ الحجّ[1]؟! وأبوها بَحْرُ الأُمَّةِ وحبرُهم عِلْماً وحَسَباً ونَسَباً؟ ثم هل يرضى زوجُها الوليد[2] بن عتبةَ بنِ أبي سفيان أنْ يتغزَّل عمرُ بنُ

= ومعنى «جنَّ ظلامه» أي: سترَ كلَّ شيءٍ وأخْفَاه. «والكاشح»: العدوُّ المُظْهِرُ للبُغْض.
و«يَمْحل»: يسعىٰ بيننا بالإفساد. و«تأطّر»: تَتَثَنَّىٰ وتتمايلُ ، وأصله تتأطّرُ ، فحذفَ إحدى التَّاءَيْن.
و«تسنّت»: أرادَ عَلَتْ وارتفعتْ. و«الكثيب»: المجتمعُ منَ الرّمال. و«القِنَاع»: ما تُغطّي به المرأةُ وجهَهَا. «والغرَّاء»: أرادَ بها البيضاء. و«تعشي الطَّرفَ»: تصيبُه بالعشىٰ ، وهو ضَعْفُ البصرَ ، وذلك من شدّة ضوئِها. و«عاقِل»: العاقل ها هنا: الكاسرُ منَ الطَّير يسكنُ أعلى الجبل ، وهو في صناعةِ النّحو: نائبُ فاعلٍ لفعل محذوف ، والتّقدير: بما لو يرقىٰ به عاقل. وذلك لأنَّ «لو» الشّرطية لا تدخلُ إلا على الأفعالِ لفظاً أو تقديراً.

(١) في خبث واضح يقول جان فاديه ، وهو يزعم بأن الحج موسم لارتكاب المحرمات الصغيرة وتجاوز الحدود: فلا عجبَ إذاً أنْ يكونَ موسمُ الحّجِ عهدئذٍ عيداً أُسَرِيّاً سُمِحَ فيه للشَّاعر والمغنّي بارتكابِ الأعمالِ الجريئةِ الصَّغيرة ، وكان التّعرّضُ للنِّساء في نَظَرِ الشَّاعر الباحثِ عن موضوعٍ لأشعارِه أمْراً واجبَ الحدوث. (الغزل عند العرب ٢/ ٢٢٤).

(٢) الوليدُ بنُ عتبةَ بنِ أبي سفيان: أمُّهُ بنتُ عَبْد بن زَمْعة بن قَيس ، كانَ الوليدُ بنُ عتبةَ رجُلَ بني عتبة ، ولاّه معاويةُ ـ رضي الله عنه ـ المدينةَ ، وكان حليماً كريماً. وتوفيَ معاويةُ ، فَقَدِمَ عليه رسولُ يزيد ، فأمَرهُ أنْ يأخذَ البيعةَ علىٰ الحُسينِ بنِ عليّ؛ وعلىٰ عبدِ اللهِ بنِ الزُّبير ـ رضي الله عنهم جميعاً ـ؛ فأرسلَ إليهما ليلاً حينَ قَدِمَ رسولُ يزيد ، ولم يُظْهِرْ عند النَّاس موتَ معاويةَ ـ رضوان الله عليه ـ فقالا: نُصْبح ويجتمعُ النَّاسُ فنكونَ منهم؛ فقالَ له مروان بنُ الحكم: إنْ خَرَجَا مِنْ عندك لمْ تَرَهُما. فنازعَه ـ أي لمروان ـ ابنُ الزّبير الكلامَ ، وتغالَظَا ، حتّى قامَ كلُّ واحدٍ منهما إلى صاحبهِ فَتَنَاصَيا ، فقامَ الوليدُ فحجزَ بينهما حتّى خلَّص كلَّ واحدٍ منهما منْ صاحبهِ ، فأخذَ عبدُ اللهُ بنُ الزُّبير بيدِ الحُسين بن عليّ وقال: انطلقْ بنا ، فَقَامَا ، وجعلَ ابنُ الزُّبير يتمثّل قولَ الشّاعر:

لا تَحْسَبَنّي يا مُسَافِرُ شَحمةً تَعَجَّلُها مِنْ جانبِ القِدْرِ جائع=

أبي ربيعة بزوجتِهِ لبابةَ هذا الغَزل الفَاضِح؟!

* نظنُّ أنَّ هذا الخبرَ وأمثالَه ممنْ أُغْرِمَ به الرُّواةُ والوضّاعون ، فصَنعُوه ثمَّ ألصقُوه بهذه المرأةِ الطَّاهرةِ الحسيبةِ النَّسيبةِ ، وبزوجها الوليد بنِ عتبة بن أبي سفيان الذي كان يَعْتَدُّ بنسبِهِ ويفخر بأبيهِ عتبة[1] بن أبي سفيان الخطيبِ الشَّجاع المفوّه.

* إنَّه ينبغي لنا أنْ ننظرَ إلىٰ هذا الخبرِ وأمثالِه عنْ كَثَبٍ ، فإنَّ موضوعَ اللقاءِ العابِر ، أو النَّظرةِ السَّريعة لا تلْهمُ الشَّاعرَ هذا المِقْدَارَ منَ الرّواءِ

= فأقبلَ مروانُ علىٰ الوليدِ يلومُه ويقول: لا تُراهما أبداً.
فقال له الوليدُ: إنّي لأعلمُ ما تريدُ ، ما كنتُ لأسْفِك دماءَهما ، ولا أقطعُ أرحامَهما. (نسب قريش ص ١٣٣).

(١) عتبةُ بنُ أبي سُفيان بنِ حرب بن أميّة أخو معاويةَ بنِ أبي سفيان بن حرب. وُلِدَ علىٰ عَهْدِ رسولِ اللهِ ﷺ ، يُكنى أبا الوليد ، ولاّه عمرُ بنُ الخطّاب ـ رضي الله عنه ـ الطّائف وصدقاتها ، ثمَّ ولاّه معاويةُ مصرَ حينَ ماتَ عَمرو بنُ العاص فأقامَ عليها سنةً ، وذلك في شوّال سنةَ ثلاثٍ وأربعينَ منَ الهجرةِ. ودخلَ عتبةُ مصرَ في ذي القعدة منها.
كان عتبةُ فصيحاً خطيباً ، يُقال: إنَّه لم يكنْ في بني أميّة أخْطَبَ منه. وقال الأصمعيُّ: الخطباء من بني أميّة: عتبةُ بنُ أبي سُفيان؛ وعبدُ الملك بنِ مروان.
قال ابنُ عبد البرِّ ـ رحمه الله ـ: خَطَبَ عتبةُ أهْلَ مَصْرَ يوماً وهو والٍ عليها فقال: يا أهلَ مصْرَ ، خفَّ علىٰ أَلْسِنتكم مَدْحُ الحقِّ ولا تأْتُونَه ، وذمُّ الباطلِ وأنتم تفعلونَه ، كالحمارِ يحملُ أسفاراً يثقلُ حَملُها ، ولا ينفعُه عِلْمُها ، وإنّي لا أُداوي داءَكم إلا بالسَّيف ، ولا أبلغُ السَّيف ما كفاني السَّوطُ ، ولا أبلغُ السَّوط ما صلحتم بالدَّرة ، وأبطىءُ عن الأولىٰ إنْ لم تُسرعوا إلى الآخرةِ ، فالزمُوا ما ألزمكم اللهُ لنَا ، تَسْتَوجبُوا ما فرضَ اللهُ لكم علينَا ، وهذا يومٌ ليسَ فيه عِقَابٌ ، ولا بعده عِتَاب.
قال ابنُ تغري بُردي في «النّجوم»: فَنَاداهُ المصريّون من جنبَاتِ المسجد: سَمْعاً سَمْعاً ، فناداهم عُتبةُ: عَدْلاً عَدْلاً ، ثمّ نَزَلَ.
توفي عتبةُ سنَة (٤٤هـ) ـ رحمه الله ورضي عنه ـ.
(الاستيعاب ٨/ ٧ و٨) و(النُّجوم الزَّاهرة ١/ ١٢٢ ـ ١٢٥) مع الجمع والتَّصرُّف.

الشِّعري ، بل إنَّ ذلكَ لا يُـلْهَـمُه إلا بَعْـدَ تفكيرٍ طويلٍ.

* يزعمُ جان فاديه أنَّ مواسمَ الحجّ فرصةٌ للغَزلِ ، ولضمورِ الحشمةِ ، والوقَار من النِّساءِ ، فيقولُ ـ في خبثٍ ومَكْرٍ ـ ما ملخصُه: إنَّ عمرَ لا يدركَ مجَّانيَّة حبٍّ يتعذّر تعليله بقَدْرِ ما هو فُجائي ، وعمرُ لا يلتهبُ حبّاً إلا بَعْدَ أنْ يعرفَ اسمَ السَّيِّدةِ المشهورةِ التي وقعَ عليها نظره ، وإذا ما وُجدَ علىٰ مقربةٍ منَ الكعبةِ فقد كانَ بالتّأكيدِ خاليَ البال ، سريعَ الاستجابةِ للحماسَةِ.

* إن المواسمَ والحجَّ خَلْفيةٌ ممتازةٌ ، وفيها يلقىٰ الشَّاعرُ أحسنَ نجاحَاتِهِ ـ ولَنْ يُفْتَنَ المرءُ بامرأَةٍ مَجْهُولةٍ ـ إنَّ الشَّاعرَ مستعدٌّ دوماً لجوبِ الأرضِ المقدَّسَةِ سَعْياً وراءَ حادثةٍ سعيدةٍ ، فموسمُ الحجّ فرصةٌ فريدةٌ ، وخيرُ معوانٍ علىٰ ضَعْفِ الحشمةِ والوقارِ ، ففي الحجّ تعرضُ السَّيِّداتُ الشَّريفاتُ بكلّ طيبةِ خاطرٍ زينتَهُنَّ الرَّائعة[1] ، ومولياتهنَّ العديدات ، إذ يشكّلنَ سويةً لوحةً ساحرةً ، لا يبقىٰ فيها للشَّاعر إلا اختيار المرأة التي اصْطَفاها نبوغُه الشّعري[2].

ذهَبَـتْ لُـبَـابَـةُ بِـبَـغْلَـةِ مَـوْلاك:

* زعمَ أبو الفرج الأصبهانيّ أنَّ الأبياتِ السَّابقةَ الذّكْرِ: «ودّعْ لبابةَ قَبْل أنْ ترحّلا. . .» قد غنَّاها مَعْبدٌ وابنُ سريج ، وبهذا الغناءِ انتشرتْ بينَ جُمهورِ النَّاس في الحجازِ ، ويزعمُ الأصبهاني أيضاً أنَّه لما حجَّ الغَمْر بنُ يزيدَ بنِ عبد الملك بن مروان ، دخلَ عليه معبدٌ فغنّاه: «ودّعْ لبابةَ قَبْل أنْ ترحّلا» الأبيات كلّها: فلمْ يزلْ يُردِّده عليه ، ثمّ أخرجَه معه لما رحلَ عنِ المدينةِ ، فغنّاه في المنزلِ به حتّى أرادَ الرَّحيل ، فحملَه علىٰ بغلةٍ له ، وذهبَ غلامٌ له

---

(١) لاحظ الخبثَ والتّعنّت في قولِ جان فاديه: تعرضُ السّيدات الشّريفات بكلّ طيبة خاطر زينتَهن الرائعة.

(٢) الغزل عند العرب (١/ ٢٢٢ و٢٢٣) بتصرف يسير ، وهل أرادَ هذا الخبيثُ جان فاديه أنَّ هناك عروض أزياء في موسم الحج كما تُقام لذلك الحفلات في بيئته؟! الله المستعان.

يتبعُه ، فقال : إلىٰ أينَ؟ فقال الغلامُ : أمضي معه حتّى أجيءَ بالبغلةِ .

فقال : هيهات! ارجعْ يا بُني ، ذهبتْ واللهِ لبابةُ ببغلةِ مولاك[١] .

أليسَ غريباً أنْ نصدِّقَ كلَّ ما قاله عمرُ عن هؤلاءِ الشَّريفاتِ أمثالَ لبابةَ بنتِ عبدِ الله بنِ عبَّاس ، وسُكينةَ بنتِ الحُسين ، وعائشةَ بنت طلحة وغيرهن؟!!

ألم يكنْ هناك سُلطانٌ يردعُه أو يلومُه ، أو يتَشَدَّدُ في النَّعي عليهِ في طريقتِه هذه؟

* أغلبُ الظَّنِّ أنَّ كثيراً منَ الأخبارِ التي وصلَتْنَا عن تغزُّله بهؤلاءِ الشَّريفات[٢] تبدو مُتكلَّفة ، والتَّكلُّفُ في هذهِ الأخبارِ ظاهرٌ ، إذْ لا ينسجمُ ولا يمكنُ أنْ تكون علاقات عمر بشريفاتِ عِلْيةِ القَوم وزوجاتِ أكابرِ

---

(١) الأغاني (١/ ٢١٢) ، وقد روىٰ الأصبهانيُّ هذا الخبرَ بشكلٍ آخر ، بسندٍ رفعه إلى عبد اللهِ بنِ عمرَ بن أبي فروة قال : كنتُ أسيرُ مَعَ الغَمْر بنِ يزيد ، فاستَنْشَدني ، فأنشدتُه لعمرَ بنِ أبي ربيعة : «ودِّعْ لبابةَ قبل أنْ تترحّلا» . . الأبيات كلّها . قال : فأمَرَ غلامَه فحَمَلَنِي علىٰ بغلتهِ التي كانتْ تحتَه ، فلمّا أرادَ الانصراف ، طلبَ الغلامُ منّي البغلةَ ، فقلتُ : لا أعطيكها هو أكرمُ وأشرفُ منْ أنْ يحملَني عليها ثمَّ ينتزعَها منّي .
فقال الغمر للغلام : دَعْهُ يا بني ، ذهبت والله لبابة ببغلة مولاك .
(الأغاني ١/ ٢٧٤ و٢٧٤) و(مختصر تاريخ دمشق (٢٠/ ٢٠٧ و٢٠٨) .
والمغزىٰ واضحٌ منَ القصّة أنَّ الأبياتَ المصنوعةَ في لبابةَ قد ذَهَبتْ بالبغلةِ كهدية .

(٢) يقولُ بلاشير عنْ أسماءِ النِّساء الشَّريفات المطروحة في شعر عمر : وتطرحُ تلكَ الأسماء منْ نحوٍ آخر قضَايا ، ذلك أنّنا نَتَساءلُ عمّا إذا لم تكنِ الأسماءُ المذكورةُ إطلاقاً متعلِّقةً بأسماءِ أعلامٍ لاحقة ، بحيثُ إنَّ القصائدَ التي تضمَّنَتِ الأسماء المذكورةَ لم تكنْ ذاتَ علاقةٍ بحياةِ عمرَ العاطفيةِ .
ويبدو عمرُ منْ خلالِ الأخبارِ والدّيوان رجُلاً مَاجناً مُرهَفاً ، ولكنّه غيرُ وقَحٍ ، فلَمْ يُعْزَ إليه أي فُحْشٍ أو سَفَه ، وكان عمرُ ذا الملامحِ الاستقراطية زِيْرَ نساءٍ ، قادراً علىٰ مقاساة الهوىٰ والخضوعِ له ، ولكنّه كان عاجزاً عن كبحِ جماحه أمامَ رغبةٍ جديدة . (تاريخ الأدب العربي ص ٧٥٠) لبلاشير .

الخلفاء ، أو الأمراءِ ، أو بناتِ الصَّحابة ، ولا نسمعُ صوتاً ولا هَمْساً ينعى عليه غَزَله .

* إذاً إنَّ كثيراً منْ هذهِ الأخبارِ تحتاجُ إلى تمحيصٍ مرّةً أخرى ، لتتوضَّح الصُّورةُ ويظهرُ الحقُّ .

النُّقَّادُ وحُبُّ عُمَرَ للشَّريفاتِ :

* كثُرَ القولُ منَ النُّقادِ قديماً وحديثاً حَولَ حبِّ عمرَ بنِ أبي ربيعةَ لشريفات القومِ ، وتغزُّله في بناتِ الصَّحابة ، فمن مؤيّدٍ لهذهِ الفِكْرةِ ، ومنْ منكرٍ لها ، ومنْ مُتأَرجحٍ بينَ القَولَيْن؛ لكننا وجدنَا أحدَ نقّاد العَصْر الحديثِ له رأيٌ آخر في هذا الموضوعِ .

* ففي مقالتهِ الشَّهيرة : عمر بن أبي ربيعة زعيم الغَزَليّين ، يؤكد د. طه حُسين أنَّ السُّلطانَ لمْ يؤاخِذ عمرَ علىٰ تغزّله في شريفاتِ قُريش وفي بناتِ الصَّحابةِ ومنهم لُبابةُ فيقولُ :

* إذاً لمْ يَجِدِ السُّلطانُ السياسيُّ سَبيلاً علىٰ عمرَ ، بل وَجَدَ سَبيلاً على الأحوصِ وعلىٰ العرجيّ ، ومعَ هذا فَقَدْ كانَ أصحابُ التُّقىٰ والمروءة يدعُونَه الفَاسِق مازحينَ مرَّةً ، وجادّين مرّة أخرىٰ ، وكانَ النِّساء يداعِبْنَه بهذهِ الصِّفةِ ، وربّما وصفْنَه بها جَادَّاتٍ أيضاً ، وكانَ أشرافُ قُريش ربّما تحرَّجُوا منْ شعرهِ ، واحتاطُوا في حمايةِ نسائِهم منْ روايتهِ ، والظُّهور عليه .

* كانَ هذا كُلّه ، ولكنْ كانَ من جهةٍ أخرىٰ أنَّ عمرَ بنَ أبي ربيعة لم يكَدْ يتركُ امرأةً شريفةً من نساءِ قريسٍ إلاّ ذكَرهَا وأسرفَ في ذِكْرها ، فقد تغزَّل بأُختِ عبدِ الملك وبنتِه ، وامرأةِ سُهيلِ بنِ عبد العزيز بنِ مروانَ ، وتغزَّل بعائشةَ بنتِ طلحة ، وتغزَّل بسُكينة بنتِ الحسين ، وتغزلَّ بلبابةَ[1]

---

(١) يريدُ جان فاديه أنْ يؤكِّدَ أسْطورةَ حبِّ عمرَ بنِ أبي ربيعة للشّريفات ، وأنَّه ذو فِراسَةٍ =

بنتِ عبدِ الله بنِ عبّاس ، وتغزَّل بزينبَ بنتِ موسىٰ الجمحيّ ، وهندَ بنتِ الحارث المري ، وتغزَّلَ بإحدىٰ بناتِ محمّد بنِ الأشْعَث الكنديّ منْ أهلِ العراق؛ وكان يتغزّل بهنّ جَهْرةً في غيرِ تكتُّمٍ ولا اسْتِخْفاء ، إلا ما يُروى منْ أنَّه تحفّظَ بَعْضَ التّحفُّظ في أَمْرِ فاطمةَ بنتِ عبد الملك[1] .

* ويتابعُ طه حُسين قولَه ليوصلنا إلىٰ فكرةٍ مُفَادها ، بأنَّه يرىٰ أنَّ عمرَ كان صَادِقاً كلّ الصِّدق في لهوهِ وغَزَلِه ، حين يؤكِّدُ عمرُ نفسه أنَّه لم يُقْدِمْ علىٰ حَرام فيقول : ولكنَّ صَدْقه هذا مقصورٌ علىٰ طائفةٍ من شَريفات قُريش وغير قريش ، فليسَ منْ شكٍّ في أنَّ صِلَتَه بأختِ عبد الملك وبنتِه ، وبسكينةَ بنتِ الحسين ، ولبابةَ بنتِ عبد الله بن عبّاس ، وعائشةَ بنتِ طلحة ، كانتْ طاهرةً كلَّ الطُّهر ، بريئةً كلَّ البراءةِ منَ الإثمِ ، كانتْ لفظيةً ليسَ غير[2] .

* وفي موطنٍ آخر نَقْرأُ للدّكتورِ طه حسين رأياً خاصّاً في عمرَ بن أبي ربيعة وعلاقتهِ بالمرأةِ فيقول : ولا أشكُّ في أنَّ عمرَ بنَ أبي ربيعة كانَ صَدِيقاً للمرأةِ بالمعنىٰ الحديثِ الذي نفهمُه لصداقةِ المرأةِ ، كان يريدُ لها منَ الحريّةِ مثلما يريدُه للرَّجُل ، وكان يريدُ أنْ تكونَ صِلَةَ الغَزَلِ بينَ الرَّجُل والمرأةِ صلةً ظاهرةً لا حَرَجَ فيها ولا جُنَاح ، وكان يريدُ أنْ تُظْهِرَ المرأةُ فَخْرَهَا بجمالِها وروعتها ، كما يُظهِرُ الرَّجُل فَخْرَه بشجاعَتِه وبأْسِه ، وكان يريدُ أنْ تزولَ الفروقُ بينَ الجنْسَيْن ، وألاّ يكونَ بينهما حِجَاب[3] .

= بذلك فيقول : ولعمر بن أبي ربيعة ، بِوَصْفِهِ رجل مجتمعاتٍ مجرِّب طريقةً في تفرُّسِ السَّيدة تُعْلِمُه فوراً ما إذا كانتِ المذكورةُ منتميةً إلىٰ المجتمع الرّاقي أمْ لا ، وهو عليمٌ أيضاً بأنَّ السَّيدةَ ذات الحسبِ والنّسبِ حَسَنةُ التّهذيبِ أيضاً ، مكوّناً عن الحسب والنّسبِ فكرةً مغرقةً في قرشيّتها ، وأعني بذلك أنَّ أسمىٰ عنوان الشّرف لدىٰ السَّيدة أنْ تكونَ سليلة القبيلةِ المشهورةِ أباً وأمّاً . (الغزل عند العرب ١ / ٢٢٦) .

(١) انظر هذه المقالة في مقدمة ديوان عمر بن أبي ربيعة (ص ٧٤ و٧٥) بتحقيق محيي الدين عبد الحميد .

(٢) المرجعَ السّابق نَفْسه .

(٣) المرجعُ السَّابق (ص ٨٣) . ولا ندري في الحقيقة ، هل زَوَال الفروقِ بين الجنسَيْن =

لبـابَـةُ ووقْـفَـةٌ أَخـيـرةٌ:

* منْ خلالِ رحلتِنا معَ لبابةَ بنتِ عبد الله بن عبَّاس ، لمْ نَجدْ أنَّ المصادر الأدبيّةَ وغيرَها قد أعارتْها ذلكَ الاهتمامَ الكبيرَ كما أَعارَتْ سُكينةَ بنتَ الحسين ، أو عائشةَ بنتَ طلحة ، ولم نجدْ ـ في حدودِ اطلاعنا ـ غيرَ الأخبارِ التي حدَّثْناكَ عنْها ، إلاّ أننا وَجْدنا صاحِب «العِقْد الفريد» يُوردُ قصَّةً عن لبابةَ تُوحي بأنَّها تزوَّجَتْ منَ الوليدِ بنِ عبد الملك ، وإليك القصّة:

كانَ عنْدَ الوليدِ بنِ عبد المَلِك أربعُ عقائل:

لبابةُ بنتُ عبدِ الله بنِ عبّاس.

وفاطمةُ بنتُ يزيدَ بنِ معاوية.

وزينبُ بنتُ سعيد بنِ العاص.

وأمُّ جحش بنتُ عبد الرحمن بنِ الحارث.

فكنَّ يجتمعْنَ علىٰ مائدتِهِ ، ويفترقْنَ فيفخرنَ. فاجتمعنَ يوماً ، فقالتْ لُبابة: أمَا واللهِ إنَّك لتسوّيني بهنَّ ، وإنَّكَ تعرفُ فَضْلي عليهنَّ.

وقالتْ بنتُ سعيد: ما كنتُ أرىٰ أنَّ للفخرِ عليَّ مَجازاً ، وأنا ابنةُ ذي العمامة إذْ لا عمامة غيرها.

وقال بنتُ عبد الرحمن بنِ الحارث: ما أحبُّ بأَبي بَدَلاً ، ولو شئتُ لقلتُ فَصَدَقْتُ وصُدِّقْتُ.

وكانت بنتُ يزيد بن معاوية جاريةً حديثةَ السِّنِ فلمْ تتكلَّمْ ، فتكلَّم عنها الوليدُ فقال: نطقَ منَ احتاجَ إلىٰ نفسهِ ، وسكتَ من اكْتَفى بغيرِهِ ، أمَا واللهِ لو شاءَتْ فقالتَ: أنا ابنةُ قادتِكم في الجاهليةِ ، وخلفائِكم في الإسلام.

= منْ رأيِ عمر بن أبي ربيعة ، أمْ رأي طه حُسين؟!!!
ثمَّ لا ندري ما هذه الصَّداقة؛ التي يشير طه حسين إليها؟! إن في الأمر دخناً وسوء نية!!

فظهرَ الحديثُ ، حتى تُحدِّثَ به في مجلسِ ابنِ عبّاس فقال : ﴿ وَإِذَا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ حَتَّىٰ نُؤۡتَىٰ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا كَانُواْ يَمۡكُرُونَ ﴾[١] [الأنعام : ١٢٤].

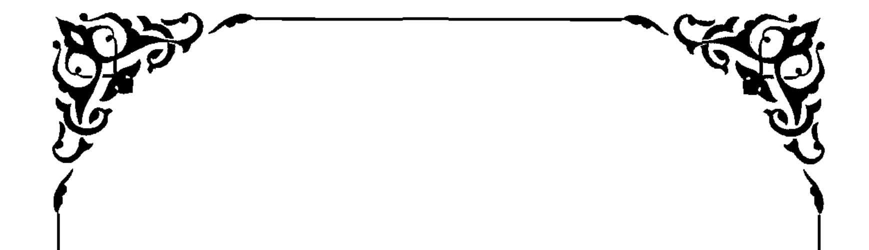
* هذه لبابة[٢] بنتُ عبدِ الله القُرشيّة الحَسيبة الشَّريفة ، أرجو أنْ أكونَ قد وفّقتُ في سيرتها ، لتنظمَ في عقْد بناتِ الصَّحابة الطَّاهرات.

* * *

---

(١) العقد الفريد (٦/ ١٠٤) ، والحديث لا يحتاجُ إلى تعليق ، فالقصّةُ واضحة الصَّنعة وضوح الشَّمس في رابعة النهار.

(٢) لم تذكرِ المصادرُ روايةً للبابةَ ، أو شيئاً منْ هذا القبيل ، ولم تذكرْ كذلكَ متى كانتْ وفاتُها ، أو متى وُلدت ، ولم تتحدّثْ كذلك عن تفاصيلَ أخرىٰ من حياتها ، إلا ما قدمناه في السّطور السّابقات.



الباب الثالث

بنات ليس لهن وجود

(١) سُعدى بنت عبد الرحمن

(٢) عاتكة بنت معاوية



(١)

سُعدى بنت عبد الرحمن

هَـلْ لهَـذَا الصَّحَـابي ابنَـةٌ بِهَـذا الإِسـم؟

* في رحلتِنَا الجميلةِ المِعْطاءِ المِعْطارِ معَ بناتِ الصَّحابَةِ ، ومع الصَّحابةِ الكرامِ ، نلتقي اليومَ صَحابياً كانَ أَحَدَ الأَتْقياء الكُرماءِ الذينَ ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾ [التَّوبة: ١٠٠] و[البينة: ٨]؛ ينفقُ في طاعة الله ، ويعاملُ الناس بقلبه السليم وسلوكه الإيجابي.

* كانَ هذا الصَّحابيُّ الكريمُ أَحَدَ السَّابقين الأوَّلين إلىٰ الدَّوحةِ المحمّدية ، وهو منَ المقطوعِ لهم بالجنَّةِ ، منَ العشَرة المشْهورينَ منَ الصَّحابةِ الأخيارِ ، الذين كانوا درَّةً في جبينِ الدَّهْرِ ، ورحيقاً مختوماً منْ صَفْوِ الزَّهْرِ ، وقد نَظَم أسماءَهم ابنُ جابرِ الأندلسيّ في قَصيدةٍ جميلةٍ رائقةِ الألفاظِ والمعاني ، فيها التّوريةُ والتَّصريحُ بِسُوَرِ القُرآن العظيم ، ومَدْحِ النَّبيِّ الكريم ﷺ ، وهي من غُرَرِ القصائدِ ومطلعها:

فــي كُــلِّ فــاتِحــةٍ للقَــوْلِ مُعْتَبَـرة ... حَقَّ الثَّناءُ علىٰ المبعوثِ «بالبَقَرة»
في «آلِ عمرانَ» قدْماً شَاعَ مَبْعثُه ... رِجالُهم «والنِّساء» استوضَحُوا خَبَره
مَنْ مَدَّ للنَّاسِ منْ نُعْماه «مائِدةً» ... عمَّتْ فليستْ علىٰ «الأنعامِ» مقتَصِرَه

* وهي قصيدةٌ رائعةٌ حقّاً بلَغَتْ (٥٦ بيتاً) ذكرَ في أواخِرِها أسماءَ العشَرةِ المبشَّرينَ بالجنّة فقال:

أزْكىٰ صَلاتي على الهادِي وعتْرتهِ ... وصحبِـهِ وخصـوصـاً منهـمُ عَشَـرة
صدِّيقُهم عمرُ الفاروقِ أحزمُهم ... عثمـانُ ثـمَّ علـيٌّ مُهْلِـكُ الكَفَـرة
سَعْـدٌ سعيـد زبيـرٌ طلْحـةٌ وأبـو ... عُبيدة وابنُ عوفٍ عاشرةُ العشَرة

* ثم يختُمها بقوله:

أقسمتْ لا زلتُ أهديهم شذَا مِدَحي ... كـالـرَّوضِ ينشرُ مـنْ أكمـامِـهِ زهـرَه

* ومع ابنةِ عاشِرِ العَشَرة عبدِ الرحمن بنِ عوفِ الزُّهري نعيشُ صفحاتٍ مع ابنةٍ مزعومةٍ له تدعىٰ سُعْدىٰ بنت عبد الرحمن الزّهريّة القُرشيّة ، حيثُ نَجدَ بالإضافةِ إلى عَدَمِ وجودِها أصلاً ، أنَّ بعضَ الأَلْسِنَةَ قَدْ طالَتْها وغيرها ، لتنسجَ عنها قَصَصَاً أوهى منْ بيتِ العنكبوت، تحكي غَزَلَ الشُّعراء فيها، والتَّغنّي بجمالِها عندَ البيتِ العتيقِ، وفي أَقْدسِ بقعةٍ في هذهِ الأرضِ ، بل لتصنعَ شخصيةً حقيقيةً منها ، أو أنْ تجعلَ لعبدِ الرحمنِ بنِ عوفٍ بنتاً بهذا الاسمِ[1].

* ترىٰ هل توجدُ للصَّحابي الجليلِ عبدِ الرحمن بنِ عوف ابنةٌ بهذا الاسم ، وهلْ هناكَ شخصيّةٌ نَسويةٌ منْ بناتِ الصَّحابةِ تُدعى باسمِ سُعدىٰ بنت عبد الرّحمن بن عوف[2]؟

---

(١) نفح الطِّيب (١٠/ ١٨٦ ـ ١٨٩).

(٢) الأغاني (١٧/ ١٥٩ و١٦٠ و١٦١) طبعة دار الكتب العلمية في بيروت؛ وأعلام النساء (٢/ ١٩١ و١٩٢) وديوان عمر بن أبي ربيعة في مواطن متفرقة ، وغير ذلك من كتب الأدب.

ومنَ الجديرِ بالذّكْرِ أنَّ ابنَ حبيب قد ذكَرَ جميعَ بناتِ عبد الرحمن بنِ عوف ، ولم يذكرْ أنَّ له بنتاً تُسمّى سعدىٰ ، أمّا البناتُ اللواتي أوردهُنَّ فهنَّ: فاختَةُ ، أمُّ القاسم الصُّغرى ، أمُّ الحكم ، حميدةُ ، أَمَةُ الرّحمن ، صَعْبَةُ ، آمنةُ ، مريمُ ، جُويريةُ ، أمُّ يحيى. (المحبر ص ٦٧ و٦٨) وقَدْ راجعتُ كثيراً منَ المصادرِ المعتمدَةِ ، فلم أجدْ ابنةً لعبد الرحمن بن عوف بهذا الاسم ، ولم أجد من يُشير إلىٰ ذلك مطلقاً ، فقد راجعتُ طبقاتِ ابنَ سعد (٣/ ١٢٧ و١٢٨) وفي هاتَين الصَّحيفتَين ذكرَ ابنُ سَعْد أولادَ عبد الرحمن ، ولم يذكرْ واحدةً باسم سعدىٰ ، وكذلك راجعتُ صِفَةَ الصَّفوةِ لابن الجوزي (١/ ٣٣٧ و٣٣٨) حيث لم يذكرْ اسمَ سعدى بينما ذكرَ جميعَ أولادِه ، وكذلك راجعتُ تاريخ الإسلام للذّهبيّ وسير أعلام النّبلاء له أيضاً ، وكلّ المصادر التي ترجمتْ لعبدِ الرحمن بنِ عوف ، فلم أجدْ مَنْ ذكرَ له بنتاً بهذا الاسم ، لذلك فإنّ كلَّ ماقيل عن سعدىٰ أو يُقال عنها باطلٌ موضوعٌ مصنوعٌ ، كما سنقرأُ ذلك في سيرةِ عاتكةَ بنتِ معاوية بن أبي سفيان ، إذ هي شخصيةٌ مصنوعةٌ موضوعةٌ أيضاً.

مِنْ أخْبَار سعدَى المزْعُومَةِ:

* لم تسْعِفْنَا المصادرُ التي بَيْن أيدينا بصورةٍ عن نشأةِ سعدى[1] بنتِ عبد الرحمن ، ولا عَنْ مولدها ، أو عن شيء من حياتِها الخاصَّة ، وإنَّما وضعتنا فَجأَةً ودونَ مقدّماتِ أمامَ بنتٍ اسمُها سُعدى ، وأوصلتنا إلىٰ أخبارٍ لها حدثَتْ معَ الشَّاعر الغزلَ ، أو شاعرِ الغَزَل في عَصْرِهِ عمرَ بنِ أبي ربيعة المخزوميّ الذي ملأَ الدُّنيا وشَغَل النَّاس بأغْزَاله ـ كما يزعمون ـ ، وعلىٰ هذا الأساسِ صَنَعُوا هذه الشَّخصية واختلقُوا بنتاً باسم سُعدىٰ ، لينالُوا من سيرةِ سيّدٍ منْ سَاداتِ الصَّحابة ، ولكنْ أنَّى لهم ذلك؟!

وهَبْنِي قُلْتُ هَذا الصُّبْحُ لَيْلٌ أَيَعْمىٰ العالِمُونَ عنِ الضِّيَاء؟!

ولا شكَّ في أنَّ امرأةً تنشأُ في كَنَفِ صحابيّ جَليلٍ كعبدِ الرحمنِ بنِ عوف ، تكونُ ذات حياءٍ وخَفَر ، وتقوى ووَرَع ، وأنَّ كلَّ ما وردَ في حقِّها ، لا يليقُ بمقامِها ومكانتِها ، وهو مرفوضٌ وخصوصاً ما جاءَنا عن غَزَلِ عمرَ بنِ أبي ربيعة فيها وفي عَدَدٍ منْ بناتِ[2] الصَّحابة الأَخْيَار.

وكما علمْنَا وعرفْنَا في غيرِ مَوضعٍ منْ كتابنا هذه أنَّ عمرَ بنَ أبي ربيعة ، لم يكنْ معنيّاً بامرأةٍ واحدةٍ شأن العاشق الولهان ، بل لم يكن ـ كما تدلّ أخباره ـ مُغْرماً بالنِّساء بشكلٍ عام ، وإنّما كانَ يهمُّه نساء الأشراف ، وبنات عِلْيَةِ القوم ـ كما زعموا ويزعمون ـ إذْ يَنْتَمي هوَ إلىٰ أسرةٍ عُرِفَتْ بِحفْضِ العيشِ ووفْرةِ المالِ ، ونَشَأَ في نعيمٍ جَعَلَه يتفرَّغُ لقَصَصِ الغَزلِ ، وما يُمليهِ عليه خيالُه الخصيبُ منْ أغزالٍ مع هذهِ وتلكَ ، في أسلوبٍ يجمعُ سِحْرَ

---

(١) «سُعْدى»: قال ابنُ منظور: السَّعْد: اليُمْنُ وهو نقيضُ النَّحس.
والسُّعْدُ: بالضَّم من الطِّيْب ، والسُّعادى: مثله ، وقال أبو حنيفة: «السُّعدة»: من العُروق الطَّيِّبة الرّيح. وقال الأزهريُّ: السُّعد: نبتٌ له أصلٌ تحتَ الأرضِ أسودُ طيِّبُ الرّيح. والسُّعدُ: ضربٌ منَ التَّمر. وسُعاد اسم امرأةٍ وكذلك سُعدى. (لسان العرب ٣/ ٢١٣ ـ ٢١٨) مختصراً من مادة سعد.

(٢) اقرأ مثلاً ما كتبناه عن سكينة بنت الحسين وعائشة بنت طلحة في هذه الموسوعة.

الجمَال ، ومعسولَ الكلمات ، ولباقةَ المتحدثِ ، وطرافةَ المسَامِر؛ يُضافَ إلىٰ ذلك كلِّه أناقتُه واعتناؤه بمظهرِهِ ومَلْبَسِهِ ومَرْكَبه ، حتّى غدَا مَعْلَماً ـ فيما يحسب ـ عند الجميلات :

قَـالَـتْ أبـو الخطَّـاب أَعْـرِفُ زِيَّـه وركـوبَـه لا شَـكَّ غيـرَ مِـرَاءِ
قـالـتْ لَقَـدْ جـاءَتْ إذاً أمنيتـي فـي غيـرِ تكلفَـةٍ وغيـرِ عنَـاءِ[1]

* ولكنَّ سُعدى ـ إنْ سلَّمنا بوجودها ـ لا ينطبقُ عليها هذا ، فهي منْ عليةِ القومِ حَسَباً ونَسَباً ودِيناً وصيانةً وعفَّةً وأدباً ، ناهيكَ بأنَّها تدركُ مكانَتَها العظمىٰ بين بناتِ الصَّحابةِ ، ولا يمكنُ أنْ تتركَ ورَعَها وتقواها لتسيرَ وراء كلماتِ عمرَ المعسولةِ ، أو ما تَقَوَّلَ عليها عمرُ ، أو ما نَسَجَهُ الرُّواة ووضعوه على لِسَان عمر. وفي الصَّفحات التَّاليات نعرفُ ونتعرفُ مصداقَ ذلك.

آمُـرُكَ بتَـقْـوىٰ اللهِ :

* التَّقوىٰ شعارُ كلِّ مؤمنٍ ومُؤْمنَةٍ ، والتَّقوىٰ بلا شَكّ شعارُ سُعدىٰ بنت عبدِ الرحمن ـ إنْ صَحَّ وجودها ـ ، فقد تَغَذَّتْ على هذه المائدةِ المباركةِ ، ونَشَأَتْ ونشأَ معها نصيبٌ كبيرٌ منَ التَّقوىٰ ، فقد أمرتْ عمرَ بنَ أبي ربيعة ـ فيما رووا ـ أنْ يتقيَ اللهَ ـ عزَّ وجلَّ ـ إذْ إنَّ تقوىٰ اللهِ ما جَاوَرَتْ قلْبَ امرىءٍ إلاّ وصَلَ ، وأنَّ يتخلّىٰ عن عبثِهِ وملاحقتهِ نساءَ القوم؛ والخبر التَّالي يجلي حقيقةَ الأَمْر.

* يقول الخبرُ : كانتْ سُعدى[2] بنت عبد الرحمنِ بنِ عوف جالسةً في المسجدِ ، فرأتْ عمر بن أبي ربيعة في الطَّوافِ ، فأَرسَلَتْ إليه : إذا قَضيتَ طوافَك فائْتِنَا.

فلمّا قضـىٰ طَوافَـه أتاهـا فحادَثَهـا ، وأَنْشَدَهـا ، فقـالـتْ : ويحكَ يا بْن

---

(١) ديوان عمر بن أبي المخزومي (ص ٤٦٨) من قصيدة له بلغت (١٨ بيتاً).
(٢) تـذَكَّرْ أنَّـه لا يوجدُ سُعدى!

أبي ربيعة ، ما تزالُ سَادِراً[١] في حَرَمِ اللهِ مُنْتَهِكاً ، تتناول بلسانك ربَّاتِ الحِجَال منْ قُريش؟!

فقال: دَعي هذا عنْك ، أَمَا سمعتِ ما قُلْتُ فيك؟

قالت: وما قلتَ فيَّ؟ قال:

أحِنُّ إِذَا رأيتُ جَمالَ سُعْدىٰ ... وأبْكي إنْ رَأَيتُ لهَا قَرِينَا

أَسُعْدىٰ إِنَّ أهلَكِ قَدْ أجدُّوا ... رَحيلاً فانْظُري ما تأمُرِينَا

فقالت: آمرُكَ بتقوىٰ اللهِ ، وتَرْكِ ما أنتَ عليه[٢] .

ويروىٰ هذا الخبر بصورةٍ أخرىٰ ، وذلك أنَّ عمرَ بنَ أبي ربيعة أنشدَ ابنَ أبي عتيق قولَه: «أحنُّ إِذَا رأيتُ جمالَ سُعدىٰ» ، قال: فركبَ ابنُ أبي عتيق ، فأتىٰ سُعْدى بالجَنَاب[٣] منْ أرضِ بني فَزارةَ ، فأنْشَدها قولَ عمر ، وقال لها: ما تأمُرين؟

فقالت: آمرُه بتقوىٰ اللهِ يا بن الصِّدِّيق[٤] .

وإذا افترضْنَا وسلمنَا بصحةِ هذه الرِّواية ، واعترفَنا بوجودِ سُعدى المزعومةِ هذه ، فإنَّ كلماتِها واضحةٌ صريحةٌ تشفُّ عنْ تربيتها العاليةِ الطّاهرةِ المضمَّخةِ بأنفاسِ النُّبوَّة التي استَقَتْها من أبيها.

* على أنَّ هناك روايةً أخرىٰ تشيرُ إلى عفَّةِ سُعدى المزعومةِ ، وإلى أنَّ

---

(١) «سَادِراً»: السَّادرُ: المتحيِّرُ الذي لا يهتمُّ لشيءٍ ، ولا يُبالي ما صَنَع.
قال الزَّمخشريُّ: سَدرَ بصرُهُ واسمَّدَرَّ: إذا تحيَّرَ فلمْ يحسنِ الإدراكَ ، وفي بصره سَدَر وسَمَادير ، وعينهُ سَدِرَة ، وإنَّه لسادِرٌ في الغيّ: تائِه. وتكلَّم سَادِراً: غيرَ متثبّتٍ في كلامه ، قال:
ولا تنطقِ العوراءَ في القومِ سَادراً ... فإنَّ لها فاعلمْ منَ القومِ واعيا
(أساس البلاغة ص ٢٩٠).
(٢) الأغاني (١٧/ ١٦٠) طبعة دار الكتب العلمية.
(٣) «الجناب»: من ديار بني فزارة بين المدينة وفَيْد. (معجم البلدان ٢/ ١٦٤).
(٤) الأغاني (١٧/ ١٦٠ و١٦١).

ما يقولُه عمرَ بنُ أبي ربيعة فيها وفي غيرِها من باب البُهتان ، إذاً فلنقرأْ في الخبرِ التَّالي مصداقَ ذلك .

لَـكِنَّـكِ إِنْـسَـانٌ بَـهُـوت :

* منَ الواضحِ في سيرةِ عمرَ بنِ أبي ربيعة وفي شعرهِ ، أنَّه كانَ يتخيَّلُ غرامياتِه وأحداثَه ، فقد كانَ يعتمدُ علىٰ الخيالِ كثيراً ، ويروي ما يمليهِ عليه خيالُه بأسلوبٍ قَصصي مثيرٍ ، ويضيفُ في ثنايا قَصَصِهِ من عنده ما لَم يَرِدْ على لِسان المرأةِ التي أوقَعها بخيالهِ ، في شبّاك قَصَصِه المصنُوعةِ .

* فعمرُ كما قَال العقَّاد : إمامُ مدرسةِ اللاهين بالغَزلِ غير مُدافع ، أو كانَ أصلح زملائِهِ لإتقانِ هذه الصِّناعة[١] .

* وما دامَ عمرُ كذلك فلا يُلْتَفَتُ إلىٰ ما اخترعَه علىٰ لِسَانِ الشَّريفاتِ ، وبناتِ الصَّحابةِ وعليةِ قُريش ، أو ما اخترعَه بعضُ الرُّواةِ والغُواةِ منْ أسماءَ لبناتِ الصَّحابة الأطهارِ ، ليثْرُوا ـ بزعمهم ـ الأدبَ والشِّعْر والنَّقد .

* ولكنَّ بعضَ الأخبارِ الطَّريفةِ تحملُ إلينا في أَرْدانِها مقالبَ حلوةٍ دبَّرتْها النِّساءُ لعمرَ بنِ أبي ربيعة ، فكُنَّ يَعْبَـثْـنَ بهِ حيثُ يستدعينَه بطريقةِ الخداع ، ومنْ ثمَّ يكْشِفَنْ حالَه ويعرفْنَه أنَّهنَّ خَدَعْنَه وأردنَ العبَثَ به ، لأنَّه كثيراً ما كَانَ يعبثُ بالنِّساءِ .

* ومنَ الطَّريفِ أنَّ عمرَ بن أبي ربيعة نفسَه ، يحكي قصَّةَ ذلك «المَقْلَب أو القَفْشَة» ، التي خدعَتْه بها هندُ بنتُ الحارث المُريّة وصُويحباتها ، بعد أنْ جَعَلْنَه يتنكَّرُ في هيئةِ أعرابي .

يقولُ عمرُ : أنا منذُ أعوام جالسٌ ، إذْ أتاني خالد الخرّيت فقال لي : يا أبا الخطّاب ، مَرَّتْ بي أربعُ نسوةٍ قُبيل العشَاء ، يُرِدْنَ موضعَ كذا وكذا ، لم أرَ مثلهنَّ في بَدْوٍ ولا حَضَر ، فيهن هندُ بنتُ الحارث المريّة ، فهلْ لكَ أنْ

---

(١) شاعر الغَزَلِ لعباس العقاد (ص ٣٤) طبعة المكتبة العصرية .

تأتيهنَّ مُتَنـكِّراً فتسمعَ منْ حديثهنَ ، وتتمتَّعَ بالنَّظرِ إليهنَّ ، ولا يعْلَمْنَ مَنْ أنت؟

فقلت له: ويحك! وكيف لي أنْ أخفيَ نَفْسي؟

قال: تلبس لبسةَ أعرابي ، ثمّ تجلسُ علىٰ قَعُودٍ ـ بعير ـ ، ثم ائتهِنَّ فسلِّمْ عليهنّ ، فلا يشعرنَ إلاّ بكَ قَدْ هجمتَ عليهن.

ففعلتُ ما قالَ؛ وجَلَسْتُ على قَعودٍ ، ثمَّ أتيتُهنَّ فسلَّمتُ عليهنَّ ، ثمَّ وقفتُ بقربهنَّ ، فسألنني أن أنشدهنَّ وأحدثهنَّ ، فأنشدتهنَّ لكُثَيِّر وجَميل والأحوص ونُصيب وغيرِهم.

فقُلنْ لي: ويحكَ يا أعرابي! ما أمْلَحك وأظرفَكَ! لو نزلتَ فتحدثْتَ معنا يومَنا هذا ، فإذا أَمْسَيْتَ انصرفتَ في حفْظِ اللهِ.

قال: فأنختُ بعيري ، ثمّ تحدثْتُ مَعَهُنَّ ، وأنشدتُهنَّ ، فَسُرِرْنَ بي ، وجَذِلْن بقربي ، وأعجبَهُنَّ حديثي.

قال: ثمَّ إنَّهنَّ تغامزنَ؛ وجعلَ بعضُهنَّ يقولُ لبعضٍ: كأنّا نعرفُ هذا الأعرابيَ!! ما أشبهه بعمرَ بنِ أبي ربيعة!

فقالت إحداههنّ: فهو واللهِ عمر!

فمدّت هنْدُ يَدَهَا ، فانتزعتْ عمامتي فألقَتْها عن رأسي ، ثمَّ قالَتْ لي:

هيه يا عمر ، أتراكَ خَدَعْتَنا منذُ اليوم؟! بل نحن واللهِ خَدعْنَاك ، واحْتَلْنا عليكَ بخالدٍ ، فأرسلناه إليكَ لتأتينا في أسوأَ هيئةٍ ونحنُ كما ترىٰ[1].

---

(١) انظر: زهر الآداب (١/ ٢٥٥) ، والأغاني (١/ ١٨٤ و١٨٥)؛ وللخبر بقيةٌ حيث فيهِ منَ الفُحش وقلّةِ الحيَاء ما لا تَقْبلُه النُّفوس!! وعلىٰ الرّغم منْ أنَّنا نشكُّ في صحَّةِ هذه القصّة ، فإنّها قد تكرَّرت عند الأصفهاني بنَفْسِ الإخْراجِ ، ولكنَّ الأشخاصَ مختلفون هذه المرّة نساءً ورجالاً ، فبطلُ هذه «الحَفَلَة التّنكّريّة» في هذه المرّة هو الوليدُ بنُ يزيد؛ وأمّا البطلةُ فيه معشوقتُه سلمىٰ بنت سعيد بنِ خالدِ بنِ عمرو بنِ عثمان. تقول القصّة: خرجَ الوليدُ بنُ يزيدَ يريدُ القَصْرَ الذي تسكنُهُ سَلمىٰ لعلَّه يرَاها ، فلقيَه زيّاتٌ معَه حِمارٌ عليه زيتٌ ، فقالَ له: هل لكَ أنْ تأخذَ فرسي هذا ، =

* وعلى فَرَضِ صحةِ هذه الأُقصوصة أو عدمِ صحتها ، فإنَّ عمرَ نفسَه يتحدَّثُ بطريقتِهِ عنْ عَبَثِ النّسوة بهِ ، ولكنَّ سُعدى بنتَ عبدِ الرحمن ـ إنْ سلَّمنا بوجودِها ـ ليستْ منْ هذا الصِّنفِ منَ النِّساءِ ، بل كانت تردعُه وتزجرُه كيما يقلعَ عن فسْقِه ، وتخوّفه وتذكّره باللهِ.

* زعموا في أخبارِ عمرَ أنَّ سُعدى بنتَ عبد الرحمن بنِ عوف كانت جالسةً في المسجدِ الحرامِ ، فرأتْ عمرَ بنَ أبي ربيعة يطوفُ بالبيتِ ، فأرسلتْ إليه: إذا فرغتَ منْ طوافِكَ فائتنا ، فأتاها ، فقالتْ: أَلا أراكَ يا بنْ أبي ربيعة إلا سَادِراً في حرمِ الله! أمَا تخافُ اللهَ! ويحكَ إلى متَىٰ هذا السَّفَهُ؟ قال: أي هذه ، دعي عَنْكِ هذا مِنَ القَولِ ، أمَا سمعتِ ما قلتُ فيك؟

قالتْ: لا ، فما قلتَ فيَّ؟

= وتعطيني حمارَك هذا بما عليه ، وتأخذَ ثيابي ، وتعطيني ثيابَك؟
ففعلَ الزَّيَّاتُ ذلك ، وجاءَ الوليدُ وعليه الثّياب ، وبينَ يديهِ الحمارُ يسوقُه متنكِّراً ، حتّى دخلَ قَصْرَ سعيدٍ ، فنادىٰ: مَنْ يشتري الزَّيتَ؟
فاطَّلعَ الجواري فرأَيْنَه ، فدخَلْنَ إلىٰ سلمىٰ وقُلْنَ: إنَّ بالبابِ زيَّاتاً أَشْبَهُ النَّاسِ بالوليدِ، فاخْرجي فانْظُري إليه، فخرجتْ فرأتْهُ ورآها، فرجعتِ القَهْقَرى ، وقالتْ: هو واللهِ الفاسقُ الوليد! وقد رآني ، فقُلْنَ له: لا حاجةَ بنا إلىٰ زيتك ، فانصرفْ وقال:

إنّنــــي أبصــــرتُ شيخــــاً ... حَسَــــنَ الـــوجـــهِ مَليــــحْ
وإلبـــاســـيْ ثـــوب شيـــخ ... مِـــنْ عبـــاءٍ ومســـوحْ
وأبيـــعُ الـــزَّيـــتَ بيعـــاً ... خَـــاســـراً غيـــرَ ربيـــحْ

وقال أيضاً أبياتاً منها:

ولا واللهِ لا أنســـىٰ حَيَـــاتـــي ... وثـــاقَ البـــابِ دونـــي واطِّـــراحـــي

(الأغاني ٧/ ٣٦ و٣٧)

ولاحظْ عزيزي القارىء تَشَابه القصَّتَيْن ، وما أشبهَ هذه بتلك ، ولا تبعدُ عن هاتَيْن القصَّتَيْن قصَّة العرجي الذي أحبَّ أن يرىٰ معشوقتهِ أمَّ الأوقص حيث تنكَّر بثيابِ أعرابي لَقِيَه ، وبادَلَه الثّياب ، حتى تمكَّنَ منَ النّظر إلى أمِّ الأوقص. (الأغاني ١/ ٣٨٢).

* فأنشدَهَا قوله:

قـالَـتْ سُعَيْـدَةُ والـدُّمـوعُ ذَوَارِفٌ ... مِنْهـا علـىٰ الخَـدَّيْـنِ والجلبـاب
ليـتَ المُغيـريَّ الـذي لـمْ أجْـزِهِ ... فيمـا أطـالَ تَصَيُّـدي وطِـلابـي
كـانـتْ تَـرُدُّ لنـا المنـىٰ أيـامُنـا ... إذْ لا نُـلامُ علـى هـوىً وتَصَـابـي
أَسُعَيْـدُ مـا مـاءَ الفُـراتِ وطِيْبُـه ... منّـي علـىٰ ظمـأ وحـبٍّ شَـرَابِ
بـألَـذَّ منْـك وإنْ نـأيـتِ وقلّمـا ... يـرعـىٰ النِّسـاءُ أمـانـةَ الغُيّـابِ

فقالتْ: أخزاكَ اللهُ يا فاسق! ما عَلِمَ اللهُ أنَّي قُلْتُ مما قُلْتَ حرفاً، ولكنَّك إنسانٌ بهوتٌ[١].

* وهذه القصّة ـ إنْ صحَّتْ ـ تشيرُ إلىٰ ما يخترعُه عمرُ علىٰ لسانِ سُعدى المُخترعة ومثيلاتِها منْ هؤلاءِ الشَّريفاتِ.

* وقد علَّقَ عبّاس محمودُ العقّاد على هذه القصَّة فقال: فهذه قصّةٌ طويلةٌ عريضةٌ، تُقَاسُ بها مثيلاتُها، ولعلَّ ادعاءَه في غيرِ هذه القصّة أقربُ إلى البُهتِ، وأدنىٰ إلى التَّخيل، لأنَّه يصنعُ الغزَلَ والشّكوى على لسانِ سيِّدة حَصَانٍ تخاطبُه بالوعظِ والنَّصيحةِ، فما أحراه أنْ يخلقَ الغزلَ علىٰ مَنْ يظنّ به الخوض فيه والحنين إليه[٢].

* ولكنّا لا نوافقُ العقَّاد عندما يقولُ في حقِّ النِّساء اللواتي يُقْبِلنَ إلىٰ الحجِّ، لِيَتَصَدَّيْنَ لشاعرِ الغَزلِ كيما يرصفَ قصائده فيهنّ، يقولُ العقاد: ويُخَيَّلُ إلينا أنَّ كثيراً مِنَ الحِسَانِ اللاتي كُنَّ يتصدَّيْنَ له ويشجعْنَهُ علىٰ التَّغزُّلِ بهنَّ، ونَظْم القصائدِ في وصْفِهنَّ، إنّما كُن يَفْعَلْنَ ذلك إرضاءً لغرورهن،

---

(١) الأغاني (١٧/ ١٦١ و١٦٢)؛ وقد رُويت الأبياتُ في سيرةِ سُكَينة بنتِ الحسين بأنَّه تغزَّلَ فيها وورَدَ قولُه: «قالتْ سُكينةُ والدُّموعُ ذوارفُ» وقوله: «أسكينُ ما ماء الفراتِ وبرده»، وهذا يدلُّ على اضطرابِ مثل هذه القَصَص واختلاقها، ومن ثمَّ بُطْلانها، فهيَ متقوَّلةٌ مصنوعةٌ، وبالرّغمِ منْ صناعتِها ووضْعِها فهي مرقّعةٌ ممزَّقة.

(٢) شاعر الغزل (ص ٤٢)، ونَعْجبُ كيفَ غَابَ عن بالِ العقَّاد أن سُعدىٰ شخصيةٌ وهمية!

وتنويهاً بجمالِهنَّ ، وحبّاً للتَّحدُّثِ بأخبارهنَّ ، ولا سيما المُقْبلات في الحجِّ من بلادٍ غيرِ بلاد الحجاز ، فقد كانَ يرضيهنَّ ولا ريبَ أنْ يرجعنَ إلىٰ بلادِهن بأبياتٍ تتسايرُ بها الرّكْبَانُ ، ويفهمُ منها الأترابُ المنافسات أنهنَّ ذهبنُ إلىٰ الحجازِ ، فخلَبْنَ ألبابَ رجالِه ، وأطْلقْن أَلسنَة شعرائه ، وصرفْنَهم عن الغزلِ بحِسَانِهِ ، وقَلَّ في الحِسَان مَنْ ليستْ تغترُّ بمثلِ هذه الغرورِ في زمانِ عمرَ ، وفي كلِّ زمان[1] .

* وهذا القولُ يمثِّلُ رأيَ العقَّاد فَحَسْب ، لا طبيعةَ العصرِ الذي كانتْ فيه سُعدى ـ المزعومة ـ أو بنات الصَّحابة ، ولئن كان هناك بعضُ الجواري يَحْفَلْنَ بأغزالِ الشُّعراء ، فليس معنى هذا أنَّ النّساءَ المقبلاتِ إلى أداءِ الحج يتعرضْنَ لعمرَ ولغيره ، وكأنَّ الحجَّ لا يتمُّ إلا بغَزَلِ عمر ! ! .

إنَّ مثلَ هذهِ الأَقْوال ، وهذهِ الآراء تُسيءُ إلى نساءِ الصَّدْرِ الأوَّل بشكلٍ عام ، وتسيءُ إلىٰ نِساءِ الأشرافِ وبنات الصَّحابة اللواتي يُذْكرن في كُتُبِ الأَسْمَارِ والأخبارِ ، أو في شعرِ عمرَ بنِ أبي ربيعة .

* إنَّ مثلَ هذه الأَقْوال ، جَعَلَتْ بعضَ الذين تصدُّوا لدراسةِ تاريخ المرأةِ في صَدْرِ الإسلام ، يخلطُون السُّمَّ في العَسَل ، ويجعلونَ منْ شريفاتِ مكةَ أو المدينةِ أو منْ بناتِ الصَّحابة مُتَمَنِّعَاتٍ يطْمَعُ عمرُ إلىٰ وصالِهنَّ ، بل هو دائمُ البحثِ عنِ اللذَّةِ لا يرتوي ، فإذا ما ارتوىٰ فإنَّ معنىٰ ذلك نهايةُ الطَّلب .

* يقولُ الدكتورُ جبرائيل جبور وقد استغلَّ أمثالَ هذه القَصَصِ المزعومةِ والمعاني المزيّفة : ولعلَّ عمرَ حينَ كانَ يرتوي في بعضِ حُبِّه منْ منابعِ اللذّةِ ،

---

(١) شاعرِ الغَزَل (ص ٤٢) ، وهذا الكلامُ غير صحيح ، فَمَنْ ذا الذي يتوقّعُ أنْ تحجَّ واحدةٌ في ذلك الزّمان ـ والحجُّ فيه مشقَّةٌ عظيمةٌ آنَذاك ـ لكي ينظمَ فيها عمرُ بيتاً أو بيتَيْن؟ ! فهلْ يظنُّ العقَّادُ وغيرهُ أنَّ ذلك فتحاً مبيناً لبلدٍ عظيمِ آنذاك؟ !
إذاً ليسَ منَ السَّهْل أن نسلِّمَ للعقّاد أو غيرهِ بصحَّةِ هذه الكلام أو مثلِه ، والتَّاريخ يخالفُ ما يزعمه العقّاد وغيره منْ هذهِ الأباطيلِ والأراجيفِ بحقّ نسائِنا الفضليات في كلّ زمان ومكان.

ويَسْكَرُ بنشوةِ اللّقيا والوصالِ ، كان يحاولُ أنْ يوقظَ نفسهَ مَنْ تلكَ النَّشوة ، ويعطّشها إلىٰ حبٍّ جديدٍ لفتياتِ أخرياتٍ متمنّعاتٍ شريفاتٍ كان يطمحُ إلىٰ وصالِهنَّ وهو يَعْلَمُ أنَّ ذلكَ بعيدُ المنال[1] .

* ومنْ خلالِ الكلامِ السَّابقِ نلاحظُ تشويهَ صورةِ المجتمعِ ، بل تشويهَ صُوَرِ النِّساء الشَّريفاتِ ، ولكنَّ تاريخَ هؤلاءِ النِّساء العظيماتِ يدحضُ افتراءاتِ المفترينَ في كلّ وقتٍ وزمانٍ .

* ولكنَّ هناك كلاماً للدكتور جبرائيل جبور يقتربُ من حيثيّاتِ الواقعِ ، عندما تكلَّمَ عنْ شعرِ عمرَ بأنَّه مَصْدَرٌ لبعض القَصَصِ التي وُضِعَتْ عنه ، فيقولُ ما ملخصه : لا نستطيعُ أنْ نسلِّمَ بكلِّ الأخبارِ والقَصَصِ التي رُويت عنْ عمر ، ويلوحُ لنا أنَّ قسماً منها على الأقلّ وضَعه قَصَّاصُون أو أخباريون للمُتْعَةِ والتَّسليةِ ، وقد رأينا في أخبارِ حُبِّه أنَّ بعضَها موضوعٌ ، والصَّنْعَةُ ظاهرةٌ فيهِ ، وكذلكَ في أخبارِ سيرتهِ أنّها منها ما لا يمكنُ أنْ يكونَ وقعَ له ، إمّا لمخالَفَتِهِ للمعقولِ ، أو لأنَّ القدماء أنفسَهم شكُّوا فيه .

* والذي نريدُ أنْ نقولَه بأنَّ بعض هذهِ القَصَص التي رُويت عن عمرَ استُمِدَّتْ منْ شعرِه ، ولعلَّها كانتْ شَرْحَاً لِشِعْرِه ، استغلَّهُ القصَّاصُون وجعلُوه في أخبارِهم عن عمرَ . وقد تَفَنَّنَ بعضُ هؤلاءِ الرُّواة أو القَصَّاصِيْنَ فأسندوا القصّة إلى عمرَ نفسِه ، وجعلُوه يقصُّهَا عن نفسِه . . . . . وهذا لا يعني أنَّ كلَّ أخبار عمر موضوعة ، ولكنّنا نريدُ أنْ نلاحظَ أنَّ بعض هذه الأخبار استُمِدَّتْ من أشعارِ عمر ، وزيَّنها القصّاصُون بتفاصيلَ وحوَاشٍ مِنْ وضعِهم ، ونلاحظُ كذلك أنَّ شعرَ عمر هو في بعْضِهِ شعرٌ قَصَصي ، يمكن لأي قَصّاصٍ أنْ يستخرجَ منه قصّة عن عمر يحكيها للنّاس[2] .

---

(١) عمر بن أبي ربيعة ؛ حبُّه وشعره (٣/ ٢٦) .

(٢) عمر بن أبي ربيعة ، حبّه وشعره (٣/ ٥٦٩ و٥٧٠) باختصار .

سُـعْدَى المزعُومـة في أشْعَـار عُمَر :

أصرَّتْ كتبُ الأدبِ أنْ توردَ لعمرَ قصائدَ أخرىٰ قالها ـ فيما زعموا ـ في سعدىٰ بنتِ عبد الرحمن بن عوف، ومنها مقطوعة يَصِفُ فيها جمالَها فيقول :

خَليلـيَّ عُـوجَـا بِنَـا سَـاعـةً ... نحـيِّ الـرُّسـومَ ونُـؤْيَ الطَّلَـلْ
ونَبْـكِ وهَـلْ يـرجعـنَّ البُكـا ... علينـا زمـانـاً لنـا قَـدْ تَـوَلْ
ليـالـيَ سُعْـدى لنـا خلَّـةٌ ... تـواصـلُ فـي ودِّنـا مَـنْ تَصِـلْ

* ثم يصفُ جمالها ومشْيَتها بينَ أترابِها ، وكيفَ حيَّاهُنَّ وحيَّينه وفارقْنَه ، ويكتفي بذاك فيقول :

إذَا مَـا مَشَـتْ بيـنَ أتـرابِهـا ... كَمِثْـلِ الإرَاخِ يَطَـأْنَ الـوَحَـلْ
سَـوافِـرُ قَـدْ زانَهـنَّ العبيـر ... مـع المسـكِ مُغْتَنمـات الطَّفَـلْ
فَفَـاجـأْنَنـي غيـرَ ذِي غـرَّة ... شـديـدَ الفَقَـارة بعـد النَّهـلْ
فحيّيتهـنَّ وحيَّيْنَنـي ... فعـزَّ الفـراقُ علينـاَ وجَـلْ[1]

* وفي ديوانِ عمرَ أيضاً مقطوعةٌ منْ ثلاثةِ أبياتٍ بعنوان سُعدى ، يصفُها بأنَّها فتاةٌ بيضاءُ أصيلةٌ نبيلةٌ غنيةٌ ، تستعملُ السِّواكَ الفاخرَ ، ولا ندري فلعلَّها إحدىٰ اللواتي سمّاهُن سُعدىٰ أو سُعاد .

دِيَـارٌ لسُعْـدىٰ إذْ سُعـادُ جِـدَايَـةٌ ... منَ الأَدمِ خِمصَان الحَشا غيرِ خَنْثَلِ
هِجانُ البَياضِ أُشْرِبَتْ لونَ صُفْرةٍ ... عقيلـةُ جَـوٍّ عـازبٍ لـم يحلـلِ
إذا هـيَ لـم تَسْتَـكْ بعـودِ أَرَاكـةٍ ... تُنَخِّـلَ فـاسْتَـاكَـتْ بـه عـود إسْحِـلِ

---

(١) انظر ديوان عمر (ص ٣٧٣) قطعة رقم (١٩٨) .
«نؤي» : هو الحُفير حول الخيمة يمنع تسرّب الماء .
«تول» : أراد تولى ، أي : ذهب ومضى .
«خلة» : صديق .
«الإراخ» : جمع إِرخ ـ بالكسر ـ وهي البكر من البقر ؛ والعرب تشبه النساء الخفرات في مشيهنَّ بالإراخ .

* ويزعمُ جامعو ديوان عمر ، والمهتمُّون بأخبارِه أنَّه قَدْ وضع قصيدةً في سُعدىٰ بنتِ عبد الرحمن ، ولكنَّه هذه المرّة ورَّىٰ عنها وسمَّاها عُثَيمة ـ تصغير عثمة ـ ، ويذكرُ عمرُ أنَّه أمينٌ على عَهْدِها ، مقيمٌ على حبِّها [ما أقامتْ ميسلون] ، يحفظُ سِرَّها ، وأنَّه كَلِفٌ بحبِّها ، وفي قصيدتِهِ هذه يتحدَّثُ عن حياتِها المُنَعّمَةِ ، وعن جمالِ وجهها الذي يضيءُ كأَنَّه البدرُ ، ثمَّ يختمُ قصيدتَه بأنَّه مقيمٌ علىٰ حبِّه ، ويكفيهِ قليلٌ منَ الحبِّ. . . . يقول :

أَلا تَجْـزي عُثَيمـةُ ودَّ صَـبٍّ ... بـذكْـرِك لا ينـامُ ولا يُنيـمُ
لصـبٍّ زادَهُ حبّـاً ووجْـداً ... بكـم سُعـدىٰ مـلامـةَ مَـنْ يلُـومُ
تـودَّع مـنْ نسـاءِ الحـي طـرّاً ... فـأَمْسـىٰ خـالصـاً بهـمُ يهيـمُ
وأمسـىٰ مُـدْنَفـاً قَـدْ مـاتَ وجْـداً ... بسُعْـداهُ وأبلَتْـهُ الهمـومُ[1]

* وفيها يقول :

كَلِفـتُ بهـا خـدلَّجـةً خَـريـداً ... منعَّمـةً لهـا دَلٌّ رخيـمُ
إذا احتفلَـتْ عُثيمـة قلـتُ شمـسٌ ... وإنْ عَطِلَـتْ عُثيمـةُ قلـتَ ريـمُ
لهـا وجـهٌ يضـيءُ كضـوءِ بـدرٍ ... عَتيـقِ اللـونِ بـاشَـرَهُ النَّعيـمُ
إذا الحـبُّ المبـرّحُ بـادَ يـومـاً ... فحبُّـك عنـدنـا أبـداً مقيـمُ
أصـومُ إذا تصـومُ عُثيـمُ نفسـي ... وأفطـرُ حيـن تفطـرُ لا أَصُـومُ
قليـلُ رضـاكِ يُحْمَـدُ عنـد نفسـي ... وسخطُـك عنـدنـا حـدَثٌ عظيـمُ[2]

---

(١) انظر : ديوان عمر بن أبي ربيعة (ص ٥٢٣) بتحقيق د. يوسف شكري فرحات ، دار الجيل ط١ ١٩٩٢م.
«جداية» : ظبية ؛ و«الأدم» : البيض من الغزلان ؛ «خمصان الحشى» : ضامرة.
«خنثل» : المرأة الضخمة المسترخية البطن ، «الهجان» : البيضاء. «الجو» : داخل البيت ، «عازب» : بعيد ؛ «لم يحلل» : لم يحلل مرعاه فيكدّر ، «لم تستك» : لم تستعمل السواك ؛ «الأسحل» : شجر تُستاك بأعواده.

(٢) ديوان عمر بن أبي ربيعة (ص ٢٥٥ ـ ٢٥٧) قطعة رقم (١٠٧).
«تجزي» : تكافىء وتقابل. «الصب» : العاشق. «الوجد» : شدة الحب. «سعداه» : أضاف الاسم العلم إلى الضمير لأنه اسم يشترك فيه كثير من الناس ، فأشبه من هذه=

* ويعلّقُ الدّكتور محمود حَسَن أبو ناجي على هاتَين القصيدتَيْن دون أنْ يناقشَ صحّتهما فيقول: فإنَّه يُناجي سُعدىٰ أنْ تَعْطِفَ عليه ، ولكنَّها قاسيةٌ عليه ، فإنَّه لا ينامُ من تعلُّقه بها ، ومن شوقِه إليها ، ومن حُبِّه المتيم ، ويخاطبها أن ترفقَ بحالِه ، ولا تكونَ عليه سوطَ عذابٍ شديدٍ[1] .

* وهناك قصائدُ أخرىٰ ، زعم الرُّواةُ أنَّ عُمراً قالَها في سعدىٰ ، ومنها قصيدةٌ ميميّةُ ، نَمَّقَها علىٰ شَكْلِ رسالةٍ غراميةٍ افتتحها بقوله:

باسْمِ الإلـهِ تحيـةٌ لمتيّـم تُهـدى إلـى حَسَـن القـوامِ مكـرَّم

* وهي قصيدةٌ طويلةٌ تبلغُ (٢٨ بيتاً)[2] ، يذكرُ فيها كعادتِهِ حبَّه ، ويصفُ حياتَها المنعَّمة ، ويتشوَّقُ إلىٰ لقائها ، وهي كسابقاتِها مشكوكٌ فيها ، ولا يمكنُ أنْ تكونَ في امرأةٍ عاديةٍ ، فضلاً عن أنْ تُقال في سُعدى بنت عبد الرحمن ـ إن كانت موجودة حقّاً ـ.

* ونجدُ أيضاً ذكراً لعثمةَ في شِعْرِ عمر ، حيثُ يرجو نَوالَها ، ويخشىٰ فراقهَا ، وها هي قَدْ تركَتْهُ ونفسه تتطلّعُ نحوها:

= الناحية النكرة ، وذلك كثير في كلام العرب ، قالوا: أعشى قيس ، وأعشى همدان ، وقال مجنون بني عامر:

باللهِ يـا ظبيـاتِ القـاعِ قُلْـنَ لنَـا ليـلايَ منكُـنَّ أمْ ليلـىٰ مـنَ البَشَـر

«أبلته الهموم»: أغلت جسمه وأهزلته. «كلفت»: أولعت وأغرمت. «الخدلّجة»: الريانة الممتلئة الذراعين والسّاقين. «خريداً»: الخرود: البكر من النساء التي لم تُمْسَسْ قط. «احتفلت»: تزينت ويقال: احتفلت المرأة: تزينت ، ويقال لها: احتفلي لزوجك وتحفلي له: أي تزيني لتحظي عنده. «عطلت المرأة»: لم تلبس حليها. «الريم»: ولد الظبية. «عتيق اللون»: جميله ، وأبو بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ لُقّب عتيقاً لجمال وجهه. «باد»: فني وانقضىٰ.

(١) عمر بن أبي ربيعة زعيم الغزل العربي (ص ١١٦). هذا وقد نسي أو غاب عن ذهن الدكتور المذكور «أبو ناجي» أنَّ سُعدى شخصيةٌ وهمية مصنوعةٌ و(ملزوقةٌ) بعبدِ الرحمنِ بنِ عوف رضي الله عنه!!!.

(٢) انظرها في ديوانه (ص ٢٢٨ ـ ٢٣٢) قطعة رقم (٩١).

فواكَبدي منْ خشْيَـةِ البَيْنِ بَعْـدَمَا رجـوتُ نـوالاً مـنْ عُثَيمـةَ يَنْفَـعُ
فَقَـد تـركَتْنـي مـا ألَـذُّ لخُلّـةٍ حَـديثاً ونفسـي نحـوهـا تتطلَّـعُ[1]

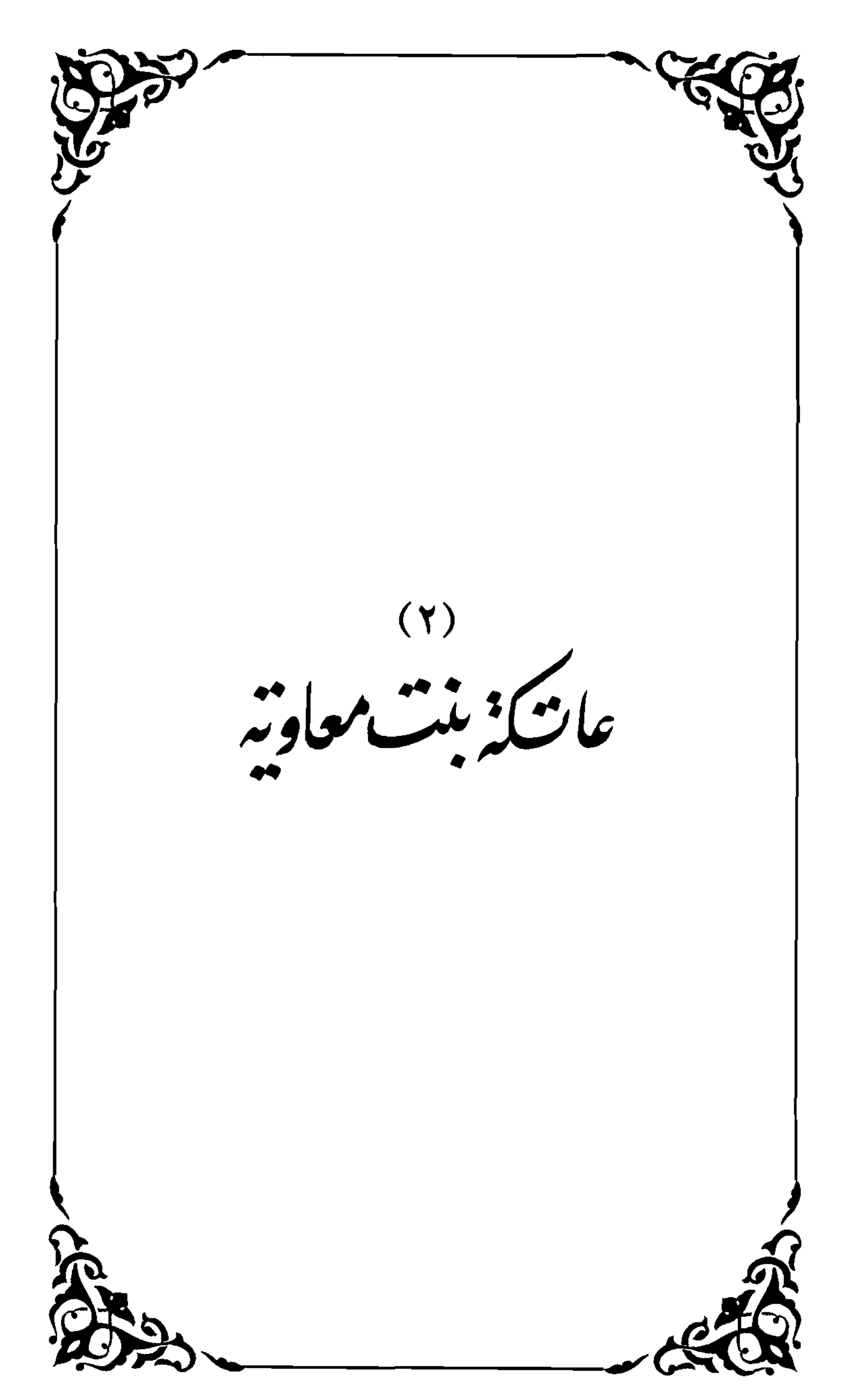
* وبعد فلا تُحدِّثُنا الأخبارُ المزعومةُ ، إلا بهذا القَدْرِ عن سُعدى بنتِ عبد الرحمن المزعومة ، ولذلك لم تذكُرْ لها وفاةً أو وِلادَةً؛ هذا ولم يذكرْهَا أصحابُ الطَّبَقاتِ في كُتُبهم ، ولم يذكرْ ممنِ اهتمَّ بعَصْرِ الصَّحابة ، بل لم يذكرْ أنَّـه تُوجد لعبدِ الرَّحمن بن عوف ابنة بهذا الاسم.

* ولقد حاولتُ قَدْر المستطاع ، أنْ أشيرَ إلى زَيفِ تلكم الأخبارِ الضَّبابيةِ ، والقَصَصِ المصنوعةِ كيما نكونَ على بيّنةٍ منَ الأَمْر فيما يصلُنا منْ أخبارٍ عن بناتِ الصَّحابة ، أو عن النِّساء الشَّريفات في قديمِ الزّمانِ وحاضرِه.

* وإنّني أسـألُ الله ـ عزَّ وجل ـ أنْ يلهمَـني الصَّـواب ، إذِ الهـدفُ دائمـاً مرضاة اللهِ في القولِ والعمل.

* * *

(١) ديوانه (ص ١٨٦) قطعة رقم (٦٢) وهي خمسة أبيات. «والخُلّة»: بالضم: الأصل في هذا اللفظ أن يُطلق على الواحد والاثنين والجمع والمذكر والمؤنث في ذلك سواء ، وذلك لأنه في الأصل مصدر.



(٢)

عاتكة بنت معاوية

فـي ميْـزَانِ العقْـل[1]:

* يعجبُ المرءُ في رحلتِه المعطاءِ معَ بناتِ الصَّحابة، لِما قدَّمْنَه منْ مـواقـفَ مشهُـودةٍ، وأعمـالٍ مشهـورةٍ، وذلـكَ فـي القَـرنِ الـذي شَهِـدَ لـه رسولُ الله ﷺ بأنّهُ خيرُ القُرونِ.

* ونحنُ اليومَ إزاءَ ابنةِ صحابيّ له نصيبٌ وافرٌ بينَ أعلامِ الصَّحابة، ولهُ مكانةٌ عظمىٰ بينَ أوائلِ الرِّجالِ في تاريخِ رجالاتِ قُريش، بل ورجالاتِ الصَّحابةِ الأَخْيارِ الذينَ رضيَ اللهُ عنهم ورضُوا عنه.

* هذَا الصَّحابي الكريمُ هو معاويةُ بنُ أبي سُفيان الصَّحابيُّ ابنُ الصَّحابي ابنِ الصَّحابيّة، القرشيُّ الأمويّ، فأمُّه هيَ منْ شهيراتِ نساءِ الصَّحابة، بل ونساءِ الدُّنيا، وهي هندُ بنتُ عُتْبةَ بنِ ربيعةَ، أسلمَ هو وأبوهَ أبو سُفيان وأخوه يزيدُ بنُ أبي سفيان وأمُّه هند في فَتْحِ مكةَ ـ رضي الله عَنْهم جميعاً ـ.

* كانَ معاويةُ أحدَ الكُتّـابِ للحبيبِ المصطفىٰ رسولِ اللهِ ﷺ، وقالَ لهُ رسولُ الله ﷺ: «اللهمّ اجْعَلْه هادِياً مهدياً»[2].

* وذكروا أنَّ عمرَ بنَ الخطَّاب ـ رضي الله عنه ـ لما دَخَلَ الشَّام ورأىٰ معاويةَ قال: هذا كسرىٰ العَرب.

* ولما حضرتْ معاويـةُ الوفـاةَ، أوصىٰ أنْ يُـكَفَّـنَ فـي قميـصٍ كـانَ رسولُ اللهِ ﷺ كَسَاه إيّـاه، وأنْ يُـجْعَلَ ممّا يلي جَسَده، وكانَ عنـده قلامـةُ أظْفَـارِ رسولِ اللهِ ﷺ فأوصىٰ أنْ تُـسْحَق، وتُـجْعَلَ في عينيـهِ وفمِهِ وقال: افعلُوا ذلك بي، وخلُّوا بيني وبينَ أرحـمِ الرَّاحمين[3].

---

(١) قبلَ أنْ يقرأَ القارىءُ الكريمُ هذه السُّطور، نذكِّرُه بأنَّ شخصيةَ عاتكةَ بنت معاوية هي شخصيةٌ مزعومةٌ مُخْتَلَقَةٌ، لا أصل لها في تواريخِ النِّساء.

(٢) أخرجه الترمذي؛ وقال: حديث حسن.

(٣) انظر: تهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٤٠٦ و٤٠٧) ترجمة رقم (٥٨٨).
قال عنْهُ ابنُ العماد الحنْبليّ: وهو أحدُ كتبةِ الوحيِ، وهو الميزانُ في حبِّ =

* أمّا ابنتُه ـ المزعومة ـ فهي عاتِكة[1] بنتُ معاويةَ بنِ أبي سفيان الأُمويّة القُرشيّة ، تلك التي جاءَتْ أخبارُها مموّجةً في كتابِ الأغاني وحْدَه ، وعنِ الأغاني أخذَ الآخذونَ سيرةَ عاتكةَ وزادوا وبهْرجُوا وشرَّقُوا وغرّبُوا ، ـ عِلماً بأنَّها شخصيةٌ وهميـةٌ مُـخْتَـلَقَـةٌ ـ.

* منَ العجيبِ حقّاً ، أنْ نجدَ صاحبةَ كتابِ «الدُّرّ المنثور في طبقاتِ ربّات الخُدور» ، وهي الأديبةُ الفاضلةُ السَّيِّدةُ زينب بنت يوسف فواز العامليّة ، تُورِدُ ترجمةَ عاتكةَ بنتِ معاوية في كتابِها ، ولا تُورِدُ سيرةَ رمْلَةَ ، أو هنْدٍ ، أو صفية بناتِ معاوية؟ إنَّ هذا لشيء عجاب؟!

* ونجدُ هذهِ الأديبةَ الفاضلةَ تترجمُ لعاتكةَ بنتِ معاوية وتسهبُ في ترجمتها ، وتزيدُ أشياءَ وأشياءَ ، مع العِلْم أنَّني لم أجِدْ في كُتُب التَّراجمِ ، أو الطَّبقاتِ ، أو التَّاريخِ ، مَنْ ذَكَرَ عاتكةَ بنت معاويةَ ، ولكنما ذكُروا أنَّ لمعاويَة بنات وهنّ: هند ، ورملة ، وصفيّة[2].

* وذكـرَ المصعـبُ الـزُّبيـري أنَّ بنـاتِ معـاويـةَ هـنَّ: هنـد ، ورملـةُ ، وعائشةُ[3].

= الصَّحابةِ ، ومفتاحُ الصَّحابة؛ سُئِل الإمامُ أحمدُ بنُ حنبلَ ـ رحمه الله ـ: أيُّهما أفْضَل؛ معاويةُ أو عمرُ بنُ عبد العزيز؟ فقال: لغبارٌ لَحِقَ بأنْفِ جَوادِ معاويةَ بين يدي رسول الله ﷺ خيرٌ منْ عمرَ بنِ عبد العزيز. رضي الله تعالى عنه وأمَاتَنَا على محبَّته. (شذرات الذَّهب ١/ ٢٧٠).

(١) الأغاني (٧/ ١٣٦ و١٣٧ و١٣٩ و١٤٠) ، وانظر المصادر التالية التي استقت من الأغاني ما ترجمته لعاتكة: المستجادَ من فعلات الأجواد (ص ٢٢٦ ـ ٢٢٨) ، والدر المنثور (ص ٣٢٢ ـ ٣٢٤) ، وأعلام النّساء (٣/ ٢١١ ـ ٢١٥) ، والغزل عند العرب (١/ ١٨٩)، وكتبٌ أخرى متنوعة أَخَذَتْ مادّتها مِنَ الأغاني، ثم الدّر المنثُور.

(٢) تهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٤٠٧).

(٣) نسب قريش (ص ١٢٨).

* وذكرَ القُضاعي بنات معاويةَ فقال: هند[1]، ورملةُ، وصفيّة، وعائشة.

* وكذلك بقيةُ المصادرِ الأخرى لم توردُ سيرةَ عاتكة، ولم يذكرْ أحدٌ أنَّ لمعاويةَ ـ رضي الله عنه ـ ابنة تسمّى عاتكة[2].

---

(١) كانتْ هندُ بنتُ معاويةَ زوجاً لعبدِ اللهِ بنِ عَامر ـ رضي الله عنهما ـ، وعبدُ الله بنُ عامر بنِ كُريز، استعملَه عثمانُ ـ رضيَ الله عنه ـ على البصْرةِ. وكان كثيرَ المناقِبِ، وافتتحَ خُراسان، وقُتِلَ يزداجَرْد في ولايتهِ، وأحْرَمَ من نَيْسَابور شكراً لله، وَوُلِدَ في المدينةِ في عَصْر النَّبيِّ ﷺ. وقد زوَّجَه معاويةُ ـ رضي الله عنه ـ ابنتَه هِنْداً، فكانتْ أبرَّ شيءٍ بهِ، جاءَتْه يوماً بالمرآةِ والمِشْط، وكانتْ تتولّىٰ خدمتَه بنفسِها، فنظرَ في المرأةِ، فالتقىٰ وجهُه ووجهُها، فرأىٰ شبَابَها وجمالَها، ورأىٰ الشَّيبَ في لحيتهِ قد ألْحَقَهُ بالشّيوخ، فرفعَ رأسَه إليها، فقال: الحقي بأبيكِ. فانطلقتْ حتّى دخلتْ على أبيها، فأخبرتْه فقالَ: وهل تُطلَّقُ الحُرَّةُ؟ قالتْ: ما أُتي مِنْ قِبَلي، وأخبرتْه الخبرَ.
فأرسلَ إليهِ فقال: أكرمتُك بابنتي فرددْتَها عَليَّ؟!
فقالَ: أخبرُك عنْ ذلك، إنَّ اللهَ مَنْ عليَّ بفضْلِه، وخَلقَني كريماً، لا أحبُّ أنْ يتفضَّل عليَّ أَحَدٌ، وإنَّ ابنتَك أعجزتْني، فكافأتُها بحسنِ صحبتها لي، فنظرتُ فإذا أنا شيخٌ وهي شابّةٌ، ولا أزيدها مالاً إلى مالِها، ولا شرفاً إلى شرفها، فرأيتُ أنْ أردَّها إليكَ لتزوجّها فتىً منْ فتيانِك، كأنَّ وجهَه ورقةُ مُصْحَفٍ.
وكانَ عبدُ الله بنُ عامر رجلاً سخيّاً كريماً، وأخبارُه في الفَضَائِلِ تَشْهدُ له، لا عليه. (نسبَ قريش ص ١٤٨ و١٤٩) بتصرف واختصار ثم تزوَّجتْ هندُ بنتُ معاويةَ عثمانَ ابنَ عنبسةَ بنِ أبي سفيان فماتتْ عنده (أنساب الأشراف ص ٢٨٥).

(٢) إنَّ المصَادرَ القديمةَ المعتمدةَ في عَالَمِ التَّراجمِ والطَّبقاتِ، لم تذكرْ لمعاويةَ بنتاً اسمُها عاتكة، وقد نظرتُ في عَدَدٍ منها منْ مثل: «المعارف» لابن قُتيبَة، و«المحبّر» لابن حبيب، و«أنساب الأشراف» للبلاذري، و«الطَّبقات الكبرى» لابن سعد، و«المنمّق» لابن حبيب أيضاً، وغيرِها من مصادرَ، فلم أجدْ مَنْ ذكَرَ لعاتكةَ أثراً، أو ذَكَرَ أنَّ لمعاويةَ ابنة بهذا الاسم. ولكنَّ ابنُ قتيبةَ قد أوْردَ خبراً مموّجاً عنْ عاتكةَ فقال: وكانتْ له ـ أي: لمعاوية ـ بنتٌ يُقال لها عاتكة، تزوّجها يزيدُ بنُ عبد الملك، وفيها قيل: =

* ولعلَّ أبا الفَرجِ الأَصْبَهاني قَدْ ذَكَرَ عاتكةَ هذه ، ليصنعَ قَصَّةَ غَزَلٍ بينها وبينَ أبي دَهْبَل الجُمحي الشَّاعرِ الغَزِل المشْهُور .

* وقد أَحْبَبْتُ أنْ أتحدَّثَ عنْ هذهِ الشَّخصيةِ ـ المختلقَة ـ ، ليعلمَ القارىءُ الكريمُ أيَّ ظُلْمٍ يَقَعُ علىٰ بَعْضِ أعْلامِ الرِّجال في تاريخِنَا العظيمِ ، وعلىٰ فَرضِ صِحَّة وجُود عاتكةَ بنت معاوية ، فلا يمكنُ لها أنْ تكونَ بهذا المستوىٰ الذي رسَمهُ وفصَّلَه ونمّقه الأَصْبَهاني .

* وقدْ لاحَظْنَا أنَّ سيرتَها التي أوْرَدَها تُشْبِه إلىٰ حدٍّ كبيرٍ سِيَرَ بناتِ الأَشْرافِ اللواتي ـ زعموا ـ أنَّهُنَّ كُنَّ يذهبْنَ إلىٰ الحجِّ ، فيتصدَّىٰ لَهنَّ شاعِرُ الغَزَلِ عمرُ بنُ أبي ربيعة فيتغزّل بِهنَّ .

* وعاتكةَ هذه يجعلُها الأصبهاني معشوقةً لأبي دَهْبَل الجُمحي ، ويراسلُها وتراسلُه ، ويعلمُ بذلكَ أبوها وأخوها ، ولكنَّ المسلسلَ ضعيفُ الحبْكَة ، كما سنرىٰ إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ .

عَـاتِكَـةُ ورحْلَـةُ الحـجِّ وغَـرَامُ أَبـي دَهْـبـلَ :

* قبلَ أنْ نقرأَ ما جاءَ عنْ غرامِ أبي دَهْبَلَ في عاتكة[1] المزعومةِ ، دعونا

= يــا بيــتَ عــاتكــةَ الــذي أتغــزّلُ حَــذَرَ العِــدا وبــهِ الفــؤادُ مــوكَّــلُ
(المعارف ص ٣٥٠) .
والمُتَتبِّعُ أخبارَ الأدب يَعْلَمُ أنَّ هذا الخبرَ فيه منَ الغَلَطِ ما فيه ، إذا البيتُ للأحوصِ ، أمّا عاتكة التي وردَتْ في البيت فليستْ عاتكةُ بنتُ معاوية المزعومة ، بل عاتكة بنت يزيد .

(١) «عاتكةُ» : قال ابنُ منظورٍ ـ رحمه الله ـ : العاتكةُ : القَوسُ إذا قدُمَتْ واحمرّت .
وامرأةُ عاتكة : محمرّةٌ منَ الطِّيْبِ .
وقيل : بها رَدْعُ طِيْب ، وسُمّيتِ المرأةُ عاتكة لصفائِها وحُمْرتها .
وفي الحديثِ ، قال ﷺ يوم حُنين : «أنا ابنُ العواتك منْ سُلَيم» .
والعواتكُ جَمْعُ عاتكةَ ، وأصلُ العاتكةِ المتضمّخة بالطِّيْب .
والعواتكُ منْ سُلَيم ثلاثٌ ، يعني جدّاته ﷺ وهُنَّ : =

نقرأ ما افْتَتَحَتْ بهِ الأديبةُ الفاضلةُ السَّيِّدةُ زينب فواز العامليّة ـ السُّوريةُ مَولداً ومَوطناً والمصريّةُ مَنْشَأً وسَكناً ـ ترجمةَ عاتكةَ إذْ قالت: عاتكةُ ابنةُ معاويةَ بنِ أبي سُفيان الأمويّ، كانَتْ في الحُسْنِ أعجوبةَ زَمَانِهَا، وفي الأَدَبِ نادرةَ أقْرانِها، تَعلَّمَتِ الغِنَاءَ وضروبَه، ولهَا فيه بعضُ ألحان، وكانَ يختلفُ إليها بعضُ مغنيّات مكةَ والمدينةِ، فتُحْسِنُ صِلَتَهُنَّ، وتجيزهُنَّ، وتطلبُ منهنَّ ألاَّ ينْقَطعْنَ عنها[1].

* وتَـتَفَنَّنُ السَّيِّدةُ زينبُ فواز العامليّـة بالكَلامِ، وتزيـدُ علىٰ الأصبهانيّ فيما ذكَـرَهُ منْ علاقتِـهِ بعاتكةَ، فبينما يقولُ الأَصْبَهانـيُّ: حجَّتْ عاتكةُ بنتُ معاويةَ ابنِ أبي سفيان، فنزلَتْ منْ مكةَ بذي طوىٰ[2]، فبيَنا هي ذاتَ يومٍ جالسةٌ، وقد اشتـدَّ الحرُّ، وانقطعَ الطَّريـقُ، وذلكَ في وقْتِ الهاجرةِ، إذْ أَمَرتْ جواريها، فرفَعْنَ السِّتْرَ وهي جالسةٌ في مجلسِها، عليها شفُوفٌ[3] لها، تنظرُ إلىٰ الطَّريق، إذْ مرَّ بها أبو دَهْبَل الجُمحي ـ وكانَ منْ أَجَمْلِ النَّاس وأحسنِهم مَـنْظَراً ـ فوقفَ طَويلاً ينظـرُ إليها وإلى جَمالِهـا، وهي غافلةٌ عنه،

= عاتكةُ بنتُ هلال بن فالج بن ذكوان أمّ عبد مناف بن مناف بن قُصيّ جدّ هاشم.
وعاتكةُ بنت مرّة بن هلال بن فالج بن ذكوان أمّ هاشم بن عبد مناف.
وعاتكةُ بنتُ الأوقص بن مرّة بن هلال بن فالج بن ذكوان أمّ وهب بن عبد مناف بن زهرة، جدّ رسول الله ﷺ أبي أمّه آمنة بنت وهب.
فالأولىٰ منَ العواتك عمّته الوسطىٰ، والوسطىٰ عمّة الأخرى، وبنو سُلَيم تفخر بهذه الولادة. وسَائِرُ العواتِكِ أُمَّهات النّبيّ ﷺ منْ غَيرِ بني سُلَيم.
قال ابنُ برّي: والعواتكُ اللاتي وَلَدْنَه ﷺ اثْنَتا عشْرة: اثنتانِ منْ قريش، وثلاثٌ من سُليم وهنَّ اللواتي أسميناهن، واثنتان من عدوان. وكنّانيّـة، وأَسَديّـة، وهذليّة، وقُضَاعيّة، وأَزْدّية. (لسَان العرب ١٠/ ٤٦٣ و٤٦٤).

(١) الدر المنثور (ص ٣٢٢)، ولا نَدري مِنْ أين أتتِ السَّيدةُ زينبُ فواز العاملية بهذهِ المعلوماتِ الفظيعة؟
(٢) «ذو طوى»: واد بمكة مشهور.
(٣) «شفوف»: الثوب الرقيق.

فلمّا فَطَنِتْ له ، سَتَرتْ وجهَها ، وأمرتْ بطرحِ السِّتر ، وشَتَمَتْه[1] .

* نجدْ أنَّ السَّيِّدةَ زينبَ فواز العامليّة تقولُ: وفي بعْضِ السِّنين لم يأتْها أحدٌ منْ مكةَ والمدينةِ ـ تعني منَ المغنيات ـ فاستأذنتْ منْ أبيها أنْ يسمحَ لها بالحجِّ ، فسمحَ لها ، فتجهزَتْ بجهازٍ عظيمٍ لم يُرَ مثلُه ، وسارتْ علىٰ البَرِّ تحملُها ورَكْبَها المطَايا ، فلمّا وصَلَتْ لمكةَ نزلتْ بذي طوىٰ ، فَمرَّ بها وهْبُ الجُمحيُّ المعروفُ بأبي دَهْبَل ، وكانَ شَاعِراً جَليلاً ، غَيْسَانِيّاً[2] جميلاً ، فجعلَ يُسارِقُها النَّظَرَ ، وجمراتُ الوجْدِ تَتَأَجَّجُ بفؤادِهِ قاذفةً بالشَّرر ، وكانَ الوقْتُ هَجيراً ، والجَواري رافعاتٌ عنها الأَسْتَارَ ، ففطنَتْ له ، فَذَعَرَتْـهُ وشَتَمتْهُ كثيراً ، ثمَّ أَمَرتْ بالسُّجوف ، فَحَجبَ بظلامها شَمْسَ النَّهار[3] .

* وقالَ أبو دَهْبل بعد أنْ شاهدَ ما شاهدَ منْ جمالِ عاتكةَ:

إنِّـي دَعَـانـي الحَنيـنُ فـاقْتَـادَنـي ... حتّـى رأيـتُ الظَّبـيَ بـالبَـابِ
يـا حُسْنَـه إذْ سَبَّنـي مُـدبـراً ... مُستَتِـراً عنّـي بجلْبَـابِ

---

(١) «الأغاني» (٧/ ١٣٧).

(٢) «غَيْسانياً»: الغَيْسان: حِدَّةُ الشَّباب ، يُقال: كانَ ذلكَ في غَيَسان شبابِه ، والغسَّاني: الجميل جداً. (المعجم الوسيط).

(٣) الدُّرُّ المنثور (ص ٣٢٢) ، ومنَ العجيبِ في هذه المُسلسل المُختلَق أنْ نَجدَ كتاباً بعنوان «عشّاقُ العربِ» لمؤلفٍ يُدعى د. عبد المجيد زَرَاقِط ، فيدخلُ نَفْسَ الحُجْر الذي دخلَتْه زينب فواز العامليّة ، ويزيدُ الطِّين بلَّة ، ويقولُ: كانتْ عاتكةُ ابنةُ معاويةَ بنِ أبي سفيان الأمويّ فتاةً ناعسةَ الطَّرف ، جميلةَ القدِّ ، تحسنُ الغناءَ وتجيدُه. (عشَّاق العرب ص ١٣٧) دار البحار ـ بيروت.
ومنَ العجيب أنَّ «زَرَاقِط» هذا ينقلُ القصّة كاملةً عن السّيدةِ زينب فواز العامليّة ، ثمّ يتفنّنُ هو الآخر في تقديم وجَبَاتٍ من الجملِ الطنانةِ التي يُرادُ بها التّمويهُ والتّشويهُ والتّرفيهُ المسموم.
وممَنْ زادَ في الطُّنبور نَغَماً ، وفي الطِّين بلّةً «جَان فَاديه» الفِرنسي الذي قَال عن عاتكةَ: أليسَ في غنجٍ أوْ دلِّ السَّيِّدة المحبوبةِ التي تريدُ أنْ تُرىٰ دونَ أنْ يبدو أنّها تريدُ ذلك ، مزاجٌ ذو ذوق أكثر رهافةً ، ثمّ يوردُ قصَّةَ عاتكةَ وأبي دهْبَل ، ويُنْهي ذلك بقوله: وكانَ عليها أنْ تَسْتَتر حَياءً. (الغَزَلُ عندَ العربِ ٢/ ١٩٠).

سُبْحانَ مَنْ وقّفَها حَسْرةً صُبّتْ عَلىٰ القَلب بأَوصَابِ
يذودُ عنْها إنْ تطلَّبْتُها أَبٌ لها ليسَ بوهَّابِ
أَحَلَّها قَصْراً مَنيعَ الذُّرا يُحْمَىٰ بأبوابٍ وحُجّابِ[1]

* قال: وأنْشَدَ أبو دَهْبَل هذه الأبيات بَعْضَ إخوانِه، فَشَاعَتْ بمكةَ، وشُهِرَتْ وغَنّى فيها المغنُّون، حتَّى سَمِعَتْها عاتكةُ إنْشَاداً وغنَاءً، فضحِكَتْ وأعْجَبَتْها، وبعثَتْ إليهِ بكسوةٍ، وجَرَتِ الرُّسُلُ بينهما[2]، فلّما صَدَرَتْ عنْ مكةَ، خرجَ إلى الشامِ، ونزلَ قريباً منْها، فكانتْ تعاهدُه بالبرّ واللّطف[3]، حتى وَرَدَتْ دمشقَ، ووَرَدَ معها، فانقطعتْ عنْ لقائِهِ، وبَعُدَ منْ أنْ يرَاها، ومَرِضَ بدمشقَ مرضاً طويلاً[4]، فَقَالَ في ذلك أبياتاً منها:

طَالَ لَيْلي وبتُّ كالمَحزُونِ ومَلِلْتُ الثّواءَ في جَيْرونِ[5]
وأَطَلْتُ المقامَ بالشَّام حتَّى ظنَّ أَهْلي مُرَجّماتِ الظُّنونِ
فبكَتْ خشَيْةَ التّفرُّقِ جُمْلٌ كبُكَاءِ القَرينِ إثْرَ القَرينِ
وهيَ زَهْراءُ مِثْلُ لؤلؤةِ الغَوَّ اصِ مِيْزَتْ منْ جوهرٍ مكنُونِ
وإذا مَا نَسَبْتَها لم تَجِدْها في سَنَاءٍ مِنَ المكَارمِ دُونِ

---

(١) الأغاني (٧/ ١٣٧)، والدُّرّ المنثور (ص ٣٢٢)، وتأمّلْ ـ عزيزي القارىء ـ الأبيات تماماً تجدْ أنّها لا تنطبقُ علىٰ أنَّ الشّاعرَ رأىٰ امرأةً في خيمةٍ وتغزّل بها!!.
(٢) لاحظ الخَلْطَ؛ بعد أنْ تشتمَ عاتكةُ المزعومةُ أبا دهْبَل تراسِلُه وتهادِيْه!!.
(٣) «اللّطف»: الهدايا.
(٤) في مكْرٍ وخُبْثٍ يعلِّقُ «جان فاديه» علىٰ هذه القصّةِ المزعومةِ بقوله: إنَّ هذَا المرضَ، هو النَّغمةُ الرُّومانسيةُ في الحكايةِ، وهو يفسِّر بيتَ الشَّاعر الآتي:
ولقَدْ قُلْتُ إذْ تطاولَ سُقْمي وتقلَّبْتُ ليلتي في فُتونِ
أمّا البقية كلُّها فإنَّ للحكايةِ قوةَ الحقيقةِ التّاريخيةِ.
ـ ثمَّ يتابعُ حديثَه الخبيثَ المسمومَ فيقول: مع أنَّ الشاعر بذَل جُهْداً عظيماً في التزامِ الحشْمة، تقودُه في ذلكَ السَّيدة، وقد أخذتُه دون ريبٍ روعةُ الاحترامِ تجاه خطورةِ مكانتها. (الغَزَل عند العرب ١/ ١٩٨).
(٥) «جَيْرون»: اسمُ مكانٍ عندَ بابِ دمشقَ.

ثـمّ خَـاصَـرْتُهـا إلـىٰ القبَّـةِ الخضْـ ـــراءِ تَمشـي فـي مَـرْمَـرٍ مَسْنُـونِ
ولَقَــدْ قُلْــتُ إذْ تَطــاوُل سُقْمــي وتقلَّبْـــتُ ليلتـــي فـــي فُتـــونِ
ليتَ شعري أَمِنْ هوىً طَارَ نومي أمْ بَراني الباري قَصِيرَ الجُفُونِ[1]

مُعَـاويَـةُ وأَبـو دَهْبَـلَ وَكَـرمُ أُصُـولِ عاتـكَـةَ المـزْعُـومَـةِ:

* بعد أنْ أنْشَدَ أبو دَهْبَل شِعْرَه السَّابق ، زعمَ الرُّواة أنَّ هذا الشِّعْرَ قَدْ شَاعَ وفَشَا بينَ النَّاس حتّى بلغَ معاويةَ ، فأَمْسَك عنه وصَبَر ، حتى إذا كان يومُ الجمعةِ دخلَ عليهِ النَّاس ، وفيهم أبو دَهْبَل غريمُ معاوية ، فقال معاويةُ لحاجِبِه: إذا أرادَ أبو دَهْبَل الخروجَ فامْنَعْهُ وارْدُدْهُ عليَّ.

* وجَعَلَ النَّاسُ يسلِّمُونَ علىٰ معاويةَ وينصَرِفُون ، فقامَ أبو دَهْبلَ لينصرفَ معَ النَّاسِ ، فَنَـادَاه معاويةُ[2]: يا أبا دَهْبَل ، إليَّ ، فلمَّا دنَا إليه أجْلَسه حتّى إذا خَلا لهُما الجوُّ ، قال له معاويةُ: يا أبا دَهْبل ، ما كنتُ ظَنَنْتُ أنَّ في قريش أَشْعَرَ منك حيثُ تقول:

ولَقَــدْ قُلْــتُ إذْ تَطَــاولَ سُقْمــي وتقلَّبْـــتُ ليلَتـــي فـــي فُتـــونِ
ليتَ شعري أَمِنْ هوىً طارَ نومي أمْ بَـرانـي البَـاري قصيـرَ الجفُـونِ

* غيرَ أنَّكَ قُلْت:

وهـي زُهْـراءُ مثـلَ لـؤلـؤةِ الغـوَّا اصِ مِيْـزَتْ مـنْ جَـوهـرٍ مكْنُـونِ
وإذا مَـا نَسَبْتَهـا لـم تجـدْهَـا فـي سَنـاءٍ مـنَ المكـارمِ دون

* واللهِ إنَّ فتاةً أبوها معاوية ، وجدها أبو سفيان ، وجدّتُها هندُ بنتَ عتبةَ ، لكما ذكرتَ ، وأيّ شيء زِدْتَ في قَدْرِها؟!

* ولقد أسأتَ في قَولك:

---

(١) الأغاني (٧/ ١٣٨) ، والدّرّ المنثور (ص ٣٢٢ و٣٢٣) ، وأعلام النِّساء (٣/ ٢١١ و٢١٢).

(٢) يبدو أنَّ صانع القصّةِ وواضعها نسيَ قَبْل سَطْرٍ واحدٍ فقطْ أنَّ معاويةَ أوصىٰ حاجبَه أنْ يمنعَ أبا دهبلَ منَ الخروج ، فتأمّل!!.

ثـمَّ خَـاصَـرْتُهـا إلـىٰ القبَّـةِ الخَضْـ ـــراءِ تمشـي فـي مَـرمَـرٍ مَسْنُـونِ

* فقال: واللهِ يا أميرَ المؤمنين، ما قلتُ هذا، وإنّما قيلَ على لساني. فقال له معاويةُ: أمَّا مِنْ جهتي فلا خوف عليكَ، لأنّي[1] أَعْلَمُ صيانَةَ ابنتي نَفْسَها، وأعرفُ أنَّ فتيانَ الشِّعر لم يتركُوا أنْ يقولُوا النَّسيبَ في كلِّ مَنْ جَازَ أنْ يقولُوا فيه وكلّ مَنْ لم يَجُزْ، وإنّما أكرهُ لَكَ جوائرَ يزيد، وأخافُ عليكَ وثَبَاتهِ، فإنَّ له سوْرةُ الشَّبابِ، وأنفةُ الملُوك. وإنَّما أرادَ معاويةُ أنْ يهربَ أبو دَهْبَلَ فتنقضي المقالةُ عنِ ابنتهِ، فَحذِرَ أبو دَهْبل، فخرجَ إلىٰ مكةَ هَارِباً علىٰ وجهِهِ ولم يعقّبْ، ولم يَلْوِ علىٰ شَيء[2].

أَبُـو دَهْبَـل يُـرَاسِـلُ عَـاتِـكَـةَ:

* لم يكْتفِ مَنْ زعمُوا القصَّةَ بأنَّ أرخُوا السِّتارَ عند ذلك الفَصْل، وعند ذلك المَشْهدِ، بل عمدُوا إلىٰ إظهارِ حبكةٍ أخرىٰ للقصَّةِ الممسْرَحَةِ المخترعَةِ، وكأنَّها أحدُ الأفلامِ التي مُثِّلتْ في العِقْدِ الرَّابعِ منْ هذا القَرنِ الميلادي.

* لنستمعْ إذاً إلىٰ بقيّةِ الرِّواية الملفَّقَةِ التي تقولُ: بعد أنْ هرَبَ أبو دَهْبل إلى مكةَ، كان يكاتِبُ عاتكةَ، فبينما معاويةُ ذاتَ يومٍ في مَجْلِسهِ، إذا جاءَه خَصِيٌّ لهُ فقال: يا أميرَ المؤمنين، واللهِ لقد سَقَطَ إلىٰ عاتكةَ اليوم كتابٌ، فلمّا قرأتْهُ بَكَتْ، ثمَّ أخَذَتْهُ فوضعَتْه تَحْتَ مُصَلاَّها[3]، وما زالتْ خاثرةَ النَّفْسِ منذُ اليوم، حزينةً منذُ أنْ قَرأَتْ تلكَ الرِّسالةَ.

---

(١) لاحظْ ـ عزيزي القارىء ـ هذا التَّعليل السّقيم، وهذه الإساءةَ الواضحة علىٰ الرغمِ منْ أنَّ القصّة والشّخصية من صُنع خيال المتخيّلين.

(٢) الأغاني (٧/ ١٣٨ ـ ١٣٩)، بتصرف يسير جداً؛ والدر المنثور (ص ٣٢٣).

(٣) ما شاءَ اللهُ علىٰ هذا الخلْط، وعلىٰ الدّنيا السّلام إذا كانتْ رسائلُ العشّاق تُوضَعُ تحتَ المُصلّى!! وما أسخفَ الوضّاعين الذين رأوا إخراجَ هذه القصّة على هذه الشّاكلة.

* فقال معاويةُ للخصيّ: اذهبْ فالْطُفْ لهذا الكتابِ، حتّى تأتيني به[1]؛ فانطلقَ الخصيُّ، فلمْ يزلْ يلطفُ حتّى أصابَ منها غرّةً، فأخذَ الكتابَ، وأقْبَلَ بهِ إلىٰ معاويةَ، فلمَّا أُوتيه قرأَ فيه:

أَعَاتِكُ هلاَّ إذْ بَخلْتِ فلا تَريْ ... لذي صَبْوةٍ زُلْفىٰ لَدْيكِ ولا حَقّا
رَدَدْتِ فؤاداً قَدْ تولّىٰ به الهوىٰ ... وسكّنْتِ عيناً لا تَمَلُّ ولا تَرقَا
ولكنْ خَلعتِ القَلْبَ بالوعدِ والمُنى ... ولم أَرَ يوماً منكِ جُوداً ولا صدقَا
أتنسَيْنَ أيّامي بربعكِ مُدنفاً ... صَريْعاً بأرضِ الشَّام ذا سَقَم مُلْقىٰ
وليسَ صديقٌ يُرتَضىٰ لوصيةٍ ... وأَدْعو لدَائي بالشَّاربِ فما أُسْقىٰ
وأكبرُ همّي أَنْ أَرىٰ لكِ مُرْسَلاً ... فطُولُ نَهاري جالسٌ أرقُبُ الطُّرقَا
فواكَبدي إذْ ليسَ لي منكِ مَجلسٌ ... فأشكُو الذي بي مِنْ هَواكِ وما ألقىٰ
رأيتُكِ تزدادينَ للصَّبِ غِلْظةً ... ويزدادُ قلبي كلَّ يومٍ لكم عشْقَا

* فلما قرأَ معاويةُ ـ رضي الله عنه ـ هذا الشِّعر، بعثَ إلى يزيدَ بنِ معاويةَ، فأتىٰ فدخَلَ عليه، فوجَدَ معاوية مُطْرقاً، فقالَ: يا أميرَ المؤمنين، ما هذا الأمْرُ الذي شَجَاك؟

قال: أمْرٌ أمْرضَنِي وأَقْلَقَني منذُ اليوم، وما أدري ما أعملُ في شَأْنِهِ!.

قال يزيدُ: وما هو يا أميرَ المؤمنين؟

قال: هذا الفاسقُ أبو دَهْبَل كَتَب بهذهِ الأبيات إلىٰ أخْتك عاتكةَ، فلم تزلْ باكيةً منذُ اليوم، وقَدْ أَفْسَدَها، فما ترىٰ فيه[2]؟ فقال يزيدُ: واللهِ إنَّ الرّأْيَ لهيِّنٌ.

---

(١) لاحظْ أنَّ هذه المشهدَ مستقىً منْ قَصص الفُرس، أو من بعض الأفلام العربية القديمة.

(٢) لاحظْ أنَّ معاوية ـ رضي الله عنه ـ صاحبُ الحِلْم والذّكاء، يَسْتَدعي هذه المرّة ابنه يزيدَ بنَ معاوية ثمّ يستشيرُه في هذا الأمْر الذي أَحَزنَه، وقَبلَ أسْطر سَلَفَتْ يُظْهِرُ الرّاوي أنَّ يزيدَ فيه طيشُ الشَّباب وأنَفَةُ المُلْك!! ويظهرُ هنا معاوية متحيّراً لا يعرفُ كيف يعملُ بهذه القضية المختلقة المزعومة.

قال: وما هُو؟!

قال: عَبْدٌ منْ عبيدِك يكْمُنْ له في أَزِقَّةِ مكةَ، فيريحُنا منه.

قال معاويةُ: أُفٍّ لكَ! واللهِ إنَّ امرأً يريدُ بكَ ما يريدُ ويسمو بكَ إلى ما يسمو لَغَيرُ ذي رأْيٍ، وأنتَ قَدْ ضَاقَ ذَرَعُك بكلمةٍ، وقَصْرَ فيها باعُك، حتّى أردتْ أنْ تَقْتُلَ رجُلاً منْ قريش! أَوَمَا تَعْلَم أنَّك إذا فعلتَ ذلك صدَّقْتَ قولَه، وجَعَلْتَنَا أُحْدوثَةً أبداً.

قال يزيدُ: يا أميرَ المؤمنين، إنَّ أبا دَهْبَل قد قال قصيدةً[1] أخرىٰ تناشَدَها أهلُ مكةَ، وسارَتْ حتّى بلغَتْني وأوجَعَتْنِي، وحَمَلَتْني علىٰ ما أشرتُ بهِ فيه.

قال معاويةُ: وما هي القصيدةُ يا يزيد؟

قال يزيدُ: قال أبو دَهْبَل:

ألاَ لاَ تَقُلْ مَهْلاً فقد ذَهَبَ المهلُ ... وما كلُّ مَنْ يَلْحَى محبّاً له عَقْلُ
لقد كانَ في حَوْلَيْن حالاً ولم أَزُرْ ... هوايَ وإنْ خُوِّفتُ عن حبِّها شغْل
حَمَى الملكُ الجبَّارُ عنّي لقاءَها ... فمن دونها تُخْشَى المتالِفُ والقَتْلُ
فلا خيرَ في حبٍّ يُخَاف وبَالُه ... ولا في حبيبٍ لا يكونُ له وصْلُ
فواكبدي إنّي شُهِرتُ بحُبِّها ... ولم يَكُ فيما بيننا ساعةً بَذْلُ
ويا عجباً إنّي أكاتمُ حبَّها وقَدْ ... شَاعَ حتّى قُطِّعَتْ دونها السُّبلُ

* فقال معاويةُ: قَدْ واللهِ رفَّهْتَ عنّي[2]، فما كنتُ آمنُ أنّه قَدْ وَصَلَ

(١) أودَّ أنْ أشيرَ هُنا إلى الشِّعرِ المصنوعِ ليوافقَ حادثةً أو موضوعاً مُختَرعاً فأقولُ: لَيْسَ كلُّ ما نُظِمَ في أولئك النّسوة الطّاهراتِ منَ الشّعر صحيحٌ، بل هو منْ نَفَثَاتِ الوضَّاعين وأصحاب الأهواءِ، ولقد بُني أكثرَ الشِّعْرِ علىٰ الكَذِب كما قال أبو هِلال العَسْكري في معرِضِ حديثه عن الشّعر: أكثره قد بُني على الكَذِب، والنُّعوتِ الخارجةِ عن العاداتِ والألفاظِ الكاذبةِ، منْ قَذْفِ المُحْصَنات، وشهادةِ الزُّور، وقولِ البُهتان. (أسرار البلاغة ص ٢٣٦).

(٢) «رفَّهتَ»: نفّستَ عني. =

إليها ، فأمَّا الآن ، وهو يشكو أنَّه لم يكنْ بينهما وصْلٌ ، ولا بَذْلٌ ، فالخَطْبُ فيه يسيرُ ، قُمْ عنّي ، فقام يَزيدُ فانصرفَ[1].

كَيْفَ أَبْعَدَ مُعَاوِيَةُ أبَا دَهْبَل عنْ عَاتِكَةَ؟

* كانَ موسمُ الحجّ قَد اقتربَ في تلكِ السَّنَة ، وأعَدَّ معاويةُ العُدَّةَ للحجِّ عامَ ذاك ، وحجَّ ، فلمّا انقضتْ أيّامُ الحجِّ ، كتبَ أسماءَ وجوه قُريش ، وأَشْرافِهم وشعرائِهم ، وكتبَ فيهم اسمَ أبي دَهْبل ، ثم دَعَا بهم ففرَّقَ في جميعهم صِلاتٍ سَنيةٍ ، وأجازَهم جوائزَ كثيرةٍ .

* فلما قَبَضَ أبو دَهْبلَ جائِزَته ، وقامَ لينصرفَ ، دَعا به معاويةُ ، فرجَع إليهِ ، فقال له : يا أبا دَهْبلٍ ، مالي رأيتُ أبا خالدٍ يزيدَ ابنَ أمير المؤمنين عليك سَاخِطاً في قوارضَ تأْتيهِ عنك ، وشِعْر لا تزالُ قَدْ نطقتَ به ، وأنفذتَه إلىٰ خُصَمائِنا وموالينا؛ لا تَعْرِض لأبي خالد ، فجَعَل أبو دَهْبل يعتذرُ إليه ، ويحلفُ أنَّه مكذوبٌ عليه .

فقال لمعاويةُ : فأي بنات عمّك أحبُّ إليك[2]؟

قال أبو دَهْبل : فُلانة .

قال : قَدْ زوجتُكها ، وأصدقتُها ألْفَي دينار ، وأمرتُ لك بألفِ دينار . فلما قبضَها قال : إنْ رأىٰ أمير المؤمنين أنْ يعفوَ لي عمّا مضىٰ! فإنْ نطقتُ ببيتٍ في معنىٰ ما سبقَ منّي ، فقد أبحتُ به دمي ، وفلانةُ التي زوجتنيها طالقٌ البتّةَ .

* فسُرَّ بذلكَ معاويةُ ، وضَمِنَ له رضا يزيد عنه ، ووعَدَهُ بإدْرَارِ ما وصَلَه

= ويلاحظُ الخبثُ الواضحُ منْ واضعِ هذه العبارة .

(١) الأغاني (٧/ ١٤٠ ـ ١٤١) ، والمستجاد من فعلات الأجواد (ص ٢٢٦ ـ ٢٢٨)؛ ولاحظْ هذا التّعريضَ الخبيثَ من واضع القصّة إذ قالَ على لسانِ معاوية : فما كنتُ آمنُ أنّه قد وَصَلَ إليها؟!!

(٢) لاحظْ هذا التّحوّل الباردَ المفاجىء في سِيَاق القصّةِ المزعومةِ ، وذلك كي يخرجَ معاوية ـ فيما زعموا ـ منْ هذا المأزقِ بحيلةٍ ظريفة منه!!

بعد في كلِّ سنة ، وانصرفَ إلى دمشقَ ، ولم يحجَّ معاويةُ في تلك السَّنَةِ إلاّ مَنْ أجْلِ أبي دَهْبَل[1] .

* أمَّا السَّيِّدةُ زينبُ فواز العامليّة ، فقد أحبَّتْ أنْ تنهيَ هذهِ القصَّةَ على النَّحو الآتي : فسُرَّ معاويةُ ، ووعده بإدْرارِ الصِّلَة كلَّ عام إنْ هو لَمْ يَقُلْ فيها شِعْراً ، ووفّى بوعدِه ، وبقيتْ عاتكةُ مغرمةً به إلى أَنْ ماتَتْ[2] .

* وإلى هنا تَنْتهي هذه القصّة التي صُنِعَتْ في غَفْلَةٍ عنْ أعينِ النَّاس، ووُضِعَتْ في بُطونِ الكُتُب ، ليظُنَّ النَّاسُ السُّوءَ ببعضِ بنَاتِ الصَّحابة الطَّاهراتِ ، أو المزْعُوماتِ كعاتكة[3] ، وليحسبِ الوضّاعون الذين يختلقُون شخصياتٍ نسوية مزعومة بأنَّهم يستطيعون أنْ تنطليَ أعمالُهم ،

---

(١) الأغاني (١/ ١٤١ و١٤٢) ، والمُستجاد من فعلات الأجواد (ص ٢٢٨) ، وأعلام النّساء (٣/ ٢١٥) ، ولاحظْ أنَّ معاوية لم يحججْ إلاّ منْ أجلِ أبي دَهْبل! ! وهو مَلِكُ العَصْرِ والأوَان! ولا يستطيعُ أحدٌ أنْ يخالفه! ناهيك بأنَّ القصَّة كلَّها مصنوعةٌ ، ولكنْ في الصّناعة والوضع خللٌ فنيٌّ! أليسَ كذلك؟!

(٢) الدُّرُّ المنثور (ص ٣٢٤)؛ وعنها نَقَلَ «زَرَاقِط» هذه النّهاية. انظر : عشّاق العرب (ص ١٤٢) ، ولا ندري مِنْ أين أتتِ السَّيدة زينبُ فواز العامليّة بهذه الزّيادة ، ولا نعلمُ منْ أين أتَاهَا هذا الإلهام!؟! وهي تعلمُ تمامَ العِلم أنَّه لا يُوجد لمعاويةَ ابنة بهذا الاسم! نرجو اللهَ ـ عزَّ وجلَّ ـ أنْ يلهمَنا الصَّواب فيما نقولُ ونكتبُ ونعملُ.

(٣) أُذَكِّرُ القارىءَ الكريمَ ثانيةً وثالثةً ورابعةً وخامسةً ، بأنّني عاودْتُ البحثَ مرّات ومرّات كيما أتوصلَ إلى وجودِ شخصيّةِ عاتكةَ بنتِ معاوية ، فلمْ أجدْ مَنْ ذكَرها مُطْلَقاً ، وقد رجعتُ إلى مصادرَ مهمّةٍ كثيرةٍ ومنها : طبقات ابن سعد ، وجمهرة أنساب العرب ، وتاريخ القضاعي ، وتاريخ خليفة بن خياط ، والنّسب لابن الكلبي ، وأنساب الأشراف ، والاستيعاب ، و الإصابة ، وأسد الغابة ، والمحبّر ، وتاريخ مدينة دمشق ، ومصادر أخرى لا يتسع المقام لذكرها.
هذا وقد رجعتُ إلىٰ كثيرٍ من المصادرِ والمراجع والدّراسات التي تحدَّثَتْ عن سيّدنا معاوية ، فلم أجدْ مَنْ ذكرَ بأنَّ له ابنة تسمّى عاتكة! وهكذا نستنتجُ زيفَ القَصَص التي حيْكَتْ حولَها ، وحولَ سُعدىٰ بنت عبد الرحمن بن عوف من قبل. والله المستعان على ما يصفون.

وأقاصيصُهم علىٰ النَّـاس ، وأنَّـهم قد أصابُـوا مَـقْتلاً ، لقد وهمـوا ، إذْ إنَّ الحقائقَ لا بـدَّ أنْ تَنْجلي وتظهرَ ، واللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ هو وحدَه المستعان علىٰ إبرازِ الخيرِ وإظهارِ الحقّ.

* اللهم اجعلْ عَملنَا متقبَّلاً عندكَ يا كريم.

﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

* * *



فهرس المصادر والمراجع (١)

١ ـ القُرآنُ الكريمُ.
٢ ـ أحْكَامُ القُرآنِ: لأبي بكْرِ بنِ العَربي ـ تحقيق علي محمّد البجاوي ـ دار المعرفة ـ بيروت.
٣ ـ الأخْبارُ الطّوالِ: للدّينوري ـ تحقيق عبد المُنْعِم عامر ـ مراجعة د. جمال الدِّين الشَّيَّال ـ مصر ـ ١٩٥٩م.
٤ ـ الأَخْبَارُ الموفّقيّاتُ: للزُّبير بنِ بكّار ـ تحقيق د. سامي مكّي العاني ـ مطبعة العَاني ـ بَغْدَاد ـ ١٩٧٢م.
٥ ـ أخْبارُ النِّساءِ: لابن قيِّم الجوزيّة ـ مِصْر ـ ١٣٠٧هـ.
٦ ـ أَدَبُ الدُّنيا وَالدِّين: للماورْدي ـ تحقيق ياسين السَّوّاس ـ دار ابن كثير ـ دمشق ـ ط١ ـ ١٩٩٢م.

---

(١) كثيرةٌ هيَ المصادرُ والمراجعُ التي اعتمدنا عليها ورجَعْنا إليها لصياغةِ هذه الحِلْيةِ، وتربو على المئاتِ، ناهيك بأنّنا قمنا بزياراتٍ لعَددٍ من المُدنِ والعَواصمِ، وزياراتٍ لعددٍ منَ المكتباتِ العامّةِ المُهمّة في بعض البُلدانِ، كيما يكونُ الكتاب أكثر جمالاً وحُسْناً؛ وقد اتّخذنا الصّبْر طريقاً، والأناةَ مركباً ابتغاءَ مرضاة اللهِ عزَّ وجلَّ، وحبّاً للنّبي ﷺ وأصحابهِ الكرام، وليكونَ القارىءُ رضيّ النّفس بما نقدمه له منْ أعمالِ هؤلاء النِّساء والبنات الفُضْليات.

٧ ـ أدبُ السِّياسةِ في العَصْرِ الأمويّ: د. أحمد الحُوفي ـ دار نهضة مَصْر ـ ط٥ ـ دون تاريخ.
٨ ـ أسَاسُ البَلاغةِ: للزّمخشري ـ دار الفكْر ـ بيروت ـ ١٩٩٤م.
٩ ـ أسبابُ النُّزول: للسّيوطي ـ طبعات مختلفة.
١٠ ـ أَسْبَابُ النُّزول: للوَاحِديّ ـ تحقيق كَمال بسيوني زغلول ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٩١م.
١١ ـ الاستبْصَارُ في نَسبِ الصَّحَابةِ منَ الأنْصَار: لابنِ قدامةَ المقدسيّ ـ تحقيق علي نُويهض ـ دار الفكْر ـ بيروت.
١٢ ـ الاستيعابُ ـ بهامشِ الإصابةِ ـ لابن عبد البرّ ـ تحقيق د. طه محمّد الزّيني ـ مكتبة ابن تيمية ـ القاهرة ط١ ـ ١٤١١هـ. وطبعة بيروت.
١٣ ـ أُسدُ الغَابةِ في معرفةِ الصَّحابةِ: لابنِ الأثير ـ دارُ الفكْر ـ طبعة مصوّرة عن طبعة دارِ الشَّعب المحقَّقة ـ بيروت ـ ١٩٨٩م.
١٤ ـ إسعافُ الرّاغبين: لمحمّد بن عَلي الصَّبَّان ـ بهامشِ نورِ الأبصار ـ شركة البابي الحلبي ـ مصْر ـ الطَّبعة الأخيرة ـ ١٩٤٨م.
١٥ ـ الأسماءُ المُبهمَةُ في الأَنْباءِ المحكَمةِ: للخطيبِ البغداديّ ـ تحقيق د. عز الدِّين علي السَّيِّد ـ مكتبة الخانجي ـ القاهرة ـ ط١ ـ ١٩٨٤م.
١٦ ـ الاشتِقاقُ: لابن دريد ـ تحقيق عبد السَّلام هارون ـ القاهرة ـ ١٩٥٨م.
١٧ ـ الإصابةُ في تمييزِ الصَّحابة: لابن حجر العَسْقَلاني ـ تحقيق د. طه محمّد الزّيني ـ مكتبة ابن تيميّة ـ القاهرة ـ ط١ ـ ١٤١١هـ. وطبعة بيروت.
١٨ ـ الأَعْلامُ: لخير الدِّين الزِّركليّ ـ دار العِلْم للملايين ـ بيروت ـ ط٨ ـ ١٩٨٤م ـ وطبعة مصوّرة في عشرةِ أجزاء.
١٩ ـ أعلامُ النِّساء: لعمر رضا كحّالة ـ مؤسسة الرِّسَالة ـ بيروت ـ ط٩ ـ ١٩٨٩م.
٢٠ ـ الأغاني: لأبي الفَرَج الأَصْبَهاني ـ تحقيق عَددٍ منَ الأساتِذَة ـ دار الكتب العلميّة ـ بيروت ـ ط٢ ـ ١٩٩٢م؛ وطبعة مصوَّرة عن دار الكتب المصريّة ـ وطبعة دار الفِكْر ببيروت.

٢١ ـ الإكمالُ: لابنِ ماكولا ـ دار الكُتب العلميّة ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٤١١هـ.
٢٢ ـ الأَمَالي: للزّجاجي ـ تحقيق عبد السَّلام هارون ـ القَاهِرة ـ ١٢٨٢هـ.
٢٣ ـ الأَمَالي: لأبي عليّ القالي ـ طبعة مصر ١٩٥٣ ـ وطبعات أخرىٰ متنوّعة.
٢٤ ـ أمَالي المرتضىٰ (غُررُ الفَوائدِ ودُوَرُ القَلائِد): للشَّريف المرتضىٰ ـ تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم ـ دارُ إحياء الكُتُب العربيّة ـ القَاهِرة ١٩٥٤م.
٢٥ ـ أنباءُ نُجباءِ الأَبْناء: لمحمّد بن ظفر ـ مصر ـ دون تاريخ.
٢٦ ـ أنْسَاب الأَشْراف: للبلاذري ـ عدّة أجزاء مختلفة ـ تحقيق عدد من الأَفاضل ـ وطبعة دار الفِكْر.
٢٧ ـ الأوائلُ: لأبي هلال العسْكريّ ـ دار الكتب العلميّة ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٤٠٧هـ.
٢٨ ـ البدايةُ والنِّهاية: لابن كثير ـ دارُ الفكْرِ ـ بيروت ـ ١٩٧٨م ـ ودار المعارف.
٢٩ ـ البَصَائرُ والذَّخائر: لأبي حيَّان التّوحيديّ ـ تحقيق د. وداد القاضي ـ دار صَادِر ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٨٨م.
٣٠ ـ بلاغاتُ النِّساء: لابنِ طيفور الخُراساني ـ صحَّحه وشرحَه ـ أحمد الألفي ـ مطبعةُ مدرسةِ والدة عبَّاس الأوّل ـ القاهرة ـ ١٩٠٨م. وطبعة مكتبة السُّندس بالكويت ١٩٩٣م.
٣١ ـ البُلدان: لابن الفقيه ـ تحقيق يُوسُف الهادي ـ عالمَ الكتب ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٩٦م.
٣٢ ـ بلوغُ الأَربِ: للآلوسي ـ تحقيق محمّد بهجة الأثري ـ ط٢ ـ ١٩٢٤م.
٣٣ ـ بهجةُ المجَالِس وأُنْسِ المُجالِسِ: لابن عبد البرّ ـ تحقيق محمّد الخولي ـ دار الكتب العلميّة ـ بيروت ـ بدون تاريخ.
٣٤ ـ البيَان والتَّبيين: للجاحِظ ـ تحقيق عبد السَّلام هارون ـ القَاهِرة ـ ١٩٦١م.

٣٥ ـ تاجُ العروسِ منْ جَواهِرِ القامُوس: للزَّبيدي ـ المطبعةُ الخيريّة ـ مصر ـ ١٣٠٦هـ.
٣٦ ـ تاريخُ الأَدبِ العربيّ: لبلاشير ـ دار الفكر.
٣٧ ـ تاريخُ الأدبِ العربيّ: لعمر فرّوخ ـ دار العِلْم ـ بيروت ـ ط٤ ـ ١٩٨١م.
٣٨ ـ تاريخُ الإِسلامِ ووفياتُ المشَاهيرِ والأَعْلام: للذَّهبيّ ـ تحقيق د. عمر تدمُري ـ دارُ الكتابِ العربيّ ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٨٧م وما بعدها.
٣٩ ـ تاريخُ الأمَمِ والملوكِ (تاريخ الطَّبري) للطَّبري: دار الكُتُب العلميّة ـ بيروت ـ ط٢ ـ ١٩٨٨م، وطبعة مصْر المحقَّقة، وطبعة دار الفكر ببيروت.
٤٠ ـ تاريخُ بغدادَ: للخطيب البغداديّ ـ دارُ الكتابِ العربي ـ بيروت.
٤١ ـ تاريخُ خليفة بنِ خيَّاط: لابن خيّاط ـ دار الفِكْر ـ ١٤١٤هـ.
٤٢ ـ تاريخُ القُضَاعيّ: للقُضاعيّ ـ طبعة جامعةِ أُمِّ القُرىٰ ـ مكَّة المكرّمة ـ ١٤١٥هـ.
٤٣ ـ تاريخُ مدينةِ دمشقَ (تراجم النِّساء): لابنِ عسَاكر ـ تحقيق سُكَينة الشّهابي ـ دار الفِكْر ـ دمشق.
٤٤ ـ تاريخُ مكَّة: للأزرقيّ ـ المكتبةُ التِّجارية ـ مكّةُ المكرّمة ـ ط١ ـ ١٤١٦هـ.
٤٥ ـ تاريخُ اليعقوبيّ: لليعقوبي ـ دار بيروت للطّباعة والنَّشْر ـ بيروت ١٩٨٠م.
٤٦ ـ تجريدُ أَسْماءِ الصَّحابةِ: للذَّهبيّ ـ دارُ المعرفةِ ـ بيروت ـ بدون تاريخ.
٤٧ ـ تحفَةُ العَروس ومتعَةُ النُّفوس: للتّجاني ـ تحقيق جليل العطيّة ـ دار الرّيس ـ لندن ـ وقبرص ط١ ـ ١٩٩٢م.
٤٨ ـ تحريرُ تقريب التّهذيب: تأليف بشّار عوّاد معروف. وشُعيب الأرناؤوط ـ مؤسَّسة الرِّسَالة ـ بيروت ـ ط ١٩٩٧م.
٤٩ ـ تراجمُ سيِّداتِ بيتِ النُّبوَّة: لابنةِ الشَّاطىء ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت.

٥٠ ـ تزيينُ الأَسْواقِ بتفصيلِ أشواقِ العُشَّاقِ: لداود الأَنْطَاكي ـ طبعة عالَم الكُتُب ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٩٣م؛ وطبعة دار حمد ومحيو ـ بيروت ١٩٧٢م.
٥١ ـ التَّصوُّفُ الإسلاميُّ في الأَدبِ والأَخْلاقِ: د. زكي مبارك ـ دار الكتاب العربي ـ القاهرة ـ ١٩٥٤ ـ وطبعةُ بيروت.
٥٢ ـ تطوُّرُ الغَزَلِ بينَ الجاهليّة والإسْلام: د. شكري فَيْصل ـ دار العِلْمِ للملايين ـ بيروت ـ ط٥ ـ دون تاريخ.
٥٣ ـ التَّعازي والمراثي: للمبرّد ـ تحقيق محمّد الدّيباجي ـ مجمعُ اللغةِ العربيّة ـ دمشق ـ ١٩٧٦م.
٥٤ ـ تفسيرُ أبي السُّعود (إرشادُ العَقْلِ السَّليم إلىٰ مزايا القُرآنِ الكريم): لأبي السُّعود ـ دار إحياء التُّراث العربي ـ بيروت.
٥٥ ـ تفسيرُ البحرِ المُحيط: لأبي حيَّان الأَنْدلسيّ ـ دارُ الفِكْرِ ـ بيروت ـ ط٢ ـ ١٩٩٣م.
٥٦ ـ تفسيرُ السَّعديّ (تيسيرُ الكريم الرحمن في تفسيرِ كلام المنَّان): للسَّعدي ـ مؤسَّسة الرِّسَالة ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٩٦م.
٥٧ ـ تفسيرُ الطَّبري (جامعُ البيان في تفسير القُرآن): للطبري ـ دار الفكر ـ دمشق ـ ١٩٨٤م.
٥٨ ـ تفسيرُ القَاسميّ ـ علَّق عليه محمّد فؤاد عبد الباقي ـ دار الفكْرِ ـ بيروت ـ ط٢ ـ ١٩٧٨م.
٥٩ ـ تفسيرُ القرآنِ العظيم: لابن كثير ـ دار ابن كثير ـ دمشق ط١ ـ ١٩٩٤م.
٦٠ ـ تفسيرُ القُرطبيّ (الجامعُ لأَحْكامِ القُرآن): للقرطبيّ ـ دار إحياءِ التُّراث العربيّ ـ بيروت.
٦١ ـ التَّفسيرُ الكبيرُ (أو مفاتيحُ الغَيب): للرّازي ـ دارُ الكُتُبِ العلميّة ـ طَهْران؛ وطبعةُ دار الكتب العلميّة ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٩٠م.
٦٢ ـ تفسيرُ مُبهمَات القُرآن: لأَبي عبد الله البلَنْسيّ ـ تحقيق د. حنيف حسن القاسميّ ـ دارُ الغَرْبِ الإسلاميّ ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٩١م.

٦٣ ـ تقريبُ التَّهذيب: لابنِ حجرِ العَسْقَلاني ـ ضبط ومراجعة صدقي جميل العطَّار ـ دار الفكر ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٩٥م؛ وطبعة دار المعرفة ببيروت.
٦٤ ـ تلقيحُ فُهومِ الأثَر: لابنِ الجوزي ـ مكتبةُ الآداب ـ مَصْر ـ وطبعة الهند.
٦٥ ـ تهذيبُ الأَسْمَاءِ واللُّغات: للنّووي ـ بإشرافِ مكتبِ البحوثِ والدِّراسات في دارِ الفكْر ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٩٦م ، وطبعة دار الكُتُب العلميّة ببيروت.
٦٦ ـ تهذيبُ تاريخِ دمشق الكبير لابن عسَاكر: هذَّبَه عبدُ القادرِ بدران ـ دار المسيرة ـ بيروت ـ ط٢ ـ ١٣٩٩هـ.
٦٧ ـ تهذيبُ التَّهذيبِ: لابن حجر ـ ضبط ومراجعة صدقي جميل العَّطار ـ دار الفكِر ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٩٥م ـ وطبعةُ دارِ الكتَاب الإسلاميّ بالقَاهِرة.
٦٨ ـ ثمارُ القُلُوب في المُضَافِ والمنْسوب: للثَّعالبيّ ـ تحقيق محمّد أبو الفَضْل إبْراهيم ـ دارُ نَهْضَةِ مصْرَ ـ ١٩٦٥م.
٦٩ ـ ثمرات الأَوْراقِ بهامشِ المُستَطْرف: للحمويّ ـ دار الفكر.
٧٠ ـ جامعُ الأصولِ: لابنِ الأَثير ـ تحقيق عبد القادر الأرناؤُوط ـ دمشق ـ ١٩٧٣م.
٧١ ـ الجليسُ الصَّالح الكافي والأنيسُ النَّاصِح الشَّافي: للمعافىٰ بن زكريا النّهروانيّ ـ تحقيق د. محمّد مرسي الخولي ، ود. إحسان عبّاس ـ عالَم الكُتُب ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٩٣م.
٧٢ ـ جمهرةُ الأَمْثال: للعَسْكَري ـ ضَبَطَه د. أحمد عبد السَّلام ـ خرَّج أحاديثَه أبو هاجر محمّد سعيد زَغْلُول ـ دار الكُتُب العلميّة ـ بيروت ط١ ـ ١٩٨٨م.
٧٣ ـ جمهرةُ أَنْسَابِ العرب: لابنِ حَزْم الأندلسيّ ـ تحقيق وتعليق عبد السَّلام هارون ـ دارُ المعارفِ ـ ط٥ ـ دون تاريخ.
٧٤ ـ الجواهرُ الحِسَان في تَفْسيرِ القُرآن: لعبدِ الرحمنِ الثَّعالبيّ ـ حقَّقه وخرَّج أحاديثَه ووثَّقَ أصولَه: أبو محمّد الغُماريّ الإدريسيّ ـ دار الكتب العلميّة ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٩٦م.

٧٥ ـ جَوامعُ السِّيرةِ النَّبويّة: لابن حزم ـ تحقيق د. إحسان عبّاس ود. ناصر الدِّيْن الأَسد ـ دارُ المَعارِف ـ مَصْر ـ دون تاريخ.
٧٦ ـ حاشيةُ الصَّاوي على الجلالَيْن: للصَّاوي ـ دارُ إحْيَاءِ الكُتُب العربيّة ـ مصْرَ.
٧٧ ـ حبُّ ابنِ أبي ربيعةَ وشِعْره: د. زكي مُبارك ـ المكتبةُ التّجاريّة الكبرى ـ مِصْر ـ ط٣ ـ دون تاريخ.
٧٨ ـ حجَّةُ اللهِ علىٰ العالَمين: ليوسُف النَّبهاني ـ تحقيق محمّد مصْطَفى أبو العلاء ـ مكتبةُ الجنديّ ـ مصْر ـ ١٩٧١م.
٧٩ ـ الحدائقُ الغَنَّاءِ في أخبارِ النِّساء: لأبي الحسَن عليّ بن محمّد المعافريّ المالقي ـ تحقيق وتقديم د. عائدة الطِّيبي ـ الدَّارُ العربيَّةُ للكتاب ـ ليبيا ـ تونُس ـ ط١ ١٩٧٨م.
٨٠ ـ الحقائقُ الطِّبيَّةُ في الإسْلامِ: د. عبد الرَّزَّاق الكَيْلاني ـ دار القلم ـ دمشق ـ ط١ ـ ١٩٩٦م.
٨١ ـ الحقيقَةُ والمجازِ في الرِّحلةِ إلى بلاد الشَّامِ ومصرَ والحجازِ: لعبد الغني النَّابلسيّ ـ تقديم وإعداد د. أحمد هريدي ـ الهيئة المصريّة العامّة للكتاب ـ ١٩٨٦م.
٨٢ ـ حليةُ الأَولياء: لأبي نعيم الأصبهاني ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت.
٨٣ ـ حماسَةُ أبي تمّام: لأبي تمّام ـ المكتبةُ التِّجاريّةُ ـ القاهرة ـ دون تاريخ. وطبعةُ جامعةِ الإمام محمّد بن سعود الإسلاميّة بالرِّياض ـ تحقيق د. عبد الله عُسَيلان.
٨٤ ـ حياةُ الصَّحابةِ: للكاندهلويّ ـ بعنايةِ نايف العبّاس ورفيقه ـ دار القلم ـ دمشق ـ ط٤ ـ ١٩٨٦م.
٨٥ ـ الحيوانُ: للجاحِظِ ـ تحقيق عبد السَّلام هارون ـ القاهرة ـ ت ١٩٤٥م.
٨٦ ـ خزانَةُ الأَدبِ: للبغداديّ ـ طبعة بولاق ١٢٩٩هـ.
٨٧ ـ الخططُ التَّوفيقيّةُ الجديدةُ لِمصْرَ القاهرة ـ لعلي مبارك ـ مصوّرة عن طبعةِ بُولاق سنة ١٣٠٥هـ ـ طبعةُ الهيئةِ المصريّةِ للكتَابِ ـ ط٢ ـ ١٩٨٦م.

٨٨ ـ خُطَطُ الشَّام: لمحمّد كرد علي ـ بيروت ـ ١٩٦٩م.
٨٩ ـ دائرةُ المعارفِ الإسلاميّة: نلقَها إلىٰ العربيةِ ـ إبراهيم خورشيد وأحمد الشّنتناوي وعبد الحميد يُونُس ـ كتاب الشَّعب ـ مصر طبعة عام ـ ١٩٣٣م.
٩٠ ـ دائِرةُ معارفِ القرنِ العشرين: لمحمد فريد وجدي ـ دار المعرفة ـ بيروت ـ دون تاريخ.
٩١ ـ درُّ السَّحابةِ في مناقب القَرابةِ والصَّحابةِ: للشَّوكاني ـ تحقيق حسن العمري ـ دار الفكر ـ دمشق ـ ط١ ـ ١٩٨٤م.
٩٢ ـ الدُّررُ في اختصارِ المغازي والسِّير: لابن عبد البرّ ـ تحقيق د. شوقي ضيف ـ دار المعارف ـ مصر ـ ط٢ ـ دون تاريخ.
٩٣ ـ الدُّرُّ المنثور في طبقَاتِ ربَّاتِ الخُدور: لزينبَ بنتِ يوسُف فوّاز العامليّة ـ طبعة مصوَّرة عن الطَّبعة المصريّة ـ ١٣١٢هـ.
٩٤ ـ الدُّرُّ المنثورُ: للسّيوطي ـ دار الفِكْر ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٨٣م.
٩٥ ـ دلائلُ النُّبَّوةِ: للبيهقي ـ تحقيق د. عبد المعطي قلعجي ـ دار الكتب العلميّة ـ بيروت ط١ ـ ١٩٨٥م.
٩٦ ـ الدَّليلُ الشَّافي: لابن تُغري بردي ـ طبعة مكة المكرمة.
٩٧ ـ دليلُ الفالحيَن: للصِّدِّيقي الشَّافعي ـ دار الكتاب العربيّ ـ بيروت ـ ط١٠ ـ ١٩٨٥م.
٩٨ ـ دَوْلَةُ النِّساءِ: لعبد الرحمن البرقوقي ـ مطبعةُ النَّهضةِ المصريّة ـ ط١ ـ ١٩٤٢م.
٩٩ ـ ديوانُ ابنِ الوردي: لابنِ الوردي ـ تحقيق د. أحمد فوزي الهيب ـ دار القلم ـ الكويت ـ ط١ ـ ١٩٨٦م.
١٠٠ ـ ديوانُ جرير: بشرح محمّد بن حبيب ـ تحقيق د. نعمان محمّد أمين طه ـ دار المعارف ـ مصر ـ ط٣ ـ دون تاريخ.
١٠١ ـ ديوانُ حسَّان بنِ ثابت: تحقيق د. سيّد حنفي حُسين ـ دار المعارف ـ مصر ـ ١٩٧٤م.

١٠٢ ـ ديـوانُ عُبيد اللهِ بـنُ قيس الرّقيّـات: تحقيـق د. محمد يـوسُف نجـم ـ بيروت ـ ١٩٥٨م.
١٠٣ ـ ديوانُ عمرَ بنِ أبي ربيعة: تحقيق محي الدِّين عبد الحميد ـ مِصْر ـ ط٣ ـ ١٩٥٣م.
١٠٤ ـ ديـوانُ عمرَ بنِ أبـي ربيعـة: تحقيق د. يوسُـف شـكري فرحـات ـ دار الجيل ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٩٢م.
١٠٥ ـ ديوانُ الفِرزْدَق: دار صادر ـ بيروت ـ ١٩٦٦م ـ وطبعات أخرى.
١٠٦ ـ ديوانُ ليلىٰ الأخيليّة: عُني بجمعِهِ وتحقيقِه خليل العطيّة وجليل العطية ـ دار الجمهوريّة ـ بغداد ـ ١٩٦٧م.
١٠٧ ـ ديوان مَجْدِ الإسلام: لأحمد محرّم ـ حقَّقه وراجعَه محمود أحمد محرم ـ مكتبةَ الفَلاح ـ الكويت ط١ ـ ١٤١٢هـ وطبعة مصر.
١٠٨ ـ ذمُّ الهوى: لابنِ الجوزي ـ تحقيق مصطفى عبد الواحد ـ دار الكُتب الحديثة ـ مطبعة السَّعادة ـ ١٩٦٢م.
١٠٩ ـ الذيلُ على رفْعِ الإِصْر ـ للسَّخاوي ـ مَصْر ـ دون تاريخ.
١١٠ ـ رحلةُ الشِّعْر: د. مصطفى الشّكْعة ـ عالم الكتب ـ بيروت ١٩٧٩م.
١١١ ـ رسائُل الجاحظ: للجاحظ ـ تحقيق عبد السّلام هارون ـ مكتبة الخانجي القاهرة دون تاريخ.
١١٢ ـ روحُ المعَاني: للآلوسي ـ دار إحياء التراث العربي ـ طبعة مصورة وطبعة دار الفكر بدمشق وبيروت.
١١٣ ـ الرَّوضُ الأُنُف: للسُّهَيلي ـ تحقيق طه سَعْد ـ مكتبة الكُليّات الأزهرية ـ مصر ـ ١٩٧١م.
١١٤ ـ روضةُ العُقَلاء: لابن حبَّان البُسْتي ـ مكتبة نزار الباز ـ مكة المكرمة ـ ط١ ـ ١٤١٧.
١١٥ ـ الروضةُ الفيحاءُ في تاريخِ النِّساء: لياسين العُمري ـ تحقيق د. رجاء السَّامرائي ـ الدَّارُ العربيّة للموسوعات ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٨٧م.

١١٦ ـ روضةُ المحبّين ونزهةُ المشتاقين: لابن قيمّ الجوزية ـ طبعة بيروت ـ ١٩٦٧. وطبعة حَلب ـ وطبعة دار ابن كثير بدمشق ـ وطبعات أخرى عديدة.
١١٧ ـ الرِّياضُ المُستطابةُ في جملةِ مَنْ روىٰ في الصَّحيحين من الصَّحابة: لأبي بكر العَامريّ ـ حقَّقه عبدُ الله الأنصاري وعبد التَّوَّاب هيكل ـ طبعة وزارة التّربية والتّعليم ـ السُّعودية.
١١٨ ـ الرِّياضُ النَّضرة في مناقب العَشَرة: للمحبّ الطَّبري ـ اعتنىٰ به عبد المجيد حلبي ـ دار المعرفة ـ بيروت ـ ط١ ـ بيروت ط١ ـ ١٩٩٧م ـ وطبعة دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٨٤م.
١١٩ ـ زادُ المعَاد: لابن قيّم الجوزية ـ تحقيق شُعيب الأرناؤوط وعبد القادر الأرناؤوط ـ مؤسَّسة الرِّسالة ـ بيروت ـ ط١٥ ـ ١٩٨٧م.
١٢١ ـ زهْرُ الآدابِ وثَمرُ الألباب: للحصري القيرواني ـ تحقيق علي محمّد البجاوي ـ دار إحياء الكتب العربية ـ القاهرة ط٢ ـ ١٩٧٠م ـ وطبعة زكي مبارك ومحي الدِّين عبد الحميد.
١٢٢ ـ سُبُلُ الهدىٰ والرَّشاد في سيرةِ خير العباد للصَّالحي ـ تحقيق د. مصطفىٰ عبد الواحد وعدد منَ الأفاضل ـ لجنة إحياء التُّراثِ الإسلامي ـ القاهرة ـ ١٩٩٣م.
١٢٣ ـ سَرْحُ العيونِ في شرح رسالةِ ابن زيدون: لابن نباتةَ المصري ـ تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم ـ منشورات المكتبة العصريةِ ـ لبنان ـ صيدا ١٤٠٦هـ.
١٢٤ ـ سمْطُ اللآلي في شَرحِ أمالي القَالي: للبكْريّ ـ تحقيق عبد العزيز الميمني ـ مطبعة لجنة التّأليف والتَّرجمة والنَّشر ـ مصر ـ ١٣٥٤هـ.
١٢٥ ـ سننُ ابن ماجه: تحقيق محمّد فؤاد عبد الباقي ـ دار إحياء التّراث العربي بيروت ـ ١٩٧٥م.
١٢٦ ـ سننُ أبي داود: إعداد وتعليق محي الدِّين عبد الحميد ـ دار إحياء التّراث العربي ـ بيروت ـ دون تاريخ.

١٢٧ ـ سننُ التّرمذي: إعداد وتعليق عزّت عُبيد الدَّعاس ـ حمص ـ ط١ ـ ١٩٦٦م.
١٢٨ ـ سُننُ النّسائي: بشرح السُّيوطي و حاشية السِّندي ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.
١٢٩ ـ سِيَرُ أعْلام النُّبلاء: للذَّهبي ـ تحقيق جماعة منَ الأفاضل والعلماء ـ مؤسّسة الرّسالة ـ بيروت ـ ط٣ ـ ١٩٨٥م.
١٣٠ ـ السِّيرَةُ الحلبيّـةُ (إنْسانُ العُيون) لبرهان الدِّين الحلبي ـ مطبعة البابي الحلبي ـ مصر ط١ ـ ١٩٦٤م.
١٣١ ـ السِّيرُ الكبيرُ: للشَّيباني ـ تحقيق د. صلاح الدِّين المنجدّ ـ مكتبةُ قرطبة ـ القاهرة ـ ١٩٧١م.
١٣٢ ـ السِّيرةُ النَّبوية: لابن هشَام ـ تحقيق السَّقا ورفاقه ـ مطبعة البابي الحلبي ـ مِصْر ـ ط٢ ـ ١٩٥٥م.
١٣٣ ـ السِّيرةُ النَّبوية مع شَرحِ أبي ذرّ الخشنيّ: لابن هشام ـ تحقيق د. همام سعيد، ومحمّد أبو صعيليك ـ مكتبة المنار ـ الأردن ـ ط١ ـ ١٩٨٨م.
١٣٤ ـ شاعراتُ العرب: جمع وتحقيق عبد البديع صقْر ـ المكتب الإسلامي ـ ط١ ـ ١٩٦٧م.
١٣٥ ـ شاعرُ الغَزَل: لعبَّاس العقاد ـ المكتبة العصريّة ـ لبنان ـ صيدا.
١٣٦ ـ شذراتُ الذَّهب: لابن العماد الحنبليّ ـ تحقيق محمود الأرناؤُوط ـ دار ابن كثير ـ دمشق ـ ط١ ـ ١٩٨٦م وما بعدها.
١٣٧ ـ شرحُ ديوان امرىء القَيْس وأخبارُ المَراقسة والنَّوابغ: جَمعَها حسن السَّندوبي ـ دار إحياء العلوم ـ بيروت ط٢ ـ ١٩٩٦.
١٣٨ ـ شرحُ المعلَّقات العَشْر وأخبارُ شعرائها: اعتنى بجمعه وتصحيحه أحمد ابن الأمين الشَّنقيطي ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ دون تاريخ.
١٣٩ ـ شرحُ المعلّقات السبع: للزّوزني ـ تحقيق يوسُف بن علي بديوي ـ دار ابن كثير ـ دمشق ط١ ـ ١٩٨٩م.

١٤٠ ـ شرحُ مقامات الحريري: للشَّريشي ـ تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم ـ المكتبةُ العصرية ـ لبنان ـ صيدا ـ ١٩٩٢م.
١٤١ ـ شرحُ المواهب اللّدنيّة: للزُّرقاني ـ دار المعرفة ـ بيروت ـ ١٩٧٣م.
١٤٢ ـ الشِّعرُ والشُّعراء: لابن قُتيبة ـ تحقيق وشرح أحمد محمّد شاكر ـ دار المعارف ـ مصر ـ دون تاريخ.
١٤٣ ـ الشِّعرُ والغِناءُ في المدينةِ ومكةَ: د. شوقي ضيف ـ دار المعارف ـ مصر ـ ط٤ ـ دون تاريخ.
١٤٤ ـ الشّفا: للقاضي عياض ـ تحقيق محمّد أمين قرة علي ورفاقه. مؤسَّسة علوم القرآن ـ دمشق ط٢ ـ ١٩٨٦م ـ وطبعة مصر.
١٤٥ ـ شفاءُ الغرامِ بأخبارِ البلدِ الحرام: للفاسي ـ تحقيق د. عمر تدمري ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٨٥م.
١٤٦ ـ صبحُ الأعشى: للقلقشندي ـ طبعة مصوّرة عن طبعةِ القاهرة ـ ١٩٦٣م.
١٤٧ ـ صحيحُ ابن حبّان: بعنايةِ كمال الحوت ـ دارُ الكتب العلمية ـ بيروت ط١ ـ ١٩٨٧م ـ وطبعة المكتب الإسلاميّ.
١٤٨ ـ صحيحُ مسلم: تحقيق محمّد فؤاد عبد الباقي ـ دار إحياء التّراث العربي ـ بيروت.
١٤٩ ـ صحيحُ مسلم بشرحِ النَّووي: رئاسة إدارة البحوثِ العلميّة والإفتاءِ والدَّعوةِ والإرشادِ ـ المملكةُ العربيّةُ السُّعوديّةُ.
١٥٠ ـ صِفَةُ الصَّفْوةِ: لابن الجوزيّ ـ تحقيق محمود فاخوري ومحمّد رواس قلعجي ـ دارُ المعرفةِ ـ بيروت ـ ط٢ ـ ١٩٧٩م.
١٥١ ـ صورةُ المرأةِ في شعْرِ عمر بن أبي ربيعة: د. خليل محمّد عودة ـ دار الكتب العلميّة ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٨٨م.
١٥٢ ـ الضَّوءُ واللّعبةُ: لشَاكر النّابلسي ـ المؤسَّسةُ العربيةُ للدراسات والنَّشر ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٨٦م.

١٥٣ ـ طبقاتُ الشَّافعية: للسَّبكي ـ دار المعرفة ـ بيروت ـ ط٢ ـ دون تاريخ.
١٥٤ ـ طبقاتُ الشَّعراني (لواقحُ الأنوارِ في طبقاتِ الأَخيار) للشَّعراني: دار الفكر ـ طبعةٌ مصوَّرة.
١٥٥ ـ الطَّبقاتُ الكبرىٰ: لابن سعد ـ تحقيق إحسان عبّاس ـ دار صادر ـ بيروت ـ دون تاريخ.
١٥٦ ـ الطَّبقاتُ الكبرىٰ: للمنَاوي ـ مخطوطة بدار الكُتب المصرية.
١٥٧ ـ الطِّبُّ النَّبوي: لابن قيمّ الجوزية ـ تحقيق د. عبد المعطي قلعجي ـ دار التُّراث ـ مِصْر ـ ط١ ـ ١٣٩٨هـ.
١٥٨ ـ الطِّبُّ النَّبويّ لعبدِ اللطيفِ البغدادي ـ تحقيق يوسُف بن علي بديوي. دار ابن كثير ـ دمشق ـ ط١ ـ ١٩٩٠م.
١٥٩ ـ العبرُ في خَبَر مَنْ غَبر: للذَّهبيّ ـ تحقيق محمّد زغلول ـ دار الكتب العلميّة ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٨٥م ـ وطبعة الكُويت.
١٦٠ ـ عجائبُ الآثارِ في التَّراجمِ والأَخْبار: للجبرتي ـ دار الجيل ـ بيروت ط٢ ـ ١٩٧٨م.
١٦١ ـ عُشَّاق العرب: د. عبد المجيد زَراقط ـ دار البحار ـ بيروتِ ط٢ ـ ١٩٨٩م.
١٦٢ ـ العِقْدُ الثَّمينُ في تاريخ البلدِ الأمينِ: للفاسي ـ تحقيق فؤاد سيِّد ـ القاهرة ـ ١٣٥٨هـ.
١٦٣ ـ العقدُ الفريد: لابن عبد ربه الأندلسيّ ـ تحقيق أحمد أمين ورفاقه ـ لجنة التّاليف والترجمة والنشر ـ القاهرة ـ ط٢ ـ ١٩٦٢م ـ وطبعة محمد سعيد العريان ١٩٤٩م.
١٦٤ ـ علومُ الحديث ومصطلحه: د. صبحي الصَّالح ـ دار العلم ـ بيروت ـ ط٧ ـ ١٩٨٨م.
١٦٥ ـ عمرُ بنُ أبي ربيعةَ (ثلاثة أجزاء): لـ جبرائيل جبّور ـ دار العِلْم للملايين ـ بيروت ـ ط٢ ـ ١٩٧٩م.

١٦٦ ـ عمرُ بنُ أبي ربيعة زعيمُ الغَزَل العربي: لمحمود حسن أبو ناجي ـ دار الشَّرق ـ السُّعودية ـ جُدَّة ـ ١٣٩٩هـ.
١٦٧ ـ عيونُ الأَثرِ في فُنونِ المغازي والسِّير: لابن سيِّد النَّاس ـ دار الآفاق الجديدة ـ بيروت ـ ط٣ ـ ١٩٨٢م ـ وطبعة دار ابن كثير بدمشق.
١٦٨ ـ عيونُ الأَخْبار: لابن قُتيبة ـ مصورة عن دار الكتب ـ مصر ـ ١٩٦٣م.
١٦٩ ـ الغَزَلُ عنْدَ العَرب: لجان فاديه ـ ترجمة د. إبراهيم كيلاني ـ منشورات وزارة الثَّقافة ـ دمشق ـ ط٢ ـ ١٩٨٥م.
١٧٠ ـ غوامضُ الأسماءِ المبهمةِ الواقعة في مُتُون الأحاديث المُسندة: لأبي القاسم بن بشكوال ـ تحقيق د. عز الدّين علي السّيد، ومحمّد كمال الدِّين عز الدِّين ـ عالم الكُتب ـ بيروت ـ ط٢ ـ ١٩٩٦م.
١٧١ ـ الغيثُ المسجم في شَرحِ لامية العجم: لِصَلاح الدِّين الصَّفدي ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٧٥م.
١٧٢ ـ فَتْحُ الباري: لابنِ حجرِ العَسْقلاني ـ تحقيق محبّ الدِّين الخطيب ـ المكتبةُ السَّلفية ـ القاهرة ـ ط٤ ـ ١٤٠٨هـ. وطبعةُ دارِ المعرفة ببيروت.
١٧٣ ـ الفتحُ الرَّباني: لأحمد عبد الرّحمن البنّا ـ دار الحديث ـ القاهرة ـ دون تاريخ.
١٧٤ ـ فتحُ القدير: للشّوكاني ـ دار الفكر ـ بيروت ـ دون تاريخ.
١٧٥ ـ فجرُ الإسلامِ: لأحمد أمين ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت.
١٧٦ ـ الفخري في الآداب السُّلطانية والدُّول الإسلامية: لابن طباطبا ـ دار بيروت ـ ١٩٨٠م.
١٧٧ ـ الفرجُ بعد الشِّدة: للتّنوخي ـ تحقيق عبود الشَّالجي ـ دار صادر ـ بيروت ـ ١٩٧٨م.
١٧٨ ـ الفصولُ في سيرةِ الرَّسُول: لابن كثير ـ تحقيق محمّد العيد الخطْراوي ورفيقه ـ دارُ ابنِ كثير ـ دمشق ـ ط٧ ـ ١٩٩٦م.
١٧٩ ـ فقْـهُ اللُّغةِ وسرُّ العربيـةِ: للثَّعالبي ـ تحقيق مصطفى السَّقا ـ القاهرة ـ ١٣٥٧هـ ـ وطبعات أخرى.

١٨٠ ـ فواتُ الوفيَات: لابن شاكر الكتبيّ ـ تحقيق محيي الدِّين عبد الحميد ـ مِصْر ـ ١٩٥١م، وطبعة بيروت بتحقيق د. إحسان عبّاس ١٩٧٣م.
١٨١ ـ الفؤائدُ المجموعة: للشّوكاني ـ تحقيق عبد الرّحمن اليماني ـ دار الكتب العلميّة ـ بيروت ـ ١٣٧٩هـ ـ وطبعات أخرى.
١٨٢ ـ القاموسُ المحيط: للفيروز أبادي ـ مؤسَّسة الرِّسالة بيروت ـ ط ٢ ـ ١٩٨٧م.
١٨٣ ـ قَصَصُ العربِ: لمحمّد أحمد جاد المولىٰ ورفاقه ـ مطبعة البابي الحلبي ـ القاهرة ـ ١٩٥٦م.
١٨٤ ـ قُطُوفُ الرَّيحانِ من زَهْرِ الأَفْنان: لأحمد بن خالد النَّاصري السَّلاوي ـ دار روضة الصَّغير ـ الرّياض ـ ط١ ـ ١٩٩٣م.
١٨٥ ـ الكَاملُ في التَّاريخ: لابن الأثير ـ دار صادر ـ بيروت ـ بدون تاريخ.
١٨٦ ـ الكَاملُ في اللُّغة والأدب: للمبّرد ـ تحقيق محمّد أحمد الدالي ـ مؤسَّسة الرِّسالة ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٨٦م. وطبعة مصر بتحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم.
١٨٧ ـ كتابُ أَلِف باء: للبلويّ ـ مصوّرة عالم الكتب ـ بيروت.
١٨٨ ـ الكشَّافُ (تفسير الزَّمخشري): للزمخشري ـ دار المعرفة ـ بيروت.
١٨٩ ـ كشْفُ الخفاءِ ومزيلُ الإلْباس: للعجلوني ـ بعناية أحمد القلاّش ـ دارُ التُّراث ـ القاهرة ـ دون تاريخ.
١٩٠ ـ كشْفُ الظُّنون عن أسامي الكُتبِ والفُنون: لحاجي خليفة ـ بإشرافِ هيئةِ البحوثِ والدراساتِ في دار الفكر ـ دار الفكر ـ ١٩٩٤م.
١٩١ ـ الكفايةُ في علْمِ الرِّوايةِ ـ دائرةُ المعارفِ العثمانية بحيدر آباد ـ ١٣٥٧هـ.
١٩٢ ـ كنزُ العمّال: لعلاء الدِّين علي المتّقي الهندي ـ بعناية حيّاني والسَّقا ـ مؤسَّسةُ الرسالةِ بيروت ط٥ ـ ١٩٨٥م.
١٩٣ ـ لِسَانُ العرَبِ: لابن منظور ـ دار صادر ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٩٠م.

١٩٤ ـ لِسَانُ الميزان: لابن حجر ـ حيدرآباد الدكن ـ ١٣٣١هـ ـ وطبعةُ الدَّار العربية ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٩٦م.
١٩٥ ـ مجمعُ الأَمْثَال: للميدانيّ ـ تحقيق محيي الدِّين عبد الحميد ـ مطعبة السُّنَّة المحمديّة ـ القاهِرة ـ ١٩٥٥م. وطبعةُ دارِ الكتب العلميّة ـ بيروت ط١ ـ ١٩٨٨م.
١٩٦ ـ مجمعُ الزَّوائد: للهيثميّ ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ دون تاريخ.
١٩٧ ـ مُجملُ اللُّغة: لابن فارس ـ حقَّقه شهاب الدِّين أبو عمرو ـ دار الفكر ـ بيروت ـ ١٩٩٤م.
١٩٨ ـ المحاسنُ والأَضْداد: للجَاحظ ـ حقَّقه محمد سُويد ـ دار إحياء العلوم ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٩١م ، وطبعة أخرىٰ بتحقيق فوزي عطوي.
١٩٩ ـ المحاسنُ والمساوىء ـ للبيهقي ـ حقَّقه محمد سُويد ـ دار إحياء العلوم ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٩١م ـ وطبعة دار صادر ـ بيروت ـ ١٩٧٠م.
٢٠٠ ـ محاضراتُ الأُدباءِ ومحاوراتُ الشُّعراء والبُلغاء: للرَّاغب الأصفهاني ـ دار مكتبة الحياة ـ بيروت ـ دون تاريخ.
٢٠١ ـ المحبُّ والمحبوبُ: للسَّري بن أحمد الرفّاء الموصلي ـ دراسة وتحقيق د. حبيب حَسن الحسني ـ جامعة بغداد ـ ط١ ـ ١٩٨٢م.
٢٠٢ ـ المحبَّرُ: لابن حبيب برواية السُّكري ـ صحّحه الدكتورة إيلزة ليختن شتيتر ـ دار الآفاق الجديدة ـ بيروت ـ دون تاريخ.
٢٠٣ ـ مختارُ الصِّحاح: للرّازي ـ طبعاتٌ مختلفةٌ متعددةٌ.
٢٠٤ ـ مختصرُ تاريخِ مدينة دمشق لابن عسَاكر: لابن منظور ـ تحقيق عدد منَ الأساتذة ـ دار الفِكْر ـ دمشق ـ ط١ ـ ١٩٩٠م.
٢٠٥ ـ المختصرُ في علْمِ رجالِ الأَثر: لعبد الوهاب بن عبد اللطيف ـ دار الكُتب الحديثة بالقاهِرة ـ ط١ ـ ١٣٨٦هـ.
٢٠٦ ـ المدهشُ: لابن الجوزي ـ دار الجيل ـ بيروت ـ دون تاريخ.
٢٠٧ ـ مرآةُ الجنَان: لليافعي ـ حيدر آباد ـ ١٣٣٨هـ.

٢٠٨ ـ المرأةُ العربيّةُ في الأَنْدلس بين الحقيقةِ والأسطورة: لأحمد خليل جمعة ـ دار اليمامة ـ دمشق ـ ط١ ـ ١٩٩٩ .
٢٠٩ ـ المرأةُ العربيةِ في جَاهليتها وإسلامها: لعبد الله عفيفي ـ دار الرّائد العربي ـ بيروت .
٢١٠ ـ المرأةُ في الشِّعر الجاهليّ: لأحمد الحوفي ـ دار نهضة مصْر ـ القاهرة ـ ١٩٨٠ .
٢١١ ـ المرأةُ في عالَمي العرب والإسلام: لعمر رضا كحالة ـ مؤسّسة الرسالة ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٧٨م .
٢١٢ ـ المرأةُ في القديمِ والحديثِ: لعمر رضا كحالة ـ مؤسَّسة الرسالة بيروت ـ ط١ ـ ١٩٧٨م .
٢١٣ ـ مروجُ الذَّهب ومعادنُ الجوهر: للمسعودي ـ تحقيق محمد محيي الدِّين عبد الحميد ـ دارُ المعرفة ـ بيروت ـ دون تاريخ .
٢١٤ ـ المُستجَادُ من فعْلاتِ الأَجْواد: للتَّنوخي ـ تحقيق محمّد كُرد علي ـ دمشق ـ ١٩٤٦م .
٢١٥ ـ المُستَدْرِكُ على الصَّحيحَيْن: للحاكم النَّيسابُوري ـ مكتب المطبوعات الإسلاميّة ـ حلب ـ دون تاريخ ـ وطبعة بيروت .
٢١٦ ـ المُستطرفُ: للأبْشيهي ـ مصوّرة دار الفكْر عن طبعةِ ١٢٧٧هـ .
٢١٧ ـ مسندُ أبي يعلىٰ الموصلي: للموصلي ـ تحقيق حُسين أَسد ـ دار المأمون للتُّراث ـ دمشق ط١ ـ ١٩٨٤م .
٢١٨ ـ المُسندُ: للإمام أَحْمد ـ دار الفكر ـ بيروت ـ ط٢ ـ ١٩٧٨م ـ وعدّة طبعات قديمة وحديثة .
٢١٩ ـ مشاهيرُ عُلماءِ الأَمْصار: لابن حبّان ـ تحقيق مرزوقُ علي إبراهيم ـ دار الوفاء ـ مِصْر ـ المنصورة ـ ط١ ـ ١٩٩١م .
٢٢٠ ـ مصارعُ العشَّاق: للسَّرَّاجِ القارىء ـ دار صادر ـ بيروت ـ ١٩٥٨م .
٢٢١ ـ المِصْباحُ المنيرُ: للفيومي ـ طبعةٌ مصوّرة ـ بيروت .

٢٢٢ ـ المعارفُ: لابن قُتيبة ـ تحقيق د. ثروت عكاشة ـ دار المعارف ـ مصر ـ ط٢ ـ ١٩٧٧م.
٢٢٣ ـ معاني القُرآنِ: للفرّاء ـ عالَم الكُتُب ـ بيروت ـ ط٣ ـ ١٩٨٣م.
٢٢٤ ـ معاهدُ التَّنصيص علىٰ شواهِدِ التَّخليص: لعبد الرَّحيم العباسي ـ المكتبةُ التّجاريةُ الكبرىٰ ـ مصر ـ ١٩٤٧م.
٢٢٥ ـ معجمُ الأُدباء: لياقوت الحموي ـ دار المأمونِ ـ القاهرة ـ ١٩٣٦م.
٢٢٦ ـ معجمُ الأديبات الشَّواعر: للسَّمان الحموي ـ تحقيق أحمد الدَّقاق. دمشق ـ ط١ ـ ١٩٩٤م.
٢٢٧ ـ معجمُ البُلدان: لياقوت الحموي ـ دار إحياء التُّراث العربي ـ بيروت ـ دون تاريخ.
٢٢٨ ـ معجمُ الشُّعراء: للمرزباني ـ دار الجيل ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٩١م.
٢٢٩ ـ معجمُ ما استعجم: للبكري ـ تحقيق مصطفى السَّقا ـ القاهرة ـ ١٩٤٥م.
٢٣٠ ـ المعجمُ الوسيطُ: أخرجه د. إبراهيم مصطفى ورفاقُه ـ طبعة تركيا.
٢٣١ ـ المعرفةُ والتَّاريخ: للبسوي ـ تحقيق د. أكرم ضياء العمريّ ـ مؤسَّسةُ الرِّسالةِ ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٨٤م.
٢٣٢ ـ المغازي: للواقدي ـ تحقيق د. مارسدن جونس ـ عالَم الكتب ـ بيروت ـ دون تاريخ.
٢٣٣ ـ المغني: لابن قُدامة ـ بعنايةِ جماعة منَ العُلماء ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ ١٩٧٢م.
٢٣٤ ـ مقَاتِلُ الطَّالبيّين: لأبي الفرج الأصبهاني ـ تحقيق السَّيد أحمد صقر مؤسسة الأعلمي ـ بيروت ـ ط٢ ـ ١٩٨٧م.
٢٣٥ ـ المقاييسُ في اللُّغة: لابن فارس ـ تحقيق شهاب الدِّين أبو عمرو ـ دار الفكْرِ ـ بيروت ـ ط٢ ـ ١٩٩٨م.
٢٣٦ ـ المكافأةُ: لأحمد بن يُوسف الكاتب ـ بيروت.

٢٣٧ ـ الممتعُ في صَنْعة الشّعر: لعبد الكريم النَّهشليّ القيرواني ـ تحقيق د. محمد زغلول سلام ـ طبعة منشأة المعارفِ بالإسكندرية ـ دون تاريخ.
٢٣٨ ـ المنازلُ والدِّيار: لأسامةَ بنِ منقذ ـ تحقيق مصطفى حجازي ـ لجنة إحياء التراث الإسلاميّ ـ القاهرة ـ ١٩٩٤م. وطبعة المكتب الإسلامي ـ دمشق ـ ١٣٨٥هـ.
٢٣٩ ـ منتخباتُ التَّواريخِ لدمشق: لمحمد الحصني ـ منشوراتُ دار الآفاق الجديدة ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٣٩٩هـ.
٢٤٠ ـ المنمّقُ في أخبارِ قريش: لابن حبيب ـ تحقيق خورشيد أحمد فاروق ـ عالَم الكُتُب ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٨٥م.
٢٤١ ـ المواهبُ اللدنية بالمنحِ المحمّدية: للقَسْطلاني ـ تحقيق صالح أحمد الشَّامي ـ المكتب الإسلامي ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٩١م.
٢٤٢ ـ الموشَّحُ: للمرزباني ـ تحقيق محمد حسين شمس الدِّين ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٤١٥هـ. وطبعة مصر تحقيق محمّد علي البجاوي ـ ١٩٦٥م.
٢٤٣ ـ الموشّىٰ (أو الظَّرفُ والظُّرفاء): لأبي الطَّيب الوشّاء ـ دار صادر ـ بيروت ـ دون تاريخ.
٢٤٤ ـ موسوعةُ التَّاريخِ الإسلامي: لأحمد شلبي ـ مكتبة النَّهضة المصرية ـ القاهرة ـ ط٧ ـ ١٩٨٤م.
٢٤٥ ـ الموضوعات: لابن الجوزي ـ تحقيق عبد الرحمن محمّد عثمان ـ المدينة المنوّرة ـ ١٩٦٦م.
٢٤٦ ـ الموطّأ: للإمام مالك ـ صحّحه ورقمه محمّد فؤاد عبد الباقي ـ دار إحياء الكتب العربيّة ـ القاهرة. وطبعة دار اليمامة. بتحقيق أبي عبد الرحمن الأخضري.
٢٤٧ ـ النجومُ الزَّاهرة في ملوكِ مصْرَ والقاهرةِ: لابن تغري بردي ـ طبعة مصوّرة عن طبعةِ دارِ الكُتب المصرية.

٢٤٨ ـ نساءُ أَهْلِ البيتِ: لأحمد خليل جُمُعَة ـ دار اليمامة ـ دمشق ط٣ ـ ١٩٩٨م.
٢٤٩ ـ نساءٌ مبشَّراتٌ بالجنَّة: لأحمد خَليل جُمُعَة ـ دار ابن كثير ـ دمشق ـ ط٤ ـ ١٩٩٨م.
٢٥٠ ـ نساءٌ منَ التَّاريخِ: لأحمد خليل جمعة ـ دار اليمامة ـ دمشق ـ ط١ ـ ١٩٩٧م.
٢٥١ ـ نِسَاءٌ منْ عَصْر التَّابعين: لأحمد بن خليل جُمُعة ـ دار ابن كثير ـ دمشق ـ ط٣ ـ ١٩٩٨م.
٢٥٢ ـ نِسَاءٌ منْ عَصْر النُّبَّوة: لأحمد بن خَليل جُمُعة ـ دار ابن كثير ـ دمشق ـ ط٣ ـ ١٩٩٨م.
٢٥٣ ـ نَسَبُ قُريش: لمصعب الزّبيري ـ تحقيق ليفي بروفنسال ـ دار المعارف ـ مصر ـ ١٩٥٣م.
٢٥٤ ـ نفحُ الطِّيب من غُصْن الأندلس الرطيب: للمقَّري ـ حقَّقه يوسُف الشَّيخ محمّد البُقَاعي ـ دار الفِكْر ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٨٦م.
٢٥٥ ـ نهايةُ الأَرب في فُنونِ الأَدب: للنُّويري ـ طبعة مُصوَّرة عن طبعةِ دار الكُتب المصريّة.
٢٥٦ ـ نوادِرُ المخطوطاتِ تحقيق عبد السَّلام هارون ـ مطبعةُ البابي الحلبي ـ مِصْر ـ ط٢ ـ ١٩٧٢م.
٢٥٧ ـ نورُ الأَبْصار: لمؤمن الشَّبلنجي ـ مطبعة البابي الحلبي ـ مصر ـ الطبعة الأخيرة ـ ١٩٤٨م.
٢٥٨ ـ الوافي بالوفيات: للصَّفَدي ـ جمعية المستشرقين الألمانيين.
٢٥٩ ـ الوفَا بأحوالِ المصطفى: لابن الجوزي ـ تحقيق مُصطفى عطا ـ دار الكتب العلمّية ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٤٠٨هـ.
٢٦٠ ـ وفاءُ الوفَا: للسَّمهوديّ ـ تحقيق محيي الدِّين عبد الحميد ـ در إحياء التُّراث العربيّ ـ ط٤ ـ ١٩٨٤م.

٢٦١ ـ وفياتُ الأَعيْان: لابن خلّكان ـ تحقيق د. إحسان عبّاس ـ دار صادر ـ بيروت ـ ١٩٦٨م.
٢٦٢ ـ يتيمةُ الدَّهر في محاسنِ أهْل العَصْرِ: للثَّعالبي ـ تحقيق محمّد محيي الدِّين عبد الحميد ـ القاهرة ـ ١٩٦٥م. وطبعاتٌ أُخَر.

* * *

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الأعمال العلمية

للأستاذ: أحمد خليل جمعة

١ ـ رجال مبشرون بالجنة.
٢ ـ نساء مبشرات بالجنة.
٣ ـ نساء من عصر النبوة.
٤ ـ نساء من عصر التابعين.
٥ ـ المبشرون بالنار.
٦ ـ نساء الأنبياء.
٧ ـ فرسان حول الرسول.
٨ ـ رجال من الإسلام.
٩ ـ نساء من الإسلام.
١٠ ـ نساء أهل البيت.
١١ ـ نساء من التاريخ.
١٢ ـ سلسلة «مفاهيم إسلامية»: (التقوى ـ الإحسان ـ البشرى ـ النجاة ـ الفلاح ـ الطاعة ـ التوكل ـ النفقات ـ العدل).
١٣ ـ سلسلة «آداب إسلامية»: (النصيحة ـ الحياء ـ الجار ـ المغفرة ـ الحلم).
١٤ ـ الصبر والصابرون.
١٥ ـ الصدق والصادقون.

١٦ ـ التوبة .

١٧ ـ المناجاة .

١٨ ـ القرآن وأصحاب رسول الله ﷺ .

وسيصدر قريباً بإذن الله تعالى :

* نساء في قصور الأمراء .
* فرسان من عصر التابعين .
* فرسان من التاريخ .
* نساء من الأندلس والمشرق العربي .
* علماء الصحابة .
* المرأة في حياة الأنبياء .
* رجال أهل البيت .
* الطفل في ضوء القرآن والسنة .
* سلسلة «مفاهيم إسلامية» : (الحب ـ الزرق) .

عنوان المؤلف :

الجمهورية العربية السورية

ـ دمشق ـ حرستا ـ حي الشيخ موسى

هاتف (٥٣١٣٠٦٤) ـ (٥٣١٨١١١) .